

تاريخ الأنبياء

تأليف

الخطيب البغدادي

أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي

المتوفى ٤٦٣ هـ

دراسة وتحقيق

آسيا كليبان علي البارح

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4169-4



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

[يوسف: الآية ١١١]

قال الله تعالى في كتابه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه: الآية ٩٩].

وقد قصّ الله على نبيّه ﷺ خبر ما مضى من خلق المخلوقات، وذِكْر الأُمم الماضين، وكيف فعل بأوليائه، وماذا حلّ بأعدائه، وبيّن ذلك رسول الله ﷺ لأُمّته بيانًا شافيًا.

وقد جاء في الذِّكر الحكيم قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: الآية ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: الآية ٧٨].

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بعدة الأنبياء والمرسلين. فعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيرًا».

وفي رواية أبي أمامة، قال أبو ذر: قلت يا رسول الله، كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني (ت ٢٤١ هـ) المسند، مطبعة الحلبي، مصر، القاهرة ١٣١٣ هـ. ح ٢ رقم الحديث (٢٢٣٥١) حديث أبي أمامة الباهلي.



المقـــدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا محمد سيّد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذا كتاب ذكر فيه قصص النبيين وما جرى مجرى ذلك أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى مولد نبيّنا محمد ﷺ والموسوم بـ (تأريخ الأنبياء) عليهم السلام للخطيب البغدادي.

ولقد اهتم المسلمون بالسِّيرة وتفسير القصص القرآني منذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري.

أما تأريخ الأنبياء فقد ورد بعضه في القرآن الكريم وأما تفصيله والتوسّع فيه فتأتي في أخبار الأديان الأخرى وخاصة اليهودية والمسيحية، فكان لا بد في ذلك من الاعتماد على أهل تلك الأديان وخاصة ممّن أسلم منهم: في الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بلِّغوا عنّي ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، وحدِّثوا عنّي، ولا تكذبوا عليّ ومَن كذب عليّ متعمِّدًا فليتبوّأ مقعده من النار»[1].

فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا، فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها، فيجوز روايتها للاعتبار فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بما عندنا، وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال[2].

---

(١) البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري (ت ٢٥٦ هـ). صحيح البخاري: تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، لبنان، بيروت دون تأريخ. ما ذكر عن أحاديث الأنبياء (٥٠) باب ما ذكر عن بني إسرائيل رقم الحديث (٣٤٦١). وأخرجه أحمد بن حنبل ـ المسند. ج ٢ رقم الحديث (٦٤٩٦). دار الفكر.

(٢) ابن كثير: أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، البداية والنهاية تحقيق يوسف الشيخ=

ومن أقدم مَن نقلت عنهم تلك المعلومات عبد الله[١] بن سلام (ت ٤٠ هـ ـ ٦٦٠ م).

ومن المعلوم أن أخبار الأنبياء والأديان السمٰوية السابقة للإسلام كانت معروفة في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

وكان الرسول ﷺ يعرف الكثير من الأخبار الدينية التأريخية، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان نبي الله ﷺ يحدّثنا عن بني إسرائيل حتى نصبح، ما يقوم إلا إلى عظم صلاة[٢].

فإذا كان الله، سبحانه وله الحمد، قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع، وبكتابه عن سائر الكتب، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخلط، وكذب، ووضع ، وتحريف، وتبديل، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير فالمحتاج إليه قد بيّنه لنا رسولنا، وشرحه وأوضحه، عرفه مَن عرفه، وجهله مَن جهله. كما قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «كتابُ الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحُكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل، مَن تركه من جبار قصمه الله، ومَن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله»[٣].

= محمد البقاعي، دار الفكر ـ بيروت لبنان ١/ ٢٩.

(١) عبد الله بن سلام بن الحارث الحبر أبو يوسف الإسرائيلي حليف الأنصار. أسلم وقت مقدم النبي ﷺ المدينة، وكان عالم أهل الكتاب. السيوطي جلال الدين عبد الرحمٰن (ت ٩١١ هـ)، طبقات الحفّاظ مكتبة وهبة شارع الجمهورية ـ بعابدين سنة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م. ص ٧.

(٢) د. محمد نصر مهنا التدوين التأريخي ودور المخطوطات السياسية في العالم الإسلامي، دار الفجر، مصر ١٩٩٦ م، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) أخرجه الدارمي في كتاب: فضائل القرآن، باب فضل مَن قرأ القرآن. (الحديث ج ٢ ص ٤٣٥).

الباب الأول
دراسة المؤلِّف

الفصل الأول

١ ـ الحالة السياسية

عاصَر الخطيب البغدادي أبا العباس أحمد القادر بالله بن إسحٰق بن المقتدر بن المعتضد.

بويع بالخلافة سنة ٣٨١ هـ، وتوفي سنة ٤٢٢ هـ فكانت مدة خلافته ٤١ سنة.

والقائم بأمر الله وَلِيَ الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت بيعته سنة ٤٢٢ هـ ـ ٤٦٧ هـ وكانت مدة خلافته ٤٤ سنة[١]، هما اللذان تولّيا الخلافة في عصر الخطيب ـ على نفوذهما الديني وتقوية صلتهما بالرعية ـ وكلاهما عُرِفَ بالورع والديانة وحُسْن الاعتقاد والعلم بالشريعة[٢].

وكان القادر بالله حازمًا مُطاعًا كريمًا هابَه مَن كانت لهم السيطرة على الدولة من الترك والديلم فأطاعوه وأحبّه الناس فصَفَا له المُلْك ودامت له ٤١ سنة، وهو آخر خليفة من بني العباس تولى الأحكام بنفسه، وكان يجلس في كل يوم اثنين وخميس مجلسًا عامًّا للناس، صنّف كتابًا في الأصول، كان يقرأ في كل يوم جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي وفيه فضائل عمر بن عبد العزيز وتكفير المعتزلة والقائلين بخلق القرآن، وكان كثيرًا ما يلبس لباس العامّة ويخرج يتجوّل في بغداد متفقِّدًا أمور أهلها[٣].

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن، تأريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط ٧ ـ ١٩٦٤ م، مصر ـ القاهرة ٤/٨. محمد الخضري، محاضرات تأريخ الأمم الإسلامية، ط ١٠، مصر ـ القاهرة، ص ٣٩٩ ـ ٤١٠.

(٢) د. أكرم العمري، حياة الخطيب البغدادي، ط ١، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م، دار القلم، دمشق ـ بيروت، ص ١٦.

(٣) الخطيب البغدادي، تأريخ بغداد، ٩/٢٨، ١٤٣.

أما القائم بأمر الله، كان ورعًا عادلًا كثير الرفق بالرعية له فضل وعناية بالأدب والإنشاء، وفي أيامه كانت فتنة البساسيري سنة ٤٥٠ هـ. وحديثها[١] كان البساسيري مملوكًا تركيًا من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة، تقلّبت به الأمور حتى بلغ هذا المقام المشهور واسمه أرسلان وهو منسوب إلى بسا مدينة بفارس[٢] وهي فتنة مدارها بين طغرلبك والبساسيري، وحُمل رأسه إلى دار الخلافة سنة ٤٥١ هـ، غُسِّل ونُظِّف وجُعِل على قناة وطِيفَ به وصُلِبَ قبالة باب النوبي[٢]. فعاشت بغداد ظروفًا قاسية اقتصاديًا واجتماعيًا. فكانت الأزمة المالية بسبب خراب الأراضي الزراعية وظهور الإقطاع العسكري الذي سار عليه البويهيون وكثرة الضرائب التي أثقلت السكان، واضطراب الأمن لكثرة ثورات الجند بغية زيادة مرتباتهم، وازدياد نشاط الشطار والعيارين الذين استغلوا ضعف السلطة للقيام بأعمال السلب والنهب، ومما زاد الطين بلّة قيام البويهيين بتشجيع الخلافات المذهبية بين السُّنَّة والشيعة ببغداد، وضرب عناصر الجيش من الترك والديلم ببعضهم من ناحية أخرى[٣].

ينبغي الاعتراف بالدور الإيجابي للسلاطين السلاجقة الثلاثة (طغرلبك، وألب أرسلان، وملكشاه) في حماية الخلافة العباسية من السقوط على يد الفاطميين، وفي رعايتهم العلوم والآداب والفنون بتألّق اسم وزيرهم نظام الملك مؤسِّس المدارس النظامية ببغداد ونيسابور وغيرهما، تلك المدارس التي أسهمت في إنعاش دراسة العلوم الشرعية في العراق والمشرق[٤].

٢ ـ الحالة الفكرية

نشطت الحركة الفكرية وراجت الثقافة وزخر بلاط هذه الدولة بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم[٥]، أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفِرَق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية وخير مثل لذلك هذه الآثار التي خلفها العلماء من

---

(١) ابن الأثير الجزري، الكامل في التأريخ ٨/ ٣٤٧. أبو الفداء إسماعيل بن علي بن السلطان الملك المؤيد عماد الدين بن الأفضل بن المظفر بن المنصور (ت ٧٣٢ هـ)، التبر المسبوك في تواريخ الملوك تقديم د. محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م، ص (٥٣ ـ ٥٤).

(٢) ابن الأثير الجزري، الكامل في التأريخ ٨/ ٣٤٧.

(٣) عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة.

(٤) عبد المنعم محمد حسنين، سلاجقة إيران والعراق. وحسن إبراهيم حسن، تأريخ الإسلام ٤/ ١ ـ ٥٨.

(٥) د. حسن إبراهيم حسن، تأريخ الإسلام ٤/ ٤٢٠.

السنيِّين والشيعيين وما كان لها من أثر في النهضة العلمية التي يتميّز بها هذا العصر على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكّك وانحلال، وما أصاب الخلافة العباسية من وَهَن وضعف، ولو أن قيام هذه الدول قد ساعد على زيادة الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار العلم تبعًا لذلك[١].

معاهد الثقافة:

١ ـ **المسجد:** كان المسجد أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن، والحديث، والفقه، واللغة، وغيرها من العلوم وأصبح كثير من المساجد مراكز عامّة للحركة العلمية وانصرف بعض فقراء المسلمين لطلب العلم في المسجد النبوي الشريف حيث بنى الرسول الصّفة، وهي مكان مظلّل في شمالي المسجد يأوي إليه فقراء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم لطلب العلم[٢].

وكان المسجد فوق اعتباره، مكان العبادة والمكان الذي يؤمّ فيه الخليفة الناس في الصلاة، مركزًا لإدارة شؤون الدولة أو الولاية، وكان المنبر أشبه بالعرش يلقى منه بيان الخليفة لسياسة الدولة، ويلقي فيه خطبته الأولى ويبيّن فيها سياسته في الحكم، وفي المسجد تُذاع القرارات الهامة التي تتعلق بالصالح العام ويستقبل الخليفة الشعراء ويدبّر شؤون الدولة، والمسجد هذا المكان الذي يتخذه علماء التفسير والحديث مقرًّا لهم، وهو المعهد الذي يتلقّى فيه الأطفال اللغة العربية وأصول الدين، وهو المكان الذي اتخذه القضاة لعقد جلساتهم، بل لقد اتخذ بعض المساجد أماكن يلجأ إليها المسلمون ويصدّون منها الأعداء[٢].

٢ ـ **الكتاب والمدرسة:** الكتاب مشتق من كتب، والمكتب (بضم الميم وسكون الكاف وكسر التاء) أو المُكَتِّب (بضم الميم وفتح الكاف وكسر التاء مع التشديد).

هو الذي يعلِّم التلميذ الكتابة ولم تكن هناك مكاتب خاصة يتلقّى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام. بل كانوا يختلفون إلى المسجد، ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

وإن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ) أسّس المدرستين المشهورتين اللتين تُعرَفان باسمه في بغداد أو نيسابور، وتُعرَف كلٌّ منهما باسم المدرسة النظامية، كما أسّس نظام الملك المدرسة الحنفية ببغداد[٣].

(١) المصدر السابق ٤/ ٤٢٠.
(٢) د. حسن إبراهيم حسن، تأريخ الإسلام ٤/ ٤٢١.
(٣) د. حسن إبراهيم حسن، تأريخ الإسلام ٤/ ٤٢٥.

مكانة بغداد الفكرية:

فأما مكانة بغداد الفكرية فإن تأريخ بغداد للخطيب يعكس مدى نشاط المحدثين فيها، فكان منها أحمد بن حنبل، ويحيىٰ بن معين، في القرن الثالث، والدارقطني في القرن الرابع وأبو بكر البرقاني وأبو القاسم الأزهري والخطيب البغدادي في القرن الخامس، لذلك قصدها طلاب الحديث من أقاصي المشرق والمغرب.

كانت الحركة الفكرية ـ عامّة ـ مزدهرة ببغداد ومما ساعد على ازدهارها وجود المكتبات العامّة والمدارس.

ومن المكتبات الهامّة التي كان الطلاب يرتادونها دار علم الشريف الرضى (ت ٤٠٦ هـ). ودار العلم بالكرخ التي أنشأها الوزير البويهي سابور بن أردشير (ت ٤١٦ هـ) فلما احترقت سنة (٤٤٧ هـ) عند دخول السلاجقة بغداد أوقف غرس النعمة الصابىء (ت ٤٨٠ هـ) مكتبته التي قيل إنها ضمّت ألف كتاب، وقيل أربعة آلاف مجلد[(١)]. أما المدارس التي عُرِفَت في بغداد فهناك المدارس الخاصة بالفقه أو علوم القرآن أو الحديث منذ أواخر القرن الثالث الهجري، وكانت هذه المدارس تتخذ من المساجد مكانًا لها، وقد انتشرت مدارس المساجد في القرن الخامس الهجري، وتوازعتها المذاهب الفقهية الثلاثة: الحنفي، والشافعي، والحنبلي.

وتتميز هذه المدارس عن الحلقات العلمية التي كان العلماء يعقدونها حول أساطين الجوامع بأنها أكثر تنظيمًا واختصاصًا، وقد بلغ عدد المدارس ببغداد في عصر الخطيب تسع عشرة مدرسة منها خمس مدارس للحنفية، وسبع مدارس للشافعية، وسبع مدارس للحنابلة[(٢)].

أُنشئت في عهد ألب أرسلان السلطان السلجوقي مدرسة أبي حنيفة سنة ٤٥٧ هـ التي أصبحت أبرز المؤسّسات التعليمية عند الحنفية، وقد أُلحِقَت بها خزانة كتب سنة ٤٥٩ هـ. وقد ضارعت المدرسة النظامية في أهميتها رغم أن المصادر تكلّمت عن النظامية أكثر لاعتبارات شتّى سياسية وإدارية مما جعل شُهرتها تطغى على مؤسسات العلم الأخرى المعاصرة التي ضحل ذكرها بسبب سكوت المصادر عنها[(٣)].

---

(١) ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ص ٤٥٦.

(٢) جورج مقدسي، مؤسسات العلم الإسلامية ببغداد، مجلة الأبحاث، ٣/ ٣٠٥ ـ ٣٠٩.

(٣) المصدر السابق.

وأما مدارس الشافعية فكان منها مدرسة مسجد عبد الله بن المبارك حيث كان يدرس فيها أبو حامد الإسفراييني، ومدرسة مسجد ابن اللبان، ومدرسة مسجد أبي الطيب الطبري، ومدرسة مسجد أبي إسحٰق الشيرازي، ومدرسة مسجد أبي بكر الشاسي ثم المدرسة النظامية التي أسّسها نظام الملك سنة ٤٥٧ هـ وأُلحِقَت بها خزانة كتب في مختلف العلوم سنة ٤٥٩ هـ. وكانت تدرّس الفقه الشافعي ويسيطر عليها الأشاعرة[١].

الفصل الثاني
سيرة المؤلِّف

المبحث الأول
شخصيته، التعريف به

١ ـ اسمه ونسبه:

أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي بن ثابت.

٢ ـ كنيته ولقبه:

كان يكنى بأبي بكر ويلقَّب بالخطيب البغدادي.

٣ ـ مولده ونشأته:

وُلِدَ في بغداد في جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، يوم الخميس لست بقين من الشهر[٢].

وكان والده خطيب قرية درزيجان من سواد العراق[٣] أحد الأئمة الأعلام، فحضّ ولده أبا بكر على السّماع في صغره فسمع وله إحدى عشرة سنة، ورحل إلى البصرة وهو ابن عشرين سنة، وإلى نيسابور ابن ثلاث وعشرين سنة، ثم إلى أصبهان، ثم رحل في

---

(١) د. أكرم العمري، حياة الخطيب البغدادي ص ٢٣.

(٢) ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١ هـ) وفيات الأعيان لابن خلكان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م، ١/ ٩٢.

(٣) الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) تذكرة الحفّاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان ٣/ ١١٣٦.

الكهولة إلى الشام، وقَدِمَ دمشق سنة خمس وأربعين حاجًّا فسمع خلقًا كثيرًا وتوجّه إلى الحج ثم قَدِمها سنة إحدى وخمسين فسكنها، وأخذ يصنّف كتبه وحدّث بها بتآليفه.

ورحل إلى الدينور والكوفة والريّ وهمدان والحجاز.

٤ ـ شيوخه[١]:

١ ـ أبو عمر بن مهدي الفارسي.

٢ ـ أبو الحسن بن رزقويه.

٣ ـ أبو سعيد الماليني.

٤ ـ أبو الفتح بن أبي الفوارس.

٥ ـ هلال الحفّار.

٦ ـ أبو الحسين بن بشران وغيره ببغداد.

٧ ـ أبو عمر الهاشمي راوي السنن، وجماعة بالبصرة.

٨ ـ أبو بكر الحيري.

٩ ـ أبو حازم العبدوسي وغيره بنيسابور.

١٠ ـ أبو نعيم الحافظ وغيره بأصبهان.

١١ ـ أحمد بن الحسين الكسّار وغيره بالدينور وبالكوفة والري وهمدان والحجاز وقَدِمَ دمشق.

١٢ ـ أبو بكر البرقاني كان شيخه أيضًا سمع منه وروى عنه.

٥ ـ تلاميذه[٢]:

١ ـ أبو القاسم الأزهري.

---

(١) السبكي، تاج الدين تقي الدين عبد الوهاب السبكي المتوفّى ٧١١ هـ، طبقات الشافعية الكبرى، دار المعرفة بيروت لبنان ٣/١١ ـ ١٢.

(٢) ١ ـ السبكي، طبقات الشافعية، ٣/١١ ـ ١٢.
٢ ـ الكتاني المحدّث المتقن مفيد دمشق الصوفي سمع الكثير وألّف وجمع، المتوفّى سنة ٤٦٦ هـ، له ترجمة في: الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣/١١٧٠.
٣ ـ ابن ماكولا النسّابة البغدادي مصنّف (الإكمال)، كان إمامًا عالمًا ثَبْتًا له ترجمة في: الذهبي، تذكرة الحفاظ ٤/١٢٠١.
٤ ـ الحافظ الإمام الثقة مفيد بغداد، ولد بدمشق، وتوفي سنة (٥١٦ هـ).
٥ ـ أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن منصور البغدادي الدقاق، الحافظ القدوة، قدوة في الحديث، له ترجمة في تذكرة الحفاظ ٤/١٢٢٤.

٢ ـ عبد العزيز بن أحمد الكتاني المتوفّى (٤٦٦ هـ).
٣ ـ ابن ماكولا المتوفّى (٤٨٠ هـ).
٤ ـ عبد الله بن أحمد السمرقندي المتوفّى (٥١٦ هـ).
٥ ـ محمد بن مرزوق الزعفراني.
٦ ـ أبو بكر بن الخاضبة المتوفّى (٤٧٨٩ هـ).

المبحث الثاني
مكانته العلمية

كان من كبار الفقهاء تفقّه على أبي الحسن بن المحاملي والقاضي أبي الطيب الطبري وأبي نصر بن الصباغ. وكان يذهب في الكلام إلى مذهب أبي الحسن الأشعري، وقرأ صحيح البخاري في خمسة أيام على كريمة المروزية، وأراد الرحلة إلى ابن النحّاس إلى مصر قال: فاستشرت البرقاني هل أرحل إلى ابن النحّاس إلى مصر أو أخرج إلى نيسابور إلى أصحاب الأصم؟ فقال: إنك إن خرجت إلى مصر إنما تخرج إلى رجل واحد إن فاتك ضاعت رحلتك وإن خرجت إلى نيسابور ففيها جماعة إن فاتك واحد أدركت مَن بقي فخرجت إلى نيسابور، ثم أقام ببغداد وألقى عصا الترحال إلى حين وفاته[١].

سيرته:

كان للخطيب ثروة ظاهرة وصدقات على أرباب العلم دارة يهب الذهب الكثير للطلبة[٢].

وقال غير واحد ممن رافق الخطيب في الحج إنه كان يختم كل يوم ختمة إلى قريب الغياب قراءة ترتيل ثم يجتمع عليه الناس[٣] وهو راكب.

عفّته وعزّة نفسه:

قال الفضل بن عمر الفسوي: كنت في جامع صور عند الخطيب فدخل عليه بعض العلوية وفي كمّه دنانير فقال للخطيب فلان يسلّم عليك ويقول لك اصرف هذا في بعض مهماتك فقال الخطيب: لا حاجة لي فيه، وقطب وجهه فقال العلوي: كأنك تستقله

(١) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٣/ ١٢. (٢) السبكي، الطبقات الكبرى ٣/ ١٣.
(٣) المصدر نفسه ٣/ ١٣.

ونفض كمّه على سجادة الخطيب وطرح الدنانير عليها وقال: هذه ثلاثمائة دينار فقام الخطيب محمرًّا وجهه وأخذ السجادة وصبّ الدنانير على الأرض وخرج من المسجد. قال الفضل: ما أنسى عزّ خروج الخطيب وذلّ ذلك العلوي وهو قاعد على الأرض يلتقط الدنانير من شقوق الحصير ويجمعها[١].

سرّ قبول دعائه:

ويذكر أنه لـمّا حجّ شرب من ماء زمزم ثلاث شربات وسأل الله ثلاث حاجات: الأولى أن يحدّث بتأريخ بغداد، والثاني أن يملي بجامع المنصور، والثالثة أن يدفن إذا مات عند بشر الحافي فحصلت الثلاث[١].

فطنته وذكاؤه:

حُكِيَ أن بعض اليهود أظهر كتابًا وادّعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر وفيه شهادات الصحابة رضي الله عنهم وذكر أنه خط عليّ رضي الله عنه فيه فعرض على الخطيب فتأمله وقال: هذا مُزَوَّر لأن فيه شهادة معاوية وهو أسلم عام الفتح وخيبر فتحت قبل ذلك، ولم يكن مسلمًا في ذلك الوقت ولا حضر ما جرى، وفيه شهادة سعد بن عبادة ومات في بني قريظة بسهم أصابه في أكحله يوم الخندق، وذلك قبل فتح خيبر بسنتين[١].

محنته ببغداد:

شهدت بغداد انقلابًا في السياسة خطيرًا وكادت تصيبه سهامه، لولا أن آثر الهزيمة على شرف الاضطهاد، لئلا يُحال بينه وبين العمل الذي خُلِقَ له.

وقصة ذلك أن رئيس الرؤساء أبا القاسم بن المسلمة كان عقد عهدًا بين الخليفة وطغرلبك لينجي العراق من خطر الفاطميين أعدائهم وأعطى هذا العهد ثمرته من الهدوء، حتى كانت سنة (٤٥٠ هـ) وفيها اضطر طغرلبك إلى الخروج إلى مقاتلة الموصلي، أحد العاصين، وفرغت بغداد من حاميتها وكان أبو الحارث أرسلان البساسيري مقدّم الأتراك ببغداد، قد غادرها.

وجمع حوله من المخالفين ودعا للمستنصر الفاطمي، فلما سمع بخروج طغرلبك، اتجه إلى بغداد ولنستمع الآن إلى الخطيب يقصّ علينا مشاهداته في ذلك. قال: فلما كان يوم الجمعة السادس من ذي القعدة تحقّق الناس كون البساسيري بالأنبار، ونهضنا إلى

(١) السبكي، طبقات ٣/ ١٤.

صلاة الجمعة بجامع المنصور، فلم يحضر الإمام، وأذّن المؤذّنون بالظهر ثم نزلوا من المئذنة، فأخبروا أنهم رأوا عساكر البساسيري حذاء شارع دار الدقيق فبادرتُ إلى أبواب الجامع، فرأيت من الأتراك البغداديين أصحاب البساسيري نفرًا يسيرًا يسكنون الناس، ويغدون إلى الكرخ، فصلّى الناس في هذا اليوم بجامع المنصور ظهرًا أربعًا من غير خطبة... فلما كان يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة دعا البساسيري لصاحب مصر في الخطبة ـ فلما كان يوم الاثنين ٢٨ من ذي الحجة أشهر الوزير على جمل، وطِيفَ به في محال الجانب الغربي ثم صُلِبَ بباب خراسان[١].

وكانت فتنة البساسيري وصلب الوزير ابن المسلمة صديقه واضطهاد بعض الحنابلة للخطيب فتربّصوا به الدوائر، فسنحت لهم الفرصة، فصاروا يؤذونه بجامع المنصور بشتّى الأساليب ويكيدونه بما يعجز ردّه، وهاك بعض ما كانوا يفعلونه: (جاء جماعة من الحنابلة يوم الجمعة إلى حلقة الخطيب بجامع المنصور، فناولوا حدثًا صبيح الوجه دينارًا وقالوا له: قف بإزائه ساعة، وناوله هذه الرقعة فناوله الصبي، وإذا فيها «ما تورع ناقل القصة من ذكره» وكانوا يعطون السقاء قطعة يوم الجمعة، فكان يقف من بعيد بإزائه، ويميل رأس القربة، وبين يديه أجزاء فيبتلّ الجميع فتتلف الأجزاء، وكانوا يطيّنون عليه باب داره في الليل فربما احتاج إلى الغسل لصلاة الفجر فتفوته[٢].

هجرته إلى دمشق:

ويخشى تفاقم الحال، ولا ناصر له، والسلطان بيد مَن لا يأمن على نفسه منه، فيستتر ويخرج من بغداد[٣] يوم النصف من صفر سنة إحدى وخمسين مصطحبًا تصانيفه وكتبه وسماعاته، مُيمِّمًا شطر دمشق ناويًا أن يستوطن بها، وبلغها سالمًا ثم قتل البساسيري، وطِيفَ برأسه ببغداد بعد رجوع طغرلبك إليها ـ وبذلك عادت المياه إلى مجاريها، وكان قد استقر في دمشق واتخذ المئذنة الشرقية من جامعها مسكنًا له، فلم يفكّر بالعودة مع أن دمشق يومئذ تابعة للفاطميين[٤].

محنته الثانية في دمشق:

أقام بدمشق بالمئذنة الشرقية من جامعها وكان يقرأ على الناس الحديث النبوي، وكان جهوري الصوت، يسمع صوته من أرجاء الجامع كلها، فاتفق أنه قرأ على الناس

---

(١) الخطيب البغدادي، تأريخ بغداد ٩/ ٣٩٩.
(٢) يوسف العش، الخطيب البغدادي ص ٣٨.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم ٨/ ٢٦٦.
(٤) العش، الخطيب البغدادي ص ٣٨.

يومًا فضائل العباس فثار عليه الروافض من أتباع الفاطميين، فأرادوا قتله فتشفع بالشريف الزينبي فأجاره ثم خرج من دمشق فأقام بمدينة صور[١]، ثم عاد إلى بغداد.

في مرضه وقف كتبه وفرّق ماله:

ولمّا مرض وقف جميع كتبه وفرّق جميع ماله في وجوه البرّ وعلى أهل العلم والحديث وكان ذا ثروة ومال كثير فاستأذن أمير المؤمنين القائم بأمر الله في تفريقها فأذِنَ له وسبب استئذانه أنه لم يكن له وارث إلى بيت المال[٢].

المبحث الثالث

وفـــاته

مرض في شهر رمضان سنة (٤٦٣ هـ) في نصفه إلى أن اشتد الحال أقعده المرض في منزله مما اضطره إلى أن يوزّع ثيابه ويُوقِف كتبه على المسلمين وتصدّق بجميع ماله وهو مئتا دينار على جميع طلابه وعلماء الحديث والفقراء[٣].

وأوصى أن يُدفَن بجانب قبر بشر الحافي رحمه الله وكان أبو بكر بن أزهر الصوفي قد أعدّ لنفسه قبرًا إلى جانب قبر بشر الحافي وكان يبيت فيه في الأسبوع مرة ويقرأ فيه القرآن كله فسأل المحدثون ابن أزهر أن يؤثرهم بقبره للخطيب فامتنع[٤] فجاء المحدثون إلى أبيه فقال له: أنا لا أقول لك أعطهم القبر، ولكن لو أن بشرًا الحافي في الأحياء وأنت إلى جانبه فجاء أبو بكر الخطيب ليقعد دونك أكان يحسن بك أن تقعد أعلى منه؟ قال: لا، بل كنت أقوم وأُجلسه مكاني[٥].

قال: فهكذا ينبغي أن يكون الساعة! فطاب قلبه وأَذِن لهم[٦].

شيّعه القضاة والخلق، وأمّهم أبو الحسين بن المهتدي بالله، ودفن جنب بشر الحافي بدار حرب[٧].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٨/ ١٣١ ـ ١٣٢. (٢) السبكي، الطبقات ٣/ ١٤.

(٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٤٤. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ٢/ ٣١٢.

(٤) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ٢/ ٣١٢.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان ١/ ٩٣.

(٦) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٤٥، الذهبي، العبر ٢/ ٣١٤.

(٧) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٤٤.

الباب الثاني
دراسة الكتاب

المبحث الأول
مصادر الكتاب (موارده)

لقد استقى المؤلِّف قصص الأنبياء من كتب التفاسير والمفسّرين خصوصًا وأن له مصنّفًا بعنوان (معاني القرآن) أو (معاني التنزيل) وعندما كان يوضح النص يحيله إلى مصنّفه هذا حيث يقول: (لقد بيّناه في معاني التنزيل) صفحة ٥٢، وكذلك يقول: لقد ذكرت معاني الآيات في (معاني القرآن) صفحة ٣٣ وهكذا.

وقد ذكر في كتابه هذا كثيرًا من مُفَسِّري الصحابة والتابعين. أما المُفَسِّرون من الصحابة فمنهم الخلفاء الأربعة، وابن مسعود[1] (ت ٣٢ هـ)، وعبد الله بن عباس[2] (ت ٦٨ هـ)، ومن التابعين وتابعيهم عطاء بن السائب[3] (ت ١٣٦ هـ) وابن إسحٰق[4] (ت ١٥١ هـ)، وابن الكلبي النضر بن محمد بن السائب[5] (ت ١٤٦ هـ) في الكوفة،

---

(١) عبد الله بن مسعود أبو عبد الرحمٰن الهذلي صاحب رسول الله ﷺ وخادمه وأحد السابقين الأولين من كبار البدريين من أدعية العلم (ت ٣٢ هـ)، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ٥.

(٢) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، الإمام البحر ابن عم رسول الله ﷺ حَبْر الأمة ورئيس المفسِّرين دعا له النبي ﷺ أن يفقّهه الله في الدين ويعلّمه التأويل. ترجمان القرآن (ت ٦٨ هـ). السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ١٠.

(٣) عطاء بن السائب بن مالك الثقفي أبو السائب الكوفي ثقة رجل صالح من خيار عباد الله (ت ١٣٦ هـ). السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٦٠.

(٤) محمد بن إسحٰق بن يسار، صاحب المغازي القرشي المطلبي، أحد الأئمة، قال الشافعي: مَن أراد أن يتبحّر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحٰق الخطيب البغدادي أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) تأريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت ١/ ٢١٤.

(٥) له ترجمة في: ابن الأثير الجزري، أسد الغابة ٤/ ٦٢.

ومحمد بن مروان السدي[(١)] (ت ١٨٦ هـ)، ومقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي[(٢)] (ت ١٥٠ هـ)، والضحّاك بن مزاحم الكوفي[(٣)] (ت ١٠٢ هـ)، وابن جرير محمد بن جرير بن يزيد بن كثير أبو جعفر الطبري[(٤)] (ت ٣١٠ هـ)، وابن أبي حاتم أبو محمد بن عبد الرحمـٰن بن إدريس الحنظلي الرازي[(٥)] (ت ٣٢٧ هـ)، وأُبَيّ بن كعب[(٦)] (ت ٢٠ هـ)، وجابر بن عبد الله الأنصاري[(٧)] (ت ٧٨ هـ)، وأبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري[(٨)] (ت ٤٤ هـ)، وعبد الله بن عمرو بن العاص السهمي (ت ٦٣ هـ)، وهو أحد العبادلة الذين استقر عليهم أمر العلم في آخر عهد الصحابة.

وأما المفسِّرون من التابعين الذين اعتمد عليهم في قصصه فمنهم أصحاب ابن عباس وهم علماء مكة المكرّمة شرَّفها الله تعالى ومنهم:

مجاهد بن جبر المكّي[(٩)] (ت ١٠٣ هـ) قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة واعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري، وسعيد بن جبير[(١٠)] (ت ٩٤ هـ)، وعطاء بن أبي رباح المكي[(١١)] (ت ١١٤ هـ)، والشعبي[(١٢)] (ت ١٠٥ هـ)، والحسن البصري[(١٣)]

---

(١) له ترجمة في: السيوطي، طبقات الحفاظ ص ٢٢.

(٢) له ترجمة في: ابن الأثير الجزري، أسد الغابة ٥/ ١٤ ـ ١٧٣.

(٣) الضحاك: له ترجمة في: الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/٣٦٦.

(٤) صاحب التصانيف الكثيرة أحد الأئمة كان حافظًا لكتاب الله، بصيرًا بالمعاني، له تأريخ الإسلام، والتفسير. له ترجمة في: السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٣٠٧.

(٥) له في العلوم ومعرفة الرجال ثقة كان حافظًا زاهدًا، له (الجرح والتعديل) و(التفسير)، السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٣٤٥.

(٦) أبي بن كعب بن عبد ثور، له ترجمة في: ابن الأثير الجزري، أسد الغابة ١/ ١٦٨.

(٧) له ترجمة في: ابن الأثير الجزري، أسد الغابة ٦/ ١٤٢: وهو أبو عبد الله الأنصاري الفقيه، مفتي المدينة في زمانه، حمل عن النبي ﷺ علمًا كثيرًا نافعًا، توفي سنة ثمان وسبعين من الهجرة.

(٨) استعمله النبي ﷺ مع معاذ على اليمن، ثم وَليَ لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الكوفة والبصرة، كان عالمًا عاملًا صالحًا. له ترجمة في: ابن الأثير الجزري علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، لبنان ـ بيروت، ٦/ ٢٩٩.

(٩) مجاهد، أبو الحجاج المخزومي، كان عالمًا بالتفسير. له ترجمة في: الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/ ٩١.

(١٠) قتله الحجاج، له ترجمة في: السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٣١.

(١١) عطاء بن أسلم المكي. له ترجمة في: السيوطي: طبقات الحفاظ، ص ٣٩.

(١٢) الشعبي: عامر بن شراحيل أبو عمر الكوفي. له ترجمة في السيوطي، طبقات الحفاظ ص ٣٣.

(١٣) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري. له ترجمة في: السيوطي، طبقات الحفاظ ص ٢٨.

(ت ١٢١ هـ)، وعبد الله بن سلام الحارث الإسرائيلي الأنصاري[١] (ت ٤٣ هـ)، وعطاء بن أبي سلمة ميسرة الخراساني[٢] (ت ١٣٥ هـ)، ومحمد بن كعب القرظي[٣] (ت ١١٧ هـ)، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي[٤] (ت ٩٠ هـ)، والضحاك بن مزاحم[٥] (ت ١١١ هـ)، وقتادة بن دعامة السدوسي[٦] (ت ١١٧ هـ)، وسفيان بن عيينة[٧] (ت ١٩٨ هـ)، والزهري[٨] (ت ٢٤٢ هـ)، وسلمان الفارسي[٩] (ت ٣٥ هـ) وآخرون.

وكذلك استقى معلوماته من كتب التفاسير:

١ ـ تفسير ابن عباس.

٢ ـ تفسير الطبري.

ومن كتب التأريخ والمؤرِّخين، ذكر كثيرًا عن:

١ ـ ابن إسحٰق لأن الخليفة العباسي المأمون طلب منه أن يدوّن التأريخ بما فيه منذ خلق آدم أو بما أسماه بدء الخليقة أو كتاب الأوائل وعن السيرة النبوية الشريفة وهو من الكتب المفقودة إذ لم تصل إلينا إلا قطعة صغيرة من مغازي الرسول ﷺ.

٢ ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الأخباري (ت ٢٩٢ هـ) في كتابه تاريخ اليعقوبي.

---

(١) عبد الله بن سلام الحبر الإسرائيلي حليف الأنصار وبه نزل قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ [الأحقاف: الآية ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: الآية ٤٣]. كان عالم أهل الكتاب توفي سنة (٤٣ هـ) بالمدينة. له ترجمة في: ابن الأثير ـ أسد الغابة ٣/ ٢٦٤.

(٢) نزل الشام، وأرسل عن جماعة من الصحابة، وعنه أبو حنيفة ومالك. له ترجمة في ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري (ت ٢٣٠ هـ). الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت د.ت ٧/ ١٠٢، السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٦٠.

(٣) له ترجمة في: ابن الأثير الجزري، أسد الغابة ٢/ ٢٥٧.

(٤) قيل عنه ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير، وبعده السدي، وبعده سفيان الثوري. له ترجمة في الذهبي تذكرة الحفاظ ١/ ٦١. ابن حجر العسقلاني. تهذيب التهذيب ٣/ ٢٨٤.

(٥) أبو عاصم كان فقيهًا حافظًا عابدًا متقنًا، له ترجمة في ابن سعد الطبقات ٧/ ٤٩، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ١٥٦.

(٦) أحد الأعلام قال سعيد بن المسيب (ما أتاني عراقي أحفظ من قتادة)، كان أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئًا إلا حفظه. الذهبي، ميزان الاعتدال ٣/ ٣٨٥.

(٧) قال الشافعي (لولا سفيان لذهب علم الحجاز). له ترجمة في: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٩/ ١٧٤.

(٨) فقيه أهل المدينة بلا مدافع. السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٢٠٩.

(٩) مولى رسول الله ﷺ، ابن كثير، أسد الغابة ٢/ ٥١٠.

٣ ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتابه تأريخ الرسل والملوك[١].

وممّن ألّف في قصص الأنبياء كثير من الكُتّاب المعاصرين. غير أن البحث عن موضوع كتابنا هذا والتأكد من عنوانه واسم مؤلّفه أجهدنا وذلك لسقوط الأوراق الأولى من الكتاب التي تدلّل على عنوانه واسم مؤلّفه والمنسوب إلى الخطيب البغدادي هكذا وجدناه، ولكنني لم أجد من خلال دراستي وتتبّعي للكتاب بأن المؤلّف قد ترك أثرًا عن اسمه ولكنني عند دراستي عن الخطيب البغدادي وجدت بأن هناك إشارة إلى أن له مؤلّفات كثيرة تربو على المائة مؤَلَّف من بينها أنه ألّف في (تأريخ قبل الإسلام)[٢]، هذا يعني أنه كتب عن بدء الخليقة وعن الأنبياء والأديان السابقة للإسلام.

المبحث الثاني
منهج الكتاب

١ ـ رتّب المؤلّف الكتاب على شكل أبواب ترتيبًا دقيقًا.

٢ ـ آثر حذف الأسانيد رغبة في الإيجاز، ولو أثبت الأسانيد لطال الكتاب، وبلغ عدة أجزاء وأحيانًا قليلة يذكر السند.

٣ ـ اعتمد على النقل مع ترجيح بعض الروايات. كما في باب زليخا ويوسف.

٤ ـ صفحة ٣٨٩، يعتمد دائمًا في سرد القصة على رواية أهل التفاسير وفي أحيان أخرى يستعين بأهل الأخبار وأحيانًا بأهل التواريخ هذا حسب قوله كما في هذا النص إذ يقول: «هذه رواية أهل التفسير وأما أهل التأريخ فإنهم ذكروا. . . .] الخ حيث يسرد الرواية.

انظر باب ذكر سبأ صفحة ٣٨٧، وفي مواضع أخرى كان يكرر مثل هذا الأمر. وفي جميع أبواب الكتاب على الأغلب، كما ويذكر دائمًا عند سياق الحديث في القصة إذ يقول: [قال بعض أهل التواريخ] كما في صفحة ٣٨٩ على سبيل المثال ولم يقل أهل التواريخ وأشار ببعض لعدم شمولية أهل الأخبار بذلك.

---

(١) إسماعيل باشا بن محمد أمين، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار العلوم الحديثة، بيروت ـ لبنان، ٤/٢٢٨.

(٢) يوسف العش، الخطيب البغدادي مؤرخ، المكتبة العربية في دمشق ١٩٤٥ م، ص ١٨٠.

٥ ـ وينبّه على اختلاف أخبار أهل التواريخ كما جاء هذا نصّه [وأخبار اختلافهم طويلة مذكورة في التواريخ لم نكتبها] صفحة ٣٩٠.

٦ ـ كما يمحص الرواية ويأخذ بأصحها.

٧ ـ أعتقد أن هذا المصنف كان إملاءً من أحد تلاميذه لأنه عند سياق الحديث جاء هذا نصه: [قال المصنّف [أدام الله أيامه] (صفحة ٣٤) أي أن المؤلّف كان يروي والطلبة يدوِّنون ما يذكر.

ـ هناك بعض الإشارات تدلّل على صحة نسبة الكتاب كما في قوله:

ـ ذكرنا هذه المسألة في (معاني القرآن) مما يدل على أن المصنّف له كتاب اسمه (معاني القرآن).

ـ وأحيانًا يقول: قال شيخنا الإمام ولم يذكر مَن هو الإمام كما هو في صفحة (١٩٧) وكذلك في مواضع أخرى وقد يذكر أحيانًا بقوله: لقد بيّناه في (معاني التنزيل).

ـ يعيّن له مؤلف بهذا الاسم.

ـ وأحيانًا عند سرده للرواية يعمّم الخبر ولم يخصّص اقتباسه إذ يقول: (وقال كثير) ولم يذكر أسماءهم، ومرة أخرى يقول: (قال بعض الناس) كما في صفحة ٦٦.

ـ وعند ذكر إبراهيم (عليه السلام) قال: (وقال كثير من أهل الأخبار) ولم يوضح الذين ذكر عنهم وبقي اقتباس النص مجهول الهوية.

ـ وأحيانًا أخرى يقول: (وقال أصحاب الروايات) صفحة ٧١. وكذلك يقول: (قال قوم من أهل الأخبار) صفحة ٧٩. (وقال آخرون) كما في صفحة ٧٩، (وقال الراوي) وفي أحيان أخرى يقول: (قال المفسّرون) صفحة ٨٠ ولم يحدّد أيضًا.

المبحث الثالث
وصف النسخة الخطية

نسخة دار صدام للمخطوطات وهي النسخة (الأم) وهي النسخة الوحيدة إذ لم أستطع العثور على نسخة ثانية. والمحفوظة تحت رقم (٩٢٩٥/١).

أ ـ وجدت الكتاب موسومًا بـ:

«تأريخ الأنبياء للخطيب البغدادي» رحمه الله وقد بدأها في المقدمة بقوله: (بسم الله الرحمـٰن الرحيم) في ذكر خلق آدم (عليه السلام) ـ إلى آخره.

ب ـ واختتم كتابه بالعبارات التالية:

قال: (قد كتبنا من قصص القرآن ما كان من لدن بدء الخلق إلى وقت نبينا محمد ﷺ وعلى موجز من القول إذ الإبلاغ فيها لا يحتمل هذا ونحن الآن مبتدئون بما كان من أمر نبيّنا محمد ﷺ وقصصه، وأخباره مما نطق به القرآن فإنه لا موضع لذكر جميع أخباره وأحواله فإنها تحتاج إلى مجلدات كثيرة نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لكتابة ما نكتبه وينفعنا والمسلمين وهو وليّ التوفيق آمين).

جـ ـ كما وهناك قول للناسخ مكتوب على شكل مثلث هرمي الشكل قاعدته إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل كما هو متعارف عليه في النسخ عند ختام الكتابة جاء فيه: [تمّت الكتابة بعون الله تعالى وحُسْن توفيقه على يد أقل عباد الله تعالى وأحقرهم وأحوجهم إليه الفقير محمد بن الحاج عمر بن الحاج عبد الرحمٰن بن الحاج محمد الأهل المقاديري الحسن كيفي غفر الله تعالى له، ولمن يقرأ في هذا الكتاب ويدعو له وللقارىء والمستمعين ولكل المسلمين أجمعين، وكان الفراغ يوم الأحد وآخر شهر الله المبارك جمادى الأولى سنة ١١٨٥ هـ.

د ـ وقد وجدت هناك أيضًا للناسخ الآخر الذي نسخ هذا الكتاب عن النسخة الأولى إذ يقول:

نقلت هذه النسخة عن نسخة ترى في خزانة كتب المحامي عباس أفندي العزاوي في بغداد وهي في (٦١٣) صفحة، وطول كل واحدة منها ثلاثون سنتيمترًا في عرض عشرين. وفي كل صفحة (١٥) سطرًا، وطول كل سطر (١١) سنتمترًا والخط جليّ سهل القراءة، لكن الناسخ جاهل كردي من حصن كيفا، الذي يسمّيه حسن كيفا ومنه نسبته «والحسن كيفي». وقد مسح أغلب الآي القرآنية، وصحف الأعلام. وحرف الألفاظ عن مواطنها، فجعل المتن وحشيّ المعنى، بعيدًا عن الحقائق، وأزيد على ما تقدم أن النسخة الأصلية منسوبة إلى الخطيب البغدادي من غير دليل يعتمد عليه، لأن صفحات الكتاب الأولى ناقصة وما كان يعرف عنوانه فوضعه صاحبه أو مالكه من عنده ولا دليل هناك على صحة هذا العنوان ولا على نسبته إلى الخطيب، وما عدا هذا النقص في الأول يرى نقص آخر في عدة مواطن في داخله فعوّضت عنه بما ورد في كتاب قصص الأنبياء للثعلبي، والعبارة تكاد تكون واحدة. وفي بعض المواطن نقلت شيئًا عن قصص الأنبياء للكسائي حيث ترى صلة الكلام في هذا الكتاب دون أخيه السابق ذكره.

ثم إنني أصلحت الآيات القرآنية من حفظي ولمزيد التثبت فيها راجعتها في المصحف ليطمئن إليها البال.

وقد فعلت ذلك خاصة في نحو ثلثي هذه النسخة ولعلّي أغفلت عن هذا العمل بعض الإغفال في الثلث الأول وقد تم النسخ في (١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ هـ) الموافق ٢٣ أيلول سنة ١٩٣١ وكان الابتداء به في أول كانون الأول سنة ١٩٣٠ م ولله الحمد أولًا وآخرًا. وأنا الفقير إليه عزّ شأنه عبد الرزاق الملا محمد الحاج فليح البغدادي، الساكن في محلة باب الشيخ.

وقد نسخت هذا الكتاب على نفقة مستنسخها الأب أنستاس ماري الكرملي صاحب مجلة لغة العرب في بغداد.

- تعدّ هذه النسخة من ممتلكات (دار صدام للمخطوطات).

- تتكوّن من (٧٣١) ورقة.

- مسطرتها (١٩ سطرًا) في كل صفحة ومقاسها (٢٠ × ١٥ سنتيمترًا).

- خطها بخط النسخ المألوف، خط جيد.

- تمكّنت من ضبط معظم الأبواب عن طريق الرجوع إلى مظان الكتب وأُمّهاتها وقمت بضبط الأسماء المُبهَمَة للتعرّف عليها وإزالة اللَّبس عنها.

- وجدت استخدام الناسخ لقواعد (الكتابة) سائدة في عصره كإسقاط (الألف الوسطية) من الكلمات مثال (معوية - يقصد بها معاوية) (لقمن - يقصد بها لقمان)، (سفين - سفيان)، (إبرهم - إبراهيم).

- وجدت الناسخ جعل (الهمزة) في مواضع كثيرة ياء، مثل (ماية - مئة) (بيرا - بئرًا) (العجايب - العجائب)، (رايحته - رائحته)، (ذياب - ذئاب).

- وجدت هناك بعض الأخطاء الإملائية فقمت بتصحيحها وأعتقد بأن هناك سهوًا من الناسخ.

- هناك بعض الأخطاء في آيات القرآن قمت بتصحيحها والرجوع إلى السورة ورقم الآية وتثبيتها من القرآن الكريم.

- وفي عدا ذلك فإن النسخة الخطية كاملة ووافية وجيدة، وهي تمثّل النص الكامل الذي وضعه المؤلّف.

أما بالنسبة إلى اسم المؤلّف الخطيب البغدادي على هذا المخطوط الموسوم بتأريخ الأنبياء لا يعتبر دليلًا كافيًا على صحة نسبتها له ما لم تقم القرائن الأخرى إلى جانبه منها دراسة المحتوى والأسلوب.

علمًا بأني دقّقت عن موارد الخطيب البغدادي في كشف الظنون، وابن النديم، والرسالة المستطرفة، ومن خلال دراسة الخطيب البغدادي في كتب التراجم العديدة ذات الاختصاص، وكتاب الأعلام للزركلي، ومعجم المؤلّفين لعمر رضا كحالة، وحياة الخطيب البغدادي للدكتور أكرم العمري، والخطيب البغدادي ليوسف العش، ولم أجد هناك إشارة على كتاب تأريخ الأنبياء غير أني وجدت بأن له كتابات عن الأنبياء.

المبحث الرابع
منهجنا في التحقيق

اعتمدت في تحقيق (المخطوط) على هذه النسخة (الأم) أي نسخة (دار صدّام للمخطوطات) بغداد.

١ ـ ضبطت النص فيما يخصّ الأبواب والتراجم والحوادث بالرجوع إلى أُمهات الكتب المعنيّة بذلك، ثم قابلت (النصوص) بالمصادر المستقاة منها ما تيسر لي، وتدوين الاختلافات في الحاشية.

٢ ـ وجدت أغلب النقول قد وردت (بالمعنى) وليس بالمبنى أو باللفظ ويبدو لي أن (المؤلف) قد أورد ذلك بتصرّف.

٣ ـ خرّجت كل ترجمة رئيسة للشخصيات اعتمادًا على كتب التفاسير والتواريخ والتراجم، والأنساب، والطبقات وغير ذلك مما تيسّر لنا.

٤ ـ أما الأعلام البلدانية، وهي كثيرة نسبيًا، كما ورد ذكرها أوجزنا التعريف بغير المعروف أو المغمور منها. وقد حدّدنا مواضعها ومواقعها على مجموعة المصادر والمعاجم البلدانية نذكر منها:

أ ـ كتاب معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، للبكري، عبيد الله عبد العزيز الأندلسي المتوفّى سنة (٤٨٧ هـ).

ب ـ كتاب معجم البلدان، لياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي المتوفّى سنة (٦٢٦ هـ).

٥ ـ عرّفت بكثير من (المصطلحات) والألفاظ التي وردت في الكتاب.

٦ ـ خرّجت بعد التصحيح لبعض الآيات القرآنية التي ورد ذكرها.

٧ ـ خرّجت الأحاديث النبوية الشريفة اعتمادًا على كتب الحديث.

٨ ـ دقّقت الحوادث بمقابلتها بنصوص كتب التفاسير، والتواريخ.

٩ ـ وجدت الناسخ أهمل كتابة الهمزات من الكلمات والألفاظ المهموزة فمثلًا (أسألك) (أسالك).

١٠ ـ يحذف الناسخ الألف الوسطية مثل: (ثلثين ـ ثلاثين)، (سفين ـ سفيان)، (إبرهم ـ إبراهيم) وغير ذلك. فصحّحنا ذلك دون أن نشير إليها في الهوامش لكثرتها أولًا، لكي لا نثقل الهوامش بأشياء ليست من الأهمية بمكان ثانيًا، فضلًا عن أن هذه الطريقة كانت مألوفة في حينها على ما يبدو لي لكنها تخالف (المألوف) حاليًا، ونحن نسير وفق المنهج العلمي الرصين الذي يؤكد القاعدة الفقهية الشرعية، وحتى اللغوية (بعدم مخالفة المألوف أو الشائع) وبناء على ذلك أثبتنا ذلك الأمر.

بسم الله الرحمن الرحيم

في ذكر خلق آدم عليه السلام ولما اراد الله تعالى خلق آدم عليه السلام
اوحى الى الارض اني اريد ان اخلق منك خلقا فمنهم من يطيعني
ومنهم من يعصيني فمن اطاعني ادخلته جنتي ومن عصاني ادخلته
النار فبكت الارض فانفجرت منه العيون الى يوم القيمة ثم امر الله
تعالى جبرآئيل ان يأتيه بقبضة من الارض فاقسمت الارض بالله
تعالى ان لا يأخذ منها شيئا يكون نصيبا للنار فرجع جبرائيل ولم
يأخذ منها شيئا ثم امر الله بذلك ميكائيل ثم اسرافيل فرجعا ولم
يأخذ منها شيئا ثم امر الله تعالى بذلك عزرائيل فاخذ فلم يلتفت
الى قسمها واتى بها الى الملك الجبار فقال تعالى انت تصلح لقبض
الارواح فسماه ملك الموت وكان ابليس عليه اللعنة قد وطئ الارض
بقدميه فخلقت النفس مما مس قدم ابليس فصارت طباعة مأوى
البشر ومن التربة التي لم تصل اليها قدم ابليس اصل الانبيآء
والاوليآء ثم عجنها بطينة ثم تركها اربعين سنة طينا لازقا
بعضها يلصق ببعضه ثم تركها اربعين سنة صار صلصالا كالفخار
ليعلم ان امره بالصنع والقدرة لا بالطبع والحيلة ثم جعله جسدا
ووضعه بين المكة (١) والطائف (٢) اربعين سنة وقيل ان مطرا على
جسد آدم مآء الحزن اربعين سنة ثم امطر عليه السرور سنة
واحدة

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

واحدة فلذلك كثر الهموم في اولاده وازل ما نفخ الله تعالى
من روحه في دماغ آدم فاستدارت فيه مقدار مائة سنة ثم
نزلت في جوارحه فتعطس وجلس فقال الحمد لله رب العالمين
فاجابه الله ربه يرحمك الله ثم امر الله بخيمة نصبت له
وامر الله الملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا له إلّا ابليس ثم بعد ذلك
ادخله الجنة فكان في الجنة حتى اكل الشجرة فاخرج من الجنة
فهبط الى الأرض الى ان مات آدم فرفعت الخيمة الى السمآء فيروي ان
في السمآء السابعة والله اعلم وهو البيت المعمور الذي ذكره الله
تعالى فقال والبيت المعمور ومعناه المزور مأخوذ من العمرة
وهي الزيارة لا من العمارة وانها بحذاء البيت الحرام وانها يدخل الملائكة
يدخلها كل يوم سبعون الف ملك لا يعودون اليها ابداً ولم يدخلوها
قبل ذلك قط قال فلما رفعت بنى شيث[1] بن آدم على موضعها البيت
الحرام وروي عن ابن عباس[2] رضي الله عنه ان اول من بنى البيت
الحرام آدم عليه السلام .

باب في ذكر احوال آدم عليه السلام بعد التوبة

ويروي ان الله تعالى امره بالمقام بمكة فكان بها الى وفاته وروي
انه امره بالرجوع الى ارض الهند فرجع ومعه حوآء وان الله تعالى
انزل عليه من الانعام ثمانية ازواج كما ذكره فقال (ثمانية

كتبنا هما جميعًا وفي هذه القصة دلالة على حقيقة اسلامهم
لان فيها تعظيم الحرم والبيت وهما من شعائر الاسلام
قال قد كتبنا من قصص القرآن ما كان من لدن بدء الخلق
الى وقت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى موجز من القول
اذ لا بلاغ فيها لا يحتمل كتابنا هذا ونحن الآن مبتدئون
بما كان من امر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقصصه والاخبار
مما نطق به القرآن فانه لا موضع لذكر جميع اخباره واحواله
فانها تحتاج الى مجلدات كثيرة نسأل الله تعالى ان يوفقنا
لكتابة ما نكتبه وينفعنا والمسلمين وهو ولي التوفيق آمين

تمت الكتابة بعون الله تعالى وحسن توفيقه على يد اقل
عباد الله تعالى واحقرهم واحوجهم اليه الفقير محمد
ابن الحاج عمر بن الحاج عبد الرحمن بن الحاج محمد
الاهل القادري الحسن كيفي غفر الله
تعالى له ولمن يقرأ في هذا الكتاب
ويدعو له وللقاري والمستمعين
ولكل المسلمين اجمعين وكان
الفراغ يوم الاحد او آخر شهر
الله المبارك جمادى الاولى
١١٨٥

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

٧٢٢

للناسخ

نقلت هذه النسخة عن نسخة ترى في خزانة كتب المحامي عباس افندي العزاوي في بغداد وهي في ٦١٢ صفحة وطول كل واحدة منها ثلاثون سنتيمترًا في عرض عشرين . وفي كل صفحة ١٥ سطرًا وطول كل سطر ١١ سنتيمترًا والخط جلي سهل القراءة لكن الناسخ جاهل كردي من حصن كيفا الذي يسميه حسن كيفا ومنه نسبته «الحسن كيفي» وقد مسخ اغلب الآي القرآنية ، وصحف الأعلام . وحرف الالفاظ عن مواطنها ، فجعل المتن وحشي المعنى ، بعيدًا ، عن الحقائق . وازيد على ماتقدم ان النسخة الاصلية منسوبة الى الخطيب البغدادي من غير دليل يعتمد عليه . لان صفحات الكتاب الاولى ناقصة وما كان يعرف عنوانه فوضعه صاحبه اوما لكه من عنده ولا دليل هناك على صحة هذا العنوان ولا على نسبته إلى الخطيب . وماعدا هذا النقص في الاول يرى نقص آخر في عدة مواطن في داخله فعوضت عنه بما ورد في كتاب قصص الانبياء للثعلبي والعبارة تكاد تكون واحدة ؟ وفي بعض المواطن نقلت شيئًا عن قصص الانبياء للكسائي حيث ترى صلة الكلام في هذا الكتاب دون اخيه السابق ذكره . ثم إنني اصلحت الآيات القرآنية من حفظي ولمزيد

٧٢٣

التثبت فيها راجعتها في المصحف ليطمئن اليها البال . وقد فعلت ذلك خاصة في نحو ثلثي هذه النسخة ولعلي اغفلت عن هذا العمل بعض الاغفال في الثلث الاول . وقد تم النسخ في ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ الموافقة ٢٣ ايلول سنة ١٩٣١ وكان الابتداء به في اول كانون الاول سنة ١٩٣٠ ولله الحمد اولًا واخرًا . وانا

الفقير اليه عز شأنه عبد الرزاق الملا ابراهيم

الحاج فليح البغدادي

الساكن في محلة

باب الشيخ

وقد نسخت هذا الكتاب على نفقة مستنسخها الاب انستاس

ماري الكرملي صاحب مجلة

لغة العرب في بغداد

صورة الورقة الأخيرة للناسخ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

في ذكر آدم[1] عليه السلام

لما أراد الله تعالى خلق آدم عليه السلام أوحى إلى الأرض: إني أريد أن أخلق منك خلقًا فمنهم من يطيعني ومنهم من يعصيني، فمن أطاعني أدخلته جنّتي، ومن عصاني أدخلته النّار، فبكت الأرض فانفجرت منها العيون إلى يوم القيامة. ثم أمر الله تعالى جبرائيل أن يأتيه بقبضة من الأرض فأقسمت الأرض بالله تعالى أن لا يأخذ منها شيئًا يكون نصيبًا للنار، فرجع جبرائيل ولم يأخذ منها شيئًا، ثم أمر الله بذلك ميكائيل ثم إسرافيل فرجعا ولم يأخذا منها شيئًا، ثم أمر الله تعالى بذلك عزرائيل فأخذ فلم يلتفت إلى قسمها وأتى بها إلى الملك الجبّار فقال تعالى: أنت تصلح لقبض الأرواح فسماه ملك الموت، وكان إبليس عليه اللعنة قد وطىء الأرض بقدميه فخلقت النفس مما مسّ قدم إبليس فصارت طباعة مأوى البشر، ومن التربة التي لم تصل إليها قدم إبليس أصل الأنبياء والأولياء، ثم عجنها بطينة ثم تركها أربعين سنة طينًا لازقًا بعضه يلصق ببعضه ثم تركها أربعين سنة صار صلصالًا كالفخار ليعلم أن أمره بالصنع والقدرة لا بالطبع والحيلة، ثم جعله جسدًا ووضعه بين مكة[2] والطائف[3] أربعين سنة، وقيل إنه أمطر على جسد آدم ماء الحزن أربعين سنة، ثم أمطر عليه السرور سنة واحدة،

---

(١) ينظر خلق آدم في ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ)، المعارف، حققه ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ص ١٤. الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) تأريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة، ١/ ٨٩. ابن الأثير: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ)، الكامل في التأريخ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م، ١/ ٢٦.
ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي (ت ٧٧٤ هـ)، البداية والنهاية تحقيق صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة الطبع ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م، ١/ ٧.

(٢) مكة: بيت الله الحرام، إنما سميت مكة لازدحام الناس بها، ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦ هـ)، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٥/ ١٨١.

(٣) الطائف: الطائف بالغور من القرى، والطائف هو وادي وَجّ وهو بلاد ثقيف. المصدر السابق ٤/ ٨.

فلذلك كثر الهموم في أولاده وأول ما نفخ الله تعالى من روحه في دماغ آدم فاستدارت فيه مقدار مائة سنة ثم نزلت في جوارحه فتعطّس وجلس فقال: الحمد لله ربّ العالمين فأجابه الله ربه يرحمك الله، ثم أمر الله بخيمة نصبت له وأمر الله الملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا له إلّا إبليس، ثم بعده أدخله الجنة فكان في الجنة حتى أكل الشجرة فأخرج من الجنة. فهبط إلى الأرض إلى أن مات آدم فرفعت الخيمة إلى السماء فيروى أنها في السماء السابعة والله أعلم، وهو البيت الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [الطُور: الآية ٤] ومعناه المزور مأخوذ من العمرة وهي الزيارة لا من العمارة وأنها بحذاء البيت الحرام وأنها حجّ الملائكة يدخلها كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليها أبدًا ولم يدخلوها قبل ذلك قطّ، قال: فلمّا رفعت بنى شيث[1] بن آدم على موضعها البيت الحرام، وروي عن ابن عباس[2] رضي الله عنه أن أوّل من بنى البيت الحرام آدم عليه السلام.

باب في ذكر أحوال آدم عليه السَّلام بعد التوبة

ويروى أن الله تعالى أمره بالمقام بمكة فكان بها إلى وفاته، وروي أنه أمره بالرجوع إلى أرض الهند فرجع ومعه حوّاء وأن الله تعالى أنزل عليه من الأنعام ثمانية أزواج كما ذكره فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣] إلى آخر الآيات، وأنزل عليه من آلات الحديد فيما رواه أهل الأخبار العلاة والمطرقة والكلبتين. وذلك لأنه لا يمكن عمل الحديد إلّا بهذه الثلاثة ثمّ عرّفه جبرائيل حجر الحديد حتى اتخذ منه واستخرج الحديد وعمل منه ما احتاج إليه من الآلات، فأوّل ما عمل من الحديد سكّينًا ثم فأسًا ثم تنورًا من حديد يخبز فيه وعلّمه جبرائيل بإذن الله

---

(١) شيث: شيث بن آدم، وقيل شيث هبة الله، ثاني انتقال الذرية الطاهرة، المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١/ ٣٢.

(٢) ابن عبّاس: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، أبو العباس الهاشمي، الإمام البحر، عالم العصر ابن عم رسول الله ﷺ دعا له النبيّ ﷺ أن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق الشيخ علي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان ٣/ ٢٩١. الذهبي: أبو عبد الله شمس الدين بن قايماز (ت ٧٤٨ هـ)، العبر في خبر من غبر، حققه أبو هاجر محمد السعيد البسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ١٩٤٨ م. ١/ ٧٦. ابن حجر: أبو الفضل شهاب الدين، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني، مطبعة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى مصر القاهرة د.ت ١/ ٣٢٢.

الحراثة حتى حرث وبذر. وروي أنه لما أتاه ببذر الحنطة قال: أآكله؟ قال جبرائيل: لا، بل احرثه. فلما حرثه نبت قال: أآكله خضرًا؟ قال: لا، حتى خرجت السنبلة فقال: أآكله؟ قال: لا، فلما حصده قال: أآكله؟ قال: لا، وأمر بِدِيَاسَتِهِ وتنقيته، فلما نقّاه قال: أآكله؟ قال: لا بل اطحنه وعلّمه الطحن برحاءِ اليد فلما طحنه قال: أآكله؟ قال: لا، وأمره حتى عجنه، قال: أآكله؟ قال: لا، ثم أمره بالخبز فخبزه، فلما أخرجه من التنور قال: أآكله؟ قال: لا بل اصبر عليه حتى يبرد وعلمه النسج أيضًا وعلم حوّاء الغزل فأخذ آدم من صوف النعجة فغزلته حوّاء ونسج آدم حتى اتخذ لنفسه جبّة من صوفٍ ولحوّاء درعًا وخمارًا من صوفٍ، ولما عالج آدم الشقاء والكدّ في طعامه ولباسه قال لحوّاء هذا من جنايتك عليّ، ولقد كان الله قال لنا: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: الآية ١١٧] فهذا هو الشقاء الذي نعالجه، والله أعلم.

باب في ذكر الميثاق شأنه ووقته

قال بعض أهل الأخبار: إن الله تعالى لما أدخل الروح في آدم أخرج ذريته من صلبه وأخذ عليهم الميثاق ثم ردّهم إلى صلبه ودفعه إلى الجنة، وذكروا أن حوّاء ولدت له بطنًا في الجنّة توأمين وهما قابيل وأخته اقليما ويقال إن اسمها قين في التوراة. وقال الأكثرون: لا بل كان أخذ الميثاق بعد خروج آدم من الجنة وهذا أولى عندنا من حيث إنه لو كان الله أخذ الميثاق على بني آدم قبل دخوله الجنة لكان آدم قد عرف أنه يخرج من الجنة وأنه يموت ولا يخلّد فيها فكان لا يطيب له عيش فيها وأيضًا لكان لا يغترّ بقول إبليس حين قال له: إنك إذا أكلت من هذه الشجرة خلّدت في الجنّة، ولم تمت وقد ذكرنا هذه المسألة في معاني القرآن، ثم اختلف الناس في موضع إخراج الله ذرية آدم من صلبه، فقال بعضهم: إنّه كان بوادٍ يقال له الرُّحبان بينَ مكة والطائف ويقال: لا، بل بوادٍ يقال له: بطن نعمان[1] قريبًا من مكة وقال آخرون: كان أخذ الميثاق بأرض الهند بوادٍ يقال له رحبان بضم الراء، قالوا: وذلك أن الله تعالى أراه نورًا فاتّبع النور حتى وصل إلى هذا المكان فنام هنالك نومةً، فاستخرج الله ذريته من صلبه في نومته، فأمّا ابن عبّاسٍ قال: مكان أخذ الميثاق ما بين مكّة والطائف والله أعلم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] الآية. قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنه إن الله تعالى مسح

---

(١) نعمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون، وهو واد، وهو بين مكة والطائف. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ٢٩٣.

ظهر آدم فأخرج من صلبه كل من هو كائن منهم إلى يوم القيامة. قال المصنّف أدام الله أيّامه: لم يرد ابن عباسٍ بقوله: مسح ظهر آدم أن الله لمسه، تعالى الله عن ذلك، وإنما أراد الله أن يخرج ذريته من صلبه إخراجًا رفيقًا على حسب أن لا يضرّه ولا يؤلمه، ذلك كما يمسح الماسح ظهر إنسان رفقًا. قال: فكانوا كهيئة الذرّ يعني في الكثرة، ويقال: في صغر الجسم، فأمّا في الهيئة فكانوا على هيئة الناس، وروي عن أبي موسى[1] الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام وأهبطه إلى الأرض فقال له: يا آدم! قال: لبيّك يا ربّ، قال: من خلقك؟ قال: أنت خلقتني. قال: فمن ربّك؟ قال: أنت ربّي، قال: فآخذ عليك الميثاق؟ قال: نعم» فأخرج الحجر الأسود من الجنّة بياضه كبياض الثلج ونوره كنور الشمس ولما مسّته أيدي المشركين فاسودّ لما استشفى به ذو عاهة إلّا شفاه الله فقال لآدم: امسح يدك على الحجر فمسح يده عليه، ثم قال له: اسجد لي إن كنت من الصادقين، فخرّ لله ساجدًا. قال: ثم أخرج الله ذريته من ظهره فبدأ بالأنبياء وبدأ منهم بمحمدٍ ﷺ فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: الآية ٧] فقال لمحمّدٍ ﷺ لما أخرجه من ظهر آدم، يا محمّد، فقال: «لبيّك يا ربّ، قال: من خلقك؟ قال: أنت خلقتني، قال: فمن ربّك؟ قال: أنت ربّي، قال: فاسجد لي إن كنت صادقًا فخرّ لله ساجدًا، فقال: آخذ عليك الميثاق، قال: نعم يا رب، قال: امسح يدك على الحجر فمسح يده عليه ثم أخذ من صلبه النبيين» قال: فقال لهم يا معشر أنبيائي ورسلي قالوا: لبّيك يا ربّنا، قال: من خلقكم قالوا: أنت يا ربّنا، قال: فمن ربّكم قالوا: إنك أنت ربنا، قال: فاسجدوا لي إن كنتم صادقين فخرّوا لله ساجدين. قال لهم: آخذ عليكم الميثاق قالوا: نعم، قال: فامسحوا أيديكم على الحجر فمسحوا أيديهم عليه، فقال: وهذا رسولي محمّد ﷺ أبعثه في آخر الزّمان لتجدونه في الكتب التي أنزلها عليكم لتؤمنن به ولتنصرنه قالوا: ففعل، قال: امسحوا أيديكم لأجله على الحجر ففعلوا، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨١] بأنه رسولي قال: ثم أخرج ذرية

(١) أبو موسى الأشعري: هو عبد الله بن قيس، استعمله النبيّ ﷺ مع معاذ على اليمن، ثم ولي لعمر الكوفة والبصرة، وكان عالمًا صالحًا تاليًا لكتاب الله، إليه المنتهى في حسن الصوت بالقرآن. مات سنة (٤٢ هـ) له ترجمة في ابن الأثير الجزري، أسد الغابة ٦/٢٩٩.

آدم من صلبه، فقال لهم: يا بني آدم، قالوا: لبّيك يا ربّنا، قال: من ربّكم؟ قالوا: أنت ربنا قال: فمن خلقكم؟ قالوا: أنت خلقتنا، قال: ألست بربكم، قالوا: بلى فأقرّوا له بالربوبيّة قال: فاسجدوا لي، إن كنتم صادقين، فسجدوا له إلّا الكفّار والمنافقين صارت في أصلابهم كالصّياصي لا يطيقون السجود، ثم قال لهم: آخذ عليكم الميثاق، قالوا: نعم، قال: فامسحوا أيديكم على الحجر فمسحوا، ثم قال: يا آدم ارفع رأسك وانظر فرفع رأسه فرأى ذرّيته على صورهم فرأى فيهم الأنبياء مثل السرج يزهرون ورأى العلماء مثل الكواكب يتلألؤون ورأى أصحاب اليمين في مثل بياض البيض ورأى أصحاب الشمال مثل سواد القير ورأى فيهم الغنيّ والفقير والقويّ والضعيف والصحيح والمبتلى والمؤمن والكافر، فقال: إلـهي من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، قال: فمن هؤلاء مثل السرج؟ قال: الأنبياء من ذريتك، قال: فمن هؤلاء مثل الكواكب؟ قال: العلماء من ذريتك وهم ورثة الأنبياء قال: فمن هؤلاء في بياض البيض؟ قال: هؤلاء أصحاب اليمين خلقتهم سعداء، قال فمن هؤلاء في سواد القير؟ قال: أصحاب الشمال خلقتهم أشقياء، قال: يا ربّ لو شئت لساويت بين خلقهم أجمعين. قال: يا آدم إني حميد أحبّ أن أُحْمد فلذلك جعلتهم أصنافًا ليشكروني على ما أَكْرَمْت به من أكرمته، ثم قال: يا آدم إني خلقت السماء وخلقت لها أهلًا وخلقت الأرض وخلقت لها أهلًا وخلقت الجنة وخلقت لها أهلًا، وخلقت النار وخلقت لها أهلًا، قال: ثم يميزهم صنفين عن يمين العرش وعن يسار العرش ويقال عن يمين آدم، وعن يساره ثم قال هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي، قال: ثمّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ [مريَم: الآية ٥٦] (إدريس)[1] هو جدّ نوح واسمه آخنوخ أي آخنوح بن مهيدهل بن برذ بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم عليه السلام سمّي إدريسًا لكثرة درسه الكتب وكان خيّاطًا وهو أوّل من خطّ بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وكان من قبله يلبسون الجلود وأول من اتخذ السلاح وقاتل الكفّار وأول من نظر في علم الحساب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: الآيتان ٥٦، ٥٧] يعني الجنة وقيل: هي الرفعة بعلو الرتبة في الدنيا وقيل: إنه رفع إلى السماء الرابعة، روي عن النبي ﷺ أنه رآه في السماء الرابعة ليلة المعراج وكان سبب رفع

---

(١) إدريس عنوان توضيحي. وإدريس: وهو آخنوخ هذا هو عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب، وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام. ابن كثير، البداية والنهاية ١/١٥٨.

إدريس ما قاله كعب[١] وغيره أنه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال: يا ربّ أنا مشيت يومًا فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحدٍ اللّهم خفّف عنه من ثقلها وحرّها فلما أصبح وجه الملك من خفة الشمس وحرّها ما لا يعرف فقال: يا ربّ ما الذي قضيت فيه؟ قال: إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرّها فأجبته فقال: رب اجعل بيني وبينه خلّة، فأذن له حتى أتى إدريس فكان سأله إدريس فقال له: إني أُخبِرْت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي فأزداد شكرًا وعبادةً. فقال الملك: لا يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها، لكن أنا أكلّمه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك الموت فقال: لي إليك حاجة قال: ما هي؟ قال: صدّيق لي من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخر أجله، فقال: ليس ذلك إليّ ولكن إن أحببت أعلمته فنتقدم في نفسه. قال: نعم فنظر في ديوانه فقال: إنك كلمتني في إنسانٍ ما رأيته ميتًا أبدًا، قال: وكيف قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس فإني أتيتك وتركته هناك، قال: فانطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء. فرجع الملك فوجده ميتًا واختلفوا فيه أنه حيّ في السماء أم ميّت فقال قوم: هو حيّ، وقالوا أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في الأرض وهما الخضر وإلياس واثنان في السماء وهما إدريس وعيسىٰ صلوات الله عليهم أجمعين قال وهب[٢] كان يرفع لإدريس في كل يوم من العبادة بمثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه فعجب منه الملائكة واشتاقه ملك الموت فاستأذن ربه في زيارته، فأذن له فأتاه في صورة إنسانٍ وكان إدريس يصوم الدهر، فجاءه وقت إفطاره فدعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل ففعل ذلك ثلاثة أيّام فأنكره إدريس، فقال له ليلة الثالثة: إني أريد أن أعلم من أنت؟ قال: أنا ملك الموت استأذنت ربّي أن أصحبك قال لي: إليك حاجة؟ قال: ما هي؟ قال: أن تقبض روحي، فأوحى الله تعالى إليه أن أقبض روحه فقبضها وردها الله تعالى إليه بعد ساعةٍ قال له ملك الموت: ماذا قصدت في قبض روحك. قال: لأذوق كرب الموت وغمّته فأكون أشدّ استعدادًا له، ثم قال إدريس: إنّ لي إليك حاجة أخرى، قال: وما هي؟ قال: أن ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى

(١) كعب بن مانع، وهو كعب الأحبار، يكنى أبا إسحٰق، أدرك عهد النبيّ ﷺ ولم يره، كان إسلامه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ابن الأثير الجزري، أسد الغابة ٤/ ٤٦٠.

(٢) وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني الذّماري، أبو عبد الله الأبناوي، مات سنة (١١٦ هـ) بصنعاء. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي (ت ٩١١ هـ)، طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، شارع الجمهورية بعابدين، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م ص ٤١.

الجنّة والنار فأذن الله تعالى له في رفعه، فلمّا قرب من النار قال لي إليك حاجة أخرى، قال: وما تريد؟ قال: تسأل مالكًا حتى يفتح لي أبوابها فأَرِدَهَا ففعل، ثم قال: فكما أريتني النار فأرني الجنّة، فذهب إلى الجنة فاستفتح ففتح أبوابها فأدخله الجنة ثم قال له ملك الموت: اخرج لتعود إلى مقرّك فتعلّق بشجرة، وقال: ما أخرج منها فبعث الله تعالى حكمًا بينهما فقال له الحكم: ما لك لا تخرج قال: لأن الله تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عِمـرَان: الآيـة ١٨٥]. وقـد ذقـتـه وقـال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريَم: الآية ٧١] وقد وردتها وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٤٨] فلست أخرج فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت بإذني دخل الجنة وبأمري لا يخرج منها فهو حيّ هناك. فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريَم: الآية ٥٧] الصّدف إذا جاء المطر يرفع إلى وجه البحر ويفتح فاه فما يقع فيه من المطر صار لؤلؤًا قال الضحاك[1]: كانت الأرض خضرةً مونقةً لا يأتي ابن آدم شجرة إلا وجدها وعليها ثمرة وكان ماء البحر عذبًا وكان الأسد لا يقصد البقر والغنم، فلما قتل قابيل هابيل قشعرت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر رعافًا وقصدت الحيوانات بعضها بعضًا وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بُعِثَ عليه شيطانان أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزال يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت ثم قرأ رسول الله ﷺ: «الأنبياء لا تبلى» وكانوا أولاد آدم يطوفون بآدم حرمةً له وكانوا لا يدعون وَلدَ قابيل أن يقربوا منه وبذلك كان وصّاهم آدم، قال: فأتى إبليس قابيل وَولْدَهُ. وقال: هل تريدون أن أصنع لكم على صورة أبيكم مثل جسده الميت فتطوفوا به أيضًا، قالوا: نعم، فصوّر لهم صورةً مثل صورة جسد آدم فوضعوها وطافوا بها واستبشروا، فلمّا طال الزمان اتخذ كل قوم منهم لأنفسهم في ناحيتهم صورة مثل ذلك فلما امتدّ الزمان عبدوها فذلك أول عبادة الأصنام وقيل لا بل كان بين آدم وإدريس أقوام صالحون يستجاب دعاؤهم وهم (ودّ وسواعٌ ويغوث ويعوق ونسر)[2] فكلّ من مات منهم ميّت اتخذ أهله على مثال صورته شيئًا ليسكنوا

---

(١) الضحاك: أبو عاصم الضحاك بن مخلد بن الضحاك الشيباني توفي سنة (٢١٢ هـ). السيوطي طبقات الحفاظ ص ١٥٦.

(٢) ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرٌ، كانوا قومًا صالحين، ماتوا في شهرٍ فجزع عليهم ذوُو أقاربهم فقال رجلٌ من بني قابيل: «يا قوم! هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صُورهم، غير أنّي لا أقدرُ أن أجعل فيها أرواحًا؟ قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صُورهم، ونصبها لهم. فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعىٰ حوله حتى=

إليه، ولم تكن الصور محرّمة في ذلك الوقت، فلما طالت المدّة وانقرض الأوائل جاء إبليس إلى الأواخر. وقال: هذه آلهة ينبغي أن تعبد فحملهم على عبادتها وبقيت تلك الأصنام إلى وقت نوح فذلك قوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: الآية ٢٣] قالوا: ولما كان الغرق غرقت هذه الأصنام حتى استخرجها إبليس بعد ذلك ودفعها إلى الناس ليعبدوها فكانت وَدٌّ لقبيلة كَلبٍ[(١)] وسواعٌ لهذيلٍ[(٢)] ويغوث ويعوق ونسرٌ لقبائل اليمن[(٣)] وكان يغوث لمذحج[(٤)] ويعوق لقضاعة[(٥)] ونسرٌ لحمير[(٦)] إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام والله أعلم كل ذلك قد روي. وأمَّا عبدة النيران فإن إبليس جاء لولد قابيل وقال لهم أتدرون لم قُبِلَ قربان هابيل ولم يقبل قربان قابيل أبيكم، قالوا: لا، قال: لأنّ هابيل كان يعبد النّار ولا يعبدها أبوكم فلذلك قبلت النّار قربانه فحملهم على عبادة النار فمن ذلك ظهرت عبادة النيران وفي وقت إبراهيم حين ألقي في النار فلم تحرقه فجاء إبليس إلى الناس وقال: إنما لم تحرقه النار لأنه كان يعبدها فحملهم على عبادة النّار وقيل: إن الله خوّف الناس على ألسنة الرسل بالنار فجاءهم إبليس وقال: من أراد أن لا تحرقه النار

= القرن الأول، وعملت على عهد بردى بن مهلايل بن قينان بن آنوشر بن آدم، ثم يرجون شفاعتهم فعبدوهم، وعظم أمرهم واشتد كفرهم. فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام فدعاهم فكذبوه، فرفعه الله إليه مكانًا عليًا. ابن الكلبي: هشام بن محمد بن السائب أبو المنذر (ت ٢٠٤ هـ) الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م ص ٥١ ـ ٥٢.

(١) كلب: بفتح الكاف وسكون اللام وفي آخرها باء موحدة هذه النسبة إلى قبائل. ابن الأثير الجزري/ اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت ٣/ ١٠٤.

(٢) هذيل: بضم الهاء وفتح الذال وبعدها لام، هذه النسبة إلى هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وأكثر أهل وادي نخلة بالقرب من مكة هذيل، المصدر السابق ٣/ ٣٨٣.

(٣) اليمن: البلد المعروف الذي كان لسبأ، فإنما سمي باليمن لأنه عن يمين الكعبة، البكري، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت.

(٤) مذحج: بفتح الميم وسكون الذال وكسر الحاء المهملة، وفي آخرها جيم ـ هذه النسبة إلى مذحج ـ وهو قبيلة كبيرة من اليمن. ابن الجزري/ اللباب في تهذيب الأنساب ٣/ ١٨٦.

(٥) قضاعة: بضم القاف وفتح الضاد المعجمة وفي آخرها عين مهملة هذه النسبة إلى قضاعة، شعب عظيم يشمل قبائل كثيرة، منهم كلب، وبلى، وجهينة وغيرها. ابن الأثير الجزري، اللباب ٣/ ٤٣.

(٦) حمير: بكسر الحاء وسكون الميم وفتح الياء المثناة من تحتها، وفي آخرها راء هذه النسبة إلى حمير، وهو من أصول القبائل التي باليمن، ابن الأثير الجزري.

فليعبدها فحملهم على عبادتها والله أعلم وقيل: لا، بل إنّ زِرَادشت[١] صاحب دين المجوسيّة لما ادّعى النبوة عند بشتاسف الملك وكان أصل دينه الزندقة فحملهم على عبادة النار وقال إن الله تعالى أخبرني أن من عبدها لم يعذّبه الله تعالى بها في جهنّم والله أعلم.

(١) زرادشت: ولد في بلاد مادي، مصلح الديانة القديمة في إيران ومنشىء الطائفة المجوسية عاش حوالي (٦٦٠ ـ ٥٨٣ ق.م) فردينان توتل، المنجد في الأدب والعلوم، معجم لأعلام الشرق والغرب، الطبعة (١٧) سنة ١٩٥٦ م ص ٢٣٣.

بـــاب
في ذكر هاروت وماروت[1]

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٢] قال أهل الأخبار: إن الله لما رفع إدريس من الأرض وأدخله الجنّة قالت الملائكة: ما بال هذا الخاطىء ابن الخاطىء بين الملائكة الذين لم يذنبوا قطّ فأوحى الله تعالى إليهم أنكم قد عيّرتم بني آدَم وإنكم لو كنتم بمنزلتهم لفعلتم مثل فعلهم فتخيّروا من شئتم فاختاروا ثلاثة نفر من أفاضلهم عزّا وعزايا وعزائيل فقال الله لهم: إني أهبطكم إلى الأرض لتحكموا بين الناس بالحقّ وتخالطوهم في الأكل والشرب والشهوات، وقال: إني آمركم أن تعبدوني وتقيموا الحدود، ونهيتكم على أن لا تشركوا بي شيئًا ونهيتكم عن القتل وشرب الخمر والزّنا قالوا: نعم، فأهبطهم الله وخالطوا الناس وركّب فيهم الشهوة وكانوا يقضون بالنهار ويرجعون إلى السماء بالليل، فإذا رجعوا إلى السماء كانوا في حكم الملائكة وإذا هبطوا إلى الأرض كانوا في حكم بني آدم وطبائعهم كطبائع بني آدم ويقال: لا بل عزائيل عرف أنها الفتنة استعفى ربه فعفا الله تعالى عنه وبقي صاحباه، فبينما هما كذلك إذ جاءتهما امرأة من أجمل الناس يقال لها بالعربيّة زهرة وبالسريانية ناهيد وبالفارسيّة بيدُخْت فجاءت مزيّنة ومشوّفة متطيّبة فوقعت في أنفسهما فكتم كل واحد منهما شأنه عن صاحبه ثم قالا لها أين منزلتك؟ فأخبرتهما فقالا لها: ارجعي يومك هذا حتى ننظر في أمرك، فلما قاما من مجلسهما ذهب كل واحد منهما سرًّا دون صاحبه حتى اتفقا على الباب فأخبر كل منهما صاحبه بما في نفسه، واستأذنا عليها فأذنت لهما فذكرا لها ما في أنفسهما قالت: أنتما على غير ديني فادخلا في ديني واسجدا لصنمي حتى أطيعكما فقال أحدهما لصاحبه: إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فلا سبيل إلى الشرك قالت: فإن أبيتما فإنّ لي جارية حسناء فأنا أزينها لكما فشأنكما لها فقالا: بل نريدك، قالت: أمّا إذا أبيتما فإنّ عندي

---

(١) انظر تفسير الآية في: القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري، أبي عبد الله (ت ٦٧١ هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ط ١، ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م، ١/ ٢٩ ـ ٣٩.

خمرًا فاشربا منها، فقالا: هذا أهون وفي رواية أنها سألتهما أن يعلّماها الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فلم يفعلا وقالا: لا سبيل إلى ذلك فلما شربا الخمر وسكرا وفعلا جميع ما سألتهما قال: ومرّ رجل ببابها ويقال كان ملك أتاهم في صورة سائل قال إنه كان رجلًا قال فإن تلك المرأة قالت لهما إنه رآكما وهو يخبر الناس بشأنكما فقاما وقتلاه ومن قال: إنه كان ملكًا فقصداه بالقتل فطار إلى السماء من بين أيديهما قال وعلّماها الاسم الذي يصعدان به إلى السماء قال وهمّت أن تصعد فصعدت ومسخت كوكبًا في السماء قال: وقد قال بعض الناس إن كوكب الزهرة المعروفة هي تلك وروي ذلك عن عمر بن الخطاب وعن علي رضي الله عنهما وقال شيخنا الإمام قدس الله روحه إن الزهرة المعروفة هي من الكواكب المديرة التي علّق بها نظام أمر العالم وهي قد خلقت مع الشمس والقمر وسائر النجوم لا بل تلك المرأة مسخت كوكبًا وكان اسمها زهرة. فغلط من غلط فظن أنها هذه ثم إنّ الملكين لما أفاقا من سكرهما ندما وأيقنا بالهلكة وإن الله تعالى قال لملائكته انظروا إلى من اخترتم من بينكم فنظروا وقالوا يا ربّنا كنت أعلم بعبادك قال فمن ذلك اليوم جعلت الملائكة تستغفر لبني آدم قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: الآية ٧] ثم اختلف الرواة فقال بعضهم: إنهما فعلا ذلك وإدريس عليه السلام في الأرض فأتياه وقالا له: اشفع لنا إلى الله فقال: أفعل، ولكن كيف أعلم أنه أجيب لي فقالا له: إن رفعت رأسك من سجودك ودعائك ونحن عندك فقد استجيب لك وإن لم نكن عندك فقد هلكنا قال: فسجد إدريس ودعا لهما فبعث الله ملائكة حتى ذهبوا بهما إلى بابل[1] وقال آخرون بل إنهما لما أفاقا من سكرهما جاء جبريل من عند الله وهما يبكيان فبكى معهما وقال لهما: إن ربّكما يخيركما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقال قوم: إنما أوحى الله بهذا إلى إدريس حتى خيرهما بين العذابين، وقال بعض أهل الأخبار إنهما كانا في زمن سليمان وهو الذي دعا لهما والله أعلم، فلمّا خيرهما الله تعالى قالا الدنيا منقطعة زائلة والآخرة دائمة باقية فاختارا عذاب الدنيا فهما في غار جبل ببابل ويقول الناس إنه جبل دنباوند فأما الله تعالى فيقول ببابل وهما معلّقان يعذّبان طرفي النهار قال أهل الأخبار إن الله عزّ وجلّ ليشدّد عليهما في كل يوم أو كل أيّام شهوتهما فيكون ذلك عليهما أشدّ من سائر العذاب، وإنهما سألا جبرائيل أن يعلمهما شيئًا يقولانه إذا اشتدّت عليهما الشهوة فتهون عليهما فعلمهما كلمة يقولانها فتسكن شهوتهما أيامًا فذلك

(١) بابل: بكسر الباء: اسم ناحية منها الكوفة، والحلة ينسب إليها السحر، والخمر. ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٣٠٩.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: الآية ١٠٢] وقد ذكر معاني الآيات في معاني القرآن، وروي أن رجلًا طلب السحر فتعلّمه ثم مات وخلف ابنًا له فطلب السحر أيضًا فَدُلَّ على شيخ ساحر فجاءه فانتسب له معرفة السحر، فقال له: لا يتمّ لك هذا إلّا بلقاء الملكين هاروت وماروت فانطلق به حتى أتيا غارًا بين جبلين فدخلاه فقال له الشيخ: إيّاك أن تذكر الله إذا رأيتهما أو تكلّمهما وإن سألاك وأدخله في غارٍ بين جبلين وحذّره إلى سبعمائة مِرقاةٍ فسمع دويًا منكرًا فإذا بهما معلّقين ولهما أجنحة وعيناهما يتوقدان فلما رآهما لم يملك إلا أن قال لا إلـه إلا الله محمد رسول الله فانتفض الملكان وقالا له: يا فتى إنا لم نسمع بهذه الكلمة منذ دهرٍ فهل يقول أهل الأرض هذه؟ قال: نعم، فقالا: مرحبًا بك فما جاء بك قال: لأمر أذهبه الله عني قال: فوعظاه وخوفاه وقالا: قد قرب وقت فرحنا وقد قربت الساعة فرجع الفتى تائبًا والله أعلم.

بـــاب
في ذكر نوحٍ النَّبي عليه السَّلام[1]

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾[2] وإن إدريس لما رفع إلى السماء كان بعده ابنه متوشلخ بن أختوخ فقام بطاعة الله تعالى فلما أدركته الوفاة أوصى إلى ابنه الملك فقام بأمر الله فولد له نوح عليه السلام فنبّأه الله وأرسله إلى خلقه، وكان أول مرسلٍ بعث بالشريعة بعد آدم ونسخ الله بشريعته شريعة آدم فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا كما ذكره الله تعالى في كتابه وقد روت الرواة أنه ولد في حياة آدم في الألف الأول من الدنيا التي هي سبعة آلاف سنة وبعث في الألف الثاني منها، وقد مضى صدر من الألف الثاني وهو ابن أربعمائة سنة وخمسين سنة فدعا قومه ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا وعاش بعد هلاكهم خمسين سنة فذلك ألف سنة وأربعمائة وخمسون سنة. ويقول بعض الناس إن عمره كلّه كان ألفًا إلا خمسين عامًا وقال آخرون: بعث وهو ابن خمسين سنة، ودعا قومه ألفًا إلا خمسين عامًا وعاش بعد قومه مائتي سنة فعمره كله ألف ومائتا سنة والله أعلم. وكان نوح رجلًا طويلًا آدِم واسع العينين دقيق الساعدين والساقين، كثير لحم الفخذين، ضخم السّرّة، كثير شعر الرأس واللحية وأنه لما بعثه الله تعالى كذّبه قومه وآذوه أشدّ الأذى فصبر على أذاهم أشدّ الصبر وأحسنه ولم يَلْقَ نبي من الأنبياء من قومه ما لقي نوح، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «رحم الله أبي نوحًا كان غواة قومه يثوبون عليه كل يوم عشر مرّات فيضربونه حتى يغشى عليه فإذا قام قال: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون وحتى كانوا

---

(١) في أحداث نبيّ الله نوح عليه السلام ينظر المسعودي، مروج الذهب ١/ ٣٤، الطبري، تأريخ الأمم والملوك ١/ ١٧٩، ابن الأثير/الكامل في التأريخ ١/ ٦١.

(٢) جاء في المخطوط (لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه) والصواب ما أثبتناه. سورة نوح، الآية: ١، وجاء في سورة هود، الآية: ٢٥ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾. وورود الآيتين صحيح، ولكن لماذا لم يستشهد المؤلف في بداية الآية التي في سورة نوح المسماة على اسمه واستشهد بسورة هود؟

يخنقونه فيغشى عليه». وكان نوح عليه السلام يدعوهم ليلًا ونهارًا سرًّا وجهارًا كما أخبر الله عنه: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ إلى آخر الآية في سورة نوح ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾[1] [الآيتان ٥، ٦] حتى إنه كان يكلم الرجل فيقول له: إن لي معك كلامًا ثم يقول في أذنه: قل لا إلـه إلا الله، فلما علموا بذلك لم يلتفت إليه أحد فكان يأتي أبوابهم بالليل ويقول: يا فلان، فإذا أجابه صاحب الدار قال له: قل لا إلـه إلا الله، قال: واشتد عليه البلاء وانتظر القرن بعد القرن حتى مضت ثلاثة قرون[2] لكل قرن ثلاثمائة سنة ويروى أكثر من ذلك، وكان كل قرنٍ أخبث ممن قبله حتى إن الرجل كان يوصي ولده عند وفاته ويقول: احذر هذا المجنون. وهذا الشيخ الضّال فإن آبائي أخبروني أن هلاك الناس يكون على يده وحتى يحمل الرجل ولده فيأتي به إليه ويقول: احذر هذا الشيخ بعدي ثم ناظروه بما ذكره الله تعالى في كتابه عنهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ إلى قوله: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: الآيات ٢٧ ـ ٣٢] وبما في سائر الآيات في القرآن وعن ابن عبّاس رضي الله عنه أن نوحًا كان يضرب حتى يظن أنه قد مات فيُلَفّ في لُبَّادٍ فإذا أفاق قام يدعوهم ويروى أن رجلًا جاءه بابنه والرجل شيخ يتوكأ على عصاه، فقال: يا بنيّ احذر هذا الشيخ فقال الصبي: يا أبتِ ادفع إليّ عصاك فأخذ عصاه وضرب نوحًا بها حتى شجّه، ويقال: رماه بحجر فشجّه فلمّا رأى نوح ذلك قال: يا ربّ ما يُصْنَع بي فاهدِ قومي واهدِ عبادك فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه وقال: يا نوح ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: الآية ٣٦]، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3] [نوح: الآية ٢٦] إلى آخر الآية، فاستجاب الله تعالى دعاءه وأمره بصنعه الفلك، قال: يا رب وما الفلك؟ قال: فأنزل الله تعالى عليه جبرائيل حتى أخبره كيف يصنع الفُلْك، قال: يا ربّ وأين الخشب؟ فأمر الله تعالى غرس الشجرة حتّى كملت في عشرين سنة، ويقال: أربعين سنة. فلما تمت نزل عليه جبرائيل عليه السلام وقدّر له تقديرة وكان نوح يعرف النجارة ففتحها هو وولده سام وحام ويافث، ويقال إنه استأجر أُجَراء يعملون له، قال الله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾

---

(١) جاء في المخطوط (ولا يزدهم دعائي إلا فرارًا) والصواب ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ أي الصواب ما أثبتناه.

(٢) قرن: أهل زمان واحد، قيل هو مأخوذ من الاقتران فكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم يقال وهو على قرني أي على سني وعمر [مائة سنة] أمة بعد أمة [الوقت من الزمان]. لويس معلوف، المنجد ص ٦٢٥ باب (قرن).

(٣) جاء في الأصل (يا رب لا تذر) والصواب: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ. . .﴾ [نوح: الآية ٢٦].

[هود: الآية ٣٧]، وقال: ويصنع الفُلْك ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ [هود: الآية ٣٨] وجعلوا يقولون: ما تصنع؟ قال: سفينة. قالوا: وما السفينة؟ قال: بيت أجلس فيه فأنجو من الغرق. قالوا: أفتجعل للماء إكَافًا؟ وقالوا: وأين الماء الذي يجري عليه سفينتك؟ قال: سيكون. قال: فعملها وجعلها ثلاثة أطباق، وكان طول السفينة ثمانين ذراعًا وعرضها خمسون ذراعًا، ويقال: كان طولها في الأرض ثلاثمائة ذراع، ويقال: ستمائة ذراع وعرضها ستون ذراعًا وسُمكها في الهواء ثلاثون ذراعًا وكانت من خشب الدّلب، ويقال: من خشب الساج، ويقال: من خشب الشمشاد وكان الله أمره أن يطليه بالقار داخلًا وخارجًا ولم يكن في الأرض قار، ففجّر الله له عينًا منه تغلي حتى طلى به السفينة وجعل لها ثلاثة أبوابٍ فكان الطبق الأعلى لبني آدم والأوسط للطيور والأسفل للسِّباع والدواب والبهائم وحمل الذّر مع بني آدم لضعفها فلا يطأ الدواب. وقال وهب: كان الطبق الأسفل لجميع الدواب والطيور، والأوسط للطعام والأمتعة، والأعلى لنوح وللناس. قال الله تعالى: ﴿ٱحْمِلْ[1] فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هُود: الآية ٤٠] وجعل فيها من كل جنسٍ من الحيوانات ذكرًا وأُنثى وحمل من جميع أصناف الحبوب والنبات والأشجار وكان معه من الناس في قول بعضهم ثمانون نفسًا من الذين آمنوا به، ويقال: سبعون وكان نوح وبنوه الثلاثة ونساؤهم ويقال: إن الله حشر له الحيوانات كلها والطيور حتى أخذ من كل نوع زوجين ويقال: إن الماعزة استعصت عليه فضرب في ذنبها فلذلك بدا حياؤها وأطاعته النعجة فمسح ذنبها وستر حياؤها، وحمل نوح جسد آدم معه في السفينة لما كان من وصيّة آدم بذلك لبنيه وجعله حاجزًا بين الرجال والنساء، ويقال: إنه لما أدخل الدواب السفينة كان آخر الدواب دخولًا الحمار فلما قال نوح: ادخل جاء إبليس فتعلّق بذنبه فلم يقدر الدخول فدفعه نوح، وقال: ادخل وإن كان معك شيطان فدخل ودخل معه إبليس فلما رآه نوح قال: يا عدو الله من أدخلك؟ قال: أنت حين قلت للحمار ادخل وإن كان معك الشيطان، قال: اخرج عني، قال: دعني فإني مُنظَر فأمره أن يقعد على خيزران السفينة ويقال إن الشياطين لما رأت الطوفان طارت بين السماء والأرض وهلك كثير منهم وكان الله تعالى قد قال لنوح عليه السلام: إن آية الطوفان أن يفور التنور. فقال بعض الرواة إنّ الماء أوّل ما فار من عين بناحية الجزيرة يقال لها عينٌ وردت من بلدة رأس العين ومن هنالك ركب نوح السفينة. وقال بعضهم: فار من تنّور نوح في

(١) في الأصل (فاحمل فيها) والصواب ما أثبتناه ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا﴾.

الموضع الذي به مسجد الكوفة[١] اليوم، واختلفوا في التنور. فقال قوم: التنور وجه الأرض، فقال بعضهم: هي التنور الخابزة ويقال: إنها التنور التي عملها آدم من الحديد توارثها وُلْده حتى صارت إلى نوح عليه السلام وقيل: بل كانت تنورًا في دار نوح يخبز فيها قالوا: وكانت ابنته تخبز ذلك اليوم الذي فارت بالماء وجاءت ابنته وأخبرته، ويقال إن نوحًا كان عند دكان الخبّاز فسخر منه الخباز فقال له: أين هذا الماء الذي تواعدنا به، ومن أين يأتي؟ فقال له نوح: من تنورك هذا ففارت التنور بالماء ثم إن الله تعالى فجّر الأرض عيونًا وفتح أبواب السماء بماءٍ منهمر فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر فالتقى الماء الماء ماء الأرض وماء السماء على أمر قد قدر وكانت القطرة من المطر مثل القربة ولم يبق على وجه الأرض موضع قدمٍ إلا وقد ظهر هنالك عين ماءٍ وجعل الماء يزداد وركب نوح السفينة وقال لابنه: يا بنيّ اركب معنا وقال: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: الآية ٤١] فلمّا ركبوا وركبها جميع أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: الآية ٤٠] وهي امرأته الكافرة وابنه الكافر ويقال اسم ابنه كان كنعان ويقال يام، فلمّا قال لابنه: ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود: الآيتان ٤٢، ٤٣] وركب نوح السفينة لعشرٍ مضين من رجب وخرج منها يوم عاشوراء لتمام ستة أشهر ويروى أن السفينة ابتدأت من الكوفة ورأس العين وسارت فلما بلغت موضع البيت طافت به سبع مرّات ثم مضت وكانت الشمس لا تطلع لمكان الغيم فأعطاه خرزتين إحداهما سوداء والأخرى بيضاء، فإذا أمسوا غلب سواد هذه على بياض هذه وإذا أصبحوا غلب بياض هذه على سواد هذه حتى كانوا يعرفون الليل والنهار. وسارت السفينة إلى اليمن ثم إلى الحبشة[٢] ثم إلى ناحية الروم ثم إلى أرض الشام راجعة فمن زعم أن الماء كان في جميع الأرض فإنه يقول إنها دارت على الأرض كلّها حتّى رجعت إلى ناحية الجزيرة ومن قال الماء لا يجاوز عقبة همذان[٣]

---

(١) الكوفة: بالضم: المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، وسميت الكوفة، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤/ ٤٩٠.

(٢) الحبشة: بالتحريك والشين معجمة، درب الحبش بالبصرة، في خطة هُذيل نسب إلى حبش، أسكنهم عمر (رضي الله عنه) بالبصرة، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ٢١٣.

(٣) همذان: بالتحريك، والذال المعجمة وآخره نون سميت بهمذان بن الفلوج بن سام بن نوح فتحت همذان بعد مقتل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ٤١٠.

قال إنما رجعت من الشام[١] إلى الجزيرة[٢] وذكر أنهم كانوا في السفينة فخاف البهائم الأسد فألقى الله عليه المليلة حتى اشتغل بنفسه وأن الفأر تناسلت في السفينة فأذّت الناس فأمر الله نوحًا فمسح جبهة الأسد فعطس فخرج من منخريه هرّتان ذكرًا وأنثى فسكنت الفأر من خوفهما وأنه كثرت النجاسة في السفينة فأذت الناس، فأمر الله نوحًا فمسح ظهر الفيل فخرج من دبره خنزيران فأكلا النجاسة والروث وأنه كان نهى جميع الحيوانات عن النكاح في السفينة فلم يعصه إلا الكلب فغمزت عليه الكلبة حتى ظهر أمرها، فذلك لا يخفى أمرها قطّ وذكر أنه كان من ابتداء فورة الماء وبين أن حمل السفينة أربعون يومًا ثم جعل يزداد حتى جاوز الجبال ويقال إنه كان فوق كل جبل قدر ثلاثين ذراعًا ويقال أربعين ذراعًا ويقال خمسة عشر ذراعًا قال: فلمّا أراد الله أن يتم ذلك الأمر أمر السماء حتى كفّت ماءها والأرض فبلعت ماءها فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: الآية ٤٤] فبلعت الأرض ماءها وارتفع ماء السماء ليرجع إلى مكانه فنودي: إنك رجس فامكث في الأرض فبقي هنالك ونتن فآذى الخلق فبعث الله ريحًا حتى صيّرته بحارًا، وصار رعافًا مالحًا لا نفع فيه ثم أول ما ظهر رؤوس الجبال وتطاولت الجبال كلها لتستقر عليها السفينة وتواضع الجوديّ[٣] فجعله الله قرارًا للسفينة قال الله تعالى: واستوت على الجوديّ وهو جبل بناحية الجزيرة ويقال بأرض الموصل[٤] فكان علامة نوح في مفيض الماء العلامة التي سماها الناس قوس قزح وقد نهى النبي ﷺ أن يقال قُزَح وقال قزح اسم الشيطان فلما ظهر ذلك في السماء عرف نوحٌ أن الماء قد غاض ففتح

---

(١) الشام: بفتح أوله، وسكون همزته، فيها أمهات المدن منبج، وحلب، وحماة، وحمص، ودمشق، والبيت المقدس، والمعرة وفي الساحل إنطاكية، وطرابلس، وعكا، وصور، وعسقلان وغير ذلك. ياقوت الحموي/ معجم البلدان ٣/ ٣١١.

(٢) الجزيرة: وهي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام تشمل ديار مضر وديار بكر، وسميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ١٣٤.

(٣) الجودي: ياؤه مشددة: هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل عليه استوت سفينة نوح، عليه السلام، لما نضب الماء. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ١٧٩.

(٤) الموصل: بالفتح، وكسر الصاد، المدينة المشهورة العظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان، وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة. والعراق وقيل وصلت بين دجلة والفرات، وقيل لأنها وصلت بين بلد سنجار والحديثة، وهي مدينة قديمة الأس على طرف دجلة ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى. معجم البلدان، ياقوت الحموي ٥/ ٢٢٣.

بابًا من أبواب السفينة وبعث الغراب ليأتيه بالخبر وقال أريد منك كفيلًا فكفله الدّيك فطار الغراب فرأى جيفة فوقع عليها الغراب فلم يرجع إلى نوح فلذلك أبقى الديك في البيوت بسبب الكفالة ولا يطير كسائر الطيور، ثم إنّ نوحًا أرسل بعد ذلك الحمامة فذهبت ورجعت إليه في منقارها ورق الزيتون فعلم نوح أن رؤوس الأشجار قد ارتفعت عن الماء ثم بعثها بعد ذلك بأسبوع ويقال بعشرة أيام فرجعت وقد وضعت رجليها في الطين فعلم نوح أن الماء قد غاض عن وجه الأرض وظهر الطين ويقال: إن نوحًا دعا على الغراب حين خالفه بالنّفار عن الناس، فلذلك صار أشدّ الطيور نفارًا وحذرًا ودعا للحمامة بالمحبّة في النّاس والأنس بهم ويقال: إن الطوق الذي في عنقها ممّا جلا به الله بدعاء نوحٍ وإن نوحًا مسح رجليها حتى احمرّتا زينة لها والله أعلم. وخرج نوح من السفينة على الجبل ومكثوا أيامًا ثم نزلوا إلى قرار الأرض وإن نوحًا لما خرج من السفينة وأخرج من فيها لم يفقد شيئًا إلا قضيب الكرم ويقال حبّة العنب فأرسل رسولًا إلى السفينة ليطلبها له فذهب الرسول ولم يجد فرجع فقام نوح ليطلبها فقال له جبرائيل أين تذهب فقال: فقدت قضيب الكرم فأطلبه، قال: اجلس فقد سرقه إبليس، فجاء وقال: نعم هو عندي، ولكني أريد أن تقاسمنيه وتجعل لي فيه نصيبًا، فأبى نوح ذلك، فقال له جبرائيل عليه السلام: اجعل له فيه نصيبًا قال نوح: له عشرة ولي الباقي، قال جبرائيل: أحسن وأنت محسن، قال نوح: له خمسة ولي الباقي، قال جبرائيل: أحسن وأنت محسن، قال: له أربعة ولي الباقي، قال جبرائيل: أحسن وأنت محسن، قال نوح: له ثلاثة ولي الباقي، قال جبرائيل: أحسن وأنت محسن، قال نوح: له نصفه ولي الباقي، قال جبرائيل: أحسن وأنت محسن، قال نوح: له ثلثاه ولي الثلث، قال جبرائيل: حسبه فلذلك لا يطيب العصير ما لم يذهب ثلثاه الذي هو نصيب الشيطان قال ثم إن نوحًا غرسه فنبت فجاء إبليس فنفخ فيه فيبس فحزن نوح لذلك، فجاءه إبليس في غير صورته فسأله عن حزنه فأخبره به، فقال: أنا ملك من الملائكة وأسألك عن شيء إذا فعلته صلحت قال: وما ذلك؟ قال: تأخذ أسدًا وخنزيرًا وثعلبًا فتذبحها وتسقي الحبة من دمائها ففعل نوح ذلك فنبت إلا أنه اختلفت ألوانها وكانت العنب قبل ذلك كلها بيضًا فدخل السكر في مائه من تلك الدماء فأوحى الله إلى نوح: إن ذلك عدوّ الله الذي أمرك بما فعلت فاقلعها واغسلها سبع مرات ثم اغرسها ففعل فنبت فذلك إذا شرب الإنسان من مائه غيّث غيث الثعاليب ثم يتكبّر في نفسه كالأسد ثم يقع على الأرض وقوع الخنزير.

قال وروى أبو عبد الله في تحريم المسكر أنّ الشيطان وجد حبّة عنب فرفعها وضمن لها أن يسقيها كلما عطشت فلمّا كان في المفازة عطشت وسألته الماء فلم يجد فاستقبله ثعلب فأخذه وذبحه وسقاها من دمه ثم عطشت ثالثة فلم يجد الماء فأخذ خنزيرًا فذبحه وسقاها من دمه، فلذلك يختلف حال السكران كما ذكرنا، والله أعلم، أي ذلك كان، وإن نوحًا لما هبط من الجبل بأمر الله كما ذكره الله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هُود: الآية ٤٨] الآية نزل هو ومن معه بقرية بنوها تسمى اليوم سوق الثمانين لبناء القوم إياها وهم ثمانون نفسًا ويقال إن الوَبَاء أهلكهم جميعًا فلم يبق إلا نوح وبنوه الثلاثة ونساؤهم والناس كلهم من أولاد هؤلاء الثلاثة، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٧٧] وإن نوحًا غرس الأشجار وزرع الزروع فأنضجت الثمار في ساعتها وطابت لهم المعيشة فأوحى الله تعالى إليه أني إنما أهلكت من أهلكت لأنهم كفروا بي قد حلفت بعزّتي وجلالي أن لا أعذّب بعد اليوم خلقًا من خلقي بالطوفان فسرّ بذلك نوح ثم إنّ نوحًا قسم الأرض بين بنيه الثلاثة فجعل الشام والجزيرة واليمن وجزيرة العرب إلى العراق وفارس إلى المشرق من وسط الأرض لابنه سام وهو كان أكبرهم وأفضلهم، وجعل المغرب[1] والسواحل والزنج[2] والحبشة والهندَ والسند[3] وبلاد السودان لابنه حام وجعل بلاد الصين[4] والترك[5] والصقالبة[6] لابنه يافثٍ فمن ولد سامِ العرب كلّهم وفارس كلّهم والروم كلهم ومن في وسط الأرض ومن ولد حام السودانَ كلهم، ومن ولد يافث الترك والصقالب والخزر ويأجوج ومأجوج قال أهل الأخبار وإنما وقع السواد في ولد حامٍ من حيث إنّ نوحًا ذات يوم شرب عصيرًا ونام فكشفت عورته فرأى ذلك ابنه حامٌ فضحك ولم يستر عورة أبيه وعلم أخواه فأقبلا ومعهما ثوب

---

(١) المغرب: بالفتح ضد المشرق وهي بلاد واسعة، آخر حدود إفريقيا وتدخل فيها الأندلس. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ١٦١.

(٢) الزنج: بضم أوله وسكون ثانيه، وآخره جيم من قرىٰ نيسابور. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣/ ١٥٣.

(٣) السند: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره دال مهملة بلاد من بلاد الهند وكرمان وسجستان، المصدر السابق ٣/ ٢٦٧.

(٤) الصين: بالكسر، وآخره نون، بلاد في بحر المشرق مائلة إلى الجنوب وشماليها الترك. المصدر السابق ٣/ ٤٤٠.

(٥) الترك: تركستان وهو اسم جامع لجميع بلاد الترك، المصدر السابق ٢/ ٢٣.

(٦) الصقالبة: بلاد بلغار وقسطنطينية وتنسب إليهم الخرم من أبناء يافث بن نوح عليه السلام. المصدر السابق ٣/ ٤١٦.

وهما يمشيان على عقبهما معرضين حتى ألقيا الثوب على عورته فلمّا استيقظ نوح علم بذلك فدعا على ابنه حام فاسودّ لونه ولون ولده ويقال لم يسودّ لونه ولكنه قرب امرأته فولدت له ولدين ذكرًا وأنثى أسودين فاستنكر ذلك وأخبره إخوته فقالا له ذلك دعوة أبيك، فامتنع حام من امرأته مدة طويلة ثم واقعها فولدت له غلامًا وجارية مثل الأولين فعلم حام أنه لا ردّ لقضاء الله.

وعن وهب بن منبّه قال لما نُضِبَتِ المياه ونبت الشجر واستقر النّاس جاء إبليس إلى نوح عليه السلام وقال له: إن لك عندي يدًا عظيمة فاسألني ما شئت فوالله لا أخونك ولا أغشّك ولا أكذّبك فلم يسأله نوح فأوحى الله إليه أن كلّمه واسأله فإني سأنطّقه بالحق. فقال له نوحٌ: أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك ولجنودك على ضلالتهم وهلاكتهم قال له إبليس: إذا وجدناه حريصًا شحيحًا جبانًا عجولًا تلقفناه تلقف الكرة لأنه إذا كان كذلك سمّيناه شيطانًا، قال فقال له نوح: يا عدوّ الله فما التي زعمت أني اصطنقيها[1] إليك فوالله إني لأبغض مسرّتك قال إبليس: إنك دعوت على أهل الأرض بالهلاك فألحقتهم في ساعة واحدة بالنار فأرحتني منهم ولولا دعوتك لاشتغلت بهم دهرًا طويلًا فهذه يدك عندي قال فتأسّف نوح على دعوته، فهذا مجموع قصة نوح وكلهم من ولد سام بن نوح وولد نوح كانوا أنبياء فولد إرم عوص وولد عوص عاد بن عوص بن آدم فقبائل عادٍ من ولد عاد بن عوص وهم الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه حيث يقول: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: الآية ٦٥]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: الآيات ٦ - ٨]، وكان لسام ولد كثير فمنهم إرم بن سام بن نوح وسائر ما في القرآن من ذكر عادٍ.

(١) كذا بالأصل.

بـــاب
في ذكر حديث عَادٍ وشأنهم[1]

قال محمد بن إسحٰق وسائر أصحاب الأخبار وأهل التفسير إنّ عادًا قوم عرب يتكلّمون بلسان العربيّ وكان الله تعالى قد أعطاهم بسطةً في الخلق قال الله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً﴾[2] [البَقَرَة: الآية ٢٤٧] فكان الرجل منهم يبلغ طوله مائة ذراع وأقصر مَن يكون منهم ستين ذراعًا وكانت منازلهم بالأحقاف[3] وهي الرمال فيما بين حضرموت[4] واليمن كلّه إلى عمّان[5] وكانوا قد فشوا في الأرض وقهروا الناس بفضل قوّتهم حتى قالوا: مَن أشدّ منّا قوّة؟ وكانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها فمنها صنم يقال له صمود والآخر يقال له صد والآخر يقال له الهناة وغير ذلك، فبعث الله إليهم هودًا[6] النبي عليه السلام وهو هود بن عبد الله بن رماح بن جاوث بن عاد بن عوص بن آدم وكان هود رجلًا، آدم كثير الشعر حسن الوجه ولم يكن أحد من الأنبياء أشبه بآدم منه فأمرهم بتوحيد الله وعبادته ونهاهم عن ظلم الناس قال: ولم يأمرهم على لسانه إلا بهذا فدعاهم إلى الله تعالى فكذبوه حتى جادلوه، كما ذكره الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وسورة هود وغيرهما من القرآن ولم نكتب ذلك فإن نصّ القرآن ناطق به،

---

(١) ذكر التفاصيل في ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ١٨٩.

(٢) في الأصل (زادكم بسطة) والصواب ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً﴾.

(٣) الأحقاف: جمع حقف من الرمل، والعرب تسمي الرمل المعوج حِقافًا، وأحقافًا، وادٍ بين عُمان وأرض قهرة، وهي رمال مشرفة على البحر من أرض اليمن، ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ١١٥.

(٤) حضرموت: بالفتح ثم السكون، وفتح الراء والميم، ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، ولها مدينتان يقال لإحداهما تريم وللأخرى شبام. المصدر السابق ٢/ ٢٦٩.

(٥) عمّان: بالفتح ثم التشديد، وآخره نون بلد في طرف الشام كان قصبة أرض البلقاء، المصدر السابق ٤/ ١٥١.

(٦) هود: نبيّ الله (عليه السلام) ورد ذكره في سورة هود، آيات: ٥٠، ٥٨، ٦٠، ٨٩، والشعراء، آية: ١٢٤، الأعراف، آية: ٦٥، محمد إسماعيل إبراهيم ـ معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ص ٥٥٨. ومن أراد زيادة في التفاصيل ينظر ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ١٨٨.

وكذلك نفعل في سائر القصص لأن ما ذكر الله تعالى في نصّ القرآن فقد بيّناه في معاني التنزيل واتّبعه شرذمة قليلون كتموا إيمانهم عن قومهم ولم يصدقه من أشرافهم إلا رجل واحد يقال مرثد بن سعد بن عفير، ويقال مرثد ثالثًا إلا أنه يكتم إيمانه فلما عتوا على الله وكذّبوا نبيّه وتجبّروا كما ذكر الله تعالى فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١٢٨، ١٢٩] وذلك أنهم كانهم يتخذون عمدًا وأساطين من حجائر طوالًا على قدر قامتهم وينصبونها في الأرض ثم يبنون عليها قصورًا يجلسون فيها وإذا غضبوا على خدمهم أو من يكون من غيرهم طرحوه من تلك القصور فيهلك فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٣٠] فلما فعلوا ذلك وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هُود: الآية ٥٣] ثم دعا عليهم هود فأمسك الله عنهم المطر سبع سنين، وقحطوا قحطًا شديدًا، وإن الناس في ذلك الزمان وإن كانوا على الشرك إذا نزل بهم أمر شديد توجهوا إلى حرم الله ومكان البيت وكان ذلك الموضع معروفًا وكانت ربوة حمراء وكان سكّان مكة يومئذٍ العماليق من أولاد عِمْلاقٍ ويقال عمليق بن لاود بن سام بن نوح وكان سيّدهم يومئذ بمكة معاوية بن بكر وكان أبوه بكرًا حيًّا لكنه كان قد كبر وكانت أم معاوية بن بكر كلهدة بنت الخيبريّ رجل من عادٍ، فلما قحطوا وجهدوا جهّزوا وفدًا منهم إلى مكة يستسقون لهم فبعثوا قيل بن عتر وهو أرأس الوفد ولقيم بن هزالٍ ومرثد بن سعد ولم يعلموا أنه مؤمن وجلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر، ولقمان بن العاد الأكبر فانطلق كل رجل من هؤلاء برهطٍ من قومه حتى بلغ عددهم سبعين رجلًا فلما قدموا مكّة نزلوا على معاوية بن بكر وكان ابن أختهم وكان معاوية ينزل خارج الحرم فأنزلهم وأكرمهم لأنهم أخواله وأصهاره، وكانت أخت معاوية بن بكر وهي هزيلة بنت بكر عند لقيم بن هزال فكان القوم نازلين على معاوية بن بكر شهرًا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان، قينتان لمعاوية بن بكر فلما رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوّثون بهم من البلاء شقّ ذلك عليه وقال هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي نازلون عليّ والله ما أدري كيف أصنع أستحي أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا به فيظنون أنه ضاق صدري بمقامهم عندي فشكا ذلك إلى الجرادتين فقالتا له: قل شعرًا تعنهم به لا يدرون من قاله لعلّ ذلك يحركهم فقال معاوية بن بكر هؤلاء الأبيات شعر[1]:

ألا يا قيل ويحك قم فيهم   لعل الله يسقينا غماما

(١) انظر هذه الأبيات في الطبري، تأريخ الرسل والملوك ١/ ٣٣٦.

فنسقي أرض عادٍ إنّ عادًا قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس يرجى به الشيخ الكبير ولا الغلاما
لقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عياما
وإن الوحش تأتيهم جهارًا ولا تخشى أعاديهم سهاما
وأنتم هٰهنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما
وقبح وفدكم من وفد قومٍ ولا ألقوا التحيّة والسّلاما

قال: فلما قال معاوية بن بكر غنتهم به الجرادتان فلما سمع قال بعضهم لبعضٍ: يا قوم إنما بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال مرثد بن سعد إنكم والله لا تسقون بدعائكم لكن إن أطعتم نبيّكم سقيتم وأظهر إسلامه عند ذلك فقال له جلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر حين سمع قوله عرف أنه اتبع دين هود وآمن به، وكانت أم مرثد بن سعد من ثمود وثمود إذاك بالحجر بين الحجاز والشام وهي بلادهم وكان كنية مرثدٍ أبا سعد فإنك من قبيل ذوي كرمٍ وأمّك من ثمود، شعر:

فإنا لن نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين وفدٍ وزمدٍ والصدِّ والعبود
ونترك دين آباءٍ كرامٍ ذوي رأيٍ ونتبع دين هود

ثمّ قالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكرٍ احبس عنّا مرثد بن سعد فلا يقدمن معنا مكّة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا وخرجوا إلى الحرم يستسقون بها فلما ذهبوا خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية على أثرهم حتى لحقهم قبل أن يدعوا بشيءٍ فلما انتهى إليهم قام وحده في ناحيةٍ وقام وفد عادٍ ناحيةً فقال مرثد: اللهم أعطني سؤلي وحدي فلا تدخلني فيما يدعوك به وفد عادٍ فأعطاه الله تعالى ذلك وقام وفد عاد فقالوا: اللّهمّ أعطِ قيلًا سؤله فاجعل سؤلنا مع سؤله وكان قيلٌ رأس الوفد فقال قيل بن (عَنْزٍ)[1] اللّهمّ إن كان هود صادقًا فاسقنا فإنا قد هلكنا فأنشأ الله له سحابات ثلاث بيضاء وحمراء وسوداء ثم نودي من السحاب يا قيل اختر لنفسك وقومك ما تريد، فقال قيل: اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه المنادي اخترت رمادًا أرمد لا يبقي من عادٍ أحدًا لا

---

(١) ابن عنز هكذا جاء في المصادر في الأصل (عتر) والصواب ما ثبتناه. انظر ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ١٩٧.

والدًا يترك ولا ولدًا إلا جعلته همدًا إلا بني كوذيّة المهدّا، وبنو الكوذيّة لقيم بن هزالٍ من هزيلة بنت بكر فإنهم كانوا مع أخوالهم ولم يكونوا بأرض عادٍ معهم ويقال لهؤلاء عاد الآخرة قال وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة لعاد حتى خرجت عليهم من وادٍ يقال له المغيث فلما رأت عاد هذا استبشرت و﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: الآيتان ٢٤، ٢٥] فيقال إن أوّل من رأى ما فيها وعرف أنها ريح امرأةٌ من عاد يقال لها مُهْدِد ويقال: إنها التي ينسب إليها أيّام العجوز فلمّا تبيّنت ما فيها صاحت وصعقت فلما أفاقت قيل لها ما رأيت يا مهدد؟ قالت: رأيت فيها مثل شهب النار أمامها رجال يقودونها فـ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًاۖ﴾ [الحاقة: الآية ٧] أي تتابعًا وفي رواية وهبٍ قال إن الله تعالى قد وكل بالريح التي تحت الأرض سبعين ألف ملك ولما أراد الله هلاك عاد أوحى إلى خزنة الريح أن افتحوا منها بابًا على قوم عادٍ فإنهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بي، قالوا: يا ربنا أن نفتح على قدر منخر ثور إذًا تكفأ الأرض ومن عليها، فصعق حتى جعل بمثل ثقب الخاتم وذلك ما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القَمَر: الآية ١٩] أي باردًا، ولما أرسلت الريح أمر الله هودًا أن يعتزل بمن معه من المسلمين فاعتزل في حظيرة حظرها على نفسه وعليهم، ويقال بل خرج بمن معه فخرجت عادٌ بخروجه بأولادهم وأهاليهم فلما رآهم لا يرجعون نزل ناحية منهم وخطّ على المسلمين خطًّا فقال لهم لا يخرجن منه أحد فيهلك فلما فعل هود ذلك نزلت عاد ناحية الأخرى وجمعت كل مالهم ثم قام الرجل دارةً حول أهاليهم أخذ بعضهم بيد بعض وعاقدا بعض ذيله بعضٍ وقالوا قل لريح هود أن تصنع ما هي صانعة ويقال إنهم نزلوا في شعب من الشعاب بين الجبلين واصطفّوا حول أهاليهم ثم قام تسعة نفر ويقال سبعة نفر ويقال عشرة نفر وهم من أقوى عادٍ وأطولهم أجسامًا فاصطفوا على باب الشعب ليردّوا الريح عن عيالهم وأموالهم، ورأس القوم خلجان بن الوهم وهو أجسمهم وأقواهم، وعمر بن يحيىٰ، والحارث بن شدّاد، واللهقام قال فتعاقدوا على أن لا يرجعوا حتى يردّوا الريح أو تهلكم وهبت الريح يوم الأربعاء وكانوا يسمون الأيّام بغير ما يسمون يوم الأحد الأوّل، والاثنين أهون والثلاثاء جبّار، والأربعاء دبار، والخميس مونس، والجمعة عروبة، والسبت شبّار فلما هبّت الريح بكرة يوم دبار وهو الأربعاء قام الخلجان يرجز بأراجيز في حديث الريح فعصفتهم الريح يومهم وأهلكت من أهلكت ورجعت عند المساء، ثم لما كان اليوم الثاني وهو مونس صبحتهم الريح فقام الخلجان ومن معه إلى فم الشعب وهو يرجز الريح فعصفتهم الريح وصرعت بعضهم وانصرفت عشاءً وسمع هود بحالهم، فأتاهم غداة العروبة وهي الجمعة ودعاهم ووعظهم فلم يقبلوا وقال رجل من

المسلمين يعظهم ويدعوهم: الريح لله، وما في الريح ورمها أحق بالتسبيح فتسبيحة عاد تستريح واقبلي مقالة النصيح قد أتاك الرّيح بالقبوح أن تنبيء لا إلٰه الريح، قال وصبحتهم الريح يوم الثالث وهو العروبة وقاموا إلى فم الشعب متيقنين بالشر والخلجان أمامهم يرتجز فعصفتهم طويلًا وصرعت بعضهم وفي من صرعت جندلة بن الخلجان ولما كان اليوم الرابع وهو شبار جاءتهم الرّيح فقاموا جميعًا مع الخلجان يرتجزون فيقولون أيتها الريح أرينا معاني أبيات أخر فصبحتهم بأشدّ مما كان قبل ذلك وأبصروا يومئذٍ إبلًا تخرج من أفواهها النار وصرعت الريح رجالًا وانصرفت عشاء وقد بقي الخلجان في خمسة نفر من العشرة، واجتمع الرجال والنساء والولدان يبكون على موتاهم وغدوا يوم الخامس وهو الأول يوم الأحد وكانوا يهابون الموت فجاءهم هود ودعاهم إلى الله تعالى وعرض عليهم التوبة وذلك قبل طلوع الشمس فلم يجيبوا وانصرف عنهم وأتتهم الريح فعصفتهم طويلًا وصرعت من صرعت وانصرفت عشاءً فلم ينطقوا يومئذٍ بشيء في باب الريح وغدوا يوم أهون وهو يوم الاثنين وقاموا على فم الشعب وجاءتهم الريح فعصفتهم وصرعت من صرعت وانصرفت عشاءً، وغدوا يوم السّابع وهو جبّار إلى فم الشعب وأتاهم الريح فعصفتهم وصرعت بعضهم ولم ينطقوا شعرًا يومئذٍ ولم يبق ممن يكون على فم الشعب إلا الخلجان وحده، فلما كان اليوم الثامن وهو أربعاء الثاني من أيام الريح ويقال كان آخر أربعاءٍ من الشهر فأتاهم هود ووعظهم وقال يا خلجان ما بقي من أصحابك غيرك وقد رأيت ما صنع الله بمن أطاعك فتب إلى الله تعالى يقبلها منك ويدفع عن بقيّة قومك قال: فكيف أصنع ممّن ترى صرعى، قال إن الله تعالى يعقبك بكل رجل منهم مائة رجل ممّن بقي قال الخلجان: لا وأبيك يا هود لا يجدي ربّك أصعق أصحابي ثم قال يا هود أخبرني عن الإبل التي تأتينا في الريح، قال: تلك الملائكة التي توكلها الله بما شاء من أمره، قال الخلجان: تلك التي تفعل بنا الأفاعيل، ثم قال: وهل يقيدنا ربّك إن تابعناك؟ قال هو: وكيف يقيد الله لأهل معصيته من ملائكته وأهل طاعته لا ولكن يمدّ من بقي منكم بكلّ رجلٍ هلك مائة رجل فأبى الخلجان وانصرف هود وأقبلت الريح والخلجان وحده على فم الشعب أخذ بجانبي الجبل ويرى أنه كان من قومه أن قبض الصخر حتى غيبت أصابعه فيه كما يغيب العجين وهو يرتجز ويقول شعر:

لم يبق إلا الخلجان نفسه … لا خير في فزع أصيب اسه
يا لك من يومٍ دهاني أمسه … لو لم يجبني ميّته أحسه

قال: وجاءته الريح فألقته على وجهه فقتلته، ويروى أن الريح رفعته فلم يخل عن الصخرة التي كان قد قبض عليها فاقتلعته الريح معها وجعلت تضربه بها حتى قتلته

ودخلت الريح شعبهم فظلّت يومها تعصفهم وقتلتهم فهلكوا جميعًا في اليوم الثامن فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ [القمر: الآية ١٩] وهو الأربعاء الّذي هلكوا فيه جميعًا، ويروى أنهم لما اصطفوا حول العيال وقالوا: من أشدّ منّا قوة؟ وضربوا بأرجلهم على الأرض فأرسخوا فيها إلى ركبهم من شدة قوتهم فلمّا أتتهم الريح حركتهم أولًا فقالوا مستهزئين لقد حركت ريح هود أقدامنا ثم إنّها سلبتهم ثيابهم ثم نزعت منهم جلودهم ثم ضربتهم فمنهم من اقتلعته عن وجه الأرض، ومنهم من كسرت رجله عن ركبته وصرعتهم، فذلك قوله تعالى في موضع ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحَاقَّة: الآية ٧] وهم الذين كسرت أرجلهم وبقيت في الأرض وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القَمَر: الآية ٢٠] وهم الذين اقتلعتهم الريح ونزعت أرجلهم كالنخل الذي يقلع من قعرها وكانت تحمل الظعن وهي الإبل التي عليها الهودج فتذهب بها بين السماء والأرض ولما قتلتهم الريح جميعًا سفت عليهم الرمل وغيبتهم وكان يسمع أنين الرجال من تحت الرمال أيامًا، قال: وكانت الريح لا تهب على هودٍ وقومه المسلمين إلا قدر ما يتلذذون بنسيمها وتروحهم ونجاه الله تعالى ومن معه وعادوا إلى ديارهم على أحسن ما كانوا عليه من الخصب ورجع إليهم مرثد بن سعد بخبر الوفد وبما كان من أمرهم جميعًا، قال: وفي بعض الروايات إن الريح كانت دائمة عليهم أيامهم الثمانية ولياليها لا يسكن قط، وهذا أحبّ عندي لقوله عزَّ وجلّ: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ [الحاقة: الآية ٧] ولما رجع وفد عادٍ من الحرم مرّوا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقةٍ له في ليلة مقمرة وهي مساء ثالثة من مصاب عادٍ فأخبرهم الخبر قالوا له: فأين فارقت هودًا وأصحابه قال: بساحل البحر فكأنهم شكّوا، فقالت امرأة: صدق هود وربّ الكعبة، ولما سمعوا بهلاك قومهم رجعوا إلى مكة يدعون فقيل لهم: قد أعطيتم مناكم فاختاروا لأنفسكم إلا أنه لا سبيل إلى الخلود، فقال مرثد بن سعد: أسألك يا ربّ برًّا وصدقًا فنودي قد أُعطِيت ذلك، وقال لقمان بن عاد وهو يرتجز بيتًا:

لاهم يا ربّ النجوم الزهر والأرض ذات النبت بعد القفر

أسأل عمرًا فوق كل عمر

فقيل له: اختر لنفسك ولا سبيل إلى الخلد فإن شئت تبقى أربعًا أربعة رضان[1] عفر في جبل وعر لا يصيبه إلا القطر أو عمر سبعة أنسر إذ ما مضى نسر حولت إليّ

(١) كذا بالأصل.

نسرًا فاختار لقمان بقاء النسور فنودي فقد أعطيت ذلك وقيل لقيّل بن عنز اختر لنفسك قال: أريد أن يصيبني ما أصاب قومي فقيل له: إنه الهلاك قال: لا أبالي ولا حاجة لي في البقاء بعدهم ثم إنهم رجعوا وتوجهوا إلى شعب الذي هلكت فيه عاد وفارقهم لقمان بن عاد وكذلك مرثد بن سعد فأما قيل وأصحابه لما دخلوا الشعب قام لقيم بن هزال خطيبًا فقال: يا قوم قد طاب لنا الموت وليس بعد قومنا بقاء مزيدة فأمسكوا عن الطعام والشراب فبعث الله عليهم الريح حتى أهلكتهم وانقضّت على قيل بن عنز صخرة من الجبل فأهلكته ويقال: إن مرثد بن سعد كان معهم حين هلكوا فأخذ رواحلهم وأمتعتهم ولحق بهودٍ وأخبره خبرهم فحمد المؤمنين ربّهم وقال رجلٌ من المسلمين في ذلك شعرًا:

لو أن عادًا سمعت من هود ... واتبعوا طريقة الرشيد

حين دعا بالوعد والوعيد ... عادًا وبالتقريب والتبعيد

ما أصبحت عاشرة الجدود[1] ... صرعًا على الأنف والخدود

ساقطة الأجساد بالوصيد ... أحدوثة للأبد الأبيد

وقد قال من بقي من المسلمين من عادٍ أشعارًا كثيرة وهي موجودة في كتب التواريخ لم نكتبها وأما لقمان بن عادٍ فإنه كان يأخذ الفرح من النسور حتى يدركه الهرم فيموت ثم يأخذ آخره كان النسر يعيش ثمانين سنة حتى كان آخر نسور سمّاه لبدًا ولبدًا الدهر بلغتهم فقال له ابن أخ له يا عمّ لم يبق من عمرك إلا عمر هذا النسر، فقال لقمان: يا ابن أخ إنّه لُبدٌ وهو الدهر، فلمّا أسنّ نسر لقمان طارت النسور غداة من رأس الجبل ولم ينهض معها لبدٌ وكانت نسور لقمان لا تغيب عنه، فقام لقمان لينظر ما فعل نسره لبد فوجد في نفسه وهنًا لم يكن يجده قبل ذلك، ورأى نسره واقعًا فناداه انهض لبد فذهب ينهض فلم يستمع فسقط فمات ومات لقمان معه. وكان قوم من عادٍ عند أصهارٍ لهم من ثمود بوادي القرى فانصرف إليهم بعض الريح فأهلكتهم بوادي العيص[2] وروي أن عبد الله بن جدعان التيمي من قريش وأبا سفيان بن حرب أقبلا في الجاهليّة من الشام حتى انتهى إلى واد العيص في ركب معهم لقيهم رجل من بقيّة عادٍ فقال لهم: أطعموني فأطعموه فجعل يلفّ ما يطعمونه لفًّا قال: احملوني فحمله عبد الله بن جدعان على بعير فجعل يمسح ركبتيه الأرض فلمّا انتهوا إلى وادي العيص قال لعبد الله بن جدعان إنك

(١) الجدود: النعجة التي قلّ لبنها.

(٢) وادي العيص: بالكسر ثم السكون، وآخره صاد مهملة، وهو موضع في بلاد بني سليم به ماء ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤/ ١٧٣.

حملتني وأطعمتني وأنا أحبّ أن أكافيك فاتبعني فاتّبعته قال عبد الله فلما انتهينا إلى موضع من الوادي قال العادي انظر إلى موضع ظلّي فاصفر عنده قال ففعلت فإذا أنا بصخرةٍ قال: فاقلعها فقلعتها فلم أطقها فرفعها العادي فانحدر، فانحدرت معه في سربٍ من الأرض فإذا أنا بسراجٍ يزهر ورجلين ميتين من قوم عادٍ فقال العادي هذان صاحباي فإذا أنا متّ فضمّني إليهما وخذ من المال ما شئت واخرج وضع الصخرة على المسرب ولا تلتفت حتى تخرج من الشعب ثم عهد العادي إلى ريشة نسرٍ مثل ذراعٍ فأدخلها في فخّارةٍ فيها شيء من القطران فأدخلها إحدى منخريه ثم غمسها الثانية فأدخلها منخره الآخر ثم صاح صيحة كدت أموت منها ومات العادي فأخذت من المال ما يكفيني ووضعت الصخرة على السّرب وخرجت من الشعب قالوا فلذلك كان عبد الله بن جدعان أكثر قريش مالًا ولما هلكت عاد خطب هود فقال للمسلمين: هذه دار قد سخط الله على أهلها فاظعنوا منها، فقالوا: رأينا لرأيك تبع قال: نلحق بحرم الله وأمنه وأهلّوا من ساعتهم للحجّ وارتحلوا قلصًا حمرًا مخطّمة بحبال الليف وانطلقوا إلى الحرم فلم يزالوا بمكة حتى ماتوا وقبورهم بين دار الندوة[1] وباب بني سهمٍ ويقال: لا بل مكثوا في ديارهم حتى ماتوا هنالك وإن قبر هود عليه السلام بناحية حضرموت وإن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال لرجل من آل حضرموت: هل رأيت كثًّا أحمر ذا أراكٍ كثيرةٍ بناحية كذا من أرض حضرموت؟ قال الرجل: نعم، قال: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: هنالك قبر هودٍ عليه السلام.

(١) دار الندوة: وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ، حين خافوه، وكان ذلك اليوم يسمىٰ يوم الزحمة. ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨ هـ)، السيرة النبوية، حققها مصطفى السقا وآخرون، دار القلم بيروت دون تاريخ ٢/ ١٢٤.

بـــاب
في ذكر عادٍ الآخرة

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠﴾ [النجم: الآية ٥٠] وعاد الأولى هي التي ذكرنا قصتهم، وأمّا عاد الآخرة فقد يقال إنهم قوم وقعوا بين عادٍ قال: فغار قومهم ونزلوا بين قوم ثمود حتى فنوا وهلك معهم، ويقال: لا بل هم القوم الذين كانوا مع معاوية بن بكر من عادٍ فبقوا إلى أن أفناهم الله والله أعلم، فهذه قصّة عادٍ ولم نكتب أشعارهم لئلا يطول الكتاب ويجدي من أرادها في كتب التواريخ.

بـــاب
في ذكر ثمود وشأنهم وقصتهم

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: الآية ٧٣] وهم من ولد ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوحٍ بني أعمام عاد بن عوص بن إرم وكان منازلهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى فما حوله، وأنه لما أهلك الله عادًا وانقضى أمرها بقيت ثمود فاستخلفهم الله تعالى في الأرض فكثروا وانتشروا وعتوا على الله تعالى وأفسدوا وعبدوا الأوثان وكانوا قومًا عربًا فبعث الله إليهم صالحًا رسولًا وهو صالح بن عبيد بن عافر بن ثمود فدعاهم إلى الله تعالى وإلى توحيده ويقال بعثهم الله حين راهق ويقال لا بل على رأس أربعين سنة عن عمره فدعاهم أربعين سنة فلم يجيبوه وقد كان من مراجعتِه لقومه ومراجعتهم له ما قصّ الله تعالى في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء وسائر القرآن وكان صالح في ثروةٍ من قومه وأنه لما طالت دعوته لهم ولم يتبعه إلا قليل مستضعفون وخوّفهم صالح بالعذاب فسألوه أن يريهم آية صدقًا له، فقال: ما تريدون؟ قالوا: أن تخرج معنا إلى عيدنا وكان لهم عيدٌ يخرجون بأصنامهم في يومٍ معلوم قالوا نخرج فندعو آلهتنا وتدعو أنت إلٰهك فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعنا فقال صالح نعم، ففعلوا ودعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالحٍ فيما يدعو، فقال جندع بن عمر وهو سيّد ثمود يومئذ وعظيمهم: يا صالح أخرج لنا من هذه الصّخرة، وأشار إلى الصخرة في ناحية الحجر منفردة يقال لها الكاثبة أخرج لنا ناقة مخرجة جوفاء وبراء مدلهمة ذات وبرٍ وعرف وناصية ولتكن عشراء وقالت له ثمود: مثل قول جندع وقالوا إن فعلت هذا قد صدقناك وآمنا بك وإن عجزت عن ذلك فكفّ عنّا فإنّا نكره، إذاك فأخذ صالح عليهم المواثيق بذلك لئن فعلت ذلك لتؤمنن بالله وتصدّقنّني فأعطوه ذلك، فدعا صالح ربه وسأله أن يخرجها لهم، قال: فنظروا إلى الصخرة حين دعا صالح ربّه وهي تتمخّض مخض الناقة بولدها ثم انتفضت وانفجرت عن ناقة كما سألوه ووصفوا وهي عشراء على خلق عظيم يقال كان بين جنبيها مائة واثنان وعشرون ذراعًا

فأقبلت تمشي حتى توسطتهم ثم بركت للنتاج فلم تقم حتى وضعت سقبًا قريبًا منها في العظم ثم ذهب في طلب الكلأ فقال لهم صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: الآية ٧٣]، وقال الله لصالح: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: الآية ٢٨] فكانت الناقة ترعى يومًا وتشرب يومًا من البئر وكان طول الجبّ عشرين قامة، فكلما كان ورود الناقة ارتفع ماؤها حتى يبلغ رأسها الماء فتشرب حتى تنضلع فتصدر وأخلافها يشخب لبنًا فيتلقونها بالمحاليب والأواني والأسقية ويعطيهم من الليل مثل ما قد شربت من الماء ولما أن وجد ثمود الناقة آمن به جندع بن عمر ومعه قوم من رهطه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به فنهاهم عن ذلك ذواب بن عمرو بن بشرٍ والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صمعرٍ وهو كاهنهم وكانوا أشرافًا فردّوا ثمود عن الإسلام وكان لجندع بن عمرو ابن عمٍّ يقال له شهاب بن خليفة فأراد أن يسلم فنهاه هؤلاء القوم فقال رجل من المسلمين يقال له مهديش بن غنمة في أمره شعر:

وكانت عصبة من آل عمرو ... وإلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعًا ... فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالحًا فينا عزيزًا ... ولم يعدل فصاحبهم ذوابا
ولكن الغواة من آل حجرٍ ... تولّوا بعد رشدهم إيابا

قال: ومكثت الناقة فيهم مع سقبها بدل أن ترعى الشجر وتأكل الكلاء وتشرب الماء فإذا كان يوم شربها حضرت الماء واستوعبته كله وإذا كان اليوم الثاني أخذت ثمود من الماء ما شاءت وادّخرت ليوم شرب الناقة فكانوا في سعة من لبنها وكانت تسعهم وبرها إذا ألقت وبرها صيفًا وشتاءً فتوسعهم لحفًا وخيامًا وكانت تصيف أيام الحر بظهر الوادي فتهرب منها المواشي لعظمها إلى بطن الوادي في حرّة وجدبةٍ وكانت تشتي ببطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي إلى البرد والجدب فأضر ذلك لمواشيهم فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربّهم وأجمعوا على عقرها، وكانت في ثمود امرأتان مفسدتان إحداهما عنيزة بنت غنم تكنّى بنت غنم وهي امرأة ذواب بن عمر وهي عجوزة مسنّة ذات بناتٍ حسانٍ والأخرى صدوقٌ بنت المحيّا وكانت من أحصن الناس وكانت غنيّة ذات مالٍ ومن أشدّ الناس عداوةً لصالح ويقال إنه عليه السلام كان ينهاهما عن عنيزة لفسادها وكان ابن خالٍ لها يقال له صُنيم بن هراوة فأسلم صنيم وحسن إسلامه فكان ينفق مالها على أصحاب صالح فعلمت صدوق بذلك وعاتبته وفارقته حين عرفت إسلامه ودعاها زوجها إلى الإسلام فأبت عليه

وأخذت أولادها منه وغيبتهم في رهطها فقال لها زوجها ردّي عليّ ولدي فأبت حتى هدّدها قومه فردّتهم عليه، ثم إن عنيزة وصدوق احتالتا في عقر الناقة فدعت صدوق رجلًا يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت نفسها أن يفعل ذلك فأبى عليها، قال: فدعت ابن عمّ لها يقال له مصدع بن دبيرج ويقال: ابن بهرج بالباء ويقال: مهرج فعرضت عليه نفسها لعقر الناقة، وكانت من أحسن الناس فأجابها ودعت عنيزة قدار بن سالف وهو رجل أحمر أزرق قصير وكان غير رشيد، ولم يكن لسالف الذي يدعى إليه فقالت عنيزة: أعطيك أيّة بناتي الذي شئت إن عقرت الناقة وإن عنيزة كانت غنيّة وكانت كثيرة المال وزوجها ذواب بن عمر كان من أشراف ثمود فأجابها أيضًا ثم إن قدارًا ومصدعًا أتيا يومًا من الأيام مجلس عنيزة وصدوق يتحدثان إليهما فسقتاهما خمرًا فقالت عنيزة لو كان لنا ماء لمزجنا لكما الخمر، ولكن لا ماء عندنا فاليوم يوم ورود الناقة فقال أحد الرجلين فلا سبيل إلىٰ الماء، فقالت عنيزة: بلى والله إلى الماء سبيل لو كان رجال أهلًا لناقة لا ناقة تضرب وتطرد كما تطرد الغريبة من الإبل ولكن لا رجال في الوادي فقال عند ذلك قدار هل تعين لي بما قلتِ إن عقرت الناقة، قالت: نعم، فلما سمع ذلك مصدع قال لصدوق: وهل لي عندك ما قلتِ إن شاركته في عقر الناقة؟ قالت: نعم، قال: فأميلا علينا الخمر ففعلتا حتى سكرا وخرجا واستغويا من سفهاء ثمود سبعة نفر، فصاروا تسعة نفر فانطلقوا ورصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء فكمن لها قدار في أصل صخرة وكمن مصدع في آخر فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ويقال: خرعها فأخرجت عنيزة ابنتها وكانت كدار من أحسن الناس وجهًا وأمرتها فسفرت لقذارٍ فلمّا رآها قذار شدّ على الناقة بالسيف وكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاةً واحدةً ثم طعن في لبنها فخرها، وانطلق سقبها حتى أتى جبلًا منيعًا ثم أعلى صخرة في رأس الجبل فرغا ثلاث مراتٍ ثم لاذ واتبع السقب أربعة نفرٍ من التسعة وفيهم مصدع بن دبيرج فرماه مصدع بسهمٍ فانتظم قلبه وجرّوا برجله وأنزلوه وألقوا لحمه مع لحم أمّه ويقال لا بل ذهب السقبَ في الهواء، وذلك أنه لما قيل لصالح عُقِرَت الناقة قال المؤمنون: ادع الله تعالى أن لا يعذّبهم فقال صالح: أدركوا السّقب فإن أدركتموه فلعلّهم لا يعذبون، وذهب صالح ومن معه فلمّا رأى السقب صالحًا نادى ثلاث مرّات يا صالح واأمّاه يا صالح واأمّاه وذهب فغاب فلا يدري أين ذهب والله أعلم، وقيل كان صالح بعيدًا عنهم فبلغه الخبر فقيل قد علمت أن الناقة قد عقرت وأقسم لحمها فجاءهم صالح فلما رأى ذلك قال: هتكتم حرمة الله تعالى فابشروا بعذاب الله ونقمته، فقالوا له: ومتى ذلك يا صالح ومَا آتيه وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم: تصبحون يوم مونس

ووجوهكم مصفرّة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرّة ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب غداة أولِ يعني أحدًا. فذلك قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: الآية ٦٥] فلما قال لهم صالح ذلك قالت التسعة الذين عقروا الناقة هلمّوا لنقتل صالحًا، فإن كان صادقًا عجلناه قتلنا وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته فأتوه ليلًا ليبيّتوه في أهله فدفعتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطؤوا على قومهم أتوا منزل صالح فوجدوهم مشاجين فقالوا لصالح: أنت قتلتهم وهمّوا به، فقام قومه ولبسوا السلاح وقالوا لهم: إنه قد وعدك ثلاثًا إن العذاب نازل بكم فإن كان صادقًا لم تزيدوا بقتله عليكم ربكم إلا غضبًا، وإن كان كاذبًا فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: الآية ٤٨] إلى آخر الآية. قال: وأصبح القوم وجوههم مصفرّة فأيقنوا بالعذاب وعرفوا صدق صالح فطلبوه ليقتلوه، وخرج صالح هاربًا منهم فالتجأ إلى بطنٍ من ثمود يقال لهم: بنو غنم، فنزل على سيّدهم وكان اسمه نفيل ويكنّى أبا هرب وكان مشركًا إلا أنّه كان غيّبه منهم ولم يقدروا عليه فقدروا على أصحابه يعذّبونهم ليدلوهم عليهم فجاءهم رجل من أصحابه يقال له مبدع بن مرمم فقال: يا نبي الله إنهم ليعذّبوننا لندلهم عليك، أفندلّهم قال: نعم، فدلهم مبدع عليه، فلما علموا أنه أتوا أبا هرب وكلّموه فقال: نعم، هو عندي وليس لكم إليه سبيل وقال في ذلك مبدع بن عمر ويحثّ نفيلًا على حفظ صالح فلم نكتبه وأعرضوا عن صالح وشغلهم عنه فأنزل الله بهم العذاب وجعل بعضهم يقول لبعض: ما ترون من صفرة وجوههم ثم أصبحوا يوم العروبة ووجوهم محمرّة وأصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودة فلمّا كانت ليلة الأحد خرج صالح بمن معه من المسلمين إلى الشام حتى نزلوا رملة[1] فلسطين ويخلف رجل من أصحابه وهو مبدع بن عمر فنزل قرحًا، وهو وادي القرى بينه وبين حجر ثمانية عشر ميلًا فنزل على سيدهم وهو عمر بن غنم وكان لم يشرك في عقر الناقة، فقال له مبدع: يا عمر اخرج من هذا البلد فإن صالحًا قد قال: من أقام فيه هلك ومن خرج منه نجا. فقال عمر: وما شركت في عقر الناقة وما رضيت، فلما كانت صبيحة الأحد واشتدّ الضحى أخذتهم الصيحة فلم يبق منهم أحد صغير ولا كبير إلا جارية مقعدة يقال لها الذريعة وكانت شديدة العداوة لصالح، فأطلق الله رجليها حين عاينت العذاب ورأت

---

(١) رملة فلسطين: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت رباطًا للمسلمين، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣/ ٦٩.

هلاك ثمود فخرجت كأسرع ما ترى شيئًا قط حتى أتت أهل قرح فأخبرتهم بما رأت من العذاب ثم استقت فشربت وماتت مكانها وروي عن السّدّي أن القوم لما أيقنوا بالعذاب تكفّنوا وتحنطوا ولبسوا الأنطاع وحضروا الأسراب فدخلوها ينتظرون العذاب حتى جاءهم العذاب فهلكوا ويقال: جاءتهم النار من تحتهم فاحترقوا وبقي كلّ واحد منهم حيث كان قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٨؛ هود: الآية ٦٧] ولم يبق منهم إلا رجل واحد يقال له أبو رغالٍ رجل من ثمود كان في الحرم فانتظره العذاب حتى خرج من الحرم فأتاه وأصاب ما أصاب قومه وفي الحديث «أن رسول الله ﷺ مرّ بقبر أبي رغالٍ قال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا قبر أبي رغالٍ وهو رجل من ثمود فكان في حرم الله تعالى فمنعه الحرم فلمّا خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هٰهنا ودفن معه غصن من الذهب فنزل القوم وابتدروا بأسيافهم واستخرجوا الغصن» ويروى أن صالحًا ومن معه قصدوا مكة بعد هلاك ثمود فنزلوها إلى انقضاء عمرهم والله أعلم فإن قبر صالح عند الحجر الأسود ويروى عن كثير من مرء الحضر[1] فإن رسول الله ﷺ ذكر يومًا حوضه فقال: «وأنا أشرب منه وأمّتي وإن صالحًا يبعث وتبعث ناقته له فيحلبها ويشرب من لبنها هود وصالح والذين آمنوا معهما ويركبها صالح من قبره فقال له معاذ[2] بن جبل وأنت تركب العضباء[3] يا رسول الله فقال: لا بل أركب البراق وقد خصصت به دون الأنبياء، ثم نظر رسول الله ﷺ إلى بلالٍ[4] فقال: وهذا يبعث يوم القيامة على ناقة من نوق الجنّة ينادي بالأذان فإذا سمعت الأنبياء أذانه وقوله: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله نظروا جميعًا إلى بلالٍ وقالوا: ونحن نشهد على ذلك، ثم إن بلالاً يستقل بحلّة الجنّة وأول من لبسها بعد النبيين بلال والمؤذنون من صالح المؤمنين».

---

(١) الحضر: بالفتح ثم السكون، والحضر الذي هو ضد البدو، اسم مدينة بإزاء تكريت في البرية بينها وبين الموصل والفرات، وهي مبنية بالحجارة المهدمة بيوتها وسقوفها وكان ملكها الضيزن ملك الجزيرة كلها إلى الشام، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ٢٦٧.

(٢) معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي من أهل العقبة، شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ مات بطاعون عمواس سنة (١٨ هـ). ابن الأثير الجزري، أسد الغابة ٥/ ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٣) العضباء: الناقة التي هاجر عليها من مكة إلى المدينة وتسمى العضباء ولم تكن تحمله إذا نزل عليه الوحي. ابن جماعة: عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن جماعة الكناني (ت ٧٦٧ هـ) تحقيق آسيا البارح، سنة ١٩٩٠ ص ١٢٦.

(٤) بلال بن رباح وأمه حمامة من مولدي مكة، مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان مؤذنًا لرسول الله ﷺ شهد بدرًا والمشاهد كلها، وكان من السابقين إلى الإسلام، وممن عذب في الله عز وجل. ابن الأثير، أسد الغابة ١/ ٤١٥.

وروى الضحّاك[١] عن ابن عباس قال: لما آيس صالح من إيمان قومه اغتمّ لذلك، فقال: يا ربّ ائذن لي فأسيح في الأرض لعلّي أجد أحدًا يعبد الله، فأتنس به، فأذن له فمضى يسيح في الأرض يطلب عبدًا يعبد الله، قال: فمرّ بتلّة عليها رجل قائم يعبد الله فسلّم عليه فقال له: ما لي أراك وحدك، وما قصتك فقال: هٰهنا قرية أهلها أخبث من في الأرض، ولم يكن فيها من يعبد الله غيري فخسف الله بهم الأرض ونجاني منهم وأنا أعبد الله هٰهنا شكرًا له إذ نجّاني من بينهم قال: فحمد صالحٌ ربّه ومضى حتى انتهى إلى البحر، فإذا هو بجزيرة فيها رجل قائم يصلّي فسلّم عليه وسأله عن حاله وقصته، فقال: كنت من قوم ركبنا سفينة في هذا البحر ولم يكن قوم أخبث منهم وليس فيهم من يعبد الله غيري، فأهلكهم الله ونجّاني من بينهم، فأنا أعبد الله هٰهنا شكرًا مما نجّاني فحمد الله صالح ومضى، فانتهى إلى مدينة كلهم كفّار ليس فيهم مؤمن إلا رجلان خوّاصان يعملان الخوص طول يومهما فإذا أمسيا تصدّقا بكسبهما إلّا قوتًا يمسكانه فأتاهما صالح وجلس إليهما فلما كان عند المساء سمع صالح صيحة، فقال لهما: ما هذه الصيحة؟ قالا: هذه دابة تخرج من البحر كل يوم هذه الساعة، فلا تأتي على شيء إلا أهلكته قال صالح: فما يجعلون لي أهل هذه المدينة إن قتلت الدابة؟ فانطلق الرجلان إلى أهل المدينة وقالا لهم: ما تجعلون لرجل يقتل الدابة؟ قالوا: نعطيه نصف أموالنا، فأخبرا بذلك صالحًا فقام يصلّي ركعتين ودعا الله فانشقت الدابة نصفين ففرح الناس وأتوه بنصف أموالهم، فأعطاه صالح للرجلين فقالا له: إنا لنكتفي بما في أيدينا من كسبنا، ولا حاجة لنا بهذا المال. فردّ صالح المال على أهله وخرّ لله ساجدًا وقال: الحمد لله الذي أبقاني حتى رأيت ثلاثة يعبدون الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليه يا صالح أما علمت أن لي عبادًا تقوم الدنيا بهم ولولا أهل طاعتي لما نظرت إلى أهل معصيتي طرفة عين وقد قالت بقايا ثمود من المؤمنين أشعارًا كثيرة في أمر ثمود وكذلك العرب ذكرت قصتهم في أشعارهم وهي موجودة في التواريخ فلم نكتبها.

---

(١) الضحاك بن النعمان، أسلم وحسن إسلامه، ابن الأثير، أسد الغابة ٣/ ٥١.

باب في ذكر قصّة إبراهيم خليل الله وشأنه[1]

هو إبراهيم بن آزر بن تارخ بن ناخور بن أرغوا بن فالخ بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، قال بعضهم: هو إبراهيم بن آزر، وآزر هو تارح بن شارخ بن أرغوا بن فالح بن كابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، وإن آزر كان رجلًا من أهل كوثى[2] وكوثى قرية من قرى سواد الكوفة وكان ملك بابل[3] يومئذ لنمرود بن كنعان بن كوش بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وقال بعض الناس إنه من ولد حام بن نوح عليه السلام، والأول أصحّ، وقال كثير من أهل الأخبار إنه ملك أهل المشارق والمغارب كلّها قالوا: ولم يملك الأرض إلا أربعة مؤمنان وكافران فالمؤمنان سليمان بن داود وذو القرنين والكافران نمرود وبخت نصر. قال أهل التواريخ: لا بل كا نمرود لا يملك إلّا ناحية بابل العراق وأنه كان عاملها من جهة لهراسف[4] ينزل بلخ[5] في الجملة فقد علمنا بما أخبر الله تعالى أنه ادعى الربوبيّة وحمل الناس على عبادته والله أعلم أملك الأرض كلها أم لا، وإنه لمّا تقارب زمان إبراهيم عليه السلام وأراد الله تعالى أن يبعثه حجّة على خلقه، ولم يكن بعد نوح غير هود وصالح وكانا على شرعة نوح عليه السلام حتى كان إبراهيم فنسخ الله تعالى به

---

(١) انظر تفاصيل نبي الله إبراهيم (عليه السلام) في: الثعلبي ـ العرائس ص ٤٣ وما بعدها. ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٢١٢ وما بعدها، ابن كثير ـ قصص الأنبياء ص ١٢٨ وما بعدها.

(٢) كوثىٰ: بالضم ثم السكون، والثاء مثلثة، وألف مقصورة، أرض بسواد العراق في أرض بابل. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ٤٨٧.

(٣) بابل: بكسر الباء: اسم ناحية منها الكوفة، والحلة ينسب إليها السحر، والخمر، وهي أرض في العراق. المصدر السابق ١/ ٣٠٩.

(٤) لهراسف: جاء في الأصل بشتاسف والصواب ما أثبتناه، ولهراسف قيل هو ملك وأول من بنى بلخ، المصدر السابق ١/ ٤٧٩.

(٥) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان وهي من أجمل مدن خراسان، وأوسعها غلة. المصدر السابق ١/ ٤٧٩.

شريعة نوحٍ، ولما قرب وقته جاءت الكهنة وأصحاب النجوم وكان زمانهم زمان النجوم والكهانة فقالوا لنمرود: يولد في هذه السنة غلام في قريتك هذه تهلك على يده آلهة الأرض ويبدّل دينك ويكون هلاكك وهلاك قومك على يده، فقال نمرود: هذا أمر يسير نحن نعزل الرجال عن النساء ثم ننظر كل صبيّ في مملكتي فإذا ولد غلام قتل، وإن ولدت جارية تركت حتى تنقضي هذه السنة، قالوا: نعم ما رأيت، وأمر نمرود بعزل الرجال عن النساء ووكّل على كل عشرة من الرجال موكلًا، فإذا طهرت امرأة منعه أن يقربها وإذا حاضت تركه لأنهم كانوا لا يجامعون في الحيض، وأراد الله أن يكون كما أراد فلم يكن على آزر وامرأته موكّل لأنه كان من خواص نمرود وأوثق الناس عنده وكذلك كان أمر الناس أن لا يعبدوا صنمًا إلّا من صنعة آزر ثم إن آزر رجع يومًا إلى أهله فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها فحملت بإبراهيم. وقيل كان سبب وصوله إليها أن الكهنة قالت لنمرود[1] إن أمّ الغلام الذي ذكرنا تحمل به ليلة كذا، فأمر نمرود بالناس حتى خرجوا بإبلهم من المدينة وتركوا النساء فيها، ووكل بكل باب أمينًا من أمنائه لا يدع رجلًا يدخل في المدينة ولا امرأة تخرج وخرج نمرود أيضًا فلما خلت المدينة خرجت النساء وفيهن أمّ إبراهيم يطفن فيها للنظارة، فوقعت جماعة منهن إلى الباب الذي وكل به آزر أبو إبراهيم وفيهن أمّ إبراهيم فلمّا وجدت زوجها هنالك مكثت عنده، فواقعها فحملت ويقال: لا بل إن نمرود فكّر في نفسه أنه ينبغي أن أرجع إلى أهلي فأواقعها حتى إن كان الغلام لا بدّ كائنًا يكون ابني حتى يذهب ملكي إليه، لا إلى أجنبي فرجع في جوف الليل إلى قصره ولم يعتمد على أحدٍ كاعتماده على آزر فاستصحبه فلما دخل قصره أمر آزر أن يكون بالباب إلى وقت خروجه وإن النساء اللواتي كنّ يطفن بالمدينة بلغن باب قصر نمرود وفيهن أمّ إبراهيم، فرأت زوجها فأقامت عنده فواقعها فحملت بإبراهيم ورجع نمرود إلى مفكره حين أصبح فسأل الكهّان عن أمر المولود، فقالوا: قد حملت به أمّه البارحة، فعند ذلك أمر بقتل الغلمان وأن الله أخفى حمل أم إبراهيم فلم يعرف أنها حبلى لما أراد الله من إتمام تدبيره، وأمر نمرود بحفظ النساء الحبالى فكان يقتل الغلمان وترك الجواري، وأن أم إبراهيم كان اسمها أهيلة لما حملت كابدت زوجها لئلا يتهمها فقالت: إني إذا وضعت ما في بطني، فإن كان غلامًا فينبغي أن نحمله حتى نضعه بين يدي الملك فيصنع به ما يشاء، فإن حقّ الملك علينا واجب لإحسانه علينا، وإنه متى يرانا أن نفعل كذلك لزدنا عنده رفعة وقدرًا، فوثق بها آزر فلما حضر الشهر الذي تلد فيه قالت لزوجها: إني قد

---

(١) في الأصل لنروذ، والصواب لنمرود.

شفقت على نفسي من هذا الحمل أشد من إشفاقي قبل هذا وأنا أخاف الموت، فأنشدك بحق الصحبة أن تنطلق إلى الإلـٰه الأعظم يعني الصنم فتسأله لي السلامة والخلاص وتقيم معه إلى وقت علمك بخلاصي من حملي، فقال: سأفعل ذلك بحقك عليّ، وذهب آزر فأقام عاكفًا على الصنم في بيت الأصنام أربعين ليلة فأصلحت أم إبراهيم ما أرادت من أمرها، فلما ولدت إبراهيم أمرت بحفر سربٍ في الأرض فهيأت فيه كل ما يحتاج إليه الصبيان وغيّبت فيه إبراهيم، ثم أرسلت إلى آزر وأخبرته بخلاصها وسلامتها فرجع إليها آزر وسألها عن الولد. فقالت: ولدت غلامًا وكانت به عاهة شديدة ومات من ساعته، فاستحييت أن يطلع عليه الناس فقبرته فصدقها زوجها وشكر الله على ما كان من سلامتها وجعلت أم إبراهيم تدخل عليه إذا غاب زوجها فترضعه وتصلح أمره، إلى أن بلغ إبراهيم وقت الفصال تمام حولين ففصلته. قال ابن عباس فكان إبراهيم يشبّ في اليوم كالجمعة وفي الجمعة كالشهر وفي الشهر كالسنة وكان إذا أبطأت عليه أمّه دخلت عليه وجدته يمصّ إبهامه فيسيل له لبنًا وعسلًا، ومن هنالك يمصّ الصبيان إبهامهم إلى اليوم وذكر الكلبيّ[1] أن إبراهيم قال لأمّه ذات يوم وقد دخلت عليه: يا أمّاه من ربّي؟ قالت: أنا، قال: فمن ربّك؟ قالت: أبوك، قال: فمن ربّه؟ قالت: الملك نمرود. قال: ومن رب نمرود؟ قالت له: اسكت فأسكتته وخرجت إلى زوجها فقالت: أريت الغلام الذي حدّثنا عنه أنه يغيّر دين أهل الأرض قد ظهر ثم أخبرته خبر إبراهيم وما فعلت في أمره فقام إليه أبوه وأراد أن يفعل به سوءًا فلما رآه ألقى الله محبته وزينه في عينه، فلم تسمح نفسه بمكروهٍ ويقال: لا بل إبراهيم لما بلغ ثلاث عشرة سنة خرج من السرب ذات يوم مغافصة ودخل أبوه، فرآه فقال لامرأته: من هذا الغلام الذي أخطأه الذبح وكيف خفي أمره حتى لم يقتل وهمّ أن يبطش به، فقالت له امرأته: على مهلك حتى أخبرك خبره، اعلم أنه ابنك فقال لها: وما حملك على خيانة الملك وتعريضه للبلاء الذي لا قبل لنا به، فقالت: لا يهمّك هذا فإني أضمن لك الملك وأخرجك من هذا وذلك إنما فعلت هذا نظرًا لك ولي وللملك وعامة الناس، وذلك أني حين وضعته كتمته إلى أن يكون رجلًا فإن كان عدوًا للملك وهو الغلام الذي ذكر له سلّمناه إلى الملك فيقتله فيكون قد ظفر بعدوه وفرغ منه قلبه ونجا الناس مما هم فيه من قتل الأولاد، وإن لم يكن مخالفًا للملك فإذا أسلمناه إليه وعرف أنه غير الذي يطلبه لم يقتل ولدك باطلًا فقال آزر: ما أظنك إلا وقد أصبت الرأي فكيف لنا أن نعلم أهو

---

(١) الكلبي: المقصود ابن الكلبي هو هشام بن محمد بن السائب أبو المنذر (ت ٢٠٤ هـ).

عدوّ الملك أم لا، قالت: نجلسه ونعرض عليه دين الملك فإن هو أجاب كان مثلنا وإن عصا ولم يدخل ديننا علمنا أنه عدوّه، فرضي آزر بذلك إلّا أن الله تعالى ألقى في قلبه رحمته ومحبته وإذا ذكر أنه يصير إلى القتل غيّر ذلك عليه وقالت أم إبراهيم في نفسها إن كان بيّن هذا هو الذي قيل له إنه يسلب ملك نمرود ويغيّر دينه فإنه لا يصل إلى قتله أحد، وقال آزر لزوجته نحبّ أن نؤخر أمر هذا الولد، فإنه حديث السن، فإنه ربما لم يجب إلى ديننا فنتركه إلى أن يتم عقله ثم نختبره، وذلك لما كان في قلبه من الرحمة له واليقين به من القتل إلى أن بادلهم إبراهيم بالخلاف.

باب في ذكر محاجّة إبراهيم لقومه[1]

يقال إن أوّل من ناظره إبراهيم أمّه حينَ قال لها: من ربّي؟ قالت: أنا، قال: ومن ربك؟ قالت: أبوك قال: ومن ربّه؟ قالت: الملك قال: ومن ربّ الملك؟ قالت: اسكت وهو الربّ الأعظم الذي ليس فوقه أحد قال إبراهيم: أنا أحسن وجهًا أم أنت؟ قالت: بل أنت، قال: فأنت أحسن وجهًا أم أبي، قالت: بل أنا، قال: فأبي أحسن وجهًا أم الملك؟ قالت: بل أبوك، قال: يا أمّاه لو كان الملك هو الذي خلق أبي لما كان يخلقه أحسن من نفسه فلو كان أبي يخلقك لما كان يخلقك أحسن من نفسه ولا كنت تخلقينني أحسن من نفسك فلم تقدر أمّه على جوابه ثم إنّه ناظر أباه وذكر الله عنه أنه قال: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: الآية ٧٤]، وقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: الآيات ٤٢ ـ ٤٥] فلم يقدر أبوه على جوابه فهدّده وقال له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: الآية ٤٦] وقيل: إن سبب مناظرته لأبيه أن أباه كان يتخذ الأصنام ثم يأمر إبراهيم أن يذهب بها إلى السوق فيبيعها فكان إبراهيم يحملها إلى باب الدار، ثم يطرحها ويجعل حبلًا في أعناقها يجرّها إلى السوق ثم ينادي من الذي يشتري ما لا يضرّه ولا ينفعه فكانت لا تشترى منه، وإذا رجع بها جاء بها إلى النهر فيصوب رأسها نحو الماء فيقول اشربي فقد عطشت مستهزئًا بها، فلما علم بذلك أبوه عاتبه على فعله فحينئذٍ قال له: ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾[2] [مريم: الآية ٤٢] إلى آخر الآية ثم ناظر بعد ذلك قومه وذلك حين فشا أمره

(١) تفاصيل ذلك في: الثعلبي العرائس ص ٤٣، وما بعدها، ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٢٢ وما بعدها. ابن كثير ـ قصص الأنبياء ص ١٤٢.

(٢) الآية: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: الآية ٤٢].

وطعنه للأصنام قال لإبراهيم قومه: ما الذي جئت به؟ فقال لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٢] إلى آخر الآية، وكذلك قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ[1] ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ[2] هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٧٠ ـ ٨٢]، وقوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات: الآية ٨٦]. ثم إنه أتاهم ليلة من الليالي وهم جلوس في ناديهم فقال لهم ما ذكر الله في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ﴾ [الأنعام: الآيتان ٧٥، ٧٦] وذلك الزهر، رآها في السماء وقت السحر، فقال لقومه: هذا ربي على سبيل الاستفهام للإنكار على معنى أن يكون مثل هذا ربًا وإنما قال لهم ذلك لأن قوم إبراهيم كانوا على طرقٍ مختلفةٍ فمنهم من كان يعبد الصنم فجادلهم على ذلك حيث ذكرناه ومنهم من يعبد النجوم ومنهم من يعبد القمر ومنهم من يعبد الشمس ثم مكث ساعة، فأفلت الزهرة وذلك أنها كانت في المغرب فغربت فلمّا أفل النجم قال لقومه: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] ثم طلع القمر وذلك في آخر الشهر عند الفجر فرأى أضواء من الكوكب فقال لعابديه هذا ربي على معنى الاستفهام مستنكرًا ثم مكث ساعةً حتى طلعت الشمس وتغيّر حال القمر وذهب ضوؤه لطلوع الشمس فلمّا رأى ذلك قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٧] ثم لما طلعت الشمس قال لهم: ﴿هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ﴾ [الأنعام: الآية ٧٨] أي أعظم وأتمّ نورًا من النجم والقمر ثم مكث ساعة حتى ارتفعت وتغيّر حالها ويقال إلى أن غربت وقت المساء قال يا قومي إني بريءٌ مما تشركون بالله من صنمٍ وكوكبٍ وقمرٍ وشمس وغير ذلك، فإن شيئًا منها لا يصلح للربوبيّة لضعفها وتغيّر حالها وانتقالها من جانبٍ إلى جانبٍ في الطلوع والغروب فقالوا فمن ذا الذي تعبد فقال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ﴾ [الأنعام: الآية ٧٩] أي قصدت خالق السمٰوات والأرض وأنا مسلمٌ حنيف ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٩] وحاجّه قومه أي ناظروه وكانت مناظرتهم إيّاه كثيرة فمنها ما ذكر الله في سورة الشعراء إذ قال لأبيه وقومه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ [الآيتان ٧٠، ٧١] إلى آخر الآية، وقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ

---

(١) في الأصل (ماذا تعبدون) والصواب ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾.

(٢) في الأصل (قال) والصواب ما ثبتناه.

﴿ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾[1] [الآيات ٥٢ ـ ٥٦]، وقال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٥٧]. قال أصحاب الروايات أراد يوم عيد كان لهم يخرجون إليه كلّ سنةٍ فانتظر إبراهيم وحده فلمّا خرجوا قالوا لإبراهيم اخرج معنا قال إني نظرت البارحة إلى الزهرة وكانوا يتشاءمون بها، وفي رواية أخرى أنّهم كانوا أهل علم بالنجوم فقال: إني نظرت في النجوم وإنه سيكون لي مرض يومي هذا قال بعض المفسّرين إنها كانت كذبة كذبها وقال أهل التحقيق إنه أراد أني سأسقم وعلم أنّ من يموت لا بدّ أن يسقم عند موته، فتولّوا عنه مدبرين لأنهم ظنّوا أنّ به طاعونًا وكانوا يفرّون من الطّاعون أن يعدوهم فلذلك هربوا منه فلمّا خلا له المكان وذلك أنّهم كانوا يخرجون إلى عيدهم جميعًا لا يختلف عنهم أحد رجع إبراهيم إلى بيت أبيه آزر وأخذ فأسًا من فؤوس أبيه ومضى إلى بيت الأصنام، وكانوا يصنعون لها الأطعمة والأشربة ويقال: كان كل صنم منها على سريرٍ من ذهبٍ ويقال: بل كان أعظمهنّ على السرير وسائرهنّ عن يمينه وشماله، وكانت ستّة وسبعين صنمًا وكانت ثلاثة وثلاثون عن يمينه وثلاثة وثلاثون عن يساره، وكانت من ذهب وفضّة ونحاس وحديد وصفر وخشب صغارًا وكبارًا ذكورًا وإناثًا مكلّلة بالدرّ والياقوت وألوان الجواهر وكانت عينا أعظمهن من ياقوتتين حمراوتين وسائر جسده من ذهبٍ مكلّل باليواقيت. فقال لها إبراهيم مستهزئًا: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: الآيات ٩١ - ٩٣] أي بالقوة حتى جعلها ﴿جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٨] فإنه عمد إلى فأسٍ فوضعه على عاتق الأكبر وخرج وتركها فلمّا فرغ القوم من عيدهم دخلوا على أصنامهم وكذلك كانوا يبدؤون بزيارة الأصنام إذا رجعوا من سفر أو عيد أو مخرج لهم، فلمّا رأوا ما بأصنامهم راعهم ذلك و﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٥٩]، ثمّ قالوا: لم يفعل هذا إلا إبراهيم فإنا كنّا نسمعه يذكرهم بسوءٍ ويطعن فيهم، وبلغ الأمر لنمرود واجتمع الناس إليه فقال نمرود: من فعل هذا؟ قالوا: إبراهيم. قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦١] أي لعلّه يشهد عليه شاهد لئلا نأخذه ظلمًا ويقال: لعلهم يشهدون أي يحضرون عقوبتنا إيّاه فأتي به فقالوا له: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنبياء: الآيتان ٦٢، ٦٣]، قيل وهذه كذبة أخرى وعندنا أنه قال ذلك مشروطًا بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٣] إلى أن نطقوا فذلك فعل كبيرهم وعلم أنهم لا ينطقون أو نقول إنه قال ذلك

(١) جاء في الأصل: (وإنا على ذلك من الشاهدين) والصواب ما ثبتناه.

استهزاءً بقومه فإنه كان يعلم أن القوم يعلمون ضرورة أنها جمادات لا تنطق ولا تعقل ونظير ذلك من قول الناس أن يأكل الرجل خيص صاحبه أو تمره، فإذا قال له من أكل تمري فيقول: هرّتنا هذه استهزاءً منه لما يعلم أن صاحبه موقن أن الهرّة لا تأكل التمر فرجعوا إلى أنفسهم وقالوا: إنكم أنتم الظالمون، وذلك أن الأغمار والوالة قالوا ولم فعل كبيرهم هذا قالوا: لأنه غاظه عبادتكم غيره معه ففعل بهم ما فعل فقال الأغمار لعلّه كما يقول فقال الأعقلون منهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فلذلك أجزأت على توريك الذي عليهم فقال لهم إبراهيم إن أصنامكم لا تتكلم ولا تعقل ولا تقدر على شيء ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٦٦، ٦٧] إنما يكون من العجز فالموت على هذه الصفة لا تستحق للعبادة، فلمّا أظهر لهم دينه وأقرّ علموا أنّه صاحب الأمر فقال له نمرود: إنك لتعبد إلـٰهًا غيري قال: بلى، قال: فمن إلـٰهك الذي تعبده؟ قال: الذي يحيي ويميت، يعني من يقدر على الإحياء والإماتة قال نمرود: وأنا أيضًا أحيي وأميت فأمر حتى أخرج من سجنه رجلان قد استوجبا القتل فقتل أحدهما، وقال: قد أمتّ هذا وخلّيت سبيل الآخر، وقال: قد أحييت هذا. فقال له إبراهيم: ليس هذا بإحياء، إن قدرت على الإحياء والإماتة فأخرج روح رجل من أن تقتله ثم أدخل فيه الروح من بعد ذلك فأورد عليه ما لم يكن عنده جوابه. ثم قال له إبراهيم: فإن الله الذي أعبده هو الذي ﴿يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨] ويطلعها كل يوم من الشرق ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨] إن كنت إلـٰهًا فبهت الكافر عند ذلك وانقطع ولم يقدر على جوابه. فإن قال قائل كيف ادعى نمرود الإحياء والإماتة؟ فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨]، ولم يقل إنّي أنا الله الذي أطلع الشمس من المشرق، وقد ذكرنا جواب هذا في معاني سورة البقرة. وروي أنه لما عجز نمرود انقطع عند قول إبراهيم ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾. قال الله تبارك وتعالى: وعزّتي وجلالي لا تقوم الساعة حتى آتي بالشمس من مغربها. فقال إبراهيم عندما ادّعى نمرود إحياء الموتى فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠] وأراد أن يعرف كيفية إحياء الموتى مشاهدة ليزداد بصيرةً في ذلك فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٠] في إحياء الموتى؟ ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٠] خزانة قلبي فيما أشتهي من النظر والمشاهدة، لذلك وليس الخبر كالمعاينة وإنّ لرؤية الشيء عيانًا لذة ويلج صدر غير العلم به قال الله تعالى له: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٠] أي قطعهن ويقال إنه

أخذ ديكًا وطاوسًا وغرابًا وحمامًا وقطّعهما وأمسك رؤوسهما في يده ثم دعاهنّ كما أمر الله تعالى حتى أتينه سعيًا بلا رؤوس فرفع رأس الغراب إلى الطاووس فأمال عنقه فلم يقبله حتى أعطاه رأسه قال الله: ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٠] قد حكم إحياء الموتى جميعًا يوم يجمع الأولين والآخرين خلاف ما ادعى نمرود من إحياء الموتى فأمر به نمرود إلى السجن بعد محاججته له فلبث في السجن سنين فجعل إبراهيم يدعو أهل السجن إلى الله وعبادته حتى ظهر أمره واتّبعه أناس على الإسلام وبلغ ذلك نمرود فدعا بأبيه وأمه، وقال لهما: ما حملكما على ما صنعتما وكتمتما أمر هذا الغلام حتى بلغ هذا المبلغ وكنتما أوثق الناس عندي فقالا: حملنا على ذلك حسن النظر لك، ولأهل مملكتك فلقد كنت تذبح أولاد رعيّتك منذ أربعين سنة فأردنا أن نجرّب ولدنا فإن كان عدوّ لك مكّناك منه حتى تقتله على يقين من أمره ونستريح وتستريح أهل مملكتك من البلاء، وإن لم يكن ولدنا عدوًّا لك فرأيك فيه إن شئت قتلته وإن شئت تركته، فأمّا الآن قد ظهر أمره فدونك وعدوّك فاقتله فمن أحسن يدًا عندك منّا أهل البيت إذ كنت في طلب عدوّك أربعين سنة فلا تزداد إلّا غمًّا مع كل يوم وحزنًا فأظهرناه لك ومكنّاك منه فقال نمرود: إنكما إن قتلتماه صغيرًا لم يبلغ هذا المبلغ قال: أيها الملك لو ذبحناه صغيرًا أكنت مقصرًا من ذبح الولدان فهل كنت تعلم حين نذبحه صغيرًا أنه عدوّك الذي تطلبه قال نمرود: لا، فقال الناس جميعًا أيها الملك لا نعلم أحدًا أكبر منه عليك وعلينا من هذين إذ فرغا قلبك وقلوب الناس وسرّ الناس فأريحوا من ذبح أولادهم وقبل نمرود قولهما وصدقهما قال وهب بن منبهٍ إنه قتل في أمر إبراهيم سبعة آلاف صبيّ والله أعلم.

باب في ذكر إلقاء إبراهيم عليه السّلام في النّار

ثم إن نمرود وقومه اجتمعوا على إهلاك إبراهيم واستشارهم نمرود بأيّ نوع من العذاب نهلكه قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٨]، ويقال إن الذي أشار بإحراقه كان رجلًا من الأكراد فبنوا له آتونًا ويقال دارة إلى سفح جبل منتف طول جدارها ستّون ذراعًا ونادى منادي الملك احتطبوا لنار إبراهيم فلا يتخلّفنّ منكم أحد ذكرًا وأنثى لا صغيرًا ولا كبيرًا ومن يتخلّف ألقي فيها، فعملوا في ذلك أربعين ليلة حتى لقد كانت المرأة تحلف بإلٰهها أن لو وجدت قليل شيء لأحتطبَنّ للنار حتى إذا ساوى الحطب رأس الجدار سدّت أبواب الأتون بالنحاس، وقذفوا فيه النار فارتفع لهبها وسطع دخانها حتى غشي مدينتهم وطار كالسحاب واشتدّ حرّها فلا يدنو أحد منها إلا احترق، ويقال كان يسمع أجيج النار من مسيرة ثلاثة أيام، فلمّا رأوا ذلك بنوا بنيانًا إلى جنب

الأتون ونصبوا عليه منجنيقًا وذكر أنهم لم يدروا كيف يلقونه في النار إذ لم يقدروا على قرب النار فعلّمهم إبليس وصنع لهم المنجنيق ليرموه، لما رأت الملائكة بكت وبكت معها السمٰوات السبع والأرضون السبع والجبال والبحار والشمس والقمر وقالوا يا ربنا ليس على وجه الأرض أحد يعبدك إلّا واحد وهو يحرق بالنار لأجلك فائذن لنا ننصره، فقال الله تعالى: إن استغاث خليلي بأحدٍ منكم فانصروه، وإلا فأنا أنصره وكفى بي نصيرًا، ويروى أن جبريل عليه السلام قال للنبيّ ﷺ كنت حينئذٍ تحت العرش فقلت: يا رب ألا أنقذ عبدك وخليلك؟ فقال الله تعالى: إن استغاث بك فأغثه فضربت بجناحي حين رمي من المنجنيق فأدركته في الهواء قبل أن يصل إلى النار فقلت: السلام عليك يا إبراهيم أنا جبرائيل ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا، ويروى أنه قال: فسل ربك إذا قال حسبي من سؤالي علمه بحالي وعن سلمان الفارسي(١) رضي الله عنه قال: إن إبراهيم دعا ربّه وقال: إلٰهي أنت واحد في السماء، وأنا واحد في الأرض لا يعبدك غيري يا أحد يا صمد، بك أستغيث وبك أستعين وعليك أتوكّل حسبي الله ونعم الوكيل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم، فلما دعا بهذا الدعاء أنقذه الله تعالى ويروى أن النار قالت: يا ربّ سخرتني لبني آدم حتى يحرقوا لي نبيّك فقال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩] ولو لم يقل «وسلامًا» لأهلكه البرد قال وبعث الله ملك الظلّ والثلج حتى أطلقه، ويقال إن الله لم يسلط النار على شيء من جسده ولا ما معه إلا على وثاقه فاحترق، وأطلقت عنه ويروى أنه لما وقع في النار وجد إسرافيل قد سبقه وبسط له وجاءه جبرائيل فجلس معه يؤانسه وأنبت الله حوله روضة خضراء وبسط له بساطًا من بسط الجنّة وجعل بينه وبين النار حجابًا من الثلج وألبسه جبرائيل قميصًا من ثياب الجنة، وهو عن يمينه وإسرافيل عن يساره وكان يؤتى برزقه من الجنة غداةً وعشيًا ومكث إبراهيم في النار سبعة أيام ويقال ثلاثة أيام ثم إنّ أمّ إبراهيم رأت في منامها كأنّ إبراهيم جالس في النّار وحوله روضة خضراء، وهي تقول في منامها: ألم تر كيف أفلح الله حجّة ابني فلما انتبهت أخبرت زوجها، وروي أن نمرود رأى في منامه كأنّ إبراهيم خرج من النار وعليه قميص أخضر وخرّ له نمرود ساجدًا فلما أصبح من ليلته قال: قولوا لوالدي إبراهيم يطلبا إليّ فأخرج عظام إبراهيم من النار، ولم يشك أن النار قد أحرقته ثم رأى نمرود رؤيا أني أجبت أن أعلم أن إبراهيم كيف هو

(١) سلمان الفارسي: أبو عبد الله، ويعرف بسلمان الخير، مولى رسول الله ﷺ وسئل عن نسبه فقال: أنا سليمان بن الإسلام، عاش ٣٥٠ سنة وتوفي سنة (٣٥ هـ) في آخر خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ابن كثير، أسد الغابة ٢/ ٥١٠.

فأبني برجًا وأطّلع منه على النّار فأمر بذلك فبنى البرج وصعده فاطّلع على النار فرأى إبراهيم جالسًا ومعه الملك فناداه يا إبراهيم ما أعظم إلـٰهك الذي فعل بك ما أرى من قدرته حتى لم تضرّك النار، فهل تستطيع أن تخرج؟ قال: نعم، قال: أفلا تخشى النار، قال: لا، فقام وخرج وجبرائيل يتقدّمه فقال نمرود: إن الرجل الذي رأيته معك في النار من هو؟ قال: ذلك ملك من الملائكة بعثه الله ليؤنسني قال نمرود: يا إبراهيم فإني مقرّب إلى إلـٰهك لما رأيت من قدرته وعزّته، وأذبح له أربعة آلاف بقرة قال إبراهيم: إنه لا يقبل منك حتى تفارق دينك، قال: لا أفارق ديني ولكن أذبحها له فذبحها وكفّ عن أذى إبراهيم.

وفي رواية أخرى أن إبراهيم لمّا خرج من النار كان يدعو إلى الله ثم إن نمرود قال له: إنك لا تكفّ عنّي وقد كففت عنك فاخرج حتى أقاتلك وأقاتل إلـٰهك فواعده إبراهيم يومًا يخرج هو ويخرج نمرود قال: وسأل إبراهيم أن يمدّه الله بجندٍ من جنوده، فقال الله تعالى: يا إبراهيم ما تريد من جنودي ففكّر إبراهيم ولم يخطر بباله شيء أصغر من البقّ فسأله الله أن يمدّه بها، قال: وخرج نمرود ليوم موعده وخرج إبراهيم وحده، فقال نمرود وأين جندك يا إبراهيم؟ قال: سيأتي عن قريب فأرسل الله البقّ على عسكر نمرود حتى أكلت كل ما عليهم من السلاح وما تحتهم من الدواب، ثم أكلتهم بأسرهم إلّا نمرود بنفسه مع نفرٍ من خواصّه فإنه رجع هاربًا إلى قصره وبعث الله بعوضة، ويقال لم يكن لها إلا جناح ونصف قائم فلدغت نمرود على شفتيه فأشار بيده فدخلت خيشومه حتى وصلت إلى دماغه تأكله أربعين يومًا، ويقال بل أربعة أشهر، ويقال أربع سنين ويقال سبع سنين فكان لا يسكن إلا إذا ضرب رأسه بالمقامع ثم إنه ضرب يومًا ضربة فانفلقت هامته وخرّ ميّتًا وخرجت البعوضة من رأسه وقد كبرت مثل الجرادة العظيمة والله أعلم ويروى أن الله تعالى قال لإبراهيم: لولا أنّك ظننت أن البقّ أصغر الدوابّ كنت أبعث على نمرود وجنده كان سبعون منه يساوي بعوضة واحدة حتى أهلكه وجنده، وروي أنه قيل لما واعد إبراهيم للقتال أمر فبني له صرحٌ عظيم وهو الذي ذكره الله في كتابه ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: الآية ٢٦] ويقال كان ارتفاع الصرح في السماء سبعة آلاف ذراع وقيل فرسخين فصعده وجعل يرمي السماء بنبله ويزعم أنه يقتل إلـه إبراهيم، فجعل الله نبله ترجع إليه مخضوبة دمًا ابتلاء له وجعل يرسل نبله إلى أهل الأرض فيقول قتلت ملك السماء وجنده وبعث جبرائيل حتى صاح بأسفله صيحة فسقط أعلاه على أسفله، وخرّ نمرود منه على مزبلة فتلطخ وجهه وشفتاه ومناخره بالقذرة

ويروى أنه أيضًا كان صاحب النسور فأمر بتابوت يصنع له وجلس فيه مع جارية له ويقال مع غلام ومعه قوسه ونبله وكان قد ربّى قبل ذلك أربعة نسورٍ عظام فأوثقهن إلى جانب التابوت وعلق اللحم من فوقهن فقصدت النسور اللحم ورفعت اللحم والتابوت وذهبت به إلى الهواء إلى أن بلغت حيث ظنّ أنه قرب من السماء ويقال أمر الله تعالى ملكًا فحمل تابوته إلى الهواء ابتلاءً له فلمّا ارتفع بعث الله ملكًا ويقال جبرائيل فقال له: ويحك أين تريد فقال أريد السماء قال: وما تصنع قال: لأحارب ملك السماء لأزيله عن ملكه فقال له إن بينك وبين السماء مسيرة خمسمائة عام وغلظ السماء كذلك سبع سمٰوات وما بينهن فكيف تصل إليه فلم ينته نمرود فقال للجارية اطلعي فانظري إلى الأرض فاطلعت فقالت لا أرى شيئًا إلا كالقطعة البيضاء ولا أرى الجبال إلا كالدّنارة ثم ارتفع وقال لها: انظري، فقالت: لا أرى شيئًا غير الماء، فقال: انظري إلى السماء، قالت: نحن كما كنّا من قبل فرمى نمرود سهمًا نحو السماء فرجع إليه مخضوبًا بالدم فقال: قتلت ملك السماء فصاح به جبرائيل صيحة كادت تزول منها الجبال وتخنّس التابوت تحته فتصوّبت مع النسور إلى الأرض ولما سمع الصّوت ظنّت الجبال أنها أمر من الله في هلاك الأرض فكادت تزول فأقرّها الله تعالى فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٦]، ووقع التابوت في البحر فلفظه البحر فبعث الله ريحًا فحملته إلى داره، فلما خرج من التابوت اغتسل ودعا بمرآةٍ ينظر فيها، فبعث الله بقّةً فدخلت أنفه حتى وصلت إلى دماغه وعذبه الله تعالى بذلك إلى أن هلك كما ذكرنا وعن وهب أنّه لما حطّ من الهواء سلّط الله تعالى عليه الريح حتّى قطّعته عضوًا عضوًا وفرّقته في الأرض ثم جمعه الله تعالى وأحياه فلما استوى قائمًا خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة وعاش نمرود مائتين وسبعين سنة، والله أعلم بالصّواب.

باب في ذكر إبراهيم بعد خروجه من النّار ثمّ هجرته

أكثر الرّواة متفقون على أن إبراهيم هاجر ونمرود في الحياة، وأنه خرج هاربًا منه وقد تزوج بابنة عمّه سارة بنت بوهر بن ناخور وآمن به لوط وهو ابن أخيه هاران بن آزر ودعا أباه إلى دينه فلم يؤمن وهدّده بالرجم كما ذكر الله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: الآية ٤٦]، قال إبراهيم سلام عليك سلام الوداع ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: الآية ٤٧] ما لم أنهَ عنك ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾ [مريم: الآية ٤٨] فخرج مخفيًّا من قومه ومعه سارة ولوط ويقال معه هاران أخوه أبو لوط فكانوا أربعة نفر، ويقال: إن إبراهيم كان يومئذٍ ابن ثمان وثلاثين

سنة وسارة ابنة سبع وثلاثين سنة، ويقال بل كان إبراهيم وقت الهجرة ابن ثمانين سنة وسارة ابنة تسع وسبعين سنة والله أعلم، فلمّا خرجوا مرّوا بالعشارين وكان إبراهيم قد خبأ سارة في صندوقٍ وحمله على دابةٍ فقال له العشارون: ما في صندوقك هذا لنأخذ منه حقّه؟ قال: خذوا ما شئتم فقالوا فيه دراهم فقال: خذوا حقّ الدراهم، فقالوا: فيه دنانير فقال: خذوا حق الدنانير قالوا: نفتش ما فيه، فمنعهم إبراهيم فغلبوا عليه ونظروا فرأوا امرأة فأراد أن يخرجوا بها إلى الملك فخالف الله بين ألسنتهم فعند ذلك تبلبلت الألسن. ويقال سبب اختلاف ألسنتهم أن نمرود لما قيل له إن إبراهيم قد هرب جعل على الطرق رصدًا ليأخذوه إذا مرّ بهم فلما مرّ بجماعة منهم خالف الله بين ألسنتهم فلم يقدروا أن يخبروا به فبذلك سمّيت بابل لأن بها تبلبلت الألسن وأنهم وردوا حرّان ثم خرجوا نحو مصر وبها فرعون من الفراعنة جبّار عنيد يقال له صادوف وكانت سارة من أحسن نساء العالمين.

وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه أن الله تعالى قسّم الحسن عشرة أجزاءٍ فأعطى ثلاثة منها لحوّاء وثلاثة منها لسارة وثلاثة منها ليوسف وجزءًا واحدًا في سائر الناس وكانت سارة لا تعصي إبراهيم بشيء وبذلك أكرمها الله بما أكرمها به وقيل: كان الله أعطاها صورة الحور العين، إلا أنه لم يكن لها صفاوتهن وطهرهن، وإن ذلك الملك أخبر بشأن سارة فبعث إلى إبراهيم من هذه المرأة التي معك قال: هي أختي، وخاف إن قال إنها امرأتي أن يقول خلّ سبيلها وهذه من الكذبة الثالثة لإبراهيم، وقيل: أراد بقول إنها أختي في الإسلام وفي القرابة إذ هي ابنة عمّه فقال الملك زوّجنيها فقال: هي أحق بنفسها، فقال: أرسل بها إليّ فبعث إبراهيم بها إليه وقال لها: لا تخافي فإنّ الله يعصمك منه، وكان إبراهيم من أشدّ الناس غيرَة فرفع الله الحجب ما بين إبراهيم وسارة حيث كانت حتى كان يراها وما يكون منها فلمّا قصدها الملك أعمى الله عينيه وأيبس يديه ورجليه ويقال إن الله تعالى زلزل عليه بيته الذي كان فيه فتحمل إلى بيت آخر فكان كذلك فظن أنها زلزلة وقعت بالأرض فسار إلى بستان له فأعماه الله وغلّ يديه، فلما رأى ذلك علم أنه من شأن المرأة، فقالت له سارة هل تدري من أين هذا بك؟ قال: لا، قالت: إنّ إلـه إبراهيم هو يفعل بك هذا لأجله حين سألنيه قال: فما الحيلة؟ قالت: أن تردني إليه ويقال إنه قال لها اسألي ربّك أن يطلق عنّي ولك ما شئت من مالي، فدعت سارة فكشف الله ما به وأنّه ردّها إلى إبراهيم، ويقال: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم أني لا أعافيه إلا أن يخرج من بلده هذا إلى بلد آخر، ويعطيك جميع ما في بلده من أمواله وكنوزه ففعل الملك ذلك، فعافاه الله تعالى فلما أراد أن

يخرج ردّ إليه إبراهيم جميع ذلك فقال الملك لإبراهيم: ما رأيت أكرم منك فوهب لسارة جارية يقال لها هاجر ويقال إنّه قال لها هاجري فيما آذيتك فلذلك سميت هاجر، وكانت الجارية قبطيّة وهي أم إسماعيل عليه السلام، وفي الحديث أن النبيّ ﷺ قال لأصحابه: «إذا اقتحمتم مصرًا فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمّةً ورحمةً» ثم إنهم لما خرجوا من مصر وهب ذلك الملك لسارة ألف شاةٍ ومائة بقرةٍ وخمسين بعيرًا وخمسين حمارًا ورعاتها وإن إبراهيم خرج إلى الشام، فنزل أرض فلسطين[١] فأوحى الله تعالى إليه أن اصعد إلى جبل فلسطين، فما وقع بصرك عليه فإنّي أوتيكه وإن إبراهيم حضر حيث نزل بئرًا واتخذ عندها مسجدًا وكثرت ماشيته فكانت ترد البئر وماؤها معين على وجه الأرض، ثم إن أهل الناحية آذوه فخرج من بين ظهورهم حتى نزل بين رملة وإيليا[٢] فلما خرج من بين أظهرهم نصب ماء البئر فندم القوم على ما صنعوا، فخرجوا إليه وسألوه الرجوع إليهم، فقال: لا أرجع إلى بلدٍ خرجت منه، فقالوا: إن ماء البئر قد نضِب فأعطاهم سبعة أعتدٍ من غنمه، وقال لهم: أوردوها البئر يرجع لكم ماؤها كما كان فاشربوا منها ولا يغترفن منها حائض، فخرجوا بالأعتد إلى البئر فظهر الماء، كما كان وجعلوا يشربون ويسقون ماشيتهم حتى اغترفت منها امرأة حائض فغار ماؤها إلى ما هي عليه اليوم، ثم إن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم وأنزل عليه عشرين صحيفة فيها الشرائع التي أمر بها وكان مما أمر بها العشر التي هي لنا في السنة خمس في الرأس وخمس في الجسد أما الذي في الرأس ففرق الشعر وقص الشارب والسواك والمضمضة والاستنشاق وما في الجسد فالختانُ ونتف الإبط وحلق العانة، والاستنجاء بالماء، وتقليم الأظفار كانت عليه فريضة وإن إبراهيم أول من اختتن ويقال: إنه اختتن بالقدوم[٣] بعد سبعين سنة، ويقال ثمانين سنة من عمره وهو أوّل من أضاف الضيف وفرض عليه ذلك وفرض عليه من الصلاة والزكاة والصوم ما لم يذكر لنا ثم أمره بالحج وبوّأه الحرم وأمره ببناء البيت على ما هو اليوم في شريعتنا.

---

(١) فلسطين: بالكسر ثم الفتح، وسكون السين، وطاء مهملة وآخره نون وهي كورة من كور الشام، من ناحية مصر، قصبتها البيت المقدس، ومن مشهور مدنها عسقلان، والرملة، وغزة، ونابلس، وأريحا، وعمّان، ويافا وغيرها. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤/ ٢٧٤.

(٢) إيليا: بكسر أوله واللام، وياء، وألف ممدودة، اسم مدينة بيت المقدس، وقيل معناه بيت الله، ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٢٩٣.

(٣) القدوم: بالفتح، وتخفيف الدال، وواو ساكنة وميم وقدوم قرية بالشام، المصدر السابق ٤/ ٣١٢.

باب في ذكر معراج إبراهيم عليه السّلام

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: الآية ٧٥] الآية، قال قوم من أهل الأخبار إن الله تعالى لم يعرج به إلى السماء ولكنّه أمره أن يقوم على صخرة مرتفعة وفرّج الله له عن سقوف السمٰوات حتى يرى ما فيهنّ وما فوقهن إلى العرش حتى رأى مكانه في الجنة ودرجاته، وفرّج الله له الأرضين وما تحتهنّ حتى ما فيهنّ وما تحتهنّ إلى الثرى وما أسفل من ذلك، وقال آخرون رأى ما في آفاق السمٰوات والأرض من العجائب وما فوق الأرض إلى سماء الدنيا، ولم ير ما فوق سماء الدنيا ولا ما تحت الأرض وقال آخرون بل عرّج به إلى السمٰوات فرأى ما فيها من العجائب، وذكر هؤلاء منهم عطاءٌ ومجاهد[1] والسّديّ أن الله تعالى لما عرج به إلى السماء فلمّا ارتفع في الهواء نظر إلى الأرض فرأى رجلًا على فاحشة فاستعظمها فدعا عليه بالهلاك فأهلكه الله تعالى بدعائه ثم نظر فرأى آخر على فاحشة عظيمة أعظم من الأولى، فدعا عليه بالهلاك فأهلكه الله تعالى، ثم نظر نظرة ثالثة فرأى رجلًا على كبيرة فأراد أن يدعو عليه، وفي بعض الروايات أنه رأى رجلًا يزني فدعا عليه فأهلكه الله تعالى، ثم نظر نظرةً أخرى فرأى رجلًا يسرق فدعا عليه حتى أهلكه الله تعالى، ثم نظر نظرة رابعة فرأى رجلًا على كبيرة فأراد أن يدعو عليه فقال الله تبارك وتعالى: رويدك يا إبراهيم إني لو أطلعتك على عبادي لأهلكتهم، وإني لأنظر إلى عبادي كل يوم مرّات فأراهم على المعاصي والكبائر وأنا في ذلك أعفو وأصفح عنهم ولا أعاجلهم. يا إبراهيم إنّ عبدي بين خلال ثلاث بين أن يتوب فأتوب عليه، وبين أن أستخرج من صلبه ذريّة فيستغفروا له فأغفر له، وبين أن يدرك رحمتي الواسعة فأرحمه وإن لم يكن ولقيني غير تائب فإن من ورائه النار يا إبراهيم أما علمت أن اسمًا من أسمائي الصّبور. قال الراوي في أول الحديث: كان إبراهيم يرى أنه أرحم الناس بالناس فابتلاه الله تعالى بما ذكرناه فعرف حينئذٍ أن الله أرحم الراحمين، وروى بعض ما أثبت له المعراج إلى السمٰوات أن الله تعالى أمر الملك الذي أعرج به حتى أقامه

---

(١) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي المخزومي، عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، كان مجاهد أعلم بالتفسير، مات سنة (١٠٠ هـ) وقيل (١٠٢ هـ) وقيل غير ذلك وهو ساجد. له ترجمة في الذهبي. أبو عبد الله شمس الدين بن قايماز (ت ٧٤٨ هـ)، العبر في خبر من غبر، حققه وضبطه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت ١٩٤٨ م، ١/ ١٢٥. وميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر ط ١، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م، ٣/ ٤٣٩، السيوطي، تذكرة الحفاظ ص ٣٥.

على باب الجنّة، فرأى ثلاثة أسطرٍ مكتوبة على الجنة أولها لا إلـه إلا الله محمد رسول الله، والثاني أمّة مذنبة وربّ غفور، والثالث من قدم خيرًا وجده ومن عامل الله ربح ومن ورّث مالًا لغيره خسر ثمّ إنه أدخل الجنة فلم ينظر إلى قصرٍ من قصور الجنة ولا درجة من درجاتها ولا ورق من أوراق شجرها ولا باب من أبوابها ولا حلّة من حليّها ولا شيء من أوانيها إلا ورأى مكتوبًا عليه لا إلـه إلا الله محمد رسول الله. قال إبراهيم للملك الذي كان معه من الذي أرى قرن الله ذكره بذكره في كلّ مكانٍ قال الملك، الله أعلم به فقال إبراهيم: يا رب من هذا الذي أرى اسمه مقرونًا بذكرك في كل موضع؟ قال الله له: هو نبيّ من أنبيائي من ذريّتك اسمه محمّد أخرجه من الحرم في آخر الزمان وهو أفضل أنبيائي ورسلي وأشرف عبيدي وأكرم الخلق عليّ ولولاه لم أكن لأخلق السمٰوات والأرضين وما فيهن وما تحتهن وما فوقهن، ولا خلقت شيئًا من خلقي قال إبراهيم: إلـٰهي اجعله من أمّتي، قال يا إبراهيم هو أشرف من أن يكون أمة غيره وإن أمته لمن أفضل الأمم كما أنه من أفضل الأنبياء، قال إبراهيم: إلـٰهي فاجعلني من أمّته، قال: يا إبراهيم إنك لم تلحقه ولم تدرك وقته فإنه يخرج في آخر الزّمان وهو آخر الأنبياء وأمته آخر الأمم وكتابه آخر الكتب، وشريعته آخر الشرائع قال إبراهيم: فاجعلني منه ومن أمّته نصيبًا من أن يبقى ذكري فيهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٤] قال الله تعالى سأجعل لك نصيبًا من ذكرهم بالثناء الحسن فذلك ما لقّن الله تعالى هذه الأمّة أن يقولوا: اللّهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وقال الله تعالى: فإذا كان يوم القيامة وأمرت بأهل الجنة إلى الجنة ومرّت أمّة محمّد نحو الجنّة فكن أنت معهم فرضي إبراهيم عليه السلام بذلك، قال المفسرون في قوله وهذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٣٠]، يعني من جملة أمّة محمد ﷺ وأن الصالحين نعتهم كما قال في موضع آخر: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٥] يعني أمّة محمّد ﷺ وهذا بلغنا من معراجه عليه السلام.

باب في ذكر ولد إبراهيم عليه السَّلام(١)

وإن سارة كانت منعت الولد فقالت لإبراهيم أراك لا ترزق منّي ولدًا فخذ هذه الجارية يعني هاجر فإنها وضيّة لعلّك ترزق منها ولدًا، وقد ذكرنا أن هاجر كانت من

---

(١) انظر تفاصيل هذا الباب موزعة في كتب التفاسير: كما في تفسير سورة الصافات في آيتي ١٠٠ ـ ١٠١. القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٦٥. ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٤. ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٢٨ وما بعدها. ابن كثير ـ قصص الأنبياء ص ١٥٢.

القبط وروي أنها كانت من جرهم سبيت من بلدها فوقعت إلى ملك مصرٍ والله أعلم، فواقعها إبراهيم فحملت بإسماعيل وبشّره الله به وذلك قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: الآيتان ١٠٠، ١٠١] يعني إسماعيل فولدت هاجر إسماعيل فسرّ به إبراهيم، ولما رأت سارة ذلك حزنت على ما فاتها من الولد ورأت شغف إبراهيم بإسماعيل فغارت غيرة شديدةً وحلفت لأقطعنّ عضوًا من أعضائها فهربت هاجر منها ولبست درعًا لها وله ذيل طويل تجرّه لتخفي أثرها كي لا تعلم بها سارة فهي أول من جرّ الذّيل من النساء فقال إبراهيم لسارة هل لك إلى أن تعفي عنها وترضي بقضاء الله، فقالت: كيف أصنع بحلفي؟ قال: اخفضيها فيبرأ قسمك، قالت: نعم فخفضتها فصارت سنّة في النساء وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «الختان تكرمة للنساء وسنّة للرجال» ثم إن الله تعالى بشّرها بإسحٰق وفيه روايتان إحداهما أن البشارة بإسحٰق قبل نقل إبراهيم إلى الحرم والرواية الأخرى أنها كانت بعد ذلك، والله أعلم، وأن الله بعث جبرائيل مع الملائكة ببشارة إبراهيم بإسحٰق فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [العنكبوت: الآية ٣١] وروي أن أول ذلك أن الله تعالى أمر إبراهيم بالضّيافة فاتخذ بيتًا للضيافة له بابان فكان لا يزال مائدته موضوعة فيه بأنواع الأطعمة وكان يعلّق فيه كسوة الشتاء للشتاء وكسوة الصيف للصيف فإذا أتاه الضيفان دخلوا البيت وطعموا ما شاؤوا ولبِس من شاء منهم من اللباس، وخرج من الباب الآخر وأن الله تعالى أوحى إليه أن يا إبراهيم أكرم ضيفك فكان يذبح لكل واحدٍ منهم بعيرًا، فأوحى الله تعالى إليه أكرم ضيفك يا إبراهيم، فقال: يا ربّ ليس عندي شيء أعظم من البعير فأذبحه لهم، فقال الله تعالى: ليس إكرام الضيف بكثرة الطعام، ولكن أن تخدمهم بنفسك فكان إبراهيم قبل ذلك لا يقوم لهم بنفسه، بل يأمر بذلك خدمه وكان بعد ذلك يخدمهم بنفسه ويقوم عليهم، ويقال إنّ إبراهيم كان يخرج من بيته ميلًا أو ميلين يلتمس من يتغدّى معه إذا لم يأته ضيف، ويروى أن الله تعالى أمر جبرائيل فقال: اذهب فزر عبدًا لي من عبادي قد اتخذته خليلًا فقال يا ربّ دلّني عليه فأكون خادمًا له، قال: ذاك إبراهيم. فأتاه جبرائيل عليه السلام وقال: إن الله تعالى بعثني إلى عبد من عباده قد اتخذه خليلًا، فقال إبراهيم: ومن هو يا جبرائيل دلّني عليه لأخدمه، فقال: أنت هو يا إبراهيم، فبكى إبراهيم عليه السّلام، وقال: متى بلغت هذه المنزلة، فقال جبرائيل: بلغتها حين أكرمت الضّيف، ويروى أنّ إبراهيم سئل فقيل له بم اتخذك الله تعالى خليلًا؟ فقال بثلاثة أشياء أحدها: أني لم أهتم قطّ برزق غدٍ، والثّاني أني لم آكل إلا مع الضيف، والثالث: لم يستقبلني أمران في أحدهما رضى الله تعالى، وفي الآخر رضى نفسي إلا اخترت رضاء الله تعالى على رضاء نفسي، وإنه لما

أراد الله تعالى بشارة إبراهيم بإسحٰق بعث جبرائيل عليه السلام مع ملكين ويقال مع اثني عشر ملكًا فجاؤوا إلى إبراهيم في صورة الإنس فانتهوا إليه وهو في زرع له يسقيه، وكلّما بلغ الماء سنًّا ذكر تسبيحاته وصلّى ركعتين فلما رآهم ظنّهم أناسًا فسلّم عليه جبرائيل عليه السلام فأجابه إبراهيم فذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريَات: الآية ٢٥] يعني أنتم ليسوا من أهل الحضر، ولم يكن عليهم أثر السّفر ولذلك أنكرهم ثم رجع إلى سارة وقال: اصنعي لهم طعامًا، فأمرت فذبح لهم عجلٌ سمين وشويَ وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: الآية ٦٩]، وقال: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: الآيتان ٢٦، ٢٧] ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: الآية ٧٠] أي استنكر حالهم وظنّهم لصوصًا وخاف منهم، وذلك أن القوم كانوا لا يأكلون في ذلك الزمان طعام من يريدون به مكروهًا ولا يؤذون من أكلوا طعامه فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾(١) [هُود: الآية ٧٠] نحن ملائكة الله لا بأس عليك. وروي أن جبرائيل عليه السلام قال له: إنا لا نأكل طعامًا إلا بثمنٍ. فقال إبراهيم عليه السلام: كلوا وأدّوا ثمنه. قال جبرائيل عليه السلام: وما ثمنه؟ قال: أن تذكروا اسم الله تعالى في أوّله وأن تحمدوه في آخره، فقال جبرائيل عليه السلام الله كان أعلم بك حين اتخذك خليلًا، وإنه لمّا عرف أنهم ملائكة قال لهم: بماذا جئتم؟ فقالوا: جئناك نبشّرك بغلام يولد لك من سارة وكانت قائمة عليهم تخدمهم، فلمّا قالوا ذلك ضحكت وتعجبت من حديث الولد فقالت: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾(٢) [هود: الآية ٧٢]. وروي أن جبرائيل عليه السلام لما قال لها أتعجبين من أمر الله فتحسس بإصبعه في جنب العجل الحنيذ فخار خورة، فقال لها جبرائيل: هذا أعجب من ولادتك، ثم قال جبرائيل رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد، وذلك قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هُود: الآية ٧١] وإنها حملت بإسحٰق وهي ابنة تسع وتسعين سنة وإبراهيم ابن مائة سنة، ثم قال لهم إبراهيم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٥٧، ٥٨] أراد إبراهيم إنما بعثتم لبشارتي أم لأمرٍ آخر، فقالوا: بعثنا لنبشّرك وبعثنا أيضًا لإهلاك قوم لوط فقال إبراهيم إن فيها لوطًا قالوا نحن أعلم بمن فيها ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: الآيتان ٧٤، ٧٥] فقال له جبرائيل: يا

---

(١) في الأصل جاء (فأوجس منهم خيفة) والصواب ما أثبتناه.

(٢) في الأصل (يا ويلتا أألد وأنا عجوز) والصواب ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾.

إبراهيم أعرض عن هذا وذلك أنّ إبراهيم قال له: أرأيتم إن كان في بلاد قوم لوط مائة أهل بيت مسلمين كنتم تهلكونهم قال جبرائيل: لا، فقال: إن كانوا تسعين قال: فما زال ينقص إلى أن قال: لو كانوا عشرة أهل البيت قال: حتى رجع إلى أهل بيت واحدٍ، قال جبرائيل: لا، قال: فإن فيها لوطًا، قال جبرائيل: لو كانوا أهل بيتٍ تامٍّ مسلمين لم تهلكهم ولكن امرأته كافرة فذلك قوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٣٢] أي الباقين مع قومه في الهلاك.

باب في ذكر شأن لوط عليه السَّلام[(١)]

وإنما أوردنا قصته في خلال قصة إبراهيم عليه السلام لأن الله تعالى خلط قصته بقصّته في القرآن في كثير من المواضع ولأنّ الملائكة الذين بعثوا لبشارة إبراهيم هم الذين أرسلوا إلى لوط لهلاك قومه قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ٨٠] إلى سائر الآيات لمن ذكر في القرآن قد تقدم من حديث لوط أنه كان ابن أخي إبراهيم فهو لوط بن هاران بن آزر وأن الله تعالى بعثه حتى نزل الشام إلى القريات المؤتفكات من ناحية الأردن وكانت خمس مدائن وهنّ سلام[(٢)] وعمورا[(٣)] وصبورا[(٤)] وداذوما[(٥)] وصفر[(٦)] ويقال كان في كل مدينة منهنّ مائة ألف مقاتل وكانوا يعملون هذا العمل الخبيث كما أخبر الله تعالى عنهم وقيل: إنهم أوّل من عمل بذلك من ولد آدم وإن سبب ظهوره فيهم أن إبليس جاء إليهم فدخل كرم رجل منهم على هيئة غلام أمرد وجعل يفسد في كرمه، فلما قصد صاحب الكرم أخذه هرب فلم يدركه، وإذا رجع الرجل رجع يفسد في كرمه فضاق الرجل به ذرعًا، فقال له إبليس: أتريد أن أخرج من كرمك؟ قال: نعم، قال:

---

(١) من أراد زيادة في التفاصيل: الثعلبي ـ العرائس ص ٦١. القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن في تفسير سورة الأعراف، آية: ٨٠، ٤/ ١٨٥. ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٢٦٥.

(٢) سلام بضم أوله، موضع عند قصر مقاتل بين عين التمر والشام، ياقوت الحموي/ معجم البلدان ٣/ ٢٣٤.

(٣) عمورا: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، بلد من بلاد الروم غزاه المعتصم، المصدر السابق ٤/ ١٥٨.

(٤) صبورا: جاء في المعجم (صبوائيم): بالفتح ثم السكون، وواو، وبعدها ألف، ثم همزة مكسورة، وياء ساكنة، وهي إحدى مدائن لوط. وهي الصواب. انظر المصدر السابق ٣/ ٣٩٢.

(٥) داذوما: جاء في الأصل (داروما) والصواب داذوما: بعد الألف ذال معجمة، ثم واو ساكنة من قرى قوم لوط، وقيل ولعلها داروما، المصدر السابق ٢/ ٤١٨.

(٦) صفر: موضع باليمامة، المصدر السابق ٣/ ٤١٣.

فإني لا أخرج ما لم تنكحني فدعاه إلى نفسه حتى فعل به وخرج من كرمه إلى كرم رجل آخر ففعل به مثل ذلك، ثم أتى إلى ثالث ورابع حتّى تعلّموا ذلك العمل الخبيث وفشا فيهم وكانوا يتعرّضون السبيل بذلك العمل وعن ابن عبّاس أن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان فحضروا منهم فقالوا: بأيّ شيء نطردهم فجاءهم إبليس اللعين على هيئة غلامٍ أمرد ودعاهم إلى نفسه فنكحوه فهرب منهم، فقال القوم: هكذا ينبغي أن نصنع بمن دخل بلادنا من الغرباء لنستريح منهم، فكانوا يعاملون الغرباء بذلك حتى فشا ذلك فيهم فذلك قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٩] يعني الفاحشة وقيل بل المنكر عشر خصالٍ قبيحة فما رواه الحسن منها إتيان الرجل الرجل ولعبهم بالحَمَام والجلاهق والحذف بالأصابع وضرب الدف وشرب الخمور وقصّ اللحية وتطويل الشوارب والصفير والتصفيق باليدين ولبس الحمرة قال رسول الله ﷺ ويزيد فيها أمتي إتيان النساء بعضهنّ بعضًا، وفي رواية أنها إتيان الرجل والحذف بالحصا ورمي البندق والصفير وحل إزار القباء وإسبال الإزار ومضغ العلك في المجلس، والسواك هناك والسكينة وتطويل الشوارب، قالوا: فلمّا طال فسادهم ونهاهم لوط فلم ينتهوا كما أخبر الله تعالى في الكتاب في مواضع أذن الله تعالى في هلاكهم وبعث إليهم جبرائيل مع الملائكة فخرجوا نحو قرى[1] لوط حين مضوا من عند إبراهيم عليه السّلام بعد البشارة بإسحٰق فانتهوا إلى لوطٍ حين مضوا من عند إبراهيم عليه السلام وهو في زرع له فسلّموا عليه فحسب لوط أنهم من الناس وكان قوم لوط لما وعظهم لوط ﴿قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾[2] [العنكبوت: الآية ٢٩]، ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٣٠]، فلذلك بعث الله الملائكة فجاؤوا لوطًا فمكثوا عنده إلى المساء فلمّا أمسوا استحيا لوط أن لا يعرض عليهم الضيافة وخاف من قومه أن يضيفهم فقد كانوا نهوا عن ذلك فضاق بهم ذرعًا فقال لهم: ألم تسمعوا خبر هؤلاء القوم أني لا أعلم قومًا أشرّ منهم، فقال جبرائيل للملائكة هذه شهادة واحدة، فلما بلغوا باب المدينة فقال مثل ذلك قال جبرائيل: هذه ثالثة وقد كان الله تعالى قال لهم لا تهلكوا قوم لوطٍ ما لم يشهدوا عليهم ثلاث مرات، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هُود: الآية ٧٧] أي شديد فلمّا دخلوا داره قال لامرأته: اصنعي

---

(١) جاء في الأصل (قرات) والصواب ما ثبتناه. (٢) جاء في الأصل (قالوا له) والصواب ما ثبتناه.

لهم طعامًا ولا تعلمي بهم أحدًا، فإنه لم يرهم أحد فانطلقت لبعض حاجتها وأخبرتهم أنّ عندنا قومًا من هيئتهم كذا وكذا، ويقال إنها صعدت سطحها ولوّحت ثوبها وكانت علامة ما بينها وبين القوم، فقال لوطٌ لجبرائيل ومن معه ادخلوا البيت وأراد قومه دخول البيت فقام لوط عليه السلام على الباب لردّهم فقال: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هُود: الآية ٧٨] أزوّجكموهنّ وكان للوط ابنتان زعورا وريشا، وقال وهب: كان له اثنتا عشرة ابنة فقال لهم: ﴿فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود: الآيتان ٧٨، ٧٩] يعني في بناتك من رغبةٍ وحاجةٍ يعنون عملهم الخبيث، ثم قصدوا البيت الذي فيه الملائكة فوضع جبرائيل جناحه على الباب فلم يطيقوا فتحه فكسروه فمسح جبرائيل جناحه على أعينهم فعموا جميعًا ويقال: انطمست مواضع أعينهم فلم يبق لهم أثر البتّة فقالوا للوط: هذا عملك يا لوط، جئت بالسحرة حتى أعموا أبصارنا والله لنهلكنّك غدًا إذا خرجوا من عندك فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾[1] [القَمَر: الآية ٣٧] فطمسنا أعينهم، فلما سمع لوط تهديدهم له ساءه صنيع القوم وخاف على نفسه إذا انفرد بقومه عند خروج أضيافه، فقال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: الآية ٨٠] يعني عشرة تمنعني منكم، فلما رأى جبرائيل عليه السلام قلقه وخوفه ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ [هود: الآية ٨١] فلا تخفهم وإنما جئنا لهلاكهم فإن السماء والأرض والعرش عجبت إلى ربّها منهم ومن عملهم الخبيث وقالوا للوطٍ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هُود: الآية ٨١]، يعني عند السحر، واجمع بقرك وغنمك وأهلك كلّهم ومالك إلا امرأتك المنافقة فإنه مصيبها ما أصابهم من الهلاك، فلمّا جمعهم لوط حملهم جبرائيل على جناحه حتى وضعهم خارج المدينة وذلك لأن باب المدينة كان مغلقًا وأنطق بهم لوط، وقال: ألا تهلكهم الآن، قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: الآية ٨١]، قال: أهلكهم الآن قال لوط: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: الآية ٨١] وسار لوط حتى انتهى إلى أهل صفر وكان أهل صفر لا يعملون العمل الخبيث فلما انتهى لوط إلى صفر أدخل جبرائيل جناحه تحت المدائن الأربع حتى اقتلعها من الماء الأسود ثم صعد بها إلى السماء حيث يسمع أهل السماء نبح الكلاب وصوت الديكة ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها فأقبلت تهوي من السماء إلى الأرض فذلك قوله تعالى:

---

(١) وقد جاء في الأصل (ضيفه) هكذا (ظيفه) أي حدث تحريف وتصحيف من قبل الناسخ فثبتنا ما هو صواب.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾[1] [النّجم: الآية ٥٣] يعني أهواها الله حتى هوت إلى الأرض ثم رمى كلّ من كان خارجًا منهم عن المدائن بحجر وهم الرعاة والتّجار والمسافرين فلم ينفلت منهم أحد وروي عن مجاهد أنه كان رجل منهم بمكة فجاءه حجر ليدمغه. فقالت الملائكة للحجر لا سبيل لك إليه في حرم الله تعالى فرجع الحجر ووقف في الهواء، إلى أن خرج الرجل فأصابه فقتله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: الآية ٨٢] أي حجارة من سبخ وحل وهي الآجر، والمنضود المتتابع ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ [هود: الآية ٨٣] أي مخطّطة معلّمة عليها بالأسود والحمرة وعليها أسماؤهم ﴿عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: الآية ٨٣] أي من ظالمي هذه الأمة، ويقال يعني الذين يعملون عمل قوم لوط قال محمد بن مروان، أخبرني من رأى تلك الحجارة أنّ منها مثل مبارك الإبل ومنها مثل رؤوس الإبل مثل الجرّة العظيمة ومنها مثل الحبّ العظيم، ومنها مثل قبضة الرجل ولما هلكت المدائن الأربع رجع لوطٌ إلى إبراهيم عليه السلام فكان معه إلى أن قبضه الله تعالى فأوصى ببناته إلى إبراهيم عليه السلام فزوجهنّ من رهطٍ آمنوا به حين ألقي في النار فكان كلّ نبيّ بعد إبراهيم عليه السلام وقبل بني إسرائيل فهو من ولد هؤلاء والله أعلم.

باب في ذكر نقل إبراهيم عليه السّلام إسماعيل عليه السلام وهاجر إلى الحرم وما كان بعد ذلك

وأنّه لما أهلك الله قوم لوط ولد إبراهيم إسحٰق وهو ابن مائة سنة وسارة بنت تسع وتسعين سنة، قال: فجعل الكنعانيّون يقولون ألا ترون إلى هذا الشيخ وإلى هذه العجوزة وجدا صبيًا لقيطًا فرفعاه وزعما أنّه ولدهما فهل يولد لمثلهما، فجعل الله سبحانه وتعالى إسحٰق على صورة إبراهيم عليه السلام بعينها حتى من رآه قال: والله إنه لمن الشيخ وكان إسحٰق أصغر من إسماعيل بثلاث عشرة سنة وكان من سبب نقل إسماعيل أن سارة رأت إبراهيم عليه السلام يحبّ إسماعيل أشدّ من حبّه لإسحٰق فحملتها الغيرة على أن قالت: لا أريد أن تساكنني هاجر وولدها، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن سبب نقل إبراهيم عليه السلام إسماعيل عليه السلام من الشام أن إسماعيل وإسحٰق استبقا يومًا من الأيام إليه فسبق إسماعيل إلى أبيه فأخذه إبراهيم عليه السلام فوضعه في حجره ثم جاء إسحٰق فوضعه عن يمينه فكانت سارة تطلع من فوق السطح فغضبت

(١) المؤتفكة: مدينة بالشام تدعى المؤتفكة انقلبت بأهلها، وقيل لمدائن لوط المؤتفكات ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ٢١٩.

وحلفت أن تخرج إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام وأمّه من عندها وفي رواية أخرى أنهما تلاعبا يومًا فتشاجرا فلطم إسماعيل عليه السلام إسحٰق لطمةً إذ كان أكبر منه فنزلت سارة وحلفت، وهاتان الروايتان يقتضيان أنه لم يكن بين إسحٰق وإسماعيل مدة طويلة، والله أعلم، وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن احملهما إلى مكة فأتاه جبرائيل عليه السلام بالبراق فحمله عليه من الشام وحمل إسماعيل عليه السلام وأمّه على الدابة وسار وجبرائيل معه يدلّه على الطريق حتى انتهى إلى مكّة فأنزل إسماعيل عليه السلام وأمّه عند دوحة كانت في مكان زمزم اليوم فقال له جبرائيل عليه السلام هٰهنا أمرت أن تضعهما وكان قوم من العماليق ينزلون خارج الحرم ولم يكن في الحرم أحدٌ فذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] ولم يكن البيت يومئذٍ ولكن كان موضع البيت ربوةً حمراء مشرّفة معلومة للنّاس يطوف به من حجّ من الناس وإن إبراهيم أقام عندهما ثلاثًا ثم همّ بالانصراف، فقالت له هاجر إلى من تكلنا، قال: إلى الله تعالى، قالت: رضيت بالله ربًّا حسبي الله عليه توكلت، فلمّا صار إبراهيم إلى أعلى مكّة التفت إليهما فجزع لذلك جزعًا شديدًا ولم ير شيئًا يكنهما من العمران ولا غيره ولا عندهما مؤنس ولا ماء فدعا وقال: يا رب ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] إلى آخر الآيات، ثمّ رجع إبراهيم عليه السلام إلى الشام وتركهما وأخذت أم إسماعيل كساء لهما من عباءةٍ وألقي على الشجرة ولبثا في ظلّ تلك الشجرة ومعهما شنة من ماءٍ علقتها على الشجرة، وقد اختلف الناس فقال بعضهم: كان إسماعيل رضيعًا ويقال: لا، بل كان ابن ثلاث عشرة سنة ويقال: كان ابن ثلاث سنين، وأنه لما فني الماء وظمأ إسماعيل ظمأً شديدًا وانقطع لبن أمّه وظنّت أنّه الموت لشدّة العطش فجزعت وخرجت تذهب نحو الصّفا مرّة ونحو مروة مرّةً تطلب ماء وأنيسًا فلا تجد شيئًا وهي في ذلك تلتفت إلى ابنها تخاف عليه السباع ثم إنها سمعت صوتًا من قبل الصّفا فأقبلت إليه فلم ترَ شيئًا ثم تسمع أنها أصوات السباع نحو مكان إسماعيل عليه السلام حيث تركته، فأقبلت إليه تشتدّ تفحص الماء بيدها من عين قد نبعت له من تحت خدّه، وفي رواية أنها سمعت الصوت ولم تر شيئًا قالت: من أنت أسمع صوتك ولا أراك، أغثني إن كان بك غياث فقد هلكت وهلك ابني عطشًا فجعل الصوت يمرّ بين يديها وهي تلتفت حتى أتت الشجرة فوجدت عينًا من ماءٍ تجري وهي زمزم ويروى أن إسماعيل عليه السلام فحص برجله ويقال: إن جبرائيل نزل عليها وقال: من أنت؟ وكان جبرائيل في صورة رجل فقالت: أنا أم ولد إبراهيم، قال: من هذا الذي معك؟ قالت: ابني من إبراهيم عليه السلام قال: وإلى من وكلكما إبراهيم حين ذهب قالت: والله قد

تعلقت بثوبه حين ذهب وقلت له: إلى من تكلنا قال: أكلكما إلى الله تعالى، قال جبرائيل عليه السلام: لقد وكلكما إلى كافٍ ثم جبرائيل عليه السلام خطّ بإصبعه في الأرض ومدّه فنبع الماء من موضع إصبعه فصار عينًا تجري وهي زمزم ويقال: لا بل ركض جبرائيل برجله الأرض فنبع الماء، وفي الحديث أنّ زمزم ركضة جبرائيل ثم قال لها: ادعي ابنك فدعت فجعلت تدعوه بالعبرانيّة فلما جاءها كاد أن يموت عطشًا فشرب إسماعيل عليه السلام فأخذت هاجر قربةً عندها يابسة فبلّتها بالماء فقال لها جبرائيل عليه السلام: إنها تجري فلا تتركيها، ويقال إنها حوّطت عليها بالتراب مخافة أن يذهب الماء فحبستها فلو لم يكن فعلها ذلك لكانت زمزم ماءً معينًا جاريًا أبدًا ونودي من فوقها لا تخافي من ذهاب الماء فإن الله تعالى قد أنبطها لابنك، وقد جعله الله نبيًّا من الصالحين، وقد بوّأه الله هذا البلد ليبني فيه بيتًا تحجّه الناس من أقطار الأرض ويكون الماء شرابًا لمن يحجّ وزار البيت إسماعيل فطابت نفس هاجر فاطمأنت وقد قالت صفيّة عمّة رسول الله ﷺ في زمزم:

نحن حفرنا للحجيج زمزم شفاء سقم وإطعام مطعم
سقيا نبي الله في الحرم وابن خليل الله والمكرم
ركضة جبرائيل عليه السلام ولما يعظم

فهذه الأبيات تدل على أن زمزم ركضة جبرائيل عليه السلام والله أعلم.

باب في ذكر جُرهُم وسكنهم مكّة[١]

كان جُرْهُمْ بني أعمام إبراهيم عليه السلام لأن إبراهيم كان من ولد فالخ بن عابر[٢] بن شالخ وكانت جرهم من أولاد يقطن بن عابر بن شالخ وكان العابر ولد ثالث وهو قحطان بن عابر بن شالخ فتكلم قحطان بن عابر وجرهم بن يقطن بالعربيّة وتكلّم ولد فالخ بن عابر بالعبرانيّة ونسبة العبرانية إلى عابر فإنّه كان يتكلم وكان أبو قحطان وجرهم يسكنون اليمن ثم سارت جرهم عن اليمن حتى وردوا مكّة، وسبب ذلك أن جرهما كانت تأتي من اليمن للتجارة وغيرها من العراق وطريقهم بمكّة فورد قوم منهم في

(١) جرهم كانوا أهل مكة وهم ولاة البيت ويقطن بن عابر بن شالخ هو أبو جرهم، وجرهم بنو عم يعرب وكانت جرهم ممن سكن اليمن وتكلموا بالعربية، ثم نزلوا بمكة فكانوا بها، ثم أسكنها الله إسماعيل (عليه السلام) ونكح في جرهم فهم أخوال ولده، ابن قتيبة ـ المعارف ص ٦٤٠، المسعودي ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ١/ ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) جاء في الأصل (عاير) والصواب ما أثبتناه.

وقت نزول إسماعيل وهاجر بها مكّة فلما قربوا باب مكّة نظروا إلى الطير تحوم في الهواء عند موضع البيت فقال بعضهم لبعض ألا ترون إلى هذا الطير فاتبع الطير رجلان منهم فوقعا على إسماعيل وأمّه وإذا الطير تحوم على ذلك الماء وليس عنده إلّا امرأة وصبيّ فقط فعجبا من ذلك، وقالا لها: جنٌّ أو إنسٌ أنتما؟ قالت: لا بل إنس وأخبرتهما خبرهما وخبر الماء فقالت: هذا منزل بناه الله وبوّأه ابني هذا قالا: فاسقينا من مائك فسقتهما فإذا ماءٌ عذب طيّب قالا وهل يخاصمك أحد في هذا الماء قالت: لا هذا شيء رزقنا الله وسقاناه وإنهما نظرا إلى الوادي فرأياه حصيبًا ذا كلأ كثير فازدادوا رغبة فيه فرجعا إلى قومهما وكانوا أهل ماشيةٍ فأخبراهم بحال البلد والماء، فأقبلوا يسيرون إلى بلادهم اليمن وجمعوا أهاليهم ومواشيهم وساقوها حتى وردوا مكّة ونزلوها وكان لا يخرج من اليمن قوم إلا ولهم ملك يقيم أمرهم فكان ملك جرهم يومئذٍ مضاض بن عمر الجرهميّ وخرج مع جرهم من اليمن قبيلة أخرى يقال لهم قنطور بني أعمام جرهم وملكهم سميدع بن عامر فنزل مضاض بن عمرو ومن معه بأعلى مكة وقطعوا شجرها وابتنوا مساكنها، ونزل سميدع أسفل مكّة هو ومن معه فقطعوا شجرها وابتنوا مساكنها وكانوا قومًا عربًا يتكلّمون بهذا اللسان العربيّ وإنما ساقهم الله إليها لدعوة إبراهيم عليه السلام ليكونوا أنسًا لإسماعيل عليه السلام ولأمّه فنشأ إسماعيل فيهم وتكلّم بالعربيّة وتعلّم منهم الرّمي ولما بلغ أشده تزوّج منهم بامرأة وولد له أولاد.

باب في ذكر الذبح والاختلاف فيه(١)

قال قد اختلف الناس في الذبح في ابني إبراهيم من هو، فقال أكثر أهل الكتاب وكثير من علماء الإسلام وبعض أهل الكتاب إنه إسحٰق عليه السلام وعندنا أن الذبيح إسماعيل، والدليل على ذلك قوله عزّ وجل في سورة الصافات: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ(٢) بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ(٣) ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: الآيتان ١٠١، ١٠٢] قال إلى تمام قصة الذبح ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: الآية ١١٢] فدلّ على أن بشارة الأولى بالولد الذي بلغ معه السعي وأمر بذبحه غير البشارة بإسحٰق وأيضًا فإن الله تعالى قال في سورة هودٍ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: الآية ٧١]، وإذا قد كان الله قد بشرهما بأنّ لهما من إسحٰق جنينًا

---

(١) انظر تفاصيل هذا الباب في: الثعلبي ـ العرائس ص ٥٤. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٦٦، بتفسير سورة الصافات من آية: ١٠٢ إلى آية ١١٣.

(٢) جاء في الأصل (وبشرناه) والصواب ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾.

(٣) جاء في الأصل (عليم) والصواب ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

وهو يعقوب فلو أمره بذبحه لم يكن فيه ابتلاء إذ كان قد يعلم أنه لا يذبح ويبقى ليولد له يعقوب وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٦] فدلّ على أن المأمور بذبحه غير إسحٰق وأيضًا فإن الذبح والقربان وموضع الذبح بمكّة وكان إسماعيل هو بمكّة لا إسحٰق وروت الرواة أن أوّل هذه الأمّة رأوا قرني الكبش الذي فودي به ابن إبراهيم معلقين بالكعبة وأيضًا قد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» وكان أحد الذبيحين إسماعيل والآخر عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله ﷺ ولا شك أن النبيّ ﷺ كان من ولد إسماعيل عليه السلام دون إسحٰق وفي هذا الباب روايات كثيرة حججٌ لنا لم نكتبها.

باب في ذكر بناء البيت(١)

ثم إن إبراهيم عليه السلام زار مرة من المرات التي يزور فيها إسماعيل وأمّه فأمره الله تعالى ببناء البيت فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: الآية ٢٦]، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: الآية ١٢٧]. وقال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: الآية ١٢٥]، ويقال إن الله تعالى أمره بذلك وهو بالشام فخرج حتى ورد مكّة. قال ابن عبّاس: لما أغرق الله تعالى قوم نوح ورفع البيت المعمور الذي كان على عهد شيث ومن بعده إلى وقت نوح إلى السماء فهو اليوم البيت المعمور الذي ذكره الله تعالى ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾ [الطور: الآية ٤]، وهو موضع على حذاء البيت الحرام، وهو موضع حجّ الملائكة وبقي موضع الكعبة ربوة حمراء يزورها الناس ويطوفون بها إلى زمن إبراهيم عليه السلام فأمر الله تعالى أن يبني على ذلك الأساس الذي كان ويقال: إن ذلك الأساس كان وضعه شيث عليه السلام قال: فالتبس على إبراهيم مكان الأساس فبعث الله سحابة حتى وقعت بحبال موضع البيت وأظلته فعرف إبراهيم أساس البيت وموضعه، وقيّض الله تعالى العنكبوت حتى نسج على مواضع أساس البيت حتى عرفه إبراهيم عليه السلام وقيل له: احفر هٰهنا فلم يزل إبراهيم يحفر حتى وصل إلى الأساس الأول الذي أسّسه شيث فبنى البيت على حاله وبناه بالحجارة، فكان إسماعيل عليه السلام يناول الحجر والطين وإبراهيم يبني فبناه من خمسة أجبلٍ الأول من جبل

---

(١) انظر تفاصيل هذا الباب في: الثعلبي - العرائس ص ٥١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن موزعة على الأجزاء حسب ورود الآية في الجزء الأول، سورة البقرة الآية: ١٢٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٤٠، ابن كثير: قصص الأنبياء ص ١٦٩.

طور سيناء، والثاني من جبل طور زيتا، والثالث من جبل لبنان، والرابع من جبل جوديّ، وجعل قواعده من جبل حرّا وأنه لما بلغ موضع الحجر في الركن قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنيّ اطلب حجرًا اجعله علمًا للناس فجاءه بحجرٍ لم يرضه فقال: اطلب لي غيره فذهب يلتمس حجرًا فجاءه جبرائيل عليه السلام وقد أتاه بالحجر ووضعه موضعه فقال: يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟ قال: من لم يكلني إليك يا بنيّ وكان الحجر الأسود مستودعًا في جبل أبي قبيسٍ استودعه إياه جبرائيل عليه السلام في زمن الغرق فاستخرجه إبراهيم عليه السلام فوضعه مكانه الآن، ويروى أنه إذا كان يوم القيامة جاء الحجر وله شفتان ولسان فيسأل فينطق بلسان طلق يشهد لمن استلمه وقال وهب وليس من ملك يبعثه الله تعالى لتدبيرٍ في الأرض إلا ويأمره بزيارة البيت فينزل من السماء محرمًا يلبّي ثم يأتي البيت فيطوف به ويستلم الركن ثم يدخل البيت ويصلّي فيه ثم يمضي لما بعث له وروي أن النبي ﷺ رأى جبرائيل عليه السلام يومًا وعليه عصابة حمراء، ويقال خضراء وعليها الغبار فقال له: ما هذا الغبار يا جبرائيل؟ قال: بعثت في جماعة من الملائكة فزرنا البيت وطفنا فإني زاحمت الملائكة على الحجر لأستلمه فهذا الغبار مما أثارته الملائكة بأجنحتها في الازدحام وإن إبراهيم لما أتمّ بناء البيت أمر الله تعالى بأن يدعو الناس إلى الحجّ فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحَجّ: الآية ٢٧]، قال: فاستقبل اليمن ودعا إلى الحج فأجيب لبّيك لبّيك، ثم استقبل المشرق فقال مثل ذلك فأجيب مثل ذلك، ثم استقبل الشام فقال مثل ذلك. قال ابن عبّاسٍ: فأجابه كل مَن حج ويحج البيت إلى يوم القيامة من أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم فمن أجابه مرّة حج مرّة ومن زاد على المرّة زاد في الحجّ إلى ما بلغ، قال: وكان نداؤه أن قال: أيها الناس إن الله تبارك وتعالى قد بنى لكم بيتًا فزوروه. ويقال كان أكثر الناس جوابًا أهل اليمن وإن إبراهيم عليه السلام وإسماعيل دعوا الله عند الفراغ من بناء البيت فقالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: الآيتان ١٢٧، ١٢٨] فبعث الله جبرائيل ليريه مناسك الحج فأتاه وأطاف به على جميع المناسك حتى عرفها وأمره بإقامة الحج فخرج إبراهيم وإسماعيل ومَن معهما يوم التروية ونزلوا مِنًى فصلّى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة فبات به إلى أن يصبح فصلّى بهم صلاة الفجر ثم غدا إلى عَرَفَة فأقام هنالك إلى أن مالت الشمس، فجمع بين صلاتي الظهر والعصر ثم راح إلى الموقف من عرفة فوقف ومن معه فلما غربت الشمس دفع إلى مزدلفة فجمع بين المغرب والعشاء هنالك وبات حتَّى أصبح، وصلى الفجر ووقف بالمشعر الحرام منه ثم دفع إلى مِنًى ورمى الجمرات وفعل تمام

شعائر الحج كما أراه جبرائيل عليه السلام حتى الذبح فرأى في تلك الليلة ما أُجرِيَ من ذبح ابنه فرجعنا إلى ذكر الذبح ثم إنه رأى في المنام: إن الله يأمرك بذبح ابنك فأصبح متفكّرًا وظنّ أن ذلك من الشيطان، ثم إنه رأى في الليلة الثانية مثل ذلك فقال: هذا من الشيطان يريد أن يفتنني في ابني حتى كانت الليلة الثالثة رأى مثل ذلك، ونودي في منامه يا إبراهيم لم يكن الشيطان يأمرك بطاعة ربك قم فامضِ إلى ما أُمِرت به، فلما أصبح قال لأمّه: اغسلي رأس إسماعيل وهيِّئيه ودهِّنيه فغسلت رأسه ودهنته وهيّأته، فقال له إبراهيم: يا بني خذ المديّة والحبل حتى نحتطب من هذا الشِّعب، فلما توجّها إلى الشِّعب اعترض إبليس لإبراهيم في صورة شيخ، فقال له: أين تريد يا إبراهيم؟ قال: إلى هذا الشِّعب بحاجةٍ لي قال: إني والله لا أرى الشيطان قد جاءك وأمرك أن تذبح ابنك فعرفه إبراهيم، فقال: إليك عنّي يا عدوّ الله لأمضي لأمر ربّي فلما يئس منه عدو الله واعترض لإسماعيل وهو وراء أبيه ومعه الحبل والمديّة فقال له: يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نعم نحتطب في هذا الشِّعب، قال: والله ما يريد إلا ذبحك، قال: وهل رأيت والدًا يذبح ولده؟ قال إبليس: إنه يزعم أن الله أمره بذلك قال إسماعيل: فليفعل ما أمره الله تعالى فسمعًا وطاعة، فلما يئس من الغلام أقبل إلى هاجر فقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بإسماعيل؟ قالت: ذهب ليحتطب لنا، قال: لا، بل ذهب ليذبحه، قالت: كلا بل هو أرحم به من ذلك، قال: إنّه يزعم أن الله أمره بذبحه، قالت: فإن كان الله أمره به فلنسلّم لأمر الله فرجع عدو الله خائبًا واعتصم إبراهيم وآله أجمعون من شرّه وأجمعوا على السمع والطاعة لأمر الله ولما أتى إبراهيم الشِّعب قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: الآية ١٠٢] قال: ثم إن إسماعيل قال له: يا أبت إذا أردت ذبحي فشُدَّ يديّ ورِجليَّ فإني لا آمن أن أضطرب عند جرّ الذبح فإن الموت شديد، وربما يصيبك مني شيء فينقص من أجري، واستحدّ شفرتك حتى تجري عليّ سريعًا فتريحني وإذا أضجعتني للذبح فكبّني على وجهي ولا تضجعني لشقي فإنّي أخشى أن تنظر إلى وجهي فتدركك الشفقة فيحول بينك وبين أمر الله، ثم رُدّ قميصي إلى أمّي فتشمّ ريحي ليكون أسلى لها عنّي. فقال إبراهيم: يا بنيّ نِعْمَ العون أنت على أمر الله، قال: ففعل وأنّه جلس عند رأسه فقال: إلـهي لك الحمد في الدهر الماضي، ولك الحمد في الدهر الباقي إلـهي رزقتني الولد في كبر سنّي ثم ابتليتني بذبحه فإن كان لك رضى فتسليمًا لأمرك وإن كان غضب منك عليّ فإني أستغفرك وأتوب إليك، قال: فبكت الملائكة وقالت: يا ربّ نبيّ قد كُبَّ على وجهه ونبيّ آخر يذبحه وأدخل شفرته تحت

حنكه فبكت السكين وثبت[١] ولم تقطع، قال: فاستحدّها مرة أخرى وأدخلها تحت حنكه وأمرّها على حلقه فبكت وثبت وقلبها الله تعالى على ظهرها كذلك ثلاث مرّات ونودي يا إبراهيم ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾ [الصافات: الآية ١٠٥] عليك بالذي خلفك فاذبحه فإنّه فداء ابنك قال: ونزل عليه كبش من الجبل أنزله الله تعالى من الجنّة قد رعى فيها أربعين خريفًا ويقال كان ذلك الكبش قربان هابيل عليه السلام يرعى في الجنّة إلى ذلك الوقت وترك إبراهيم ابنه وسعى خلف الكبش ليأخذه فأدركه عند الجمرة الأولى فرماه بسبع حصياتٍ فأقبل فأدركه عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات فأخذه وأتى به المنحر من مِنًى فذبحه فوالذي نفس ابن عبَّاسٍ بيده إن الله تعالى جاء بالإسلام وإن رأس الكبش بقرنيه معلق من ميزاب الكعبة قد يبس، قال: ولما ترك إبراهيم ابنه مربوطًا جاءه جبرائيل فحلّ وثاقه، فلما رجع إليه إبراهيم قال له يا بنيّ: مَن حلّك من وثاقك؟ قال: رجل من صفته كذا وكذا، قال: فإنه جبرائيل، ويقال إن جبرائيل قال له عند حلّه: إن لك دعوة مُستجابة فاسأل ربّك ما شئت، فقال: يا ربّ أسألك أن تغفر لكلّ مَن لم يشرك بك شيئًا، قال: وقال إبراهيم لما أخبره إسماعيل أن جبرائيل قال له اسأل ربّك فإذا شئت يا بنيّ فقل كذا وكذا، قال: إنّك لموافق يا بنيّ؟ قال وهب ثم جاءهما نداءٌ من السماء ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾[٢] يا أصدق الصّادقين إني اخترتكما فوفيتما وابتليتكما فصبرتما وإنما أردت أن أُبلّغكما المنزلة التي لا يعدلها أحد في الدرجات العُلى من الجنّة وأعطيتكما لسان الصدق في العالمين ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣] فأنت يا إبراهيم خليلي من خلقي وأنت يا إسماعيل صَفِيّ من خلقي فخرّا ساجدين لله تعالى شكرًا.

باب في ذكر تزويج إسماعيل عليه السَّلام[٤] بعد ذلك وزيارة إبراهيم إيّاه

قالت الرواة: ثم رجع إبراهيم بعد ذلك إلى الشام ورزق الله تعالى إسماعيل ماشية كثيرة، فكان يرعاها بالنهار ويأوي باللّيل إلى أمّه هاجر فكان الحجر وهو الحطيم[٥] مراح غنمه بالليل، ثم إن إسماعيل رأى امرأة من العماليق فأعجبته فتزوج وهي غمرة بنت

(١) جاء في الأصل (وتبت) والصواب (وثبت) حدث تصحيف من الناسخ.
(٢) ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الصّافات: الآية ١٠٤].
(٣) ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: الآية ١٠٥].
(٤) ذكر تفاصيل هذا الباب في: ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٧٥، ابن كثير، قصص الأنبياء ص ٢٢٢.
(٥) الحطيم: بالفتح ثم الكسر بمكة: هو ما بين المقام إلى الباب وهو ما بين الركن والمقام وزمزم والحجر وقيل ما بين الركن الأسود إلى الباب إلى المقام حيث يتحطم الناس للدعاء، وقال ابن=

أسعد بن أسامة العمليق، ثم إن إبراهيم أراد زيارة ابنه إسماعيل فركب البراق فقالت له سارة ودخلتها الغيرة لا أحبّ أن تنزل حتى ترجع إليّ فقال: نعم، فلمّا ورد مكّة أتى منزل إسماعيل فوجده غائبًا في غنمه ويقال للصيد ووجد امرأته في البيت فسألها من أنت قالت: أنا امرأة إسماعيل بن إبراهيم قال إبراهيم: كيف عيشكم وكيف أنتم؟ قالت: كما شاء الله، ولم تثن على الله بنعمة وأظهرت السخط بمعيشتهما قال لها إبراهيم: وأين إسماعيل؟ قالت: وما سؤالك عنه، هو غائب قال: فمتى يجيء؟ قالت: لا أعلم، ولم تعرض عليه نزولًا ولم تحدثه بما يريد فقال إبراهيم إذا جاء زوجك فأقرئيه مني السّلام وقولي له: إنّ أباك يقول لك حوّل عتبة بابك، قالت: سأفعل ومضى إبراهيم فلما راح إسماعيل رأى آثار أبيه والبراق فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: لا، إلّا شيخ سأل عنك وقال كذا وكذا، وقال لك حوّل عتبة بابك قال إسماعيل كان الشيخ أبي وأنت عتبة الباب، فإنه لم يرضك لي فطلّقها ثم تزوج إسماعيل بعدها السيّدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي امرأة إسماعيل بن إبراهيم، فقال لها إبراهيم: فكيف عيشكم؟ قالت: خير عيش بحمد الله قال: وكيف زوجك؟ قالت: خير زوج وعرضت عليه النزول والضيافة، فقال: لا أستطيع النزول. قالت: فإني أرى رأسك شعثًا أفلا أغسله لك وأدهنه؟ قال: إن شئت فجاءته بصخرةٍ فوضع عليها قدمه الأيمن حتى غسلت شقّ رأسه الأيمن وهو على دابّته، ثم حوّلت الصخرة حتّى وضع عليها قدمه الأيسر فغسلت شقّ رأسه الأيسر فتلك الصخرة أثر فيها قدما إبراهيم فهي المقام الذي جعله الله إمامًا ومصلّى للناس، وقد قيل في المقام غير ذلك، وقد ذكرنا الأقاويل فيه في معاني القرآن، قال: فجاءته بطبق عليه الطعام وأمسكته له حتى أكل على البراق وشرب وبرّته بلسانها فقال لها إبراهيم: إذا رجع إليك زوجك فقولي له جاء إليّ هٰهنا إبراهيم وهو يقول: نِعْمَ العتبة عتبة بابك، فاحفظها، ثم قال لها إبراهيم: هل عندكم خبز؟ قالت: لا أدري ما الخبز. قال: هل عندكم من سويق؟ قالت: لا أدري ما السويق. قال: هل عندكم تمر؟ قالت: لا أعرف شيئًا مما تقول، فبكى إبراهيم فقال: ﴿رَّبَّنَآ[1] إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] ولما رجع إبراهيم راح إسماعيل ووجد ريح إبراهيم والبراق، فقال لامرأته: هل جاء هٰهنا أحد؟ قالت: نعم، شيخ ما رأيت مثله قطّ له

= عباس (رضي الله عنه) الحطيم الجدر بمعنى جدار الكعبة، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ٢٧٣.

(١) جاء في الأصل (ربي) والصواب ﴿رَّبَّنَآ﴾.

أبهة الملك وسيمات الأخيار ونور الأنبياء وهذا أثره فأرته مقام إبراهيم، وأخبرته خبره فدعا إسماعيل بالمقام وجمع ولده وبكى وقال: هذا مقام أبيكم إبراهيم فبكوا وقبّلوا موضع قدميه، قال: وبعث الله تعالى بدعاء إبراهيم ملكين ويقال إنهما جبرائيل وميكائيل حتى احتمل الطائف من أرض الشام وقلع الآخر أرض رملة من تهامة من تحت الأرض فأقبل كل واحد منهما على صاحبه إلى حيث أمر به فالتقيا في ظلمة الليل فسأل كل واحد منهما صاحبه فأخبره بما أمره به فوضع الطائف بتهامة مكان رملة ووضع الآخر رملة مكان الطائف بالشام بسبب دعاء إبراهيم عليه السلام، ويقال: كان اسم الطائف آخر فجاء بها جبرائيل حتى أطافها بالبيت سبعًا ثم وضعها مكانها فسمّيت الطائف لأجل ذلك ثم كان إبراهيم عليه السلام يتعهّد إسماعيل وهاجر إلى أن توفيت هاجر وبعد ذلك إلى أن توفى الله إبراهيم عليه السلام.

باب في ذكر وفاة إبراهيم عليه السَّلام(١)

إن الله تعالى كان كثّر أموال إبراهيم وولده وخدمه وماشيته حتى يقال كان على غنمه أربعة آلاف كلب لرعاته وكان له من هاجر إسماعيل وهو بكر، ومن سارة إسحٰق ولما توفيت سارة تزوج إبراهيم من الكنعانيين امرأة فولدت له خمسة نفر بقيشان بن إبراهيم وزمران بن إبراهيم ومدين بن إبراهيم، وسبق بن إبراهيم، وشوح بن إبراهيم ولم يكن أحد من هؤلاء نبيًا بل كانت النبوة في بني إسحٰق وإسماعيل وإن الله تعالى أظهر على إبراهيم الشيب وهو ابن مائة وخمسين سنة، قالوا: وكان سبب ذلك أن إسحٰق كان من أشبه الناس بأبيه إبراهيم حتى كان الناس لا يفرقون بينهما وكان الرجل يأتي إسحٰق ويظنّه أنه إبراهيم فيقول السلام عليك يا خليل الله فيقول إسحٰق: أنا ابن خليل الرحمٰن هو خير منّي وهو سيّدي وأنا عبده، فلمّا التبس أمرهما على الناس وسم الله إبراهيم بالشيب فلما رآه إبراهيم جزع منه ومن بياض الشعر ولم يرد ما هو وكان أوّل من شاب من ولد آدم، فقال: يا ربّ ما هذا؟ قال: هذا وقارٌ وسكينة وحلم من قبلي، فقال: اللّهم زدني وقارًا وسكينة وفرح به، ثم عاش إبراهيم خمسًا وعشرين سنة بعد ذلك فكان كل عمره مائة وخمس وسبعين سنة، ويقال: مائتا سنة ولما أراد الله قبض روح إبراهيم بعث إليه ملك الموت فكان له دار يخلو فيها لا يدخلها أحد إلّا بإذنه فدخلها ملك الموت وإبراهيم غائب فلما دخل إبرهيم داره وجد فيها رجلًا على أقبح صورة وأنكرها فراعه ذلك، فقال له: من أذن لك بالدخول في داري؟ فقال: ربّ الدار فقال إبراهيم: ربّ

(١) انظر تفاصيل هذا الباب في: الثعلبي ـ العرائس ص ٥٨، ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٥٣.

الدار أحق بالدّار وخرج عنه ملك الموت، فلما كان من الغدّ خرج إبراهيم من داره وأغلقها فجاء ملك الموت فدخلها وجاء إبراهيم فرأى في داره رجلًا في أحسن صورة لم يراها قطّ فأعجبه ما رأى، وقال له: من أنت ومن أذن لك في داري؟ قال: أذن لي ربّ الدار، قال إبراهيم: ربّ الدار أحق بالدار فمن أنت؟ قال: أنا ملك الموت وأنا صاحبك بالأمس، قال: إن الله تعالى إذا أراد بعبد شرًّا بعثني إليه في صورة التي رأيتها بالأمس وإن أراد بعبد خيرًا بعثني في هذه الصّورة، وفي رواية أخرى: إن الله تعالى قال لملك الموت اذهب إلى خليلي إبراهيم فكرّه إليه الحياة وحبّب إليه الموت، فانطلق ملك الموت في صورة شيخ قد تقوّس ظهره وعمشت عيناه وسالت منخراه يتوكأ على عصًا له وإبراهيم عليه السلام قاعد في كلّ داره وتأتيه المساكين فيضيفهم ويأمر بَمن شاء منهم فجاءه ملك الموت على هذه الصورة وسلّم على إبراهيم وأمر له بطعام فجلس وأراه أن يأكل فكلّما لقم لقمة في فيه سقطت في ساعتها من أسفله فعجب إبراهيم من حاله، فقال: يا شيخ ما هذا الذي يصيبك من طعامك، وما هذا الذي أرى بك من حالك قال: هذا كبر السنّ ومن بلغه صار هكذا، قال: فما عمرك؟ قال: مائتا سنة وسنة أخرى وكان لإبراهيم يومئذٍ مائتا سنة، فقال إبراهيم في نفسه: إنه لم يبق بيني وبين ما أرى إلّا سنة واحدة وأبغض عند ذلك الحياة وأحبّ الموت ثم ولّى عنه الشيخ ورجع إليه بعد سنة في أحسن صورة وعرفه إبراهيم فقال: يا ملك الموت لقد تمنيتك السّاعة وأخبره خبر الشيخ فقال: وأما أنا قد أمرت بقبض روحك، وفي رواية أخرى أن ملك الموت جاء إبراهيم عليه السلام لقبض روحه وسلّم عليه فردّ عليه السلام وقال: من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت أُمرت فيك فبكى إبراهيم فسمع إسحٰق بكاءه فدخل عليه، وقال: يا خليل الرّحمٰن ما يبكيك؟ قال: هذا ملك الموت جاء لقبض روحي فبكى إسحٰق ورجع ملك الموت إلى ربّه، فقال: يا ربّ إن خليلك جزع من الموت، فقال الله تعالى: (يا جبرائيل خذ ريحانة من الجنة) فانطلق مع ملك الموت إلى إبراهيم وحيّه بها إليه وقل له: إن الخليل إذا طال عهده بخليله اشتاق إليه أفما تشتاق إليّ وأنت خليلي؟ فأتاه جبرائيل وبلّغه رسالة ربّه ودفع إليه الريحانة قال: نعم يا ربّ قد اشتقت إلى لقائك وشمّ الريحانة فقبضه ملك الموت فيها. ويُروَى أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت حين أتى لقبض روحه: يا ملك الموت هل رأيت خليلًا يقبض روح خليله فصعد ملك الموت إلى السماء وقال لربّه ما قال إبراهيم، فقال الله تعالى قل لخليلي: وهل رأيت خليلًا يكره لقاء خليله؟ فرجع إليه ملك الموت فبلّغه قول ربّه، فقال إبراهيم لروحه: روحي السّاعة فقبضه وقبر في مزرعة حيرون وهي لرَجل اشتراها منه وأوصى أن يقبر فيها.

باب في ذكر ولد إبراهيم من بعده[1] وما كان من شأنهم

كان إسماعيل عليه السلام بكر إبراهيم وقد ذكرنا أنه تزوّج السيّدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي فولدت له أولادًا ويقال كان ولده اثني عشر رجلًا وكان أكبرهم نابت بن إسماعيل ويقال نبت ومنهم قيدار بن إسماعيل وبعض الناس يقولون نابت بن قيدار وأكثر ولد إسماعيل بمكّة وروت الرواة أنّ إسماعيل خرج إلى الشام حين توفي إبراهيم وزار قبره وقاسم إخوته ميراث أبيه، ثم رجع إلى مكة ويقال: بل كان إبراهيم بعث نصيبه من ماله إليه قبل وفاته، والله أعلم، ثم إن إسماعيل عاش مائة وسبعًا وثلاثين سنة وتوفي فدفن في الحجر عند قبر أمّه هاجر وانتشر ولد إسماعيل بمكّة إلا أن النيّار[2] يزعمون العرب العربانية هم من ولد بنت بن إسماعيل انتشروا في الأرض فكانوا لا يأتون بلدًا إلّا غلبوا أهله، وكانوا متمسكين بالحنفيّة دين إبراهيم وإسماعيل وبشريعتهما لأن إسماعيل كان على شريعة إبراهيم وكانت تلك الشريعة لازمة لولده وأنهم نفوا العماليق من مكّة وكانت جُرْهُمْ أخوالهم لا ينازعونهم في ولاية البيت لقرابتهم حتّى مضت على ذلك قرونٌ ثم إنّهم غيّروا دين آبائهم وكان سبب ذلك أنهم كانوا ينتشرون في البلاد حين ضاقت عليهم مكّة فكان لا يسافر منهم أحد إلا احتمل معه من حجارة الحرم حيث ما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ثم كان عقبهم بعد ذلك يطوفون بكلّ حجر يستحسنونه ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل وعبدوا الأوثان، إلا أنهم كانوا متمسكين ببعض شرائع إبراهيم من مناسك الحج وتعظيم الحرم والبيت ويقال

---

(١) ينظر تفاصيل هذا الباب في الثعلبي ـ العرائس ص ٥٩، ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/٢٥٥، ذكر ابن كثير: بأنه تزوج الثالثة قنطورا بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة: مدين وزمران وسرخ، وبقشان، ونشق، ولم يسم السادس، وكذا في الطبري ١/٢٩٥ وبدل سورج، شورخ. وفي ابن كثير: البداية والنهاية ١/٢٥٦: ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين: فولدت له خمسة: كيسان، وسورح، واميم، ولوطان، ونافس.

(٢) النيار: بالكسر، والتخفيف، أطم نيار بالمدينة وهو من بيوت بني مجدعة من الأنصار عن الزهري: ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٥/٣٢٩.

بل عبدة الأوثان بسبب (أساف ونائلة)[١] رجل وامرأة فزنيا في جوف الكعبة فمسخهما الله حجرين فأخرجا ووضعا عبرةً للناس فوضع أساف على الصّفا ونائلة على المروة، ولما تقادم الدهر عبدوهما ويقال: إن عمرو بن الخزاعيّ[٢] هو الذي أخرجهما ونصبهما وأمر الناس بعبادتهما وعمرو بن لحي هو أول من (بحر البحيرة وسيب السابية)[٣] ووصل الوصيلة وحمى الحامة وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «رأيت عمرو بن لحي يجرّ قصبه في النار فقلت له: من في النار من ولد إسماعيل والعرب فقال: من بني وبنيّك وقال رسول الله ﷺ وهو أوّل من نصب الأوثان وغيّر دين إبراهيم عليه السلام»[٤] وكان عند رسول الله ﷺ يومئذٍ أكتم[٥] بن الجون الخزاعي، فقال رسول الله ﷺ: «هذا أشبه ولده به» فقال أكتم: وهل يضرّني ذلك يا رسول الله، قال: «لا بل أنت مسلم وهو كافر».

---

(١) أساف ونائلة: (رجلٌ من جرهم يقال له أساف بن يعلى، ونائلَة بنت زيد من جرهم، وكان يتعشقها من أرض اليمن، فأقبلوا حُجاجًا فدخلا الكعبة، فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت ففجر بها في البيت فمسخا، فأصبحوا فوجدوهما مسخين فأخرجوهما فوضعوهما موضعهما فعبدتهما خزاعة وقريش، ومن حج البيت بعد من العرب. هذه رواية عن ابن عباس (رضي الله عنه) ابن الكلبي - الأصنام ص ٩. وفي رواية أخرىٰ عن رسول الله ﷺ قال: كان لهم أساف ونائلة لما مسخا حجرين، وضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام، عبدا معها، وكان أحدُهما يلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم فنقلت قريش الذي كان يلصق الكعبة فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما. ابن الكلبي ـ الأصنام ص ٢٩.

(٢) الخزاعي: جاء في الأصل (الخزعي) والصواب ما أثبتناه. والخزاعي: بضم الخاء وفتح الزاي وبعد الألف عين مهلمة ـ هذه النسبة إلى خزاعة ـ ابن الأثير الجزري ـ اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ٤٣٩.

(٣) كان أهل الجاهلية: إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها وحرموا ركوبها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، وإذا لقيها المعيي لم يركبها، واسمها البحيرة. وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة، وجلّها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وقيل: كان الرجل إذا أعتق عبدًا قال: هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث، وإذا ولدت الشاة أنثىٰ فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، فإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعىٰ. الكشاف ١/ ٦٨٤، ٦٨٥.

(٤) هكذا سيق الحديث: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون: (يا أكثم بن الجون رأيتُ عمرو بن لحي يجرّ قصبه في النار، فما رأيت رَجلًا أشبه برجل منك به)، قال أكثم: عسىٰ أن يضرني شبههُ، قال: لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وسيّب السائبة، وبحر البحيرة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، البخاري ـ الصحيح ٤/ ٢٢٤، ٦/ ٦٩.

(٥) أكتم بن الجون وقيل: هو أبو معبد الخزاعي زوج أم معبد. ابن الأثر الجزري ـ أسد الغابة ١/ ٢٧٠، وجاء في الأصل (أكتم) والصواب (أكثم).

ويقال كان هبل[١] وهو أعظم أصنام قريش وهو الذي قال أبو سفيان بن حرب يوم أُحُدٍ أُعْلُ هبل، فقال عمر مجيبًا له أعلى وأجلّ وأن عمرو بن لحي كان قد قدم به الشام فنصبه على الجبل الذي يقال له الأخشب بمكّة وأمر الناس بعبادته ثم كثرت الأصنام في العرب فكانت مناة[٢] على ساحل البحر للأزد[٣] وغسّان[٤] يحجرونها ويعبدونها وكان الأنصار يعبدونها لأنهم من غسان وكانت العرب بنخلة ولها بيت كالكعبة يطوفون به وكانت خزاعة تعظّمها وتعبدها وكذلك قريش كانت تعبدها وجميع قبائل مضرٍ وكانت اللات[٥] لثقيف بالطائف وأصلها أن رجلًا كان يقعد على صخرةٍ لثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مرّوا به وكان يلِتّ لهم السويق فمات فعبدوا تلك الصخرة وسموها اللات من لت السويق، ويروى أنّ عمرو بن لحي هو الذي أمر الناس بعبادة هذه الأصنام كلّها وسنذكر سائر ما يحتاج إليه من حديث عرب العدنانية إذا بلغنا إلى ذكر النبيّ ﷺ وذكر نسبه إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

---

(١) هبل: كان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها عندهم هبل وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب وكان يقال له هُبل خزيمة، وكان في جوف الكعبة، ابن الكلبي، الأصنام ص ٢٧ـ ٢٨.

(٢) مناة: اسم لصنم صنع لعمرو بن لحي، ودانت لها العرب فعبدوها، وكانت تعظمه وتذبح له ولا يتم حجهم إلا بحلق رؤوسهم والإقامة عنده، والتي ذكرها الله سبحانه ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: الآيتان ١٩، ٢٠]، حتى أرسل الرسول محمد ﷺ عليًا رضي الله عنه في عام الفتح سنة (٨ هـ) فهدمها وأخذ ما كان لها، ابن الكلبي ـ الأصنام ص ٣، ١٥.

(٣) الأزد: هذه النسبة إلى أزد شنوءة ـ بفتح الألف وسكون الزاي وكسر الدال المعجمة ـ ابن الأثير الجزري ـ اللباب ١/ ٤٦.

(٤) غسان: بفتح الغين والسين والمشددة وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى غسان، وهي قبيلة كبيرة من الأزد شربوا من ماء غسان، وهو باليمن بين زبيد ورمع فسموا به. ابن الأثير الجزري، اللباب ٢/ ٣٨١.

(٥) اللات: صنم بالطائف، وكانت صخرة مربعة، وكان يهودي يَلُتُّ عندها السويق، وكان سدنتها من ثقيف بني عتاب بن مالك، وكانوا قد بنوا عليها بناءً، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها، وبها كانت العربُ تُسمى (زيد اللّات) و(تيم اللات) وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليُسرى اليوم. وهي التي ذكرها الله في القرآن، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾. ابن الكلبي، الأصنام ص ١٦.

باب في ذكر إسحٰق وولده عليه السّلام[1]

فأما إسحٰق فإنه قد كان بعثه أبوه إلى أرض كنعان وكان إبراهيم عليه السّلام نازلًا بفلسطين، وكان نبيًّا يدعو الناس في زمن أبيه وهو تزوج رِفْقَا بنت ناخور بن تارخ وتارخ هو آزر، وكانت رفقا بنت عمّ إسحٰق فولدت له ولدين عيصوا ويعقوب ويقال أيضًا لعيصوا: العيص من غير الواو، وخرج العيص قبل يعقوب ثم خرج يعقوب في يده عالقة بعقب العيص فسمّي يعقوب لذلك وكان العيص أحبّ إلى إسحٰق من يعقوب وكان يعقوب أحبّ إلى أمّه من العيص ولما كبر إسحٰق وضعف كف بصره فقال للعيص يومًا من الأيّام وكان العيص صاحب صيدٍ فقال: يا بني ائتني بصيدٍ واصنع لي منه طعامًا لآكله فأدعو لك بالبركة وكان العيص رجلًا أزبًا[2] كثير الشعر، فلما قال له أبوه ذلك سمعت أمّه قول إسحٰق فقالت ليعقوب: إنّ أباك قال للعيص كذا وكذا، فانظر الجدي الذي عندك فاذبحه واتخذ منه طعامًا واجعل جلده على ساعدك وتنكر في صوتك إذا كلّمت أباك، وقل له: أنا العيص ليدعو لك ففعل يعقوب ذلك، فلما قرّب الطعام إلى أبيه، قال له: ادن منّي فقبض على ساعده وقال: أرى ساعد العيص وأسمع نفخة يعقوب ثم دعا له بالبركة وقال: بارك الله في ولدك وجعل فيهم النبوة والكتاب فيقال كان في ذرية يعقوب سبعون ألف نبيٍّ ولما رجع العيص من صيده اتخذ طعامًا وقرّبه إليه وقال: يا أبت أتيتك بما أردت فكل منه قال إسحٰق ذهب بالدعوة ولكن أدعو لك دعوة أخرى كثر الله ولدك وجعل فيهم الملوك وجعل فيهم نبيًّا صبورًا هذا في قول من قال إن أيّوب كان من ولد العيص، قال: ثم إن العيص حقد على أخيه يعقوب لفعله فقال له يومًا: يا أخي إني أحبّ أن تزورني فقد هيّأت لك ضيافة فأجابه فلما أكل وهمّ أن ينصرف أهدى له مائة

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في: الثعلبي ـ العرائس ص ٤٧، ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٥٥.

(٢) أزب: الأزب في اللغة الكثير الشعر. ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي المصري ت ٧١١ هـ. لسان العرب المحيط ـ إعداد وتصنيف يوسف خياط ـ دار لسان العرب بيروت ١/ ٥٤ باب (أزب) وجاء في الأصل (أزربا) والصواب (أزبًا).

فرس أنثى ومائة مهر ومائة بقرةٍ ومائة عجلٍ ومائة حمارٍ ومائة شاةٍ ثم عانقه ليودّعه وقبض على حلقه بأسنانه ليقتله فحوّل الله تعالى أسنانه شمعًا، فلمّا عجز قال: أستغفر الله العظيم وأتوب إليه، الآن عرفت يا أخي إن الدعوة التي سبقت بها كانت بإذن الله تعالى، وهي لك إني أردت أن أغتالك فحوّل الله تعالى أسناني شمعًا، فاذهب في كنف الله تعالى، ثم إن العيص فارق أخاه يعقوب وسافر إلى نواحي الروم وكثر بها ولده، ويقال: كان فراقه له في حياة أبيه، ويقال: بعد وفاته وعمّر إسحٰق مائة وثمانين سنة، ولما مات قبر في مزرعة حيرون عند قبر إبراهيم عليه السلام وكان رجلًا كثير الشعر قويًا وتزوج بابنة عمه سمنة بنت إسماعيل بن إبراهيم فولدت أولادًا خمسةً منهم الروم بن العيص وكان الروم رجلًا أصفر في بياض ومن أجل ذلك سميت أولاده بني الأصفر وسمّوا الروم لأنهم كانوا ولد روم بن العيص وعمّر العيص مائة وسبع وأربعين سنة وكذلك عمّر يعقوب وأنهما ماتا في يوم واحدٍ وذلك أن العيص رجع في آخر عمره إلى أخيه ولما ماتا دفنا معًا في مزرعة حيرون عند قبر إبراهيم عليه السلام والله أعلم.

باب في ذكر يعقوب عليه السَّلام وولده[١]

ويعقوب هو إسرائيل الذي ولد له الأسباط[٢] وكان رجلًا أذعن[٣] قويًا نجيبًا رزينًا أي تامّ الخلق حسن المنظر، وكان إسحٰق أمره أن يتزوج من الكنعانيين فتزوّج من بنات خاله لايان بن ناحور بن آزر وكان لايان يسكن الفدان من أرض الشام فتوجه إليه يعقوب فأدركه الليل في بعض الطرق فبات متسوّرًا حجرًا فرأى فيما يرى النائم أن سلمًا منصوبًا إلى السماء عند رأسه والملائكة تنزل منه وتتفرج فيه فأوحى الله تعالى إليه: إنّي أنا الله، لا إلٰه إلا أنا، أنا إلٰهك وإلٰه آبائك، وقد ورثتك الأرض المقدسة وورثت ذريّتك من بعدك وباركت فيك وفيهم وجعلت فيكم الكتاب والحكم والنبوة، ثم أنا معك أحفظك حتى أدركك إلى هذا المكان وأجعله بيتًا تعبدني فيه وذريّتك بعدك وهو بيت المقدس. ثم إنه صار إلى خاله لايان فخطب ابنته راحيل وهي ابنته الصغرى وكانت لها أخت أكبر منها لَيًا بنت لايان وذكر أنّ يعقوب لما ورد على خاله كان ذلك في عامِ جدبٍ وكان خاله صاحب ماشيةٍ كثيرة وكانت له بئرٌ تردها غنمه وقد كان قلّ ماؤها فشكاه خال يعقوب إليه قلّة ماء البئر وعطش ماشيته فقام يعقوب ونزح دلوًا من ماءٍ فشرب منه ثم صبّ ما بقي منه في البئر فنبع الماء حتّى جاوز الذي كان يكون عليه، فلما رأى ذلك خاله رغب في صحبته وسأله المقام عنده، فأجابه ثم إنه خطب إليه ابنته الصغرى وذلك أن يعقوب قد رآها فهمّ بها، فأجابه لايان ويقال: إنّ لايان كان مشركًا إلا أنهم كانوا يتزوجون المشركات ولا يزوّجون المشركين فقال له خاله: هل لك مال أزوّجك عليه؟ قال: لا، إلا أني أخدمك سبع سنين لصداق بنتك، قال يعقوب: فزوجني راحيل وهي شرطي، قال له: نعم، فرعى له يعقوب سبع سنين فدفع

---

(١) ولده الأسباط الاثنا عشر (الطبري ـ تأريخ الرسل والملوك ١/٣٥٨، ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٨٢ وما بعدها).

(٢) أسباط يعقوب ـ الطبري ـ تأريخ الرسل والملوك ١/٣٥٨.

(٣) كذا في الأصل. وفي الحاشية، ضعيف شعر الجسد.

له خاله ابنته الكبرى وهي ليّا وأدخلها عليه ليلًا، فلما وجدها غير شرطه فجاءه فقال: يا خالي غررتني واستحللت عملي سبع سنين، ودلّست عليّ غير امرأتي فقال له خاله: يا ابن أختي أتريد أن تدخل العار على خالك متى رأيت الناس يزوّجون الصغرى قبل الكبرى فهلّم فاخدمني سبع حجج أُخر، ويقال خمس حجج فأُزوجك أختها وكان يجوز لهم الجمع بين الأختين إلى زمن موسى فحرّم الله ذلك على لسان موسى عليه السلام. قال: فرعى له سبع سنين أُخر وأدخل عليه ابنته الصغرى راحيل، فلما أراد يعقوب الرجوع إلى أهله قال له خاله: قم عندي سنة أخرى أجعل لك على ذلك جعلًا، قال يعقوب: وما تجعل لي؟ قال: أجعل غنمي شطرين فما ولدت أحد الشطرين ذكرًا فهو لك، قال: فأقام فلما كان وقت خراب الفحول جاء جبرائيل عليه السلام فقال له: يا يعقوب إيتِ مكان كذا فخذ من الشجرة التي هنالك ورقها ثم اتفل عليها وفرّقها في الوادي فإذا أكلت الغنم ذلك الورق وضعت كلّها ذكرًا ففعل يعقوب فلم يضع الشطر الذي كان جعل له نسله إلا ذكرًا، فلما رأى ذلك كبر عليه فقال له: هل تقيم عندي عامك هذا، وأجعل لك نسل الشطر الآخر ما وضعت إناثًا؟ قال: نعم، فأقام فجاءه جبرائيل فقال له مثل ما قال في المرة الأولى فوضعت الغنم الذي جعل له الإناث من نسلها كلها إناثًا فازداد غنمه على غنم خاله، ثم إنه خرج بأهله وماله وولده، فقالت ليّا امرأة يعقوب لبعض ولدها أن يسرق صنم والدها الذي يعبده ففعل، فلما أمضوا في المسير دخل خاله بيته فلم يجد صنمه فركب في أثرهم فلحقهم، فقال يا يعقوب مكافأتي على حُسْن يديّ عندك ولا وصلت الرحم، قال: وما ذلك؟ قال: سرقتم إلٰهي، قال يعقوب: يا خال تعال أنصحك ما ترجو من إلٰه يُسرَق يا خال إن إلٰهك هو الذي الذي في السماء فاتق الله ودع ما أنت عليه، وأقبل إلى ربّك وأنا أردّ عليك جميع المال الذي أخذته منك وأخرجته من عندك، فقال: يا ابن أختي رُدّ عليّ إلٰهي، قال يعقوب: ما أخذته ولا علمت به، قال: فإني أسألك بقرابتك وصحبتك لي أن تدعو على من سرقه ليظهر ففعل فعثر الحمار الذي عليه الصنم وسقط ولده الذي كان عليه وأخذ الصنم، فقال يعقوب: ألا ترى سرعة إجابة ربّي لي هلمّ فآمِنْ، فقال: يا ابن أختي ما كنت لأفارق ديني وإلٰهي وأنصرف، ومضى يعقوب حتى ورد على أبيه إسحٰق بأهله وماله وولده، وبارك الله في ماله وكثر ولده فولد له اثنا عشر رجلًا وذلك أن خاله قد وهب لكل ابنة من ابنتيه جارية يقال لإحداهما زلفى وللأخرى زلفة وقيل في اسمهما غير ذلك، فولد من ليّا أربعة نفر من الأسباط روبيل وهو أكبر ولده سنًّا ويهوذا أكرمهم رأيًا وشمعون ولاوي وولدُ آخر من راحيل ويوسف وابن يامين وأخت لهما ويقال ابن يامين بالعربيّة شدّاد وولدت كل جارية من الجاريتين

ثلاثة نفر وأسماؤهم دان بالدال غير معجمة والنون ونفثالي بالنون والفاء والثاء المعجمة بثلث والجاد بالجيم والدال ويشحر بالياء والحاء غير المعجمة وأشار بالألف مفتوحة وبالشين معجمة، وبالراء وزبالون بالزاء والباء ويقال بدل زبالون قِسهاث بالقاف مكسورة والهاء واختلفوا في أسماء هؤلاء الستة إلّا أن الأشهر ما ذكرناه والله أعلم وكان ولادة كثيرة من أولاد يعقوب في حياة أبيه إسحٰق فأمّا القصّة فقد كانت بعد إسحٰق وقد ذكرنا وفاة إسحٰق من قبل والله أعلم.

باب في ذكر قصّة يوسف عليه السَّلام[1]

وقد ذكر أنّ أمّ يوسف كانت راحيل، وقد قيل إنّها ماتت في نفاسها على ابن يامين ولذلك سمّي ابن يامين فإنّ يامين بلغتهم التكلّم[2] وقالوا وإن قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٠] إنما هي خالته لأنّ العرب تسمّي الخالة كما يسمّى العمّ أبًا، وقال آخرون: لا، بل كانت راحيل في الحياة إلى ذلك الوقت وظاهر النصّ يقتضي ما قالوه والله أعلم، وكان يوسف من أحسن إخوته صورة، لا بل من جميع البشر فيما يروى قال وهب ورث الحسن يوسف من جدّته سارة وورثت سارة من حوّاء قال: وكان وجه يوسف مثل البدر وكان له ذؤابتان تتواسّان على ظهره وكان بين عينيه نجم يتوقد نورًا وكان مقرون الحاجبين واسع العينين واقنّ عالي الأنف مفلج الأسنان معتدل القامة حسن الكفين والساعدين والعضلين والسّاقين إذا تكلّم فكأنما يخرج النور من فيه، وإذا تبسّم رؤيت لثناياه شعاع كشعاع الشمس قال: وكان من صفاء لونه ونظافته أنه إذا أكل خضرةً تبين ذلك في عنقه ويقال إنّ أمّه ماتت وهو ابن سنتين فحضنته عمّته أخت يعقوب ويقال لا بل لمّا ولد ابن يامين وشغلت به أمه أخذت عمته يوسف وحضنته وأحبّته حبًّا شديدًا حتى ترعرع ألقى الله تعالى محبّته في قلب يعقوب عليه السلام فكأنه لا يصبر عنه فقال لأخته أسلمي إليّ يوسف فأبت، وقالت: إني لا أصبر عنه ساعةً قال يعقوب: ولست بتاركه عندك، قالت: فدعه عندي أيّامًا أسكن إليه، وذكر محمد بن إسحٰق أن أوّل بلاءٍ جعل على يوسف أن أحبّته عمّته وكانت أكبر ولد إسحٰق وكانت تكون عندها منطقة إسحٰق التي ورثها من إبراهيم عليه السلام فإنهم كانوا يتوارثونها بالكبر وكان في شريعتهم أنّ من خان أحدًا شيئًا صار مسلمًا له يصنع به ما يشاء ويقال كان يستعبده ما عاشا إلى أن يموت أحدهما ويقال: لا، بل يستعبده سنة كاملة فعمدت عمّة يوسف إلى منطقة إسحٰق فحزّمتها على وسط يوسف تحت ثيابه ثم قالت قد فقدت منطقة إسحٰق فاطلبوها

---

(١) انظر تفاصيل قصة يوسف (عليه السلام): ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٨٠.
(٢) كذا في الأصل. وفي الحاشية، نفاس المرأة.

فالتمست فقالت اكشفوا عن أهل البيت، فكشفوهم فوجدوها على وسط يوسف تحت ثيابه، فقالت: إنه اختانها فهو لي مسلّم أصنع به ما شئت ثم أخبرت يعقوب بذلك فقال: إن كان فعل ذلك فأمسكيه فمكث عند عمّته حتى ماتت فذلك ما قال إخوة يوسف ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: الآية ٧٧] ولما ماتت عمّته ضمّه يعقوب إليه وأشفق عليه أكثر من شفقته على سائر ولده وخصّه بأشياءٍ دونهم فمنها قضيب إبراهيم الذي جاء به جبرائيل من الجنة فجعله إبراهيم لإسحٰق وجعله إسحٰق ليعقوب ويقال إن إسحٰق كان قد أمر يعقوب أن يجعله ليوسف قال كعب الأحبار رضي الله عنه كان قضيبًا من شجرة سدرة المنتهى وكأنّه من فضةٍ بيضاء وكان عليه ثمان عقدٍ على كلّ عقدٍ اسم رجلٍ بمكّة من صلب إبراهيم عليه السلام أولهم إبراهيم والثاني إسحٰق والثالث يعقوب والرابع يوسف والخامس ميشا والسادس أفراهم بن ميشا والسابع نون بن أفراهم والثامن يوشع بن نون صاحب موسى عليه السلام، ثم كان القضيب بعد يوشع بن نون في تابوب بني إسرائيل الذي ذكره الله تعالى في القرآن وبقي إلى زمن دانيال ويقال إنّه كان يسيل من العقدة التي كان عليها اسم يوسف ماءً أصفر لونه كلون الزعفران وريحه ريح المسك وقيل إنه كان بكاء القضيب على يوسف وكان يوسف يلعب بالقضيب فيضيء مثل وجه يوسف ومما خصّه به القباء التي كان قد كساه الله تعالى لإسحٰق والثالث أعطاه المنطقة التي كانت لإسحٰق قال وكان يعقوب يصلّي ذات يوم وعنده يوسف إذ رأى يعقوب في منامه كأنّه يبكي ويدعو يوسف إلى نفسه ويقول إليّ يا أشرف المظلومين إن ظلمك أهل بيتك ثم إن الأرض انفلقت وانضمت على يوسف فلما انتبه اغتمّ غمًّا شديدًا فبينما يوسف ذات يوم يلعب إذ غلبه النوم فنام ثم انتبه وإذا أخته قائمة على رأسه، فلمّا رآها قال: إني رأيت في منامي عجبًا كأني مع إخوتي ونحن نحتطب فجمع كلّ واحدٍ حزمةً وإذا حزم إخوتي سودٌ وحزمتي بيضاء فبينما نحن كذلك إذ نظرت إلى حزمهم يسجدون لحزمتي ثم رأيت كأنّ رجلًا رأسه في السماء ورجليه في الأرض وفي يده ميزان وعليه ثياب بيض فدنا منّي ورحّب بي وحيّاني، ثمّ وزن حزمتي بحزمهم فرجحت حزمتي على حزمهم ثم قام إخوتي فسجدوا لي فلمّا قصّ رؤياه على أخته سمعها يعقوب فاغتمّ لذلك، وعلم تعبير رؤياه وخاف عليه كيد إخوته وحدهم له فكان لا يفارقه ساعة قال: ومضى على حول تامّ ثم إن يوسف رأى في منامه رؤيا وإخوته حوله جلوس فلمّا انتبه قال: يا أبتِ أين قضيبي؟ قال يعقوب: وما ذاك يا بنيّ؟ قال: إني رأيت في منامي كأنّ رجلًا أقبل على فرسٍ له فقال لي: يا يوسف قم فاغرس قضيبك في الأرض فقمت فغرسته وقام إخوتي فغرسوا عصيهم حول قضيبي فطال قضيبي نحو السماء وظهر له

أغصان وأضاء ما بين المشرق والمغرب بنوره وأنه تدلّى بأغصانه على إخوتي فقاموا يأكلون من ثمره ويسجدون له قال: ففزع يعقوب وعلم إخوته يعلمون تعبير رؤياه وتفضّله عليهم، ثم أتت على هذا مدة قال: فبينما يوسف في ليلة الجمعة ويقال كانت ليلة القدر وهو نائمٌ في حجر أبيه إذ رآه يعقوب يضحك في منامه فكره يعقوب أن يوقظه، فلما انتبه قال: يا أبت رأيت عجبًا قال: وما رأيت؟ قال: رأيت أحد عشر كوكبًا نزلت من السماء والشمس والقمر وخرّوا جميعًا ساجدين بين يديّ فعرف يعقوب أن الكواكب إخوة يوسف وأن الشمس والقمر أبواه، فخاف على يوسف من إخوته إن بلغهم خبر الرؤيا فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: الآية ٥] وروى جابر[1] بن عبد الله أن رجلًا من اليهود جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمّد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف في منامه أنّها سجدت له ما أسماؤها فسكت رسول الله ﷺ فنزل جبرائيل عليه السلام فأخبره بأسمائها فقال رسول الله ﷺ لليهودي أفتؤمن إن أخبرتك بأسمائها قال: نعم، قال: هي خريان والطارق والزيال وذوا الكتفين وذو الفرع وقائس ووثاب وعمودان وفليق والصباح والضروح والضياء والنور وهما الشمس والقمر فقال هي والله أسماؤها وأسلم اليهودي ثم إن يعقوب أخبر يوسف أن هذه الرؤيا ستكون سبب بليّة يوسف وأن الله تعالى ينجيه منها وينعم عليه فقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسُف: الآية ٦] قال وبلغ رؤيا يوسف إلى إخوته ويقال: إنّ والدتهم سمعت من يوسف حين قصّ على أبيه فأخبرتهم بها، وبما أخبرهم يعقوب من كتمانها إخوته فازدادوا غيظًا على يوسف فاجتمعوا للمشورة في أمره فقالوا: لئن صدقت رؤياه ليملكنّ علينا ابن راحيل لخوفهم من رؤياه قبل في الحزم والقضيب فما ترون في أمره فقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسُف: الآية ٨] في إيثاره الصغير على الكبير ثم قال روبيل وهو أكبرهم سنًّا إنّه يجب أن نغيّبه عن وجه أبيه ونأخذه قبل أن يأخذنا ألا ترون إلى إيثار أبينا إيّاه علينا لو تركناه لم يلبث أن سيسوّده(*) علينا قال فتفرقوا يومهم ذلك وذهبوا إلى أغنامهم محزونين ثم اجتمعوا للمشورة مرة أخرى، فقال قائل منهم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [يوسُف: الآية ٩] أي تائبين عن زلتكم قال روبيل، ويقال شمعون، ويقال يهوذا إنّ القتل أمر عظيم بل الصواب أن تؤتوه في ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾

---

(١) سبق وأن ترجم له في مقدمة الكتاب.

(*) أي يجعله سيدًا علينا.

[يوسف: الآية ١٠] يعني بعض المسافرين فيذهبوا به فتستريحوا منه وترجع محبّة أبيكم إليكم فاتفقوا على ذلك، فإذا هم بيوسف فقالوا له: يا يوسف ألا تشتاق أن تخرج معنا إلى الصحراء فتلعب وتنشط وتتفرّج وتتعوّد عادة الرجال وتتصيد وتستأنس بنا؟ قال: واشتهى الغلام ما قالوه له، وقالوا: فاسأل أباك أن يرسلك معنا، قال: أفعل واسألوه أنتم أيضًا فدخلوا عليه بجماعتهم وقالوا وكان ليعقوب يوم خلوةٍ يتعبّد فيه ولا يكون معه أحد في خلوته إلّا يوسف فإنه كان لا يغيب عنه فلمّا دخلوا عليه وعنده يوسف قالوا: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا﴾ [يوسف: الآيتان ١١، ١٢] أرسله معنا غدًا ﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾ [يوسف: الآية ١٢] ويتفرج ويتعوّد عادة الرجال، فقال يعقوب إنه صبيّ وإن أرضكم أرض مسبعة فعسى أن يرهقه ذئب أو شيء فلا يستطيع دفعه عن نفسه فيأكله ﴿ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: الآية ١٣] بماشيتكم، قالوا: وكيف نغفل عنه ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾ [يوسف: الآية ١٤]. وروى (عبد الله بن سلام)[1] أنّ يعقوب قد رأى قبل ذلك في منامه كأنّ ذيبًا جاء فأخذ يوسف من يعقوب فانتبه يعقوب حزينًا لرؤياه فمن ذلك قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: الآية ١٣] ويقال لا بل رأى يعقوب عشرة ذئاب قد أحاطت بيوسف وأراد يعقوب أن يأتيه فينقذه منها فلم يجد إليه سبيلًا وإن الأرض انشقت فدخل يوسف فيها ثم خرج بعد ثلاثة أيّام فلذلك قال ما قال وإن إخوة يوسف لما لم يحبّهم أبوهم قالوا ليوسف: اسأل أباك أن يأذن لك في الخروج معنا فنتفرّج فقال: إن أذن لي كنت أحبّ ذلك وسأل أباه أن يرسله معهم، فقال يعقوب والله يا بنيّ لولا ما أرى من حرصك على الخروج مع إخوتك ما أذنت لك ولكن اخرج فإن الله خليفتي عليك، ويقال إنّه غسل رأسه ودهّنه وطيّبه وألبسه ثيابًا تليق به ثم قال لإخوته: قد علمتم حبّي له وحرصي فإيّاكم أن تغفلوا عنه حتى تردّوه إليّ وأوصيكم بالعطف والتعاهد له ما قدرتم، ثم قال ليوسف يا بني لا تنس الله حيث كنت فينساك ولا تغفل عنه ولا تتضرّع إلى أحد من المخلوقين إن نزلت بك بليّة فإن جدّك إبراهيم عليه السلام حين ابتلي بالنار قال حسبي الله ونعم الوكيل، يا بنيّ واذكرني أبدًا فإن ذكرك لا يفارقني قال: ثمّ حمله يعقوب على عاتقه حتى خرج من الدار ثم إن إخوته أخذوه منه وحملوه وجعلوا يبتدلونه من كتفٍ إلى كتفٍ إلى أن غابوا عن عين أبيهم، فلما خرجوا إلى الصحراء

---

(١) عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، ثم الأنصاري، كان حليفًا لهم من بني قينقاع، وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وكان اسمه في الجاهلية، الحصين، فسماه رسول الله ﷺ حين أسلم عبد الله، وكان إسلامه لما قدم النبي ﷺ المدينة مهاجرًا توفي سنة (٤٣ هـ). ابن الأثير الجزري، أسد الغابة ٣/ ٢٦٥.

ألقوه إلى الأرض وحفّوه فقال لهم: ما هذه الحفوة أهكذا ضمنتم من أبيكم، ويقال: إنه استسقاهم حين عطش فلم يسقوه، وقالوا له: يا ابن راحيل صاحب الأحلام الكاذبة قل لها تطعمك وتسقيك وتدفعنا عنك ويروي بعضهم قصدوا قتله لكنه التجأ إلى يهوذا وكان ابن خالته وأعقلهم جميعًا وتضرّع إليه فمنعهم عن القتل وقد روى بعض الناس في هذه القصة أشياء من معاملتهم إيّاه لكن لا أحبّ ذكرها فإن الأولى بنا أن ننزّه أنبياء الله تعالى عن كل شيء يمكننا من تنزيههم عنه من الذنوب، ثمّ إنّ يهوذا أشار عليهم بأن يلقوه في الجبّ ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: الآية ١٠] فأجمعوا على ذلك قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: الآية ١٥]، ويروى أنهم نزعوا قميصه، فقال لهم: لا تنزعوا قميصي لأستر به عورتي إن عشت ويكون كفني إن مت، فتركه يهوذا ويقال: لا بل ألقوه في الجب عريانًا بلا قميص والله أعلم، وإنّه تضرّع إلى يهوذا وقال: قل لهم يخلّوا عني ويردّوني إلى يعقوب وأضمن لا أذكر شيئًا مما فعلوه فسألهم يهوذا ذلك فأبوا عنه وقال بعضهم: إن تتركنا نلقيه في الجبّ وإلا قتلناه فقال ليوسف: قد سمعت ما قالوا وإنك إذا كنت في الجبّ لم تيأس أن يفرّج الله عنك، فألقوه في الجبّ، فلما أرسل من شفير الجبّ قال الله تعالى لجبرائيل أدرك عبدي فأدركه قبل أن يصل إلى قعر الجبّ، وأنبت الله صخرة من الماء حتى أقعده جبرائيل عليها ولينها الله تعالى له وبسطها حتى استقر عليها، وكان له قميص من حرير الجنة وهو الذي جاء به جبرائيل عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام يوم ألقي في النار فألبسه إياه فأعطاه إبراهيم لإسحٰق وكساه إسحٰق يعقوب فجعله في معاذةٍ فعلّقها في عنق يوسف حرزًا له من العين فأخرج جبرائيل ذلك القميص من معاذة يوسف وألبسه إياه، وجعل الله ماء الجبّ عذبًا حتى يغنيه عن الطعام والشراب وجبرائيل عنده يؤنسه ويقال: كان جبرائيل يأتيه بطعام الجنة وكانت في الجبّ هوام من الحيّات وغيرها فلما أحسّت بيوسف قالت بعضها لبعض قد نزل في هذا الجبّ نبيّ من أنبياء الله تعالى فغرق في حجركنّ ولا تخرجن فتؤذينه وكان جبرائيل عليه السلام فيما يقال يصعد بالليل إلى السماء، فلما أمسى قام ليذهب فتعلق به يوسف وقال: إني أستوحش إذا خرجت عنّي فقال له جبرائيل عليه السلام قل يا صريخ المستصرخين، ويا غياث المستغيثين، ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري أسألك الفرج مما أنا فيه ويقال في رواية أخرى إن جبرائيل عليه السلام علّمه فقال له: قل يا كاشف كل كربة، ويا مجيب كل دعوة، ويا جابر كل كسير ويا ثاني كل واحد، ويا مؤنس كل فريدٍ، ويا صاحب كل غريب، ويا شاهد كل نجوى لا إلٰه إلا أنت سبحانك يا الله

أسألك أن تجعل لي فرجًا ومخرجًا وأن تجعل ذكرك وحبّك في قلبي فلا يكون له همّ غيرك وأن تحفظني وترحمني يا أرحم الراحمين، وأنه لما دعا حفّته الملائكة وآنسته في الجب وجاءه جبرائيل في اليوم الثالث كما كان يأتيه كل يوم فأخبره بما يكون من أمره من العبودية والغربة والسجن والمحن وما بعد ذلك من العِزّ والملك ووصول إخوته إليه واجتماعه مع أبويه فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٥] ورُوِي أنّ يهوذا لما أراد الرواح يومهم أشرف على الجبّ ونادى السلام عليك يا يوسف أحيّ أنت أم ميّت، فأجابه يوسف وقال: وعليك السلام، من أنت، أنت الذي رحمتني في الجبّ وإخوتي لم يرحموني، فقال: بلى، أنا أخوك يهوذا فأخبره يوسف بحاله وبما هيّأ الله تعالى له من الصخرة ومن مؤانسة الملائكة وغير ذلك، فقال له يهوذا نحن نريد أن نرجع فما حاجتك قال: إن لكل ميّتٍ وصيّة ووصيّتي إليك أن لا ترى شبابًا إلا ذكرت شبابي ولا صورة حسنة إلا ذكرت حسني ولا مظلومًا إلا ذكرتني وأسألك أن لا تخبر الشيخ مما جرى عليّ، فإن قلبه لا يتحمل ذلك قال: فبكى يهوذا بكاءً عاليًا فسمع إخوته بكاءه فأتوه فقالوا له: وقال بعضهم لبعض أنت لا تتركه في الجب، فنحن نرجمه بالحجارة في الجبّ حتى يموت فقال ألستم عاهدتموني أن لا تقتلوه والله لئن فعلتم ذلك لأخبرنّ الشيخ بصنعتكم الذي صنعتم فتركوه ثم إنهم عمدوا إلى جديٍ فذبحوه ولطخوا قميصه وكان قبل ذلك يروحون بين العصر والمغرب فأخّروا ذلك اليوم إلى وقت العشاء الأخيرة فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٦] ويروى أنه لما كان وقت رجوعهم قام يعقوب وخرج يتلقاهم، فلما خرج إلى الوادي سمع بكاءهم، ويقال: لا بل كان في داره فلما قربوا رفعوا أصواتهم بالبكاء فلما سمع يعقوب بكاءهم غشي عليه ثم أفاق فقال: ما بالكم فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٧] فلما سمع يعقوب ذلك غشي عليه، فحرّكوه فلم يتحرّك ونادوه فلم يجب ورشّوا عليه الماء فلم يفق، فلم يشكّوا أنه قد فارق الدنيا، فلما رأى ذلك يهوذا صاح وقال: يا إخوتاه الويل لنا ضيّعنا أخانا يوسف وقتلنا أبانا يعقوب، قال: فأفاق يعقوب ببرد السحر ورأسه في حجر روبيل فقال: أين قرّة عيني يوسف ألم أجعلك خليفتي عليه، وبكى فقال روبيل كُفّ يا أبت عن بكائك حتى أخبرك، اعلم أنا نستبق إلى آخر الكلام فقال يعقوب لم يبق له عضو أو عظم أستأنس به قال: فأتوه بقميصه وقال هذا قميصه، فأخذه ونشره على وجهه وبكى ثم قال: ألستم تزعمون أن الذئب أكله، فما لي لا أرى فيه شقًّا كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه وكيف لا أرى عليه أثر دمه فإن هذا ليس بدم

يوسف وأحسّت نفس يعقوب أنهم كاذبون قال الله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يُوسُف: الآية ١٨] قال: فأنشأ يعقوب يبكي ويقول:

حبيبي يوسف ليت شعري ... ماذا صنعوا بك ليت شعري
أقتيل أم ذبيح ليت شعري ... أحيّ أنت أم ميت ليت شعري

ثم أقبل عليهم فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٨] ثم قال لهم: يا أولادي إن كان يوسف حيًّا فردّوه عليّ لأرضى عنكم وإن كان[١] ميّتًا فأكفّنه أو ائتوني بالذئب الذي أكله، فقال لهم شمعون: إيتوا[٢] بنا نذهب فنخرجه من الجبّ ثم نقتله ونأتيه بعضوٍ من أعضائه ونقول: قد وجدنا منه هذا العضو، فقال يهوذا: والله لئن فعلتم ذلك لأكون لكم عدوًّا ما بقيتم ولقتلتكم نفسًا نفسًا أو تقتلوني ولأخبرنّ الشيخ بصنيعكم، قال فقالوا: نذهب ونأخذ ذئبًا ونأتي به إليه فذهبوا واصطادوا ذئبًا فجاؤوا به إلى أبيهم، وقالوا: هذا الذئب الذي أكل يوسف فقال لهم يعقوب: أطلقوه أسأله فأطلقوه فقال لهم يعقوب سلوه عن أكله يوسف لم أكله، فسألوه فلم يجبهم فقال يعقوب: لم لا تجيبهم فقال الذئب: لا أجيبهم لأنهم مجرمون، ولكن سلني أنت أخبرك، فسأله يعقوب فقال: يا نبيّ الله إني لم آكل ابنك فإنّ لحوم الأنبياء حرام على جميع السّباع قال: فما هذا الدم الذي تلطّخ بالقميص فقال لا تسألني عن هذا فلست أحبّ أن يفتضح نبيّ على لساني، فقال: أين تريد، قال: أحبّ أن أزور أخي بالمغرب فقال يعقوب: يا سبحان الله هذا سبع يريد زيارة أخيه ولا أدري ما صنعتم أنتم بأخيكم ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٨] وأعرض عنهم وخلّى سبيل الذئب قال: وليس في كثير من الروايات حديث الذئب والله أعلم[٣].

باب في ذكر خروج يوسف من الجبّ

ثم إنه لما مضى ثلاثة أيام أقبلت العير في اليوم الرابع من اليمن عليهم مالك بن ذعْرِ الخزاعيّ ويقال ثلاثمائة[٤] رجل وزيادة فلما قربوا من ذلك الموضع قال لهم مالك بن ذعرٍ عهدي بهذا المكان وفيه جبّ يستقى منه الماء ثم دعا بغلامين له يقال لأحدهما بشارٌ وللآخر بشري، وقال: انطلقا إلى هذا الجبّ فانظرا هل فيه ماء نستقي منه فذهبا ثمّ إن

---

(١) في الأصل (وانكان) والصواب ما أثبتناه لحدوث تصحيف وتحريف.
(٢) (ايتوا) هذا ما جاء في الأصل والصواب (آتوا).
(٣) انظر تفاصيل خروج يوسف من الجب في: ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٨٤.
(٤) ثلاثمائة جاء في الأصل (ثلثمائة) والصواب ما أثبتناه.

بشري تأخر لقضاء حاجته وجاء بشار[١] إلى رأس الجبّ فرأى نورًا ساطعًا فأدلى دلوه للماء فتعلّق يوسف بالدلو، ويقال: إن جبرائيل قال له: قم فقد آن وقت خروجك من الجبّ، فلما تعلّق يوسف بالدلو استقبل النازح دلوه فأنكره فنظر في الجبّ فإذا هو غلام فأخذه وأخبر بخبره صاحبيهما مالك بن ذعرٍ فجعل يشاورهما في أمره، وكان إخوة يوسف قريبًا منهم في غنمهم فأحسّوا بهم قد أخرجوا يوسف من الجبّ فأتوهم مسرعين وقالوا: من أين وجدتم هذا الغلام؟ قالوا: من هذا الجبّ، قالوا: إنه عبدٌ لنا قد أبق منا ونحن في طلبه ثم قالوا ليوسف بالعربيّة إن قررت لنا بالعبودية بعناك فتبقى حيًا وإلا نزعناك منهم وقتلناك، وإما أن نردّك إلى أبيك فلا نطمع فيه لأنا قد أخبرنا أن الذئب قد أكلك فإنه صدقنا فلا وجه لردّك إليه، فقال لهم: يا إخوتي اتقوا الله، ولا تفرقوا بيني وبين والدي وبين إخوتي واذكروا وصية أبي وعهده فقال له يهوذا: يا أخي إن هؤلاء لا يستردونك للرجوع إلى أبيهم، ولا يكذبون أنفسهم وإن انتزعوك من يد القوم قتلوك، فالرأي أن تقرّ لهم بالعبودية فعسى الله أن يجعل لك فرجًا ومخرجًا من عنده، فقال يوسف: فما رأيت فهو الصواب وأقرّ لهم بالعبوديّة ثم إنهم قالوا لمالك بن ذعر يا باد الأمة هذا مملوك قد أبق منّا وتوارى عنا في هذا الجب فنحن نبيعه منك فقال مالك: إني لا أرى عليه سيماء المماليك ولا أراه إلا شبيهكم فقالوا: نخبرك بأمره إنّ أبانا اشترى جارية وهذا معها طفل صغير فنشأ فيما بيننا وتربّى في حجورنا وتزيّا بزيّنا، فلذلك أشبهنا فقال له يا غلام: فما تقول فيما يقول هؤلاء القوم، قال: صدقوا هم أهلي ربيت في حجورهم، قال مالك: قد أقر لكم فماذا تريدون، قالوا: اشتره منّا قال: والله ما بقي معنا شيء من العين والورق إلا عشرون درهمًا عددًا ويقال الأوقيّة وهي أربعون درهمًا، فقالوا: بعناه منك بها وفي بعض الروايات أنها كانت ثمانية عشر درهمًا وزنًا ويقال زيوفًا قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف: الآية ٢٠]، ويقال كانوا في ثمنه من الزاهدين إذ لم يكن إليه حاجة لأنهم علموا أن ثمن الحرّ حرامٌ فلم يتناولوا منه شيئًا إلا أنهم أخذوا من مالك بن ذعرٍ يوهمونه أنه عبدٌ لهم قد باعوه، وقد قال كثير من أهل العلم إن إخوة يوسف لم يبيعوه فإن بيع الحرّ حرام وهو من الدناءة ومن الذنوب التي لا يجوز من الأنبياء، لكنهم قالوا لمالك بن ذعرٍ خذ بضاعة منّا حتى نرِد به مصرًا فتبيعه لنا بأي ثمنٍ أمكنك فقال: نعم، وأرادوا أن يغيبوه عن أبيه، وقال آخرون: لا بل لا يشهد إخوة يوسف الوقت الذي وجد واردُ السيّارة

---

(١) فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف فلما رآه ذلك الرجل ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾ [يوسف: الآية ١٩] (أي يا بشارتي)، هكذا ورد النص في ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٨٦.

يوسف بل كانوا عند أبيهم أو في مواشيهم فإنّ الوارد لما وجده أتي به نحو مالك فأخفاه، قالوا: ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ [يُوسُف: الآية ١٩] أي أخفوه عن سائر القافلة لِئلّا يسألهم الشركة فيه، فلما ارتحلوا وظهر في الطريق سألوا عنه فقال مالك بن ذعرٍ هو بضاعة قد استبضعها أهل الماء قال والأولى عندي أن إخوة يوسف لم يبيعوه ولا يجوز من الأنبياء بيع الحرّ لا سيّما أخٌ من إخوانهم ومع هذا إن الله تعالى لم يذكر أن إخوته باعوه بل قال خبرًا عن الوارد أنه استبشر بوجود يوسف فقال: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ فهذا فعل معطوف على ما قبله من فعل الواردين ثم عقبه بقوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ [يوسف: الآية ٢٠] فيجب أن يكون أيضًا عطفًا على فعل السيارة وليس هٰهنا ذكر من الله تعالى لإخوته فإن قيل فما معنى قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٠] مع رغبة السيّارة في يوسف وحفظهم قلنا معناه أنهم شروه بمصر كانوا في أمره وحفظه من الزاهدين وذلك أن يوسف مع ما كان عليه من حسنه المذكور المشهور وهو صبيّ لم يستبعد أن يظن ظانٌّ لعلهم رغبوا في شرائه للريبة فأخبر الله تعالى أنه صرف عنه أوهام خلقه معجزة ليوسف، فلم ينظر أحد بعين الريبة. فقوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي مالك بن ذعرٍ وأصحابه بمصر ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: الآية ٢٠] والدليل على أن البيع كان منهم قوله عقيبه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ [يوسف: الآية ٢١]، فدل على أنّ هذا البيع كان بمصر من إخوة يوسف قال: وقد روى بعض الناس في قصّة بيع إخوة يوسف إيّاه واشتراطهم على مالك بن ذعرٍ أن يغلّه ويقيّده ويلبسه الخشنيّ من اللباس وغير ذلك، وما كان لهم من الجفاء إليه والتهديد له ثم ما كان من أذى السيارة ليوسف في الطريق لست أصدق بهؤلاء ولا أحبّ ذكرها لذلك لم أكتبها.

باب في ذكر ورود السيَّارة بيوسف مصر وبيعهم إيّاه من العزيز(١)

وذلك أن مالك بن ذعرٍ كما روته الرواة حين ورد به مصر عرضه على البيع وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنّه قال مالك ليوسف: من أنت يا غلام؟ قال: أنا يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام فاستعظم مالك بن ذعرٍ ذلك وقال له: يا غلام فادع الله لي ليهب لي ولدًا فإنه لا ولد لي فقال يوسف: اللهم كثّر ماله وولده فولدت له امرأته عشرة أبطن ويقال اثنا عشر بطنًا كل بطنٍ توأمين وذكر أنّه لما عرضه على البيع زيّنه بزينة المماليك وأقامه للبيع ويقال: اجتمع عليه الناس للنظارة إذ لم يكونوا رأوا مثله قطّ

(١) انظر تفاصيل هذا الباب في ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٨٦.

فاشتغلوا يومهم بالنظر ولم يساومه أحد بالبيع ووعد مالك بن ذعر باب الملك الريّان بن الوليد غداة الغدّ من يومهم فاجتمع إليه أهل البلد لانتشار خبره في الناس، ثم عرض على البيع وجعل بعضهم يزيد على بعض حتى بلغ ثمنه مبلغًا لم يستطع ذلك أحدٌ إلا العزيز وهو خازن الملك ووزيره واسمه قطفير فاشتراه وذكر أنه اشتراه قطفير بوزنه ذهبًا ومثله ورقًا ومثله ديباجًا ووزنه مسكًا وكافورًا وكذلك من كل شيء له قيمة والله أعلم، وفي الجملة أن مالك بن ذعرٍ باعه واشتراه العزيز وذهب به إلى منزله وقال لامرأته واسمها زليخا قد اشتريت هذا الغلام ﴿أَكْرِمِي مَثْوَٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1] [يُوسُف: الآية ٢١] فروي عن ابن عباس أن يوسف كان يومئذٍ ابن سبع سنين وبقي بعد ذلك في الغيبة عن أبيه ثلاث وثلاثين[2] سنة فاجتمع مع والديه وهو ابن أربعين سنة ويقال كان يوم اشتراه العزيز ابن عشر سنين وفي الجملة أنه كان غير بالغ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٢] فدلّ أنه بلغ وأدرك عند العزيز وكان من قبل طفلًا.

باب في ذكر زليخا ويوسف ومراودتها عن نفسه[3] الآية

قال قد ذكر بعض الناس أنه رأى في بعض طرق مصر أعرابيًا له يرتجز بالعربيّة فسأله يوسف من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ فأخبر أنّه من ناحية كنعان فبكى يوسف ثم سأله عن يعقوب وإخوته وأخبره أنّه يوسف ثم حمّله رسالة وسلامًا إلى أبيه يعقوب وأن ذلك الأعرابي رجع إلى كنعان وبلغ رسالته وسلامه وذكروا في هذا المعنى قصة طويلة ولكن لا أصدّق بها فكيف والله يقول إنّ يعقوب لم يدرِ أين يوسف حتى جاءه البشير بالقميص ولو كان يعقوب يعلم كونه بمصر لكان يحتال له ليستردّه بما أمكنه مع قرب المسافة بين الشّام ومصر ولأنّ الرواة متفقون على أن الله تعالى أخفى خبر يوسف على يعقوب تلك السنين حتى بكى وحزن بحيث عمي من البكاء، فلذلك استبعد ما ورده ولا إخوته قالوا بعد أمر ابن يامين حين قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ... ﴿٨٤﴾ ...تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ

---

(١) [وجاء في الأصل فأكرمي] والصواب ما ثبتناه.

(٢) وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد، فقال مالك بن ربيعة وزيد بن أسلم، والشعبي هو الحلم، وقال سعيد بن جبير ثماني عشرة سنة، وقال الضحاك عشرون سنة وقال عكرمة، خمس وعشرون سنة وقال السدي ثلاثون سنة، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة، وقال الحسن: أربعون سنة، ويشهد له قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: الآية ١٥]، ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٨٧.

(٣) انظر تفاصيل هذا الباب في: ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٨٧.

يُوسُفَ﴾ [يوسف: الآيتان ٨٤، ٨٥]، فلو كان يعلم مكانه وهم يعلمون لما قالوا ذلك فإن قيل فكيف خفي على يعقوب خبره مع قرب المسافة طول تلك المدة، قلنا: أوّل ما في الباب أنّ خرق العادة في أمور الأنبياء غير مستبعدٍ ولأن يوسف كان مملوكًا لا يمكنه أن يخبر أباه بحاله مع أنه كان في كثير من المدّة صبيًّا مصونًا في البيت ثم صار مسجونًا في السّجن ولعلّ إخوته كانوا لا يتركون أحدًا بخبره لئلّا يكذبهم ولئلا يستردّه، ولما أراد الله من البلاء والغمّ على يعقوب فأخفى ذلك عليه رجعنا إلى القصّة قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: الآية ٢٣] يعني زليخا، روي في بعض الأخبار أنّ امرأة العزيز استوهبت بيوسف من زوجها فوهبه لها ويقال: لا، بل إنه لما قال لها ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: الآية ٢١] اتخذته ولدًا وجعلت تخدمه بنفسها كما تخدم الوالدة ولدها وتمشّطه وتغسل رأسه وتكسوه إلى أن بلغ مبلغ الرّجال فعشقته ووقع حبّه في قلبها وجعل يزداد يومًا بيوم إلى أن بلغ مبلغ الذي قال الله تعالى: ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٠] لصارت لا تصبر عنه. ثمّ إنها خلت بيوسف، فقالت له: يا يوسف إني أريد أن أهب لك نفسي ولم يعرف يوسف مرادها فقال: فأيّ شيء أصنع بك فسكتت واستحيت أن تزيد على ذلك وأن حبّه أثّر فيها وأنحلها، فلما بلغ الجهد أظهرت أمرها على ظئير لها ويقال على مشّاطة لها وأخبرتها بشدّة حبّها له وكان يوسف إذا حضرها أطرق رأسه إلى الأرض لا ينظر إليها نظرًا تامًّا مخافة الابتلاء ورعايةً لحقّ سيّده العزيز ثم إن زليخا أرسلت إليه بظئيرها حتى أخبرته بغاية حبّ سيدته له ورغبتها فيه، فأبى يوسف وأن زليخا أظهرت عليه بعد وعيد ظئيرها أمرتها وجعلت تعرض نفسه عليه وتتزيّن له وتتشوّق وتدعوه إلى نفسها فيأبى، ويروى أن ظئيرها أمرتها أن تتخذ بيتًا من رخامٍ وتجعل في سقفها وأرضها وجدرانها المرائي حتى إن نظر ناظر من أي وجهٍ كان يرى في البيت ويقال: بل أمرت فصوّرت صورتهما معًا متزينين متعانقين فلمّا هيّأت ذلك جلست في ذلك البيت وأرسلت ظئيرها فدعت لها يوسف فجاء يوسف فلما نظر إلى البيت وإلى زليخا متشوّقة متزينة وقف بالباب ولم يدخل فدعته زليخا واستعجلت عليه فظن أنها تريد بعثه في حاجة فدخل ثم توقّف فقامت إليه فأخذته وراودته فأبى عليها، ويروى أنه لما علم بمراودتها عقد على تكّته سبع عقدٍ وذكر وهب أنها قالت: يا يوسف ما أحسن وجهك، قال: يوسف كذلك صوّرني ربّي، قالت: ما أحسن شعرك، قال: هو أوّل شيء يبلى منّي في قبري، قالت: ما أحسن عينيك، قال: هو أوّل شيء تسقطان على خدّي، قالت: ما أطيب ريحك، قال: لو شممت ريحي بعد ثلاث من موتي لهربت منّي قالت: ما لي أتقرّب إليك وأنت تتباعد منّي؟ قال: أرجو بذلك القرب من ربّي قالت: يا يوسف ارفع طرفك فانظر إليّ مرّة قال: أخشى العمى في آخرتي، قالت: ضع يدك مرة على

فؤادي قال: إذًا تغلّ يدي في النّار، قالت: قد فرشت لك فرش الديباج والحرير قم فنم عليها معي، قال: أخاف أن يفرش فرش النار تحتي قال: أدخل معي في الستر، قال: لا شيء يسترني عن ربّي قالت: يا يوسف أهلكتني وأمرضتني قال الشيطان أعانك عليّ فتنتي قالت: يا يوسف إن لم تطعني سلّمتك للمعذّبين فيعذّبونك كما تعذّبني، قال: إذًا يكفيني ربّي شرّهم قالت: يا يوسف لأيّ شيء تمتنع عنّي قال: بحقّ إلـٰهي الذي في السماء وبحق سيدي الذي أكرم مثواي، قالت: أما إلـٰهك الذي في السماء فإنّ مالي لا يحصى فأعطيك حتى تتصدّق به في رضاء ربّك ليرضى عنك وأما سيّدك فإني أريحك منه بشربة سمٍّ يتفتّت لحمه وجلده وأقبره بين يديك، قال يوسف: وما عذرك وعذري بين يدي ربّي؟ قال: فما زالت تخدعه وتتلطّف له ويوسف لا ينظر إليها ولكن كلما نظر إلى ناحية دارها التي فيها صورتها حتى وقع الهمّ في قلبه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: الآية ٢٤]، قال بعض المفسّرين ويروى عن ابن عباسٍ أنّه حلّ تكّتة وجلس منها مجلس الخائن لكن لا تصحّ هذه الرواية وكيف والله يقول كذلك: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤] وأيّ شيء أفحش من هذا وقد ذكرنا أقاويل الناس في هذه الآية في معاني القرآن ومعنى الآية عند مشايخنا أنها همّت به همّ الزّنا وهو همّ بها همّ حديث النفس، ولم يجاوز ذلك وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤] قد كثر الناس فيه فقال قوم: إنه رأى جبرائيل فقال له: يا يوسف الاسم في ديوان الصّدّقين والفعل فعل الفاسقين، وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّ البرهان أن نودي يا يوسف لا تكن كالطير له ريش، وإذا زنى سقط ريشه، فلا يقدر على النهوض وقيل إنه رأى صورة يعقوب عاضًا على أنامله وكذلك كان يزجره في صباه حين كان يقصده يوسف، وقيل رأى مكتوبًا على الجدار، ويقال: لا بل على كفٍّ خرج من الجدار ولا تقربوا الزّنا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: الآية ٢٢] وقيل رأى صورة يعقوب ثم دفعه في صدره فخرجت شهوته من أنامل قدميه، وقيل: إن المرأة ألقت ثوبًا على وجه صنم لها في البيت، قال يوسف: ما بالك؟ قالت: أستحي منه، فقال يوسف: أنا أحق أن أستحي من ربّي وعلى كلّ حال رأى أمرًا صرفه الله بسببه عن الفاحشة وكذلك قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤] والله أعلم بحقيقة ذلك البرهان، ثم إن يوسف ولّى هاربًا من عندها فتبعته فأدركته وأخذت وجذبت بثوبه تجرّه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾ [يوسف: الآية ٢٥] من دبره قال الله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٥] أي بادرًا نحو الباب، وكان يوسف يبادر ليخرج هربًا منها وهي تبادر لأن تأخذه ولا تتركه فيخرج ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٥] وكان من القضاء أن العزيز على الباب في ذلك الوقت، فلما سمع الجلبة دخل فرأى

يوسف مقدود القميص ورأى المرأة مخموشة الوجه منشودة الشعر باكية، فقال: ما بالكما؟ فبادرت زليخا فقالت يا سيدي ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: الآية ٢٥] أي خيانةً، إن هذا الغلام الذي أمنته على أهلك أراد بي بسوءٍ على نفسي فما جزاؤه إلا أن يسجن أو عذابٌ أليم، وأقبل العزيز على يوسف فقال: يا يوسف لم يكن رجائي منك هكذا اتخذتك ولدًا وأكرمت مثواك فجازيتني بهذا الفعل، فقال يوسف: لا وإلٰه إبراهيم ما خنتك ولكن هي التي راودتني عن نفسي فهربت منها وسيبدو لك براءتي فقال العزيز وبأيّ شيء أعلم براءتك فرفع يوسف طرفه إلى السماء ودعا وقال أسألك بطولك وكرمك وبحرمة آبائي أن تداركني برحمتك، فأرسل الله جبرائيل عليه السلام حتى جاء فاستنطق صبيًّا كان هنالك في المهد فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٦] فالشاهد هو الصبيّ تكلّم قبل أوان الكلام، وقال للعزيز لا تتحيّر في أمرهما، وانظر إلى قميص يوسف ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: الآية ٢٦] فصدقت المرأة لأنّ يوسف كان يقصدها وهي تدفعه عن نفسها حتى تمزّق عليه قميصه من قبلٍ ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: الآية ٢٦]، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾ [يوسف: الآية ٢٧] المرأة لأنها هي التي كانت تطلب يوسف وهو يفرّ منها حتى أدركته فجذبت قميصه فقدّت ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: الآية ٢٧] ويروى أنّ الشاهد كان ابن عمّ المرأة وكان جالسًا مع العزيز على الباب حين وقعت الواقعة فقضى في أمرهما بما ذكرناه والقول الأوّل يروى عن ابن مسعود فنظر العزيز إلى قميص يوسف فرآه مقدودًا من خلفه فلمّا رأى قميصه قدّ من دبرٍ قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٨] ثم إنّ العزيز أقبل على يوسف وكان رجلًا عاقلًا فقال: يا يوسف أعرض عن هذا الكلام وذلك أنّ يوسف كان يخوض ويظهر براءته فقال له: كفّ عن مثل هذا الكلام فإنّ الخوض في مثله لا يزيد الأمر إلا ظهورًا وانتشارًا في الناس، وقال للمرأة: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ [يوسف: الآية ٢٩] أيتها المرأة فإنه وإن كان مشركًا فإنهم كانوا يقرّون بالله، ويقال وأراد القول إنّهم قالوا لها اعتذري إلى زوجك وأقرّي بالذنب ليعفو عنك فإنك كنت خاطئةً ومنك كان الجرم ويقال إن الشاهد هو الّذي قال ليوسف وللمرأة هذه المقالة، ثم إن أمرهما انتشر في الناس وبلغ نساء رؤساء مصر أنّ زليخا راودت عبدها عن نفسه فلامتها النساء فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يُوسُف: الآية ٣٠] أي دخل حبّه شغاف قلبها، والشغاف حجاب القلب، ويقال سويداؤه ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: الآية ٣٠] وخطأ ظاهرٍ ممّا فعلت ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ [يوسف: الآية ٣١] أي ملامتهنّ لها استأذنت زوجها أن تتخذ طعامًا وتدعو لها نساءً من

أشراف البلد فأذن لها، فاتخذت طعامًا يسيرًا وهيّأت لهنّ متّكأً أي مجلسًا يتكئن فيها فلمّا أتينها وكنّ أربع نسوةٍ في قول ابن عبّاسٍ رضي الله عنه امرأة صاحب الملك وامرأة صاحب المطبخ وامرأة سائس الدواب وامرأة الحاجب، ويقال كنّ خمس عشرة نسوة من أشراف قومها وأنهنّ لما أتينها أجلستهن مجالسهنّ وقدّمت إليهنّ فواكه وأشياء يحتاج إلى قطعه بالسكّين مثل الخيار والبطيخ وغير ذلك، وقيل الشواء وقيل الزّمَاوَرْد وقيل الأترجّ بلفظ القبط وآتت كل واحدة منهنّ سكّينًا لقطعها ثم قالت ليوسف أطعني اليوم ولا أبالي ما فعلت بعد اليوم، فقال: أفعل ما لم يكن فيه سخط لربّي قال: فزينته بما قدرت عليه من ألوان الثياب وبالجواهر والمناطق والتاج ويقال العمامة وناولته كأسًا من ذهب فيه ماءٌ أو شرابٌ آخر ثم قالت له اخرج عليهنّ الآن فخرج عليهنّ يوسف ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: الآية ٣١] وأعظمنه وتحيّرن فيه وفي حسنه وجماله ورأين شيئًا لم يرين مثله قطّ حتى صارت من حيرتهنّ أن قطّعن أيديهن بسكاكينهنّ وهنّ لا يشعرن وظنن أنهنّ يقطعن الفاكهة، قال: وجعلت زليخا تضحك منهن حتى أتى على ذلك ساعة ثم إنها أشارت إلى يوسف بالرجوع فرجع ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[١] [يوسف: الآية ٣١] نزل من السماء فقالت زليخا ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: الآية ٣٢] وأنتنّ تحيّرتنّ فيه في نظرة واحدةٍ حتى قطعتن أيديكن فلم لمتنني وأنا أدعوه وأراوده منذ سبع سنين فلا يطيعني فانظرن ما حالي، ثم إنها قالت لهنّ أحبّ أن تُحَضِّضْنه على موافقتي وإشغافي بطلبتي فقلن ففعلن ثم كانت كلّ واحدة منهنّ إذا أتت يوسف لتبلّغه رسالة زليخا عرضت عليه نفسها، قال يوسف: كنت في مقاساة واحدة فالآن اجتمعن عليّ فعند ذلك ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: الآية ٣٣]. وعن النبيّ ﷺ قال: رحم الله أخي يوسف هل لا يسأل الله العافية بدلًا من سؤال السجن ويروى أولئك النسوة عشقنه وماتت جماعة منهن في حبّه والله أعلم. ولمّا أن استعصى يوسف على زليخا ولم تجد في أمره حيلةً هدّدته[٢] بالسجن وقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: الآية ٣٢]، ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: الآية ٣٣] فلما قال ذلك قالت امرأة العزيز: إن هذا الغلام قد فضحني فلا وجه في أمره أن يسجن ليقطع بذلك ألسنة الناس عني ويقال: كان السجن في حكم الملك لا يقدر أحد أن يسجن أحدًا غيره، فلما سألت زليخا زوجها أن يسجنه قال لها هذا الملك فجمعت عليها ثيابها وأقبلت حتى

---

(١) في الأصل (فقلن سبحان الله) والصواب ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾.

(٢) جاء في الأصل (هدته) والصواب (هددته).

دخلت على الملك وكانت ذا قدرٍ عند الملك، إذ كانت من قرابته وكانت ابنة شريف من أشراف مصر فقالت له: إنّ عبدًا قد استعصى عليّ وأنا أحب أن أؤذيه وأعذّبه وأحبّ أن تأذن لي في سجنه فقال لها: قد جعلت أمر السجن إليك فافعلي ما شئت فرجعت وأمرت بيوسف فحمل إلى السجن ويروى أنها لما فعلت ذلك ندمت على سجنها يوسف وضجرت لفقد يوسف وأنها كانت تريد أن تخوّفه وتهدّده ليطيعها لمرادها فعثر على ذلك زوجها فلما أرادت إخراجه حلف زوجها أن لا يخرجه فلذلك بقي في السجن وندمت زليخا وكانت تبكي طول الليل والنهار ولا تقدر على حيلة، غير أنها كانت تبرّه وتلطّفه ويحمل إليه في السجن ما يحتاج إليه على أيدي رسلها ويروى أنه لما دخل السجن استأنس أهل السجن به لجماله وطهارته وعلمه وخلقه وبرّه بكل واحد منهم، وأحبّه صاحب السجن فيقال: إنّه قال ليوسف يومًا: أنا أحبّك يا يوسف، فقال: أعوذ بالله من حُبّك فإن عمتي أحبتني فنسبت إليّ السرقة، وأحبّني والدي ففعل بي إخوتي ما فعلوا وقد أحبّتني سيّدتي فحبست في السجن، فإياك أن تحبّني فتنزل بي بلية أخرى، ويروى أنه لمّا مضى ثلاث سنين أو أربع من حبس يوسف راجعت زليخا نفسها وقالت: غلام صغير استعصم من الزنا فأنا أوْلى أن أتوب وأرجع عمّا كنت عليه فتابت وعلمت أنها إن أخرجت يوسف ورأته لم تصبر فاستوصت أن يكون في السجن فلذلك تركته هنالك فمكث في السجن أربع سنين إلى أن غضب الملك على صاحب شرابه وخبّازه.

باب في ذكر دخول الغلامين السجن مع يوسف ورؤياهما(١)

قال فإن الملك الريّان بن الوليد لما طالتِ مدة ملكه شمته الناس فضمن بعض أعداء الملك بخبّازه وساقيه أن سمّا الملك فأما الخبّاز فأجاب إلى ذلك وأما الساقي فأبى وأخبر الملك بذلك، ويقال: كان اسم الخبّاز مخلف واسم الساقي بنوفحت ويقال غير ذلك، فأمر الملك بحبسهما فلمّا دخلا السجن ورأيا يوسف فاستأنسا به وكان يوسف يبرّهما ويعاشرهما أحسن معاشرة إلى أن مضت لذلك مدة ويقال سنة ثم إنهما رأيا رؤيا فأتيا يوسف وقالا له: قد رأينا فنحبّ أن تعبّرها لنا فقال: أفعل فَقصّا عليّ رؤياكما فقال الساقي: إني رأيت كأنّ بين يدي ثلاث طسواتٍ من ذهبٍ وفي كلّ طستٍ ثلاثة قضبان من الكرم على كلّ قضيب ثلاثة عناقيد من عنب فأخذت العناقيد وعصرتهنّ في ثلاث أوانٍ من ذهبٍ وسقيتها الملك، وقال الخباز رأيت كأنّ بين يدي ثلاث تنانير موقودةٍ وكنت أخبز فيهن ثم وضعت الخبز في ثلاث سلالٍ وحملتهن على رأسي ورأيت الطير

(١) انظر تفاصيل هذا الباب في: ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٩٠ وما بعدها.

تسقط على السلال فتأكل منهن الخبز ثم قالا له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٦]، يعني من الذين يحسنون تعبير الرؤيا فقد كانا يسمعان منه يعبّر رؤيا الناس في السجن ويقال إحسانه أنّه يعود المرضى ويداوي الجرحى ويونس الغريب، ويوسّع على صاحب الضيق ويأمر بعضهم بمؤانسة بعض فذلك إحسانه فلمّا قالا له ذلك أحبّ يوسف أن يدعوهما إلى الإسلام أوّلًا فإنّ الدعوة إليه أفضل وأولى من تعبير الرؤيا ولأنّ ما كان يقول لهما في تعبير الرؤيا مع كلمةٍ لا بدّ كائن ومع ما أخبرهما من إتيان طعامهما قبل وقته معجزة فأحبّ أن تكون المعجزة مقرونة بدعوته إياهما لتلزمهما الحجة فقال لهما: يا صاحبي السجن ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٧] كأنّه يقول: قد أعطاني الله علم التعبير وأتم من ذلك وهو أني أعلم ما يكون من طعامكما كل يوم وليلة قبل أن يؤتى به إليكما قالا له: ومن أين تعلم ذلك ولست بكاهنٍ؟ قال: إن الله تعالى أكرمني بذلك لأنّي تركت الشرك فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٧] قالا له: وما ملّتك ودينك؟ قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: الآية ٣٨]، قالا: وما ملّتهم؟ قال: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: الآية ٣٨]، يعني ملّتنا أن لا نخيّر الشرك بالله ولا نشرك به شيئًا ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: الآية ٣٨]، أي وليس ذلك من قبلنا بل بفضل الله علينا وأكرمنا بهذا الدين القويم وكذلك على الناس فإنه لا يؤمن أحدٌ إلا بفضله ويقال إن الذي أكرمنا به من الإسلام والنبوة فضل منه علينا وعلى الناس فإنا نعظهم وندعوهم إلى الله ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف: الآية ٣٨]، ما أنعم الله علينا وعليهم ولا تعلّمه إلا من الحقّ ثمّ قال لهما ﴿يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: الآية ٣٩] إني أذكر لكما حجة ملّتي وديني فما تقولان أنتما انظرا بقولكما ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ [يوسف: الآية ٣٩] من هذه الأصنام المنحنية التي يُجاءُ بها من هٰهنا وهٰهنا خيرٌ وأولى بالربُوبيّة والعبادة لها ﴿أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٩] الذي تملك السمٰوات والأرض ويقهر أهلها بلا عسكر ولا جندٍ ثم بيّن لهما بطلان الأصنام فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف: الآية ٤٠] أي أنتم تسمّونها آلهةً وليست في الحقيقة آلهة فكيف وهي جمادات تألّفت بلا علم ولا قدرة ولا شيء من الصفات التي ينبغي للرب ولا حجّةً أيضًا لربوبيتها في العقل بل الحجة فيه على فساد ألوهيتها، وكذلك لا حجة لربوبيتها في السمع فإنه ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ﴾ [يوسف: الآية ٤٠] أي حجّةٍ إن الحكم أي الحجة في الألوهية إلا الله سبحانه وتعالى فإن الدليل على ربوبيته واضحة وقد أمر خلقه أن لا تعبدوا إلّا إيّاه وذلك الذي ذكرته لكما هو الدين القيّم الذي لا فساد فيه ولا نقص ولكن أكثر الناس لا يعلمون وحدانية الله تعالى

وصحّة التوحيد وبطلان الشرك، قال انظروا إلى هذا البيان الواضح الذي جاء به يوسف صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم حيث قال: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: الآية ٦] أي بيان العلوم ثم إن يوسف لما فرغ من الدعوة إلى الحق وبيان الدين والحجة رجع إلى تعبير رؤياهما فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: الآية ٤١] وهو الساقي فإن القضبان الثلاثة والأقداح الثلاثة خبر عن أنك تبقى في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج منه ويردّك الملك إلى أمرك وأما هذا يعني الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ [يوسف: الآية ٤١] أي لحم رأسه والسلال الثلاثة عبارة عن الأيّام الثلاثة التي بقيت له، ثم تخرج قال: فلمّا قال لهما ذلك أنكر الخبّاز أن يكون قد رأى شيئًا لما كان من المكروه في تعبير رؤياه وروي عن ابن مسعودٍ أنهما جميعًا لم يكونا رأيا شيئًا ولكنّهما رأيا أهل السجن يسألون يوسف عن الرؤيا فتحملهما عليه والله أعلم فقال يوسف لهما: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يُوسُف: الآية ٤١] رأيتما شيئًا أو لم ترياه، ثم أقبل يوسف على الساقي الذي علم أنّه ناج وقال: إذا خرجت من السجن وصرت إلى منزلتك من قرب الملك ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٢] أي سيّدك وقل له إن في السجن غلامًا عبرانيًا قد حبس مظلومًا لعلّه يأمر بالنظر في أمري، فقال الساقي: أفعل وكرامةً فلمّا أخرج الفتيان وقتل الخباز أنسى الله الساقي ذكره يوسف، فلم يذكر للملك شيئًا، ويقال: كان يذكره بقلبه ولكنّه لم يجسر أن يقول للملك من حديث السجن وأهله مخافة أن يتذكر الملك حاله الذي حبس له فيأمر به بمكروه، فأمّا نصّ الكتاب فإنه على أن «الشيطان أنساه ذكر ربه»[١] وعلى أنه يذكر بعد مدةٍ قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ[٢]﴾ [يُوسُف: الآية ٤٥]. وقال بعض المفسرين: إن الشيطان أنسى على قلب يوسف ذكره ربّه حين تشفع بالساقي إلى الملك ولو ذكر أنه لا شيء إلا بقضاء الله لما قال للغلام ما قال. وروي أن يوسف لما قال للغلام ما ذكرناه نزل عليه جبرائيل عليه السلام من عند الله فقال له السّلام عليك يا يوسف، ثم قال له: مَن خلصك من أيدي إخوتك من القتل؟ قال: الله تعالى، قال: فمَن أخرجك من الجبّ؟ قال الله تعالى، قال: سألت الحاجة من المخلوق ورفعتها إلى غير الله؟ قال: كلمة زلّ بها لساني أسألك يا ربّ بحقّ إبراهيم وإسحٰق ويعقوب أن ترحمني. وقال جبرائيل يقول الله تعالى: وكلتك إلى مَن رفعت إليه الحاجة، وأنت ماكث في السجن بضع سنين، ويروى أن جبرائيل لما أتاه قال له يوسف حين رآه: يا أخا المنذرين ما لي أراك بين الخاطئين، قال جبرائيل: يا أطهر الطاهرين يُقرئك السلام الملك العلّام ويقول: ما استحيت

(١) الآية: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٢].
(٢) أمة: مدة ـ بعد أمة ـ أي بعد مدة.

إذا استشفعت بالآدميين فوعزّتي وجلالي لألبثك في السجن بضع سنين، قال يوسف: فإذا لبثت في السجن بضع سنين هل يكون ربّي راضيًا عنّي؟ قال: نعم، قال: فلا أبالي ولو كان السبع سبعين وثمانين. قال: ثم سأل يوسف جبرائيل عن حال يعقوب؟ قال: إنّه عُمي من البكاء وهو كظيم من الحزن لأجلك. فقال يوسف: ليت الأرحام عقمت فلم تلدني أمّي ماذا لقي الشيخ والدي من أجلي. وروى وهبٌ أن جبرائيل عليه السلام قال ليوسف: إن الله تعالى ابتلى يعقوب بما ابتلاه به ليُتمّ كرامته، وذلك أنّ يوسف سأل جبرائيل أن يخبر يعقوب بحال يوسف فقال جبرائيل إن الله تعالى أخفى أمركَ عليه لأن يبتليه بالحزن ويبتليك بالغربة والمحنة ليتم نعمته عليه وعليك إذا صبرتما كما ابتلي جدّكم إبراهيم وسائر الأنبياء فصبروا واستوجبوا الكرامة هذا معنى كلام وهب إلّا أنه طوّل القصّة فيه فاختصرتها أنا. ثم قال له جبرائيل: وقد يكون وقت خروجك حين يرى الملك رؤيا فتعبّرها فتخرج بذلك السبب من السجن.

باب في ذكر رؤيا الملك وخروج يوسف من السجن(١)

قالت الرواة: لما أراد الله إخراج يوسف من السجن أرى الملك في منامه رؤيا هائلةً فذكر أنه بات ليلةً مع ندمائه على مجلس لهوه حتى إذا كان آخر الليل أغفى ساعة ثم انتبه مرعوبًا فقال له من حوله: ما لك أيها الملك انتبهت فزعًا فقال لرؤيا رأيتها فقالوا: وما ذاك؟ رأيت في منامي كأني جالس على سريري على شاطىء النيل إذ نضب الماء وخرج من النيل سبع بقرات سمانٍ ما رأيت مثلهن سمنًا ولحمًا وشحمًا وضروعهن تشخب(٢) لبنًا، فبينما أنا أنظر إليهن إذ خرج على أثرهن سبع بقراتٍ مهازيل عجاف خراطيمهنّ كخراطيم السباع فجعلن يأكلن السبع السمان حتى لم يبق منهن شيئًا ولم يظهر على العجاف أثر سمنٍ ثم رأيت سبع سنبلاتٍ خضرٍ نبتن بين يديَّ لم أر أحسن منهن ولا أشدّ خضرةً، ثم نبت سبعٌ أخر يابسات فالتوين على السبع الخضر ونشفن ماءهنّ وأيبسهنّ ولم يظهر على اليابسات من نضرة الخضرة شيء فتعجّبت مما رأيت وانتبهت ثم قال لهم: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾ [يوسف: الآية ٤٣] إن كنتم عالمين بتعبير الرؤيا. قالوا: إن رؤياك أضغاث أحلام لا تعبير لها وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين، وقال الذي نجا منهما أي من الفتيين وهو الساقي ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: الآية ٤٥] أي وتذكّر حاجة يوسف بعد حين، قال ابن عباسٍ بعد أمة أي بعد سنين ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: الآية

---

(١) انظر تفاصيل هذا الباب في ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٩٢.
(٢) جاء في الحاشية معنى يشخب أي ينزل.

٤٥] أي إلى السجن قال ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن السجن في المدينة فبعثوه فأتى ليوسف فقال له: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: الآية ٤٦] يعني فيما عبرت لنا من الرؤيا والصديق هو كثير الصدق ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: الآية ٤٦] أي فضلك وعلمك، فقال له يوسف: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: الآيات ٤٧ ـ ٤٩] فرجع الساقي إلى الملك وأخبره بما أفتاه به يوسف من تأويل رؤياه كالنهار وعرف الملك أن الذي قال كائن، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي﴾ [يوسف: الآية ٥٠] بالذي عبر رؤياي هذه فلمّا جاء الرسول إلى يوسف أبى أن يخرج معه حتى يعرف عذره وبراءته ويعرف صحّة أمره من قبل النسوة، فقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: الآية ٥٠] أي سيّدك الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٥٠]؟ قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك نشأته ما زالت في نفسه منه حاجة يقول هو هذا الذي راود امرأتي، وقال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من أخي يوسف وكرمه وصبره، والله تعالى يغفر له حين سئل عن البقرات السّمان والعجاف، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ولو كنت بمكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرت الباب ولم أبتغ العذر والله إنه كان لحليمًا ذات أناة».

قال فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن وامرأة العزيز فقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: الآية ٥١]، فلما سمع ذلك يوسف قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: الآية ٥٢]، فقال له جبرائيل ولا حين هممت بها يا يوسف؟ فقال يوسف عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾[1] [يوسف: الآية ٥٣] الآية، فلما تبيّن للملك عذر يوسف وعرف أمانته وكفايته وديانته وعلمه وعقله قال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: الآية ٥٤] فلمّا جاء الرسول إلى يوسف قال له: أجب الملك الآن، فخرج يوسف ودعا لأهل السجن بدعاء يعرف إلى اليوم وذلك أنه قال: اللهمّ عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عنهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار إلى اليوم في كل بلدة فلمّا خرج يوسف من السجن كتب على بابه هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء ثم إنه اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس

(١) تمام الآية: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: الآية ٥٣].

ثيابًا جددًا حسانًا وقصد إلى الملك. قال وهب: فلمّا وقف بباب الملك قال حسبي ربّي من دنياي حسبي ربي من خلقه عزّ جاره جلّ ثناؤه ولا إله غيره، فلمّا دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشرّ غيره، فلما نظر إليه الملك سلّم عليه يوسف بالعربية فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمّي إسماعيل ثم إنه دعا له بالعبرانية ثانيًا فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان أبي يعقوب قال وهب: وكان الملك يتكلّم بسبعين لسانًا فكلما كلّم يوسف بلسان أجابه بذلك اللّسان فأعجب الملك ما رأى منه، وكان يوسف ابن ثلاثين سنة فلمّا رأى الملك حداثة سنّه وغزارة علمه قال لمن عنده: إن هذا علم تأويل رؤياي ولم تعلمه الكهنة والسحرة ثم إنّه أجلسه وقال له إني أحبّ أن أسمع رؤياي منك شفاهًا، فقال يوسف: نعم أيها الملك رأيت سبع بقراتٍ سمان شهب حسان غير عجاف كشف لك عنهن نهر النيل فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبنًا فبينما أنت كذلك تنظر إليهن وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا قعره فخرج من حمئه ووحله سبع بقراتٍ عجاف شعث غبر ملصقات البطون ليس لهن ضروع ولا أخلاف ولهنّ أنياب وأضراس وأكفّ كأكفّ الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع فاختلطن بالسمان وافترستهنّ افتراس السباع وأكلن لحمهنّ ومزقن جلودهنّ وحطمن عظامهنّ ومششن مخّهنّ فبينما أنت تنظر وتتعجّب كيف غلبتهنّ وهن مهازيل ثم لم يظهر فيهن سمن ولا زيادة بعد أكلهنّ إذ سبع سنبلات خضر وسبع أخر سود يابسات في منبت واحد عروقهن في الثرى والماء فبينما أنت تقول في نفسك ما هذا هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهنّ في الماء إذ هبت ريح فردت أوراق السود اليابسات على الخضر المثمرات فأشعلت فيهنّ النار فأحرقتهنّ وصرن سودًا متغيرات فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا ثم إنك انتبهت مذعورًا، فقال له الملك والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجبًا بأعجب مما سمعته منك فما ترى في رؤياي أيها الصديق، فقال يوسف الصديق إني أرى أيها الملك أن تجمع الطعام وتزرع زرعًا كثيرًا في هذه السنين المخصبة وتبني الأهرام والخزائن وتجعل الطعام فيها بقصبه وسنبله ليكون أبقى له ويكون قصبه وسنبله علفًا للدواب، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها ثم تأتيك الخلق من جميع النواحي فيمتارون منك بحكمك فيجتمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع لأحد قبلك، فقال له الملك ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه لي ويكفيني الشغل فيه فقال له يوسف ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٥] أي كاتب حاسب وقيل: حفيظ لما استودعتني عليم بسني المجاعة وبلغة من يأتيني، فقال له الملك ومن أحقّ به منك، وولّاه ذلك كله، وقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: الآية ٥٤].

أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين الثقفي بن مخلد بن علوية، أخبرنا إسماعيل بن جعفر الباقر، أخبرنا الحسين بن علوية، أخبرنا إسماعيل بن عيسى، قال أخبرنا إسحٰق بن بشر عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن لأجل سؤاله إيّاه أخره عنه، ذلك سنة فأقام عند الملك في بيته سنة، وروى سفيان عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذلي قال: قال الملك ليوسف: إني أريد أن تخالطني في كل شيء غير أني آنف أن تأكل معي، فقال له يوسف: إني أحق أن آنف بذلك منك لأني أنا ابن يعقوب إسرائيل الله بن إسحٰق[1] ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله فصار بعد ذلك يأكل معه، قال ابن عباس فلما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجّه بتاجه وقلّده بسيفه وحلاه بخاتمه وأمر له بسريرٍ من الذهب مكلّل بالدرّ والياقوت فضرب عليه قبة من إستبرق وكان طول السرير ثلاثين ذراعًا وعرضه عشرة أذرع وعليه ثلاثون فراشًا وستون نمرقة، ثم أمره أن يخرج فخرج متوجهًا ولونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى فيه من بياض وجهه الناظر صفاء لونه، ثم انطلق حتى جلس على السرير فدانت له الملوك، ولزم الملك وفوّض إليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه، ثمّ مات قطفير عن قريب فزوج الملك يوسف براعيل امرأة قطفير فلما دخل عليها قال لها: أليس هذا خير مما كنت تريدين منّي فقالت له: أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما رأيت في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في صورتك وهيئتك فغلبتني نفسي، فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء فأصابها فولدت له ابنين أفرايم ومنشا ابني يوسف عليه السلام واستوثق ليوسف ملك مصر، فأقام فيهم العدل فأحبّه الرجال والنساء فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: الآية ٥٦] يعني أرض مصر، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: الآية ٥٦]. وللبحتري في هذا المعنى:

أما في رسول الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوسًا على الظلم والإفك
وأقام جميل الصبر في السجن برهة ... فآل به الصبر الجميل إلى الملك

---

(١) هنا حدث خطأ أن إسماعيل ذبيح الله وليس إسحٰق، وهذه الأخطاء جاءت من دخول الإسرائيليات عن طريق النقل عنهم.

وكتب بعضهم إلى صديق له هذه الأبيات:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن — وأوّل مفروج به آخر الحزن

فلا تيأسن فالله ملك يوسفا — خزائنه بعد الخلاص من السجن

قال فلمّا اطمأن يوسف في ملكه وخلت السنون المخصبة ودخلت المجدبة جاءت بهول لم تعهد الناس مثله فأصاب الناس الجوع، فلما كان بدأ القحط نام الملك، فبينما هو نائم إذ أصابه الجوع فهتف الملك يا يوسف الجوع الجوع. فقال يوسف هذا أوان القحط والجوع فلمّا دخل أوّل سنة من سني الجدب هلك فيها كل شيء أعدوه من السنين المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام فباعهم في أوّل سنة بالنقود من الذهب والفضة حتى لم يبقَ في مصر درهم ولا دينار إلا قبضه وباعهم في السنة الثانية بالحلى والحلل والجواهر، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليها أجمع وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق عبد ولا أمة إذ أخذه وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار والدّور حتى احتوى عليها ولم يبق لأحد ملك وباعهم في السنة السادسة بأولادهم فإن الرجل كان يشتري بولده الحنطة أو الشعير من شدة السنة، فلم يبق لأحد ولد ذكر ولا أنثى إلا مماليك له وباعهم في السنة السابعة برقابهم وأرواحهم حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد ولا أمة إلا صار ملكًا له فتعجّب الناس من أمر يوسف وقالوا: تالله ما رأينا ملكًا أجلّ من هذا وأعظم، ثم قال يوسف للملك: كيف رأيت صنع ربّي فيما خوّلني فما ترى في هذا فقال له الملك: الرأي رأيك وإنما نحن لك تبع، فقال يوسف فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر جميعًا ورددت عليهم عقارهم وعبيدهم وأولادهم وروي أن يوسف كان لا يشبع من الطعام في تلك الأيام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض، فقال: إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ويروى أن يوسف أمر طباخ الملك أن يجعل غداءه نصف النهار مرة واحدة في اليوم والليلة، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع ويحسن إلى المحتاجين ففعل الطباخ ذلك، فمن ثم جعل الملوك غذاءهم نصف النهار وقصد الناس مصر من كل ناحية يمتارون فجعل يوسف لا يمكن أحدًا منهم وإن كان عظيمًا من أكثر من حمل بعير تقسيطًا بين الناس وتوسيعًا عليهم فتزاحم الناس عليه قالوا: وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام من القحط والشدة ما أصاب سائر البلاد ونزل بيعقوب ما نزل بالناس فأرسل بنيه إلى مصر بطلب الميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لأمّه فجاء بنو يعقوب إلى يوسف عليه السلام، وكانوا عشرة وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين من ثغور الشام، وكانوا أهل بادية ومواشي،

فلمّا دخلوا عليه عرفهم يوسف وأنكروه لما أراد الله تعالى أن يبلغ يوسف ما أراده قال ابن عباسٍ وكان بين أن قذفوه في الجبّ وبين أن دخلوا عليه أرض مصر أربعون سنة، فلذلك أنكروه وقيل: إنه كان متزيّيًا بزيّ فرعون مصر فكانت عليه ثياب الحرير جالسًا على سرير وفي عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهبٍ فلذلك لم يعرفوه وقيل كان بينهم وبينه ستر فلذلك أنكروه، قال بعض الحكماء المعصية تورث النكرة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ [يُوسُف: الآية ٥٨] قالوا: فلمّا نظر إليهم يوسف وكلّموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم وما أمركم فإني أنكرت شأنكم، فقالوا: قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال: لعلكم عيون جئتم تنظرون عورة بلادي فقالوا: لا، والله ما نحن بجواسيس وإنما نحن إخوة بنو أب واحدٍ شيخ كبير صديق الله نبيّ من أنبياء الله تعالى، يقال له يعقوب قال: فكم أنتم؟ قالوا: نحن كنا اثني عشر فذهب منّا أخ إلى البريّة فهلك فيها وكان أحبّ إلى أبينا منّا قال: كم أنتم هٰهنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الآخر قالوا عند أبينا لأنه أخو الذي هلك من أمّه فأبونا يتسلّى به قال: فمن يعلم أن الذي تقولون حقّ؟ فقالوا: أيها الملك إنا ببلاد لا نعرف فيها فقال يوسف: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، فإني أرضى بذلك، قالوا: إن أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه، قال: فضعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم فاقترعوا بينهما فأصابت القرعة شمعون وكان أبرّهم بيوسف فخلفوه عنده، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يُوسُف: الآيات ٥٩ ـ ٦١] فقال عند ذلك يوسف لفتيانه أي لغلمانه الّذين يكيلون الطعام: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ [يوسف: الآية ٦٢] أي ثمن طعامهم. قال ابن عباسٍ: كانت بضاعتهم النعال والأدم. وقال قتادة: كانت ورقًا في رحالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: الآية ٦٢]. واختلف العلماء في السبب الذي فعل ذلك يوسف بهم من أجله، فقال الكلبي تخوّف يوسف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به إليه مرة أخرى وقيل: خشي أن يشق أخذ ذلك منهم على أبيه، إذ كانت السنة سنة جدب وقيل رأى لؤمًا أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع احتياجهم إليه فردّه عليهم من حيث لا يعلمون تكرمًا وتفضلًا وقيل فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على ردّ البضاعة ولا يستحلون إمساكها فيرجعون إليه لأجلها ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ [يُوسُف: الآية ٦٣] قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجل من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فاقرؤا عليه مني السلام وقولوا له إن أبانا يصلّي عليك

ويدعو لك بما أوليتنا ثم إنه قال لهم: أين شمعون؟ فقالوا: إن الملك ارتهنه لنأتيه ببنيامين ثم أخبروه بالقصة، فقال لهم: ولم أخبرتموه بذلك، فقالوا له: إنه أخذنا وقال: إنكم جواسيس حتى كلمناه بلسان العبرانيّة ثم قصّوا عليه القصة وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾ [يوسف: الآية ٦٣] يعني بنيامين، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: الآية ٦٣]، فقال لهم يعقوب: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٤] الآية.

قال كعب لمّا قال يعقوب: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٤] قال الله: وعزتي وجلالي لأردّن عليك كليهما بعد ما توكّلت عليّ، قالوا: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾ [يوسف: الآية ٦٥] الذي حملوه من مصر ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ [يوسف: الآية ٦٥] أي ثمن طعامهم ﴿رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٥]، فقال لهم يعقوب: ﴿لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٦] أي تهلكوا جميعًا. وروى جويبر عن الضحاك[1] عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٦] يعني حتى تحلفوا لي بحقّ محمّد خاتم النبيين وسيد المرسلين أن لا تغدروا بأخيكم ففعلوا ذلك، فلمّا آتوهُ موثقهم قال يعقوب: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [يوسف: الآية ٦٦] أي شاهد بالوفاء، فلما أرادوا الخروج من عنده قال لهم: لا تدخلوا مصر ﴿مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٧] وذلك أنّه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوي جمالٍ وهيبةٍ وصور حِسان وقامات ممتدة وكانوا أولاد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم البلد لئلا يُصابوا بالعين، ثم قال لهم: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: الآية ٦٧] ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم وكان لمصر أربعة أبواب فدخلوا من أبوابها كلّها ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٨] صدق الله يعقوب عليه السلام فيما قال إلى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: الآية ٦٨] ولما دخلوا على يوسف في الكرّة الثانية قالوا: يا أيها لعزيز هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به قال لهم: أحسنتم وأصبتم وستحمدون على ذلك عندي ثم إنه أنزلهم وأكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين على مائدة وحده وحيدًا، فبكى وقال: لو كان

---

(١) الضحاك: أبو عاصم الضحاك بن مخلد بن الضحاك الشيباني البصري الحافظ (ت ٢١٢ هـ) له ترجمة في الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣٦٦/١، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ١٥٦.

أخي يوسف حيًا لأجلسني معه، فقال لهم يوسف: لقد بقي أخوكم هذا وحيدًا فريدًا، ثم أجلسه يوسف معه على مائدته فجعل يؤاكله فلمّا كان الليل أمر لهم يوسف بمثل ذلك وقال لهم: ليبت كل اثنين منكم على فراش واحد، فلمّا بقي بنيامين وحده قال يوسف هذا ينام معي على فراشي، فبات معه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح، فجعل روبيل يقول: ما رأينا مثل هذا فلما أصبح قال لهم: إني لأرى هذا الرجل الذي جئتم به ليس له أخ يؤنسه فإن تشاؤوا أضمّه إليّ ليكون منزله معي ثم إن يوسف أنزلهم منزلًا وأجرى عليهم الطعام والشراب وأنزل أخاه لأمّه معه، فذلك قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٩] فلما حلّ به قال له: ما اسمك؟ قال: بنيامين قال له: وما بنيامين؟ قال المثكل، وذلك أنه لما ولد فقد أمّه قال: وما اسم أمّك قال: راحيل بنت ليان بن ناجودا قال: فهل لك من ولد؟ قال: نعم، قال: كم؟ قال: عشرة بنين قال فما أسماؤهم؟ قال: لقد اشتققت أسماؤهم من اسم أخ لي من أمّي هلك اسمه يوسف، فقال يوسف: لقد اضطرك ذلك إلى حزن شديد فما أسماؤهم قال: بالعا وأخير وأشكل وأحيا وخير ونعمان وورد ورأس وحيشم وعيتم، قال فما هذه الأسماء؟ قال أَما بالعا فإنه أخي ابتلعته الأرض، وأما أخير فإنه كان بكر أمي وأبي، وأمَّا أشكل فإنه كان أخي لأبي وأمي ومني، وأمَّا أحيا فلكونه كان حييًا، وأما خير فإنّه كان خيرًا حيث كان، وأما نعمان فإنه كان ناعمًا بين أبويه، وأمَّا ورد فإنّه كان بمنزلة الورد في الحسن، وأما رأس فإنه كان منّي بمنزلة الرأس من الجسد، وأما حيشم فأعلمني أبي أنه حيّ، وأما عيتم فلو رأيت غرته لقرّت عيني وتم سروري، فقال له يوسف: أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك ذلك الهالك فقال بنيامين: أيّها الملك ومن يجد أخًا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل قال: فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه وعانقه، وقال إني ﴿أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٩] ولا تعلمهم بشيءٍ من هذا، ثم إن يوسف أوفى لإخوته الكيل وحمل لبنيامين بعيرًا باسمه قال كعب: لما قال له إني أنا أخوك، قال بنيامين: فإني لا أفارقك، قال يوسف: إني قد علمت باغتمام الوالد فإن حبستك زاد غمّه ولا يمكنني حبسك إلا بعد اشتهارك بأمر فظيع فقال: لا أبالي، افعل ما تريد فقال يوسف إني أدسّ صاعي هذا في رحلك ثم أنادي عليكم بالسرقة ليتهيأ لي ردّك بعد تسريحك، قال: افعل فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٠] وكانت مشربة يشرب فيها الملك وكانت كأسًا من ذهب مكلّلًا مرصعًا بالجواهر جعلها يوسف مكيالًا يكال بها ثم إنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى ظعنوا، ثم إن يوسف أمر بهم فأدركوا وحبسوا عن المسير ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٠] فوقفوا فلما قرب منهم الرسول قال لهم: ألم نحسن منزلتكم ونكرم ضيافتكم ونوف

كيلكم وفعلنا لكم ما لم نفعل لغيركم، قالوا: بلى، وما ذاك؟ قال: سقاية الملك فقدناها ولم نتهم عليها غيركم ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٧٣] وإنا منذ قطعنا هذه الطريق لم نرد أحدًا بسوء واسألوا عنا من مررنا به هل أضررنا أحدًا أو أفسدنا شيئًا وإنا قد رددنا الدراهم لما وجدناها في رحالنا فلو كنا سارقين ما رددناها، وفي الحديث أنّهم لما دخلوا مصر كمّموا أفواه دوابّهم لئلا تتناول من حروث الناس شيئًا فقال الرسول: إنه صاع الملك الأكبر الذي يتكهّن فيه وإنه ائتمنني عليه فإن لم أجده تخوّفت أن تسقط منزلتي عنده، وأفتضح في مصر فمن ردّه عليّ فله ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: الآية ٧٢] من طعام ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٧٢] أي كفيل، قالوا: معاذ الله أن نسرق، فقال المؤذن وأصحابه ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ [يوسف: الآية ٧٤] أي جزاء ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ [يوسف: الآية ٧٥] ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يوسف الآيتان: ٧٤، ٧٥]، فقال الرسول عند ذلك لا بدّ من تفتيش أمتعتكم ولستم ببارحين حتى أفتّشها ثم إنّه انصرف بهم إلى يوسف، ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: الآية ٧٦] لإزالة التهمة وكان يفتش أمتعتهم واحدًا واحدًا. قال قتادة ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعًا ولا ينظر في وعاء أحد إلّا استغفر الله تعالى مما قذفهم به حتى لم يبق إلا الغلام، فقال: ما أظن أن هذا الغلام أخذ شيئًا! فقال إخوته: والله ما نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا فلمّا فتحوا متاعه استخرجوا الصاع منه فلمّا أخرج الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء ثم أقبلوا على بنيامين فقالوا: ايش الذي صنعت بنا وفضحتنا وسوّدت وجوهنا يا ابن راحيل لا يزال لنا منكم بلاء أخذت هذا الصّاع فقال لهم بنيامين بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي إلى البريّة فأهلكتموه إن الذي وضع الصاع في رحلي هو الذي وضع الدراهم في رحالكم ثم إنهم قالوا ليوسف: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: الآية ٧٧] وهذا هو المثل السائر عذره شر من جرمه، واختلف العلماء في السّرقة التي وصفوا بها يوسف، قال سعيد بن جبير وقتادة السّرقة التي وصفوا بها يوسف أنه سرق صنمًا لجدّه أبي أمّه من ذهب فكسره، وألقاه في الطريق وقال ابن جريج أمرته أمه وكانت مسلمة أن يسرق صنمًا لخاله من ذهب فأخذه وكسره، وقال مجاهد جاء سائل يومًا فسرق يوسف بيضة من البيت وأعطاها السائل وقال ابن عيينة[1] دجاجة فناولها السائل فعيروه بها. وقال وهب كان

---

(١) ابن عيينة: سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي الأعور أحد أئمة=

يخبىء الطعام من المائدة للفقراء، وقال الضحاك وغيره كان أوّل ما دخل على يوسف من البلاء أن عمته بنت إسحٰق كانت أكبر ولد إسحٰق وكانت منطقة إسحٰق عندها وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت راحيل أم يوسف ماتت فحضنته عمته وأحبّته حبًّا شديدًا وكانت لا تصبر عنه، فلمّا ترعرع وبلغ سنوات وقع حبّه في قلب يعقوب فأتاها وقال لها: يا أختاه سلّمي إليّ يوسف فوالله ما أصبر عنه ساعة واحدة، فقالت له: ما أنا بتاركته فلمّا ألحّ عليها يعقوب قالت: دعه عندي أيّامًا أنظر إليه لعل ذلك يسليني عنه ففعل ذلك فلمّا خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحٰق فحزمت يوسف بها تحت ثيابه ثم إنها قالت فقدت منطقة إسحٰق فانظروا من أخدها، فالتمست فلم توجد فلمّا فتشوا أهل البيت وجدوها مع يوسف فقالت: والله إنه ليسلم لي أصنع فيه ما شئت وكان ذلك حكم آل إبراهيم في السارق، فأتاها يعقوب فأخبرته بذلك فقال: إن كان هذا فهو مسلم لك لا أستطيع غير ذلك فأمسكته بعلّة المنطقة فما قدر عليها يعقوب يأخذه منها حتى ماتت فهو الذي قال إخوته ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: الآية ٧٧]. قال الرواة: لما دخلوا على يوسف واستخرجوا الصواع من رحل بنيامين دعا يوسف بالصّاع فنقره ثم أدناه من أذنه ثم قال إن صاعي هذا ليخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلًا وأنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه فلمّا سمع بنيامين قام فسجد ليوسف وقال أيّها الملك سل صواعك هذا عن أخي أحيّ هو فنقره ثم قال له حيّ وسوف تراه فقال بنيامين اصنع بي ما شئت فإنه إن علم بي سوف يستنقذني قال: فدخل يوسف إلى منزله ثم إنه بكى وتوضأ فقال بنيامين: أيها الملك إني أريد أن تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحق من الذي سرقه فجعله في رحلي فنقره، ثم إنه قال إن صواعي غضبان وهو يقول كيف تسألني عن صاحب الذي سرقني وقد رأيت مع من كنت؟ قال وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا فغضب روبيل، وقال: أيّها الملك والله لئن لم تتركنا وتترك أخانا لأصيحن صيحة لا يبقى في مصر امرأة حامل إلا ألقت ما في بطنها وقامت كل شعرة في جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب إذا غضبوا ومس أحدهم الآخر ذهب غضبه فقال يوسف لابنه قم إلى جنب روبيل ومسه فقام الغلام إلى جنبه فمسّه فسكن غضبه، فقال روبيل: إن في هذا البيت لشيئًا من ولد

= الإسلام، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، مات بمكة سنة (١٩٨ هـ).
الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ)، تأريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، دون تأريخ ٩/ ١٧٤، الذهبي، ميزان الاعتدال ٢/ ١٧٠، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ١١٣.

يعقوب فقال يوسف من يعقوب فغضب روبيل وقال أيها الملك: لا تذكر يعقوب فإنه إسرائيل الله ابن إسحٰق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله، قال يوسف: أنت إذا كنت صادقًا صادق فلمّا أراد يوسف أن يحتبس أخاه عنده ويصير بحكمه وأنه أولى به منهم واحتبسه ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه منه سألوه أن يخلّيه لهم ويعطونه واحدًا منهم بدله فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ [يُوسُف: الآية ٧٨] كلفًا بحبّه ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٨]، قال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٩] ولم يقل من سرق تحرزًا عن الكذب ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٩] إن أخذنا بريئًا بسقيم ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٠] أي خلا بعضهم ببعض متناجين متشاورين، فقال كبيرهم يعني في العقل وهو شمعون عن مجاهد، وقال قتادة والسّدي كبير في السنّ وهو روبيل ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: الآية ٨٠] في هذا الغلام لتردونه ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ﴾ [يوسف: الآية ٨٠] أي من قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [يوسف: الآية ٨٠] يعني أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ [يوسف: الآية ٨٠] فأرجع إلى الملك فأناجزه القتال ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ [يوسف: الآيتان ٨٠، ٨١] أي نحن رأينا سرقته معه ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨١] حين سألناك أن ترسله معنا. ولو علمنا الغيب أنه يسرق ما ذهبنا به معناه ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: الآية ٨٢] يعني واسأل أهل القرية ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ [يوسف: الآية ٨٢] يعني قومًا صحبوهم من أهل كنعان ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: الآية ٨٢] لك في قولنا فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول فقال يعقوب: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ [يُوسُف: الآية ١٨] وهو الّذي لا جزع فيه ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٣] يعني يوسف وبنيامين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٣] وتولّى عنهم يعقوب وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[1] [يوسف: الآية ٨٤] وذلك أنه لما بلغه خبر بنيامين تكامل حزنه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم وقال: يا أسفًا على يوسف، والأسف أشدّ الحزن وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: لم تعط أمّة من الأمم عند المصيبة، إنا لله وإنا إليه راجعون إلا أمّة محمّد ﷺ ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه على ابنه ما أصابه من الحزن لم يسترجع إنما قال: يا أسفًا على يوسف، وقال الحسن كان بين خروج يوسف من عند أبيه إلى يوم الالتقاء معه ثمانون

---

(١) في الأصل (يا أسفا) والصواب ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾.

سنة لم تجف عيناه من الدموع وما كان على وجه الأرض أكرم على الله تعالى من يعقوب فلما شكا وبكى قال له ولده ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ [يوسف: الآية ٨٥] أي مريضًا ذاهب العقل من الهم ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: الآية ٨٥] فقال يعقوب لما رأى غلظتهم وجفوتهم ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: الآية ٨٦] لا إليكم، وفي الحديث أن يعقوب كبر وضعف حتى سقط حاجباه على عينيه وكان يرفعهما بخرقة فقال له بعض جيرانه قد انهمشت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك فما بلغ بك ما أرى؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله تعالى إلى يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟! فقال: يا ربّ خطيئة أخطأتها فاغفرها لي، قال: قد غفرت لك. فكان بعد ذلك إذا سأل قال ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أخبرني الحسين بن فتحويه، أخبرنا أحمد بن الحسن بن حامد أخبرنا الحسين بن أيوب، أخبرنا عبد الله بن أبي زياد، أخبرنا سيّار بن حاتم عن عبد الله بن السمط قال: سمعت أبي يقول: بلغنا أن رجلًا قال ليعقوب ما الذي أذهب بصرك؟ قال: حزني على يوسف، قال: فما الذي قوّس ظهرك؟ قال: حزني على أخيه فأوحى الله تعالى إليه يا يعقوب أتشكوني وعزّتي وجلالي لأكشف ما بك حتى تدعوني، فقال عند ذلك ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فأوحى الله تعالى إليه وعزّتي وجلالي لو كانا ميتين لأخرجتهما لك حتى تنظر إليهما وإنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاةً فقام ببابكم مسكين يستطعم فلم تطعموه منها شيئًا وإن أحبّ الناس إليّ من خلقي الاستحياء ثم المساكين فاصنع طعامًا وادع إليه المساكين، فصنع طعامًا ثم قال: من كان صائمًا فليفطر الليل عند آل يعقوب وقال وهب بن منبه أوحى الله تعالى إلى يعقوب أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة، قال: لا يا إلـهي قال: لأنك شويت عناقًا وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه ويقال: إن سبب ابتلاء يعقوب بفقد يوسف أنه كان له بقرة ولد لها عجل فذبح عجلها بين يديها وكانت تخور فلم يرحمها يعقوب فآخذه الله بذلك فابتلاه بفقد أعزّ ولده إليه، ثم إن يعقوب قال لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: الآية ٨٧] الآية، قال السدي لما أخبره ولده بخبر العزيز وقوله وفعله أحسّت نفس يعقوب وطمع وقال: لعلّه يوسف، وروي أنه كان رأى ملك الموت في المنام فسأله هل قبضت روح يوسف فقال: لا، وإنّهُ والله حيّ يرزق وروي أنّه رأى ملك الموت وقد زاره فقال له: السلام عليك أيها الكظيم فاقشعرّ جلده وارتعدت فرائصه وردّ عليه السلام، ثم قال له: من أنت ومن أدخلك هذا البيت وقد أغلقت على نفسي بابي كيلا يدخل عليّ أحد وأشكو بثّي وحزني إلى الله؟ فقال له: يا نبيّ الله، أنا الذي

أيتم الأولاد وأرمل الأزواج وأفرق بين الجماعات، قال: فأنت إذًا ملك الموت، قال: نعم، قال: فأخبرني عن الأرواح أتقبضها مجموعة أو متفرقة روحًا روحًا؟ قال: اقبضها روحًا روحًا، قال: فهل مرّت بك روح يوسف في الأرواح؟ قال: لا، قال: فجئتني زائرًا أم داعيًا؟ فقال: يا نبيّ الله ما جئتك إلّا مسلّمًا فإن الله تعالى لا يميتك حتى يجمع بينك وبين يوسف، ولو كان في الصخرة التي عليها قرار الأرضين وما أذن الله لي في زيارتك إلّا لأبشرك وأجيبك عما تسألني عنه، وإن شئت أعلمتك لماذا ابتليت بفقد ولدك قال له: فأعلمني يا عزرائيل فقال: يا إسرائيل الله هل تذكرت الجارية التي اشتريتها عام كذا في شهر كذا، ثم فرّقت بينها وبين أبويها قال: نعم يا ملك الموت كأنّه كان بالأمس، فقال له ملك الموت فلأجل ذلك ابتليت بفقد الولد وهل تعلم لماذا ابتليت بفقد البصر قال: لا، قال: أمرت يومًا بذبح جذعة فذبحتها وشويتها في يوم كذا في شهر كذا، فمرّ تميم العابد العبد الصّالح بك وهو صائم ما أفطر منذ أسبوع فاشتم قتار الشوى فلم تطعمه شيئًا فعند ذلك أعتق يعقوب من كان بحضرته من العبيد والإماء وأمر أن يذبح كل يوم من أغنامه كبشان ويفرّق لحمهما على الفقراء والمساكين فقبل الله ذلك منه وشكره عليه وأتاه الفرج فعند ذلك قال يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٧]. قال قتادة: ذكر لنا أن نبيّ الله يعقوب عليه السلام ما ساء ظنه بالله تعالى في طول بلائه ساعة قطّ من ليل أو نهار فعند ذلك خرج إخوة يوسف راجعين إلى مصر وهذه كرة ثالثة فدخلوا على يوسف ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٨] أي الملك بلغة مصر ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٨] أي قليلة رديئة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجاوز من البائع فيها واختلف المفسرون في هذه البضاعة ما هي؟ فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفًا لا تنفق إلا بوضيعة وقال ابن أبي مليكة رضي الله عنه كانت خلقة الغرائر والحبال رثة المتاع وقال عبد الله بن الحارث والحسن كانت أمتعة الأعراب الصوف والسمن والأقط وقال الضحاك: كانت النعال والأدم والسويق المقلي ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: الآية ٨٨]، قال الضحاك: لم يقولوا إن الله يجزيك إن تصدقت علينا لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن، وقال عبد الجبار بن العلائي سئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبيّنا محمّد ﷺ فقال سفيان: ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ أراهم سفيان أن الصدقة كانت لهم حلالًا وإنما حرمت على نبيّنا عليه الصلاة والسلام فقال لهم يوسف مجيبًا لهم عند ذلك ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٩] واختلف العلماء في السبب

الذي حمل يوسف على هذا القول الذي كان بدء فرج يعقوب وراحته وآخر بلائه ومحنته فقال (محمد بن إسحٰق)[1] ذكر لنا أنهم لما كلّموه بهذا الكلام غلبته نفسه وأدركته الرقة فارفض دمعه باكيًا ثم باح لهم بالذي كان يكتم ﴿قَالَ[2] هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم﴾ [يوسف: الآية ٨٩] الآية وقال الكلبيّ إنما قال ذلك حين حكى لإخوته أن مالك بن دعر قال: إني وجدت غلامًا في بئر من حاله كيت وكيت فابتعته من قوم بكذا وكذا درهمًا فقالوا له أيها الملك نحن بعنا هذا الغلام فاغتاظ يوسف من ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم فولى يهوذا وهو يقول كان يعقوب يبكي ويحزن لفقد واحدٍ منّا حتى كف بصره فكيف إذا أتاه خبر قتل بنيه كلّهم، ثم إنهم قالوا له إن أنت فعلت بنا ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا، فذلك الوقت رحمهم وبكى وقال لهم ذلك القول وقال بعضهم: إنما قال ذلك حين قرأ كتاب أبيه إليه، وذلك أن يعقوب لما قيل له إن ابنك سرق كتب إلى يوسف كتابًا من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحٰق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر المظهر العدل والموفي الكيل، أما بعد فإنا أهل بيت موكّل بنا البلاء فأمّا جدّي فابتلي بالنمروذ فشدّت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا وأما أبي فشدّت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ليذبح ففداه الله بذبح عظيم وأما أنا فكان لي ابن وكان أحبّ أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البريّة ثم آتوني بقميصه ملطخًا بالدم وقالوا: قد أكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي عليه ثم كان لي ابن آخر وكان أخاه من أمّه وكنت أتسلّى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق وإنك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا فإن رددته عليّ وإلّا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلمّا قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك نفسه من البكاء وعيل صبره، فأظهر لهم أمره وقال بعضهم: إنما قال ذلك حين سأل أخاه بنيامين هل لك ولد قال: نعم ثلاثة بنين قال: فما سميتهم؟ قال: سمّيت الأكبر منهم يوسف، قال: ولم؟ قال: محبّة لك ولذكرك قال: فما سميت الثاني؟ قال: ذئبًا، قال: ولم والذئب سبع عاقر، قال: لأذكرك به، قال: فما سميت الثالث؟ قال: دمًا قال: ولم؟ قال: لأذكرك به فلمّا سمع يوسف هذه المقالة خنقته العبرة ولم يتمالك أن قال لإخوته: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٩] قالوا له: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: الآية ٩٠]، قال

---

(١) محمد بن إسحٰق بن يسار، صاحب المغازي القرشي المطلبي، أحد الأئمة قال الشافعي (رضي الله عنه) من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحٰق (ت ١٥١ هـ).

(٢) في الأصل (فقال) والصواب ﴿قَالَ﴾.

ابن إسحٰق لما قال يوسف لإخوته ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: الآية ٨٩] كشف عنه الغطاء ورفع عنه الحجاب فعرفوه ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ [يوسف: الآية ٩٠]. وروى جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال لهم يوسف: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم﴾ [يُوسُف: الآية ٨٩] الآية ثم تبسّم وكان إذا تبسم كأنَّ ثناياه اللؤلؤ المنظوم فلمّا أبصروا ثناياه شبهوه بيوسف فقالوا له مستفهمين: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٠] وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال: إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان له في فرقه علامة وكان ليعقوب مثلها وكان لإسحٰق مثلها وكان لسارة مثلها شبه الشامة فلمّا رفع التاج عن رأسه ورأوا الشامة عرفوه وقالوا له: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٠] بأن جمعنا بعدما فرقتم بيننا ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٠] ثم إنهم أقروا بفضل يوسف عليهم وجريمتهم إليه ﴿قَالُواْ[1] تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٩١] فقال يوسف وكان حليمًا كريمًا موفقًا ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: الآية ٩٢]، قال السدي وغيره فلمّا عرّفهم يوسف بنفسه سألهم عن أبيه فقال: ما فعل أبي من بعدي قالوا: ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه قال الضحاك: كان ذلك القميص من نسج الجنة، وكان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على سقيم إلا صح وعوفي فأعطاهم يوسف ذلك القميص وهو الذي كان لإبراهيم وقد مضت قصته فقال لهم: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: الآية ٩٣]، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ [يوسف: الآية ٩٤] من مصر متوجّهين إلى كنعان قال أبوهم يعقوب: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: الآية ٩٤] أي تسفهون ويروى أن ريح الصّبا استأذنت ربّها أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص فأذن لها فأتته بها قال ابن عباسٍ وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثماني ليالٍ وقال مجاهد وذلك أنه هبت ريح فصفقت القميص فاحتملت الصبا ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنّة فعلم أنه ليس في الأرض من رياح الجنّة إلا ما كان من ذلك القميص فمن ثَمّ قال ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: الآية ٩٤]، فقال له بنو بنيه ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٥] ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف: الآية ٩٦] وهو يهوذا بن يعقوب قال ابن مسعود جاءه البشير من بين يدي العير، وقال السدي قال يهوذا ليوسف: أنا ذهبت بالقميص ملطخًا بالدم إلى يعقوب

---

(١) وجاء في الأصل (فقالوا) والصواب ما ثبتناه.

فأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حيّ فأفرحه كما أحزنته. قال ابن عباس حمله يهوذا وخرج ماشيًا حاسرًا حافيًا وجعل يعدو حتّى أتى أباه وكان معه سبعة أرغفة فلم يستوفِ أكلها حتى بلغ كنعان وكانت المسافة ثمانين فرسخًا فلمّا أتاه بالقميص ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يُوسُف: الآية ٩٦] قال الضحاك رجع إليه بصره بعد العمى وقوّته بعد الضعف وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن عن أبي هريرة[١] رضي الله تعالى عنه قال: كان يعقوب عليه السلام أكرم أهل الأرض على ملك الموت وأن ملك الموت استأذن ربّه في أن يأتي يعقوب فأذن له فجاءه فقال له يعقوب: يا ملك الموت أسألك بالذي خلقك هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس، فقال: لا، ثم قال له ملك الموت يا يعقوب ألا أعلمك كلمات، قال: بلى، قال: قل يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدًا ولا يحصيه أحد غيرك، قال فدعا بها يعقوب في تلك الليلة، فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: الآية ٩٦]، فقال لهم عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٩٦ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: الآيات ٩٦ - ٩٨] الآية، قال أكثر المفسّرين أخر ذلك إلى السحر من ليلة الجمعة، فوافق ذلك ليلة عاشوراء وذلك أنّ الدعاء في الأسحار لا يحجب عن الله تعالى فلمّا انتهى يعقوب إلى الوعد قام إلى الصلاة بالسحر، فلمّا فرغ منها رفع يديه إلى الله عزّ وجلّ وقال: اللّهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلّة صبري عنه واغفر لِولدي ما جنوا على أخيهم يوسف فأوحى الله إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين، وقال وهب كان يستغفر لهم كلّ ليلة جمعة في نيّف وعشرين سنة، أخبرنا الحسين بن محمد بن فتحويه، أخبرنا (عبد الله بن محمد بن شيبة)[٢] أخبرنا أحمد بن السفر بن ثوبان البصري، أخبرنا إسحٰق بن زياد الأرملي، أخبرنا الفضل بن حميد البغدادي، أخبرنا إسحٰق بن زياد وابن ضمرة عن رجاء بن أبي سلمة عن (عطاء الخراساني)[٣] قال طلب الحوائج إلى الشباب أيسره منها

---

(١) أبو هريرة عبد الرحمٰن بن صخر الدوسي اليماني حفظ عن النبي ﷺ الكثير، وكان من أوعية العلم، ومن كبار أئمة الفتوى مع الجلالة والعبادة والتواضع ولي إمرة المدينة، وناب أيضًا عن مردان في إمرتها توفي سنة (٥٨ هـ) له ترجمة في الذهبي، العبر ١/ ٦٢، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ٩.

(٢) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي روى عن شريك وابن المبارك وابن عيينة وخلق وروى عنه البخاري، ومسلم وأبو داود، وابن ماجه، وأبو زرعة وخلق توفي سنة (٢٣٥ هـ)، له ترجمة في ابن كثير البداية والنهاية ١٠/ ٣١٥، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ١٨٩.

(٣) عطاء بن أبي مسلم الخراساني أنزل الشام وأرسل عن جماعة من الصحابة، وعن أبي حنيفة ومالك (ت ١٣٥ هـ)، له ترجمة: طبقات ابن سعد أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري=

إلى الشيوخ ألا ترى قول يوسف لإخوته ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢] وقول يعقوب ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٨] وروي أن يعقوب قال للبشير لما أخبره بحياة يوسف كيف يوسف قال له: إنه ملك مصر فقال يعقوب: ما أصنع بالملك على أيّ دين تركته قال على دين الإسلام، فقال يعقوب: الآن تمّت النعمة وقال الثوري[1] لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا فقال يوسف: يا أبت بكيت عليّ حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى يا بني، ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك يوم القيامة قالوا: وكان يوسف قد بعث مع البشير جهازًا ومائتي راحلة وسأله أن يأتيه بأهله ووالده أجمعين، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر، فلما دنا يعقوب من مصر كلّم يوسف الملك الأكبر الذي فوقه، فخرج مع يوسف في أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهما يتلقون يعقوب وكان يعقوب يمشي متوكئًا على يهوذا فنظر يعقوب إلى الجند والناس فقال: يا يهوذا هذا فرعون مصر الأكبر فقال: لا، هذا ابنك فلمّا دنا كلّ واحدٍ منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدأه بالسلام فمنعه الله من ذلك وكان يعقوب أفضل وأحق بذلك منه، فابتدأه يعقوب بالسلام فقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٩] ورفعهما على العرش أبواه يعقوب وخالته ليا فسمى الخالة أمًّا كما سمى العم أبًا في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: الآية ١٣٣]. وقال الحسن بشر الله راحيل أم يوسف من قبرها حتى سجدت له تحقيقًا للرؤيا فذلك قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٠] وكانت تحيّة الناس يومئذٍ السجود ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض، فلمّا رأى يوسف أبويه وإخوته قد خرّوا له سجدًا اقشعر عند ذلك جلده، وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٠] الآية. قال وهب: دخل يعقوب وولده مصر وهم اثنان وسبعون إنسانًا ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلًا سوى الذريّة والهرمى والزمنى وكانت الذرية ألف ألف سوى المقاتلة وقال (الفضيل بن عياض)[2] بلغنا أن يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ورأى يوسف ومملكته فكان يطوف يومًا من الأيام في خزائنه فرأى

= (ت ٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت د ت، ١٠٢/٧، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ٦٠.

(١) الثوري: سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الكوفي. أحد الأئمة الأعلام روى عن أبيه، وجعفر الصادق وخلق وعنه ابن المبارك وآخرون، مات بالبصرة سنة ١٦١.

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي الزاهد (جاء في الأصل الفضل) والصواب=

خزانة مملوءة قراطيس بيضًا فقال له يا بنيّ لقد تغيرت بعدي لك كلّ هذه القراطيس وما حملت بطاقة منها تكتب إليّ كتابًا فقال يوسف هذه القراطيس كلها لك كلما زاد شوقي وكثر حنيني آخذ ورقة حتى أكتب إليك يا أبت فيمنعني جبريل أن أكتب إليك فأتركها في هذه الخزانة حتى بلغ هذا المبلغ فسأل يعقوب جبريل عن ذلك فقال: منعني ربّي فسأل الله عن ذلك فأوحى الله إليه لأنك قلت: أخاف أن يأكله الذئب فهلا خفتني هذه العقوبة لأجل تخوفك من غيري.

وروى (صالح المري)[١] عن يزيد الرّقاشي[٢] عن (أنس بن مالك)[٣] قال إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله خلا ولده نجيًا فقال بعضعم لبعض: أليس قد علمتم ما فعلتم بالشيخ يعقوب وبيوسف قالوا: بلى، قالوا: فإن عفوا عنكم فكيف لكم بربكم فاستقام أمرهم على أن يأتوا الشيخ فأتوه وجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعد فقالوا: يا أبانا أتيناك على أمر لم نأتكِ بمثله قط ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط والأنبياء أرحم البرية فقال: ما بكم يا بني؟ فقالوا: ألست تعلم ما كان منا إليك وإلى أخينا يوسف، قال: بلى، قد علمت قالوا: فلستما قد عفوتما عنا، قالا: بلى، قالوا: فإنّ عفوكما لا يغني عنا شيئًا إذا كان الله تعالى لم يعف عنّا قال: فما تريدون يا بني؟ قالوا: نريد أن تدعو الله لنا فإذا جاءك الوحي من عند الله سله هل عفا الله عنا فإن أجابك بأنه قد عفا عنا جميعًا قرّت أعيننا واطمأنت قلوبنا وإلا فلا قرت لنا عين في الدنيا أبدًا، فقام الشيخ واستقبل القبلة وقام يوسف خلفه وقاموا كلّهم خلفهما أذلّة خاشعين فدعا يعقوب وأمّنَ يوسف عليهما السلام فلم يجب فيهم قريبًا من عشرين سنة قال صالح المري ثم نزل جبريل عليه السلام على يعقوب فقال: إن الله تعالى بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنه قد عفا عما صنعوا وأنهم قد انعقدت مواثيقهم بعدك

= الفضيل وهو خطأ تصحيف وتحريف، مات بمكة سنة (١٨٧ هـ)، السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ١٠٤.

(١) صالح المرىء: صالح بن بشير بن وادع أبو بشر البصري القاص أقدمه المهدي بغداد، كان شديد الخوف كثير البكاء، وقال الثوري لما سمع كلامه هذا نذير قوم مات سنة (١٧٢ هـ). ابن حجر - تهذيب التهذيب ٤/ ٣٨٢.

(٢) يزيد الرقاشي: الصواب أبو يزيد الرقاشي (وهم من الناسخ)، واسمه يونس بن يزيد الأيلي، أبو يزيد الرقاشي، روى عن الزهري وجماعة وعنه ابن وهب والأوزاعي وخلق، مات سنة (١٥٧ هـ)، له ترجمة في ابن سعد، طبقات ابن سعد ٧/ ٢٠٦، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ٧١.

(٣) أنس بن مالك بن النضر أبو حمزة الأنصاري المدني، خادم رسول الله ﷺ وله صحبة طويلة وأحاديث كثيرة مات سنة (٩٣ هـ). له ترجمة، ابن الأثير الجزري، أسد الغابة ١/ ١٥١، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ١١.

على النبوة قالوا: فأقام يعقوب بمصر بعد موافاته بأهله وولده أربعًا وعشرين سنة بأغبط حالٍ وأهنأ عيش وأتم راحة وأدوم سلامة ثم حضرته الوفاة فلما احتضر جمع بنيه وقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٣]، ثم قال: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٢]، ثم إنه أوصى إلى يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدسة حتى يدفنه عند أبيه إسحٰق وجدّه إبراهيم ففعل ذلك، ونقله إلى بيت المقدس في تابوت من ساج وخرج معه يوسف في عسكره وإخوته وعظماء أهل مصر ووافق ذلك يوم وفاة عيص فدفنا في يوم واحد وكان عمرهما جميعًا مائة سنة وسبعًا وأربعين سنة لأنهما ولدا في بطن واحد وقبرا في قبر واحد، قال: فلمّا جمع الله ليوسف شمله وأقرّ له عينه وأتم له تفسير رؤياه وكان موسعًا عليه في ملك الدنيا ونعيمها وعلم أن ذلك لا يدوم له وأنه لا بد من فراقه فأراد نعيم الجنّة إذ هو أفضل منه فتاقت نفسه إلى الجنة فتمنى الموت ودعا به، ولم يتمنَّ نبيّ قبله ولا بعده الموت فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠١] الآية، وروي أن يوسف لما حضرته الوفاة جمع إليه قومه من بني إسرائيل وهم ثمانون رجلًا وأعلمهم بحضور أجله ونزول أمر الله تعالى به فقالوا: يا نبي الله نحبّ أن تعرّفنا كيف تتصرف الأحوال بنا بعد خروجك من بين أظهرنا وإلى ما يؤول إليه أمرنا وديننا وملّتنا، فقال لهم: إنّ أمركم يستقيم على ما أنتم عليه وتستقيمون على دينكم إلى أن يبعث رجل جبّار عات من القبط يدّعي الربوبيّة فيقهركم ويذبح أبناءكم ويستحي نساءكم ويسومكم سوء العذاب فتمتدّ أيامه مدة مديدة ثم يخرج من بني إسرائيل من ولد لاوي بن يعقوب رجل اسمه موسى بن عمران رجل طوال جعد الشعر آدم اللّون فينجيكم الله من أيدي القبط على يده قال: فجعل كل من بني إسرائيل يسمي ابنه عمران ويسمي عمران ابنه موسى، قال: وكان ليوسف ديك وكان عمره خمسمائة سنة، فقال لهم يوسف: إنه يستقيم أمركم ما دام يصرخ فيكم هذا الديك فإذا ولد هذا الجبّار يسكن فلا يصرخ مدة ولايته حتى إذا انقضت مدّة ولايته وأذن الله تعالى بمولد هذا النبي فيصرخ هذا الديك ويعود إلى صراخه ويكون ذلك علامة انقضاء ملك الجبار وظهور نبي الله في الأرض فما زالوا يراعون الحال إلى أن سكن صراخ الديك فوجموا له واكتأبوا وأيقنوا بوهي أركان دينهم وإظلال ما آذنهم به يوسف من مولد الجبّار، واعتزلوا لذلك واجمين إلى أن صرخ ذلك الديك فاستبشروا وتصدقوا وفرحوا واستيقنوا بالفرج والراحة، ثم مات يوسف عليه السلام وكان قد أوصى إلى أخيه يهوذا واستخلفه على بني إسرائيل فتوفّاه الله طيّبًا طاهرًا ودفن في النيل في صندوق من رخام، وذلك أنه لما مات تشاح الناس عليه كل يحبّ أن يدفن في محَلّتهم لما يرجون من بركته حتى همّوا بالقتال فرأوا أن يدفن في

النيل حيث تتفرق المياه بمصر فيمرّ الماء عليه ثم يصل إلى جميع مصر فيكونون كلهم فيه شرعًا واحدًا ففعلوا ذلك وكان قبره في النيل إلى أن حمله موسى عليه السلام معه حين خرج من مصر ببني إسرائيل فنقله إلى الشام ودفنه بأرض كنعان خارج الحصن حيث هو اليوم فلذلك تنقل اليهود موتاهم إلى الشام من فعل ذلك فيهم، وروى يونس بن عمران عن أبي موسى قال: نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه فقال رسول الله ﷺ: أكرمتنا فأحسنت سل حاجتك؟ فقال: ناقة ترحلها وعنز تحلبها أهلي، فقال ﷺ أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بني إسرائيل فقالوا: يا رسول الله وما عجوز بني إسرائيل؟ فقال: إن بني إسرائيل لما خرجوا ضلوا الطريق وأظلم عليهم الليل فقالوا: ما هذا؟ فقال علماؤهم إن يوسف لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقًا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا، قال موسى: فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا: عجوز لبني إسرائيل فبعث إليها موسى، فأتته فقال: دلّيني على قبر يوسف فقالت له: وتعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: أن أكون معك في الجنة فكره أن يعطيها حكمها، فأوحى الله إليه أن أعطها حكمها ففعل، ويروى من طريق آخر أنّ هذه العجوز كانت مقعدة عمياء فقالت لموسى: ألا أخبرك بموضع قبر يوسف؟ قال: نعم، فقالت له: لا أخبرك حتى تعطيني أربع خصال تطلق رجلي وتعيد إليّ بصري وشبابي وتجعلني معك في الجنّة قال: فكبر ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه أن أعطها ما سألت فإنّك إنما تعطي عليّ ففعل فانطلقت بهم إلى موضع عين في مستنقع ماء فاستخرجوه من شاطىء النيل في صندوق من مرمر فلما حملوا تابوته طلع القمر وأضاء الطريق مثل النهار فاهتدوا به وحملوه. وقال أهل التاريخ عاش يوسف بعد موت يعقوب عليه السلام ثلاثًا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

باب في ذكر قصّة نبي الله أيّوب وبلائه عليه السّلام(١)

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ [صَ: الآية ٤١] الآية، وقال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٣] قال وهب وكعب وغيرهما من أهل الكتب كان أيّوب رجلًا من الروم وكان رجلًا طويلًا عظيم الرأس جعد الشعر حسن العينين والخلق قصير العنق غليظ الساقين والساعدين وكان مكتوبًا على جبهته المبتلى الصابر وهو أيّوب بن أموص بن تارخ بن روم بن عيص بن إسحٰق بن إبراهيم عليهم السلام وكانت أمّه من ولد لوط بن هاران وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكان له الثنية من أرض الشام كلّها سهلها وجبلها، وما كان فيها وكان له من أصناف المال كلّه من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدة والكثرة وكان له بها خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكلّ عبد امرأة وولد ومال ويحمل آلة كل فدان أتان ولكلّ أتان ولد من الاثنين إلى فوق الخمسة وكان الله أعطاه أهلًا وولدًا من رجال ونساء وكان آمرًا تقيًا رحيمًا بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرًا لأنعم الله تعالى مؤدّيًا لحقه، قد امتنع منه عدو الله إبليس أن يصيب منه ما أصاب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل والسهو عن أمر الله تعالى بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدقوه وعرفوا فضله أحدهم من اليمن يقال له النضر ورجلان من أهل بلده يقال لأحدهما حرم وللآخر بارود فكانوا يؤانسونه ويعبدون الله معه، وكان لإبليس موقف من السماء يقف فيه كلّ موقف يسأل فيه ما يريد قال فصعد فيه في بعض ما كان يصعد فرأى ديوان أحدٍ فحسده، قال وهب: وكان إبليس قد طار في مشارق الأرض ومغاربها ينظر هل يجد عبدًا مخلصًا فرأى أيّوب ممتنعًا منه فحسده فنودي يا لعين هذا أيّوب، عبدٌ

---

(١) انظر تفاصيل قصة نبي الله أيوب في الثعلبي، ابن إسحٰق أحمد بن إبراهيم (ت ٤٢٩ هـ)، قصص الأنبياء المسمىٰ بالعرائس، المكتبة الشعبية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ص ٨٨.
ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ ١/٩٨.

صالح مخلص لله تعالى لا تستطيع أن تغويه فقال اللعين: يا ربّ كيف أقدر على أيّوب، فكيف لا يعبدك ولا يشكرك وقد أعطيته أمنيةً من الولد والمال والخدم وقرّة العين في الدنيا، أما إنك لو ابتليته ونزعت عنه ما أعطيته لتغيّر عن حاله ويترك عبادتك، فقال الله: كذبت يا ملعون ليس ذلك كما ظننته فقال: يا ربّ سلطني عليه وعلى ماله وولده فترى كيف يكون حاله في معيشته بعد طاعته إياك، فقال الله تعالى: اذهب فقد سلّطتك على ماله وولده، فرجع إبليس إلى مجلسه وجمع الشياطين فقالوا: لم حشرتنا يا سيّدنا فقال: قد ترون حال هذا العابد أيّوب الذي قد أثنى الله عليه ومدحه وقد سلّطني عليه وعلى ماله وولده، فماذا عندكم؟ فقالوا: نحن عونك على ما تريد، ثم إن طائفة منهم قاموا ومعهم عواصف الريح، فقال لهم: انطلقوا إلى غنمه ودوابه ورعاته فاحتملوها حتى فرّقوها في البحر ففعل ذلك وجاء عدوّ الله إلى أيوب على هيئة الراعي وهو يصلّي فقال: قد عصفت الريح بإبلك وغنمك ودوابك كلّها فأهلكتها فعرفه أيّوب فقال له حين فرغ من صلاته الحمد لله الذي هو أعطانيها وهو أخذها وأخرجها منك كما يخرج الزيوان من القمح، ولو كان فيك خير لكنت مثلها فانصرف عدو الله خائبًا ثم دعا منهم طائفةً أخرى، وقال: ما عندكم قالوا: نحن نكون مثل شهب النار فلا نمرّ بشيءٍ إلا نحرقه قال: فاذهبوا إلى عقاره وجنانه وزروعه وثمره فأحرقوها ففعلوا، ثم جاء عدو الله إلى أيّوب على هيئة قيّمها فقال له: يا أيّوب أتصلّي وقد جاءت النار فأحرقت جنانك وزرعك وثمارك كلها فصيرتها رمادًا فلم يردّ عليه حتى فرغ من صلاته ثم قال: الحمد لله الذي رزقنيها ثم قبضها مني بلا كلفة مني كما يتقبل القربان من صاحبه وأخرجك منها ولو كان فيك خيرًا لكنت مثلها ورجع إلى صلاته فرجع عدو الله خائبًا حتى أهلك اللعين جميع أصناف ماله وفي ذلك يأتيه وهو يجيبه بحمد الله والثناء عليه والرضا بقضائه والصبر على بلائه قال: وقال لطائفة أخرى منهم ما عندكم في أمره فقالوا: نحن نصيح صيحة يزول بها كل شيءٍ نريده، فقال: اذهبوا إلى أهله وولده فزلزلوا عليهم بناءهم فذهبوا وكان أهله وولده في قصرٍ له فزلزلوه وأسقطوا عليهم وشدّخوهم فماتوا جميعًا ثم جاء عدو الله إلى أيّوب وهو يصلّي فقال له: قد انهدم قصرك على أهلك وولدك فشدّخوهم وماتوا بأجمعهم، وفي رواية أخرى أنّه كان له عشرة بنين في مسجدٍ بين يدي معلّم لهم فأسقط الشياطين المسجد عليهم، فلمّا أخبره بذلك عدوّ الله لم يجبه بشيءٍ حتى قضى صلاته، ثم قال: الحمد لله الذي رزقنيهم وهو الذي قبضهم ولو كان فيك خيرًا لقبضك معهم ثم رجع عدوّ الله خائبًا ويروى أنه قال: أخذهم الذي أعطانيهم ويروى أنه لما أصيب بكلّ شيء له دخل بيته ونزع ثيابه، وقال: هكذا جئت إلى الدنيا وفي رواية أخرى أنّ أيوب جزع على ولده وقال: يا ليت لم تلدني أمّي ولم أكُ شيئًا فسرّ بذلك إبليس فصعد إلى السماء وقال: يا

ربّ قد جزع عبدك أيّوب وفعل كذا وكذا وإن أيّوب لما قال ما قال راجع التوبة عن قريب، وندم على فعله فسبقت توبته إلى السماء قبل إبليس فقال الله تعالى لإبليس: يا لعين لقد تاب عبدي من فعله وسبقك بتوبته إليّ فارجع خائبًا، ويروى أن الله تعالى قال له: كيف رأيت صبر عبدي فقال عدو الله: يا ربّ قد علم أنك ستعوضه ممّا فاته لذلك لا يجزع مع أنّ نفسه سالمة، ولو أصابه البلاء في نفسه لجزع فسلّطني على جسده فسوف ترى صنيعي كيف يكون بك، قال: اذهب فقد سلّطتك عليه لكني لا أسلّطك على روحه ويقال: سلطتك إلّا على لسانه وسمعه وبصره وقلبه وروحه وكان لسانه للذكر وقلبه للشكر وعينيه للنظر إلى السماء للعبرة وسمعه لاستماع ما يوحى إليه قال: فأتاه إبليس وهو ساجد فنفخ في منخريه ويقال في إبهام فقال لهم: ألا ترون ما نزل بأخيكم أيّوب فقصّ عليهم قصّته وأمرهم أن يأتوه بطعامٍ من عندهم ويقال إن امرأته كانت تسأل الناس ما تطعمه فقال لهم: احملوا إليه سقاءً من خمرٍ فإن شفاءه في الخمر إن يشرب منها، فانطلق إخوته إليه فلم يسْتَطيعوا الدنوّ منه من نتن ريحه حتى قبضوا على أنوفهم فسلّموا فردّ عليهم السلام وجلسوا عنده، ثم قالوا: يا أيّوب ما هذا الذي ابتليت به، لقد كنت عندنا من الأخيار ولا يظلم الله عبدًا فيعذّبه بغير ذنبٍ ولعلّك كنت تسرّ أمرًا لا يطلع عليه الناس من معاصي الله فعاقبك الله عليه قال لهم أيّوب: الله أولى بسرائر عباده وإن الله ليعلم أني كنت أطعم الجائع قبل أن أُطْعَمَ وأكسو العريان قبل أن أكسى وأعود المرضى وأتّبع الجنائز وأضيف الضيف وآوي الغريب وأفعل كذا وكذا فنودي من الهواء يا أيّوب اشدد حجرتك وقم مقام المتخاصم قال: يا ربّ ومن أخاصم، قال: فإنك زعمت أنك كنت تفعل كذا وكذا فمننت عليّ بفضلك قال أيّوب: لا يا ربّ، ولكن أردت أن أدفع الظنة عن نفسي، ولست أمنّ عليك سبحانك بل لك المنّة عليّ، قال: فعذره ربّه ثم إن إخوته قالوا له: قد أتيناك بطعامٍ وشراب قال: فما شرابكم قالوا: شراب فيه شفاؤك قال: وما هو؟ قالوا: الخمر، قال: إن الله حرّم عليّ طعامكم وشرابكم ولا حاجة لي فيكم فانصرفوا عنه راجعين ثم إن إخوته قالوا له: قد أتيناك بطعام وشراب ثم إن أيّوب لما أعياه إبليس اللعين جمع مردته فقال: ويحكم أعجزتم جميعًا عن هذا الرّجل فقالوا قد عجزنا وإنما بقيت واحدة أن نأتيه من جهة امرأته فلعلّه يرق لها فيطيعها بما تريد، قال: فانطلق إبليس فجلس على طريقها، فقال لها: يا رحمة أين المال وأين البنون وأين النعمة وأين السعة وأين الماشية وأين الخدم فأبكاها وبكى معها، ثم قال: إنّ لمريضك شفاء هنيئًا سهلًا قالت: وما هو؟ قال: شربة خمرٍ وكانت الخمرة محرّمة على أيّوب ثم إذا شرب تاب منه إلى ربّه، قالت: سأطلب منه ذلك فذهبت وذكرت ذلك لأيّوب فعرف أيّوب أن إبليس هو الّذي علمها

ذلك فقال لعن الله من علمك هذا والله لئن عوفيت لأجلدنّك مائة جلدة عقوبةً لك فذلك قوله تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ [صٓ: الآية ٤٤] فعند ذلك دعا فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٣] وفي رواية أخرى أن أيّوب اشتهى إدامًا من لحمٍ ولبن فلم تجد امرأته ذلك حتى باعت قرنًا من قرون رأسها فضجر أيوب وقال إلـٰهي جعلتني أعيش بثمن شعر امرأتي فذلك قوله تعالى ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٣] وفي رواية أخرى أن امرأته كانت تعمل للناس فتأخذ ما تنفقه على أيّوب فعملت يومًا في بيت امرأةٍ من أشراف قريتها وكانت امرأة أيّوب كثيرة الشعر طويلة، فلمّا طلبت أجرتها منعت تلك المرأة أجرتها وقالت: لا أعطيك إلا أن تعطيني نصف شعرك فلم تجد بُدًّا من ذلك، وخشيت أن لا تجد شيئًا تطعمه لأيّوب فلمّا أعطتها ذلك ذهب إبليس إلى أيّوب على هيئة بعض أصدقائه وقال له: أعلمت أن امرأتك أخذت على فاحشةٍ وقطعت شعرها، فلمّا عادت امرأته إليه وكان أيّوب يتعلّق بشعرها إذا أراد القيام قال لها: أريني شعرك فإني أريد القيام فأرته النصف الباقي من شعرها، فقال: أريني الجانب الآخر فأرته فلمّا رأى ذلك ظن أن ما قاله إبليس كان حقًّا فضجر وأقسم لئن عوفيت لأجلدنّك مائة جلدةٍ، فأوحى الله تعالى إليه أنّ عدوّي كذب فيما قال وأن امرأتك طاهرة بريئة فعند ذلك قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [صٓ: الآية ٤١] وفي رواية أخرى أن إبليس تعرض لامرأته في بعض الطرق وقال لها: أنت صاحبة الرجل المبتلى؟ قالت: نعم وكان عدوّ الله ظهر لها في هيئة من العظم والحسن العظيمة فقال: أتدرين لماذا صار أمر زوجك إلى ما صار؟ قالت: لا، قال: أتعرفينني؟ قالت: لا، قال: أنا إلـٰه الأرض وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لأنّه عبد إلـٰه السماء ولم يسجد لي قط ولو سجدة واحدة فغضبت لذلك، وأنه لو سجد لي سجدة واحدة لرددت عليه جميع ما أخذت منه ولعافيته من بلائه، ثم قال لها: انظري إلى هذا الوادي فنظر فخيّل لها مثل أولادها وخدمها ومواشيها وأموالها وقال: هذه كلها عندي أردّها عليه، وقال لها أن يطعم ولا يذكر اسم إلـٰه السماء عليه حتى أرضَى عنه، فجاءت إلى أيّوب فأخبرته بما قال لها فقال أيّوب: أتاك عدوّ الله ليفتنك عن دينك وحلف بالله لئن عفاه الله ليضربنها مائة جلدةٍ ودعا وقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [صٓ: الآية ٤١] ويقال: لا بل أتاها إبليس في طريقها على هيئة طبيب معه معاليق وأجربة وأوعية فيها الأدوية فقال لها: إني سمعت بأن لك مبتلًى من حاله كذا وكذا، قالت: بلى، قال: فإنّي أعرف شفاءه ودواءه قالت: وما ذلك؟ قال: إني أعالجه حتى يبرأ من علّته لكن على شريطةٍ واحدة قالت: وما هي؟ قال: إذا برىء لا يذكر الشفاء إلّا منّي لا من غيري، فلم تعرف المرأة مراده وجاءت إلى أيّوب فأخبرته بخبر الطبيب

فعرف أنه إبليس فقال: أراد عدو الله أن يفتنني في ديني فحلف على ضربها إن عافاه الله تعالى، ودعا فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [صَ: الآية ٤١]، وقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٣]. ويروى أن أيوب كان أكثر الناس بكاءً، قال ابن عباس رضي الله عنهما فلما ابتلي لم يبكِ قط مخافة أن يكون جزعًا وقد ذكرت الرواة أنّ مرض أيّوب كان دودٌ أو آكلة وقعت في جسده وفي جميع أعضائه إلا في ثلاثة من أعضائه قلبه وعينيه ولسانه وذلك لأنه كان سأل الله تعالى ذلك وقال: لئلا أعجز عن ذكرك والنظر إلى ملكوتك والفكر في عظمتك ويروى أنه كانت الدودة التي وقعت في جسده فربما سقطت منه دودة فيأخذها ويردّها إلى مكانها ويروى أن امرأته قالت له: يا أيوب ألا تدعو الله فيكشف عنك، قال: يا هذه لقد أتى علينا في الرخاء سبعون فاصبري حتى يمضي علينا في البلاء سبعون فيستوي البلاء بالنعمة ثم بعد ذلك أدعو فلمّا دعا أيّوب قال الله تعالى لجبرائيل عليه السلام وقال السلام عليك يا أيّوب إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول لك قد حان وقت عافيتك فقم فقام فأخذه بيده وكانت امرأته غائبة فأخرجه من عريشه وأتى به إلى رايته فقرّبه منه، فقال له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ [صَ: الآية ٤٢] اليمنى فركض بها الأرض فتناثر الدود منه أي من قرنه إلى قدمه ونبعت عند رجله عين ماء جارٍ فقال: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ﴾ [صَ: الآية ٤٢] فاغتسل به فصحّ جميع ما به من جراحةٍ ثم قال له: اركض برجلك اليسرى فضرب بها الأرض فنبعت عين ماءٍ باردٍ، فقال: وهذا ﴿وَشَرَابٞ﴾ [صَ: الآية ٤٢] فاشرب منه فشرب فخرج كلّ ما كان في داخله وجرت النظرة في بشرته وشعره وقام صحيحًا نشاطه على أتمّ حسن وجمال ثم إن جبرائيل عليه السلام بسط له بساطًا من بسط الجنة عند رايته وجلس معه وجاءت امرأته فنظرت في العريش فلم تره فبكت وولوَلَت ثم أتت مجلسها وقالت: رحمكما الله هل لكما علم بهذا المبتلى في هذا العريش فقال لها جبرائيل عليه السلام إن رأيتِه تعرفيه؟ قالت: نعم، فضحك أيّوب فعرفته بثناياه ثم إن جبرائيل عليه السلام دعاها حتى جلست فاعتنقها أيّوب فردّ الله تعالى عليهما أموالهما، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٤] وروي أنه كان له ثلاثة عشر ولدًا، ويقال عشرة فأحياهم الله تعالى فولدت امرأته عشرة آخرين، ويروى أنه قال: يا ربّ أليس ولدي في الجنة فأتاه الله تعالى ستة وعشرين ولدًا من امرأته فذلك قوله تعالى: ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٤] وردّ الله منازله وأضياعه ودوابه بأسرها عليه وانصرف أيّوب إلى منازله وبعث الله سبحانه وتعالى سحابة حتى أمطرت على داره من العصر إلى أن غابت الشمس جرادًا من ذهبٍ ويقال بل نشر جبرائيل عليه السلام أجنحته ونفضها على داره فانتثر من جناحه الجراد من الذهب، قال: وجمع أيّوب الجراد إلى الليل ويروى أنّ

جرادة وقعت على طرف السطح وكادت تسقط إلى الطريق فردّها أيّوب إلى داره فقيل له في ذلك فقال: هذه بركة الله تعالى وبركة الله تعالى متى ما كانت فهي خير ثمّ إنه أراد أن يبرّ قسمه في ضرب امرأته وشقّ عليه أن يضربها فأوحى الله تعالى إليه ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ [صَ: الآية ٤٤] يقال إنه أمر بعيدان السنبلة ويقال عيدان القتّ فجمع منها ضغثًا فيه مائة شعبةٍ فضربها فلك قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [صَ: الآية ٤٤] ففعل ما أمره الله تعالى، وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما أن أيّوب عاش بعد البلاء سبعين سنة في النعمة يدين بدين الله تعالى ويعمل بشريعة إبراهيم عليه السلام وكان ولده وقومه متمسكين بدينه إلى أن غيّروها بعد ذلك ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صَ: الآية ٤٤].

باب في ذكر شعيب النبيّ عليه السّلام[1]

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: الآية ٨٥] اختلف الناس في نسب شعيب قال وهب: كان شعيب من ولد الرهط الذين آمنوا بإبراهيم عليه السلام يوم النار فزوّجهم بنات لوط عليه السلام فكلّ نبيّ كان من قبل بني إسرائيل وبعد أيّوب فكانوا من أولاد هؤلاء الرهط، وقال آخرون هو شعيب بن نويب بن عنقا بن مدين بن إبراهيم ويقال: لا، بل هو شعيب بن ميكيل ويقال: ميكائيل بن مدين، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: الآية ٨٥] فإن مدين في قول بعضهم اسم البلد وهو مثل قولك بعث الله إلى مكّة رسولًا أي إلى أهل مكة وقال الأكثرون لا بل مدين[2] اسم قومه نسبوا إلى مدين بن إبراهيم كقولك: رأيت تميمًا يفعلون كذا وجاءنا عامرٌ يريد بني عامرٍ وبني تميم وقال في موضع آخر ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ[3] ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦﴾ [الشعراء: الآية ١٧٦] قالوا: فأهل مدين وأصحاب الأيكة قومٌ واحد وكانوا يصيفون بالأيكة وهي الغيضة يسكنونها فإذا شتّوا رجعوا إلى مدين وقال آخرون: لا بل بعث الله شعيبًا إلى مدين فلمّا كذبوه وهلكوا بعث ذلك أصحاب الأيكة وهم قوم آخرون، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: الآية ٨٥] سمّاه أخاهم، وقال ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: الآيتان ١٧٦، ١٧٧] ولم يقل أخوهم لأنه لم يكن منهم، فأما أهل مدين فكانوا مع كفرهم يبخسون الكيل والوزن فدعاهم شعيب إلى الله و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾

---

(١) انظر تفاصيل نبي الله شعيب (عليه السلام) في: ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٢٦٥.

(٢) مدين: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح الياء المثناة من تحته، وآخره نون، مدين على بحر القلزم المحاذية لتبوك وهي مدينة قوم شعيب سميت بمدين بن إبراهيم، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ٧٧.

(٣) الأيكة: الشجرة كثيرة الأغصان، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب، وكانت أرضهم كثيرة الأشجار الملتفة الأغصان في البقعة الواقعة بين ساحل البحر الأحمر، وجنوب الشام وهي أرض مدين، محمد إسماعيل إبراهيم ـ معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ص ٥٤.

[الأعراف: الآية ٦٥] ثم نهاهم عن بخس الكيل والوزن، فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: الآية ٨٤]، وقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٨٣] ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: الآيتان ٨٦، ٨٧]إلى آخر ما ذكر الله عنه في سورة الأعراف من وعظه قومه وما ذكر عنه في سورة هودٍ من مراجعته إياهم وفي سورة الشعراء ورُوِي أن رسول الله ﷺ قال حين ذكر شعيبًا وما كلّم به قومه، قال خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكان بخسهم المكيال والميزان إنه كان لكلّ واحدٍ منهم مكيالان وميزانان أحدهما أكبر والآخر أصغر فكانوا يعطون بالأصغر ويأخذون بالأكبر، وكان بخسهم الناس أشياءهم فبان بأن يأخذوا الدراهم الجياد من الناس فيقطعونها ثم يعطونهم من عندهم من الزيوف وعن أبي الدّرداءِ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّل من نقص وطفّف المكيال والميزان قوم شعيب فأهلكهم الله تعالى لذلك ولا ينتهي هذه الأمة حتى يفعلها» وذكر وهب بن منبّهٍ أنه كان لقوم شعيب ملك جائرٌ أمرهم بنقص الكيل والوزن والتطفيف واحتكار الطعام فأطاعوه فنهاهم شعيب عن هذه الأخبار فأخبروا الملك فدعاه وقال: أنت الذي تنهى عما أمرت به الناس فقال شعيب: نعم إني أجد في كتاب الله تعالى إذا كان الملك مسلّطًا مثلك وصنع صنيعًا كان ملعونًا فاجرًا فأمر الملك بإخراجه من المدينة فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾ [الأعراف: الآية ٨٨] قال: وكان قومه مع ذلك يأخذون متاع مَن مرَّ بهم من الناس وثيابهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٦]، ويقال بل كانوا يأخذون العشر من الناس وهم أول العاشرين في الدنيا ولم نكتب ما ذكر الله من مناظرته قومه ومناظرتهم إيّاه لأنه موجود في نصّ القرآن فلمّا كذّبه قومه أخبر الله شعيبًا أن يخبرهم بالعذاب، قالوا: وكان شعيب ذا بناتٍ ويقال ذا بنتينِ ولم يكن له ولد ذكر وكان قد عمي بصره فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: الآية ٩١] أرادوا بضعفه عماه وقيل إنه لم يكن له منعة من الولد فقالوا: فآتنا بما تعدنا فسلّط الله عليهم الحرّ سبعة أيّام حتى أنضجهم فلمّا اشتدّ عليهم ذلك خرجوا يسقون دوابهم ونساءهم وذرّيتهم إلى غيضةٍ لهم ملتفّة بالشجر فذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ [الحِجر: الآية ٧٨] يعني الغيضة، وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: أرسل الله عليهم سمومًا من جهنم فحميت عليهم بيوتهم وغلت مياههم في الآبار والعيون، وخرجوا هاربين فسلّط الله تعالى عليهم الشمس فأنضجتهم من فوقهم والرمضاء من تحت أرجلهم كذلك تساقطت لحوم أرجلهم قال: ثم نشأت لهم

سحابة مثل الظلمة السوداء فلمّا رأوها ابتدروها يستغيثون ببردها، فلمّا اجتمعوا تحتها أطبقت عليهم فأهلكتهم ويقال أمطرت عليهم نارًا، وقال من ذكر أهل مدين غير أصحاب الأيكة أن أصحاب الأيكة أهلكوا هكذا وأما أهل مدين فأهلكوا بالرجفة قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: الآية ٩١] وذلك أن جبرائيل عليه السلام أتاهم فصاح بهم صيحةً رجفت بهم الجبال وسقطوا على وجوههم فماتوا جميعًا قالوا: وإنّ شعيبًا والذين آمنوا لحقوا بعد هلاك قومهم بمكة فكانوا فيها إلى أن مضوا لسبيلهم والله أعلم.

بـاب
في ذكر أصحاب الرسّ(١)

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ [قٓ: الآية ١٢] قال بعض أهل الأخبار إن أصحاب الرس هم أهل مدين من قوم شعيب وذلك أن الرسّ هو البئر قال النابغة الجعدي:

بنائلةٍ يحفرون الرساس

يعني الآبار، وكان ماء أهل مدين من بئرٍ لهم قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القَصَص: الآية ٢٣] وقد ذكرنا في قصة موسى أنه لمّا ورد ماء مدين وجد القوم على بئرٍ لهم يسقون، وقال آخرون أصحاب الرسّ قوم كانوا بناحية الشام بعث الله إليهم نبيًّا فكذبوه وقتلوه ورسّوا عظامه في بئرٍ لهم فلذلك سمّاهم أصحاب الرسّ وقال آخرون: أصحاب الرسّ كانوا قومًا بعث الله تعالى إليهم أنبياء فقتلوهم ورسّوا بئرًا لهم بعظامهم كما يرسّ بالحجارة أو بالآجرّ استخفافًا منهم بدمائهم فأهلكهم الله تعالى وقال بعض أهل

---

(١) (انظر تفاصيل ذكر أصحاب الرس) في: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم موزعة على السور في القرآن الكريم منها: في (سورة الفرقان، آية: ٣٨) نصها: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾. وفي (سورة قٓ، آية: ١٢) نصها: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾ وقد تكلم عنها وقصتها في غير ما سورة. وأما أصحاب الرس فقيل هم أهل قرية من قرى ثمود، وقيل أصحاب الرس بفلج، وهم أصحاب (يس) وفلج من قرى اليمامة وقيل (أصحاب الرس) بئر بأذربيجان، وقيل الرس بئر رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها (قال رسول الله ﷺ): إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أن الله تعالى بعث نبيًا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئرًا فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم فكان العبد يذهب ويحتطب على ظهره فيبيعه ويشتري طعامًا ثم يأتي به إلى تلك الصخرة ويعينه الله تعالى عليها فيدلي طعامه ثم يردها كما كانت وفي يوم أخذته سنة من النوم فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم ضرب على أذنه سبع سنين أخرى، ثم هب واحتمل حزمته ورجع فلم يجد حفيرته، وكان قد بدا لقومه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه. ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ٣/٣١٨ ـ ٣١٩.

التفسير كان أصحاب الرس قومًا باليمامة[1] بعث الله إليهم نبيًا اسمه حنظلة بن صفوان ويروى ياسين فكذبوه وحبسوه في بئرٍ لهم ووضعوا على رأس البئر صخرة عظيمة لا يقدر على حملها إلا جماعة من الناس وكان من آمن به من بين الجمع عبدٌ أسود فقط وكان العبد يأتي الجبل فيحتطب ويحمله على ظهره فيبيع الحزمة ويشتري بثمنها طعامًا ثم يأتي البئر الذي فيها ذلك النبيّ فيلقي الطعام من خرق الصخرة فكان على ذلك الحال سنين ثم إن الله تعالى أهلك القوم بالحر وأرسل ملكًا إليه فرفع الصخرة وأخرج ذلك النبيّ من البئر وشكر الله العبد الأسود لسعيه مع ذلك النبيّ، فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبيّ أنه يكون العبد رفيقك في الجنة ويقال: بل قال ذلك العبد الأسود ذات يوم في نفسه هلمّ لأجتهد فربّما أمكنني رفع الصخرة من رأس البئر فعالجها فقواه الله تعالى لرفعها وألقى حبلًا إلى النبيّ حتى تعلّق به فاستخرجه من البئر ومضى به فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبيّ بما ذكرناه والله أعلم بالصواب.

---

(١) اليمامة: كانت منازل طسم وجديس وما حولها إلى البحرين ومنازل عاد الأولىٰ والأحقاف فتم فتحها أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقتل مسيلمة الكذاب سنة (١٢ هـ) فتحها خالد بن الوليد، وهي معدودة من نجد. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ٤٤١.

باب في ذكر موسى عليه السَّلام(١)

قال وهب هو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، وقال غيره هو عمران بن صهر بن قاهث بن لاوي والله أعلم، وإن عمّه قارون بن صهر بن قاهث بن لاوي، قالت الرواة إن الله تعالى لمّا قبض يوسف بقي بعده الملك الذي كان على مصر فرأى أكثرهم قد آمنوا فلم يتعرض لهم ولما مات توارث الفراعنة، وهم من العماليق ملك مصر إلى أن قام بالملك فرعون موسى وهو الوليد بن مصعبٍ بالعربية ولم يكن من الفراعنة أخبث ولا أعتى منه وكان ممن عانه على أخذ الملك قارون وقوم من بني إسرائيل، فلما دهنت بنو إسرائيل القبط على دينهم سلّطهم الله تعالى عليهم وكان بنو إسرائيل كثروا بمصر وبارك الله تعالى فيهم، ولم يكن سبط من بني إسرائيل أشدّ تمسكًا بشريعتهم ودينهم من سبط لاوي بن يعقوب قوم موسى إلّا ما كان من قارون وإنه كان قد مال عنه ثم من بعد سبط لاوي كان من أشدّ الناس تمسكًا بالدين سبط يوسف بن يعقوب وكان فيهم أفراهم بن يوسف وكان يعقوب قد دعا له ولذريّته فولد له نون بن أفراهم بن يوسف وولد لنون يوشع الذي كان فتى موسى وخليفته من بعده، ولما رأى فرعون واسمه الوليد بن مصعب وقال أهل الكتاب كان اسمه قابوس والأوّل أشهر كثرة بني إسرائيل في مصر استعبدهم مخافة أن يجمعوا يومًا على خلقه ويقال: استعبدهم لأنه أمرهم بالكفر بالله تعالى والإقرار بعبادة نفسه فأبوا، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ [القَصص: الآية ٤] وكان قد جعلهم أصنافًا في أعماله، فأما أهل القوة منهم جعلهم على نقل السواري الصخرية من الجبال وطائفة أخرى لنقل الحجارة والجصّ والنورة ويبنون له القصور والحصون وطائفة أخرى للحرث والزراعة وطائفة أخرى لعمل التجارة وقطع الخشب وأعمال النجارين وطائفة أخرى لأعمال الحدادين وجعل الضعفاء منهم يعملون ما قدروا عليه للناس بالأجرة فيدفعون إليه

---

(١) انظر تفاصيل هذا الباب في: الطبري - تأريخ الرسل والملوك ١/ ٣٨٥، ابن الأثير - الكامل في التأريخ ١/ ١٣٠، ابن كثير - البداية والنهاية ١/ ١٣٠.

الضرائب يؤدّونها كلّ يوم من قبل أن تغرب الشمس فإن غربت قبل أداء الضريبة غُلّت يمينه إلى عنقه شهرًا عقوبةً له وأمر أن يعمل بشماله، وأما النساء فكنّ تغزلن له الكتان وغير ذلك وينسجنه، كذلك وكان فرعون قد نكح منهم امرأة يقال لها آسية بنت مزاحم، وآسية هي التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: الآية ١١] وسنذكر قصتها إذا وصلنا إلى ذكر قتلها، ثم أخذ فرعون في قتل أولاد بني إسرائيل قال الله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص: الآية ٤] واختلف الناس في سبب ذلك فقال قومٌ إنّه رأى رؤيا هائلةً وذلك أنه كان أمر فاتخذ له مركبًا من الخشب فحبسه على ظهر الماء، فكان يركب أيامًا وليالي ويؤمر بطعامه وشرابه هنالك، فهو يأكل ويشرب وينام ويقوم وهو على ظهر النيل والنيل يجري تحته فأعجب بحاله فذلك قوله: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٥١]، وكان الله قد مدّ له في عمره حتى عاش أربعمائة سنةٍ شابّ السنّ لا يصدع ولا يحمّ ساعةً ولا يصبه همّ ولا يناوئه عدوّ فبذلك أعجبته نفسه حتى ادعى الربوبيّة وكان وزيره هامان رجلًا من القبط مثله في قساوة قلبه وخبثه فلمّا أعجب بنفسه رأى رؤيا كأنه ينظر فإذا هو بنارٍ جاءت من قبل الشام حتى وقعت بناحية مصرٍ فلم تدع شيئًا إلا أحرقته من بيوت مصر ثم حصونها وقراها أيضًا وما حولها فاستيقظ فرعون من نومته فزعًا مذعورًا فجمع ملأ من قومه وأخبرهم برؤياه فقالوا له: إن صدقت رؤياك أيّها الملك فإنّه يخرج من الشام رجل من ولد يعقوب يكون هلاكك وهلاك أهل مصر على يده فعند ذلك أخذ في ذبح أولاد بني إسرائيل، ويقال إنه رأى أن مناديًا ناداه من السماء بأن الله يريد أن يرزق بعض عبيدك الذين استعبدتهم ولدًا يهلكك ويهلك قومك ويصير الملك والدولة له ولقومه، فلمّا انتبه قصّ رؤياه على قومه فهوّنوا عليه أمر الرؤيا وقالوا: أحلام لا تعبير لها، لقد عشت دهرًا طويلًا لم يلقك مكروه ولا ناوأك عدوّ فلا تشتغل برؤياك فإنّ الرؤيا تصدق وتكذب ولا يكون إلا ما اشتهيت ولكن اسأل العرّافين والكهنة إن شئت فابعث إليهم واجمعهم واسألهم فحضروا فسألهم فطيّبوا نفسه، وقالوا مثل ما قال الأوّلون، ثم قال لهم: انظروا في علومكم هل ترون شيئًا يضرّني في ملكي؟ فقالوا: أنظِرنا وأمهلنا أربعين يومًا ننظر في الأمر فأجّلهم فصعد المنجمون والعرّافون إلى الجبال وجعلوا ينظرون في النجوم وجعل الكهنة يسألون شياطينهم ليخبروهم فأوحى الله تعالى إلى حملة عرشه أني خالق مولودًا من بني إسرائيل في بلاد الإسكندرية[1] تحمل به أمّه ليلة الجمعة في

(١) الإسكندرية: الإسكندرية في بلاد مصر بناها الإسكندر ذو القرنين، ياقوت الحموي/ معجم البلدان ١/ ١٨٢.

شهر كذا وكذا، وكان الحمل بعد ثلاث ساعات من الليل، فأخبرت حملة العرش ملائكة السمٰوات وأخبرت الملائكة بعضها بعضًا وكانت الجنّ والشياطين تسترق السمع قبل محمد ﷺ كما ذكر الله تعالى في القرآن فلما سمعت الشّياطين ذلك أخبرت كهنتهم بذلك، ورأت المنجّمة أيضًا في نجومهم أن مولودًا يكون في بني إسرائيل ويكون سبب ذهاب ملك فرعون وهلاكه، فأقبلوا إلى فرعون وأخبروه بذلك وذكروا وقت مولده له قال: فما الحيلة فيه؟ قالوا: أن تعزل في تلك الليلة الرجال من النساء كلّهم فلا يقرب أحد أهله في تلك الليلة قال: وكيف أقدر على ذلك؟ قالوا: ينبغي أن تأمر بمنبرك فيخرج إلى الصحراء وتجلس عليه وينادي في الناس أن يخرجوا لرؤيتك وكان عدو الله فرعون لا يظهر لعامّة الناس لا سيّما بني إسرائيل وإذا أراد الركوب نادى مناديه ليدخلوا بيوتهم، فإن صادف أحدًا في سيره أمر أن يضع وجهه على الأرض لئلا ينظر إلى فرعون قال وهب إنّه قال فرعون ما جئتموني بشيء أشدّ من هذا، ثم أمر مناديًا فنادى في الناس بذلك فقال: قد أباحكم الملك النظر إليه وأخرج من خزائنه الأموال ليعطيكم، فاجتمع الناس وأسرعوا لا سيما بني إسرائيل فخرج إليهم فرعون فخطبهم ووعدهم ومنّاهم وَألانَ القول لبني إسرائيل وأعطاهم من الأموال ففرحت بنو إسرائيل ورأوا الفرح بعد شدّةٍ شديدةٍ كانوا فيها ففزع من ذلك عند غروب الشمس ثم قال لهم: إني أحبّ أن تبيتوا الليلة عندي هٰهنا ونرجع غداة غد إلى البلد، فأجابوه بذلك طوعًا، وكانت تلك الليلة ليلة الجمعة التي قالت له الكهنة قال: ثم دعا فرعون بدابّةٍ فركبها وكان أحبّ الدواب إليه الدهم فركب معه هامان وعظماء قومه، فلمّا بلغ باب الإسكندرية أمرهم أن يرجعوا إلى معسكر بني إسرائيل فيبيتوا معهم ويحرسوهم لئلا يرجع أحد منهم إلى منزله وأهله حتى أصبحوا لئلّا تحمل المرأة التي ذكرت بالمولود الذي ذكر فرجعوا، وكانت مفاتيح أبواب الإسكندريّة بيد عمران وهي دار مملكة فرعون في ذلك الوقت ويقال: لا، بل كان مسكنه مدينة من أرض مصر يقال لها عين الشمس فكانت مفاتيح أبوابها بيد عمران فدعا فرعون عمران وقال: هات مفاتيح المدينة لأدخلها، وروي أنه فعل ذلك ليخلو بأهله وقال: إن صدق قول الكهنة والمنجمين فلعلّه يكون ولدي لأن امرأته كانت من بني إسرائيل حتى إن سلبه أحد ملكه كان ذلك على يد ولده فقال له عمران: أيّها الملك لا تدخل المدينة وحدك فلعلّ بعض أعدائك يمكن أن يدلّ عليك أحد بخديعة فيكون فيه هلاكنا ولقد عرفت مكر الناس فوقع ذلك في نفسه وقال: صدقت يا عمران ونصحت وما هذا بأوّل نصحك ومودّتك لي فادخل أنت معي وأنت بذلك أحقّ وأنا بك أوثق فكان عمران ذا منزلة عنده فدخل معه عمران وأغلق الباب حتى صار فرعون إلى قصره، فقال: يا عمران تعلم أني أدخلتك المدينة معي دون خاصيتي لثقتي بك وكرامتك عليّ فلا

تبرض[١] عتبة بابي ولا تنزع ثيابك حتى يصبح، قال عمران: نعم يا سيدي ودخل فرعون قصره وأغلق عمران الباب وبات عند عتبة الباب حتى مضت ثلاث ساعاتٍ من الليل، بلغ امرأة عمران أن فرعون دخل المدينة ومعه عمران زوجها، ويقال: لا بل كانت النساء خرجن يطفن في المدينة لخلوتها من الرجال تلك الليلة ولم يعلمن بدخول فرعون فلما صرن إلى باب فرعون ورأت امرأة عمران زوجها هنالك باتت عنده فواقعها عمران فحملت مكانها بموسى، وذلك من لطف الله تعالى في صنعه وتدبيره فقال عمران: يا هذه إني أظن أن الأمر الذي يطلبه هو هذا المولود وأظنك قد حملتِ به فإياكِ أن تطلعي على أمرنا أحد من خلق الله تعالى، فإن فرعون قد منع الرجال من النساء في هذه الليلة لما أخبره المنجّمة والكهنة بكذا وكذا، وذكر لها ما قالوا لفرعون، ولا أعلم أحدًا من بني إسرائيل أصاب امرأته في هذا الوقت الذي ذكر لفرعون غيرنا، فلا تطلعي على هذا أحدًا حتى ننظر إلى ماذا تصير الأمور، قال ابن عبّاس: وإنه لم يولد نبيّ إلا وقد طلع له في السماء نجم، فلمّا حملت أمّ موسى بموسى طلعت نجمه فنظرت المنجّمة والكهنة إلى ذلك النجم ولم يكونوا رأوه قبل ذلك ورأوه أشد ضوء من سائر النجوم عرفوا أن الظفر لصاحبه وأنه نجم المولود الذي قيل لهم فقاموا وصاحوا وخمشوا وجوههم ومزقوا ثيابهم فانتهت الصيحة إلى فرعون ففزع منها فزعًا شديدًا وأسرع نحو الباب الذي عليه عمران، وقال بعض الناس إن فرعون لم يدخل المدينة لكنه وكَّل بكل باب من أبواب المدينة ثقة من ثقاته وكان أحد الثقات عمران، فلما خلت المدينة خرج النساء يطفن فيها فانتهى جماعة منهن إلى الباب الذي عمران يحرسه وفيهنّ أمّ موسى فاحتبسها عمران عنده ونال منها فحملت، ولما قصد فرعون الباب قال: يا عمران ما هذا الصراخ؟ قال: أظنه أصوات بني إسرائيل فرحوا بما أعطيتهم وأكرمتهم به اليوم من النظر إلى وجهك وسمع كلامك، قال فرعون لِعِلَّةٍ ولم يقرّ قلبه ليلة الشغل حتى أصبح، فلمّا أصبح قال: يا عمران اسأل الناس ما هذا الصراخ فخرج وسأل فقالت الكهنة والمنجمة إن ذلك كان منّا، فإن تدبيرنا لم ينفذ وقد حبلت أمّ المولود الذي كنّا نذكره للملك في هذه الليلة، فلما تعرّض عمران الأمر أسرّه في نفسه وعلم أن المولود ولده، فأقبل على الكهنة وقال لهم: هذا ذنبكم غررتم الملك حتى أبرز للناس وجهه وفرّق فيهم خزائنه ولم ينفعه ذلك، ثم حشرهم عمران إلى فرعون فلمّا نظروا إلى فرعون صاحوا ومزّقوا الثياب وخمشوا الوجوه وحثّوا التراب على رؤوسهم قال فرعون: ما لكم؟ فخرّوا له سجّدًا وقالوا له: أيّها الملك عشت دهر الداهرين لقد حمل بالمولود الذي كنا نذكر لك، وطلع نجمه البارحة في

---

(١) جاء في حاشية المخطوط معنى لفظ تبرض ـ تترك، ورقة ٢٠٨.

السماء فقال لهم فرعون: أما أنتم فقد استوجبتم القتل بما أمرتموني فأظهرت للناس وجهي وفرّقت في الناس أموالي بلا فائدة، فقالوا: أخّرنا أيها الملك إلى ولادته فإنه لا يخفى علينا، فإذا ولد أخبرناك فتأخذه وتقتله فأخّر أمرهم قال: فإنّ أم موسى لما حملت لم يتغيّر لونها ولا ظهر بطنها ولا ثديها ولا شيء من أحوالها فلم يتعرض لها متعرّض، وذلك أنه لما صحّ أن أمّ المولود حبلت به أمر فرعون بقتل الغلمان وترك الجواري، ووكّل بكل عشر نسوةٍ من بني إسرائيل امرأةً من القبط يحفظهن فإذا ولدت منهن امرأةٌ نظرن فإن كان غلامًا قتل وإن كانت أنثى تركت فذلك قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٩] فأمّا أمّ موسى لم يكن عليها موكّل ليعلم بحالها وذلك من صنع الله تعالى لبني إسرائيل لما أراد نجاتهم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القَصَص: الآيتان ٥، ٦] قالوا حتى ولدت أمّ موسى فلما ولدت أبصر المنجّمون نجمه يزهو فأخبروا فرعون وقالوا: يا سيّدنا قد ولد ذلك المولود فلمّا سمع فرعون طارت روحه وطاش عقله وقال لهم: فما الحيلة حتى نأخذه؟ فقالوا: أخرج منبرك إلى المكان الأول ونادِ في الناس أن لا يبقى امرأة حبلى ولدت ولدًا من بني إسرائيل منذ شهر إلا جاءت به الملك فإنه يريد أن يكرمهنّ كما أكرم أزواجهن فإنهن إذا سمعن بذلك طمعن فإذا جئنك بأولادهن فأمر بأخذهن ثم اقتل الذكور واترك الإناث، ففعل فرعون ما أمروا به، فاجتمع عنده نساء من بني إسرائيل بأولادهن فأخذ منهن أولادهن فذبح الغلمان وترك الجواري قال وهب: بلغني أنه قتل يومئذٍ في طلب موسى سبعين ألف وليدٍ وعن الزهري[١] أنه قال: ولد في الشهر الذي ولد فيه موسى بن عمران عشرون ألف وليدٍ كلّهم إناث إلا واحدًا وقتل بموسى وخلّص الله موسى، ثم وكّل فرعون بعد ذلك بنساء بني إسرائيل أمناءَ من عنده وجمع القوابل كلّهن أن لا يسقطن على الأرض ولدًا ذكرًا إلّا قتلنه وأمر أمناءه أن يفتشوا عن أمر القوابل فإن كَتمنَ شيئًا قتلن، وعن مجاهدٍ أنه قال: أمر فرعون القوابل حتى جعلن يجمعن الحبالى ثم يأمر بشق القصب فيجعلن السكّاكين في القصب ثم يجلس الحبالى عليها حتى تسقطن الأولاد من شدة ذلك، قال وهب: ولما أشرع فرعون في قتل أولاد بني إسرائيل لطلب موسى، اجتمع عظماء قومه وتشاوروا فقالوا: إنا نرى بذبح صغار بني إسرائيل وتموت

---

(١) الزهري: أبو مصعب أحمد بن أبي بكر بن مصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف الزهري المدني الفقيه قاضي المدينة، وكان فقيه أهل المدينة بلا منازع مات سنة ٢٤٢ هـ، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ٢٠٩.

كبارهم لا شك أنك تفني بني إسرائيل فتبقى بغير عبيدٍ وحولٍ فاستبقهم فأمر بقتل الغلمان عامًا وتركهم عامًا فولد هارون في سنة الأمن وموسى في سنة الخوف والقتل فكان هارون أكبر من موسى بسنةٍ وقال وهب: لا بل كان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين، وكانت له أخت تسمّى مريم أكبر من هارون بثلاث سنين وهي امرأة كالوب بن يوفنا بن فارض بن يهوذا بن يعقوب وولد هارون وأخته قبل أمر فرعون بقتل الولدان وكان اسم أم موسى في رواية محمد بن إسحٰق نجيبة بنت شموئيل بن بركيا بن بقيشا بن إبراهيم عليه السلام، وقال وهب: اسمها باختة من ولد لاوي ابنة عم عمران، ويقال: فاختة بالفاء وليس من الأصل قال ابن عبّاس: ولما تقارب ولادة موسى وضربها الطلق كانت قابلة من القوابل التي وكّلهنّ فرعون بالحبالى صديقة لأمّ موسى فأرسلت إليها ودعتها وقالت لها هل تنفعني صداقتكِ اليوم، فقالت: أجتهد في ذلك، فلمّا ولد موسى قبّلته القابلة فرأت نورًا على وجهه ارتعشت لذلك مفاصل القابلة ودخل حبّه في قلبها فقالت لأمّ موسى إني لأجد لولدك حبًّا لم أجده لأحدٍ فاحفظي ولدك فإني أراه عدوّ الملك وإني أكتم عليك ولكن الحرّاس قد رأوني حين دخلت عليك وعلموا أنّي قابلة فإنّهم إن سألوني أقول: دخلت إليها زائرةً فإن صُدِّقْتُ وإلا طلب ولدك ففتشت دارك فانظري في أمرك، فلمّا خرجت القابلة سألها الحرّاس فقالت ما قالت فلم يصدقوها وهمّوا بدخول الدار فكان في الدار تنور قد سجر، فلمّا سمعت أخت موسى الجلبة[1] بالباب طاش عقلها فلفّت موسى في خرقةٍ ووضعته في التنور المسجور فدخل الحراس فلم يروا شيئًا وزاد أمّ موسى على حال السكون لم يتغيّر لها لون ولم يتداخلها ضعف فقالوا لها: لم دخلت عليكِ القابلة؟ فقالت: هي مصافية لي دخلت عليّ زائرة فخرجوا عنها، ورجع إليها عقلها فقالت لأخت موسى: أين الصبي؟ فقالت: لا أدري وسمع بكاؤه من التنور فانطلقت أمّ موسى إلى التنور فوجدت موسى سالمًا لم تضرّه النار شيئًا فأخذته قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القَصَص: الآية ٧] الآية، وفي رواية أنه لم يطلع على ولادة موسى غير أخته مريم قط، وروى الضحاك عن ابن عبّاس أن أم موسى لما خافت عليه فألقى الله تعالى في قلبها ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [طٰه: الآية ٣٩] يعني نيل مصر، قال الضحاك: فانطلقت أمّ موسى إلى نجّارٍ فاشترت تابوتًا صغيرًا فقال لها النجار: ما تريدين بهذا التابوت

(١) الجلبة: وفي الأصل جبلة. وجلبة معناه: الأصوات وقيل هو اختلاط الصوت والفعل أجلبوا وجلبوا من الصياح. ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي ت (٧١١ هـ) لسان العرب ـ دار لسان العرب ـ بيروت، لبنان ٤٧٦/١ (جلب).

الصغير؟ قالت: أخبىء فيه ابنًا لي وكرهت أن تكذب، ويقال: لا، بل قالت: قد هلك لي ابن وأنا أريد أن أدفنه فيه، فاشترت التابوت، قال: فلما انطلقت بالتابوت ذهب النجار إلى الذباحين ليخبرهم بأمر موسى وأمّه فلمّا هم بالكلام أمسك الله لسانه فلم ينطق كلامًا فجعل يشير بيده فلم يدرِ الذباحون ما يقول فضربوه وبعّدوه فلمّا انتهى إلى مكانه أطلق الله لسانه فخرج إليهم ليخبرهم فلمّا أتاهم أمسك الله لسانه فضربوه كذلك ثلاث مرات فعاهد الله في الثالثة إن أطلق الله لسانه لا يعود إلى فعله فردّ الله عليه لسانه فخرّ لله ساجدًا وألقى الله في قلبه أنه المولود الذي ذكر لفرعون فآمن به وصدقه في ذلك الوقت، ثم إن أمّ موسى مهّدت لموسى في التابوت ولفته في خرقة وغسلت وجهه وكحلته وأطعمته وأرضعته وجعلته في التابوت وأطبقته عليه، قال: فنظرت السحرة والكهنة والمنجمة إلى نجم موسى قد غاض وخفي ذلك حين أدخلته أمّه في التابوت ففرحوا بذلك، وظنوا أنه هلك وسارعوا بالبشارة إلى فرعون، وقالوا له: أبشر أيها الملك إن نجم المولود الذي كنت تحذره قد غاض وذهب، ففرح فرعون وذهب عنه الغمّ وأمر لهم بالجوار العظام والرجوع إلى منازلهم فرجعوا ويروى أنّه كان لفرعون ابنة ولم يكن له ولد غيرها ولم تكن من آسية وكانت لها كلّ يوم ثلاث حوائج عند فرعون وأنه ظهر بها برصٌ شديد فجمع فرعون لها الأطبّاء والكهنة فلم يقدروا لها على علاج ثمّ إن الكهنة قالوا له: إنها لا تبرأ إلا من قبل الماء فإنه يوجد من النيل شيء على صورة الإنسان فيؤخذ من ريقه ويلطخ على برصها فتبرأ وذلك يكون في يوم كذا وشهر كذا عند شروق الشمس. قالوا: ثمّ إن فرعون جلس يوم الاثنين على مجلس كان يجلس فيه على شاطىء النيل ومعه امرأته آسية إذا أقبلت ابنة فرعون مع جواريها وهي تنضح عليهن الماء وتلاعبهنّ وكانت أمّ موسى عمدت إلى التابوت فقذفته في النيل وجرى الماء بالتابوت، فلما توارى عنها جاءها الشيطان فأقلقها فقالت في نفسها: لو ذبح ابني بين يديّ لكنت أكفّنه وأدفنه بيدي كان أسلى لقلبي من أن ألقيته في الماء فتأكله دواب البحر، فكادت تبدي أمرها للناس من الجزع حتى ربط الله على قلبها بالصبر فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: الآية ١٠] واحتمل الماء بالتابوت إلى قرب مجلس فرعون فتعلق بشجرة هنالك فأبصر به فرعون فقال شيء أراه في الماء فأتوني به فأخذه أعوانه فأتوه به، ويقال: لا بل أخذته جواري ابنة فرعون حين تعلّق بالشجرة فجئن إلى امرأة فرعون فأرادوا فتحه فلم يقدروا حتى عالجته آسية ففتحته ورأت نورًا ساطعًا من التابوت، فلما نظرت إذا هي بصبيٍّ أحسن ما رأى الناس وأبهاه وأجمله وإذا إبهامه في فيه يمصّها لبنًا فألقى محبّته في قلبها حتى لم يبقَ لها عضوٌ ولا شعرة إلا مالت إليه

بالمحبّة فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: الآية ٣٩] ثم أتت به إلى فرعون وقالت: انظر ما في هذا التابوت؟ فلمّا رآه فرعون ألقى الله محبته في قلبه، وأقبلت ابنة فرعون وجعلت تأخذ من ريقه ولعابه وتلتطخ به جسدها وتقبّله وتضمّه إلى صدرها فبرئت من برصها فأحبّه حبًّا شديدًا فقال أعوان فرعون: انظر في أمر هذا المولود لا يكوننّ الذي حذرت منه اطرح في الماء فرقًا منه فاقتله فهمّ بذلك فرعون، فقالت امرأته: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: الآية ٩] وكانت لا تلد، فقالت لفرعون: هبه لي أتخذه ولدًا، فوهبه لها، وقال: أمّا أنا فلا حاجة لي فيه، وروى ابن عباسٍ قال: لو قال فرعون هو قرة عينٍ لي، كما قالت امرأته لهداه الله تعالى به ولم يضرّه شيء من موسى ولكن حرمه الله تعالى ذلك أنهم سموه موشي وذلك لأن مو بالعبرانيّة هو الماء وشي هو الشجرة قالوا وجدناه بين الماء والشجر فنسميه بهما فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القَصَص: الآية ٨] قال ابن عبّاس: إن أم موسى لما ربط الله على قلبها رجعت إلى ابنتها أخت موسى وقالت لها انطلقي على شاطىء النيل، ليكون التابوت قذفه الماء فتقصّي أثره وتأتيني بخبره ففعلت ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص: الآية ١١] ثم أرسلوا إلى النساء يطلبون له مرضعة فأحضروهن فلم يقبل موسى ثدي أحدٍ منهم قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القَصَص: الآية ١٢] فشق ذلك على امرأة فرعون فقالت أخت موسى لهم حين رأت وجدهم به وحرصهم عليه ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القَصَص: الآية ١٢]، قالوا: فأخذوها وقالوا لها: من أنت؟ ومن هذا الغلام حتى تقولي إنهم ينصحونه قالت: نصحهم له لقرب منزلته منكم ومن الملك ولفراغة قلبكم، فقالوا لها: اذهبي فآتي بمن تقولين فأسرعت إلى أمّها فأخبرتها بالخبر فجاءت بأمّ موسى تشكره فقالت: هل أدلّكم على ظئر فناولوها موسى فوضعته في حجرها، فلمّا شم ريح أمّه سكن وقبل ثديها ويروى أن موسى قبل أن ردّه الله إلى أمّه كان لا يسكن بالليل ويبكي وامرأة فرعون ساهرة لأجله توجره عسلًا ولبنًا وغير ذلك، فلمّا قبل موسى ثدي أمّه فرحت آسية فرحًا شديدًا وفرح الجميع لذلك، وأمرت بتخلية دار في القصر لأمّ موسى فيها وأخدمتها من خدم القصر ما تحتاج إليه، فكان يغدى عليها بطعامها وشرابها وتخدم كما يخدم الملوك مَنًّا من الله تعالى ولطفًا لها ولنبيّه موسى، وفي رواية أخرى أن أمّ موسى قالت لآسية حين وجدت ابنها إني لا أستطيع أن أترك بيت زوجي وخدمته فإن طابت أنفسكم بدفعه إليّ فأذهب به إلى بيتي، ولا آلوه إلا خيرًا وإلا فأنتم أبصر فلم تجد آسية صبرًا من دفعه إليها حتى ذهبت به إلى

بيتها فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ[1] إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: الآية ١٣]. وقال في موضع آخر: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: الآية ١٣] كلتا الروايتين قد جاءتا في الأخبار قال: فمكث موسى عزيزًا مكرّمًا مع أمّه حتى ترعرع وقوي وتكلّم وكانت امرأة فرعون تدعو به كلّ غداةٍ فتضعه في حجرها وتضمه إلى صدرها فتقبّله وتكرم أمّه وفي روايةٍ أنه كان في منزل أبويه قالوا وكلما أحبّت آسية رؤيته أرسلت إلى أمّه حتى تأتيها به، وبين أيديهما وحولهما فرسان وخدم حتى تدخل عليها قال وهب: ولما تكلّم موسى أرسلت آسية إلى أمّه أن احملي إليّ ولدي لأراه فواعدتها يومًا تزورها به، وأمرت امرأة فرعون خدمها وقهارمتها وقالت: لا يبقى أحد منكم إلّا ويستقبل ابني بكرامةٍ وهديةٍ فجعلت القهارمة والخدم يتباهون في الهدايا له وأرسلت آسية بالمراكب والوصفاء إلى أمّه بالرحائل حتى حملت عليها وجعلت الهدايا من كلّ وجه تستقبل موسى من حين خرج من بيت أمّه إلى أن دخل به على آسية فأخذته ووضعته في حجرها وقبلته وضمته إلى صدرها وأكرمت أمّه بكلّ كرامةٍ ثم أمرت خدمها أن يذهبوا به إلى فرعون فلما أبصره فرعون أخذه وضمّه إلى صدره ووضعه على حجره وقبّله وفرح به، وأمر له بالكرامة وكذلك لأمّه فكان موسى ووالدته في قصر فرعون في أتمّ كرامة ونعمةٍ يأكلان من طعامهم ويلبسان من جديد ثيابهم ويركبان أفضل مراكبهم حتى صار بحيث لا يصبر فرعون ولا يأكل ولا يشرب إلا وموسى في حجره يلقّمه بيده فلم يزل موسى في حفظٍ من الله تعالى حتى بلغ أشدّه وذلك الذي قال له فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: الآية ١٨]. قالوا: ثم إن فرعون لما ظنّ أن عدوّه قد هلك بما قالت الكهنة إن نجم ذلك المولود قد خفي وكان خفاؤه لأجل هلاكه، قالت له ابنته التي شفاها الله تعالى ببركته من البرص: يا أبت لو أمرت بصنعة طعام وتدعو عظماء قومك فرحًا بما كان من هلاك عدوّك وظفرك بحاجتك وذهاب البرص الذي كان بي، فأمر فرعون بطعام فصنع وجمع له عظماء قومه، ثم أمر فأتى بموسى في كرامة ولطفٍ فأقعده في حجره، ثم دفعه إلى هامان ففعل به مثل ذلك، وكذلك جميع القوم يتداولونه ويلطفونه لما يرون من شدة حبّ فرعون له ثمّ رجع موسى فقعد في حجر فرعون ثم بسط يده إلى لحيته فمدّها ويقال: إنه لطمه باليد الأخرى، وفي رواية أنه كان يلعب بين يديه وفي يده قضيب فضرب بالقضيب رأس فرعون فعظم ذلك عليه وعلى من حوله فقالوا له: أما تذكر أيها الملك ما قالت الكهنة والمنجّمون في أمر المولود فإنا نظنه هذا؟ قال:

---

(١) وجاء في الأصل (فرجعناك) والصواب ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾.

فأمر فرعون بقتل موسى فسمعت بذلك آسية فأقبلت مسرعة إلى فرعون وقالت له: ما بدا لك أيها الملك في هذا المولود الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترين إلى ما صنع؟ قالت: أيّها الملك إنه صبيّ صغير لا يعقل فجرّبه إن شئت لتعلم أنه لا يعقل قال: وبم أجرّبه؟ قال: بطشتٍ تجعل فيه جمرًا وذهبًا ولؤلؤًا فتعلم أنه يعقل أم لا؟ وإن هو تناول الجمرة فاعلم أنه لا يعقل ففعل ذلك ووضع بين يدي موسى، فلمّا همّ موسى أن يتناول الذهب جاء جبرائيل عليه السلام وضرب يده فتناول الجمرة فقبض عليها فأحرقت يده فجعلها في فيه، ثم قذفها لما أحرقت لسانه فبقيت عقدة من ذلك الحرق على لسانه وهي التي ذكرها الله تعالى حيث قال: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: الآيتان ٢٧، ٢٨] فقالت له آسية: ألم أقل لك إنه لا يعقل، فبذلك السبب صرفه الله تعالى عن قتل موسى لطفًا منه عزّ وجلّ وموسى يومئذ ابن أربع سنين، إن الله تعالى أنبته نباتًا حسنًا وحفظه وإن بني إسرائيل كانوا في مصر في محلّة وقوم فرعون في محلّة، فلمّا صار موسى ابن ثلاث وعشرين سنة أخذ يجلس إلى أحداث بني إسرائيل ويأتيهم في محلّتهم ويسألهم منذ متى أنتم في هذا الظلم والمحنة؟ قالوا: منذ دهرٍ طويل، فيحزن لذلك ثم سألهم وقال: هل تجدون في كتبكم لكم فرجًا من فرعون، قالوا: نجد في كتبنا أن فرجنا على يد غلام من بني إسرائيل ونجد نعته كأنّك هو، وكان موسى طويلًا آدم حسن الوجه أشعر له قوة ثلاثين رجلًا ويقال أربعين ثم قالوا: ونجد أن الله تعالى يفرّج عنّا على يد من ذكرناه الّذي يشبهك فتكون الأرض لنا قال: أول ما قال موسى عليه السلام أرجو أن يكون فرجكم قريبًا قالوا يا موسى: اشفع لنا إلى فرعون بمنزلتك عنده ليخفّف عنّا شهرين أو شهرًا فقد قرحت أبداننا وظهورنا ومناكبنا من العمل ونقل الحجارة فقال لهم موسى: هل تعلمون أن الذي نزل بكم من البلاء إنما هو عقوبة ذنوبكم؟ قالوا: بل نعرف ذلك، قال موسى: فما الذي يكون لكم من شكر الله إن هلك عدوّكم ورد عليكم ملككم؟ قالوا: وهل يكون ذلك قط؟ قال: عسى أن يكون قريبًا. قال وهب وكذلك الأنبياء يجري على ألسنتهم الحكمة قبل نزول الوحي عليهم فقالوا: يا موسى إذًا نشكر الله تعالى في صلواتنا وصيامنا وسنطعم المساكين ونستر العارين ونطيع ربّنا، قال موسى: فأصدقوا في نيّاتكم فإني سمعت بأنّ عبدًا كسر الأوثان لأجل الله تعالى فأخذه قومه فألقوه في النار فجعل الله النار عليه بردًا وسلامًا لما علم من يقينه وصدقه، قالوا يا موسى وإن ذلك كان جدّنا إبراهيم، وجدّ أبينا إسرائيل قال: ثم إنه خلا به فتًى منهم له علم بالكتب وبما أنزل الله على أنبيائه فقال له: لولا أنّي أخافك لأخبرتك خبرًا صادقًا قال: فلا تخفني وأخبرني آمنًا، قال: اعلم أنك أنت النبي الذي نرجوه فقال له موسى: فأخبرني الخبر كلّه فوإله

السماء الذي هو إلٰه إبراهيم وإسحٰق ويعقوب أني أكتم عليك ما تخبرني، فقال الفتى وإلٰه إبراهيم وإسحٰق ويعقوب إنك أنت ذلك النبيّ الذي يفرّج الله عنّا على يده ويهلك عدوّنا به، فقال موسى: وأنا والله أحبّكم حبًّا لا أضيعه ولا نفرقكم حبّ فرعون إياي، فإن الله بالغ أمره ثم إن موسى لما بلغ أشدّه وهو ثلاثين سنة عرف أن الحق في مخالفة فرعون فتكلّم بالحق وغاب الكفر والشرك وجعل ينكر المنكر ويأمر بالمعروف وظهر أمره وشاع فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(١) [القصص: الآية ١٤] فرفع إلى فرعون أمره فنهاهم عن أذى موسى فقال: سأنظر في أمره وخاف قوم فرعون فنصبوا له العداوة وقصدوه حتى صار موسى لا يدخل محال آل فرعون إلا مستحفظًا فدخل في بعض الأيّام كما قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القَصَص: الآية ١٥] وهو وقت الظهيرة، ويقال بين المغرب والعشاء فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القَصَص: الآية ١٥] أحدهما إسرائيلي والآخر قبطيّ ويقال كان القبطي خبّاز فرعون وأخذ الإسرائيلي يحمل حطب المطبخ له، ويقال كان صاحب دوابه يسخره لينقّيه الاصطبل ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القَصَص: الآية ١٥] فقال موسى للقبطيّ خلّ سبيله فقال: لا أفعل وكان قد أوتي بسطةً من الخلق والقوة، فوكز القبطي وكزةً فقتله وهو لا يريد قتله فحزن موسى لذلك إذ لم يكن مأمورًا بالقتل ولا مأذونًا فيه والقتل محرّم في الحقيقة إلا بإذن مالك الحقّ فقال موسى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص: الآية ١٥]، ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القَصَص: الآية ١٦] قال الضحاك: إن موسى كان يجد في قلبه نورًا قبل الوحي إليه فلما قتل الرجل حمل ذلك النور فقال عند ذلك ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القَصَص: الآية ١٦] ورد النّور إليه وقال الحسن البصريّ كان بعد ذلك لا يزال خائفًا وجلًا حتى جاءه الوحي فأوحى الله تعالى إليه يا موسى لو أن النسمة التي قتلتها أقرّت لي ساعةً أنّي خالقها ورازقها لأذقتك طعم العذاب ولكنها لم تقرّ لي قطّ فقد غفرت لك فحينئذ اطمأنّ قلبه ﴿قَالَ(٢) رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القَصَص: الآية ١٧] قال: فانتشر الخبر في بني إسرائيل وفي القبط أن موسى قتل رجلًا هذا في رواية وهبٍ، وقال غيره: بل لم يعلم الناس أن موسى قتل الرجل

(١) وجاء هذا نصه (ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا) والصواب ما ثبتناه.
(٢) وجاء في الأصل (فقال رب) والصواب ما ثبتناه.

وجعلت القبط يطلبون قاتل صاحبهم ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[(١)] [القصص: الآية ١٨] من يأخذ بالمقتول أو يقال خائفًا أن يعرف أنه هو قتله فإذا هو بالرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه ويستغيث به، وقد تعلّق به قبطي آخر يريد أن يسخّره لبعض الأعمال وقال وهب: لا، بل إن ذلك الفتى خرج في يوم بعد قتل موسى القبطيّ فرأى قبطيًا آخر يذكر موسى وأنه قتل صاحبهم فقال الإسرائيلي للقبطي: إن قتل صاحبك في طاعة الله تعالى فطوبى له وإن قتل في معصية الله تعالى فويل له، فقال القبطي: إنه قتل في طاعة سيّدي فرعون، فقال الإسرائيلي: كذبت إن السيّد هو الله تعالى لا فرعون فتعلّق به القبطي ليجرّه إلى فرعون فرآهما موسى فاستغاث الإسرائيلي به ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾[(٢)] [القصص: الآية ١٨] قتلت بالأمس رجلا لأجلك وتريد أن أقتل اليوم آخر فسمع القبطي ذلك هذا قول وهب. وقال آخرون: إنه لم يزد على قوله إنك لغوي مبين وإنه قصد لضرب القبطي لكن الإسرائيلي ظنّ أنه يريده لما كان يعاتبه فقال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس فسمع القبطي ذلك فعدا إلى فرعون وعلى قول وهب قال القبطي لموسى: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾[(٣)] [القصص: الآية ١٩] وإن القبطي ذهب إلى فرعون وأخبره أن موسى أراد قتله وعلى قول وهب عدا إلى فرعون فقال: قد عرفنا قاتل صاحبنا بالأمس وهو موسى وأصبح الملأ من قوم فرعون يتشاورون في أمر موسى وقالوا لفرعون: قد قتل موسى رجلًا منّا فأقصّنا منه قال: ائتوني بشهودٍ يشهدون بذلك فذهبوا ليأتوا بالشهود فخرج ﴿رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: الآية ٢٠] إلى موسى فأتاه فقال له: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: الآية ٢٠] وقال ابن إسحـٰق اسمه شمعان، وقال غيره: كان اسمه خبرئيل بن نوخابيل وقال بعضهم: كان خبرئيل ابن عمّ فرعون ويقال: لا بل كان إسرائيليًّا لكنّه خازن فرعون وكان يكتم إيمانه من فرعون ويريه أنّه على دينه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[(٤)] [القصص: الآية ٢١] الطلب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: الآيتان ٢١، ٢٢] وذلك أنه لم يدرِ أي وجه يتوجّه، ويقال: إنه كان على زيّ الملوك فرأى

(١) جاء في الأصل (وأصبح موسى في المدينة خائفًا يترقب) والصواب ما ثبتناه.
(٢) جاء في الأصل (فقال له موسى) والصواب ما ثبتناه.
(٣) وجاء في الأصل (أن تريد إلا أن تكون جبارًا...) والصواب ما ثبتناه.
(٤) وجاء في الأصل (فخرج موسى من المدينة خائفًا يترقب) والصواب ما ثبتناه.

راعيًا على الطريق فطرح إليه كسوته وأخذ منه جبّته فخرج خائفًا بلا زادٍ ولا راحلةٍ ولا صاحب يتعسف الطريق يمينًا وشمالًا يأكل الحشيش وورق الشجر حتى تشقّقت شفتاه فقال بعضهم: كان في الطريق شهرًا، ويقال عشرًا وقال وهب: ثمانية أيّام حتى رفع إلى مدين قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القَصص: الآية ٢٣] وهو بئرهم التي يسقون منها مواشيهما ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: الآية ٢٣] أنعامهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القَصص: الآية ٢٣] غنمهما من الماء الذي يشرب منه أنعامهم وهما ابنتا شعيب، وقال آخرون: ابنتا بَيْثرون ابن أخ شعيب، ويقال: بيثرون وشعيب واحد فشعيب بالعربية وبيثرون بالعبرانيّة والله أعلم، فلمّا رآهما كذلك رقّ لهما وأتاهما وسألهما و﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: الآية ٢٣] لِمَ لا تتركان غنمكما تشرب مع غنم القوم؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى﴾ [القصص: الآية ٢٣] فلا يجوز أن نسقي إلى أن ﴿يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [القصص: الآية ٢٣] فحينئذٍ نسقي غنمنا فضلة مائهم إن بقي شيء، فقال لهما: ولم؟ قالتا: ذلك لأننا على دينٍ آخر غير دينهم، قال: ومن أنتما؟ قالت: نحن ابنتا شعيب وهو مسلم وهؤلاء كفرة، قال: وأين أبوكما؟ قالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: الآية ٢٣] أعمى لا يقدر على الخروج وليس لنا من يسقي لنا مواشينا، فلمّا سمع ذلك منهما جاء إلى القوم فقال لهم: ما لكم لا تسقون غنم هاتين الضعيفتين؟ فقالوا له: أنت أشفق عليهما منّا، فاسق غنمهما استهزاءً به فزاحم موسى على البئر ونحّاهم عن الماء وأخذ الدلو وجعل ينزع الماء فيسقي لهما، وفي رواية وهب أن القوم سقوا مواشيهم ووضعوا صخرةً كانوا يضعونها على رأس البئر يحملها ثلاثون رجلًا ويقال أربعون رجلًا ولم يظنّ أحد أن رجلًا يطيق نقلها فلما انطلقوا جاء موسى إلى البئر ليأخذ الصخرة فقالت: أنت لا تطيق حملها؟ فقال: أطيقه إن شاء الله تعالى بإذنه ثم قال: بسم الله العظيم الواحد المعبود إلٰه إبراهيم وإسحٰق ويعقوب اللهمّ أعنّي فرفع الصخرة ونحّاها ثم أخذ الدلو وجعل ينزع الماء ويقول الحمد لله المحمود المعبود اللهمّ انصر عبدك المطرود ولا زال يسقي حتى رويت غنم المرأتين ثم إنه تولى إلى الظلّ والمرأتان تتعجبان من قوته ورحمته لهما وكثرة ذكره لربّه.

قال بعض الرواة: رجع موسى إلى الظل إلى شجرة هناك فقام إلى جنبها يصلّي وقد أجهده الجوع فلما فرغ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصص: الآية ٢٤] قال ابن عباسٍ: ما سأل الله إلّا الخبز، وعن الحسن قال: لم يسأل من عرض الدنيا شيئًا غير ذلك اليوم سأل ربه كسرة خبزٍ من شعير يسدّ به جوعته وعن وهبٍ قال: سأل خبز شعير يأكله وعنه قال: ما سأل إلا شبعة لبطنه، ثم إن الجاريتين

رجعتا إلى أبيهما قبل ما كانتا ترجعان كل يوم وكان شعيب يلتمس بطون غنمه كل يوم ينظر إلى ريّها فقال لهما: ما الذي أسرع برجوعكما اليوم مع ما أرى من امتلاء بطون الأغنام أكثر ممّا أعهده كلّ يوم وقصّتا عليه قصّة موسى، وقالتا: أتانا رجل غريب فكان من قوته وفعله وسقيه غنمنا كذا وكذا إلى تمام القصة، فقال شعيب لصغراهما: عجّلي عليّ بالرجل فإنه جائع لنجزيه على حسن صنعه، فجاءت إلى موسى فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القَصَص: الآية ٢٥] قال ابن عباس: كان عليها درع لا يغطّي قدميها، ولم يكن عليها جلباب وكانت تمشي مستحية متنحّية لئلّا ينكشف قدماها وقال وهب على استحياءٍ أي واضعة يدها على وجهها فذهب موسى معها إلى شعيب وقال وهب فكانت تتقدّمه في الطريق تدلّه وكانت الريح تهبّ فتلصق ثوبها بمؤخرها، فقال لها امشي خلفي رحمك الله، ودليني بالقول على الطريق فإنا قوم لا ننظر في أدبار النساء ففعلت ما قال لها إلى أن دخل على شعيب فدعا شعيب بطعام وأقسم أن يأكل حتى يرجع إليه فقام من عنده كراهية أن يستحي منه فلا يستوفي طعامه، فلمّا فرغ موسى من طعامه دعا شعيب بلبن فسقاه ثم أخذ يسأله عن أمره وشأنه ونسبه وخروجه من بلده فأخبره بذلك فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٢٥] وعرف شعيب أنه من بيت النبوة وأخبره أنه آمنٌ وليس لفرعون على مدين حكم فاطمأنّ موسى ثم إن إحدى ابنتي شعيب قالت لأبيها: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القَصَص: الآية ٢٦] وإنّه لا راعٍ لنا ولا أحد يكفينا أشغالنا، فقال لها شعيب: هذه قوته قد عرفتنيه فما علمك بأمانته، فأخبرته بقوله لها في الطريق وأمره إياها بالمشي خلفه فازداد شعيب فيه رغبةً، فقال له: أقم عندي تعينني على أمري و﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ [القصص: الآية ٢٧] بالعشر لا بدّ ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [القصص: الآية ٢٧] تعالى في عهدي ﴿مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [القصص: الآية ٢٧] الوافين من غير خلاف، قال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: الآية ٢٨] فزوّجه شعيب ابنته الصغرى، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: قال لي جبرائيل عليه السلام إن سألت عن اسم امرأة موسى فقل صفورا وإن سألت أيّ ابنة شعيب كانت امرأة موسى فقل صغراهما. وإن سألت أي الأجلين قضى موسى، فقال: أوفاهما وأتمهما، وروي عن ابن عباس قال: لما استصحب شعيب موسى ليعينه على أموره أراد أن يبعثه مع غنمه ليرعاها فقال لموسى ادخل هذا البيت وكان فيه سبعون

عصًا[١] من عصيّ الأنبياء وفيهنّ عصاة موسى وهي عصًا أخرجها آدم من الجنّة وكانت من الآس طولها عشرة أذرع بذراع موسى وفي أسفلها زجّ[٢] وفي أعلاها شعبتان وفي وسطها محجن[٣] وكان شعيب علم أنها عصا لا يحملها إلا رسول من ولد إسرائيل يكلّمه الله تعالى تكليمًا فلمّا أمر شعيب موسى أن يأخذ من بيته عصًا دخل موسى وأخرجها فلمسها شعيب وقال ردّها إلى مكانها وخذ غيرها، فدخل موسى فاستقبلته العصا تمشي إليه، ويقال إن شعيبًا أمر ابنته أن تردّ العصا وتدسّها تحت العصي كلها، ثم أمر موسى بدخول البيت لأخذ العصا فاستقبلته تلك العصا تمشي إليه، ويقال كانت قد ارتفعت فوق العصي فأخذ موسى وأخرجها فلمسها شعيب وقال له: ردّها إلى مكانها، وأمر ابنته على الروايتين ففعل حتى ردها ثلاث مرّات ويقال سبع مرّات في كلهنّ تستقبله العصا تمشي إليه وترتفع على العصي كلّها فيأخذها موسى فعند ذلك علم شعيب أنه هو النبي الذي يكون من بني إسرائيل، فمن ثم عرض عليه النكاح وقال له: أظنك راعي بني إسرائيل وأنت صاحبها فاحفظ بها فإنّك سترى لها شأنًا عجيبًا، وقال كعب الأحبار كانت عصاة موسى من عوسجٍ فكانت أوّل شجرة نبتت في الأرض ومنها قطعت عصاة موسى فلمّا علم شعيب أن موسى هو ذلك النبيّ ازداد فيه رغبة فقال له: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ [القصص: الآية ٢٧]، والله أعلم فعمل موسى في غنمه ثماني حجج قال:

---

(١) قال كعب: لما قدم مكة عبد الله بن عمرو بن العاص قلت: سلوه عن ثلاث فإن أخبركم فإنه عالم، سلوه عن شيء من الجنة وضعه الله للناس وعن أول شجرة غرست في الأرض فسئل عنها فقال عبد الله: أما الشيء الذي وضعه للناس في الأرض من الجنة فهو هذا الركن الأسود وأما أول ما وضع للناس في الأرض فبئر برهوت باليمن يردها أرواح الكفار. وأما أول شجرة وضعها الله تعالى في الأرض فالعوسجة التي اقتطع منها موسى عصاه، فلما بلغ ذلك كعب قال: صدق الرجل وهناك رواية أخرىٰ تختلف عن هذه، وهذا نصها: قال ابن عباس (رضي الله عنه): كتب صاحب الروم إلى معاوية يسأله عن (أربعة أشياء لم يركضوا في رحم) فلما قرأ معاوية الكتاب قال: أخزاه الله وما علمي بها هٰهنا. قيل له اكتب إلى ابن عباس فاسأله عن ذلك، فكتب إليه يسأله عنها، فكتب إليه ابن عباس في الجواب. أما الأربعة التي لم يركضوا في رحم: فآدم وحواء، والكبش الذي فدي به إسماعيل وعصا موسى حيث ألقاها فصارت ثعبانًا.
وهذه رواية أخرىٰ: قال أكثر العلماء: كانت عصا موسىٰ من آس الجنة وكان طولها عشرة أذرع على طول موسىٰ حملها آدم في الأرض فورثها الناس صغيرًا عن كبير إلى أن وصلت إلى شعيب فأعطاها موسىٰ. الثعلبي ـ العرائس ص ١٠١.

(٢) الزجُّ: الحديدة التي تركب في أسفل الرمح، والزج تركز به الرمح في الأرض، والسنان يطعن به ابن منظور ـ لسان العرب ـ باب (زجج) ٢/ ١١.

(٣) المحجن والمحجنة: العصا المعوجة. عصا معقفة الرأس كالصولجان. ابن منظور ـ لسان العرب ١/ ٥٧٧، باب (حجن).

ولما سلّم إليه غنمه قال له: هٰهنا واديًا كثير الحشيش والكلاء غير أنّ فيه سمًّا فإياك أن تدخله غنمك وإن واديًا آخر من صفته كثير الذئاب فلا تدخله غنمك وإن واديًا ثالثًا كثير الحيّات فلا تأته فإن الحيات تهلك غنمك، قال: فخرج موسى إلى الرعي فنظر فإذا الوادي الذي وصفه بالسمّ كان أكثر الأودية كلاءً وأخصبها فرعى غنمه وقال: ارتعي على اسم الذي لا يضرّ مع اسمه شيء، فكانت الغنم ترتع وقام موسى فصلّى فبعث إليه شعيب بغدائه ولينظر ما صنع موسى فوجده الرسول في وادي السمّ فرجع إلى شعيب فأخبره فاهتمّ لذلك، فلمّا رجع موسى بالعشاء قال له شعيب: ألم أكن قلت لك لا ترعى الغنم في وادي السمّ فقال الأودية كلّها لله وإني رعيتها باسمه ولا يضرّ مع اسم الله شيء ثم إن موسى ذهب بغنمه إلى وادي الذئاب لكثرة كلئه وعلم شعيب بذلك، فبعث من يأتيه بخبره فوجده الرسول قائمًا يصلّي والغنم ترعى والذئاب تحرس الغنم مكان الكلاب فعجب الرسول وأخبر شعيبًا وكذلك فعل بوادي الحيّات لما جاءها دخلت الحيّات كلّها حجورهن فلم تظهر حيّة واحدة قال: فازداد شعيب بأمر موسى يقينًا وأنه لما مضت السنون الثمانية سلّم شعيب إلى موسى زوجته وجعل له من غنمه نصيبًا وفوّض إليه أموره كلّها وبارك الله تعالى لموسى فيما دفع إليه شعيب فقال موسى لشعيب: إني متحمّل أهلي إلى مصر، فقال له شعيب: أقم عندي سنتك هذه ولك ما وضعت إناثًا من غنمي فأقام موسى عنده، فوضعت تلك الشاة كلّها إناثًا في ذلك السنة فأعطاها شعيب لموسى فلما كانت السنة العاشرة قال له شعيب: أقم عندي فإنّي أرى البركة بوصلتك وصحبتك ولك كلّ ما وضعت الغنم في هذه السنة من الذكور فجاءت الغنم كلها ذكورًا فصارت لموسى حتى أضعفت غنم موسى على غنم شعيب فلما كانت السنة الحادية عشرة قال شعيب: أقم عندي ولك كلّ ما أتأمَتْ من الغنم فأتأمت الغنم كلها في تلك السنة فلمّا كانت الثانية عشرة قال له شعيب: أقم عندي ولك كلما وضعت الغنم من البلق، فوضعت الغنم كلها بلقًا فجعلها شعيب لموسى والصحيح أن موسى مكث عند شعيب عشر سنين، قال: واستأذن موسى شعيبًا ولم يكن له همّ إلا الرجوع إلى وطنه وأخيه هارون وأخته مريم وهما بمصر فخرج موسى بأهله وسلك البرية وهو لا يعرف الطريق فأنجاه الله تعالى وخرج إلى جانب الطور وهو جبل زبير وذلك في الليلة التي أراد الله تعالى إكرام موسى بكلامه وكرامته، وكان موسى قد أخطأ الطريق حتى وقع إلى ماءٍ هنالك وجنّه الليل فبقي في ليلة باردةٍ ولم يكن معه ما يستره وأهله من الثياب فأخرج زندًا له ليقدح نارًا يصطلي بها أهله فلم توز زنده حتى فعله ذلك ثلاث مرّات وأنه طرحها ضجرًا ثم إنه رأى نارًا عظيمةً من جانب الطور فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ

ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص: الآية ٢٩]، وقال في موضع آخر: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: الآية ١٠] أي أجد عندها قومًا أسألهم عن الطريق فقد ضَلَلْنَا أو آتيكم بشعلة منها لتصطلوا فقد أضركم البرد وذلك أنه كان في ليلة شاتيةٍ ذات ندي وريح ويقال إن امرأته أضر بها الطلق لتلد ولم يكن عندها من يقبّلها ويعينها على حالها، فلذلك اشتدّ ضجر موسى ثم إنه ترك أهله وانطلق نحو النار حتى أتاها فإذا هو بنارٍ عظيمة ساطعة إلى السماء مشتعلة في فروع شجرة خضراء يقال لها العليق فلا تزداد النار كل ساعة إلا سطوعًا ولا تلك الشجرة في النار إلّا خضرة فلا خضرتها تطفىء النار ولا اشتعال النار يحرقها ولا يفسد خضرتها فوقف موسى صلوات الله عليه ينظر إليها متعجّبًا لا يدري على أيّ شيء يحمل أمرها وجعل يرجو أن يسقط منها جذوة يقتبس منها فلما طال ذلك عليه وخاف الضيقة على أهله أخذ ضغثًا من دقاق الحطب فأهوى به إلى النار مقتبسًا فما زالت النار تبتدر إليه كأنها تريده فتأخر عنها ثم عاد فلم تزل تطمّعه وهو مطمع فيها كلما أراد الاقتباس منها أهوت إليه كأنها تريده فيتأخر عنها فلا يشتعل الشيء الذي يدنيه منها فقال في نفسه: وهذا أعجب شيء نارًا مشتعلة في شجرة رطبةٍ غصنها أخضر، ثم لا يمكن الاقتباس منها بالحطب اليابس فبينما هو يتعجّب من أمرها إذ سمع صوتًا لم يسمع مثله قط يقول له: يا موسى فنظر يمينًا وشمالًا وقال لبيك لبيك استئناسًا منه بالصوت ولم يرَ شيئًا ثم نودي الثانية فقال: لبيك لبيك ونظر يمينًا وشمالًا فلم ير أحد ثم نودي الثالثة فقال: لبيك لبيك من أنت؟ أسمع كلامك ولا أراك فنودي أنا الذي أكون معك حيث كنت وأنا أقرب إليك من نفسك ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: الآية ١٢][1] فخرّ موسى ساجدًا وقال: إلـهي أكلامك هذا الذي أسمع أم كلام رسولك؟ فنودي لا بل الكلام كلامي والنور نوري وأنا رب العالمين ادن منّي يا موسى قال: فجمع يده على العصا وتحامل عليها حتى ولم يكد وارتعدت فرائصه وانكسرت رجلاه وطار عقله وصار مثل الميت إلا أن الرّوح لم تزايله فبعث الله تعالى إليه ملكًا كأحسن شيء رآه فشدّ عضده وقوّى رجله حتى أتي به إلى الشجرة فلما دنا منه نودي ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: الآية ١٢][2]. قال ابن عباس وذلك إنما كانتا من جلد حمارٍ ميّتٍ وإن موسى كان خائفًا فمرّ بحمارٍ ميّت فأخذ من جلده ما انتعل به في رجليه للحجائر والشوك فلذلك أمر بخلعها ويقال أراد الله تعالى أن يصل إليه بركة ذلك الوادي المبارك ويقال: لا، إن

---

(١) وجاء في الأصل (وإني أنا الله رب العالمين) والصواب ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

(٢) وجاء بالأصل (اخلع) والصواب ما ثبتناه.

من آداب الملوك أن لا يحضروا مع النعال فأمر بالأدب فخلعها فقال الله تعالى له: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤][(١)]، فقال: سمعًا وطاعةً يا ربّ فما الذي توحي به فقال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه: الآية ١٤][(٢)]، أي لتذكرني فيها واعلم ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ [طه: الآية ١٥] آتية لا محالة إلا أني لا أظهر وقتها بل ﴿أُخْفِيهَا﴾ [طه: الآية ١٥] وإنما أقيمها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: الآية ١٥] في الدنيا من خير وشرّ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ [طه: الآية ١٦] عن الإقرار بها ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ [طه: الآية ١٦] من الكفّار ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [طه: الآية ١٦] مثل فرعون وقومه ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: الآية ١٦] أي فتهلك في عذاب الله تعالى، ثم قال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: الآية ١٧] وكان عزَّ وجلّ أعلم ولكن سأله لينبسط موسى في الكلام ويقال: ليقول إنها عصًا ثم يحولها ثعبان فيكون أعجب له قال موسى ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: الآية ١٨]، قال: وما تصنع بها؟ قال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ [طه: الآية ١٨] في السير وطول القيام والإعياء ﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ [طه: الآية ١٨] ورق الشجر إذا طالت ولم تصل يدي إليها لطولها ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: الآية ١٨]، وكانت مآربه أنها كانت لها شعبتان وتحتهما محجنٌ فكان يحبط بها ورق الشجر إذا طالت الشجرة حناها بالمحجن وإذا أراد أن يكسر غصنًا لوى شعبتها وإذا سار في الطريق وضعها على عاتقه وعلّق بها متاعه وقوسه وكنانته ومدرعته وإداوته وزاده، وربّما ركزها فألقى كساءه فاستظل بظلّها وإذا ورد ماء يقصر عنه رشاة وصل الرشاة بالمحجن ويقاتل السباع بها عن غنمه وقال أبو سعيد الفريابي[(٣)] كانت تذبّ عنه الذئاب إذا نام وتحدّثه إذا خلا فتؤنسه وتصير حظيرة لغنمه بالليل وحبلًا لإداوته إذا لم يجد عند البئر حبلًا ودلوًا إلّا أنه أجمل الكلّ بقوله ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: الآية ١٨] فلمّا قال ذلك قال له الله: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا﴾ [طه: الآيتان ١٩، ٢٠] إلى الأرض ثم نظر إليها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: الآية ٢٠] كأعظم ثعبان رآه الناظرون مثل البختي العظيم أسود يدبّ على قوائِمَ قصارٍ شدادٍ قد جعلت الشعبتان فاهًا سعته اثنا عشر ذراعًا إذا فتحته وقال بعضهم: ثمانين ذراعًا في

---

(١) وجاء في الأصل (وأنا اخترتك برسالتي ومناجاتي فاسمع لما يوحى)، والصواب ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾.

(٢) وجاء في الأصل (إني) والصواب ما ثبتناه.

(٣) الفريابي: جاء في الأصل (الفاربي) والصواب ما ثبتناه. وفرياب: ويقال فارياب: مدينة بالترك. بكسر الفاء وسكون المثناة تحت، وكسر الراء وفتح المثناة تحت وبعد الألف موحدة، الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (٧٤٨ هـ) ـ المشتبه في الرجال أسماؤهم وأنسابهم ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٢ م ٥٠٧/١، ٥١٤.

فيه أنياب وأضراس يضربها لها قعقعة وجعل محجنها لها عرفًا مثل النّيازك تتلهب من فيه النار ولها عينان تتوقدان كالبرق تمرّ بالشجرة العظيمة فتطعن فيها أنيابها فتقلعها من أصلها وتمرّ بالصخرة العظيمة فتبتلعها فلما رأى ذلك موسى ولّى هاربًا ولم يعقّب وهام على وجهه فنودي يا موسى ارجع فرجع خائفًا وجلًا قال الله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: الآية ١٠]، ﴿وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: الآية ٣١]، و﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾﴾ [طه: الآية ٢١] فلمّا أراد أن يتناولها دخلت يده في كمّ جبّةٍ عليه من خوفه فلفّ كمّه على يده فقال له الملك: أرأيت يا موسى لو أذِنَ فيك لما كانت جبتك تدفع عنك شيئًا، قال: لا، ولكنّي ضعيف خلقت من ضعيف فقال له: اخرج يدك فأخرجها. قال الله تعالى أدخلها في فيها ففعل حتى وجد حرّ أنيابها وأضراسها فصارت في يده عصًا كما كانت أوّل مرة فقيل له هذه آية، ثم قال الله تعالى: ﴿اسْلُكْ[1] يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص: الآية ٣٢] أي تحت إبطك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [طه: الآية ٢٢] ففعل فخرجت ولها شعاع مثل شعاع الشمس من غير برصٍ ثمّ قال له وهذه آية أخرى أي أعجوبة أخرى معجزة للخلق تدلّهم على نبوّتك وإنما أعطيتك هاتين ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه: الآية ٢٣] أي العظام ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾﴾ [طه: الآية ٢٤] وذكر وهب هنا فصلًا طويلًا مما كلّم الله به موسى في رسالته إلى فرعون، ومن جملتها أن الله تعالى قال قل له إذا دعوته إلى توحيدي وعبادتي ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات: الآية ١٨] وتطهر من ذنبك ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: الآية ١٩] وقل له أجب ربّك فإنه واسع المغفرة وقد أمهلك دهرًا طويلًا في عافيةٍ ونعمةٍ وملكٍ وعزٍّ فإن أجبته أدخلك الجنّة مع ما يعطيك من الملك ولو شئت أن يبقيك في الملك مثل عمرك الذي مضى لفعل ذلك ولكنّك إن أعرضت عذبك بالنار بعد ما سلبك ملكك وأهلك في الدنيا فقال موسى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: الآية ٢٥] لاحتمال النبوة ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ [طه: الآية ٢٦] في تبليغ رسالتك ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ [طه: الآية ٢٧] وهي العقدة التي كانت من حرق النار ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: الآية ٢٨] ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾ [طه: الآيتان ٢٩، ٣٠] فإنه أفصح منّي فاجعله رِدْءًا يصدقني ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: الآيتان ٣١، ٣٢] من النبوة وهارون يومئذٍ بمصر ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: الآيات ٣٣ - ٣٥] قال الله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: الآية ٣٦] ﴿اذْهَبْ

---

(١) جاء في الأصل (ادخل) والصواب ﴿اسْلُكْ﴾.

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طـٰه: الآيـة ٢٤] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القصص: الآية ٣٣] قال: لا تخف أتخاف شيئًا وأنا معك ألا تذكر أني قد مننت عليك مرة أخرى من قبل هذا وذلك حين أوحينا إلى أمّك كي تقرّ عينها ﴿وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [طـٰه: الآية ٤٠] من غمّ القرد[1] وخوف فرعون ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طـٰه: الآية ٤٠] أي صرفناك صروفًا من الأحوال حتى وردت مدين ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [طـٰه: الآية ٤٠] وهي عشر سنين، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ [طـٰه: الآية ٤٠] وتقدير قدّرناه لك أن تأتينا عنده لنكرمك بالرسالة ثم الآن قد اصطفيتك لنفسي للمناجاة فاذهب أنت وأخوك بآياتي ومعجزاتي ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ [طـٰه: الآية ٤٢] ولا تضعفا ﴿فِي ذِكْرِي﴾ [طـٰه: الآية ٤٢] وهذا تبليغ ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طـٰه: الآية ٤٣]، فإذا جئتماه ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طـٰه: الآية ٤٤] في رفقٍ ولا تعنفا عليه فينفر عنكما، ويقال قولا له صدقًا وصوابًا ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ [طـٰه: الآية ٤٤] بوعظكما ووعدكما ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طـٰه: الآية ٤٤] بوعيدكما وتهديدكما فيسلم ويوحّد ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ [طـٰه: الآية ٤٥] بالقول السيّيء ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طـٰه: الآية ٤٥] علينا بالفعل الجائر قال لهما: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ﴾ [طـٰه: الآية ٤٦] ما يقول لكما ﴿وَأَرَىٰ﴾ [طـٰه: الآية ٤٦] ما يفعله بكما ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا﴾ [طـٰه: الآية ٤٧] له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طـٰه: الآية ٤٧] لنذهب بهم إلى مساقط رؤوس آبائهم فليسوا بعبيد لك بل هم أحرارٌ أبناء الأحرار، ولا تعذّبنا وإن لم تصدقنا ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ [طـٰه: الآية ٤٧] ومعجزة ﴿مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طـٰه: الآية ٤٧] بجندٍ لا قبل لفرعون به لفعلت ولكن أردت أن يعلم هذا العبد الضعيف الذي أعجبته نفسه أن الفئة القليلة تغلبه بقدرتي ولا يعجبنكما زينة ولا منعة به فإنه زينة المترفين ولو شئت أن أزينكما بزينةٍ يعلم فرعون حين ينظر إليها أنّ مقدرته تعجز عمّا أوتيتما لفعلت ولكن أرغب بكما عن ذلك، فأذود به عنكما وكذلك أفعل بأوليائي قديمًا فربّما تأخرت لهم فإني أذودهم عن نعيم الدنيا، كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة، وإني لأجنّبهم كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك البعير وما ذاك لهوانهم على فرعون ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا موفرًا لم يكلّمه الطمع ولم يطعنه الهوى، فلمّا قضى الله لموسى أمره ووحيه وأكرمه بكلامه من عند الشجرة والملائكة يصافحونه ويهنّونه ويدعون له بالبركة فيما أعطاه الله تعالى واختصّه به ثمّ إن موسى توجّه إلى فرعون برسالة ربّه وذكر هٰهنا روايتان إحداهما أنه رجع ممّا هنالك إلى أهله

(١) كذا بالأصل.

فوجد امرأته قد ولدت، وقد جاءتها الملائكة وقبّلتها وأصلحت شأنها وشأن الولد وأوقدوا لها نارًا وجمعوا غنم موسى بعد انتشارها فضمّ موسى إليه أهله فانطلق بهم إلى مصر، والرواية الأخرى أن موسى لم يرجع إلى أهله بل تركهم فتوجه إلى فرعون قبل هؤلاء وكان لموسى ابنان أحدهما حسم بن موسى والآخر يهوذا بن موسى فلم يزل أهله وأبناؤه مقيمين هنالك لا يعلمون ما فعل موسى وأين ذهب حتى مرّ بهم بعض دعاة مدين فعرفهم وردهم إلى جدّهم شعيب فمكثوا حينًا حتى أخبر الله شعيبًا بأمر موسى، ثم لما فلق الله البحر لموسى حتى جاوز هو وبنو إسرائيل بعث بهم شعيب إلى موسى فكان موسى لم يرهم أربعين سنة والله أعلم، قال وهب ثم أوحى الله تعالى في تلك الليلة التي كلّم فيها موسى إلى هارون وبشّره بنبوة موسى وأنه قد جعله وزيرًا له في أمره وأخبره أن موسى قادم له وقال له إذا كان يوم الجمعة لغرّة ذي الحجة قبل طلوع الشمس فبكر إلى شاطىء النيل تلقَ أخاك موسى، فخرج هارون في تلك الساعة من عسكر بني إسرائيل ووافى موسى تلك الساعة فالتقيا على شاطىء النيل فسأله هارون من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران، فقال هارون: أنا هارون بن عمران فاعتنقا وسأل كلّ واحدٍ منهما صاحبه عن أمره وحاله بعده، ثم قال له موسى انطلق بنا إلى فرعون فقد أمرنا الله تعالى بذلك فانطلقا نحو مدينة فرعون لها سبعون صورًا بين كلّ صورين رستاق(١) فيه سبعون ألف مقاتل وفي الرستاق أنهار ومزارع وحول المدينة التي يسكنها فرعون غيضة غرسها فرعون وسقاها من النيل حتّى التفت وألقي فيها السّباع والأسد فتناسلت وكثرت وكانت جندًا له من أجناده وجعل ظلال الغيضة طرقًا مطرقة تفضي إلى أبواب المدينة ليس لأبوابها طرق غيرها فمن أخطأها وقع إلى الأسد فأهلكته، فانطلق موسى وهارون إلى أبواب المدينة عند الصور الأوَّل فضرب موسى الباب بعصاه وكانت الحرس قد أغلقته فانفتح الباب له وكذلك فعل بسائر الأبواب كلّ صور منها حتى وصلا إلى الغيضة التي فيها الأسد فلما سمعت الأسد صوت موسى هربت منهزمة على وجهها إلى جوف الغيضة وكان لها ساسة فلم يدروا ما شأنها إلى أن ولّى موسى وهارون وانتهى موسى إلى باب مدينة فرعون التي يسكنها وإلى أقرب أبوابها من قصره وهو الذي يدخل ويخرج منه فلم يجسر أحد أن يخبره قال وهب: وصل موسى إلى ذلك الباب يوم الاثنين لأربع خلون من ذي الحجة وهي هنالك إلى بكرة النحر، وقال محمد بن إسحٰق بقي موسى هنالك سنين لا يصل إلى فرعون ولا يجسر أحد أن يخبره بأمرهما حتى لقيهما بطّالٌ لفرعون ومضحكة الذي يلاعبه فقال: هل تدريان لمن

(١) رستاق: معناه قرية.

هذا الباب الذي أنتما عليه؟ قال موسى: نعم، هذا باب فرعون هو وجميع من معه وأنت وجميع الخلق عبيد الله ربّ العالمين، فسمع البطال قولًا لم يكن يسمعه من أحد قطّ فدخل البطال على فرعون وقال له كالمازح: أيّها الملك رأيت اليوم ببابك عجبًا هو أعظم من مصيبتنا بالأسد، فقال فرعون: وما حال الأسد؟ قال: اعلم أنه ورد بابك رجلان من حالهما وصفتهما كذا وكذا فحين رأتهما الأسد هربت منهزمة فضغبوا ضغاب[1] الثعلب لا تلوي على شيء تطأ بعضها بعضًا وأظن أنهما سحرا الأسد ثم إني كلمتهما فإذا هما يقولان قولًا عظيمًا، قال فرعون وما هو؟ قال: يزعمان لهما إلـٰهًا غيرك، هو ربّ السمـٰوات وربّ الأرض وربّ العالمين، وهو الذي أرسلهما إليك، فقال فرعون وقد امتلأ غيظًا آتوني بهما فأدخلا عليه على أعجل وجه فلما وقفا عليه وعنده هامان وعظماء قومه نظر إليه فرعون فعرفه وعلى موسى جبّة من صوف وتبّان من صوف ومدرعة من صوف وفي رجليه نعلان مخصوفتان وبيده عصاه فقال له فرعون: ما اسمك؟ قال: أنا موسى بن عمران قال: لست أسألك عن هذا، من أنت؟ قال: أنا عبد من عبيد الله تعالى خلقني من التراب وأعود إلى التراب، قال فرعون غير هذا الاسم بك أولى وغير هذا النسب بك أليق وأكرم وأشرف وهو أن يقول عبد لفرعون وربيب نعمته فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١٨، ١٩] بنعمتي عليك ثم هربت منّي ذليلًا صغيرًا وصرت أجيرًا فقيرًا ثمّ جئت الآن تدعي النبوّة والرسالة وتزعم أنّ لك إلـٰهًا غيري قال له موسى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ [الشعراء: الآية ٢٠] حين قتلت القبطي ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٠] يعني الجاهلين المخطئين في فعلي من قتل القبطي فإني لم أفعل ذلك عمدًا ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: الآية ٢١]، وأما قولك جئت تدعي النبوة فإنّما وهب ﴿لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٢١]، ثم قال لفرعون في جواب قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: الآية ١٨] ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢٢] ليس لك عليّ منّة لأني إنما وقعت إليك اضطرارًا فإنك استعبدت بني إسرائيل وجعلت تنزع منهم أولادهم وتقتل من قدرت عليه حتى ألقتني أمّي خوفًا منك في النّيل فحملني الماء إليك ولكانت أمّي كافية لتربيتي ثم إن فرعون رجع إلى أول قول موسى بما جئت قال أنا ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: الآية ١٦] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢٣] الذي تزعم؟

---

(١) الضغيب والضغاب: صوت الأرنب والذئب. وجاء في الأصل (ضغاء) والصواب ما ثبتناه، ابن منظور ـ اللسان ٢/ ٥٣٦ (باب ضغب).

﴿قَالَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٤] هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٤] أي لو نظرتم بعقولكم لعرفتموه يقينًا ﴿قَالَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٥] فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ [الشعراء: الآية ٢٥] كالمتعجب ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٥] لما يقوله ولم يشتغل موسى بقوله وزاد في الحجة والبيان فقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٦] قال فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: الآية ٢٧] لا يدري ما يقول فلم يشتغل موسى بقوله وزاد في الوضوح فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢٨] أي لو استعملتم عقولكم لعلمتم صدقي. قال فرعون ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٩] وذلك لما رأى أن موسى لا ينتهي عن بيان الحجة ولم يقدر فرعون على ردّ قوله صار إلى التهديد والوعيد لتمنّعه عن قوله فهدّده بالسجن قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: الآية ٣٠] وحجة ظاهرة فأنت تسجنني قال: لا، إن كان لك حجّة لم أسجنك قال: فإن لي حجّةً وبرهانًا على صدقي ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٣١، ٣٢] كأعظم الحيات وأهولها على ما وصفناه من قبل وجعلت النار تخرج من فيه والدخان من منخريه وعيناه تتوقدان نارًا ولأنيابه ضريب وقعقعة وله هدير كهدير الفحل فجعل لا يمرّ بشيءٍ إلا حطمه ولا يطعن بأنيابه شيئًا إلا شقّه ولا ينفخ في شيءٍ إلا أحرقه فانهزم عنه الناس مدبرين فتزاحموا وركب بعضهم بعضًا، قال وهب فمات في تلك الهزيمة والزحمة خمسة وعشرون ألفًا فجعل يعلّق على الجدران ويرجع إلى موسى ثم إنه قصد سرير فرعون ليبلعه فسقط فرعون عن سريره ومشى بطنه أربعين مرة في يومه وليلته (وكان قبل ذلك لا يأتي الخلاء إلا في أربعين يومًا مرة واحدة)[1] ثم إن موسى لما استغاث به الناس يقال قال له فرعون: كفّ عنّا ثعبانك لننظر في أمرك، فأخذه موسى فصار في يده عصًا كما كانت أوّل مرة ثم قال لفرعون: وعندي آية أخرى، قال: وما هي؟ فأدخل موسى يده في جيبه ثم نزعها ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٣٣] لها شعاع الشمس الضاحية فتحيّر لها الحاضرون فقال فرعون لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٣٤، ٣٥]، وروي عن الحسن أن فرعون قال لموسى: ارجع عنا يومك هذا لننظر في أمرك ثمّ إنه دعاه سرًّا من قومه، وقال: يا موسى قتلت خمسة وعشرين ألفًا من الناس في ساعة واحدة، أفبهذا بعثك ربّك؟ فقال موسى: لم أقتلهم أنا بل أنت قتلتهم إذا كفرت فتوليت عليهم

(١) هذا كلام غير منطقي ولا يقبله العقل لأنه مبالغ فيه.

وأمرتهم بالكفر ثم وعظه موسى ودعاه إلى الله تعالى وعبادته، قال فرعون وما يكون لي إن أجبتك إلى ما تقول؟ قال موسى: إني أسألك واحدة ويعطيك أربعًا قال: وما الذي تسألني قال: أن تعبد الله وحده لا شريك له، قال: وما الذي يعطيني؟ قال: يعطيك ربّك شبابًا لا تهرم وملكًا لا ينزع عنك وصحّة لا تسقم والجنّة في الآخرة خالدًا مخلّدًا قال فلانَ فرعون له، وقال له أمهلني حتى أدخل فأشاور فدخل منزله وشاور آسية قال: ألا ترين إلى ما يقول موسى وما يضمن لي؟ فقالت: وما هو فذكر لها ما قال موسى، فقالت له: وهل رأيت أحدًا ينال ما ذكرته ثم يدعه فخرج من عندها ودعا هامان واستشاره فقال له هامان أتعبد شيئًا بعد ما كنت تُعْبَد وتصير مربوبًا بعد ما كنت ربًّا فأما الملك فهو لك، وأما الصحة فلا تسقم فإن الأطباء عندك لا يدعونك سقيمًا، وأما الشباب فإنّي أجعلك شابًا وذكر لم يكن غيره شيب قطّ إلا يوم الثعبان فاشتعل رأسه ولحيته شيبًا فقال له هامان: أنا المراوِدُ إليك شبابًا فوضع له الخضاب فاختضب بالسّواد وأمّا الجنّة فلا أدري شيئًا غير ما نحن فيه، قال: فبدا له بقوله هامان وأبى عن إجابة موسى وجمع عظماء قومه وقال لهم ما ترون في أمر هذين الساحرين فإنهما ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طـه: الآيـة ٦٣]، ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ[1] ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٣٦، ٣٧] وقال بعضهم: اقتلهما تسترح منهما، فلمّا ذكروا القتل قال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربّه إني أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد، فقال موسى: إني، عذبت بربّي وربّكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: الآية ٢٨] وهو حبريل الذي أخبر موسى بما تشاوروا في قتله قبل خروجه إلى مدين فأظهر إيمانه في يومه وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ إلـى قـولـه: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: الآيتان ٢٨، ٢٩]، وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [غافر: الآية ٣٠]، وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر: الآيـة ٣٢]، وقـولـه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ[2] أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ إلـى قـولـه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: الآيات ٣٨ ـ ٤٤] فهدّده فرعون ومن معه بالقتل والصلب، وقال له فرعون: اتبعت دين موسى وتركت ديني لأفعل بك ما أنت أهله، فقال: افعل

---

(١) جاء في الأصل (حاشرون) والصواب ﴿حَٰشِرِينَ﴾.

(٢) في الأصل (اتبعوني) والصواب ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾.

ما قدرت عليه ثم إنّه خرج من عنده ولجأ إلى بعض الجبال قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ [غافر: الآية ٤٥] وذلك أن فرعون بعث في أثره رجلين من أعوانه ليأتيا به فرأوه في الجبل قائمًا يصلّي وعلى يمينه أسدٌ وعلى يساره نمرٌ فلم يجسروا الإقْدَام عليه فرجعا فقال أحدهما لصاحبه: ماذا تقول لفرعون إذا أتيناه فقال الأوّل: بل رأيناه ولكن من حاله كذا وكذا، وقال الآخر نقول: لم نجده لأنا إن أخبرناه بحاله غاظه ذلك فيقتلنا فلمّا دخلا على فرعون قالا له: إنا لما رأيناه والسبع والنمر يحرسانه فلم يمكننا القرب منه فأمر فرعون بهذا الرجل الصادق حتى قتل ونهى عن حبريل وذلك قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ(١)﴾ [غافر: الآية ٤٥]، ثم إن فرعون أخذ بتدبير مَن أشار بإرجائه حيث قالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨﴾ [الشعراء: الآيات ٣٦ - ٣٨]. وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلّنا نتّبع السحر، وقال لموسى: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: الآية ٥٨](٢) هذا المكان لتجتمع فيه وتناظر السحرة قال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: الآية ٥٩] يعني يوم العيد الذي كان لهم، ويقال: لا بل عيد بني إسرائيل ويقال: كان يوم النيروز، ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: الآية ٥٩] في ضحوة ذلك اليوم ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: الآية ٦٠] يعني سحرته قال ابن عبّاس كانوا خمسة عشر ألفًا، وقال الحسن: كانوا خمسة وعشرين ألفًا وقال محمد بن إسحٰق ثمانية عشر ألفًا، وقال الكلبيّ كانوا اثنين وسبعين نفسًا وقال وهب: كانوا سبعين ألفًا فاختار منهم سبعة آلاف ثم اختار منهم سبعمائة ساحر ثم اختار سبعين ساحرًا أحدقهم وأعلمهم بالسحر وضمنوا أن يعملوا بالحبال والعصيّ كما يعمله موسى ففعلوا شيئًا من ذلك بين يدي فرعون فاستبشروا رجاءً أن يغلبوا موسى فذلك قوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: الآية ٥٨] ثم إن السحرة قالوا لفرعون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝١١٤﴾ [الأعراف الآيتان: ١١٣، ١١٤] فتكونون أول داخلٍ عليّ وآخر خارجٍ ويقال أقرب الناس منّي منزلًا ومجلسًا ويقال لكلّ واحدٍ منكم كلّ يوم حاجة مقضيّة فلمّا كان يوم الوعد خرج فرعون بجموعه كلّهم وضربت لهم قبّة ارتفاعها ثمانون ذراعًا ووضع فيها سريره وجلس عن يمينه هامان وعن يساره قارون وحوله عظماء قومه، فاجتمع الناس للنظارة وجاءت السحرة على الاختلاف الذي ذكرناه في عددهم وخرج موسى ومعه أخوه هارون وبيده عصاه وعليه عباءةٌ ثم إن

---

(١) في الأصل (مكرهم)، والصواب ما ثبتناه. (٢) في الأصل (اجعل) والصواب ما ثبتناه.

موسى نظر إلى السحرة فقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا﴾ [طه الآيتان: ٦١، ٦٢] يعني السحرة ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٢] وذلك أنّ كلّ واحدٍ منهم قال لصاحبه ليس الرجل ساحرًا ولا كلامه كلام السحرة ولئن غلبنا لنؤمنن به ثم نظروا إلى فرعون وحاله وتجبّره وجموعه فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٣]، ويقال هذا من كلام فرعون ثم قال كبيرهم لموسى: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: الآيتان ٦٥، ٦٦] أنتم أوّلًا، ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء: الآية ٤٤] قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٦] قال بعض أهل الأخبار إنهم حشوا عصيهم وحبالهم بالزّيتون وألقوها في حرّ الشمس فلمّا اشتد عليها الحرّ تحرّك الزّيتون فاضطربت العصيّ والحبال فظنّ أناس أنّها تسعى وتتحرك حركة حية ويقال غير ذلك من حيلتهم وفي الجملة قد كانوا احتالوا لذلك سحرًا قال الله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: الآية ١١٦] والأولى أن يقال خيّلت الشياطين إلى أعين الحاضرين أنّها تسعى ولم يكن كذلك لأنّ الله تعالى سمّى فعلهم سحرًا وخيالًا قال الله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه: الآية ٦٧] وظنّ أنها قد صارت حياة فدخلته خشية البشرية فأوحى الله تعالى إليه أن ألق عصاك وجاء جبرائيل فوقف عن يمين موسى بينه وبين هارون فقال له ألقِ عصاك و﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: الآيتان ٦٨، ٦٩] فقال موسى للسحرة: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: الآيتان ٨١، ٨٢] ثم إنه ألقى عصاه قال الضحّاك فصارت ثعبانًا عظيمًا لم يكن أعظم منه قط يومئذ ففتح فاه فابتلع جميع حبالهم وعصيهم بأسرها قال الله تعالى عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١١٧] ثم حمل على الناس فانكشفوا من بين يديه هاربين والثعبان على أثرهم وركب بعضهم بعضًا حتى هلك منهم سبعون ألفًا ثم أقبل نحو قبّة فرعون ففتح فاه وأراد أن يبلغ فرعون وسريره، ويروى أن فرعون نزل عن سريره وولّى هاربًا فكان أعوج أعرج ولم يعرف الناس بحاله إلا ذلك اليوم فاستغاث فرعون بموسى فجاء موسى وأخذ الثعبان بيده فصار عصًا كما كان، ولم يظهر من الحبال والعصيّ شيء لا قليل ولا كثير فعرفت السحرة إنما صنع موسى لم يكن سحرًا وإلا لم يكن إلا ليفني عصيّهم وحبالهم، وقالوا فيما بينهم أما إنه سحر أعيننا في أمر عصاه كما فعلنا نحن في أمر عصينا فأين ذهبت عصيّنا وحبالنا

فكلّمهم موسى ودعاهم إلى الله تعالى فهداهم وخرّوا لله ساجدين قال الله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١١٨، ١١٩] يعني فرعون وقومه ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٢٠] أي أسرعوا في السجود فمن سرعة سجودهم كانوا ألقوا وقالوا في سجودهم ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢١]، فقال فرعون لهم: إيّاي تعنون بربّ العالمين، قالوا: لا، ولست به ولكنه ربّ العالمين ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٢٢] هو الذي آمنا به فقال: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٣] فتوافقتم على أن تستسلموا لموسى وتروا الناس أنه غلبكم ﴿لِتُخْرِجُوا۟﴾ [الأعراف: الآية ١٢٣] من مصر ﴿أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٢٣] بسحركم وذلك أن موسى هو كبيركم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: الآية ٧١] وكذب عدو الله لأنه علم أن سحرته كانوا قبل مولد موسى يعلمون السحر ثم قال لهم تهددًا ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٤] اليد اليمنى والرّجل اليسرى كما يقطع اللصوص ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: الآية ٧١] ليعتبر بكم الناس فلا يتجاسرون على مخالفتي ومتابعة عدوّي ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: الآية ٧١]، أنا أم موسى وإلهه فأجابوا وقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [طه: الآية ٧٢] والحجج الواضحات على يد موسى على الله الذي فطرنا ولا نختار عبادتك على عبادته وإنه خالقنا وأمّا ما تهدّدنا به ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: الآية ٧٢] فاصنع ما أنت صانع، فإنك لا تقدر على مضرتنا إلا ما دمنا في هذه الحياة الدنيا، فإذا خرجنا من الدنيا لم تقدر علينا ورجعنا إلى ربّنا فإنا ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٥]، ولا ضر علينا مما تفعله بنا وإنا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير ثوابًا لمن يهديه وأبقى عذابًا لمن يعذبه إلا أنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنّا أوّل المؤمنين من هذا الجمع بموسى وربّه ثم دعوا وقالوا ربنا ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [الأعراف: الآية ١٢٦] إن عذّبنا فرعون ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٦] واقبضنا على دين الإسلام.

ثم إن فرعون أمر بالجذوع الطويلة فنصب على شاطىء النيل فأحضروا له السحرة فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبوا على الجذوع وصرف الله بلطفه عن موسى وهارون فلم يتعرض لهما البتة قال ابن عبّاس: كانت السحرة أوّل النهار سحرة كفرة فصاروا آخر النهار شهداء في الجنّة ولما رجع فرعون إلى قصره ورأى ما رأى من أمر موسى خاف أن يؤمن الناس بموسى فشاور قومه في أمره فقالوا له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٧] ويصرفوا الناس عن دينك وعبادتك؟ قال: فما

ترون فيهم؟ قالوا: ينبغي أن ترد عليهم ما كنت تصنع بهم من العذاب وقتل الأبناء واستخدام النساء فأمر بذلك فرعون فذلك قوله تعالى: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٧] فلمّا أمر بذلك رجع بنو إسرائيل إلى موسى وقالوا له قد: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩] يعني في ذلك الوقت فما تصنع فقال لهم موسى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨] على ما يصيبكم واعلموا ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨]، ﴿عَسَىٰ[1] رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩] قالوا أو يكون أبدًا؟ قال: نعم فإن العاقبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨] وقد وعدني الله ذلك وكان ممن قتل فرعون في أمر موسى امرأته وكان سبب ذلك أنه كان لابنة فرعون ماشطة وهي امرأة حبريل الذي ذكرنا قصته من قبل، قال: وكانت يومًا من الأيام تمشط بنت فرعون فسقط المشط من يدها فقالت: تعس من كفر بالله ويقال إنها تناولت المشط وقالت: بسم الله فقالت ابنة فرعون أتعنين أبي، فقالت: لا، قالت: فبمن؟ قالت: بإلٰهي الّذي أعبده فقالت: أو لك إلٰه غير أبي، قالت: نعم، إلٰهك وإلٰهي وإلٰه الخلق كلّهم وإلٰه أبيك وإلٰه السماء والأرض وما بينهما فغضبت ووثبت فانطلقت إلى أبيها وأخبرته بما قالته الماشطة فدعاها فرعون وسألها عن قولها فأقرّت فزجرها فقال: ارجعي عن قولك وإلا فعلت بك فعلة فلم تطعه فأمر بها فرعون فمدّت بين أوتادٍ وبذلك كان يعذّب فرعون من عذّب ثم أمر بالحيّات والعقارب وألقيت عليها وقال لها: هذا دأبُك إلى أن تكفري بإلٰه موسى فقالت: لا أكفر بالله لو عذبتني مائة سنة قال: وكان لها ابنان فأمر فرعون فأتي بهما ثم قال لها: إمّا أن تكفري وإما أن أقتل ابنك الأكبر، فقالت: لا أكفر، فذبح ابنها على وجهها فجزعت فأنطق الله أوداج ابنها حتى قال: يا أمّاه لا تجزعي فقد صرت إلى الجنة ولا تكفري بالله واصبري على عذاب فرعون فإن عذاب الله شديد فقال لها فرعون: إما أن تكفري وإما أن أذبح ابنك الأصغر فقالت: لا أكفر بالله تعالى ولو قتلت الناس أجمعين فأمر بابنها وكان رضيعًا فجزعت فتكلّم الصبيّ وقال: يا أمّاه لا تجزعي فإنّي وأخي وأنت جميعًا في الجنة فانظري فوقك، فنظرت فرأت بابًا من السماء مفتوحًا حتى رأت الجنة ونعيمها ففرحت واستبشرت فذبح ابنها على وجهها ثم قتلت وعرجت الملائكة بأرواحهم إلى الجنة، ويروى أن فرعون قتل لها ثلاثة بنين على وجهها وكانت امرأة فرعون آسية تنظر من منظرةٍ لها إلى ما يصنع فرعون بها وبأولادها، فلمّا دخل عليها فرعون قالت له: يا فرعون ما أقسى قلبك

---

(١) جاء بالأصل (فعسىٰ) والصواب ﴿عَسَىٰ﴾.

وما أجرأك على الله تعالى قال لها فرعون: لعلّ بك من الجنون مثل ما كان بالمشاطة قالت: ليس بي جنون الحمد لله ولكنّك قتلت امرأة مؤمنةً ظلمًا وأنا أيضًا على دينها فدعا فرعون أبويها وقال لهما: إن ابنتكما قد أخذها الجنون الذي كان بالمشاطة فعظاها فقالا لها: يا بنتاه ما لكَ تقولين هذا القول؟ فقالت: لست أقول إلا حقًّا ولم تطعهما فأمر فرعون حتّى مدّت بين الأوتاد فذلك قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾ [الفجر: الآية ١٠] فدعت ربها ﴿قَالَتْ[١] رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: الآية ١١] فاستجاب الله تعالى لها دعاءها وفتح لها بابًا من السماء حتى نظرت إلى الجنّة فغضب فرعون فأمر حتى ضرب على إحدى عينيها وتدًا من حديد ففعل ولم تجزع ففعل بعينها الأخرى مثل ذلك وقبضها الله إلى رحمته ولما كان من أمر السحرة ما كان أمر الله تعالى موسى وهارون أن ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: الآية ٨٧] يعني مساجدًا ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: الآية ٨٧] أي مستقبلة إلى القبلة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: الآية ٨٧] بأنّا سوف ننجيهم من فرعون وقومه وأن موسى دعا وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: الآية ٨٨] الآية، فقال الله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: الآية ٨٩] بينها وبين هلاك فرعون سنة، ويقال سبع سنين، ثم إن فرعون اشتغل بمكايدة موسى فأوّل ما كايده به عمل الصرح فقال لهامان ابنِ ﴿لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: الآية ٣٨] فأمر بطبخ الآجر لبناء الصرح، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ [القصص: الآية ٣٨] فجمع هامان العمّال حتى اجتمع له خمسون ألف عامل ممن يبني وجعل على كلّ عاملٍ قومًا للبناء وطبخ الآجر وعمل الحديد والخشب وبنوا الصرح حتى بلغ من الارتفاع مبلغًا لم يبلغه أحد فكان إذا طلعت الشمس وقع ظلّ الصّرح ميلًا على الأرض فزعم فرعون أنه يبني ذلك ليصعده وينظر إلى إله موسى، فلمّا كان ذات يوم والناس يعملون في الصرح قوم منهم في أعلاه وقوم في وسطه وقوم في أسفله وقومٌ حوله فأتى الله بنيانه من القواعد فأمر الله تعالى جبرائيل حتى جاء فتزلزل الصرح من قواعده حتى انهدم على من فيه وعلى من حوله فهلكوا ولم يبق ممن فيه إلا هلك فلم يعتبر بذلك فرعون وأبى وكفر، ثم إن موسى دعا عليهم فأرسل الله تعالى عليهم الآيات المذكورات، فأوّل ما أرسل عليهم القحط والجدوبة ثلاث سنين ويقال سبع سنين وحبس عنهم المطر حتى مات الكثير

---

(١) في الأصل (فقالت) والصواب ﴿قَالَتِ﴾ أي ما ثبتناه.

منهم وهلكت مواشيهم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٠] فلم يتعظوا فأرسل الله عليهم بعد ذلك الطوفان، فقال قوم من أهل الأخبار إنّ الطوفان هو المطر الشديد فمطروا أربعين ليلةٍ ويقال عشرة أيام ويقال سبعة أيام لم يرَ مثله حتى هدمت البيوت وغرقت القرى، وكثير من الأنعام والناس فاستغاث الناس إلى فرعون فأرسل فرعون إلى موسى فقال: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٤] فدعا موسى بعد ما عاهدهم على ما قالوا فكشف الله عنهم المطر وظهرت لهم الشمس فخرج من النبات والكلام لم يروا مثله فقالوا: لقد كان هذا خيرًا لنا فلا نعلمه فنقضوا العهد ولم يؤمنوا وقال آخرون: بل كان الطّوفان هو الموت الذريع من الطّاعون، فوقع فيهم حتى مات في ليلةٍ واحدة من الأكابر من قوم فرعون ثمانون ألفًا فاستغاثوا بفرعون واستغاث فرعون بموسى فدعا موسى بعدما عاهدهم فلمّا كشف الله عنهم الرجز لم يؤمنوا ونقضوا العهد، قال الله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٥][1] ثم أرسل الله تعالى عليهم بعد ذلك الجراد فجاء منها مثل الغمام الأسود فوقعت على حروثهم فأكلت جميع ما كان منها حتى قصباتها وأكلت الثمار وأغصان الشجر ثم وقعت على الأبنية فجعلت تأكل الخشب في البيوت فاستغاثوا بفرعون واستغاث فرعون بموسى وعاهده كما عاهدوه أوّل مرة، فدعا موسى ويقال أمر الله تعالى أن يشير بعصاه إلى الجراد ففعل فطارت بأسرها حتى لم يبق منها واحدة ويقال أرسل الله تعالى عليها ريحًا حتى احتملت الجراد وألقتها في البحر فنقضوا أيضًا وقالوا: قد بقي لنا ما يكفينا سنتنا هذه ولا نؤمن بك قط، فأرسل الله تعالى عليهم القمّل[2] قال قوم القمّل الجراد التي لا أجنحة لها، وقيل: هي البراغيث، ويقال: هي التي تسمى بالفارسية سيروبه وقيل هي التي تظهر في الحنطة عند طول المدّة فتأكلها ويقال بالفارسية شبشة وهي القمل التي تكون في الثياب فاستغاثوا إلى فرعون واستغاث فرعون إلى موسى، فدعا موسى إلى الله تعالى حتى أرسل الله تعالى ريحًا حارة فأحرقت القمل فلم يؤمنوا، فأرسل الله تعالى عليهم الضفادع ويقال: أوحى الله تعالى إلى موسى حتى جاء إلى النيل فضربه بعصاه فخرجت منها ضفادع لا عدد لها تركب بعضها بعضًا ودخلت دورهم وبيوتهم حتى دخلت فرشهم فكانوا يطؤونها إذا مشت ويضطجعون

---

(١) وتمام الآية ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾، وفي سورة حم والكتاب البين، الآية: ٥٠ هذا نصها ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

(٢) القمل: الحمنان يشبه صغار الحَلَم، وقيل دودة تقع في جلدة الشاة، البخاري ـ صحيح البخاري ٢/ ٣٥٠.

عليها إذا ناموا ويجلسون عليها إذا قعدوا حتى كانت تقع في أوانيهم وقدورهم فاستغاثوا بفرعون وفرعون قال لموسى مثل هذه المرّات فدعا موسى ويقال: أشار بعصاه فرجعت جميعًا إلى النيل فلم يؤمنوا، فسلّط الله تعالى عليهم الدم وقال بعضهم: هو الرعاف سلّطه الله عليهم حتى هلك منهم في ليلةٍ واحدة خلقٌ كثير، وقال أكثر أهل الأخبار لا بل صيّر الله تعالى أنهارهم وحياضهم وقللهم كلّها دمًا غليظًا فلم يقدروا على تحصيل ماءٍ صافٍ يشربونه حتى بلغ منهم الجهد والعطش، وكانت بنو إسرائيل تغترف من الأنهار والآبار ماءً صافيًا فكان القبطي يقول للإسرائيلي استقِ فيستقي له ماءً فما دامت الجرّة في يد الإسرائيلي كان ماؤها عذبًا، فإذا دفعها إلى القبطي صارت دمًا فاتخذوا كيزان ذات رأسين فيستقي فيه إسرائيلي ثم يشرب من أحد رأسيه ماء ويشرب القبطيّ من رأسه الآخر فيخرج للإسرائيلي ماء عذب وللقبطي دمٌ حتى كانت القبطية تقول للإسرائيليّة خذي الماء في فيك ومجّيه في فمي فقد هلكت عطشًا، فما دام الماء في فم الإسرائيلية كان ماءً عذبًا صافيًا فإذا مجّته في فم القبطيّة صار دمًا فاستغاثوا بفرعون وفرعون بموسى فدعا الله تعالى فأوحى الله تعالى إلى موسى ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: الآية ٦٣]، فضرب البحر فعاد ماؤهُ دمًا ومياه الأنهار كلّها عذبة صافية فلم يؤمنوا ولم يوفوا بالعهد فدعا موسى عليهم بالطمس وقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: الآية ٨٨] فطمس الله تعالى كل ما كان لهم من مالٍ عين وورقٍ وثيابٍ وحبوبٍ وأوانٍ، وروي أن المسلمين وجدوا حين فتحوا مصر في خرابات مدينة فرعون كل شيء كان من الدراهم والدنانير والحبوب والثمار مطموسًا حجارة فلم يؤمنوا بقول الله عزَّ وجلّ ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ إلى قوله: ﴿يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥]، وقال الله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٣][1] قال بعض المفسرين: كانت كل آيةٍ أربعين يومًا وما بين الآية إلى الآية أربعون يومًا، وقيل مدة كلّ آيةٍ عشرة أيّام وما بين الآيتين عشرة أيام وقيل مدة الآيات سبعة أيام وما بينهما سبعةٌ والله أعلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: الآية ١٠١][2] قال قوم هي الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم واليد البيضاء والعصا والتاسعة فلق البحر وقال آخرون: بل التاسعة السنون التي أخذوا بها، ولما رأوا الآيات ولم يؤمنوا أذن الله تعالى في هلاكهم فأمر الله تعالى موسى أن يسير ببني إسرائيل إلى

---

(١) تمام الآية: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

(٢) تمام الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾.

أرض الشام قال الله تعالى إلى موسى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٥٢] فواعد موسى بني إسرائيل ليلةً من الليالي أن يخرج بهم فيها قال الراوي وأمر بني إسرائيل أن يستعيروا من القبط ثيابهم وزينتهم على علّة أن لهم عيدًا يخرجون إليه، وقال موسى لفرعون: إن لنا عيدًا نريد الخروج إليه، فأمر قومك ليعيرونا حُليّهم وحللهم وزينتهم فقذف الله تعالى في قلوبهم أنهم إن لم يفعلوا فربّما احتاجوا إلى موسى في شيء من الأشياء كما احتاجوا في الآيات التسع فلا يقضي حاجتهم فلم يمنع أحدٌ منهم ما عندهم من الزينة إلّا دفعها إليهم فلمّا خرج موسى في الليلة الموعودة وكان موسى وقّت لهم طلوع القمر عند نصف الليل، فلما أراد الرّحيل أوحى الله تعالى إليه أن احمل معك عظام يوسف ولا تخلفها هٰهنا ويقال إنه لما احتمل بقومه ضلَّ عن الطريق فجاءه جبرائيل عليه السلام وقال: إنما أصابك هذا لأنّك خلّفت عظام يوسف فطلب موسى من يدلّه على قبر يوسف فلم يجد أحدًا يعرف ذلك إلا عجوزةً مسنّة فقالت: أخبرك على شريطة أن أكون معك في الجنّة وقيل على شريطة أن أكون زوجتك فضمن لها موسى ذلك، فأتت به النيل ودلّته على مكانٍ فيه تابوت يوسف حتى استخرجه من موضعه وحمله معه فلمّا أصبح فرعون رأى معسكر بني إسرائيل خاليًا ليس فيه أحدٌ فنادى في الناس وجمعهم فقال: إنّ بني إسرائيل خرجوا مغايظين لنا فاجتمعوا لنخرج في طلبهم فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٥٤ - ٥٦] فلما اجتمعوا وحشر الناس كما قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٥٣] يحشرون له جنوده وأراد الخروج بهم في الليلة الثانية من خروج موسى فسلّط الله تعالى الموت على أبكار القبط حتى لم يبق دار من دورهم إلا مات فيها بكر من أبكارهم فاشتغلوا يومهم الثاني بذلك حتى دفنوهم وخرجوا في اليوم الثالث في جمعٍ لم ير أحد مثله ومن كثرة جموعه قال إن هؤلاء يعني بني إسرائيل لشرذمة قليلون قالَ أصحاب الأخبار كان مع موسى ألف ألفٍ ومائتا ألفٍ ونيّف من بني إسرائيل والرجال البالغون منهم ستمائة ألف وزيادة وقالوا خرج فرعون في طلب موسى وفي مقدّمه ستمائة ألف فارس وكذلك في ميمنته وكذلك في ميسرته وكذلك في ساقيه وفرعون في قلب العسكر مع عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى وعن محمد بن كعب القرضي قال: كان في عسكر فرعون سبعون ألف حصان من دهم الخيل سوى ما فيها من أنواع سائر الخيل ومشاتها وخرج حتى لحق بعسكر موسى وكان موسى قد بلغ البحر وهو بحر القُلْزُم ونزل يريد في عبوره فبينما هم هنالك إذ طلع عليهم فرعون بجنوده قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: الآية ٩٠] قال المفسرون فتدانوا حتى تشام الخيل

وتشاتم الرجال ونظر العسكران بعضهم إلى بعض فقالت بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: الآيتان ٦١، ٦٢] فأرسل عليهم الضباب حتى نزل بين العسكرين فحال بينهما فلم ير بعضهم بعضًا فنزل فرعون وقال لقومه: انزلوا حتى يتعالى النهار ويرتفع الضباب فإنّه لا مخلص لهم البحر أمامهم ونحن من خلفهم وجعلت بنو إسرائيل تقول لموسى لم تتركنا في مصر حتى نعيش فيها ونخدم فرعون فالآن إن اقتحمنا البحر غرقنا وإن رجعنا خلفنا أو أقمنا يقتلنا فرعون وجعل يشاور بعضهم بعضًا ويقول: أما موسى فإنه نبيّ الله تعالى وهو منجّيه، وأما نحن فنخاف أن الله يريد أن يعذّبنا بذنوبنا فنهلك، فلما رأى موسى حال قومه وما داخلهم من الفزع دعا الله أن يسخّر له البحر ثم قال للبحر اسخر لي فقال البحر: إنّي لا أؤمر في بابك بشيءٍ فأتى موسى خازن البحر فسأله هل أوحى الله تعالى في أمرنا فقال: إن الله تعالى أمر البحر أن ينفلق لك إذا ضربته بالعصا، وفي بعض الروايات أن موسى قال لهم: ادخلوا البحر كما هو فإن الله تعالى يحفظكم ويسلّمكم فأبوا ولم يجسروا على ذلك إلا رجلان منهم وهما يوشع بن نون وكالوب بن يوفنا فإنهما دخلا البحر وخاضاه إلى الجانب الآخر ورجعا ولم يضرهما الماء فحينئذٍ سأل موسى ربّه أن ينفلق له البحر، فأوحى الله تعالى إلى موسى ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: الآية ٦٣] فضربه فلم ينفلق فقيل لموسى كنّه، فقال له موسى: انفلق لي يا أبا خالدٍ فانفلق فرقة فرقة ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: الآية ٦٣] وظهر فيه طرق يابسة فقال الله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: الآية ٧٧] قال موسى لقومه: هلموا فمرّوا فقالوا: ليس هٰهنا طريق إلا طريق واحد وهو لا يسع لسلوكنا فيه فضرب موسى البحر بعصاه ودعا ربّه فظهر في البحر اثنا عشر طريقًا لكلّ سبط طريق فأمرهم بالمرور فقالوا له: يا موسى إن غرق بعضنا لم يرهم الآخرون فدعا موسى ربّه فصيّر في البحر أبوابًا وسط الماء ينظر بعضهم إلى بعض وأمرهم بدخوله فقالوا: يا موسى إن أسفل البحر طين ووحل شديد لا يمكن لدوابنا المرور فيه فدعا موسى ربّه فأرسل الله الريح حتى أيبست الطين وأمر موسى قومه بالدخول فدخلوا ومرّوا وجاوزوا البحر سالمين قال الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨] فلمّا جاوزنا أراد موسى أن يأمر البحر فيلتئم ماؤه لئلا يمكن فرعون العبور خلفه فأوحى الله تعالى إليه أن اترك البحر على حاله قال الله تعالى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان: الآية ٢٤] أي ساكنًا ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدّخان: الآية ٢٤] كما هو واسعًا مفتوحًا ليدخله فرعون فإنّي أريد أن أغرقه فيه فمرّ موسى بقومه وارتفع الضّباب حتى تعالى النهار فنظر فرعون وجنوده فلم يروا أحدًا فتعجبوا فأقبل فرعون على فرسٍ له وهو حصان أدهم حتى وقف

على ساحل البحر فنظر فرأى أمرًا عجيبًا فأراد أن يلبس على سفهاء قومه فقال: ألا ترون إلى هذا البحر كيف أطاعني وصار هكذا لهيبتي وأنا ربّكم الأعلى فسار هامان إليه، وقال: قد تعلم أنّ هذا كما تراه بدعاء موسى فلا تدخلنّه فتهلك فهمّ فرعون أن ينصرف فكبح لجام فرسه فبعث الله تعالى جبرائيل حتى اعترض له على رمكةٍ وديقةٍ تشتهي الفحل فقدّمها بين يدي حصان فرعون فشمّها الحصان وركض جبرائيل الرمكة فاتبعها الحصان فلم يقدر فرعون أن يثني عنانه واقتحم جبرائيل البحر فاقتحم خلفه حصان فرعون وظن فرعون وقومه أن جبرائيل رجل من الجند فنادوا يا صاحب الرّمكة أرسل حتى تلحقك الخيل واقتحم العسكر خلف فرعون وجاء ميكائيل على فرس آخر خلف العسكر وهو يقول: ألحقوا الملك وجعل يحثّهم على الدخول حتى توافوا بأجمعهم في البحر وجبرائيل أمام فرعون ليس أمامه أحد وميكائيل وراء العسكر ليس خلفه أحد من الجانب الآخر، فانصرف جبرائيل إلى فرعون وأخرج كتابًا كان فرعون كتبه، وذلك أن جبرائيل كان دخل على فرعون قبل هذا في هيئة إنسان وقال له كالمتظلّم ما تقول أيّها الملك في رجل له عبيد كثير فاختار بعض عبيده وسوّده على الآخرين وأعطاه المال وقال: أنفق على عبيد واحملهم على طاعتي وخدمتي فلمّا امتدّت المدّة عتا العبد على سيّده وادعى أن المال له والعبيد عبيده وأنكر على سيّده فقال فرعون: بئس العبد هذا، قال: فما جزاؤه على صنيعه قال: جزاؤه أن يغرق في البحر ليعتبر به سائر الناس فلا يعصون ساداتهم فقال جبرائيل أحبّ أن يكون لي على هذا كتابٌ من الملك فأمر فرعون فكتب له كتابًا ويقال: كتب له بيده على ما قاله فأخذ جبرائيل الكتاب وخرج ولم يدر فرعون كيفية الأمر فلمّا كان يوم البحر أخرج جبرائيل خطّ يد فرعون وناوله وقال: انظر في هذا الكتاب، فلمّا نظر فرعون عرف خطّه وأنه هو المراد بما قيل له فأخذ خطّه وأيقن بالهلاك فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: الآية ٩٠] وأدخل جبرائيل جناحه تحت البحر وأخذ من حصيات البحر وحمأته وجعل يدسّه في فيه وروي أنّ جبرائيل عليه السلام قال للنبيّ ﷺ يا محمّد لو رأيتني وأنا أدسّ الطّين في في فرعون مخافة أن يتمّ هذه الكلمة فيغفر الله تعالى لعجبت من ذلك قال: وناداه ميكائيل ويقال جبرائيل ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: الآية ٩١] وأمر الله تعالى البحر أن ينطبق على جنده بمائه فأغرقهم جميعًا قال الله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٦٥، ٦٦] وقيل لفرعون ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: الآية ٩٢] قيل معناه ننجيك وحدك أي نلقيك ونطرحك إلى السّاحل لتكون لمن خلفك آيةً أي عبرةً يعتبر بك فلمّا أطبق

عليهم البحر سمع موسى وبني إسرائيل اصطفاق الماء فقالوا: ما هذا؟ قال موسى: هذا صوت الماء وقد أغرق الله تعالى فرعون ومن معه قالوا: ومتى يهلك فرعون ولم يلحقه مكروه قطّ منذ أربعمائة سنةٍ فقال لهم: ارجعوا بنا حتى أريكموه فجاء بهم إلى السّاحل وضرب البحر بعصاه، فأمر الله تعالى الماء أن يلفظ موتاهم حتى يروهم فمن ثم ذلك لا يقبل الماء الميتة وكان فرعون فيمن لفظه البحر فنظر إليه بنو إسرائيل وهو أشعر مثل الثور الأحمر أزرق أقرع وكان به برصٌ فيما يقال وكان أعرج ذميمًا قصيرًا على عصعصه شعرات طوال مثل الذّنب فتعجب الناس من خزيه ومع ذلك يدعي الرّبوبيّة وإن موسى لما جاوز البحر وصل إلى قريةٍ من قرى الناحية وفيها قوم يعبدون العجل فقال أغمار قومه ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٨، ١٣٩] هالكٌ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٣٩] ثمّ ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٠] أي أطلب لكم إلـهًا وهو الذي ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٠]، واختلف الناس في أمر موسى وقصته فقال بعضهم: لما أغرق الله تعالى فرعون رجع نبي إسرائيل إلى مصر وسكنها مدة إلى أن أمر الله تعالى بالخروج إلى الشام والأرض المقدّسة وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم[1] مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: الآيات ٥٧ ـ ٥٩] وقال آخرون بل مضى موسى على وجهه نحو الشام وصرف عسكرًا من بني إسرائيل إلى مصر حتّى ضبطوها له والله أعلم.

باب في ذكر شأن التّيه وقصّته[2]

وإن موسى لما توجّه نحو الأرض المقدسة كما ذكره الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [المائدة: الآية ٢٠]، ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: الآية ٢١] وذلك أنهم كرهوا الخروج لوجوهٍ أحدها لأنهم كانوا ولدوا بمصر واعتادوا المقام بها فكرهوا مفارقة ناحيتهم ولأنهم علموا أن النعمة والمال بمصرٍ أكثر منه في الشام ولأنهم كانوا يحتاجون في دخولهم الشام إلى قتالِ العدوّ ولما قال لهم موسى ذلك قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٢] يعنون العمالقة الّذين كانوا سكّانها ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: الآية ٢٢] وكانوا في مفازة التيه وهي بين مصر والشام ويقال إنها

---

(١) جاء في الأصل (وأخرجناهم) والصواب ما ثبتناه.

(٢) انظر شأن التيه في ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٣٧٥.

ثمانية عشر فرسخًا فقال الله تعالى لموسى قل لبني إسرائيل حتى يختاروا من كلّ سبطٍ منهم رجلًا فاجتمعوا إلى موسى فأخذ عليهم الميثاق أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئًا وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتقولوا للناس حسنًا وتؤمنوا برسله وتعزّروهم وتقرضوا الله قرضًا حسنًا ولا تسفكوا دماءهم ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم ولا يتركوا أسراهم في أيدي أعدائهم بل يفادونهم وإنّهم إذا فعلوا ذلك ليكفّرن عنهم سيّئاتهم ويدخلهم الجنّة ومن كفر بعد ذلك كان ضالًّا مستوجبًا للعقوبة فقبلوا الميثاق فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ[1] أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: الآية ٨٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: الآية ١٢] الآية، ولما فعلوا ذلك أمرهم الله تعالى بدخول الأرض المقدسة فلمّا أبوا أمر الله عزّ وجل موسى أن يبعث بالنّقباء الاثني عشر إلى الشام لينظروا إليها وإلى أهلها ويرجعوا إلى بني إسرائيل بخبرها وبخبرهم فبعثهم موسى ومكث مكانه وجعل رأس النقباء يوشع بن نون وكالوب بن يوفنا وأمرهم أن يأتوهم بخبر الأرض وثمارها وطعامها وبخبر سكّانها وكثرتهم وشوكتهم وكان ملك العمالقة رجل يقال له قابوس وكان فيهم أعوج بن عنق وكان طول أعوج بحيث يكون السحاب على حنجرته وسنذكر قصته من بعد وطول قابوس ملكهم مائة وخمسون ذراعًا، فلما بلغ قابوس خبر موسى وبني إسرائيل خافهم فقال له أعوج بن عنق ويقال: عوج بن عنق لا تخف أيّها الملك، فأنا أكفيكم فلمّا دخل وفد بني إسرائيل ناحيتهم استقبلهم أعوج بن عنق فقبض عليهم جميعًا وجعلهم في كمّه حتى أدخلهم على الملك فصبّهم بين يدي الملك وقال: أيّها الملك ما قولك في أمر هؤلاء الضعفة أليس هذه أجسامهم؟ فابعث من يحرز لك عسكر موسى وعليّ إهلاكهم وروي أن بعضهم قال إن هؤلاء صغار الأجسام إلا أنهم أصحاب مكرٍ وحيلةٍ قال: ثم إن الملك أمرهم حتى يعلفوا فرسًا له فجعلوا ينقلون التبن ويلقونه في معلفه فكلّما فرغوا من إلقائهم إليه أخذه بمرّةٍ واحدة فعجزوا في أمره فقال رجلٌ منهم من سبيلنا أن نبول على هذا التبن حتى يعلفه الفرس فيمتنع عن الأكل فنقول قد أشبعناه ففعلوا ذلك، فلمّا امتنع الفرس عجب القوم من سرعة ترك العلف فنظروا فعلموا ما فعلوه فقالوا: هكذا سائر حيلهم فخافوهم قال: وضلّوا عن يوشع وأصحابه حتى رجعوا فدخلوا واديًا من أوديتهم وقطعوا عنقودًا من عنب فحملوه بين رجلين يسحبانه في الأرض وحملوا رمانة فلم ينقلها الأقوام فرجعوا إلى موسى بعد أربعين يومًا فأخبروه الخبر وقصّوا

---

(١) في الأصل (ولقد) والصواب ﴿وَإِذْ﴾.

عليه القصّة، وأخبروه بحال الأرض، فقالوا: أرضًا تفيض لبنًا وعسلًا وهذه ثمارها وسكت يوشع وكالوب فلما وصف من كان معهما حال العمالقة خافهم بنو إسرائيل وقالوا: إنا لن ندخلها فقال يوشع وكالوب: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٣] بوعده فإن ربّنا قد وعدنا أن يورثنا تلك الأرض فإن الله تعالى لا يخلف وعده فقالوا يا موسى، ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ [المائدة: الآية ٢٤] يعني العمالقة ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: الآية ٢٤]، قال موسى عند ذلك ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٥] فقال الله تعالى، فإنها يعني مفازة التيه ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: الآية ٢٦] أي لا يقدرون على الخروج منها ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٦] فكانوا يرتحلون بالغداة ويسيرون نهارهم كله إلى الليل فإذا نزلوا رأوا أنفسهم في الموضع الذي ارتحلوا عنه فبقوا فيها حتى شب الولد ومات أكثرهم.

وكان في التّيه عجائب فمنها(١)

أنهم لما تحيّروا فيها احتاجوا إلى الطعام والشراب فسألوا موسى فدعا الله تعالى فأطعمهم ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ [طه: الآية ٨٠](٢) فالمنّ الترنجبين والسّلوى طائر شبه السّماني فكان المنّ يقع على شجرهم بالليل فإذا أصبحوا اجتنوا منه ما شاؤوا ويخبزون منه شبه الأقراص ويقال: لا بل كان المنّ أبيض يقع عليهم بالليل مثل الثلج فيأخذون منه بأيديهم فيخبزون ويأكلون أحلى من العسل وألين من الزبد وكان السلوى يأتي ويقع في محلّة العسكر فيأخذون منه بأيديهم من غير معاناة فيشوون ويقال: بل كانت المنّ والسلوى ينزلان عليهم من السماء فينزل بعددهم لكل إنسان منهم طائر مشويّ بين قرصين من المنّ فيكون قوت يومه فهذا طعامهم وأما الماء فاستسقوا موسى فاستسقى ربه لهم فقال له ربّه: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ [البقرة: الآية ٦٠] فضرب ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾ [البقرة: الآية ٦٠](٣) قال بعض الناس كان ذلك الحجر أتى به جبرائيل من الجنّة وقيل: بل كان ظهر لموسى يوم انفلاق البحر فأمره جبرائيل أن يحمله

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٣٧٧.

(٢) الآية التي نزلت بشأن طعامهم هذا نصها: قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾.

(٣) في الأصل (من الحجر) والصواب ما ثبتناه وورد أيضًا (اثني عشر) والصواب ﴿ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ﴾.

مع نفسه ويقال: بل كان يضرب أيّ حجرٍ شاء فينفجر له وقيل كان مثل قبضة الرّجل وقيل مثل رأس إنسان وقيل كان من الكبر بحيث يحمل على البعير وكانت عليه اثنا عشر ثديًا مثل ثدي المرأة فإذا ضربه موسى بعصاه انفجرت من كلّ موضعٍ عين من ماء عذب فيسيل منه اثنا عشر نهرًا من الماء يجري كل عين منها في عسكر من عساكر بني إسرائيل فكانوا اثني عشر عسكرًا لكلّ سبطٍ عسكر على حدة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٠] وأمّا الثّياب فكان الولد يولد وعليه ثيابه، فكلّما شبّ كان الثوب يزداد على قدر قامته لا يحتاج إلى ثوب آخر، وكانت لا تبلى ثيابهم وأرسل الله تعالى عليهم الغمام الأبيض يظلّهم بالنهار من حر الشمس وبالليل من الريح والبرد وكان يتدلّى عليهم عمود من نورٍ من السماء يضيء لهم وكان الله تعالى نهاهم أن يحملوا من طعام اليوم إلى غدٍ وأن من فعله يتسوّس ويتدوّد فكانوا يرفعون من يومهم لغدهم فثخن طعامهم وظهر فيه الدود فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النّحل: الآية ١١٨].

وكان في التّيه من العجائب أمر أعوج بن عنق

وذلك أنه قال لقابوس الملك ابعث من يحرز لك عسكر موسى وأنا أكفيكم فبعث قابوس من يحرز عسكر موسى فكان فرسخًا في فرسخ فذهب أعوج فقطع جبلًا مقدار فرسخٍ وحمله وانطلق ليطرحه على عسكر موسى فلمّا وصل إليهم بعث الله تعالى هدهدًا حتى حمل من موضع حجر الألماس حجرًا فجاء به فنقر به الجبل حتى اخترق فوقع في عنق أعوج بن العنق مثل الطوق فبقي قائمًا لا يقدر أن يلتفت يمينًا وشمالًا فأوحى الله تعالى إلى موسى دونك عدوّك فخرج موسى ومعه عصاه وكان موسى طوله عشرة أذرع فلمّا أتاه وثب من الأرض عشرة أذرع وكان طول عصاه عشرة أذرع فضربه بعصاه فأصاب كعبه فخرّ أعوج من ضربته ميّتًا وروي أنه استعرض في سقطته بحرًا فصار عليه جسرًا.

وكان من العجائب في التيه من أمر بلعم بن باعورا

ويقال إنّ بلعم كان من ناحية أهل بلقاء[1] من الشام ينزل قرية من قراها وكان عالمًا متعبّدًا وكان يعرف اسم الله الأعظم وأنه كان إذا نظر فوق رأسه رأى ما بينه وبين ساق

---

(١) بلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتها عَمّان وفيها قرىً كثيرة ومزارع واسعة، وبجودة حنطتها يضرب المثل، ومن البلقاء قرية الجبارين التي أراد الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٢]، وذكر بعض أهل السير أنها سميت ببلقاء بن سويد من بني عسل بن لوط، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ١/ ٤٨٩.

العرش وإذا نظر أسفل منه رأى ما بينه وما تحت الثرى، وإن موسى لما نزل الموضع الذي بقي فيه من التيه خافه أهل بلقاء فكان عليهم ملك يقال له: بالقيّ فبعث إلى بلعم وقال له: إنّ موسى قد قصدنا وقد خفناه وقومه، وإنا إن هلكنا لم يكن لك بعدنا بقاء فإنك رجل منّا وأنت مستجاب الدّعوة فادع ربّك ليمنعهم عنّا ويكفّ عنا شرهم، فقال بلعم: إن هذا الرّجل نبيّ الله تعالى ومعه المؤمنون فكيف أدعو عليه فعاودوه مرارًا حتى آيسوا منه فكانت له امرأة جميلة يحبّها ويطبّها فدسّوا إليها بالهدايا، ثم سألوها أن تتكلّم مع بلعم في ذلك الأمر، فقالت لبلعم: إن لهؤلاء القوم حرمة وجوارًا، وقد نزل بهم ما ترى فيجب أن لا تتخذ لهم مع ما كانوا إلينا محسنين فيجب أن تكافئهم فأبى، فما زالت تراجعه حتى أطاعها فركب حماره متوجهًا إلى الجبل الذي يطلع على عسكر بني إسرائيل فلمّا سار قليلًا حرن حماره ولم يتمش فضربه فلم يتمش ثم أنطقه الله تعالى فقال لبلعم: إني مأمور فلا تظلمني؟ قال: ومن يأمرك؟ قال: الملائكة تضرب وجهي فرجع بلعم وأخبر امرأته ثم إن القوم عاودوا امرأته وعاودته فركب حماره وذهب فلمّا انتهى إلى شعب انضمّ الشعب عليه فلم يجد مسلكًا فرجع وأخبر امرأته ثم إنّ القوم عاودوا امرأته وعاودته فركب حماره ولم يمنعه مانع فخرج ماشيًا حتى أشرف على الجبل فنظر إلى بني إسرائيل وجعل يدعو عليهم وقال بعض الرواة: إنه دعا الله تعالى أن يصرف بني إسرائيل عن قومه فاستجاب الله تعالى دعاءه، فلما همّ موسى بالدّخول منع فسأل ربه عن ذلك فقال له: إنّ عبدًا من عبادي دعا أن أصرفك وقومك عنهم فقال موسى: وأنا عبدك ورسولك فاستجب دعائي فيه كما استجبت دعاءه فينا، فقال الله تعالى: فعلت، فقال موسى يا ربّ انزع عنه أفضل ما أعطيته فاستجاب الله تعالى دعاءه فنزع عن بلعم المعرفة ويقال كان بلعم أول من أنكر في الصّانع والله أعلم، وفي رواية أخرى أن بلعم لما أراد الدعاء على موسى حرّف الله تعالى لسانه فكلّما أراد الدعاء على موسى ردّ الله تعالى لسانه بالدّعاء على قومه وكلّما أراد الدعاء بالخير لقومه صرف الله تعالى لسانه إلى بني إسرائيل فسأل الخير لهم وكان معه قومه فقالوا له يا بلعم فإنك تسأل الخير لهم والسوء لنا، فقال هذا الشيء لا أملكه فاندلع لسانه من رأسه فلم يستطع الدّعاء ويقال جاءته صاعقة فذهبت ببصره فقال عند ذلك إني لا أملك الدعاء ولكنّي سأحتال لكم حيلة قال قومه: وما هي؟ قال: انظروا لنا نساء لهن جمال فابعثوهن مع السلع إلى بني إسرائيل وقولوا لهنّ أن لا يمتنعن عن رجلٍ أرادهنّ فإنّه إن دنا منهن رجل واحدٌ كفيتموهم ففعلوا فلمّا دخل النساء عسكر موسى مرّت امرأة منهن على رجلٍ من بني إسرائيل فأعجبته فقام الرجل وأخذ بيدها ودخل بها قبّة فوقع عليها فأرسل الله تعالى الطّاعون على بني إسرائيل وكان فنحاص بن عيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان رجلًا ذا بسطةٍ من الخلق وذا

بطشٍ قويّ وكان غائبًا فلمّا رجع ورأى الطاعون سأل عن سببه فأخبر بصنيع الرجل فأخذ حربته ودخل على الرّجل وهو مضطجعٌ مع المرأة فانتظمهما بحربته وخرج بهما رافعًا إلى السماء وقال: اللّهم إنا هكذا نفعل بمن عصاك فرفع الله تعالى عنهم الطّاعون وكان قد هلك في ساعة واحدةٍ منهم سبعون ألفًا ثم إنّ بلعم بعدما سلّط الله تعالى بني إسرائيل على ذلك القوم أخذ أسيرًا وقتل وفيه أنزل الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥].

وكان في التّيه من العجائب أمر البقرة(١)

وقد ذكر الله تعالى في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: الآية ٦٧] وذلك أنّه كان في بني إسرائيل رجل يقال له عاميل ذا مالٍ كثير وكانت له ابنة فخطب ابنته ابن أخ له فأبى عليه لفقره فحلف الرّجل لأقتلنّ عمّي ولآخذن ماله ولأنكحنّ ابنته فجاء يومًا إلى عمّه وقال: يا عمّ لقد نزل تجّار في سبط كذا وأنا أريد أن أشتري منهم فاخرج معي إليهم فإنهم إذ رأوك باعوني وساهلوني فخرج معه عمّه فلمّا خرجا إلى الصحراء خاليين وثب الفتى على عمّه وقتله ثم ذهب به فألقاه في محلّة سبطٍ من أسباط بني إسرائيل فلمّا أصبحوا وجدوا القتيل فانتشر الخبر فجاء الفتى صارخًا باكيًا إلى موسى وقال: يا موسى قتل عمّي واعمّاه واجتمع بنو إسرائيل إلى موسى وسألوه أن يسأل ربّه ليظهر لهم قاتل عاميل فدعا موسى فأمر الله تعالى أن يقول ليذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها فيحيى، فقال لهم موسى ذلك فتعجبوا و﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا﴾ [البقرة: الآية ٦٧] متى يكون حتى القتيل يحيى بلحم البقر فقال موسى ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: الآية ٦٧] أفأقول في حكم الله ما يكون هزوًا فقالوا ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٨] فأين بقرة يحيى بلحمها القتيل لعجيبة فدعا موسى فقال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ(٢) وَلَا بِكْرٌ(٣) عَوَانٌۢ(٤) بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: الآية ٦٨] فقالوا: قد عرفنا سنّها ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ [البقرة: الآية ٧٠] أي ما حالها وأمرها قال موسى إنه يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١] لم يزرع بها ولا يسقى عليها ليست بالسواني وهي ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ [البقرة: الآية ٧١] من العيوب كلّها ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٧١] أي لا لون فيها سوى لون

(١) قصة البقرة تجد تفسيرها في سورة البقرة ـ القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ١/١٣٩ وما بعدها.

(٢) فارض: كبيرة. (٣) بكر: صغيرة.

(٤) عوان: النصف بين البكر والهرمة. البخاري ـ صحيح البخاري ٢/٣٥٣ باب ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾.

منظم جسدها ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: الآية ٧١] بتمام الصفة قال ابن عبّاسٍ لو أخذوا أوّل ما أمروا بقرةً من عرض البقر ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ [البقرة: الآية ٧١] لأجزتهم ولكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم فلما وقفوا على وصف البقرة طلبوها فلم يجدوها على تلك الصّفة إلا واحدة عند فتًى من بني إسرائيل قال بعض الرواة كان ذلك الفتى بارًّا بوالديه عابدًا يصلّي ثلث الليل وينام ثلثه، ويجلس ثلثه يغمز رجل أمّه فلما أصبح خرج إلى البرية يحتطب على ظهره فيبيعه فيتصدّق ببعض ثمنه وينفق بعضه على أمّه وعلى نفسه فمكث كذلك ما شاء الله تعالى، فقالت له أمّه ذات يوم: يا بنيّ إن لي بقرة ورثتها من أبي وأمّي وإني أرسلتها في البرية ترعى واستحفظتها الله تعالى فاذهب فاطلبها، فوضعت له وصفها وقالت له: إذا وجدتها فلا تركبها ولا تحدث في أمرها شيئًا حتى تأتيني بها. فخرج الفتى فلما رآها قال: أسألك أيتها البقرة بإلٰه إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب أن تتّبعيني فتبعته، وكلّمته البقرة وقالت له: يا فتى لو سألت الله تعالى أن يسيّر معك الجبال لأجابك لبرّك بأمّك، فلمّا سار الفتى ومعه البقرة عرض له إبليس فقال له: ما لك لا تركبها لكي لا تعيا في الطريق؟ فأبى الفتى وقال: ما أعصي أمّي، فقال له: ما لك لا تبيعها بما شئت؟ فقال: لا، فإنّ أمّي أمرتني أن آتيها بها، وفي بعض الروايات أنه ركبها بأمره فنفرت البقرة وطرحته وذهبت، فجاءه ملك وقال له: لم ركبتها ألم تدرِ أنّ الّذي أمرك بذلك فإنّه إبليس فاذهب فإنها في موضع كذا فإذا وجدتها فلا تقبل قول أحدٍ حتى تأتي أمّك، ففعل الفتى وجاء بها إلى أمّه. فقالت له: يا بنيّ اذهب فبعها، فقال: بكم أبيعها؟ قالت: بستّة دنانير على رضًى منّي، فقيّض الله تعالى ملكًا فأعطى بها اثني عشر دينارًا على أن لا يستأمر أمّه فأبى وجاء وأخبر أمّه، فقالت له: اذهب فبعها باثني عشر دينارًا على رضًى، فجاءه الملك وأعطاه أربعة عشر دينارًا على أن لا يستأمر أمّه، فقال: لو أعطيتني ملء مسكها ذهبًا ما بعتها إلا برضاء أمّي، فقال له الملك: إنك لا تبيعها إلا بملء مسكها ذهبًا لبرّك بأمّك، وقضى الله تعالى في تلك الأيام قتل عاميل وطلب بني إسرائيل البقرة. وقال بعض الرواة: لا بل كان الفتى بارًّا بأبيه وكان تاجرًا فجاءه رجل بحقّةٍ فيها لؤلؤٌ يبيعه فساومه بها على سبعين ألفًا فقال الفتى: اصبر ساعةً فإن مفتاح بيتي وصندوقي تحت رأس أبي وهو نائم ولا أحبّ أن أوقظه، فقال الرّجل هي لك ستين ألفًا فأيقظ أباك، فقال: لا أوقظه بل اصبر أنت حتى يستيقظ وأنا أعطيك بها ثمانين ألفًا، فجعل الفتى يزيد له على أن لا يوقظ أباه حتى بلغ مائة ألفٍ وجعل الرجل ينقص له الثمن على أن يوقظ أباه إلى أن يبلغ ثلاثين فلم يوقظ الفتى أباه، وذهب الرجل باللؤلؤ فعوّض الله الفتى بأن وجد البقرة الموصوفة لبني إسرائيل عنده فطلبوها منه وساموها منه فجعل يزيد عليهم في الثمن فجاؤوا موسى فأخبروه فدعا الفتى وقال له: بعهم بقرتك

بثمنها، فقال: يا نبيّ الله أنا أحقّ بمالي، فقال: صدقت، وقال لهم: ارضوا صاحبكم فجعل الفتى يأبى حتى قالوا نعطيك وزنها ذهبًا فأبى حتى بلغ وزن عشرة أمثالها ذهبًا فباعها منهم بذلك. فقال الأولون في روايتهم أنّهم اشتروها بملء مسكها ذهبًا والله أعلم فذبحوها وضربوا القتيل ببعضها، قيل بذنبها، وقيل بلسانها، وقيل بلحم فخذها، فأحياه الله تعالى فقام وأوداجه تشخب دمًا فسألوه عن قاتله فقال: قتلني ابن أخي وقصّ عليهم القصّة فأمر موسى فأخذ الفتى واقتصّ منه ثمّ إنّ الله تعالى أمرهم بعد ذلك في القتيل الذي لا يدري قاتله بالقُسَامة كما هو في الإسلام اليوم.

ومن العجائب الّذي كان في التِّيهِ أمر موسى والخضر عليهما السلام(١)

قال: قد قال بعض أهل الأخبار إن موسى الّذي صحب الخضر هو غير موسى بن عمران إنّما هو موسى بن ميثا بن أفراهم بن يوسف، نبّأه الله تعالى قبل موسى بن عمران قال أهل التوراة: وهو الذي طلب الخضر، وقال أهل الأخبار من المسلمين أكثرهم على أنّه موسى بن عمران وهو الأصحّ فروي عن ابن عبّاس أن موسى ظنّ في نفسه أنّه ليس على وجه الأرض أحدًا أعلم منه من غير أن يتكلّم به فرأى في منامه أنّ الله تعالى أرسل الماء حتى أخذ ما بين المشرق والمغرب ورأى كأنّ صردةً تأخذ من ذلك الماء بمنقارها ثم تقذفه في الماء، فلمّا استيقظ هائلةً رؤياه ولم يدرِ تعبيرها جاءه جبرائيل عليه السلام فسأله عمّا رآه في منامه، فقال له جبرائيل: أظنّك حسبت أنه ليس في الأرض أحدٌ أعلم منك فتعبير رؤياك أن مَثَل علم الله تعالى مثل الماء الّذي بين المشرق والمغرب، وإنك لم تنقص من علم الله تعالى إلا أقلّ ما ينقصه الصردة من الماء الذي أخذت منه، قال له موسى: يا جبرائيل وهل على وجه الأرض أحد أعلم منّي؟ قال: بلى، إن الله تعالى خلق عبدًا هو أعلم منك قال: ومن هو؟ قال جبرائيل: هو الخضر بن عاميل، قال: يا جبرائيل أين أطلبه؟ قال: من وراء هذا البحر، قال: ومن يدلّني عليه؟ قال: تزوّد فإنّه يدلّك عليه بعض زادك فخرج موسى في طلبه وقيل كان سبب طلب موسى الخضر أنه خطب ذات يوم خطبةً بليغةً فأعجبته فظنّ أنّه ليس على وجه الأرض أحدٌ أعلم منه فسأل ربّه، وقال: يا ربّ هل على الأرض أحدٌ أعلم

---

(١) انظر تفاصيل قصة موسى والخضر عليهما السلام في: البخاري ـ صحيح البخاري ٢/ ٣٥٠ (باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ٦/٦ وما بعدها، ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٣٩٣.

منّي؟ قال: نعم، قال: ومن هو فدلني عليه وقيل: كان سبب ذلك أن موسى قال: يا ربّ أيّ عبادك أحبّ إليك؟ قال: الّذي يقضي بالحق ولا يتّبع الهوى، قال: فأيّ عبادك أعلم؟ قال: الّذي يبتغي علم الناس إلى علمه رجاءً أن يصيب كلمةً تدلّه على هدًى أو تردّه عن ردى قال: يا رب وهل في الأرض أحد أعلم منّي فأبتغي علمه إلى علمي، قال: نعم، قال: ومن هو؟ قال: الخضر، قال: فأين أطلبه؟ قال: على ساحل البحر عند الصخرة التي ينفلت عندها عنك الحوت فعند ذلك خرج موسى في طلبه، ثم إن موسى قال ليوشع بن نون بن أفراهم هل أنت مؤازري على طلب هذا العبد الصالح؟ قال: نعم، قال: فاحمل لنا زادًا فحمل أرغفةً وسمكة مالحة ويقال: مشويّة وخرجا ومضيا حتى انتهيا إلى ساحل البحر فنزلا تحت صخرة عندها عين ماءٍ ويقال: لا بل خرج موسى ليتوضأ فوقع على عين ماءٍ وهي عين الحيوان فتوضأ منها ورجع إلى يوشع بن نون فنفض لحيته فقطرت قطرة من ذلك الماء على الحوت الذي حملاه فحيي ووثب ذاهبًا في البحر وصار مجراه سربًا في البحر، ويقال: لا، بل تخلّف يوشع من موسى يتوضأ عند العين تحت الصخرة ومضى موسى فقطر من ذلك الماء على الحوت فوثب الحوت ذاهبًا في البحر ثم لحق يوشع بموسى فقال له موسى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: الآية ٦٢] أي عناءً ومشقّة وكان الحوت في مكتل ليوشع فنظر في المكتل فلم ير الحوت فذكر أمره وأنه عاش وذهب في البحر فقال لموسى أرأيت ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف: الآية ٦٣] أنه عاش بماءٍ قطر عليه من الماء فذهب في البحر ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: الآية ٦٣]، ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: الآية ٦٣] فلم أخبر به لما لحقني من العناء والمشقّة، قال موسى إن جبرائيل أخبرني أنه يدلّني على العبد الصّالح زادي فارجع بنا ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: الآية ٦٤] يتبعان الطريق الذي جاءا فيه حتى وصلا إلى الصخرة ورأيا أثر الحوت ومسلكه في الماء باقٍ على هيئة السرب فدخلاه ومضى موسى ويوشع خلفه، ويقال كان موسى يقدّم عصاه فينفجر له الماء ويمضي هو ويوشع إلى أن وصلا إلى جزيرةٍ ورأيا بحر أرمينية فوجدا طريقًا واضحًا ذات السيّارِ فسلكاه فناداهما منادٍ من السماء دعوا هذه الجادة فإنها طريق الشياطين إلى سرير إبليس فخذا ذات اليمين فرجعا وسلكا ذات اليمين فانتهيا إلى صخرةٍ عظيمة فرأيا عندها رجلًا نائمًا ملتفًا بكسائه وإذا حوله روضة خضراء ويقال: لا بل لما وصل إلى الصخرة والروضة رأيا هنالك مصلًى ومحرابًا فقال موسى: ما أطيب هذا المكان وينبغي أن يكون لرجلٍ عابد، فلم يلبثا أن جاء الخضر، وفي رواية الأولى أن موسى أيقظ الرجل النائم ليسأله فلمّا استيقظ ظنّ موسى أنه الخضر الذي يطلبه

فقال: السلام عليك أيّها الخضر يا نبيّ الله تعالى، فقال الخضر: وعليك السلام يا موسى يا راعي بني إسرائيل، قال: ومن أعلمك أني موسى نبي إسرائيل قال: أعلمني الّذي دلّك عليّ وعلى مكاني، ثم قال له: يا موسى ظننت أنه لا أحد فوقك في العلم حتى أخبرك الله تعالى بي فجئت لتجمع علمي إلى علمك، قال: نعم جئتك لتعلّمني من علمك قال الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: الآيتان ٦٥، ٦٦]، قال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ٦٧] وكان لك كفاية فيما عندك من العلم قال موسى: ولم لا أستطيع معك صبرًا؟ قال: لأني أعمل أعمالًا ظاهرها منكر ولا تعرف وجه الحكم فيها فتنكرها ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: الآية ٦٨] أي لا يحيط علمك بوجهه قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: الآية ٦٩] قال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى﴾ [الكهف: الآية ٧٠] وصحبتني ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٠] قال: كذلك أفعل إن شاء الله فانطلق الخضر وموسى، وفي بعض الروايات أن موسى كان جالسًا عند الخضر على ساحل البحر وعلى السّاحل قصبٌ فجاءت عصفورة وجعلت تصفر ساعةً ووقفت على القصبة ساعةً ثم نزلت إلى البحر فأخذت بمنقارها قطرة ماءٍ ثم طارت شرقًا وغربًا وخلفًا وأمامًا ثم قذفت بالماء من منقارها في البحر فأخذت بمنقارها ورجعت ووقفت على القصبة وجعلت تصفر ثم نزلت ثانيةً فأخذت بمنقارها من ماء البحر ورجعت وطارت كما طارت أوّل مرة ثم قذفت الماء في البحر ورجعت ووقفت على القصبة وجعلت تصفر فقال الخضر لموسى: هل علمت ما تقول العصفورة؟ قال: لا، قال: إنها أخذت قطرة من ماء البحر فطارت يمينًا وشمالًا فقذفت الماء ورجعت وقالت: ليس علم موسى مع علم أهل المشرق والمغرب في جنب علم الخضر إلا أقلّ من هذه القطرة في جنب هذا البحر وأخذت القطرة مرة ثانية وقذفتها في البحر وقالت: ليس من علم أهل الأرض وعلم موسى وعلم الخضر في جنب علم الله تعالى إلا أقل من هذه القطرة في جنب هذا البحر، قال الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: الآية ٧١] قال إن الله تعالى لم يذكر بعد هذا من أمر فتى موسى شيئًا قال قوم: لأنّ موسى لما وجد الخضر وصحبه ردّ يوشع إلى بني إسرائيل ليخبرهم بحال موسى لئلا يضجروا ويقال: لا بل كان يوشع معهما إلى أن فارق موسى الخضر وعلى هذا رواية وهبٍ إلا أن الله تعالى لم يذكره لأن موسى كان هو المتبوع ويوشع كان تبعًا له، وإنّما يذكر المقدم دون التّبع، قال: فلمّا ركبوا البحر ولجة السفينة أخرج الخضر فأسًا وجعل يخرق السفينة فقال أهل السفينة: فما تصنع فلم

يجبهم الخضر، فقالوا: لم يصحبنا قوم أشرّ منكم فقال موسى للخضر ويحك ﴿أَخرقتَهَا[١] لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧١] أي فضيحًا قبيحًا، قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف: الآيتان ٧٢، ٧٣] وجلس موسى إلى ناحيةٍ يتفكر في نفسه ويقول لقد كنت غنيًّا عن رؤية مثل هذا الفعل وكنت سالمًا في بني إسرائيل أقرئهم كتاب الله بكرةً وعشيًّا فعلم الخضر بفراستهِ فكرة موسى فضحك، وقال: يا موسى ماذا تقول لنفسك وما سؤالك؟ قال: إنك فكّرت كذا وكذا، ثم إن الخضر أخرج من عنده ما دسّه في خرق السفينة وشدّها وطلّاها بدواءٍ لم يدخلها الماء قط فلمّا خرجا من السفينة مرّا فأتيا على قريةٍ وإذا غلمان خارج القرية يلعبون وفيهم غلام من أحسنهم وجهًا وأتمهم قامةً حين اخضرّ شاربه كان اسمه ضيشون وقيل كان اسمه الحيسر بن كادري وله أمٌّ تسمّى شاهوبة فدعاه الخضر وذهب به إلى ما وراء الجدار فوثب عليه فذبحه، ويقال: خنقه فقتله وموسى يرى ذلك فضجر ضجرًا أشدّ من ضجره عند خرق السفينة قال: تالله ما رأيت كاليوم ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: الآية ٧٤] أي بغير قتل نفس، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٤] أي منكرًا، قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٥]، قال موسى ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]، ثم ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: الآية ٧٧]، قال بعض المفسرين: كانت بلدة (أنطاكية)[٢]، وقال آخرون: كانت مدينة (باجروان)[٣] بأرض (أرمينية)[٤] وكانوا إذا أمسوا أغلقوا باب مدينتهم ولا يأذنوا لأحدٍ أن يدخل عليهم فانتهيا إلى باب المدينة فاستفتحا فلم يفتحوا لهما فاستطعما فلم يطعموهما، قال شيخنا الإمام: إن أنبياء الله تعالى أجلّ من أن يسألوا طعامًا وإنما معنى استطعامهما أنهما نزلا بغير زادٍ ولا شيء وكان القوم يعرفون حالهما فكان ذلك يجري مجرى الاستطعام فلما أصبحا إذا هما بجدارٍ مائلٍ ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: الآية ٧٧] فيسقط فعمد الخضر إلى الجدار ليقيمه

---

(١) جاء في الأصل (أخرقت السفينة) والصواب ما ثبتناه.

(٢) أنطاكيا: بالفتح ثم السكون، والياء مخففة، أرض من بلاد الشام. وهي من قصبة العواصم الشامية، ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٢٦٦.

(٣) باجروان: آخره نون: قرية من ديار مُضر بالجزيرة من أعمال البليخ. ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٣١٣.

(٤) أرمينيا: بكسر أوله وبفتح، وسكون الراء وكسر الميم، وياء ساكنة، وكسر النون، وياء خفيفة، اسم لصقع عظيم واسع في جهة الشمال، ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ١٥٩.

يقال: إنه قام عند جانبي الجدار وقال لموسى: قم عند الجانب الآخر حتى رفعا الجدار واستوى وكان أصل الجدار قد تآكل، فأمر موسى حتى نقل الحجارة والطين ثم جعل يناول الخضر والخضر يصلح الجدار حتى عمّره فلمّا فرغا وجلسا في ظل الجدار كان موسى جائعًا مغيبًا كالاً فضجر وقال للخضر: يا خضر ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٧] قومٌ لم يطعمونا ولم يودّونا فبأيّ حقٍّ لهم علينا ليلزمنا عمارة جدارهم مجّانًا فقال له الخضر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٨] وأخبرك لم فعلت هذه الأفعال التي أنكرتها ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ [الكهف: الآية ٧٩] التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: الآية ٧٩] وكان اسم ذلك الملك جيفر بن جلند الأزدي ملك عمّان قال: خفت أن يأخذ سفينتهم فخرقتها لئلا يأخذها وذلك أن القوم لما مرّوا بأعوان الملك نظروا إلى السفينة فإذا هي مخرقة تركوها قال أهلها لم يكن قومٌ خير لنا من الذين خرقوا سفينتنا فنجونا من هؤلاء الظلمة ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ [الكهف: الآية ٨٠] الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: الآية ٨٠] صالحين وكان الغلام فاجرًا لصًا يقطع الطريق، ثم يلجأ إلى أبويه فيكذبان عنه ويقولان لم يفعل شيئًا ويحلفان على براءته وهما لا يعلمان صنيعه ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: الآية ٨٠] بما يلزمهما من الإثم والحلف الكاذبة لأجله ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: الآية ٨١] وصلاحًا ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: الآية ٨١] إنّي أبرّئهما منه وذلك أن الله تعالى أبدلهما جارية فتزوجها رجل صالح فولدت له غلامين كانا نبيين من أنبياء بني إسرائيل ويقال كان من نسل تلك الجارية سبعون نبيًّا وصدّيقًا وأمّا الجدار الذي أصلحته وأقمته فإنه ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: الآية ٨٢] واسم أحدهما أصرم والآخر صيرم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: الآية ٨٢] قال المفسرون كان جدّهما الثالث وقيل جدهما السابع ويقال كان أبوهما الذي هما من صلبه والله أعلم، كان صالحًا فحفظ الله حقه في ولده ويقال: اسم الأب الصالح الّذي ذكره الله تعالى كان كاشح وأما الكنز الذي تحت الجدار فقال بعضهم كان لوحًا من ذهب جعله الرجل الصالح تحت الجدار ليبقى لهما ويقال: بل الكنز كانت الكلمات التي كتب في اللوح، وقد اختلفوا فيها فقال بعضهم: كان مكتوبًا على أحد وجه اللوح الله لا إلـه إلا هو وحده لا شريك لـه، محمد عبده ورسوله ودينه الإسلام، وعلى الوجه الآخر عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك وعجبت لمن أيقن بالجنة كيف لا يعمل لها وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحرز وعجبت لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها قال الخضر ﴿فَأَرَادَ

رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: الآية ٨٢] فأمرني بإصلاح الجدار لئلا يسقط فيظهر الكنز فيضيع وما فعلته عن أمري ورأيي بل فعلته بأمر الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ٨٢] وروي عن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله أخي موسى لو صبر مع الخضر لرأى منه عجائب وأخبرنا الله تعالى بذلك»، ثم قال الخضر لموسى: كفى لك (بالتوراة)[1] علمًا وكفاك بشغل بني إسرائيل شغلًا ورُوِي أنهما كانا جالسين في ظلّ الجدار جائعين إذ جاء جبرائيل وبإحدى يديه ظبيٌ قد أخذه من الفلاة وبيده الأخرى طبق مغطّى فجاء بالطبق فوضعه بين يدي الخضر قال: هذا غداؤك وكان عليه ألوان الطعام مهيأ ويقال: كان من طعام الجنّة وجاء بالظبي إلى موسى وقال: هذا غداؤك فخذه، وقال: فأخذه الخضر وجلس يأكل من الطعام الذي على الطبق وأخذ موسى الظبي فذبحه وسلخه وأخذ من لحمه ثم طلب حطبًا ونارًا وجعل يلقي من اللحم على النار فإذا قارب الشوى بلغ منه فأخذه فنهشه وكانت النار ربما تطفأ فينفخ وتدمع عيناه من الدخان فنظر إليه الخضر فضحك، فقال له موسى: أمنّي تضحك؟ قال: لا، ولكن أضحك من صنيع الله تعالى بالقانع والساخط قنعت أنا فأتيت بطعام مهيّأ وسخطت أنت فأوتيت برزقك مع هذا العناء والمشقة، ثم قال الخضر لموسى: يا موسى قد صحبتنا وبقيت في صحبتنا فارجع إلى قومك فقال موسى للخضر: أوصني بوصيّةٍ قال الخضر لموسى: يا موسى كن بشاشًا ولا تكن غضبانًا وكن نفّاعًا ولا تكن ضرّارًا وانزع عن اللجاجة ولا تمشِ في غير حاجةٍ ولا تعيّر الخاطئين بخطاياهم وابكِ على خطيئتك يا ابن عمران ثمّ افترقا ورجع موسى ويقال موسى ويوشع.

وممّا كان في التّيه[2]

إن الله تعالى أعطى موسى التوراة وكلّمه وقصّة ذلك أن الله تعالى لما حرّم التيه على بني إسرائيل وبقوا فيه ولم يكن لهم من أشغال الدنيا شيءٌ وأمرٌ يشتغلون به فقالوا لموسى: يا موسى لا بدّ لنا من كتابٍ نقرأه وشريعةٍ نعمل بها، فسأل موسى ربّه فقال الله تعالى نعم، وواعده أن يخرج إلى طور سيناء وأن يصوم ثلاثين يومًا، ثم يأتي طور سيناء فيكلمه ويعطيه الكتاب والشرائع قال: فانطلق موسى إلى الطور واستخلف على قومه

---

(١) جاء في الأصل (التورية) والصواب (التوراة).

(٢) انظر تفاصيل هذا الباب في: البخاري ـ صحيح البخاري ٢/٣٤٩ باب قول الله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢]، الحاكم ـ المستدرك (باب رؤية الرب) ٢/٥٧٦، ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/٣٧٨ (باب سؤال الرؤية).

هارون قال الله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢] الآية ووعد قومه أنه راجع إليهم بعد ثلاثين ليلةً ومعه الكتاب والشرائع فانطلق موسى إلى الطور ومعه جبرائيل عليه السلام وصام ثلاثين يومًا ثم حضر موضع الوعد وهو الميقات وكان قد تطهر وطهّر ثيابه فلمّا وقف موسى بين يدي الله تعالى قال الله له: يا موسى هل صمت ما أمرتك؟ قال: نعم يا ربّ قال: فكيف وليس عليك أثر الصوم فقال: تسوّكت يا رب لئلا يفوح منّي ريح خلوف فم الصائمين، قال: أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أحبّ من ريح المسك اذهب وصم عشرة أيام فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢] ثم جاء إلى ميقات ربه وكلّمه، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] واختلف الناس في السبب الباعث لموسى على سؤال الرؤية، قال أكثر المفسّرين إنه لما كلمه الله تعالى وسمع كلام ربّه ووجد لذّة ذلك اشتاق إلى الرؤية فسألها وقال بعضهم: إنه ظنّ أن الله تعالى اصطفاني بالكلام دون سائر الخلق، فلا تبعد أن يكرمني أيضًا بالرؤية، وفي بعض الروايات أنه لمّا كلّمه الله تعالى جاءه إبليس فقال: يا موسى من الّذي يكلمك وما يدريك أنه شيطان؟ قال: فعند ذلك سأل موسى أن ينظر إليه قال: ولا يظن ظان أن صحة هذه الرواية أن موسى شكّ بقول إبليس وحاشا نبيّ الله تعالى عن ذلك ولكنّه أراد أن يرى الله تعالى فتغايظ إبليس وأراد أن يكايده بذلك فلما ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] يريد أن يعلمه ضعف بصره ليعتبر وأنه لا يقدر على رؤيته في الدنيا وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال: إنّ الله تعالى قال له: يا موسى انطلق إلى موضع كذا وكذا من الجبل وانظر الحجر الذي في رأس الجبل فاجلس عليه فإني مهبط عليك جنودي ففعل موسى ما أمر به ربّه، فلما جلس على ذلك الحجر قال الله تعالى للسماء ضعي أكنافك حول الجبل، ففعلت وأرسل الله تعالى الضباب والظلمة على الجبل الّذي عليه موسى وأمر الملائكة أن يعترضوا على موسى فأمر الله تعالى أولًا ملائكة سماء الدنيا أن يمرّوا بموسى فمرّوا به رافعين أصواتهم بالتسبيح والتهليل والتكبير كصوت الرعد القاصف، ثم كذلك ملائكة سائر السمٰوات السبع فمرّوا به يسبّحون ويقولون لموسى: يا خاطي يا ابن الخاطي كيف اجترأت على ربّك فسألته رؤيته مع ضعفك وموسى يبكي ويقول: يا ربّ أدركني برحمتك ولا تنسني وأنا عبدك الضعيف ما أظن أنجو ممّا أنا فيه، فلمّا رأى موسى ملائكة الله تعالى وعرف ضعفه قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] فسقط عن

الحجر وانقلب عليه الحجر فصار عليه مثل القبّة كيلا يحترق من نور التجلي ولا يهلك، قال بعض الناس كانت صعقته صعقة موت وإنه مات ثم أحياه الله تعالى وقال آخرون بل صعق غشيان وإنه غشي عليه ثم أفاق قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣] ولم يقل ولما عاش وقوله عزَّ وجلّ: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣] أي صار مدكوكًا قال أهل الأخبار صار مثل الرمل فاستوى في الأرض وقيل صار قطعًا قطعًا ويروى أن الجبل صار ثلاثة أثلاثٍ فثلث منه شاخ في الأرض وثلث منه تفتّت وثلث منه تفرّق في الهواء وانبث قال ومنه هذا الذي يرى في الشمس إذا طلعت من الكوّة قال: وبعث الله تعالى جبرائيل عليه السلام فرفع الحجر عن موسى فقام وهو يسبّح الله تعالى ويقول: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣] أيَ أوّل من آمن بك إنك لا ترى في الدنيا وقد ذكرنا السؤالات والاحتجاجات والفوائد والإشكالات في هذه الآية في معاني سورة الأعراف.

بابٌ في ذكر إعطاء الله تعالى موسى الكتاب(١)

قال الله تعالى: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٤]، ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٥] قال إن الله تعالى بعث جبرائيل حتى قطع من شجرة الجنّة شجرة واتخذ منها تسعة ألواحٍ ويقال سبعة من زمردةٍ خضراء طول كلّ لوحٍ عشرة أذرع بذراع موسى، وكذلك عرضه وكتب له فيها ما أراد من العلم والأحكام قال بعض الناس إن الله تعالى كتب له فيها التوراة سوى ما كتب له في الألواح والله أعلم. وقال له: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥] ورُوِيَ عن كعب الأحبار لما أعطاه الله تعالى الألواح وأراد أن يرجع قال: يا رب أقريب أنت فأناجيك أم بعيدٌ أنت فأناديك قال له ربّه أنا جليس من ذكرني قال معنى أقريب أنت أراد هنا أي أحبّ إليك المناجاة كما يناجى القريب أم المناداة كما ينادى البعيد ثم قال الله تعالى له: يا موسى إن أردت أن أقرّبك يوم القيامة فلا تنهر السائل ولا تقهر اليتيم وجالس الضعفاء والمساكين وارحمهم وحبّ الفقراء ولا تفرح بكثرة المال فإنه مفسدة وكن لليتيم كالأبّ الرحيم وللأرملة كالزوج العطوف يا موسى اسمع ما أقول لك واحفظه، وأمر بني إسرائيل بذلك وأمرهم أن يتبعوا النبيّ الذي يأتي بعدك راكب الحمار واسمه الروح الذي يولد من

---

(١) انظر تفاصيل هذا الباب في القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٧٧، ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٣٧٨.

العذراء البتول الذي يصنع الآيات والعجائب ويحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ويبشر بالنبيّ العربي من ولد قيذار بن إسماعيل، يبعث من بين جبلي القدس راكب الجمل صاحب الهراوة والعمامة والنعلين يبعث في آخر الزمان على حين فترةٍ من الرسل اسمه محمد وأحمد أختم به النبوة وأفتح به الدين لم تلد النساء بعده ولا قبله مثله، الأنجل العين الصلت الجبين المقرون الحاجبين البادي العنفقة الرجل الشعر الشثن الكفّين والبنان الحسن، الثغر المفلج الثنايا الكث اللحية، النكاح النساء القليل النسل أمته خير الأمم التي أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويرضون منّي باليسير من الرزق وأرضى منهم باليسير من العمل وأدخلهم الجنّة بشهادة أن لا إلـه إلا الله، يقاتلون بقضبان الحديد صفوفهم في صلاتهم كصفوفهم في قتالهم، يأتزرون على أنصافهم ويطهرون أطرافهم، جعلت لهم الأرض مسجدًا وطهورًا يصلون حيث أدركتهم الصلاة لهم دويّ بالقراءة تفتح لهم أبواب السماء وأنزل عليهم رحمتي أشداء على الكفار رحماء بينهم إذا رأيتهم عرفتهم أنهم أهل ركوع وسجودٍ سيماهم في وجوههم من أثر السجود يقاتلون صفوفًا وزحوفًا ويصلّون ركوعًا وسجودًا وقيامًا وقعودًا أناجيلهم في صدورهم وقربانهم في بطونهم، نساؤهم أيامى لطول غيبتهم في الجهاد ولسن بأيامى وأولادهم يتامى لغربة آبائهم وليسوا بيتامى ويطلبون الغزو بكلّ أفق رهبان الليل ليوث النهار أنا أعطيهم قبل أن يسألوني وأستجيب لهم قبل أن يدعوني، ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم أظهر دينهم على الدين كلّه ولو كره المشركون وأفتح لهم فتحًا مبينًا وأنصرهم نصرًا عزيزًا وأجعل محمّدًا أوّل شافعٍ وأوّل مشفّعٍ أختم به الرسالة وأفتح به الشفاعة، يا موسى مر بني إسرائيل أن لا يغيروا نعته وصفته ولا يكتموها وإنهم لفاعلون، فخرّ موسى لله ساجدًا وقال: إلـهي لقد أكرمت هذا العبد وهذه الأمّة بما أسمع، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤] ولما فرغ موسى من سؤال الرؤية وجواب الله تعالى له، وكان قد خرج بجماعة من بني إسرائيل فتركهم في أصل الجبل وعجل إلى رؤية الله فقال الله تعالى له: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: الآيتان ٨٣، ٨٤] وما أعجلك عن قومك يا موسى، قال: هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى ويقال إنما سأله الله تعالى عن قومه بني إسرائيل، قال: وما أعجلك عنهم حتى جئت ولم تحضرهم معك؟ فقال: هم أولاء على أثري أي خلفتهم ورائي عجلت إليك إذ أمرتني أن آتيك لتعطيني الكتاب وترضى عنّي قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه: الآية ٨٥]، قال: يا رب وبأيّ شيء

فتنتهم قال: بما عمل لهم السّامريّ من العجل فأضلّهم به، قال: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾ [طه: الآية ٨٦] وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: رحم الله أخي موسى ليس الخبر كالعيان لقد كان الله تعالى أخبره بفتنة قومه حيث قال: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: الآية ٨٥] وعرف أن قول الله تعالى حقٌّ وصدق، وإنه لتمسّك بما في يده من الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه، قالت الرواة: وكان سبب صنيع السامري العجل أنه كان السامريّ رجل من غير بني إسرائيل من أهل قريةٍ يقال لها باجرما وكانوا عبدة العجل والبقرة، فكان ذلك في قلبه، وهو يظهر الإسلام لبني إسرائيل ويستر عبادة العجل، وقال آخرون: بل كان السامري من بني إسرائيل واسمه موسى بن ظفرٍ وكان يعرف جبرائيل، وسبب ذلك أن أمّه هربت به أيّام فرعون لأولاد بني إسرائيل فوضعته في غارٍ من الجبل فأمر الله تعالى جبرائيل أن يأتيه إذا لم تأته أمّه فيطعمه فلما شبّ عرف جبرائيل فلما كان يوم عبور بني إسرائيل البحر رأى السامري جبرائيل على فرس الحياة وهي على هيئة رمكةٍ أنثى بلقاء فكانت لا تطأ شيئًا إلا حيي ولا أرضًا إلا اخضرت فعرف السامري، فأخذ من تراب حافر فرس الحياة قبضة وحملها مع نفسه فلما كان بعد انطلاق موسى إلى الجبل كان وعد أن يأتيهم لثلاثين ليلة، فلمّا أمره الله تعالى بصيام العشر الأخر ولم يرجع إلى قومه للوقت الذي وعد قال لهم السامري: إن موسى لا يعود إليكم أبدًا فهل لكم أن أصنع لكم إلـٰهًا تعبدونه وكان رأى حرصهم على العجل حين قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨]، فقالوا له: نعم، فقال لهم: فأتوني بالحليّ التي حملتموها من حلي آل فرعون، ويقال: لا، بل إنّ هارون قال لبني إسرائيل إنكم قد حملتم أوزارًا من زينة القوم أي قوم فرعون وإنها لا تحل لكم وذلك أن الغنائم لا تحلّ لأمّةٍ من الأمم السالفة وقال لهم فأتوني لأحرقها ويقال إنه قال لهم: لعلّ يجيء موسى إنما تأخّر عن موعده لشؤم ما معكم من حليّ آل فرعون فأتوني بها أحرقها فأتوه بها، فأوقد نارًا وألقاها فيها حتى أحرقت جميع ما كان من ثوب وشيء وصارت الذهب والفضة سبيكةً وكان السامري صائغًا فجاء فأخذ السبيكة وصنع وصاغ منها عجلًا ثم ألقى فيه من التراب الذي حمل معه من حافر فرس الحياة فأحياه الله تعالى فقام عجلًا وخار خورةً وقال بعضهم: إنّه صار لحمًا ودمًا وعظامًا كالعجاجيل ويقال بل حيي وعاش وهو ذهب، وقيل: بل كان غير حيّ جمادًا إلّا أنه كان مشتبكًا يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه، فيكون له صوت كصوت العجل وخواره وقد ذكرنا وجه القول فيه في معاني سورة الأعراف ثم قال السامري: لأغمار بني إسرائيل هذا إلـٰهكم وإلـٰه موسى فإن لم يأتكم موسى فقد أتاكم ربّه

فاصدقوا به وأحبّوه حبًّا شديدًا كما ذكر الله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٣] أيّ حبّ العجل قوله فنسي أي فترك السامري وكفر حيث سمّي العجل إلـهًا، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: الآية ٨٩] لا يكلّمهم وأنه ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: الآية ٨٩] فبأي شيء تستحقّ عبادتهم العجل ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ [طه: الآية ٩٠]، أي بالعجل وإنه باطل وليس بإلـه ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: الآية ٩٠] ولا تعبدوا العجل ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ [طه: الآية ٩١] بالعبادة ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: الآية ٩١] فإن نهانا هو عن عبادته انتهينا، فلما أبوا على هارون قام هارون واعتزل بمن بقي معه على الإسلام من بني إسرائيل ويقال: كانوا ثلث بني إسرائيل فاتبع العجل الثلثان منهم، ويقال كان تبع هارون اثنا عشر ألفًا وكره أن يقاتلهم فخاف الفساد والهلاك خشية أن يقول له موسى إذا رجع لم أهلكت بني إسرائيل وكان هارون مطيعًا هائمًا لموسى في جميع أحواله فاعتزل الفريقان بعضهم من بعض وأقام عامة بني إسرائيل على عبادة العجل إلى أن رجع إليهم موسى غضبان أسفًا وروي أن موسى لما رجع مع أصحاب الجبل فاقترب من محلّة بني إسرائيل فسمع موسى ومن معه صيحة الناس الذين كانوا يعبدون العجل وذلك أنهم كانوا يضربون أيديهم ويزفقون ويرقصون ويلعبون حوله، فظن أصحاب موسى وكان لم يخبرهم بفتنة بني إسرائيل بالعجل فلما رآهم موسى وقد حفّوا بالعجل في محلّة بني إسرائيل فقالوا يا موسى هذا قتال في محلّة بني إسرائيل فقال: لا، بل صوت الفتنة، فأخبرهم بأمرهم فضجروا لذلك وتعجّبوا حتّى إذا بلغوا المحلّة ورأوهم عاكفين على عبادة العجل، فلمّا رآهم موسى قد أحدقوا بالعجل يعبدونه اشتدّ غضبه حتى ألقى الألواح من يده إلى الأرض فانكسر منها لوحان فطارت إلى السماء، ويقال انكسرت جميعًا ثم أقبل على قومه و﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠] ألم يعدكم ربّكم وعدًا حسنًا أن يعطيكم الكتاب والشريعة ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ [طه: الآيتان ٨٦، ٨٧] حتى لم نصنع العجل من مالٍ ملكناه بل صنع من حليّ حملناها ﴿مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ [طه: الآية ٨٧] في النار لتحرق فذلك ألقى السامريّ وأنه اتخذ العجل فالذنب له لا لنا، ثم أقبل موسى على أخيه وأخذ برأسه ولحيته يجرّه إليه فقال له هارون ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: الآية ٩٤] وكان موسى ابن أمّه وأبيه ولكنّه ذكر الأمّ لرفقه له بذكرها، فإنه غير مجرم فقال له موسى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه: الآيتان ٩٢، ٩٣] إذا قلت لك ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢] قال: ﴿إِنِّي

خَشِيتُ﴾ [طه: الآية ٩٤] إن خرجت من بينهم ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ [طه: الآية ٩٤] أي لم تسمع إلى ﴿قَوْلِي﴾ [طه: الآية ٩٤] أني اعتذرت إليك بعذرٍ، فقال هارون: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠] فلم أطلق حربهم وخفت على نفسي فاعتزلت بمن معي انتظارًا لمجيئك ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠] بالاستخفاف بي والإهانة لي ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠] ومن جملتهم فإني لم أوافقهم ولم أكن معهم فراجع موسى عقله وعرف قبح ما فعله فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ [الأعراف: الآية ١٥١] ما صنعت بأخي ﴿وَلِأَخِي﴾ [الأعراف: الآية ١٥١] إن كان منه ذلةٌ أو تقصير ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥١]، ثم أقبل موسى على السامريّ وقال له ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ [طه: الآية ٩٥] أي ما أمرك وشأنك وما الذي حملك على ما صنعت فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: الآية ٩٦] يعني رأيت جبرائيل على فرس الحياة فنبذتها في العجل حتى حَيي ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: الآية ٩٦] وزيّن على فعلي، ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [طه: الآية ٩٧] ما دمت حيًّا ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ [طه: الآية ٩٧] أي تستوحش عن الناس عقوبة بما صنعت فلا تماسّ أحدًا ويماسّك أحدٌ ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ [طه: الآية ٩٧] تعيش إليه ثم تموت ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥۖ﴾ [طه: الآية ٩٧] وأخرجه موسى من محلّة بني إسرائيل ونهى أن يخالطه ويخالط أحدًا، وفي الحديث أن موسى أراد قتله فأوحى الله تعالى أن لا تقتله فإنّ فيه خصلة محمودة، قال: وما هي يا ربّ؟ قال: السخاوة، ثم قال له ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ﴾ [طه: الآية ٩٧] مقيمًا على عبادته كيف نحرقه قال: قم فاحرق العجل بالنار ثمّ ذرّ رماده في البحر ويقال ليبرّدنه بالمبرد فإنه كان ذهبًا فبرده بالمبرد ثمّ ذرّه في البحر والله أعلم وروي أنّهم تناكروا فقال أكثرهم نحن لم نعبد العجل فلمّا ذرّ رماده في البحر أمرهم موسى بشرب الماء فشربوا فمن عبد العجل منهم صار شاربه وَسِبَالُهُ تَبْرُقُ بريق الذهب ومن لم يعبده لم يكن ذلك ولما فرغ موسى من أمر العجل وإحراقه قالت بنو إسرائيل: فما توبتنا فيما وقعنا فيه، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن توبتهم أن يقتلوا أنفسهم بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٤] قال بعض الرواة إن الله تعالى أمر من لم يعبد العجل حتى قتلوا الذين عبدوه وأمر عبدة العجل أن يجلسوا بأفنية بيوتهم وأن يضعن رؤوسهم على ركبهم مستسلمين للقتل لابسين أكفانهم وجاء من لم يعبد العجل شاهرين سيوفهم يضربون أعناق عبدة العجل ونهوا أن ينظر الرجل إلى قاتله فما زالوا يقتلونهم وموسى وهارون وخيار بني إسرائيل قد وقعوا لله

تعالى سجودًا يتضرعون ويدعون إلى أن استجاب الله تعالى لهم، فرفع عنهم القتل وقبل توبتهم، وقال الآخرون: لا، بل أمر عبدة العجل أن يصطفّوا صفّين بالسيّوف ويضربون بعضهم بعضًا لا يمتنع أحد عن القتل لا والدٌ ولا ولد ولا أخ ولا غيره ففعلوا، وجعل موسى وهارون ومن لم يعبد العجل يدعون ويتضرعون إلى أن فرج الله تعالى عنهم فأحصى القتلى فبلغ عددهم سبعين ألفًا وقبل الله تعالى توبتهم فكان المقتولون الراضون بالقتل شهداء ومن بقي من عبدة العجل كان استسلامهم للقتل وإن لم يبلغهم القتل توبة لهم قال الله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤] ولما تاب الله تعالى عليهم رجع موسى إلى الألواح قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٤] قال قوم انكسر منها لوحان ويقال: بل انكسرت كلّها، فكان بعضها رضراضًا لا يدري ما كان فيه وبقي بعضها يمكن قراءتها فأمر الله تعالى موسى أن يأخذها، فلما نظر موسى إليها منكسرة اشتدّ حزنه فأوحى الله تعالى إليه اكتب ما فيها في ألواحٍ غيرها ويقال أمره أن يكتبها في ألواح من ذهب، فقال موسى يا جبرائيل ومن أين ليَ الذهب؟ قال: فعلّمه جبرائيل بأمر الله تَعالى ثلاثة أدوية من صنعة الذهب وكيميائه حتى صنع الذهب وجعل منها ألواحًا كتب فيها بقيّة الألواح، ويقال: بل كتب في الدفاتر والمصاحف وقال بعضهم ذهب الكثير ممّا كان كتب الله تعالى له فيها من العلوم إلا ما احتاجوا إليه من أمر دينهم وشرائعهم فإنّها بقيت فلما انتسخ وعرض ما نزل فيه وما أمر الله تعالى به بني إسرائيل ثقل عليهم تلك الشريعة وهي رجم المحصن وقطع السارق والقصاص في القاتل، وقالوا: يا موسى لا يقبل واحدٌ كان العجل الذي نعبده أحبّ إلينا ممّا جئت به، فقال موسى: إلـٰهي تسمع ما يقولون قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: الآية ٦٣] وذلك أنهم لما ردّوا على موسى أمر الله تعالى الملائكة ويقال أمر جبرائيل فاقتلع جبلًا من جبال (فلسطين)[1] على قدر عسكر موسى ثم جاء به ورفعه فوقهم كالظلّة بينهم وبين السماء وقيل لهم: إما أن تقبلوا التوراة، وإما أن يلقى عليكم الجبل، فوقعوا ساجدين من خوف وقوع الجبل عليهم وسجدوا على أنصاف وجوههم ينظرون بإحدى أعينهم إلى الجبل مخافة سقوطه عليهم ونادوا سمعنا، وقالوا في أنفسهم وعصينا ولولا مخافة الجبل ما سمعنا، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما فمن ثمّ سجدت اليهود على شقّ وجوههم، فلمّا قالوا سمعنا رفع الله تعالى

---

(١) فلسطين: بالكسر ثم الفتح، وسكون السين، وطاء مهملة، وآخره نون، آخر كور الشام من ناحية مصر، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤/ ٢٧٣.

عنهم الجبل ولما قبل الله تعالى توبتهم قالوا لموسى: نحن نخاف الله تعالى مما صنعنا فأمر الله تعالى أن يختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلًا ويحملهم إلى الجبل ويقال: بل أمرهم موسى بأن يختاروا من بينهم سبعين رجلًا ليخرجوا معه إلى الجبل شكرًا لله تعالى لما قبل من توبتهم يقال: بل قالوا لموسى: يا موسى أنت سمعت كلامه قال الله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥] أي من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥] فخرجوا معه، وفي رواية أنهم كانوا اثني عشر سبطًا فاختاروا من كل سبطٍ ستة نفرٍ فصاروا اثنين وسبعين نفسًا فقال موسى: إنما أمرت أن أحمل مع نفسي منكم سبعين رجلًا فقط، فليتخلّف منكم رجلان وأنا أضمن لهما مثل ما يخرج معي فتشاحنوا في ذلك، ولم يتخلف منهم أحد فقال يوشع بن نون وكالوب بن يوفنا كانا أفضل القوم فنحن نقيم هٰهنا فأقاما، ويروى أنّ موسى قال: أريد أن يخرج المشايخ معي فطلبوا فلم يجدوا في بني إسرائيل سبعين شيخًا، فلمّا أمسوا وباتوا ليلتهم أظهر الله تعالى الشيب في جماعةٍ منهم حتى أصبحوا فتمّ عدد السبعين من مشائخهم وخرج بهم موسى فقالوا له: يا موسى ادع لنا ربّك لنسمع كلامه، قال: أفعل، فلمّا دنا موسى من الجبل وقع عمود من الغمام حتى غشي على الجبل ونادى موسى فدخل فيه فقال لقومه ادنوا فدنوا ودخلوا في الغمام ووقعوا سجودًا وسمعوا بجواب كلام موسى وكلام الله تعالى فناداهم الله تعالى يا بني إسرائيل، فلمّا سمعوا كلامه صعقوا ثم أفاقوا فناداهم ثانيةً يا بني إسرائيل فصعقوا قال الحسن صعقوا مرّاتٍ إلا أنهم لم يزل عنهم روح الحياة، قال: أراد أن الروح قد خرجت منهم كما تخرج من النائم وكأن الحياة فيهم باقية فلمّا أفاقوا في السابعة قالوا يا موسى لا نطيق سماع كلام ربّنا لكن أنت الترجمان بيننا وبينه، وفي رواية أخرى أنّ موسى دنا من الجبل وترك قومه خلفه في أسفل الجبل وكلّمه الله تعالى بما أراد وذكر موسى حاجة قومه وأنهم بعثوا وفدهم للشكر والعذر فيما كان منهم وما كان من توبة الله تعالى عليهم وإجابة ربهم بأحسن جواب لهم، فلمّا نزل إلى قومه قال لهم: ارجعوا فقد أذن لكم ربّكم في الرجوع وقبل مجيئكم وشكركم وعذركم فقالوا: إذا جئت بنا هلّا تركتنا في قومنا فتبلّغنا ما بلّغته هٰهنا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: الآية ٥٥] عيانًا، فلمّا قالوها وكفروا بنبيّ الله تعالى أخذتهم الصاعقة فماتوا عن آخرهم، فقام موسى يبكي ويناشد ربّه ويقول: يا ربّ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥] وصرفك من شئت إلى ما شئت من كفرٍ وإيمانٍ ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥] وقد ذكر وجه معنى الآية والإشكال والجواب فيها يعني في سورة

الأعراف ثم قال يا رب اخترت سبعين رجلًا من خيار بني إسرائيل فارجع وليس معي أحدٌ منهم، فكيف يصدقونني بشيءٍ ويأتمنوني على شيءٍ بعد هذا، وما يكون عذري عندهم في قومهم ربّ فابعث لي هؤلاء السبعين فاستجاب الله تعالى دعاءه فبعثهم وأحياهم يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٦] فلمّا أحياهم الله تعالى قالوا يا موسى قد عرفنا أنا لا نطيق رؤية الله تعالى ولكنّا نريد أن نسمع كلامه فسأل موسى ذلك لهم فناداهم الله تعالى فصعقوا كما ذكرنا من قبل، فقالوا: يا موسى قد عرفنا أنا لا نطيق سماع كلامه فكن أنت الترجمان بيننا وبينه، قال الله تعالى لموسى قل لهم: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: الآية ١٤] وحدي لا شريك لي، وأنا أخرجتكم من أرض مصر بذراعٍ شديدةٍ ويدٍ قويّة وأهلكت عدوّكم فرعون وأنجيتكم من قومه وما عذّبوكم به وفلقت لكم البحر وعدّ عليهم نعمه ثمّ قال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: الآية ٤٠] ولا تكذبوا برسلي وكتبي فأغضب عليكم وإنه لا يقوم لغضبي شيء، وأنا أرحم الرّاحمين لمن استغفرني وأتوب على من يتصل إليّ في وصائل كثير أوصاهم بها فلما عقلوها رجع موسى بهم فسألهم قومهم ماذا أمركم به ربكم؟ قالوا: وصانا بكذا وكذا، ولكنّه قال لنا إن لم تطيقوها فافعلوا ما بدا لكم فلا شيء عليكم فحرّفوا كلام الله تعالى، قال الله تعالى لموسى (عليه السلام) ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٧٥] وفي رواية أخرى أن الله تعالى لم يكن تاب على بني إسرائيل حتى جاء موسى ربه إلى الجبل في هذه المرة وكان من أمر السبعين ما كان وسأل موسى التوبة إلى قومه، فقال الله تعالى له: لا توبة لهم إلا أن يقتلوا أنفسهم فرجع موسى إلى قومه وقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤] فأسلموا أنفسكم للقتل على ما ذكرناه، قالوا: وكان من عبد العجل من بني إسرائيل خلق كثير فقتل منهم سبعون ألفًا فتاب الله تعالى على الآخرين قال ابن عبّاسٍ كان القتل لمن قتل شهادة وأحياؤهم الباقون كان مغفورًا لهم فهذا ما بلغنا من أمر عبادة العجل.

وكان من الأمور والعجائب في التّيه من أمر قارون(١)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القَصَص: الآية ٧٦] الآية، قال ابن عبّاسٍ: كان قارون أوّل من طوّل ثيابه وسحبها في الأرض وأوّل من جمع

(١) انظر تفاصيل قصة قارون مع موسى عليه السلام في ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/٤٠٨.

الكنوز ودفنها وأول من ركب الأرجوان[1] وأوّل من خرج وأركب معه الجواري والغلمان في زينتهم، ويروى أنّه كان له ألف غلمة. ويقال ثلاثمائة، قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القَصَص: الآية ٧٩] وذلك أنه خرج ومعه ثلاثمائة غلام في لباس الديباج ومناطق الذهب والفضة على سروج من الذهب والفضة وعليهم الثياب الملوّنة وثلاثمائة جارية على بغالٍ شهبٍ عليها سروج الذهب والفضة وعليهن ألوان الحلي والحلل مزيّنات بأنواع الزينة وخرج هو على برذونٍ أشهب عليه صنعة الأرجوان فوق سرج من الذهب وعليه أنواع الديباج والحليّ، وذلك كلّه مكلّل بالدرّ والياقوت وكان إذا ركب أمر الرجال أن يحملوا معه البدور من الدنانير والدراهم يمشون بين يديه قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القَصَص: الآية ٧٦] قيل وذلك أنه كان يحمل على أربعين رجلًا بدور الذهب والفضة يمشون بين يديه حيث أقبل وأدبر، ويقال: لا، بل كانوا يحملون مفاتيح خزائنه وكانت له من الخزائن ما جعل لكلّ خزانة مفتاحًا صغيرًا مثل وزن المثقال أو أصغر ثم اجتمع له من مفاتيح خزائنه ما كان يحتاج في حمله إلى أربعين رجلًا ذوي قوة فيمشون بها بين يديه فقال له خيار بني إسرائيل ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: الآيتان ٧٦، ٧٧] إلى آخر الآية، قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القَصَص: الآية ٧٨] يعني على صنعة الذّهب. وقال الكلبي: وذلك أن الله تعالى لما أمر جبرائيل بتعليم موسى صنعة الذهب والكيمياء علّمه ثلاثة أشياء من صنعة الذهب فعلّم موسى منها واحدةً أخته، وكانت أخته امرأة قارون وواحدة قارون فاحتال قارون حتى تعلّم ما كان عند امرأته وما كان عند هارون فجعل يصنع الذهب حتى اجتمعت له من الكنوز ما لم يجتمع لأحدٍ قبله ولا بعده، فلذلك قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القَصَص: الآية ٧٨] يعني علم كيمياء الذهب أنكر أن يكون ذلك من فضل الله، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القَصَص: الآيات ٧٨ ـ ٨٠] ثم اختلف أهل الأخبار في سببه يعني قارون وعصيانه وهلاكه، قال بعضهم: كان قارون ابن عمّ موسى وكان ممن تبع فرعون وملّكه فرعون على بني إسرائيل قبل أن يبعث الله موسى إلى فرعون، فلما جاء موسى آمن به قارون ظاهرًا وهو منافق في السر، فلما جاوز موسى بني إسرائيل البحر كان معه قارون على نفاقه فلمّا نزلوا التيه وبقوا فيه وأنزل الله تعالى على موسى الشرائع وفيها الزكاة، قال قارون: إنا لا نطيق من الزكاة ما يطلبه

(١) الأرجوان: الثوب الأحمر الذي يجلس عليه الملوك هكذا جاء في حاشية المخطوط ورقة (٣١٠).

موسى فصالحني على شيء أؤدّيه فصالحه موسى بإذن الله تعالى من كلّ ألف دينار على دينار ومن كلّ ألف درهم على درهم، ومن كلّ ألف شاةٍ على شاةٍ، وكذلك في جميع الأشياء من كل ألف على واحدٍ منه فرجع قارون إلى منزله فلم تسمح به نفسه فقال لموسى: لست أقدر على هذا وقال لعامّة بني إسرائيل إن موسى قد ادّعى النبوة واتخذكم تبعًا له والآن فهو يطلب منكم الزكاة، يريد أن يتّخذ من أموالكم لنفسه مالًا فلا تطيعوه فقالوا له: أنت سيّدنا وكبيرنا ورأينا لرأيك تبع فيما تقول فقال قارون نحتال حيلة ليذهب عزّه ومنزلته عند الناس فلا يطيعونه ثم أمر حتى دعيت بامرأة فاجرة كانت في بني إسرائيل وضمنوا جعلًا على أن تقذف موسى بنفسها على أنه دعاها وفجر بها فضمنت لذلك، ويقال إن قارون ضمن لها مائة دينار، فقالت: عجّلوا إليّ بما ضمنتموه لي فإن الكذب على نبي الله تعالى أمر عظيم فأكون قد جعلت على شيءٍ إذا فعلت ذلك فأعطوها ما رضيت، ثم أتى قارون إلى موسى فقال له: إن بني إسرائيل قد اجتمعوا لتأمرهم بما أمرك الله تعالى فخرج موسى إليهم وهو في برازٍ من الأرض فقال: يا بني إسرائيل إن الله تعالى أمرني أن أقطع من سرق وأجلد من افترى وأرجم من زنى إذا كان محصنًا، فقال قارون: ولو كنت أنت يا موسى قال موسى: ولو كنت أنا قال قارون: فإنّ الناس يزعمون أنّك فجرت بفلانة، قال موسى: ادعوها فإن قالت ذلك فالأمر كما قالت، فلمّا جاءت إلى موسى قال لها موسى: يا فلانة أتزعمين أني فجرت بك قالت: لا، والله وإنك لبريءٌ من ذلك ولكن هؤلاء جعلوا لي جعلًا على أن أقذفك بنفسي فوالله لا أفعل ولا أفتري على رسول الله تعالى فغضب موسى لذلك غضبًا شديدًا ووثب فسجد لله تعالى وقال في سجوده اللهم إن هؤلاء قالوا ما قالوا، ويروى أنه أخذ عصاه وخرج إلى الجبل وألقى نفسه على الأرض وتمرّغ في التراب فقال الله تعالى له يا موسى أعطشان أنت فنسقيك أم (جائع)[1] فنطعمك أم ذو حاجةٍ فنقضيها لك، فقال: يا رب قال لي بنو إسرائيل كذا وكذا، وقال قارون كذا قال: فما تريد؟ قال: أريد أن تأمر الأرض فتطيعني قال: قد جعلنا الأرض في طاعتك فرجع موسى إلى محلّة بني إسرائيل فقال للأرض خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم فقال خذيهم فأخذتهم إلى أوساطهم فقال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون يا موسى أغثنا فقال: يا أرض خذيهم فخسفت بهم أجمعين ويروى أنه دخل على قصر قارون وذهب إلى هارون من يخبره بأن موسى قد رجع غضبان ودخل على قارون فخرج هارون ليدرك موسى فجاء وموسى قد أمر الأرض أن تأخذ قارون فأخذته إلى عنقه فاحتضن هارون رأس قارون وقال: يا أخي إنه ابن عمّنا

(١) جاء في الأصل (جيعان) والصواب ما ثبتناه.

وصهرنا وإن هلك دخل النّار فقال موسى: دعه، وإلا أمرت الأرض أن تخسف معه فتركه هارون فخسفت به الأرض وفي رواية أخرى قال: إن قارون لما جاوز البحر وأمرهم بالشرائع وكانت النبوة لموسى (والحبورة)[1] لهارون والحبر هو الرأس الذي يقرب القربان ويكون بيده المذبح، قال قارون لموسى: إنّ لك الرسالة والنبوة ولهارون القربان والحبورة ولست في شيء لا أصبر على هذا قال موسى والله ما صنعت ذلك إنما جعل الله ذلك لنا قال: لا أصدقك حتى تريني آية حتى أعرف بها فأمر موسى مناديًا وأمر رؤساء بني إسرائيل أن يأتي كل واحدٍ بعصاه فأتوه فجمعها وخزنها وألقاها موسى في قبّةٍ التي كانت يوحى إليه فيها ودعا ربّه أن يريهم آية فبات القوم يحرسون العصيّ فلمّا أصبحوا إذا هم بعصاة هارون تهتز خضراء وكانت من شجرة الزيتون، فقال موسى: يا قارون هل ترى صنع الله تعالى بهارون؟ قال قارون: ما هذا بأعجب ممّا تصنع من سائر أنواع السحر فسمّي موسى ساحرًا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [هُود: الآية ٩٦] إلى فرعون فقالوا: ساحرٌ كذّاب واستحكم الحبورة لهارون وكانت بنو إسرائيل يأتون بقربانهم إلى هارون فيضعها في مواضعها وتأتي النّار من السماء فتأكلها فقال قارون: والله ما هذه النار إلا كنارنا وإن شئت يا موسى جئتك بنار مثلها تأكل قرباننا وإن لم تفعل ناري ما تفعل نارك فأنا كذّاب قال موسى: فآت بها فأمر قارون أتباعه أن يأتوا بالنار فابتدر له مائتان وخمسون رجلًا يحملون النّار في مجامرهم فأتوا بها إلى قربان قارون فلمّا دنوا من القربان جاءت نار من السماء فأحرقتهم كُلَّهُمْ واعتزل قارون بمن معه وكان كثير المال فجعل لا يجالس موسى ولا يأتيه فقال موسى: يا ربّ إن قارون قد أفسد على بني إسرائيل فأمر الأرض أن تطيعني فيه، وفيمن اتّبعه فأمر الله الأرض بطاعته فأتى موسى قارون ومن معه فقال: يا بني إسرائيل إن الله تعالى قد بعثني إلى قارون كما كان بعثني إلى فرعون فإن أبى عليّ مات بغير ما يموت به الناس وإنّي صادق فمن كان معي فليعتزل ومن كان معه فليلبث مكانه فلمّا سمعوا عرفوا صدق موسى فاعتزلوا من قارون إلا رجلين منهم فقال موسى للأرض: انهميهم فأخذتهم إلى ركبهم، فقال: يا أرض انهميهم فأخذتهم إلى أوساطهم ثم إلى صدورهم، فقال قارون لموسى: يا موسى أنشدك الله والرّحم فقال موسى: يا أرض خذيهم فخسفت بهم، ولما خسف بقارون قال أقوام من بني إسرائيل إنما أخسف موسى بقارون إلا ليبقى له ماله فأمر موسى الأرض حتى خسف بماله وجميع ما يملكه فهو يتجلجل إلى يوم القيامة فقال الله تعالى

---

(١) الحبر: العالم ذميًا كان أو مسلمًا، وهو حِبرُ بالكسر، ابن منظور ـ لسان العرب ٥٤٨/١ (باب حبر).

لموسى استغاث بك فلم تغثه فوعزتي وجلالي لو استغاث بي مرّة واحدة لأغثته وأنجيته، وروي أن الله تعالى قال لموسى: يا موسى دعاك عبادي فلم تجبهم فوعزتي وجلالي لو دعوني لوجدوني قريبًا مجيبًا، ولما خسف الله تعالى بقارون ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: الآية ٨٠] قال: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القَصَص: الآية ٨٢]، قالت الرواة: وأقام موسى بين ظهراني بني إسرائيل يعلمهم ويعمل بكتاب الله تعالى فيهم وكانوا يؤذونه في كثير من الأمور قال الله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٩]، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ[١] يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ﴾ [الصف: الآية ٥] وكان من أذاهم أنهم قالوا: لو هلكت عصاه أو انكسرت الصخرة فمن يسقينا أمتنا عطشًا ولو نسي الحجر أو يسرق منه فكيف يسقينا فوجم موسى من قولهم فأوحى الله تعالى إليه إذا نزلت الآن منزلًا فلا تضرب الحجر بالعصا، ولكن كلّمه كلامًا واعزم عليه باسمي فإنه يكلّمك، ففعل ذلك موسى فتكلّم الحجر بإذن الله تعالى وقال سمعًا وطاعةً يا نبيّ الله فانفجرت له الأنهار كما كان يضرب بالعصا وقال الله تعالى لموسى: يا موسى هل يدري قومك من أين أنقذتهم فكيف يعصونني ويقال كان من أذاهم له أن موسى كان شديد (الحياء)[٢] مستترًا من أعين الناس جدًّا فقالت بنو إسرائيل إنما يستره من قبل أنّ به برصًا يخفيه ويقال قالوا إنه (أدرة)[٣] قال فبينما موسى ذات يوم قد نزع ثيابه ووضعها على حجرٍ عند نهر ودخل الماء ليغتسل فأمر الله تعالى الحجر حتى عدا وعليه ثياب موسى فخرج موسى يتبعه ويناديه والحجر لا يقف فرأوا موسى من أطيب الناس عرضًا وأطهرهم جسمًا من العيوب وذلك قوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٩]، وروي أنّ من أذى بني إسرائيل لموسى وتعنّتهم له أنهم إذا كانوا في طريق أو مسير فيقدمهم موسى في الطريق قالوا إنه يتقدّمنا ليرفع علينا ويتخذنا له تبعًا لنسير خلفه، وإن مشى خلفهم قالوا: لسنا بغنيم لموسى فما باله أنه أخذ عصًا ليسوقنا بين يديه، وإن دخل موسى في وسط الناس في طريقه قالوا: قد

---

(١) وجاء في الأصل: (وقال موسى لهم) والصواب ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾.

(٢) جاء في الأصل (الجياء) والصواب (الحياء) أي حدث تصحيف.

(٣) أدرة: جاء في حاشية المخطوط تفسير لهذه الكلمة (الأدرة ورم الخصية) ورقة ٣١٧، والأدرة: بالضم: نفخة في الخصية وهو الذي يُصيبه فتق في إحدىٰ الخصيتين. ابن منظور ـ لسان العرب ١/ ٣٤ (باب أدر).

تغيّب بين الناس كأنّه يخاف عدوًا أو سبعًا وإن سار ناحيةً منهم قالوا: إنه لخلق السوء لا يخالط الناس فلم يكن موسى يدري كيف يمشي معهم ويتأذى بتعنّتهم له، ويقال: من آذائهم له أن نسبوه ورموه بقتل هارون.

بابٌ في ذكر وفاة هارون عليه السلام(١)

وتوفي هارون قبل موسى بثلاث سنين فيما ذكره أهل الأخبار، وكان من حديث وفاته فيما قال وهب إن الله تعالى كان ألبس هارون قميصًا وقال له: إنه لا يقدر ملك الموت على نزع روحه ما دام القميص عليه فكان هارون لا يخلعه قطّ ينام ويقوم ويغتسل وهو عليه، ولما أراد الله تعالى قبضه أوحى إلى موسى أن اخرج إلى موضع كذا، واحمل معك هارون فإني أريد قبضه فلا تخبره، فلما أراد الخروج قال هارون إلى أين يا نبيّ الله؟ قال موسى: أريد الخروج إلى مناجاة ربّي إلى مكانٍ وعدني فيه فهل ترغب في الخروج معي، وكان موسى قبل ذلك إذا خرج لمناجاة ربّه استخلف هارون في قومه وكان هارون يحبّ الخروج معه فخرجا جميعًا وذلك في يوم قائظٍ شديد الحرّ فأذلّهما الحرّ، وفي بعض الروايات أنه خرج معهما ابن لهارون فبينما هما كذلك إذ رفع لهما قصرٌ وبستان وعين ماء جارٍ فأتياها فإذا في القصر سرير من ذهب مزمولٌ بالدرّ والياقوت فقال موسى لهارون يا أخي انزع قميصك فاغتسل في هذه العين فقد أصابك الحرّ واعدل إلى هذا السرير فنم عليه حتى تستريح فقال هارون يا أخي أنت أحق بهذا السرير منّي، قال موسى لهارون: يا أخي، بل أنت أحق فإنك أكبر منّي سنًّا وعزم عليه موسى حتى نزع قميصه واغتسل فنام على السرير وعليه إزارٌ فقال لموسى: يا أخي أخاف أن الموت يأتيني فيقبض روحي فقد نزعت قميصي فقال موسى نرجو أن لا يكون إلا ما يحبّ الله والله قادر على قبض روحي وروحك متى شاء وفي نفس موسى ما فيها من الجزع بموت هارون وما أخبره الله تعالى من ذلك فنام هارون وخرج موسى فجاء ملك الموت وقبض روح هارون، فدخل موسى عليه يقبّله وجزع جزعًا شديدًا وبكى بكاءً طويلًا فناداه الله تعالى يعزّيه وقال له يا موسى: لا ينبغي أن تحزن لفقد شيءٍ معي، ولا تستأنس غيري ولا يشتدّ ركنك إلّا بي فكيف تحزن على شيء وأنت تسمع كلامي وتناجيني فليكن يا موسى أنسك بي وتوكّلك عليّ فقال موسى كذلك أفعل يا ربّ قال: فخرج موسى وترك هارون ورجع إلى قومه قالت بنو إسرائيل له ما فعل هارون قال قبضه الله تعالى إليه، فقالوا: بل أنت قتلته لما تعلم حبّنا له وميلنا إليه فحسدته، فدعا موسى ربّه فقال له:

(١) انظر تفاصيل وفاة هارون (عليه السلام) في: ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٤٥.

اخرج بهم إلى موضع كذا وكذا لأريهم صدقك فخرج بهم موسى إلى ذلك الموضع، فأظهر الله تعالى لهم سرير هارون الذي قبض عليه وهو جالس على السرير يشير بيده إلى بني إسرائيل وقال لهم: إن الله تعالى قبضني إليه وأكرمني بما ترون وأنا منطلق إليه، وأقرأ عليكم السلام فلا تؤذوا أخي ثم توارى عنهم وبقي موسى ثلاث سنين حتى بلغ تمام عمر هارون فإنه كان أكبر من موسى بثلاث سنين، وكان عمرهما مائة وسبع عشرة سنة وماتا جميعًا في التّيه وجعل بنو إسرائيل يجتمعون له مرة ويفترقون عنه أخرى ويتفتّنونه في الأمور فكان مما تفتّنوه أن يسألوه أن يسأل ربّه أن ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾ [البقرة: الآية ٦١] الآية، وذلك أنهم قالوا يا موسى قد نفرت طباعنا من أكل الطير وأحرق بطوننا المنّ بحلاوته ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: الآية ٦١]، قال موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦١] وأراد ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦١] وأشرف فإن كنتم لا بدّ تشتهون ذلك فلست بفلان لكن ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: الآية ٦١] من هذه الأمصار التي أمركم الله تعالى بدخولها فإن لكم هنالك ما سألتم وقال موسى لربه أن لا يميته حتى يجتمع لبني إسرائيل إلفتهم فاستجاب الله تعالى دعاءه فجمع إلفتهم حتى كانوا أجمع ما هم قطّ وأكثرهم عددًا وأحسنهم حالًا ومات أكثر من خرج من مصر في التيه قال بعض أهل الأخبار فلم يبق إلّا موسى ويوشع بن نون وكالوب بن يوفنا وأوحى الله تعالى إلى موسى أنه قابضه ومستخلف على قومه يوشع بن نون وجاعله نبيًا فأمره أن يأتي به مع نفسه إلى الجبل فذهب موسى ومعه يوشع بن نون فارتقى موسى الجبل وقام مقامه الذي يقوم بين يدي الله تعالى ويوشع غير بعيد منه فكان الله تعالى يعهد إلى موسى بما يريد أن يوحى به إلى يوشع وموسى يخبر به يوشع، ثم انصرف موسى واستخلف على قومه يوشع وأخبرهم أنّه نبي الله تعالى بعده وروي عن كعب الأحبار أنّ من كرامة موسى على ربّه أنه لما كثر عليه مسائل بني إسرائيل واشتدّ عليه مؤنتهم وكان يضجر موسى لذلك فلذلك أوحى الله تعالى في يوم الأحد إلى ألف نبيّ ليكونوا أعوانًا لموسى على تحمّل إعياء بني إسرائيل فمال إلى كلّ نبيّ منهم طائفة من بني إسرائيل وقلّت زحمة الناس عن محلّة موسى قال (فوحم)[1] موسى لذلك وشقّ عليه تفرق الناس عنه فقبض الله تعالى أولئك الأنبياء كلّهم في ليلة واحدة لئلا يشقّ ذلك على موسى وذلك لكرامته

---

(١) وحم: حزن: هكذا جاء معناها في حاشية المخطوط ورقة (٣٢١). والصواب وخم: أي ثقل: هذا الأمر وخيم العاقبة أي ثقيل، ابن منظور ـ لسان العرب ٣/ ٨٩٥ (باب وخم). وما جاء في الأصل تصحيف وتحريف.

على الله تعالى وروي أن الله تعالى كلّم موسى أربعة آلاف كلمة وكان آخر ما كلّمه به أن قال موسى يا ربّ أوصني قال يا موسى: أوصيك بأبيك ثلاث مرّات قال: يا ربّ أوصني قال: أوصيك بأمّك ثلاث مرّات قال يا موسى إن رضاء الأبوين رضائي وسخطهما سخطي.

باب في ذكر وفاة موسى عليه السّلام(١)

قد اختلف أهل الأخبار في ذلك فروى محمد بن كعب القرظي والحسن البصري قالا: لما حوّلت النبوّة من موسى، وذلك أن الله تعالى لما أراد أن يزهد موسى في الدنيا ويبغضها إليه ويحبِّب إليه الموت فحوّل النبوة عنه إلى يوشع فكان الوحي يأتيه دون موسى يروح ويغدو على يوشع فيقول له: يا نبيّ الله هل أحدث إليك وحيًا فقال له يوشع: يا نبيّ الله تعالى إني منذ صحبتك إلى يومنا هذا سألتك عن شيء حدثك الله تعالى حتى تكون أنت الذي تخبرني به أولًا. فلمّا رأى موسى ذلك كره الحياة وأحبّ الموت قال: إن صحّت هذه الرواية فليس معناه إلا أنّ الله تعالى نزع النبوة عن موسى فإنه لا يجوز نزع النبوة من النبيّ ولكن معناها أنّ موسى ضعف عن احتمال أعباء النبوة من دعوة الخلق وتعليمهم والحكم بينهم فصرف الله تعالى ذلك إلى يوشع، وهذا كما أن هارون كان نبيًا في زمن موسى إلا أن الوحي كان يأتي موسى دونه ويأمره الله تعالى بما يأمره به من تعليم الناس وغيره كذلك صيّر الله تعالى نزول الوحي والأمر والنهي والأحكام إلى يوشع وأن موسى كان على النبوة لا نزع لها فأعرف ولما أحبّ موسى الموت بعث الله تعالى ملك الموت حتى قبضه. ويروى أنّ موسى كان يومًا جالسًا يقضي بين بني إسرائيل إذ جاءه رجل فجلس بين القوم فأنكره موسى ودخله من تلقائه شيء فقام ودخل على أمّه وكانت في الأحياء واسمها حبورا فقالت له: لم تقوم في هذه الساعة فما بالك؟ وكان موسى إذ اغتمّ من شيء دخل عليها فأخبرها فقالت له: هل كرهت من قومك شيئًا؟ قال: لا، ولكن جاءني رجل فأنكرته فقمت لذلك قالت: وما ظنك به؟ قال: أظنّه ملك الموت قالت: أفلا تحققت ذلك فخرج موسى فوجد الرجل قائمًا بالباب فقال من أنت يا عبد الله؟ قال: أنا ملك الموت بعثت لأقبض روحك وأمرت بطاعتك، قال موسى: أفلا تراجع ربّك قال: نعم إن شئت أمهلتك عدد نجوم السماء من السنين، قال موسى: ثم مَهْ، قال: ثم الموت، قال: فما منه بُدٌّ؟ قال: لا، قال موسى: فامضِ لما أمرت ولكن دعني حتى أدخل على أمّي وبناتي أودّعهن قال: نعم، فدخل على أمّه

(١) انظر وفاة موسى (عليه السلام) في: ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٤١٨.

فانكبّ عليها يقبلها ويقول: يا أمّاه قد دنا الأجل وأحببت لقاء ربّي فبكت وبكى وودّع زوجته صفورا بنت شعيب وقال لها نعم الشريكة كنتِ لي وجمع ولده وأوصاهم جميعًا، قال وكانوا يقولون قبل ذلك لموسى يا نبيّ الله تعالى لو جمعت لولدك ما يعيشون به بعدك، فكان يقول: يكفيهم لقاط السنبل كما يكفي المسلمين المساكين وقيل إن زوجته قالت له حين ودّعها: ادع الله تعالى يا نبيّ الله تعالى أن يجعلني معك في الجنة، فقال لها: إن أردت ذلك فاضمني لي أن لا تستبدلي ثوبًا بثوب حتى ترقعيه ولا تدّخري طعامًا لشهرٍ فضمنت ذلك، فكانت بعد موسى تلقط السنبل وقت حصاد الناس فكان الناس إذا عرفوها طرحوا لها شيئًا كثيرًا فإذا علمت أنهم عرفوها وأنهم يتركون لها ذلك لحقت بمكانٍ آخر لا يعرفونها، فكان ذلك دأبها ما عاشت فلمّا ودّع موسى أمّه وزوجته وولده خرج إلى الناس فدعا يوشع واستخلفه على قومه، ثم خرج هو وملك الموت حتى خرجا إلى البريّة فإذا هو بجبرائيل وميكائيل وإسرافيل قيام ينتظرونهما فمرّوا جميعًا فأتوا على قومٍ يحفرون قبرًا عليهم عمائم بيض فاستنشق موسى من ذلك القبر رائحة أطيب من كلّ رائحة شمّها فقال لهم موسى: لم تحفرون هذا القبر؟ قالوا: لعبدٍ يحبّ الله تعالى والله تعالى يحبّه فقال: أتتركوني أن أدخل هذا القبر فأنظر فيه وذلك أنّه رأى ساحة ذلك القبر كأطيب مكان وأنزه روضة وأشدّها خضرةً قال موسى ما رأيت مكانًا أحسن منه، فقالت له الملائكة: ادخله يا كليم الله تعالى، فلمّا دخله واضطجع فيه فرجت له فرجة من القبر إلى الجنّة فجاءه روحها وريحانها فقال: اللهم اجعلني ذلك العبد الذي يحفر له هذا القبر فقبض ملك الموت روحه فتقدّم جبرائيل فصلّى عليه وخلفه الملائكة وهالوا عليه التراب ومضوا وروي في خبر وفاة موسى أن جبرائيل عليه السلام أتاه وأخبره أنه قد قرب أجله فاغتمّ موسى وذلك لما كان له من البنات الصّغار، ويقال كان له ابنتان فخرج موسى من محلّة بني إسرائيل إلى ساحل البحر وكان موسى وهارون يقدران على الخروج من التيه حيث أرادوا ولم يكن التيه محرّمًا عليهما قال: فجاء موسى ساحل البحر وقعد هنالك مغمًّا فأرسل الله تعالى إليه ملكًا، فقال: يا موسى ما لك مغتمًّا فأخبره موسى أن اغتمامه لما أخبر به من قرب أجله ولأجل بناته الصغار بلا وليٍّ ولا حافظٍ قال: فصعد الملك ثم رجع إلى موسى وقال: يا موسى إن الله يأمرك أن تضرب البحر بعصاك فضرب البحر بعصاه فانفلق البحر فظهرت في البحر صخرة فقال الملك: اضرب الصخرة فضربها بعصاه فانفلقت الصخرة وخرجت من جوفها دودة حمراء في فيها ورقة خضراء فتأكلها، فقال الملك: إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول يا موسى أتغتمّ لبناتك وأنا الرزاق الّذي لا أنسى الدودة الضعيفة في جوف هذه الصخرة في قعر هذه اللجّة العميقة وأوصل إليها رزقها فكيف أضيّع بناتك بعدك، فقال موسى: يا ربّ نعم الرزّاق أنت، ونعم الكافل أنت

فذلك قول الناس في الدّعاء يا كافل ولد موسى وروي أن ملك الموت جاء موسى حين أراد قبض روحه فقال له موسى: ما شأنك يا ملك الموت؟ قال: جئت لأقبض روحك قال له: من أي مكان تقبض روحي؟ قال: من فيك، قال: إني كلّمت به ربّي، قال: فمن أنفك، قال: قد استنشقت رائحة جنّة ربّي، قال: من عينيك، قال: قد أبصرت بهما نور تجلّي ربّي، قال: من أذنيك: قال قد سمعت بهما كلام ربّي، قال: فمن يديك، قال: قد أخذت بهما الألواح من ربّي، قال: فمن رجليك، قال: قمت بهما على الطور بين يدي ربّي، قال: يا موسى أسكران أنت تهذي، قال سبحان الله تعالى لا بل أنا صائم، قال: فاستنكهه ملك الموت فقال موسى هاه، فقبض في تلك النكهة روحه، وروي أنّه لما مات لم يعرف أحدٌ من بني إسرائيل أين ذهب موسى فماج الناس بعضهم في بعض ثلاث ليالٍ قالوا: قد رأينا نبيّ الله تعالى خرج ولم نره رجع فأين هو؟ فلمّا كان بعد الثالثة غشيتهم سحابة فسمعوا منها مناديًا بأعلى صوته مات موسى نبيّ الله تعالى فأيّ نفسٍ لا تموت ثلاث مرات كرر ذلك القول حتى فهمه الناس فعلموا أنّه قد مات لكنّه لم يعرف أحدٌ قبره، وروى محمد بن إسحٰق صاحب المغازي أن النبي ﷺ قال: لم يطلع أحد على قبر موسى عليه السلام غير الرحمة فنزع الله تعالى ذهنها حتى لا تدلّ على قبره أحد، وروي أنّه لما مات موسى رأى في المنام بعد موته فقيل له: يا نبي الله تعالى كيف وجدت الموت؟ قال: كشاة تسلخ وهي حيّةٌ، وروي أنه جاءت الملائكة من السمٰوات حين مات موسى ووضعوا أيديهم على خدودهم يعزّي بعضهم بعضًا ويقولون مات موسى كليم الله تعالى فأيّ الخلق لا يموت.

بابٌ في ذكر يوشع بن نون
عليه السَّلام[1]

وهو يوشع بن نون بن أفراهم بن يوسف عليه السلام ولمّا مات موسى قام يوشع خليفةً له على بني إسرائيل وكان الله تعالى أمره أن يستخلف عليهم وأوصى إليه موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى أرض (أريحا)[2] ليجاهد بهم العمالقة ففعل ونزل بساحتهم فخرجوا إليه وحاربهم وقتل جبابرتهم وكان ذلك يوم الجمعة وكان قد بقيت منهم بقايا فخاف أن يبهج عليه الليل فيفتنونه ليلة السبت إذ لا سبيل لهم إلى القتال ليلة السبت ويومه فسأل ربّه أن يحبس عليه الشمس ليفرغ منهم، فحبس الله تعالى الشمس حتى فرغ منهم، ويقال: لا، بل كان يقاتلهم فقالوا فيما بينهم غداة يوم السبت وهم لا يقاتلون فنحن نوقع بهم فخاف يوشع ذلك فسأله الله تعالى فحبس الشمس عليهم حتى فرغ منهم وهزمهم وقتلهم في عشيّة يوم الجمعة ثم داوم يوشع على الجهاد وفتح فيما يذكر إحدى وثمانين مدينة من نواحي الشام والسّواحل وما والاها ثم رفع عنهم الحرب أربعين سنة فسكنوا وطاب لهم العيش ويوشع فيهم مطاع وهم من أحسن الناس حالًا وكان من الحوادث في أيام يوشع أن الله تعالى لما فتح لبني إسرائيل مدينة أريحا وأمرهم بدخولها قال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: الآية ٥٨] أي حطّ عنّا ذنوبنا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: الآيتان ٥٨، ٥٩]، وذلك أنهم لما أتوا الباب رأوا بابًا رفيعًا إلى السماء فقالوا وما حاجتنا إلى السجود مع ما عليه هذا الباب من الارتفاع، فدخلوه رافعي رؤوسهم إلى السماء ويقال دخله بعضهم زحفًا على سبيل الاستهزاء وقالوا: بدل ما قيل لهم حطّة هطا سمقاثا أي نريد حنطة حمراء مخلوطة

---

(١) تفاصيل نبي الله يوشع (عليه السلام) في ابن كثير - البداية والنهاية ١/ ٤٢١.

(٢) أريحا: بالفتح ثم الكسر، وياء ساكنة، والحاء مهملة، مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن، بالشام بينها وبين بيت المقدس يوم، سميت فيما قيل بأريحا بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح، عليه السلام، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ١٦٥.

بالشعير، فغضب الله تعالى عليهم وسلّط عليهم طاعونًا هلك منهم في يوم واحد أربعة وعشرون ألفًا ومات منهم في ذلك الطاعون سبعون ألفًا فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٢] ثم رفع الله تعالى ذلك عنهم بدعاء يوشع ويروى أنّ يوشع قتل من ملوك الكنعانيين والعمالقة واحدًا وثلاثين ملكًا وكان على العمالقة سميدع بن هوبر بن نفيلة وقسم يوشع على بني إسرائيل الأرض المقدسة فجعل لكلّ سبطٍ ناحية يسكنونها ويعمرونها فلمّا حضرته الوفاة وكان أيامه أربعين سنة استخلف على بني إسرائيل كالوب بن يوفنا ولم يكن نبوة إلا أنّه كان رجلًا صالحًا .وكانت بنو إسرائيل تحبّه فوليهم فأطاعوه زمانًا يقوم فيهم بسنّةِ موسى ويوشع حتى قبضه الله تعالى على منهاجها واستخلف ابنًا له يقال له يوسف بن كالوب وكان نظير يوسف بن يعقوب في الجمال فافتتن الناس بالنظر إليه وجعلوا يَرِدُوْنَ عليه من الآفاق لرؤيته وافتتنت به النساء فتنة عظيمة فخاف على نفسه فدعا الله تعالى أن يسوء خلقه لئلا يفتتن به فأجابه الله تعالى بالجدري في وجهه وأملكهم أربعين عامًا بالعدل فلما توفّاه الله تعالى اختلف بعده بنو إسرائيل ودعا كل سبط إلى أنفسهم وزعموا أن الإمامة فيهم فقال ولد موسى الذين من سبطه إن الله تعالى لم يأمرنا بما يفعل هؤلاء ولا أوصى إلينا موسى بذلك فاعتزلوا بني إسرائيل وفارقوهم ودعوا ربّهم أن ينجيهم من صحبتهم وهم الذين قال الله تعالى في حقهم ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩] قال بعض أهل الأخبار دعوا الله تعالى باسمه الأعظم، ويقال كان دعاؤهم أن قالوا يا الله يا الله أنت المرهوب منك يرهبك جميع خلقك، يا نور النور، أنت الذي احتجبت دون خلقك فلا يدرك نورك نور يا الله يا الله، أنت الرفيع فوق عرشك لا إلـٰه غيرك تعاليت عن أن يكون لك شريك وتعظمت عن أن يكون لك ولد وتكرّمت عن أن يكون لك شبه وتجبّرت عن أن يكون لك ضدّ يا نور النور كلّ نور خامد لنورك يا مليك كلّ مليك يفنى غيرك يا دائم كل يزول غيرك، يا حيّ يا قيّوم وكل حيّ يموت غيرك يا الله يا الله يا الله يا أرحم الرّاحمين ارحمني رحمة تطفي سخطك عنّي وتكفّ عذابك عنّي وترزقني بها سعادةً من عندك وتحلّني بها دارك التي يسكنها خيرتك من خلقك يا أرحم الراحيم، ويقال: إن هذه الكلمات اسم الله الأعظم ويروى أنها الكلمات علّمها الله إبراهيم يوم ألقي في النار فدعا بها فنجاه الله تعالى منها، ودعا موسى يوم البحر ففلقه الله تعالى له وإن قوم موسى دعوا بها فاستجاب الله تعالى لهم فأظهر لهم سربًا في الأرض فدخلوه وجعل الله تعالى لهم شعلةً تسير بين أيديهم مثل المصباح وهم يتبعونها، وفي بعض الروايات أنهم ساروا في السرب ثلاثة أيّام، وفي بعض الروايات أنهم ساروا فيها سنة ونصفًا وجعل الله تعالى معهم نهرًا من ماءٍ يجري معه، وأجرى عليهم أرزاقهم على

أيدي الملائكة حتى خرجوا من السرب وراء الصّين وبين الناس وبينهم نهر من رمل جارٍ فلا يسكن في السنة كلّها إلا يوم عاشوراء فهم الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ [الإسرَاء: الآية ١٠٤] أي أرض المشرق وراء الصّين ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسرَاء: الآية ١٠٤] وهو أنهم إذا أنزل عيسى من السماء وخرج المهدي يخرجون معهما إلى بين الناس، وروي أن النبيّ ﷺ مرّ بهم ليلة المعراج وهو على البراق ومعه جبرائيل فرأى قومًا صالحين متمسكين بالإسلام والشريعة ورآهم في بيوت لا أبواب لها ورأى قبورهم على أبوابهم ومساجدهم خارجة من قراهم ووجدهم إذا حرثوا وضعوا الماء على أحد جانبي الأرض والعلف على الجانب الآخر فإذا أتى الثور جانب الماء عرضوا عليه الماء وكذلك إذا أتى جانب العلف عرضوا عليه العلف فسلم عليهم رسول الله ﷺ وسأل جبرائيل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٩] وسنذكر تمام قصتهم في ذكر المعراج إن شاء الله تعالى.

باب في ذكر حزقيل النبيّ عليه السّلام[1]

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٣] الآية، ذكر أهل الأخبار أنّه لما اختلف بنو إسرائيل بعد يوسف بن كالوب وفارقهم أهل الصلاح كما ذكرنا بعث الله تعالى فيهم حزقيل بن يورا ويقال ابن يحنّه وكان يسمّى ابن العجوز، إنما سمّي بذلك لأنّ أباه كان له امرأتان وكان لإحداهما عشرة بنين وكانت الأخرى أم حزقيل عقيمًا وكان أبوه صاحب قربان بني إسرائيل وكان من سنّة صاحب القربان حديدة على رأسها كلّابان يدخله في اللحم فما تعلّق بالكلابين فهو نصيب القربان وليس له غير ذلك فأخذ أبو حزقيل نصيبه من القربان وجاء به فقسمه بين أهله فصار لامرأته أمّ الأولاد أحد عشر سهمًا ولأمّ حزقيل سهمٌ واحد فشمتت أمّ الأولاد بأمّ حزقيل وقالت: قد فضّلني الله تعالى بالأولاد فلي من القربان أحد عشر سهمًا ولك سهم واحد، فعظم ذلك عليها فلمّا جنّها اللّيل قامت من آخر اللّيل فصلّت وتضرّعت إلى الله تعالى وابتهلت في الدعاء وسألت ربّها أن يهب لها ولدًا صالحًا يؤنس به وحشتها وتكثر وحدتها ونذرت أن تجعله محررًا لله ولعبادته وسألته أن يجعل لها علامة استجابة دعائها فلما أصبحت حاضت وكانت لم تحض منذ سنين لكبر سنّها فلما رأت ذلك أيقنت وفرحت فلما ظهرت دخل عليها زوجها فرأى في وجهها تهللًا وحسنًا زيادةً على ما كان يراها من قبل فواقعها فحملت وأعجب الناس من أمرها وقالوا هذا من أمر الله تعالى فنرجو أن تلد هذه العجوز ولدًا صالحًا أو نبيًّا من الأنبياء فإن العجائز تلدن الأنبياء كما ولدت سارة لإبراهيم، ثم إن العجوز ولدت غلامًا يعرف فيه سيماء الخير وسمّاه الناس ابن العجوز وأن الله تعالى أنبت حزقيل نباتًا حسنًا فخرج يومًا إلى بيت إيليا وذلك قبل بناء البيت المقدس إلا أن الصخرة كانت معلومة عندهم وكانت عليها قبّة يطوف الناس بها فخرج حزقيل من مدينته زائرًا للصخرة وأقام بها أيامًا طوالًا معتكفًا، قال

---

(١) باب ذكر حزقيل النبي (عليه السلام) في: ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٤٤٦.

وأصاب أهل مدينة حزقيل بعد خروجه إلى بيت إيليا طاعون فخرج الناس هاربين من الطّاعون إلى وادٍ هنالك فسلّط الله تعالى عليهم الموت فذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٣]. قال ابن عبّاسٍ كانوا أربعة آلافٍ وقال الحسن: ثمانية آلافٍ وقال وهب: ثمانين ألفًا، والله أعلم ماتوا وحفر أهل الناحية عليهم حضائر حتى صاروا عظامًا نخرة فرجع حزقيل من اعتكافه فمرّ بهم فوقع عليهم وتعجب من أمرهم ودخلته من قبلهم رحمة فقال: يا ربّ هؤلاء قومي أهلكتهم قال الله تعالى لأنهم تفرّقوا من الطاعون فأريتهم قدرتي، قال: فدعا الله تعالى أن يبعثهم فاستجاب الله تعالى له وجُعلت العظام تسعى بعضها إلى بعض، روي عن وهب أنّه قال نبت عليها اللحم والعصب والعروق ثم الجلد ثم نفخ فيهم الروح فقاموا أحياء، وفي رواية ابن عبّاس كانوا قد نتنوا فلمّا أحياهم الله تعالى بقيت تلك الرائحة فيهم وفي أولاده، قالوا: ثم إن حزقيل قام في بني إسرائيل بأمر الله تعالى وطاعته حتى قبضه الله تعالى إليه فعظمت الأحداث بعده في بني إسرائيل وخالطوا عبدة الأوثان وتمسّك بعضهم بعهد الله تعالى، وعصى بعضهم حتى قتلوا الأنبياء وأبناء الأنبياء والّذين يأمرون بالقسط فبعث الله تعالى فيهم إلياس بن بشير بن فنحاص بن العيزار بن هارون عليه السلام رسولًا لتجديد العهد والشريعة.

بابٌ في ذكر إلياس النّبيّ عليه السَّلام(١)

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣﴾ [الصَّافات: الآية ١٢٣] الآية، قال أهل الأخبار كان إلياس مع ملكٍ من ملوك بني إسرائيل يقال له أجب، ويقال أجاب وكان أجب مسلمًا وإلياس يقيم له أمره وملكه وكان ملك بعلبك من ناحية الشام فكانت بنو إسرائيل اقتسموا الشّام منذ أيام. . .، فكان على كلّ ناحية ملك وأنّ ملوك الشام عبدوا الأوثان وتركوا الدّين وكان أجب ملك بعلبك متمسكًا بالدين ومعه إلياس النبيّ يقيم له أمره وكانت لأجب امرأة يقال لها أزبيل وكانت مسنّة كبيرة قد تزوّجها سبعة من الملوك وكانت تبغض الإسلام وأهله، فقالت لزوجها أجب كيف لا تصنع ما يصنع أصحابك من الملوك في عبادة الأصنام وساعدها قومٌ على رأيها فقال أجب لإلياس: يا إلياس إنّي لا أحبّ أن أعبد ما يعبد الناس، فقال له إلياس: إن ذلك كفر وباطل وأنت على الهدى فقال: إن الذين يعبدون الأوثان على مثل ما نحن عليه من الملك والنعمة يأكلون ويشربون وهم على أحسن حال من حالنا وليس لنا عليهم من فضل قال: فاسترجع إلياس وخرج من عنده حزينًا، وأن امرأة الملك وهي أزبيل أخرجت صنمًا كانت تعبده يقال له: بعل ولذلك سمّيت المدينة (بعلبك)(٢) وكان من ذهب وقد كلّل باليواقيت واللؤلؤ والجواهر وأجلسته على سرير وجمعت أربعمائة رجل ممن كانوا على رأيها وجعلتهم سدنة بيت ذلك الصنم وعبده واتبعها على عبادته زوجها أجب وعبده سائر الناس فجاءهم إلياس فدعاهم إلى الله تعالى وإلى توحيده ونهيهم عن الكفر والشرك فلم يزدهم إلا بعدًا قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝١٢٥ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝١٢٦﴾ [الصافات: الآيات ١٢٤ - ١٢٦] فكذبوه وخالفوه فقال

---

(١) انظر تفاصيل إلياس (عليه السلام) في ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٤٤٣.

(٢) بعلبك: بالفتح ثم السكون، وفتح اللام، والباء الموحدة، والكاف المشددة، مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وقصور على أساطين من الرخام لا نظير لها في الدنيا بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٤٥٣.

إلياس عند ذلك اللّهم إنّ بني إسرائيل قد أتوا إلى الكفر وعبادة غيرك اللهم فغيّر ما بهم من نعمتك فأوحى الله تعالى إليه أن قد جعلت أمر أرزاقهم بيدك فقال إلياس اللهمّ احبس المطر عنهم فحبس الله تعالى المطر ثلاث سنين ويقال سبع سنين حتى جهدوا وأهلك كثير من الناس والدواب والمواشي، وإن إلياس خاف على نفسه من بني إسرائيل حين دعا عليهم بالقحط فاستخفى منهم وجعل يفرّ من موضع إلى موضع فاستخفى ليلة من الليالي عند امرأة فقيرة وكان لها ابن شابٌّ يقال له اليسع بن أخطوب وكان مريضًا به عاهة فدعا له إلياس فشفاه الله تعالى من عاهته وإن إلياس دعاه إلى الله تعالى وإلى متابعته فاتبعه وآمن به فلمّا أمسك الله تعالى المطر عن بني إسرائيل أرسل إلياس اليسع فقال: قل للملك إن إلياس يقول لك اخترت عبادة البعل على عبادة الله تعالى فاستعدّ لعذاب الله تعالى، وانطلق إلياس ومعه اليسع فالتجأ إلى ذروة جبل منيع في غارٍ هنالك وجعل يتعبّد خفيةً من الملك فبقي هنالك ثلاث سنين ويقال سبع سنين وجعل الله تعالى يأتيه برزقه ويقال إن الله تعالى أمر غربانًا حتى تأتي ناحية بيت المقدس تقلع الكرفس من شطوط أنهارها ويقال من شطوط أنهار دمشق فتأتي به باب الغار الذي فيه إلياس فترمي بها فيه القوت لإلياس فيفطر إلياس واليسع على ذلك، وفجّر الله تعالى لإلياس على باب الغار عين ماء يشرب ويتوضأ منها، ولما اشتد القحط على الملك وقومه أرسل الملك إلى السبعين الذين هم سدنة الصنم ودعاهم وقال لهم: سلوا البعل وقومه أن يفرّج عنا ما بنا قال: فأخرجوه وقربوا له الذبائح وانعكفوا عليه بالدعاء والسجود وسألوه الفرج فلم يروا عنده إجابة، فقال الملك إنّ إلٰه إلياس أسرع إجابة له من البعل لكم، ثم إنّه بعث في طلب إلياس ليدعو لهم بالفرج، فلم يجبهم فذكر أن العين الذي كان أظهرها الله تعالى لإلياس غار ماؤها فقال: يا رب قد غار مائي فقال الله تعالى إني أهلكت بدعائك خلقًا كثيرًا من بني إسرائيل عطشًا وجوعًا فلم تجزع لذلك وتجزع بغور مائك فقال يا ربّ دعني فأكون أنا الذي أدعو لهم بالفرج لعلّهم يتذكرون ويرجعون، فقيل له: نعم، فجاء إلى بني إسرائيل، فقال لهم: أتعلمون أنكم على ضلالٍ وباطل وأني على الحقّ وأن الله تعالى عليكم ساخط فأخرجوا صنمكم وادعوه بالفرج لكم، وأنا أدعو الله تعالى فإن أجاب صنمكم بقضاء الحاجة فأنتم على الحقّ، وإن لم يجب وأجابني الله تعالى دعائي فاعلموا أنّني على الحق فقالوا نفعل وأخرجوا الصنم وقربوا له القربان ودعوه دعاءً كثيرًا وسألوه الفرج فلم يروا عنده إجابة فتوضأ إلياس وصلّى ودعا ربّه بالفرج فنشأت سحابة مثل الترس ينظرون إليها ثم ترامى إليه السحاب فانبسطت وأطبقت عليهم فأرسل الله تعالى عليهم المطر وأعانهم وعاش الناس وخصبوا ولم يرتدوا على ما هم فيه من الكفر وكذبوا إلياس فضجر من ذلك

إلياس ودعا الله تعالى أن يخرجه من بينهم، فقال الحسن البصري: إنهم تابوا في ذلك الوقت ولكنهم كفروا بعد ذلك فدعا إلياس ربّه أن يريحه منهم، فقيل له: انظر يوم كذا وكذا فآت فيه مكان كذا وكذا فما استقبلك من أيّ دابّة كانت فاركبها ولا تهبها فلمّا كان ذلك اليوم خرج إلياس إلى المكان الذي ذكر له ومعه اليسع تلميذه فإذا هو بدابةٍ على صورة أسدٍ فجاءت حتى وقفت بين يدي إلياس فوثب وركب فمرّت به مرور الريح وجعل اليسع تلميذه يناديه يا إلياس بماذا تأمرني فلم يجبه، وكان آخر العهد به ويقال: إنه قال أوصيك بما رأيتني عليه من توحيد الله تعالى وطاعته وتقواه، ثم توارى عنه قالوا جميعًا إن الله تعالى كسا إلياس الريش وألبسه النور وقطع عنه حاجة الطعام والشراب وهو يطير مع الملائكة حيث يشاء وجعله الله تعالى إنسيًّا ملكيًّا أرضيًّا سماويًّا وقال الحسن هو موكّل بالفيافي ويطوف بها ويقوم بما يأمره الله تعالى به والخضر موكّل بالبحار وقد أعطاهما الله تعالى البقاء إلى نفخة الصّعق وأنهما يجتمعان كلّ عام يوم عرفة والأيام والمواسم ويوصي كلّ واحدٍ صاحبه بتقوى الله ويخبره بأحواله وما عهده الله تعالى إليه من أمره ثم يتفرّقان إلى العالم القابل وربّما يراهما الصّالحون.

باب في ذكر اليسع ابن أخطوب تلميذ إلياس[1]

قد ذكرنا ابتداء أمر اليسع وأنّ إلياس دعا الله تعالى وسأله أن ينبّيء اليسع فنبأه الله تعالى وجعله خليفة فمكث في بني إسرائيل ما شاء الله تعالى، ثم إنه مضى لسبيله وخلّف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء وقام فيهم ملك جبّار يسمّى كنعان وهو الذي تكفّل له ذو الكفل بالجنّة إن آمن به واتبعه.

بابٌ في ذكر ذي الكفل[2]

قال بعض الناس إن ذا الكفل هو اليسع يسمى ذا الكفل لأنّه تكفل عن إلياس أن يقوم بما أوصاه به وقام به بعده ما شاء الله تعالى فلم يقصّر فيه فسمّي ذا الكفل وقال آخرون بل كان ذو الكفل رجلاً آخر تكفّل بعمل نبيٍّ من الأنبياء وهو أن ذلك النبيّ كان يصوم النهار ويقوم الليل ويقضي بين الناس فلا يغضب ولا يعجل فلما حضرته الوفاة جمع الناس وقال من الذي يتكفّل عنّي فيقوم بما كنت أفعله ولا يقصّر فيه فلم يجبه أحد

(١) انظر تفاصيل اليسع (عليه السلام) في ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/٤٤٨.
(٢) انظر تفاصيل ذي الكفل في الثعلبي، العرائس ص ١٤٦.

فقام فتى شاب فقال: أنا أتكفّل بذلك فقال له النبيّ أنت صبيّ لا تقدر على ما أقول ولا تصبر عليه فلمّا كان يوم الثاني جمع الناس وعرض ذلك عليهم فلم يجبه أحد فقام الغلام فقال: أنا أتكفل بذلك، فأجابه بمثل جوابه، فلمّا كان اليوم الثالث جمع النّاس وعرض عليهم فلم يجبه إلّا الغلام الشابّ فقال إذًا لا يجيبني غيرك، فعسى الله تعالى أن يوفقك فاجلس فاحكم بين الناس كما تراه حتى أنظر إلى حكمك وحالك فجلس وحكم بين الناس فرضي النبيّ حكمه فجعله خليفة وتوفي النبيّ، وفي بعض الرّوايات أن هذا النبيّ الّذي تكفّل عنه ذو الكفل هو اليسع فقام الفتى مقام اليسع وجعل يسير بسيرته لا يقصّر في شيءٍ منها فحسده إبليس فجاءه يومًا من الأيّام على هيئة شيخ وقد قام ذو الكفل من مجلس القضاء وقت الظهيرة ليدخل منزله فقيل وكان لا ينام إلّا تلك السّاعة الواحدة فاعترضه إبليس في الطريق وجعل يسأله ويكلّمه ويشغله حتى فات وقت القيلولة ودخل وقت الصلاة فدخل ذو الكفل منزله وتوضّأ وخرج وصلّى وجلس للحكم بين الناس كما كان من عادته حتى أمسى ولم ينم، فلمّا كان اليوم الثاني جلس ليقضي بين الناس إلى وقت قائلته فلمّا قام ليدخل منزله وينام اعترض له إبليس في هيئة الشيخ أيضًا وحبسه وجعل يكلّمه ويشغله إلى أن مضى الوقت ودخل وقت الصلاة فتوضأ ذو الكفل وخرج للصلاة ولم يجد وقتًا ينام فيه فجلس للحكم إلى المساء، فلما كان اليوم الثالث فعل به إبليس مثل ما فعله في اليومين ولم يقدر ذو الكفل على القائلة وكان لا ينام الليل وأراد عدوّ الله تعالى أن يقصّر ذو الكفل فيما تكفّل من أمر ذلك النبي فلمّا كان اليوم الرابع اعترض له إبليس مثل ما كان يعترض له في الأيام الثلاثة فقال له ذو الكفل أيّها الشيخ عتيتني وذهبت بقائلتي ثلاثة أيّام فقال: أنا الشيطان جئتك أفعل بك هذا لكي تغضب وتترك ما تكفّلت به عن النبيّ فقال أعوذ بالله تعالى منك وذهب إبليس ولم يقدر عليه ولما أن وفى ذو الكفل بما تكفل به بتمامه سمّي ذا الكفل، ويقال: بل كان ذو الكفل رجلًا صالحًا وكان في وقته ملكٌ قتّالٌ يقتل الأنبياء والأحبار فجمع ثلاثمائة نبيّ ويقال أربعمائة وصلحاء وجعل يقتلهم في نهاره كلّه حتى أمسى وقد بقي منهم مائة نفس فقال: من الّذي يتكفّل هؤلاء عنّي فيردهم إليّ غدًا فأقتلهم فقام رجلٌ وقال: أنا أكفلهم منك فكفّل به ومضى بهم إلى منزله وعشّاهم ثم سرحهم بجنح الليل حتى هربوا فلمّا أصبح الجبّار طلب الرّجل فقال أين الذين تكفّلت بهم قال: لا أدري أين ذهبوا فأخذه الملك وعذّبه ثم إن الله تعالى خلّصه منه وشكر له سعيه وسمّاه ذا الكفل وقال آخرون: كان ذو الكفل نبيًّا بعثه الله تعالى بعد اليسع إلى ملك يقال له كنعان الذي ذكرناه وكان من العماليق وكان ذو الكفل يعبد الله تعالى سرًّا منه ويخافه لكفره وطغيانه فقيل للملك إن في مملكتك رجلًا يفسد الناس فبعث إليه من يطلبه فأتى به فقال له ما هذا الذي بلغني عنك؟

فقال: إنّي أوحّد الله تعالى وأدعو الخلق إليه فقال: ألا تخاف أن أقتلك؟ فقال ذو الكفل: اسمع منّي ولا تغضب ولا تعجل فقال الملك قبل فافتتح كلامه بحمد الله تعالى وثنائه ثم قال أيّها الملك إنك تزعم أنّك إلٰه فما تقول أأنت إلٰه الخلق جميعًا أم إلٰه قومك، فإن كنت إلٰه قومك فمن إلٰه سائر الخلق، وإن كانت إلٰه الخلق جميعًا فكيف ولا سلطان لك إلّا على من في بلدك فبهت الملك وقال: ما تقول أنت؟ قال: أقول إلـٰهك وإلٰه الخلق كلهم هو إلٰه السمٰوات والأرضين وخالق الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والدواب فاتق الله تعالى واحذر عذابه، فقال الملك فما جزاء من عبد هذا الإلٰه قال الجنّة الدائمة قال وما الجنّة؟ فوصف له ذو الكفل الجنّة ونعيمها وما أعدّ الله تعالى فيها لأهلها ووصف له الجنة وحال أهلها فيها ورغب الملك ترغيبًا تامًّا فقال الملك: وما جزاء من عصى هذا الإلٰه؟ قال: النّار فوصف له جهنم وعذابها وما أعدّ الله تعالى لأهلها فيها وذكر حالهم فيها وخوفه أشدّ التخويف فرقّ الملك لقوله وبكى ثم قال له: أتكفل لي بهذه الجنّة التي وصفت وبالنجاة من النّار الذي ذكرت إن آمنت بإلـٰهك وعبدته فقال: نعم، وأكتب لك بذلك كتابًا على الله تعالى إذا قدمت عليه، وَفى لَكَ بما تكفلت لك وزيادة قال الملك فاكتب الكتاب فقال بسم الله تعالى هذا كتاب كتبه فلان الكفيل على الله تعالى لكنعان الملك ثقة منه بالله تعالى أن لا يضيع أجر من أحسن عملًا وأن لكنعان على الله تعالى بكفالة فلان إن تاب ورجع وعبد ربّه أن يدخله الجنة وينجيه من النار فإنه رحيم بالمؤمنين واسع الرحمة سبقت رحمته غضبه ثم إنه ختم الكتاب ودفعه إليه فقال الملك فأمرني الآن كيف أصنع فأمره فاغتسل ولبس ثيابًا طاهرة ثم عرض عليه الإسلام فتشهّد شهادة الحق وعلّمه الشرائع والصلاة والصوم فقال الملك: إنه لا إصلاح لي الآن إلّا أن أخرج من ملكي هذا وألحق بالناس فأعبد الله تعالى معهم فخرج من بين قومه مستخفيًا ففقدوه وطلبوه فقيل: إن ذا الكفل أفسده عليكم فطلبوا ذا الكفل فتوارى عنهم فخرج قوم منهم في طلب الملك يسألون عنه حتى وجدوه في أرض بعيدة ورأوه يصلّي فلمّا رأوه خرّوا له سجّدًا فانصرف إليهم وقال: لا تسجدوا لأحد دون الله تعالى واعلموا أني آمنت برب السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم ثم وعظهم ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا ثم إن الله تعالى قضى أن حضرته الوفاة فقال لقومه: لا تبرحوا فقد حضر أجلي حتى تدفنوني ثمّ إنّه أخرج الكتاب الذي كتب له من يد ذي الكفل فقال: اقرؤوه فقرؤوه وعلموا ما فيه فقال: إذا مت فادفنوا هذا الكتاب معي فدفنوه والكتاب معه ووضعوه على صدره فبعث الله تعالى ملكًا حتى رفع الكتاب وردّه إلى ذي الكفل وقال له: يا ذا الكفل إن الله تعالى وفى للملك بما تكفلت له من الله تعالى ويقول هكذا أفعل بأوليائي وأهل طاعتي فخرج ذو الكفل إلى الناس من موضعه فأخذوه فقالوا له: أنت

غدرت ملكنا، فقال: إني لم أغدره ولكنّي دعوته إلى الله تعالى وتكفلت له بالجنّة فإنه قد مات اليوم في ساعة كذا وكذا ودفنه أصحابكم ودفنوا معه كتابي هذا الذي كتبت له بالكفالة وقد وفى الله تعالى بما تكفلت له وردّ عليّ كتابي هذا وهذا دليل صدقي فاصبروا إلى أن يرجع إليكم أصحابكم فتعرفوا صدقي فحبسوه إلى أن يرجع أصحابهم فقصّوا عليهم القصة فقالوا: أتعرفون ذلك الكتاب فأخرج ذو الكفل الكتاب فنظروا إليه وقرأوا ما فيه وعرفوه وقالوا هذا هو لا شكّ فيه وقد دفنّاه معه يوم كذا وكذا فحسبوا له الأيام فكان قول ذي الكفل وقولهم في موت الملك ودفنهم سواء فآمن القوم بذي الكفل واتبعوه ويقال آمن به مائة ألف وعشرون ألفًا وأنه تكفّل لهم مثل الذي تكفّل لملكه فلذلك سمّاه الله تعالى ذا الكفل فهذه الروايات كلّها قد جاءت في أمر ذي الكفل والله أعلم. وذكر وهب أنّه كان بعد ما مضى ذو الكفل لسبيله في بني إسرائيل شابٌّ صالح ولم يكن نبيًّا وكان يقضي بينهم ويعلّمهم يقال له شمعون وكان من أفضلهم رأيًا وعقلًا ودينًا وكان الله تعالى نبّأه في المنام وأمره أن يحكم بين بني إسرائيل وكان كثير من أنبياء بني إسرائيل لا يأتيه الملك ولكن يراه في منامه بما يريد أن يبلغه منه وكان شمعون هذا الذي قطعت مذاكيره وسملت عيناه فعاتبه قومه في ذلك فقال: أما عيناي فكنت أنظر بهما إلى ما اشتغل قلبي عن ذكر ربي وتذكّرني الدنيا فأحببت أن لا أرى بهما الدنيا وأما قطع مذاكيري فلأني لم أرَ فتنة أعظم من فتنة النساء ولا شهوة أشدّ وأوشك أن تجرّ صاحبها إلى النار منها فأحببت أن أبعد ذلك عنّي فأزداد فيها رغبة فلم يزل فيهم يمضي لهم أحكامهم حتى حضره الوفاة فاجتمعوا إليه وقالوا استخلف علينا فإنّا نخاف أن تتركنا بلا خليفة فنختلف ونتنازع، قال: فاستخلف شمعون عليهم رجلًا يقال له عيلي فقام فيهم بالعدل أحسن السيرة أربعين سنة ثم إنّه شاخ وضعف وكان له ابنان فغلباه وعملا بالرشوة وفسقا واستحلّا من القربان له زيادة على ما يكون لصاحب المذبح فغضب الله تعالى عليهم وحوّل عنهم الخلافة وعن الحسن أن الله تعالى غضب على عيلي لأنّه رأى ابنًا له ينظر إلى امرأةٍ لا تحلّ له فقال له: مهلًا يا بنيّ فقال الله تعالى: لنبيّ كان في ذلك الزّمان قل له إني لا أخرج من صلبك صديقًا أبدًا لم يكن من غضبك لي إلّا أن قلت لابنك مهلًا يا بنيّ قال: وسقط عيلي عن سريره فانقطع بعض أعضائه وأسقطت امرأته ولدًا لها وكان له ابن بعثه إلى الغزو مع التابوت فقتل ابنه وأخذ الكفّار التابوت منهم وغلبوهم عقوبة من الله تعالى على هَوَانِهِ في أمر الله تعالى وبعث في بني إسرائيل شموئيل نبيًّا.

بابٌ في ذكر أشموئيل بن هلقا عليه السّلام(١)

وروي عن ابن عباسٍ أنه لما غضب الله تعالى على عيلي وأراد أن يوصي إلى أشموئيل فبينما أشموئيل في مصلّاه بين النائم واليقظان إذ سمع نداء قيل له يا شموئيل ففزع من الصوت قال: فقام فأتى عيلي وقال له: إني سمعت كذا وكذا، فقال له: ارجع إلى مكانك فإذا أتاك النداء فقل يا ربّ إن عبدك يسمع فرجع أشموئيل إلى موضعه فنودي يا أشموئيل فقال: يا ربّ إن عبدك يسمع فمره يفعل فنودي اقترب واشدد يدك بالمحراب ففعل، فأوحى الله تعالى إليه وقال له: إن الله تعالى خلقك يوم خلقك نبيًّا والآن وقد نبّأك فاعمل بأمر الله تعالى ووحيه وكتابه وجاهد في الله حقّ جهاده قال الله تعالى له اذهب إلى عيلي وقل له إنك بدّلت وغيّرت خلافة الله تعالى فنزعها الله تعالى عنك فلمّا أخبر أشموئيل عيلي بذلك اختلفت بنو إسرائيل فاعتزلت خيارهم وأهل الحق مع أشموئيل بأمر الله تعالى واعتزل عيلي وأتباعه واقتتلوا حتى تفانوا ثمّ إن الله تعالى نصر أشموئيل ومن معه عليهم فقام في بني إسرائيل وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٣]، وقال الله تعالى يذكر أشموئيل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٦] وذلك النبيّ كان أشموئيل عليه السلام وهو من سبط أولاد يعقوب الذي كان منه موسى وهارون فلمّا اجتمع لأشموئيل أمره واتبعه بنو إسرائيل قالوا ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٦] وكان من أمر بني إسرائيل أن الله تعالى جعل لهم تابوتًا كما ذكر الله تعالى ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

---

(١) انظر تفاصيل نبي الله شموئيل بن هلقا (عليه السلام) في الطبري، تأريخ الأمم والملوك ١/ ٤٦٧، الثعلبي/ العرائس ص ١٤٧، ابن الأثير الجزري ـ الكامل في التاريخ ١/ ١٦٤. ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٤٥٠، جميع المصادر ذكرت (شموئيل) ما عدا الكامل في التأريخ ـ لابن الأثير ذكر اسمه (أشموئيل) كما جاء في نص المخطوط. فأخذنا بالأغلبية ودونا (شموئيل) بدل (أشموئيل)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٤٥٠ (هو شموئيل ويقال له: أشموئيل).

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٨] يقال كان فيه عصا موسى وعمامة هارون ورضراض الألواح حين انكسرت وقفير من المنّ وفيه طاسٌ من ذهبٍ ويقال إن السكينة التي كانت فيه هي شيء على هيئة الهرة رأسها كرأس هرّةٍ ويعد سائرها ريح حجوج هفافة أي جسمٌ لطيف، وكانوا يقدّمون التابوت في مفازتهم ويصطفون خلفه للقتال وإذا أراد الله تعالى نصرهم هبّ التابوت من بين أيديهم نحو العدو وسمعوا منه دويًا فاتبعوه ونصروا وكانوا لا يغلبهم عدوّ وكان الله تعالى فيما يقال قد بارك الله تعالى لهم أمورهم وأرضهم حتى إن الرجل كان يأخذ التراب فينثره على الصخر اليابس ثم يحرث فيه فينمو له زرعه ويعصر زيتونه فيكفيه وأهله فلما مات الأنبياء وعظمت فيهم الأحداث سلّط الله تعالى عليهم عدوهم وهم العمالقة ورأسهم جالوت الجبّار فأسلبوا منهم التابوت فرجعوا إلى ملكهم وهو الذي ذكرناه عيلي فأخبروه فمات كمدًا على التابوت هكذا في رواية وهب وغلبهم عدوّهم وهرجت أمورهم وسبى العدوّ نساءهم وأبناءهم فعند ذلك فرغوا إلى نبيهم أشموئيل وقالوا له: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة: الآية ٢٤٦]، ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: الآية ٢٤٧]، وكان من أمر طالوت أنه كان رجلًا دبّاغًا ويقال بائع خمرٍ فضلّ حماره فجاء إلى مدينة أشموئيل في طلب حماره وكان الله تعالى قد أوحى إلى أشموئيل أني أبعث لهم ملكًا فانظر إلى العصا التي في بيتك ويقال بعث الله تعالى بقصبةٍ فقال: انظر من دخل عليك؟ وكان طوله وقامته مثل طول هذه العصا أو هذه القصبة فهو ملك بني إسرائيل، وفي رواية أخرى أن الله تعالى قال له: انظر القرن الذي فيه الدهن في بيتك فمن دخل عليك ونشر له ذلك الدهن في القرن فهو ملك بني إسرائيل فدهّن به رأسه فقد بعثته لبني إسرائيل ملكًا فلمّا جاء طالوت وطلب حماره ومعه غلام له ويقال صاحبٌ له فمرّ ببيت أشموئيل فقال لغلامه ندخل إلى نبيّ الله تعالى ونسأله أن يدعو لنا، فلمّا دخل على أشموئيل نظر إليه فتقوّس أنه على طول القصبة وفي رواية ونشر الدهن في القرن فقام شموئيل فأخذ الدهن ودهن به رأس طالوت، ويقال: جاء بالعصا أو القصبة فقاس بها قامة طالوت فساواها فقال له أبشر فإنك ملك بني إسرائيل، ثم إن أشموئيل جمع عظماء بني إسرائيل وأخبرهم أن الله تعالى ﴿قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا[1] قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٧] وأنه ليس من سبط الملوك فإن الملك في سبط

(١) جاء في الأصل (قد بعث لهم) والصواب ما ثبتناه.

يهوذا فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٧] يعني علم الحرب ﴿وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٧] فإنه كان أطول الرجال[١] قامة وأقواهم وفي الجمال فإن الله تعالى ﴿يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٧] وليس ذلك بالنسب والمال وليس عليكم، أتتحكموا عليه في أمره وحكمه قالوا: فإنا لا نقبله إلا أن يكون له آية لملكه فقال أشموئيل ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٨] كما ذكرناه تحمله الملائكة، قال بعض الرواة إن الذين كانوا استلبوا التابوت من بني إسرائيل أصحاب أوثان وكان لهم صنم كبير من ذهب مرصع بالجواهر واليواقيت فذهبوا بالتابوت وجعلوه تحت الصنم ووضعوا الصنم فوقه فأصبحوا ودخلوا بيت الصنم فإذا هو منكّس من سريره تحت التابوت والتابوت فوقه فرفعوا الصنم ووضعوه فوق التابوت وركّبوا رجليه في التابوت فلا يسقط عنه ودخلوا من الغد وقد سقط الصنم وقد انقطعت منه رجلاه والتابوت فوقه فأخبروا بذلك ملكهم فقال بعضهم: ألم تعلموا أن التابوت إله بني إسرائيل وأنّه لا يطاق فاطرحوه في جانب قريتهم وروي أن الله تعالى سلّط عليهم علّة الباسور وذلك أنهم دفنوا التابوت في مزبلةٍ لهم ويقال: لا بل أصابهم ناصور العين ويقال: سلّط الله تعالى عليهم الفأر فكانت الفأرة تأتي الرجل وهو نائم فتدخل من أسفله فتأكل ما في جوفه حتى هلك منهم خلق كثير فلمّا عجزوا في أمرهم قالت لهم امرأة من سباء بني إسرائيل إنما يصيبكم البلاء بسبب التابوت فردّوا عليهم لتنجوا قالوا كذبتِ بل تريدين ردّنا التابوت إلى قومك، فقالت آية صدقي أن تأخذوا بقرتين وتشدّوا بهما عجلةً وتضعوا التابوت عليهما وتخرجوهما من القرية وتمسكوا ولدهما عندكم فتذهب البقرتان بالتابوت إلى أرض بني إسرائيل فإذا بلغتا هنالك كسرتا (نيرهما)[٢] ورجعتا إليكم ففعل القوم ما قالت المرأة لهم، فخرجت البقرتان تسيران بالتابوت إلى أن وصلتا إلى أرض بني إسرائيل فكسرتا النير وألقتا التابوت هنالك ورجعتا فأصبح بنو إسرائيل والتابوت بفناء بلدتهم وقال آخرون: بل إن القوم لما طرحوا التابوت في المزبلة أمر الله تعالى الملائكة فحملوه بما فيه حتى جاؤوا به ثم وضعوه بفناء دار طالوت ويقال بفناء دار شموئيل ويقال على سطح دار طالوت، فمن قال بهذا القول لم يكن في قوله ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٨] إشكال ومن قال بالقول الأوّل كان معنى حمل الملائكة التابوت هو أنهم ساقوا البقرتين والتابوت عليهما وذلك مثل قول الناس يحمل فلان متاع فلانٍ إلى مكة أي وضعه على

---

(١) جاء في الأصل (الرجل) والصواب (الرجال).

(٢) النير: الخشبة التي تكون على عنق الثور بأداتها ـ ابن منظور ـ لسان العرب ٣/ ٧٥ (باب نير).

دابته وساقها، ولمّا أن رأت بنو إسرائيل التابوت أذعنت وأقرّت له بالملك ووافقوه واستوثقوا له أمره، ثم إن الله تعالى أمر أن يجمع الجيش ويغزو بهم العمالقة وكان رأسهم في ذلك الوقت جالوت جبار عنيد وكان قد أعطي عظم جسم وبسطة خلق، فجمع طالوت بني إسرائيل وسار بهم فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩] وذكر أنهم كانوا ثمانين ألفًا، ويقال سبعين ألفًا ويقال عشرين ألفًا، ويقال ثمانية آلاف والله تعالى أعلم، فلمّا دخلوا المفازة التي بينهم وبين الكفار قالت بنو إسرائيل لنبيّهم شموئيل وكان معهم من الجباب والآبار لا يكفينا الماء فادع الله تعالى أن يجري لنا نهرًا فدعا فأجرى لهم نهرًا من الأردن فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩]، ويقال إن الله تعالى أظهر لهم في المفازة لم يكونوا عرفوا مكانه ثم ليبليهم به فيظهر من يطيعه ممن يعصيه فقال شموئيل لطالوت قل لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩] واقتحم فيه وكرع كما يشرب الدواب بأفواهها ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩] ولا من أتباعي وأنصاري على عدوي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩] أي من أعواني وأنصاري ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩] واحدة فإن ذلك يكفيه ويكفي دابّته فلمّا بلغوه كرع منه أكثر من معه ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩] كما نهوا عنه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩] يقال إن القليل هو أربعة آلافٍ على قول من قال كانوا ثمانين ألفًا وقال ابن عباس كان القليل ثلاثمائة وثلاثة عشر وعن النبيّ ﷺ أنه قال لأصحابه يوم بدرٍ أنتم على عدد أصحاب طالوت، وأنتم على عدة المرسلين وكان أصحابه عليه السلام يومئذٍ ثلاثمائة وثلاثة عشر وكان الذين يشربون بأفواههم لا يرون والذين يغترفون غرفةً واحدة تكفيهم تلك الغرفة ولدوابهم، فلما جاوز طالوت ومن معه النهر وصادفوا عسكر جالوت ورأوا كثرتهم وشوكتهم ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩]، ويروى أن جالوت كان في مائتي ألف ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩] أي يعلمون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩] وعونه ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩] فاصبروا ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟﴾ [البقرة: الآية ٢٥٠] في الحرب ﴿لِجَالُوتَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٠] وصادفوه ﴿وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: الآيتان ٢٥٠، ٢٥١] يعني داود وعلّمه مما يشاء بكرمه وإحسانه.

بابٌ في ذكر داود النبيّ عليه السّلام وابتداء أمره(١)

وكان داود بن إيشا من سبط يهوذا بن يعقوب وكان لأبيه أربعة من النبيين غيره، ويقال لا بل سبعة وأصغرهم داود والله تعالى أعلم، وفي رواية أنهم كانوا ثلاثة عشر أصغرهم داود وكان أبوه جعله راعي غنمه فكان يكون فيها أبدًا وكان من ابتداء أمره أنه جاء أباه يومًا فقال: يا أبت، إني لا أرمي شيئًا بقذافتي إلا صرعته فقال أبوه: أبشر يا بنيّ فإن الله تعالى سيجعل رزقك في قذافتك ثم إنه أتاه يومًا آخر فقال: يا أبتِ إني لأمشي بين الجبال فرأيت أسدًا رابضًا فركبته وقبضت على أذنيه فخضع لي ولم يؤذني فقال أبوه: أبشر، فإن هذا أمر عظيم يسخّره الله تعالى لك، ثم جاء يومًا آخر فقال: يا أبتِ إني حين أمشي بين الجبال فأسبّح الله تعالى فلا يبقى جبل إلا يسبّح الله تعالى معي، فقال: أبشر يا بنيّ فإن هذا خير يعطيك الله تعالى، وفي رواية أخرى أوحى الله تعالى إلى أشموئيل أن أطلق إلي بيت إيشا ليعرض عليك بنيه فادع لهم الله تعالى فإني أريد أن أجعل هلاك جالوت على يد أحدهم وعلامته أن تضع على رأسه القرن الذي معك فيفيض ماء، ويقال: فيسيل دهنًا فلا يسيل على وجهه بل يجتمع على رأسه كالإكليل فأتى أشموئيل إلى إيشا وقال له: اعرض عليَّ بنيك فعرضهم عليه فجعل يدعو لهم ويضع القرن على رأس كلّ واحد منهم فلا تظهر العلامة إلى أن نظر إلى واحدٍ منهم أحسنهم وجهًا وأطولهم قامة وأتمهم جسمًا فقال: إن كان ما قبل في أحد ففي هذا ففعل به مثل ما فعل بإخوته فلم ير العلامة فأوحى الله تعالى إليه أنك تختار الناس على الحسن والجمال وأني أختار العباد على طهارة القلوب فقال: يا ربّ إنه لم يبق لإيشا ابنٌ إلا وقد جربته فقال: إنّ له ابنًا آخر فاطلبه، فقال إشموئيل لإيشا: احضر من بقي من بنيك فقال: قد

(١) انظر تفاصيل نبي الله داود (عليه السلام) في: اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، الكاتب العباسي (ت ٢٩٢ هـ) ـ تأريخ اليعقوبي ـ دار صادر ـ بيروت ١/ ٥١، الطبري ـ تأريخ الرسل والملوك ١/ ٤٧٦، الثعلبي ـ العرائس ص ١٥١، ابن الأثير الجزري ـ الكامل في التأريخ ١/ ١٦٩ـ ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/ ٤٥٠.

أحضرتهم كلهم، قال: إن الله تعالى يخبرني أن لك ابنًا آخر فقال إنه ليس يعبأ به فقال: احضره فأحضره وروي عن الحسن أنه كان بداود قصر وزرق وقرع في ناحية من رأسه فأحضر وعليه خلق من الثياب فاستدناه إشموئيل ودعا له ووضع القرن على رأسه ففاض كما ذكره الله تعالى له فقال لإيشا: احتفظ بابنك هذا واستوصِ به خيرًا شأنًا، وروي أنّ إيشا قال لإشموئيل قد بقي له ابن وهو أصغرهم وبه قصر وزرق وقرع وأنا أستحي أن أحضره بين الناس وهو يكون في الغنم فسأله عن موضعه فخرج شموئيل نحو داود وكان هنالك واد بين داود وبين مراح غنمه فوجده شموئيل وقد سال الوادي بالماء الكثير، فرأى داود يأخذ شاتين ويخوض بهما الوادي فلا يضره الماء فقال شموئيل إن كان أحد من الناس ممن وصف لي فهو هذا، فإني أراه يرحم البهائم فهو بالناس أرحم، ثمّ إنّه سلّم عليه ودعا له ووضع القرن على رأسه فظهرت العلامة وكان الله تعالى قد أخبره أن معك درعًا فمن لبسها وساواها لم يطل عليه ولم يقصر فهو ملك بني إسرائيل فألبس شموئيل درعه داود فساوته ثم إن شموئيل سأل داود فقال: يا ابن أخي هل رأيت في هذه الأيام أمرًا أعجبك قال: نعم، قال: وما هو؟ قال: بينما أنا أمشي إذ مررت بأحجارٍ فنادتني وقلن خذنا يا داود فقاتل بنا جالوت وإني أخذتهنّ وطرحتهن في مخلاتي فسمعت تقول إحداهن أنا حجر هارون الذي قتل بي ملك كذا، وقال آخر: أنا حجر موسى الذي قتل بي عدوّه فلانًا وقال الثالث: أنا حجر داود الذي يقتل بي جالوت فقال له الحجر: إنا يا داود نحن عون لك على قتله فصرن حجرًا واحدًا ثم ناداني الحجر وقال لي: إذا لقيت جالوت فاقذفه بي فإني أستعين على هلاكه بالريح فلمّا قصّ داود على شموئيل قصته قال له: أبشر فإنك قاتل جالوت، وإن الله تعالى يعطيك ملك بني إسرائيل والنبوة فاكتم أمرك إلى أن يبلغ بك القدر وقته وانصرف عنّا شموئيل، وفي رواية أخرى فلمّا خرج طالوت إلى حرب جالوت خرج معه إيشا وبنوه وخلّف ابنه داود في أهله يرعاهم ويأتيهم بطعامهم وفي رواية أخرى أنه أَرْبَيْنَهُ مع طالوت قال بينما داود في غنمه إذ سمع نداءً يا داود أنت قاتل جالوت فما تصنع هٰهنا استَوْدع غنمك ربّك والحق بإخوتك فاستودع غنمه ربّه وخرج حتى أتى أباه فقال له: ما جاء بك يا بنيّ قال: جئت ألحق بإخوتي فأنظر ما حالهم ولم يخبر أباه بما سمع من النداء، وكان أبوه قد صنع زادًا لإخوته فقال له: انطلق يا بني بالزاد إلى إخوتك وانظر ما حالهم وعجّل الانصراف إلى غنمك فخرج داود إلى إخوته ومعه عصاه ومخلاته وقذافته فبينما هو يمشي إذ ناداه حجر فقال احملني فأنا حجر إسحٰق الذي قتل بي فلان، وأنا أقتل جالوت وحمله في مخلاته ثم مضى بحجر آخر فناداه وقال: يا داود احملني فأنا حجر يعقوب الذي قتل بي كذا وكذا، وأنا أقتل جالوت فحمله في مخلاته ثم مرّ بحجر ثالث فناداه احملني يا داود أنا حجر إبراهيم الذي قتل بي

كذا وكذا، فلما انتهى إلى إخوته سمع الناس يذكرون جالوت ويعظّمون أمره فقال: إني أراكم تعظّمون أمر هذا العدوّ وكأنّكم على الباطل وهو على الحقّ أو لا تعلمون أن أهل الحقّ هم الغالبون والله لو لقيت جالوت لقتلته فأدخلوني على طالوت فأدخلوه عليه فقال له مثل ذلك، فقال له طالوت وماذا عندك من القوة التي جرّبت بها نفسك؟ فقال داود: إن الذئب يدخل في غنمي فآخذه فأفكّ لحييه فقال طالوت: إن الذئب كلبٌ يطيقه كل أحدٍ قال وكذلك فعلت بالأسد إذا دخل على غنمي قال طالوت الإقدام على الأسد أمرٌ شديد، وفي رواية أخرى أن داود لما انتهى إلى إخوته وجد المنادي ينادي في العسكر إنّ الملك طالوت يقول من قتل جالوت فأنكحه ابنتي وأقاسمه ملكي، فقال داود لإخوته أليس منكم أحدٌ يبرز إليه فيقتله ويتزوّج ابنة الملك ويقاسمه ملكه، فقال له إخوته: إنّك لمجنون ومن يطيق جالوت مع ما هو عليه من العظم والشدة فقال أنا أبرز إليه فأقتله فنهوه إخوته وقالوا له: اسكت أنت غلامٌ أحمق فسكت ثم ذهب في خفية من إخوته إلى المنادي وقال له: قل للملك إني أخرج إلى جالوت فأقتله، فلمّا رجع المنادي إلى طالوت قال له: إنه لم يجب إلى مبارزة جالوت إلّا غلامٌ من بني إسرائيل قال: فأت به فأتى بداود فقال له: أنت تقول إنّي أبرز لجالوت قال: نعم، قال: وهل جرّبت نفسك بشيءٍ قط فذكر له أمر الذئب والأسد فقال لعلك تقتله إن شاء الله تعالى، ثم إنه لما كان غداة يومهم أصبحوا واصطفّ العسكران للقتال دعا طالوت بداود وقال له تبرز لجالوت قال: نعم، فدعا له بفرسٍ وسلاحٍ ودرعٍ ويقال إن شموئيل كان قد دفع تلك الدرع إلى طالوت وقال له من ساوى هذه الدرع إذا لبسها فهو قاتل جالوت، فلما ألبسها داود ساواها ففرح طالوت بذلك ورجا أن يكون داود من قتل جالوت فبرز داود من عند طالوت فلمّا سار قليلًا نزل عن الفرس وردّ الفرس والسلاح إلى طالوت فقال طالوت ومن عنده جَبُنَ الغلام عن جالوت فدعاه طالوت وقال له: ما حملك على ردّ السّلاح والفرس فقال إنّي لم أتعوّد لبس السلاح وركوب الخيل ولكنّي أقاتل كما أطيق وأعتاد فشأنك فخرج داود حتّى وقف موقف البراز بحذاء جالوت فقال له جالوت: ما شأنك يا غلام؟ قال: جئت أبارزك قال: أنت جئت لقتالي من بين العسكر كلّهم، قال: نعم، قال: وكان جالوت رجلًا جسيمًا في سلاحٍ مثل جسمه ويذكر أنه كان في بيضته مائة وعشرون رطلًا من حديد وكان عموده مائة وستين رطلًا والله أعلم، قال وتقدّم داود التابوت فقال له جالوت: يا غلام بأيّ سلاحٍ تقاتلني قال: بهذه وأشار إلى قذافته فقال تريد أن ترميني بالحجارة كما ترمي الكلاب فقال داود: أنت إلا كلبٌ من الكلاب، ثم إن داود أدخل يده في مخلاته فوجد الأحجار الثلاثة تواثبت في مخلاته كلٌّ يقول ارمِ بي، ثم إن الله تعالى جعلها صخرًا واحدًا فأخذه داود فوضعه في قذافته فرمى به جالوت وكبّر

قال: فأجابه بالتكبير كلّ شيءٍ خلقه الله تعالى من الملائكة والوحوش والهوام والشجر والحجر فصار في الهواء ثلاثة فأصاب واحد منها جبهته فدخل دماغه وخرج من قفاه وهزم قلب عسكره والحجر الآخر نحو ميمنة عسكره والحجر الثالث إلى ميسرة عسكره فهزمهم فولّوا مدبرين واتبعهم بنو إسرائيل يقتلونهم كيف شاؤوا وتقدم داود إلى جالوت فحزّ رأسه وجاء به فرمي بين يدي طالوت وفرح هو والمسلمون بنصر الله تعالى، وقتل جالوت وهزيمة العدوّ فرحًا شديدًا وانصرفوا غانمين مظفّرين إلى بلادهم؛ ثم إن داود طلب إلى طالوت أن يفي له ما وعده فاشتدّ ذلك على طالوت وندم، فقال لداود: إني أفعل ما ضمنت لك ولكن لا بدّ لابنتي من مهرٍ خلاف مهر الناس فقال: وما هو؟ قال: أن تأتيني بلسان ثلاثمائة مِنْ أعدائنا وظنّ أن داود لا يقدر وأنّه يقتل قبل أن يصل إلى ذلك، قال: فخرج داود فغزا العدو فهزم منهم جيشًا وقطع ألسنة ثلاثمائة منهم وجاء بها إلى طالوت فكان طالوت يتبطّأ في أمره فجاءه مشيخة من بني إسرائيل ومعهم شموئيل فلاموه على فعله فلم يجد بدًّا من أن يتزوّج داود فزوّجه ابنته قال: وانتشر ذكر داود في الناس وأحبّته بنو إسرائيل فخشي طالوت أن تميل الناس إليه فقال طالوت لابنه: يا بنيّ اقتل داود وإلّا فإنّه يصير الملك إليه دوننا وفي رواية وهب أن الله تعالى أمر شموئيل أن يقول لطالوت فتغزو أهل مدين وكان قد كفروا فإذا ظفر بهم لم يترك فيها ذا روحٍ إلّا قتله فخرج طالوت إليهم وظفر بهم وقتلهم وأسر ملكهم فلم يقتله وساق مواشيهم فقال الله تعالى لأشموئيل: ألا ترى إلى طالوت أعطيته ملك بني إسرائيل فعصاني فجاء شموئيل إلى طالوت فقال له: ماذا صنعت عصيت الله تعالى واستبقيت الملك وسقت الدواب، وقد أمر الله تعالى أن لا يترك ذا روح قال: فإنّي استبقيته قربانًا إلى الله تعالى ليكون دلالة إذا جئت به أسيرًا وسقت المواشي لأقرّب بها قربانًا إلى الله تعالى فأوحى الله تعالى إلى شموئيل أني قد نزعت الملك من أهل طالوت فلا يملك أحدٌ بعده عقوبة لمعصية فكان طالوت يخشى بعد ذلك زوال ملكه، فلمّا رأى حبّ الناس لداود أمر ابنه بقتل داود، فقال له ابنه يا أبت إن داود ليس أهلًا للقتل منك مع صنيعه، فقال: إنك لغلام أحمق إنه سوف يأخذ الملك عنك وعن أهل بيتك فجاء ابنه إلى أخته امرأة داود فأخبرها وقال لها: أخبري زوجك أن يحذر طالوت فإنه يريد قتله ثمّ إنّ طالوت شاور بعض وزرائه في قتل داود فقال له: إن ذلك لا يستقيم لك إلّا أن تساعدك عليه ابنتك فجاء طالوت إلى ابنته فقال لها: إني أريد أمرًا أحبّ أن تساعديني عليه فقالت: ما هو؟ فأخبرها فقالت له: يا أبتِ من الذي حملك على هذا أخشى أنك إن قصدت ذلك ولم تظفر به أن يظفر بك داود فيقتلك؛ فقال لها: إنك تحبّين زوجك ولا تريدين مساعدتي قالت: دعني أحتال لك حيلة فتقتله كما شئت، قال: فافعلي فعمدت ابنته فأخبرت داود بأمر أبيها وأمر أخيها

وحذّرته طالوت ثم إنها عمدت إلى زقّ خمرٍ على قدر قامة داود فأضجعته على سرير داود وغطّته بثياب داود، وقالت لداود: كنت أنت في البيت مستخفيًا ثم جاءت إلى أبيها فقالت: قد سقيت لداود خمرًا كثيرًا وكانت الخمر حلالًا لهم وقد نام داود على سريره سكران فشأنك بما تريد فجاء طالوت بالسّيف وضرب الزقّ يظنّه داود فانتضح عليه من الخمر، فقال: رحم الله تعالى داود قد كان كثير شرب الخمر فظنّ أنه قتل داود، ثم اختلف الرواة هٰهنا فقال بعضهم: إنه لما فعل ذلك ندم على فعله وبكى ثم أهوى بسيفه إلى نفسه فاحتضنته ابنته فقال: ما تريد يا أبت قال: ندمت على فعلي وأعلم أن الله تعالى قد غضب عليّ وأعرف أن بنيّ لا يرضون عني وأنهم يقتلونني بداود وأنا أقتل نفسي بيدي وعسى أن يكفر الله تعالى ذنبي فقالت: يا أبت أفيسرك أنك لم تقتله قال: نعم، قالت: إنك ما قتلته ونادت داود فخرج إلى طالوت، وقال: أنا أعلم أنّ الشيطان قد زيّن لك هذا وقد عفوت عنك فشأنك وربّك، وقال بعض الرواة لا بل ظنّ أنه قتل داود وانصرف فلما كانت الليلة القابلة جاء داود وهو على فراشه فوضع سهمًا من سهامه عند رجليه وسهمًا عند يمينه وسهمًا عند شماله فوضعهم وذهب فلمّا أصبح طالوت ورأى السهام فعرفها وقال رحم الله تعالى داود أنه أكرم منّي وخير منّي ظفرت به فقتلته وأن الله تعالى أحياه فأظفره الله تعالى بي فلم يقتلني وظنّ أن الله تعالى أحيا داود وكان داود بعد ذلك يطوف في البلاد مستخفيًا من طالوت وأظهر طالوت للناس أنّ داود قد مات فلما كان بعد أيام ركب طالوت يومًا فخرج إلى الصحراء فرأى داود، فحمل عليه وعرف أنّه لم يقتله وأحياه الله تعالى فهرب منه داود ولم يلحقه طالوت ثم إن داود انطلق إلى مدينةٍ بعيدةٍ من طالوت فسكنها إلى أن مات طالوت وطلب بنو إسرائيل داود فردّوه إلى موضعه وملّكوه عليهم بأمر الله تعالى وآتاه الله الملك والحكمة، وفي رواية أخرى أن طالوت لما فعل ما فعل وظنّ أنه قتل داود كما ذكرناه وخرج إليه داود وعفا عنه، وقال له: شأنك وربّك فطلب طالوت التوبة من صنيعه فكانت في بني إسرائيل عجوزة كبيرة مستجابة الدعاء وكان عندها اسم الله الأكبر فأتاها طالوت وقال لها أذنبت ذنبًا كبيرًا فادعي الله تعالى لي فرأت العجوزة في المنام أنه لا توبة لطالوت إلا عند قبر اليسع فذكرت ذلك لِطَالوت فسألها طالوت أن تخرج معه إلى قبر اليسع وتدعو الله تعالى فجاءت معه إلى قبر اليسع ودعت الله تعالى فأحيا الله تعالى اليسع فخرج من قبره وقال لطالوت: ما شأنك فأخبر اليسع بخطيئته وأنه يريد التوبة فقال له اليسع إن توبتك أن تجاهد بنفسك ومالك وأهل بيتك حتى لا يبقى منكم أحد ورجع اليسع إلى مضجعه وفعل طالوت ما أمره اليسع به ولما قتل طالوت اجتمعت بنو إسرائيل على داود وملكه الله تعالى عليهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١] وفي رواية أنه لما ندم طالوت على ما

ظنّ من قتل داود طلب التوبة فأتى شموئيل وهو حيّ وسأل عن توبته، فقال: إني لا أعرف لك توبة إن قتلت داود ولا أظنك قدرت عليه فارجع إلى ابنتك فلعلّك تجد عندها الفرج فجاءها وأقسم عليها فعاهدته أن لا يريد داود بشيء ولا يهيّجه وأشهدت عليه شموئيل ففعل فجاءت بداود حتى صالحه ورضي عنه فقال له شموئيل: إن توبتك الآن أن تخرج من ملكك وتسلّمه إلى داود ففعل وجمع الله تعالى لداود الملك والخلافة ويقال: لا بل كان طالوت على ملكه إلى أن مات قبله شموئيل واجتمع الملك والخلافة لداود والله أعلم.

بابٌ في ذكر شأن داود عليه السّلام بعد ما ذكرناه[1]

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صٓ: الآية ١٧] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: الآية ١٠] وقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ [النّمل: الآية ١٥] إلى سائر ما ذكر الله تعالى من قصّته في كتابه، قد ذكرنا نسب داود وأنه كان من سبط يهوذا بن يعقوب وأنه لما استقام له الملك وأحبّته بنو إسرائيل وأنزل الله تعالى عليه كتابه الزبور وكان كلّه دعاء وتمجيد وثناء على الله تعالى ليس فيه حلالٌ ولا حرام ولا فرائض ولا حدود وكان عليه السلام يقرأ الزبور وقد أعطاه الله تعالى أحسن الصوت قد خصّه به لم يكن لأحدٍ ذلك قبله ولا بعده، ولا يسمعه أحدٌ إلّا مال إليه قلبه، وفي بعض الروايات أنه كان في حلقه سبعون مزمارًا قيل معناه أن اختلاف أصناف صوته على سبعين وجهًا، قال وهب: وكان إذا قرأ اجتمعت على صوته الوحوش والسّباع والطيور والبهائم، ولا يضرّ بعضها بعضًا فتسمع قراءته وكذلك كانت الحيّات تخرج إلى الساحل لاستماع صوته وكان لم يسمع السامعون مثل صوت داود فعكفت عليه الجنّ والإنس والدواب فخرج إبليس مذعورًا لما رأى من اجتماع الخلق عليه فجمع شياطينه وقال: ما هذا الذي أراه؟ وما الحيلة في صرف الناس عنه؟ فقالوا: أنت أعلم منّا، قال: إنه لا يصرفهم عنه شيء إلّا ما يشبهه فأمر إبليس بصنعة البرابط[2] والمزامير وسائر الآلات اللهويّة على حسب أصوات داود ونفخت الشياطين فيها وضربوها وسمعها غواة الناس فاتبعوها، قال وهب وأقام داود بين بني إسرائيل يحكم فيهم بالحق فكان نبيًا عابدًا مجتهدًا من أشدّ الناس اجتهادًا وأكثرهم بكاءً فأقام صدرًا من زمانه على

(١) انظر تفاصيل قصة داود في الطبري، تأريخ الأمم والملوك ١/ ٤٧٦، ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٤٥٥.

(٢) البرابط: البربط عود ليس من ملاهي العرب، بل من ملاهي العجم شبه بصدر البط، ملهاة تشبه العود الضارب به يضعه على صدره. ابن منظور ـ لسان العرب ١/ ١٨٣ (باب بربط).

الاجتهاد ورحمةً للمساكين وكان يخرج فيما بين الأيّام متنكرًا لا يعرف فيسأل القادمين من الأطراف كيف كان حال ملككم ونبيّكم داود أخبروني عنه وهل تنكرون أو تعيبون منه شيئًا فيقولون هو خير خلق الله تعالى لنفسه ولأمّته فبعث الله تعالى ملكًا في صورة رجل قادم من سفرٍ فلقيه داود فسأله كما يسأل القادمين فقال الملك هو خير الناس لولا خصلة واحدة فيه قال داود: وما هي؟ قال: إنّه يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين فعند ذلك سأل داود ربّه أن يعلّمه حرفةً يعمل بها ويكون منها قوته وقوت عياله فعلّمه الله تعالى صنعة الدرع من الحديد فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ: الآيتان ١٠، ١١] قال: قال وعندنا أن داود لم يعمل الدرع كسبًا وطلبًا للدنيا فإنّ الأنبياء لا يكسبون وإنما عملها معجزة فإن الله تعالى قد ألانَ له الحديد فكان في يده كالشمع في أيدي النّاس يصنع منه ما يشاء من غير حاجةٍ إلى نارٍ ونفخ ومقمعةٍ (وعلاة)(١) فيصنع الدرع التي لا يبيّن رأس حلقها فكانت معجزة له وأنه وإن كان يبيع شيئًا منها ويستنفق منه على نفسه، فلا يجب أن يكون بفعل الكسب وطلب الرزق حاشاه عن ذلك وقيل كان داود يخرج في كلّ أسبوع يومًا إلى الصحراء فيوضع له كرسيٌّ فيجلس عليه ويقرأ الزبور ويجتمع له الإنس والجنّ والدّواب من البهائم والوحوش والسباع والطيور والحيتان وكان إذا سبّح أجابته الجبال ودوابّ البحر والبرّ كما قال الله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سَبَإ: الآية ١٠] وكان قد قسم أيامه على أربعة أقسام يومًا يجالس فيه العلماء ويدارسهم ويعلّم الناس ويومًا يحكم فيه بين الناس ويومًا لمحرابه يخلو فيه لمناجاة ربّه وعبادته ويومًا يخلو فيه بنسائه وأهل بيته وقد روي أنه كان في حكمة داود لا ينبغي للعاقل أن يغفل عن أربعة ساعاتٍ في يومه ساعة يناجي فيها ربّه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يقضي فيها إلى إخوته فيخبرونه بعيوبه وساعة يختلي بين نفسه وبين لذّاتها فيما يحلّ ويحمل فيستعين بهذه الساعات على الساعات الثلاث وينبغي للعاقل أن لا يضعن في ثلاثٍ تزوّدٍ لمعادٍ ومرمةٍ لمعاشٍ أو لذةٍ في غير محرم وروي أن داود قال: يا ربّ كيف أسعى لك بالنصيحة في أرضك؟ قال الله تعالى بأنْ تكثر ذكري وتحبّ من أحبّني وتحكم للناس ما تحكم لنفسك وتجتنب فراش أخيك الغائب وكان الله تعالى قد قوى ملكه كما ذكر في كتابه ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [صٓ: الآية ٢٠] ذكر أهل الأخبار أنّه كان يحرس محرابه كلّ يوم وكلّ ليلة ثلاثون ألف رجل فذلك شدة ملكه ويقال كان شدة ملكه أن رجلًا ادعى بين يديه على آخر بثور

---

(١) علاة: السندان التي يضرب عليها الحداد الحديد، وفي عطاء في مهبط آدم: هبط بالعلاة، وهو السندان ابن منظور ـ لسان العرب ٢/ ٨٧٧ (باب العلاة).

فسأله داود البيّنة ولم يكن له بيّنة فأنكر خصمه فأوحى الله تعالى إليه أن اقتل الخصم المنكر وادفع الثور إلى المدعي فعجب داود من ذلك فاستحضر الخصم المنكر فأخبره بما أوحى الله تعالى إليه فقال صدق يا نبيّ الله تعالى إني كنت قتلت أبا هذا المدعي وغصبت هذا الثور فلذلك أمرك الله تعالى بما أمرك فقتله داود وردّ الثور إلى الرجل فعظم أمر داود في أعين الناس فقالوا: إنّه يحكم بالوحي والغيب فهابوه هيبة شديدة فاعتبر داود بذلك زمانًا حتى كانت من فتنته ما كانت وقد اختلف الناس في سبب ذلك.

بابٌ في ذكر فتنة داود عليه السّلام(١)

قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [صَ: الآيتان ٢١، ٢٢] الآية، قال بعض الناس كان سبب فتنة داود أنه كان جالس يومًا مع علماء بني إسرائيل فقالوا: لا يخلو ابن آدم يومًا من الأيام من ذنب يرتكبه فقال داود في نفسه: إني أحلف بنفسي يوم المحراب وأجتهد أن لا أصيب ذنبًا فلمّا كان يوم المحراب ابتلاه الله تعالى بسبب ما كان حدث نفسه وأعجبه بأمره، ولم يستعصم بها ويروى أنّ سبب ذلك أنّه ناجى ربّه فقال: إني أقرأ في كتابك ما أعطيت قبلي من الأنبياء من الكرامات فبأي شيءٍ أكرمتهم بها حتى أعمل ما عملوا فتكرمني بمثل كرامتهم فأوحى الله تعالى إليه يا داود إني ابتليتهم فصبروا على البلاء فأكرمتهم قال يا رب فابتلني أيضًا حتى أصبر فأوحى الله تعالى إليه يا داود اخترت البلاء على العافية فخذ حذرك فإنّي مبتليك في شهرك هذا في يوم كذا وكذا قال وكان ذلك في شهر رجب وكان الله تعالى أخبره أن يبتليه يوم الاثنين الثالث عشر من الشهر فيما روي فلما كان ذلك اليوم دخل محرابه فاستعد للبلاء مخافة منه قال: فبينما هو في محرابه منكبًّا على الزبور يقرأه إذ دخل عليه طائر على هيئة حمامة من كوة المحراب فوقع بين يديه وقد قيل إنه إبليس كان جعل نفسه على تلك الهيئة بإذن الله تعالى وقضائه لفتنة داود، ويروى أنّه كان جسد الطّائر من ذهبٍ وجناحاه من ديباج مكلّل بالدرّ ومنقاره من ياقوت أحمر وعيناه من زمردتين خضراوين وقوائمه من فيروزج فدنا الطائر من داود فلمّا رآه حسبه من طير الجنّة

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في: ابن كثير ـ البداية والنهاية ١/٤٥٩ (قال الحافظ ابن كثير حول هذه الرواية هذا نصه: وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هٰهنا قصصًا وأخبارًا أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لذلك تركنا إيرادها في كتابنا قصدًا، اكتفاءً واقتصارًا على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٣]. وقد ورد هذا النص أيضًا في: ابن كثير: قصص الأنبياء ص (٤٨٩).

فتعجب من حسنه، وكان له ابنٌ صغير فقال في نفسه لو أخذت هذا الطائر لابني يفرح به فمدّ يده إليه تباعد عنه قليلًا حتى فعل ذلك مرارًا ثم إن داود قام من مجلسه وترك الزبور ونسي ما كان الله تعالى أخبره به من ابتلائه فطار الطائر في كوّة البستان فطلبه داود من الكوة فطار نحو بستان أَوْرِيَا وكان بجنب محراب داود فنظر داود ليعلم أين ذهب الطائر فرأى امرأة عند حوض في البستان عريانة تغتسل فوقعت عين داود عليها ورأت المرأة في الماء صورة ظلّ رجلٍ فرفعت رأسها فرأت داود وكانت ذا شعر كثير فنفضت شعرها وجلّلت جسدها بذوائبها وشعرها، وأنّ داود لما وقعت عينه عليها استرجع وانصرف إلى مكانه وفي نفسه ما فيها من أمرها وكانت امرأة أَوْرِيَا من أحسن أهل زمانها وأجملهم خلقًا وصورة ثم إنّه بعث غلامًا من غلمانه الذين يحدثونه خاصة ويعتمده في أموره وحوائجه وقال: اذهب فانظر من هذه المرأة وما حالها فرجع وقال هي تشايع بنت شايع امرأة أَوْرِيَا بن حنانا وهو غائب في جيش أيّوب بن صوريا إلى البلقاء وكان أيّوب ابن أخت داود أمير ذلك الجيش وكانوا قد حاصروا قلعةً هنالك فكتب داود إلى أيّوب ابن أخته يعزم عليه أن يأمر أوريا ليتقدم التابوت يوم الحرب فيقاتل على باب الحصن ولا يرجع، فإمّا أن يقتل وإمّا أن يفتح الله تعالى عليه قال: وكان من سنتهم أن يتقدّم كلّ عامٍ ويقال في كلّ حربٍ رجل التابوت من سبط من أسباط بني إسرائيل على المناوبة بينهم فيقاتل قدام التابوت ولا يرجع إلى أن يفتح الله تعالى عليه أو يقتل فلمّا ورد الكتاب على أيّوب قرأه على أَوْرِيَا قال: سمعًا وطاعةً وتقدّم التابوت يوم القتال وخرجت إليه مقاتلة الحصن وكان أَوْرِيَا من فرسان بني إسرائيل، فقاتل القوم وفتح الحصن فبعث صاحب الجيش ابن أخت داود بشيرًا بالفتح وبصنيع أَوْرِيَا وانتظر أن يكون لأَوْرِيَا من داود وأيوب كرامة على فعله فكتب داود إليه يأمره بالتقدّم إلى قلعة أخرى أحصن وأشدّ شوكةً من الأولى وأن يأمر أوريا بتقدّم التابوت فقرأ الكتاب على أوريا فقال: سمعًا وطاعة فتقدّم قدّام التابوت وخرج إليه أهل الحصنِ فقاتلهم وقتلهم ففتح الحصن فبعث صاحب الجيش إلى داود بشيرًا بالفتح وبفعل أوريا وانتظر له حمدًا وكرامةً فكتب داود إلى ابن أخته صاحب الجيش يأمره أن يتقدّم إلى أوريا إلى الحصن فلما ورد عليه الكتاب وقرأه على أوريا فقال أوريا قد علمت ما يريد ولكن سمعًا وطاعةً فتقدّم التابوت نحو الحصن فكان أوّل قتيل أوريا وفي روايةٍ أخرى أنه قتل في أول حرب تقدّم التابوت والله تعالى أعلم، فكتب صاحب الجيش ابن أخت داود إليه بمصيبة أوريا وقال: إذا أتيت داود فلا تدفع إليه الكتاب وإن لم يشقّ عليه فادفع الكتاب إليه فلما ورد البريد على داود وأخبره بمقتل أوريا لم ير فيه ضجرًا فدفع إليه الكتاب فإذا فيه أن أوريا قتل وقد شقّ مصابه على الجيش مشقّةً شديدة فكتب داود في جوابه كذلك يكون أمر الحرب سجالًا مرّةً لكم ومرّةً عليكم فلا يكون

الأمر أجمع. قال وقد روى هٰهنا بعض الناس في عشق داود للمرأة ومراودته إيّاها وحيلته في قتل أوريا أمورًا لا يحسن ذكرها فكيف بالأنبياء ولست أحبّ ذكرها لأني لا أرضاها ولا أعتقدها في نبيّ من أنبياء الله تعالى، فإن قيل أليس ما ذكرتموه حيلة كانت منه في قتل أوريا أفتجوّزون ذلك، قلنا: أما ما روينا فقد ذكره أهل الأخبار المفسّرون أيضًا لذلك كتبناه وعندي أن أوريا استشهد من غير حيلةٍ وكتابٍ كان من داود وكان ذنب داود أنّه لمّا بلغه خبر قتل أوريا لم يحزن كما ينبغي من مثله في مثل قتل أوريا ولعلّه ظنّ أنّه استشهد فصار إلى الجنّة وأني أتزوّج امرأته بعد انقضاء عدّتها فلا لوم عليّ في ذلك ولا إثم، فهذا القدر نجوّزه من داود وأن ذلك من ذنب القلب برضاه بقتل أوريا ليتمكن من تزوّج امرأته حلالًا بعده. رجعنا إلى القصة ثمّ إن داود أمسك على المرأة حتى انقضت عدّتها فخاطبها فتزوّجها ومضى على ذلك زمانًا لا يرى داود أنه أذنب ذنبًا فأراد الله تعالى أن يبصّره خطيئته ويهديه إلى نبوّته فبعث الله تعالى إليه الخصمين فأتياه كما قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [صٓ: الآية ٢١] يعني صومعة داود؛ وقد اختلف الرواة هٰهنا فقال قوم: إن داود كان في صومعته يوم خلوته للعبادة وكان يحرسونه كما ذكرنا الحرس الكثير وكان على بابه من الحجّاب عدة لأن لا يدخل عليه أحد إلّا أن يمرّ بهم ومع ذلك كان قد وكّل على الباب رجلًا لا يدع أحدًا يدخل عليه ذلك اليوم قال: فبينما هو في صلاته أو في قراءته إذ نظر إلى رجلين واقفين بين يديه ففزع منهم وقال: كيف دخل هؤلاء بغير إذني ولا بعلمي وأخشى أن يكونوا دخلوا عليّ لمكروه، فقال له واحدٌ منهما: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ [صٓ: الآية ٢٢] أي نحن خصمان أو يقول منّا خصمان ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [صٓ: الآية ٢٢] فأتيناك لتحكم بيننا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [صٓ: الآية ٢٢] والعدل ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ [صٓ: الآية ٢٢] ولا تجاوز الحق ﴿وَٱهْدِنَآ﴾ [صٓ: الآية ٢٢] في أمرنا ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [صٓ: الآية ٢٢] وهو العدل فقال داود ما خصومتكما قال المدعي ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ [صٓ: الآية ٢٣] أي اجعلني كافلها لأحفظها لك فلمّا أن استرددتها منه منعني ﴿وَعَزَّنِى﴾ [صٓ: الآية ٢٣] أي وغلبني ﴿فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [صٓ: الآية ٢٣] والخصومة قال داود ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [صٓ: الآية ٢٤] إذ لم يكن لك إلا واحدة وكانت له نعاج كثيرة ثم لم يردّها عليك ومنعها إيّاك ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [صٓ: الآية ٢٤] من أهل العدل والإنصاف قال بعض الناس إنّ الخصوم كانوا ملائكة بعثهم الله تعالى إليه لينبّئوه على ذنبه بما يضربون له من المثل وكان قولهم من أمر النعاج مثلًا لأمر النساء فإنّه كان لداود تسع وتسعون امرأة فإن قيل كانوا ملائكة فيكذب المدعي في قول

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ [صٓ: الآية ٢٣] ولم يكن أخاه ولم يكن له نعجة قلنا قد قال أبو عبد الله في كتاب الحجج إن هذا كان منهم على سبيل المثل كأنّه يقول أرأيت إن كان هذا أخي أي صاحبي ويسمّى الأخ صاحب والصاحب أخًا وكان له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ففعل بي كذا وكذا ماذا يكون الحكم بيننا فلم يدخل في هذا كذب مثاله رجلان بينهما خصومة فوكّل كلّ واحد منهما وكيلًا فحضر الوكيلان مجلس الحكم فادّعى أحدهما أنّ لي على هذا مائة درهم، وأنكر الآخر فإن قوله لا يكون كذبًا لأنه يريد لو كان عليه ذلك ماذا كان الحكم بيننا كذلك هٰهنا وقال قومٌ يجوز لو أعطى على الله تعالى الملكين ما ذكراه من أن كان لأحدهما نعاجٌ وللآخر نعجة واحدة حتى كان قوله صدقًا وقال بعض الناس إنّ الخصمين كانا رجلين من البدلاء دخلا على داود وكان الله تعالى ألهمهما ذلك لينبّهاه على فعله بأوريا وقد كان لهما النعاج وكان أحدهما قال للآخر: أكفلني نعجتك حتى لم يكن قوله كذبًا والأولى ما قاله أبو عبد الله فلمّا قضى داود بينهما ونسب الرجل إلى الظلم فتبسّم المدعى عليه فغضب داود وقال: تظلم فإذا قضى عليك تضحك ما أحوجك إلى قدوم يرضى به منك هذا وهذا أي رأسه وظهره فقال الملك إن أحوج إلى أن يرضى بالقدوم لَا أَنْتَ ثم غابا في عينيه ويقال: خرجا من عنده فدعا داود الموكّل بباب الصومعة فقال له: من هذان الرجلان الداخلان عليّ ولم تركتهما فدخلا عليّ وشغلاني فقال: إني لم أرَ أحدًا دخل عليك ولا خرج من عندك فقال: بلى، دخل عليّ شخصان فقضيت بينهما وخرجا كأنّك كنت نائمًا ولم ترَ أحدًا، فقال: فادع إليّ الحجّاب فدعاهم له فعاتبهم بمثل ما عوتب الموكّل بالباب فقالوا: إنّا لم نر أحدًا دخل عليك ولا خرج من عندك قال سبحان الله تعالى دخل عليّ خصمان وكان كذا وكذا فقالوا: أمّا نحن فلا يمرّ بنا أحد فبعث من سأل الحراس بالباب فقالوا مثل قول الحجّاب فعند ذلك تفكّر داود وعرف أنهم كانوا ملائكةً دخلوا ذلك ولم يعلم بهم أحدٌ وإنما قالوا مثل ضربوه له في أمر أوريا، وفي بعض الروايات أنّه لما قال للخصم ما قال من نسبته إلى الظلم قال: إنّ أحقّ منّي بالملامة من كان له تسع وتسعون امرأة ولجاره واحدة فاحتال حتى ضمّ امرأة جاره إلى نسائه ثمّ خرجا فذلك قوله ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [صٓ: الآية ٢٤] ويروى أنّه لمّا قضى بينهما قاما من بين يديه وهما يقولان قضى الرجل على نفسه فسمع داود قولهما فتفكر ماذا يريدان فألهمه الله تعالى أنّ ذلك كان مثلًا له لينبّهه على فعله في باب امرأة أوريا فخرّ ساجدًا باكيًا يروى أنه سجد أربعين يومًا لم يرفع رأسه إلا لصلاةٍ مكتوبة أو حاجة لا بدّ للإنسان ولم يأكل ولم يشرب ولم ينم في تلك الأيام حتى نبت العشب من دموعه حول رأسه وهو يستغفر ويتضرع إلى الله تعالى وروي أنه

قال في سجوده إلٰهي طالما أحسنت إليّ فإنك في الرّحم صوّرتني ومن الظلمات إلى النور أخرجتني ثم جعلتني علمًا في الهدى ومعدن التقى وآتيتني النعمة والرخاء وتتابع النعماء وصرفت البلاء فكيف أصنع إذا سألتني يوم الحساب عن شكر نعمتك وجازيتني في خطاياي بنقمتك إلٰهي فأقلني عثرتي وأنعشني من صرعتي ولا تقنطني بجريرتي وكفى بك عليمًا أن أتعرض لسخطك إلٰهي أنقذني غدًا فأقلني عثرتي إلٰهي أتقفني غدًا موقف الخاطين في اليوم المشهود إلٰهي إن غفرت لي فقديمًا ما غفرت، وإن سترت عليّ فطالما سترت، وإن صفحت عنّي فأنت قديم الطول والإحسان يا صريخ الأخيار ووليّ الأبرار إن كان قد خلق وجهي لخطيئتي عندك فإنّي أسألك بحق آبائي المهتدين وأسألك بحق إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب وأسألك أن تفرّج عني كما فرجت عنهم وتغفر لي ذنبي بفضلك ورحمتك. ويروى أنّه قال سبحانك خالق الذي يحول بين المرء وقلبه سبحانك خالق النور أسألك أن تغفر لي برحمتك ولا تباعدني من مغفرتك، سبحانك خالق النور أعوذ بوجهك الكريم من شر ذنوبي التي أَوْبَقَتْني سبحانك خالق النور اعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين سبحانك خالق النور إذا ذكرت خطيئتي أنسيت من كلّ خير وإذا ذكرت سعة رحمتك رجوتها قال: فنودي من فوقه يا داود أجائع أنت فنطعمك أم ظمآنٌ فنسقيك أم مظلوم فننصرك فقال: إلٰهي لا بل مذنب فأخاف ذنبي وأخشى عذابك وعقوبتك وأرجو عفوك ومغفرتك فنودي يا داود ألم أشيّد ملكك ألم أقوّ ركنك ألم أجعلك رسولًا نبيًّا ووليًّا ألم أعدك جزيل الثواب وكريم المآب؟ لم يشغلك ذكر يوم الحساب عن شهوةٍ منقطعة ولذةٍ منصرمةٍ أما علمت أن عبادي وخواصي يشغلهم ذكري عن اتباع الشهوات وركوب اللذات ومتابعة الخطايا والزلات فقال: إلٰهي بل فعلت فأكثر من ذلك فلك النعمة ولي الملامة فنودي يا داود فقال: لبّيك يا سيّدي لولا واليت على نفسي أن أشكر حسناتك وأتجاوز عن سيئاتك لعاقبتك ولكنّي غفرت ذنبك اليوم وساترها عليك ولذلك قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [صَ: الآية ٢٥] ثم نودي: ارفع رأسك فلم يرفع حتى جاءه جبرائيل فرفعه وهنّاه بالمغفرة فقال: إلٰهي قد غفرت ذنبي فكيف أصنع بأوريا وقد ظلمته وانتزعت امرأته وقدّمته للقتل وأنت حكمٌ عدلٌ فكيف حالي إن أخذني يوم القيامة وقدّمني إليك، فروى وهبٌ أن الله تعالى قال: اذهب إلى قبره فنحّه لك فناده واستحلل منه فانطلق داود حتى جاء قبر أوريا فناداه يا أوريا فأجابه أوريا لبيك لبيك من هذا الذي أيقظني من نومتي وقطع عليّ لذّتي فقال داود: أنا، قال ما جاء بك يا نبيّ الله تعالى قال: أسألك أن تجعلني في حلٍّ مما صنعت قال: وما ذاك؟ قال: عرضتك للقتل قال: إنّك عرضتني للجنّة اذهب فأنت في حلٍّ فرجع داود مسرورًا فأوحى الله تعالى إليه يا

داود ألم تعلم أني حكم عدلٌ لا أقضي بالعنت والتعرض هلّا أعلمت أوريا ما كان منك في زوجته فرجع داود وناداه ثانيةً يا أوريا فأجابه لبيك من الذي يقطع عليّ لذّتي ويوقظني من نومتي قال: أنا داود قال: ما جاء بك يا نبيّ الله تعالى قال: جئتك لتعفو عنّي قال: أليس قد عفوت عنك قال: بلى، ولكن فعلت ذلك بك لأتزوّج امرأتك وقد تزوّجتها فروى بعض الرواة أنّه قال: لأجعلك في حلٍّ فسقط داود مغشيًّا عليه وفي رواية أخرى أنّه لم يجبه بشيء وناداه ثلاث مرّاتٍ لم يجبه بشيءٍ منها فآيس داود وقام عند قبره يحثو التراب على رأسه وينادي الويل لداود إذا نصب الميزان بالقسط الويل لداود يوم يقضي بين الظالم والمظلوم الويل لداود حين يأخذه خصمه يوم الدّين الويل لداود حين يسحب مع الخاطئين إلى النار الويل لداود حين تسوقه الزّبانية إلى النّار وجعل يغشى عليه في خلال ذلك فأتاه نداء من السماء يا داود إنّي قد غفرت لك قال: يا ربّ أنت غفرت لي لكن صاحبي لم يعفُ عنّي قال: يا داود إنكما تختصمان إليَّ يوم القيامة فأقضي بينكما بالحق ثمّ أستوهبك منه فيهبك لي فأعطيه من ثوابي ما لم تر عيناه ولم تسمع أذناه حتى يرضى عنك فقال داود: الآن قد علمت أنك قد غفرت لي قال: سمعت شيخي يقول إنّ داود يخرج من قبره يوم القيامة ويفرّ من أوريا ويستخفي عن عينه لئلا يراه وأنّ أوريا يطلبه حتى إذا رآه أخذ بتلابيبه يقدّمه إلى العرش ويقول: إلـٰهي هذا عبدك ونبيّك داود لكنّه ظلمني فاقضِ بيني وبينه فإنك حكمٌ عدلٌ وداود ينتفض في يد أوريا انتفاض العصفور الواقع في الماء فيقول الله تعالى لأوريا: أنا الحكم العدل أقضي بينكما وأرضيك عنه، ثم إنّ الله تعالى يأمر بكشف الحجاب ما بين أوريا وبين الجنّة فيظهر لأوريا قصر في الجنّة من ياقوتة حمراء يضيء لها أهل المحشر من نوره فيقع عين أوريا على ذلك القصر فيقول إلـٰهي لمن ذلك القصر الذي أراه؟ فيقول أوريا: إني وهبت لك يا ربّ خصمي داود فتركت خصومته فيخلّى عن داود ويروى أنّ داود ينادي ويقول: أهلكني ذنبي فينادي من وراء الحجاب يا داود ادن فيدنو وراء الحجاب ويلتزم قائمة العرش فحينئذٍ يطمئن قلبه، وعن الحسن البصريّ أنه قال كان داود إذا ذكر خطيئته يبكي حتى (يخضلّ)[1] ثيابه بدموعه وكان بعد خطيئته يجالس الخاطئين ويقول: تعالوا إلى داود الخاطي وكان لا يشرب إلا ماءً ممزوجًا بدموعه وكان يجعل الخبز اليابس في قصعته ثم يبكي حتى يبتل الخبز بدموعه ثم يأكله بعد أن يذر عليه الرماد ويقول: هذا أكل الخاطئين وكان قبل خطيئته يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر فلمّا أصابته الخطيئة قام بعد ذلك الليل كلّه وصام الدهر كلّه وذكر وهب

(١) يخضلّ: يبتلّ.

أن داود قال: يا رب كيف بي أن لا أنسى خطيئتي قال: فوسم الله تعالى خطيئته في كفّه الأيمن فما رفع بها طعامًا ولا شرابًا إلا رآها وكان إذا خطب الناس أشار إليهم ويريهم وسم خطيئته بعدما غفر الله تعالى له ثلاثين سنة لا يرقأ له دمع وذكر أنه كان قسم أيامه على أربعة أيّام فكان بعد الخطيئة إذا جاء يوم خلوته لعبادته دخل محرابه ومعه الرهبان فينوح معهم على نفسه. وإذا كان يوم خلوته ببناته لم يدخل إليهن ولكن يخرج إلى الفيافي فيرفع صوته بالمزامير وتبكي معه الوحوش والطير والنبات والشجر والجبال والرمال ثم يأتي السّاحل فيبكي ويبكي معه الحيتان ودواب البحر وإذا كان نوحه ينادي مناديه فليحضر من يريد أن يساعده فيحضره الناس ويدخل معه أربعة آلاف راهب عليهم المسوح وعلى داود ثياب المسوح ثمّ ينوح داود وينوحون معه ويبكي ويبكون معه حتى يغرق الفرش المسحيّة تحته بالدموع ويقع داود ويضطرب ويأتي سليمان فيرفعه ويأخذ داود كفًّا من دموعه فيمسح بها في وجهه ويقول يا ربّ ارحم عبدك فلو عدل بكاء الناس ببكاء له ما عدل ببكاء داود وحده.

بابٌ في ذكر خروج ابن داود واسمه شلوم ويقال شالوم على أبيه[١]

ذكر أهل الأخبار والرواة أنّ داود لما اشتغل بالبكاء في طلب التوبة قبل أن يخبره الله تعالى بالمغفرة تعطّلت الرعية وضاعت الأمور فاجتمع قوم من سفهاء بني إسرائيل إلى ابنه شالوم وهو من ابنة طالوت وكان أكبر أولاد داود فخدعوه وقالوا: قد ضاع الملك واشتغل أبوك عنه وعجز عن السياسة وأنت أكبر ولده وأحقّهم بالملك ونحن نعينك فإن عاتبك أبوك فقل إنما فعلت ذلك نظرًا للرعية ولأن لا يطمع العدوّ في ملكك، فلم يزالوا به حتى بايعوه على الملك ولم يشعر داود إلّا وابنه قد اجتمع الناس فكره داود الحرب والقتال مع ما كان قبله مشغولًا بتوبته من ذنبه فخرج من عسكره ومعه رجلان أحدهما صاحب جيشه وهو أيّوب ابن أخته وكان أشدّ النّاس بأسًا والآخر وزيره وهو صاحب مشورته وكان رجلًا من أعقل الناس وأصوبهم رأيًا وقولًا وكان في بني إسرائيل رجل من أشرافهم ظلوم غشوم لا يذعن للقضاء قبل داود فلمّا ولي ذلّله وأنصف منه الناس فلمّا بايع الناس ابن داود سارع إليه هذا الرجل فبايعه وإنه لما خرج داود من عسكره مع الرجلين لقيهم هذا الرجل فقال: الحمد لله الذي نزع ملكك وفرق جندك فهمّ أيّوب أن يحمل عليه فقال داود مهلًا دعه فإنّ له يومًا ولما اشتدّ أمر ابن داود همّ بمحاربة أبيه

(١) انظر تفاصيل هذا الباب في: الثعلبي: العرائس ص ١٥٩.

والقبض عليه بعث إليه داود صاحب مشورته من غير أن يعلم ابنه أنه رسول أبيه، فقال له: أين داود ولم تأخرت عن بيعتي؟ قال: إني كنت أعلم أنّ الأمور راجعة إلى أبيك فقال ابن داود: وكيف يرجع إليه الأمر وقد خرج منه وبايعني الناس؟ فقال له الرّجل: اقبل نصحي واسمع قولي هل نبيٌّ أذنب وتاب فلم يقبل الله تعالى توبته أم هل سمعت بابن نبيٍّ قتل أباه قال: لا، قال: فإن الله تعالى سيقبل توبته ويرجع هو إلى ملكه فما أنت صانع فإن قاتلته فقتلته فما تقول لربّك يوم القيامة وقد قتلت أباك نبيّ الله تعالى وإن ظفر بك فهو الذي تخشاه فقال ابن داود فإني أخشى إن آتيته فيقتلني قال له الرجل: إن داود لا يتفرّغ لك ما دام لم يفرغ قلبه من ذنبه وإذا تاب الله تعالى عليه ورد إليه ملكه فكيف تطيق فما زال يكلم ابن داود حتى كفّ عن قتال أبيه وضمن له أنّ داود لا يقتله، فلما تاب الله تعالى على داود وخافه الرجل الذي قال له الحمد لله الذي نزع عنك ملكك فدخل بيته وخنق نفسه بحبل فمات وهرب ابن داود فبعث داود ابن أخته أيوب في طلبه وعهد إليه أنه لا يقتله وقال: إنّك إن قتلته قتلتك به فاتبع أيوب شالوم بن داود، فلمّا رآه شالوم بين الشجر وهو على فرسٍ فتعلّق بشجرة وجذبه الفرس فزال عن متن فرسه متعلّقًا بالشجر فلحقه أيوب فناداه يا شالوم أحيّ أنت؟ قال: نعم، فنسي أيوب عهد داود وطعنه بالرمح فقتله وتركه متعلّقًا بالشجرة وانصرف إلى داود فقال داود: لأقتلنك به لا محالة يومًا، قال أيوب: وقد وطنت على ذلك حين ضيّعت عهدك فلم يتصوّب داود قتله وذكر حاجته إليه في جهاد الأعداء وكان رجلًا شجاعًا منصورًا على الكفّار فاستبقاه إلى أن حضر داود الموت فأوصى إلى ابنه سليمان أن يقتله قصاص شالوم ففعل ذلك حين فرغ من دفن داود، قال وعمّر داود بعد الخطيئة ثلاثين سنة على أحسن حال وأوحى الله تعالى إليه فقال له: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [صَ: الآية ٢٦] الآية، فكان يحكم فيهم بالعدل وكان الله تعالى قد أرسل إليه سلسلة من السماء بحبال صخرة بيت المقدس فإذا أتاه خصمان أمرهما بتناول السلسلة فكانت تناولها يد صاحب الحق وإن كان قصيرًا ولا يتناولها يد المبطل وإن كان طويلًا ثم إنه استودع رجل رجلًا لؤلؤة في جوف عصًا له من حيث لا يعلم فلمّا اختصما إلى داود أمرهما بتناول السلسلة فجاءها صاحب اللؤلؤة، وقال: اللّهم إنّك تعلم أنه لم يردها عليّ فاجعلني أنال السلسلة فدفع العصا إليه وجاء إلى السلسلة فتناولتها يده فلمّا رجع قام خصمه وقال له: احفظ عصاي حتى أتناول السلسلة وجاء إلى السلسلة وقال اللّهم إن كنت تعلم أني قد رددت إليه اللؤلؤة فاجعلني أنالها فنال السلسلة فتحيّر داود من ذلك وقال: ينالها الظالم والمظلوم جميعًا فأوحى الله تعالى إليه وأخبره بحيلة الرجل فسأل داود من أزهد الناس وأشدّهم تواضعًا وكان يجالس المساكين ويرحمهم ويقرّبهم ويواكلهم فلمّا كان في آخر عمره سأله

ربّه فقال: يا ربّ إنّ لكلّ نبيٍّ رفيقًا في الجنّة فمن رفيقي فيها فأوحى الله تعالى إليه: إنّك ستراه غدًا في السوق فغدا داود يدور في الأسواق سوقًا سوقًا فلم يرَ أحدًا يتفرّس فيه ذلك إلى أن رأى رجلًا على ظهره حزمة حطب وهو ينادي من يشتري الطيّب بالطيّب فتفرس داود أن يكون هو رفيقه في الجنّة، فقال له يا عبد الله ما تقول قال الرجل: إنّ هذا الحطب أنبته الله تعالى وقد قطعته بيدي وحملته على عنقي أطلب به رزقي فقال داود لغلامه ارصد هذا الرجل ما يصنع وأين يذهب فباع الرجل الحطب بشيءٍ فتصدّق ببعضها واشترى ببعضها نفقة وحملها في جرابه ومضى، واتبعه الغلام حتى أتى غيضة فدخلها فهاب الغلام أن يدخل فعلّم مكانه علامة، ورجع إلى داود وأخبره فخرج داود مع الغلام إلى ذلك المكان وقال لغلامه: اصبر فإن كان منّا قريبًا فإنا نسمع صوته فلمّا جنّ الليل سمعا صوت الرجل قائمًا يحمد ربّه ويثني عليه ثلثًا من الليل ثم ركع ثلث الليل ثم يسجد ثلث الليل الآخر وسلّم حتى أصبح وداود يسمع صوته فدخل عليه فرآه في بيتٍ صغير وفيه محرابٌ وكوز من ماءٍ وجراب فيه كسر من خبز فسلّم عليه داود فردّ عليه السلام ثم قال له: اخرج عنّي أيّها الرجل حتى لا تأكلك السباع فقال له داود إني داود فوثب إليه الرجل يقبّل وجهه ويديه ورجليه ويقول يا خليل الله ما جاء بك قال: بُعِثَ إليّ فأتيتك فأخبره داود بما قال الله له وأنه رفيقه في الجنة، ثم قال له: اخرج معي فأؤانسك بالقليل والكثير قال الرجل: لا، والذي بعثك واستخلفك ما وددت أنّ لي ملكك بمكاني هذا إلّا ما خصّك الله به من النبوة وإني لهٰهنا منذ سبعين سنة لم يطلع عليّ أحدٌ من الناس غيرك فليكن إحسانك إلى أن تخرج عنّي فتدعني هٰهنا فخرج داود وتركه. وعن وهب بن منبّه قال: لما تاب الله على داود وحسنت أحوال بني إسرائيل وكثروا وملؤوا الشّام ونواحيها وتعجّب داود من كثرتهم فأراد داود أن يعلم عددهم وأمر بإحصائهم فعجز العادّون عن ذلك فأوحى الله إليه يا داود إني وعدت إبراهيم حين أطاعني في ذبح ابنه أن أكثر عدد ولده حتى لا يبلغهم الإحصاء وقد أنجزت له وعدي، أفتريد أن ترد عليّ ما أنجزت من وعدي وتحصيهم إنك غير قادر على ذلك فترك داود عددهم ثم أوحى الله تعالى إليه ولكنّي بعد ما أنجزت في بني إسرائيل من وعدي أقسمت بعزّتي لأبتلينّهم ببليّةٍ يقلّ بها عددهم فخيّر بني إسرائيل بين إحدى ثلاث أن أبتليهم بالقحط سنين وإما أن أسلّط عليهم عدوهم شهرين وإما أن أسلّط عليهم الطاعون ثلاثة أيام فجمعهم داود وخيّرهم بين الثلاث فقالوا له أنت نبيّنا وملكنا فاختر لنا فقال داود: أمّا القحط فإن فيه ذهاب الرّحمة من بين الناس وقطع الأرحام، وأمّا العدوّ والطّاعون فإنّي أضرب لهما مثلًا أن رجلًا كان له غلامان فعصى أحدهما سيّده فأبق فطلبه فظفر به وكان عبده الآخر عدوّ الآبق فقال المولى لعبده الآبق: اختر أيّهما شئت إمّا أن أسلّط عدوّك هذا فيعاقبك كما يشاء وإما أن

أتولى ذلك بنفسي فيقول العبد في نفسه إن هذا عدوي وإنه إن يتسلّط عليّ لم يكن له شفقة البتة وإن هنا مولاي وهو أحلم وأرحم بي فاختار عقوبة سيّده، وقال: إن هذا غلامي ومالي لا ينبغي أن أتلفه فعُفي عنه، وإن الله إن سلّط عليكم عدوكم فإنه لا يبقي لكم والله أرحم بكم والموت في بيوتكم خير لكم ففوّضوا أموركم إلى سيّدكم فإن الطاعون أسهل ثم أمرهم أن يلبسوا الأكفان ويخرجوا بنسائهم وأولادهم إلى الموضع الذي بني فيه بيت المقدس وجاء داود فسجد على الصخرة وسجد معه الصبيان والنساء خلفهم يبكون وجعل العلماء ينادون يا ربّ يا ربّ يا ربّ أنت أمرتنا بالصدقة وتحبّ المتصدقين فتصدّق اليوم بأنفسنا اللّهم وقد أمرتنا أن نعتق الرقاب فنسألك برحمتك أن تعتقنا اليوم اللّهم وأمرتنا أن لا نردّ سائلًا، اللّهم ونحن سائلوك فلا تردّنا وخرّوا سجّدًا من حين انفجر الصبح إلى أن زالت الشمس فاستجاب الله دعاءهم وأوحى الله إلى داود أن قد شفعتك فيهم فرفع داود رأسه وناداهم حتى رفعوا رؤوسهم وأحصى من مات في الطاعون يومئذٍ مائة ألف وسبعون ألفًا ورفع الله عنهم الطاعون ثمّ إنَّ داود جمعهم وخطبهم وقال: إن الله رَحَمَ وَعَفَا عَنْكُم فأحدثوا لِلّه شُكْرًا، فقالوا: مرنا بما ترى؟ فَقَالَ: إني لَا أَعْلَمُ شَيْئًا أبلغ في شكركم لله من بناء مسجدٍ على هذا الصعيد الذي رحمكم الله فيه فابنوا هٰهنا مسجدًا نعبد الله فيه ومن بعدنا فاستأذن داود ربّه في ذلك فأذن له وأخذ في بنائه وكان ذلك الصعيد مشتركًا بين قوم بني إسرائيل فطابت نفوسهم ببذل نصيبهم فقال لهم رجل: إنكم قد علمتم وقري وضعفي وهذا الموضع لي فيه حقٌّ وفيه أجمع طعامي فهو بيدري فإن بنيتم أضررتم بي، وكان طيّب النفس بتسليم نصيبه لكنه أراد أن يعرف نيتهم وحسنتهم في أمر الله تعالى فقالوا له: ولكلّ واحد منّا فيه حق أفأنت أبخل القوم؟ فقال: لا تطيب نفسي بترك حقّي مجازًا فأعطوني ثمنه، فقالوا: لا نعطيك فأسلمته طوعًا وإلا بنينا عليه على كرهٍ منك، فانطلق الرجل إلى داود وشكاهم إليه فدعاهم داود فقال الرّجل تريدون أن تشكروا لله بالظلم فقال داود: صدق الرجل، ثم قال داود بكم تبيع حقّك؟ قال: ما تعطيني به؛ قال داود: ما شئت ملأته غنمًا وإن شئت ملأته بقورًا، وإن شئت ملأته إبلًا قال: لا، إلا أن تبني حائطًا حول حقي قدر قامتي وتملأه دنانير قال داود: نفعل ذلك، وهو في الله قليل قال: فالتفت الرجل إلى بني إسرائيل فقال: هذا هو التائب الصادق المخلص لا أنتم ثم قال يا نبيّ الله قد علم الله من نيّتي لمغفرة ذنب من ذنوبي أحبّ إليّ من ملء الأرض ذهبًا فكيف أبخل عليهم بما أرجو به المغفرة، ولكني جرّبتهم وقد جعلت حقّي منه تعالى قال: فأقبلوا على البناء وجعل داود ينقل الحجائر بنفسه ويؤسّسه بيده ومعه أخيار بني إسرائيل حتى ارتفع حائطه قدر قامته، فأوحى الله إليه أني قد قبلت سعيكم وشكركم فارفعوا أيديكم عنه، فإني أريد أن أتم بناءه على يد رجل

من ولدك وأجعل له ذكره وشرفه وأجره وفخره، وعن ابن عباس رضي الله عنه أنّ داود كان إذا رأى بين الأحجار التي ينقل حجرًا حسنًا عزله لنفسه ليبني لنفسه محرابًا وروي أنه رأى حجرًا ملسًا ليّنًا فعزله، وقال: افرشه في المحراب لأسجد عليه فيكون السجود عليه، فلم يرضَ الله له ذلك فأوحى الله تعالى إليه: يا داود آثرت نفسك ولقد حرمت بناءه عليك، فقال: يا ربّ اجعله في ولدي، قال: نعم فأذن الله لسليمان حتى أتمّ بناءه وعاش داود بعد التوبة ثلاثين سنة فتمّ عمره مائة سنة وقيل إنه مات فجأةً وقد رُوِي أنه أراد يومًا من الأيام أن يرتقي إلى محرابه الذي كان يخلو فيه للعبادة فلمّا بلغ بعض المراقي لقيه ملك الموت فسلّم عليه فردّ عليه داود وقال له ما جاء بك يا ملك الموت قال: جئتك لأقبض روحك قال: ألم أكن قد سألتك أن تخبرني بقرب أجلي إذا اقترب فاستعد للموت قال ملك الموت: بلى، قد فعلت وأخبرتك، قال: إنه لا يأتيني أحد من جهتك قال ملك الموت: بلى، قد أتاك رسلي، قال داود: ومن كان رسولك؟ قال: فإن بياض شعرك بعد سواده كان من رسلي، وإن كلال عينيك بعد حدتها كان من رسلي، وإن ثقل أذنيك بعد نفاذ سمعك من رسلي، وإن تقوّس قامتك وانحناءها بعد اعتدالها من رسلي فقد كثرت رسلي عندك ويخبرونك بالموت وكلتك الغفلة عَنْه قال داود: فدعني أنزل إلى أهلي فأوصي لهم وأودعهم، فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل، فقال: دعني أرتقي إلى محرابي وأصلّي ركعتين قال: هيهات قد رأيت حفظتك يصعدون بديوانك إلى السماء وقد فنيت أرزاقك ونفدت أيامك فلست بموثر بعد هذا أثرًا قال: فأهوى داود ليسجد على تلك المرقاة التي كان يسجد عليها فقبض ملك الموت روحه على تلك الحالة. قال وهب: فحضر الناس جنازته وذلك كان في يوم صائف فأذاهم الحرّ، فشكوا إلى سليمان فأمر سليمان الطير حتى أظلتهم بأجنحتها ويقالُ: حضر جنازته أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى سائر الناس وأنه لم يمت بعد موسى وهارون نبيّ كان بنو إسرائيل أشدّ حزنًا عليه أي على داود عليه السلام.

باب في ذكر سليمان عليه السّلام[1]

ذكر أصحاب الأخبار والتفسير أنّ داود لما تزوج امرأة أوريا ولدت له سليمان بعدما تاب الله تعالى عليه غلامًا طاهرًا نقيًّا فهيمًا عاقلًا، وكان من أجمل الناس وأتمهم جسمًا فبلغ مبلغ أبيه حتى كان داود يشاوره في أموره وهو صبيّ بعد ويدخله في حكمه وكان أوّل ما عرف من عقله وتفرّس فيه النبوة أن امرأة من بني إسرائيل كانت كسبت جمالًا جاءت إلى قاضي داود وكان قد نصب داود قاضيًا يقضي بين الناس، فإذا أشكل عليه أمر رجع إلى داود فلمّا أتته المرأة في خصومةٍ كانت لها نظر إليها القاضي فأعجبته فأرسل إليها بعد ذلك يخطبها ليحكم لها على خصمها فقالت المرأة: إني لا أريد التزويج قال: فراودها على القبيح فقالت: إني من القبيح أبعد ثم إن المرأة أتت في خصومتها إلى صاحب شرط دواد فأصابها مثل ما أصابها من القاضي فصارت إلى صاحب السوق فكان حالها معه كحالها مع الأوّلين فصارت إلى صاحب داود فكان أمرها معه مثل الذي من قبل فتركت المرأة حقّها ولزمت بيتها فبينما القاضي وصاحب الشرط وصاحب السوق أي صاحب داود جلوسًا يومًا في مجلس لهم، إذ وقع ذكر تلك المرأة فتصادق القوم بينهم وذكر كلّ واحد منهم إعجابه بها وامتناعها عليه فقال بعضهم: وما يمنعكم أن تعملوا في هلاكها حتى تستريحوا منها، فاجتمع رأيهم على أن يشهدوا عليها أنّ لها كلبًا ترسله على نفسها، فينال منها ما ينال الرجل من المرأة ثم دخلوا على داود وأخبروه بأمر المرأة وقالوا إنا لم نصدق أمرها حتى دخلنا موضعًا رآها منه وأنّها حلت كلبها واضطجعت له وأرسلته على نفسها حتى فعل بها ما يفعل الرجل بالمرأة قال فأمر داود برجمها، قال المصنف لعلّ في شريعتهم كان يجب الرجم بذلك فأمّا في شريعتنا فلا يلزم الرجم بفعل الناس بالبهائم وبفعل البهائم بالناس ولا يفعل غير العقلاء البالغين، فلمّا أمر داود برجمها سمع سليمان ذلك فخرج من عند أبيه وعنده غلمان يلعبون معه وهو أيضًا غلام مترعرع

---

(١) من أراد زيادة في التفاصيل عن نبي الله سليمان (عليه السلام) عليه الرجوع إلى الطبري، تأريخ الرسل والملوك ١/٤٨٦ ـ ٤٨٨، وابن كثير، البداية والنهاية ١/٤٦٦ وما بعدها.

معه حضانه يحفظه فجلس سليمان مجلسًا وبعث إلى من أمر برجم المرأة أن لا تعجل في أمرها حتى يأتيه رسوله ثم إنّه جعل أحد غلمانه الذين معه مكان المرأة وأربعة منهم مكان هؤلاء الشهود الأربعة وأمرهم أن يشهدوا على الذين هو بمكان المرأة بما شهد عليه الشهود عند داود فلمّا شهدوا فرق بينهم ثم دعا بأحدهم وقال: أثبتت الشهادة، قال: نعم، قال: فما كان لون الكلب الذي رأيته؟ قال: أسود، فقال سليمان: أخّروا عنّي هذا ثم دعا بالثاني وسأله عن لون الكلب فقال أصفر فنحّاه عنه ثم دعا بالثالث وسأله عن لون الكلب فقال أحمر فنحّاه، ثم دعا بالرابع وسأله عن لونه فقال أبيض فجمعهم وقال: يا فجرة بالكذب أردتم أن تفتنوني حتى أرجم امرأة من المسلمين وهي بريئة ثم أمر سليمان الصبيان وقال: اقتلوا الشهود قال: فذهب حضانه الموكل عليه، فأخبر داود بما فعله سليمان فقال داود: عليّ بالشهود الذين شهدوا على المرأة ثم إنّه فرقهم وسألهم واحدًا واحدًا عن لون الكلب فاختلفوا في لونه وقال كلّ واحدٍ لونًا خلاف ما قال الآخرون فأمر بهم فقتلوا وذلك أن المرأة قد رجمت ويقال: لا، بل أمر بهم فجلدوا وخلّى عن المرأة فذلك أوّل ما استبان من فهمه أي من فهم سليمان. وكانت **ثانية** أن امرأتين كانتا تغسلان الثياب في صحراء ومعهما صبيان لهما رضيعان فجاء الذئب فاستلب أحد الصبيين فادعت المرأتان في الصبي الباقي وكلّ واحدة منهما تزعم أنّه ولدها وأن الذي سلبه الذئب ولد الأخرى ثم دخلتا على داود للخصومة فقضى داود لإحداهما ما وجب في الحكم وخرجتا فمرتا على سليمان، فقال: ما قضى بينكما نبي الله؟ فقالت: قضى بي لي ثم إن سليمان دعا بالسكين وأخذ الصبي من المرأة فقالتا وما تريد أن تصنع؟ قال: أقطع الصبي بينكما نصفين، فقالت إحداهما لا تفعل ادفعه إلى صاحبتي فقد رضيت وبكت، وقالت الأخرى: أنا أرضى أن تقطعه نصفين إن كان ولا بدّ، فقال سليمان إنه ولد هذه التي بكت ولم ترد القسمة ولو كان ولد هذه لم ترضَ بقطعه نصفين فذكر ذلك لداود فعجب من فهمه وأمر بدفع الولد إلى التي أبت القسمة. وكانت **ثالثة** وهي أن داود وسليمان كانا يمشيان في الطريق إذ رأيا صبيًا مع قوم يسمى الصبي ابن الدّم فسأل داود عن اسم الصّبي فقالوا: ليس له اسمٌ إلّا هذا، فقال داود: ما معنى تسميته باسم الدّم فقال سليمان: أَأَبْحث عن هذا يا نبي الله فقال: إن شئت فرجع سليمان إلى منزله وأمر أن يستحضر القوم الذين كان الصبي معهم ففرق بينهم وسألهم وبحث عن حال الصبي حتى أقرّوا بأنّه كان له أبٌ وصى أن يسمّى ولده ابن الدم إذا ولد ثم جدّ في البحث حتى أقرّوا بقتله أي بقتل الأب وأنه لمّا أشرف على الموت وأوصى إن كانت جارية ابنة الدم فجاء سليمان إلى أبيه فأخبره فاستحضرهم داود حتى أقرّوا عنده بما ذكروه لسليمان ثمّ إنه أرجع مال الصبي وأمر بقتلهم بأبيه. وكانت من أحكام سليمان **رابعة** وهي أن امرأة من بني إسرائيل

كانت عابدة وكانت لها جاريتان جميلتان فغلبهما الشوق فاحتالتا لها لتنجوا منها فقالتا للناس إنّ سيّدتنا تزني برجل يأتيها ثم قالتا: إنا نظهر لكم ذلك فدخلت المرأة يومًا في صلاتها فأخذت الجاريتان بياض البيضة وصبتاه في سراويلها وأخرجتا للناس وقالتا إن الرجل دخل وفعل بالمرأة إلا أنه هرب فلم ندركه وهذه نطفته في سراويل المرأة فأخذت المرأة وجُرّت إلى داود فأمر بعقوبتها فقال سليمان: إن لي في أمرها حكمًا، فقال: أرنا حكمك فأمر سليمان أن يُدْنى بسراويل المرأة إلى النار فإن انعقد ما عليه فهو بياض البيض وإن لم ينعقد وينحلّ فهو النطفة ففعلوا ذلك فانعقدت الرطوبة فعرفوا أنها ليست بنطفة فخلّوا سبيل المرأة بسبب ذلك. ذكر **خامسة** من أحكامه وهي أن امرأة حملت جرابًا من دقيق على رأسها فاعترض لها سائل فسألها شيئًا فقالت: ليس معي إلا رغيف واحدٌ، وهذا الدقيق ولكن امضِ معي إذا خبزت أعطيتك من كلّ عشرة أرغفة رغيفًا فقال السائل: إني مارّ الطريق ولا أقدر أن آتيك أعطيني هذا الرغيف فأعطته فدعا لها ومضى قال: فهبت الريح شديدة فطرحت الجراب من رأسها فانخرقت وذرّت الريح الدقيق في الهواء فذهبت به فجاءت المرأة داود وشكت إليه ما أصابها من الريح وسألته أن ينصفها منها داود أي من الريح فقال داود: إني لا أقدر على إنصافك من الريح ولكن قد أمرت لك من مالي بألف درهم، فقالت: رضيت فأخذت المال وخرجت فوجدت سليمان جالسًا بالباب فسألها عن قصتها فأخبرته فقال: ارجعي إلى نبي الله وقولي له: لا أريد الألف وإنّما أريد أن تنصفني من الريح فقالت لداود: فزادها ألفًا في كل مرّة تخرج ويأمرها سليمان بالرجوع فقال داود من الذي يردّك عليّ بعد الرضاء قالت: صبيّ بالباب فدعا به داود فإذا هو سليمان فقال له: لم تفعل هذا؟ قال سليمان: لأنّ قضاءك لها على الرّيح فريضة وإعطاءك إيّاها من مالك نافلة والفريضة أولى بك من النافلة فقال داود صدقت فسأل الله أن يأتيه بالريح فجاءته فسألها لم ذهبت بدقيق المرأة، فقالت: الريح أمرني ملك الريح الموكّل بي فسأل الله أن يأتيه بالملك فجاءه فسأله فقال: فعلت ذلك لأن جبرائيل جاءني بذلك فسأل داود ربّه أن يأتيه بجبرائيل فنزل عليه فسأله فقال: كانت سفينة في البحر قد تشقّقت وكادت تغرق فأمرني الله أن آمر ملك الريح حتى يأمر الريح فتذهب بالدقيق فتسدّ شقوق السفينة فلا تغرق ففعلت فنجت السفينة بذلك السبب وأن الله يأمرك أن تطلب أصحاب السفينة وتأخذ ثلث أموالهم التي كانت فيها فتعطيه المرأة ففعل ذلك داود فبلغ عشرة أوقار أي دراهم، ثم سأل المرأة وقال أي شيءٍ صنعت اليوم الذي ذهبت الريح بدقيقك فقال: أعطيت فقيرًا رغيفًا وقلت له: كذا وكذا، فقال داود هذا لك الرغيف في الدنيا مع ما لك من الثواب عند الله عزّ وجلّ. وكانت له حكومة **سادسة** وهي ما ذكر الله في نصّ القرآن قوله عزّ وجلّ ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَـٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِى ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ

ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٧٨] قال أصحاب الأخبار إن رجلين دخلا على داود ويقال لأحدهما يوحنا وللآخر إيليّا وكان إيليّا صاحب حرث ويوحنّا كان جاره وكان صاحب غنم، قال ابن عباسٍ كان الحرث كرمًا وقيل: بل كان زرعًا فنفشت غنم يوحنا في حرث إيّليا ليلًا فأفسدته فاختصما لداود فأمر أن ينظر ما كان لصاحب الحرث من الخسران فيجبر من غنم صاحب الغنم فنظر فإذا الغنم كلّها يستوعبها خسران الحرث فأمر داود بتسليم الغنم كلّها إلى صاحب الحرث، فلمّا خرجا من عنده كان سليمان بالباب فسألهما عن قضاء داود فأخبراه بذلك، فدخل سليمان على داود فقال: يا نبيّ الله أقضيت لهذا بغنم هذا كلّها، قال: نعم، قال سليمان: لو كان غير ذلك لكان أصلح وأرفق قال: وما هي؟ قال: أرى أن تدفع غنم هذا إلى هذا فينال من نسلها وألبانها وصوفها ويرعاها ويحفظها وتدفع حرث هذا إلى هذا فيصلحه ويحرث له حتى يعود الحرث إلى ما كان عليه أولًا ثمّ ترد الضيعة والحرث إلى صاحبها وتردّ الغنم إلى صاحبه فقال داود: لا ينزع الله عقلك وزادك فهمًا فأمر بما قال سليمان قال: كان ما قاله داود وهو الحكم في شريعتهم وما قال سليمان هو الرفق والصلح ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: الآية ٧٩] فأتى الله داود حكم القضاء والشرع، وأتى سليمان علم الصّلاح والرفق فيجوز للحاكم أن يصلح بين الخصمين بما هو أرفق بهما، ولا يقطع الحكم بينهما إذا كان فيه ضرر على أحدهما، ولما أن بلغ سليمان مبلغ الرّجال واستخلفه داود بأمر الله تعالى على أمره قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [النمل: الآيتان ١٥، ١٦] حين قام مقام أبيه بعده: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ [النمل: الآية ١٦] يحتاج إليه في النبوّة والملك ويروى أن داود كان يومًا جالسًا في مجلس وحوله علماء بني إسرائيل فقالوا في العقل فقال داود لسليمان يا بني ما العقل؟ قال سليمان: العقل صلاح عماد أمر الدين والدنيا جميعًا، وهو يردّ صاحبه إلى أحسن العواقب في الدّارين فرضي داود قوله واستخلفه، ويروى أنّه كان يوم استخلفه ابن اثنتي عشرة سنة ولما توفي داود قام سليمان مقامه وسخّر الله له الطير والريح والشياطين مع ما سخر الله له من الإنس، ويروى أنه كان إذا أراد الجلوس للناس جلس على سريره وكان له سَرِيرٌ عظيم وصفه وهب بن منبّهٍ ومقاتل بصفةٍ طويلةٍ لم نكتبها قال: وكان إذا أراد الجلوس وضع عن يمين كرسيّه أربعمائة كرسيٍّ وكذلك عن يساره فجلس عن يمينه أخيار بني إسرائيل وأشرافهم وعن يساره الجنّ ثمَّ يحفّ بهم الإنس والجن سماطين ثمّ يحفّ الوحوش والبهائم والسّباع ثم تجيء الطير فتصطفّ من فوقهم تظلّهم قال: وقد روي في تفسير قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: الآية

١٧] وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سَبَإ: الآية ١٢] إن الله تعالى كان قد سخّر هذه الأشياء كلّها لسليمان وكان قد أمر الجن والشياطين حتى يسحبوا له بساطًا عظيمًا على قدر عسكره ويقال فرسخًا في فرسخ ثم إذا أراد المسير إلى ناحيةٍ أمر فوضع سريره على البساط وحفّ بالكرسيّ كما وصفنا وحفّت به الجنّ والإنس والوحوش كما ذكرنا وأظلته الطير ثم أمر الريح فتحمله وتذهب به حيث شاء قال الله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [صَ: الآية ٣٦] وذلك أن الريح مع قوتها التي تحمل عساكر سليمان كلّها بين السماء والأرض كانت تمرّ بالزرع فلا تحرّكه وقوله ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [صَ: الآية ٣٦] أي أراد وكان ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سَبَإ: الآية ١٢] وذلك أنّ سليمان كان يغدو من الشام فيتغدّى باصطخَر[١] فارس ويقيّل هنالك ثم يروح مما هنالك فيمسي بكابل[٢] ويتعشّى هنالك ويبيت ثم يغدو من الغد من كابل فيقيّل باصطخر ثم يروح منها فيمسي ببيت المقدس وبين كلّ واحدٍ من منازله الأخر مسيرة شهرٍ، وقد اختلف الناس في مملكة سليمان فقال بعض الناس: إنه ملك الأرض كلها، قالوا: وقد روي أنه ملك الأرض كلّها مؤمنان وكافران فالمؤمنان سليمان وذو القرنين، والكافران نمرود وبخت نصر وقال آخرون بل كان ملكه بالشام فقط وقال ملك فارس في وقته منوجهر قد وهب له اصطخر فارس ووهب له ملك الهند كابل فكان يخرج إلى الناحيتين للنزهة ولذلك وقعت آنية الشياطين وتماثيلهم بهاتين البلدين أعني اصطخر وكابل، وهذا القول أولى وعليه أكثر أهل التواريخ ويدلّ على ذلك أنه لم يملك اليمن مع قرب اليمن من الشام إلا بعدما أعطته بلقيس وآمنت به وكان لا يعرف تلك المملكة حتى قال له الهدهد ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: الآية ٢٢] وكان من المعجزات التي أعطاه الله تعالى لسليمان مما ذكرنا من تسخير الأشياء له أن علّمه (منطق الطير) وسائر الحيوانات ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: الآية ١٦] وقال: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النَّمل: الآية ١٩] أي قول النملة ومن معجزاته أن أسال له عين القطر وهو النحاس قال قوم لم يكن النحاس ما أراد وقيل كان النحاس في أيدي الناس كما هو اليوم إلّا أن الله أخرج له عينًا من النحاس الجاري مثل الماء فلا يحتاج إلى إذابَتِهِ بالنار، ومما أخبر الله من قصته قوله عزَّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: الآية ١٨] قال وقد روي أنّ سليمان ركب يومًا مركب الريح كما ذكرناه فمرّ برجل فقال الرجل لمّا نظر

---

(١) اصطخر: بالكسر، وسكون الخاء المعجمة، بلد بفارس، من أعيان حصون فارس ومدنها، ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٢١١.

(٢) كابل: بضم الباء الموحدة، ولام، وكابل بين الهند ونواحي سجستان، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤/ ٤٢٦.

إلى ما أعطاه الله تعالى سليمان قال لعمري إنّ آل داود قد أعطوا ملكًا عظيمًا فسمع سليمان قوله فأمر الريح حتى حملته إليه فقال له: ما قلت؟ قال: قلت كذا وكذا، قال سليمان: صدقت لقد أوتي آل داود مما أوتوا الناس ومما لم يؤتوا ولكن أخبرك بمن أوتي أفضل مما أوتي آل داود، فقال: بلى يا نبيّ الله، قال سليمان من أوتي ثلاثًا العدل في الرضاء والغضب والقصد في الغناء والفقر وخشية الله في السرّ والعلانية، وفي رواية أخرى أخبرك بمن أعطي أفضل ممّا أعطي آل داود قال الرجل: بلى، قال: من أدرك آخر الزمان وقرأ القرآن فقد أعطي أفضل مما أعطي آل داود. وروي أنه ركب يومًا مركب الريح فمرّ برجل بيده مسحاة يثير أرضًا فلمّا رأى سليمان على حاله وقف الرجل ينظر إليه ساعة ثم سلّم على سليمان فردَّ عليه سليمان السلام فقال له: ما حاجتك؟ قال: أريد أن أسألك عن شيء فتخبرني به قال: يا نبيّ الله هل تجد لما مضى من ملكك لذة؟ قال سليمان: لا، قال: وهل توقن بشيء بقي من ملكك قال سليمان: لا، قال الرجل فامض يا نبيّ الله فما أراك ستبقى بكثير شيءٍ فقال سليمان إني لأراك رجلًا حكيمًا أفلا تصحبني فأكرمك فقال الرجل يا نبيّ الله حتى أسألك أولًا عن شيء قال: سل قال: إن صحبتك فهل تقدر أن تزيد في رزقي شيئًا قال: لا، قال: وهل تقدر على أن تزيد في عمري شيئًا؟ قال: لا، قال: فهل تقدر على أن تغفر لي من ذنبي شيئًا؟ قال: لا، قال الرجل فدعني يا نبي الله فأكون بباب من يقدر على هذه كلّها فتركه سليمان ومضى، فأمّا ما قصّ الله تعالى من خبر النمل قال ابن عباس ركب سليمان مركب الريح راجعًا من اصطخر إلى الشام فسلك مدينة الرّسول ﷺ فقال لمن معه هذه دار هجرة النبيّ الأميّ الخارج في آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اقتدى به واتبعه، ثم مضى حتى مرّ بمكّة وقال وهذه مولد ذلك النبيّ ﷺ ثم مرّ بوادي الشريف من ناحية الطّائف[1] فأتى على واد النمل فقالت نملة من نمل الوادي ويقال إنها كانت رئيسة تلك النمل ويقال إنها كانت عرجاء خلّفها الضعف عن النمل فقالت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: الآية ١٨] يعني عسكر سليمان لا يشعرون بكم فيطؤوكم ويقال والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم كلامه وكان سليمان كلّما مرّ بموضع لا يتكلّم شيءٌ إلّا وتحمل الريح كلامه إلى سمع سليمان فلمّا سمع سليمان كلام النمل تبسّم ضاحكًا من قولها وأن ضحك الأنبياء لا يكون إلّا التبسم ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: الآية ١٩] بما أكرمتنا حتى نفهم كلام الأشياء ثم إنّه أمر

---

(١) الطائف: بعد الألف همزة ثم فاء وهي مسيرة بين مكة ونصف يوم للهابط إلى مكة، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤/٨.

الريح حتى حبست العسكر إلى أن دخلت النمل مساكنهنّ ويروى أن النملة الرئيسة لبثت على باب حجرها حتى دخلت النمل كلّها عن آخرها ثم دخلت هي بعدهن شفقة على رعيتها فقال سليمان في نفسه: إنّ هذه عبرة من الله لي وتعليم منه في الشفقة على رعاياي. وممّا يروى من فهم سليمان كلام النمل أنه عليه السلام خرج في بعض أيامه يستسقي بالناس من قحطٍ أصابهم فمرّ بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمَها إلى السماء وهي تقول: يا رب إنا خلق من خلقك ليس بنا غناء من رزقك فإما أن ترزقنا وإما أن تقبضنا، فقال سليمان عند سمع دعاء النملة: أيّها الناس ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم فأرسل الله المطر. ومما قصّ الله تعالى علينا من بناء سليمان وقصّة الهدهد وحكاية بلقيس قال الله تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النَّمل: الآية ٢٠] وتكلّم الناس في تفقد سليمان الطير وسؤاله عن الهدهد، فقال بعضهم: إن سليمان كان إذا جلس مجلسه جاءت الطير فتصطفّ فوقه تدفع عنه وعن من معه الشمس وكان لكلّ طائر من الطير مكان مخصوص فجلس سليمان يومًا من الأيام وأظلته الطير فنظر سليمان إلى موضع يطلع منه شعاع الشمس فنظر فرأى مكان الهدهد خاليًا فسأل عنه، وقال آخرون: بل كان سبب سؤاله أنه كان يعرض في يوم من الأيّام عساكره من كلّ جنسٍ فعرضوا يومًا عسكر الطير فلم ير هدهدًا كان قد عرفه الطير فسأل عنه وروي عن ابن عبّاس أنه سئل فقيل: ما بال سليمان فقد الهدهد من بين سائر الطيور؟ قال ابن عباس: كان سليمان إذا سار في الأرض فنزل منزلًا لا ماء فيه دعا الهدهد فيدلّه على الماء وذلك أن الله تعالى قد عرّف الهدهد مواضع الماء في الأرض فكان سليمان إذا نزل بعض المنازل القفرة واحتاج العسكر إلى الماء طلب الهدهد ليدل على الماء فيحفر عنه الشياطين ويستخرجونه، قال: وكان شيخنا يقول معنى تفقّد أمور صغيرهم وكبيرهم ألا ترى أن سليمان تفقد أحوال الطير مع استغنائها من بين سائر الدواب عن رعاية الناس مع ما أعطاها الله تعالى من الأجنحة حتى تطير بها في الهواء لطلب معاشها، ومع ذلك أن سليمان لم يخلّ في حق سيادته لها بالتفقد لها وحتى تفقّد حال أضعفها وأصغرها ممّا لا يعبأ به كالهدهد فذكر الله لنا هذا من حال سليمان ليدلّ به الملوك والسادات على هذه النكتة في أمور رعائهم، وعن ابن عباس أن سليمان سار في بلاد اليمن مجتازًا بها فلقي هدهدٌ من هداهد سليمان هدهدًا من هداهد أرض اليمن فكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن عنفير فقال هدهد اليمن ليعفور ما أعظم ملك صاحبك فقال: أجل وهل رأيت ملكًا يشبهه قال عنفير: ملكنا امرأة لها شأن عظيم في الملك فإن شئت فتعال حتى تراها فمضى هدهد سليمان معه متخلّفًا عن سليمان ومضى سليمان فنزل منزلًا لم يكن هناك ماء فقال سليمان لجنوده هل يعرف أحد منكم

موضع الماء فقالوا: إن كان أحد من جندك يعرفه فالطير فسأل الطير فقالوا: لا يعرفه منّا أحد إلّا الهدهد فإنه يرى الماء تحت الأرض كما يرى الناس الماء في القارورة فطلب سليمان الهدهد فلم يجده فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: الآية ٢٠] أخطأه بصري فلم يقع عليه ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: الآية ٢٠] لذلك لا أراه ثم قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: الآية ٢١]، قال شيخنا إن سليمان قسم حال الهدهد على ثلاثة أقسام: أحدها أن يكون غيبة الهدهد على سبيل هوى نفسه دون إنكار ملكه، أو يكون على سبيل إنكار ملكه وسيادته أو يكون على وجه العذر له في الغيبة فإن كانت غيبته لهوى نفسه بلا إذنٍ قال: فإنّي أعذّبه عذابًا شديدًا قال: وكان عذابه للطيران يأمر بنتف ريشها وإلقائها إلى النمل فيلدغنها وإن كانت غيبته على سبيل إنكار ملكي فلأذبحنه ذبحًا فإن جرمه أعظم وإن كان على سبيل العذر فيه فعليه أن يأتيني بسلطان مبين أي بحجّةٍ ظاهرة وعذرٍ واضح قال: وهكذا ينبغي للسيّد أن لا يسوّي بين أهل الجرائم في العذاب بل يجعل له منازل قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النّمل: الآية ٢٢] أي فلبث الهدهد غير طويل حتى حضر بعدما ذهب ورأى بلقيس ملكة سبأ وشاهد أمر مملكتها وأحوالها ورجع فقالت الطير ويقال لقيه الحمام أولًا فقال له: ما خلّفك عن الملك فقد أوعدك وهدّدك بالعذاب الشديد والذبح فقال الهدهد: هل استثنى الملك، قال: نعم، قال: أو ليأتيّني بسلطانٍ مبين، فقال الهدهد: فقد آتيته بما يسرّ به سماعه ثمّ إنّه أتى سليمان فقال له سليمان: أين كنت؟ فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: الآية ٢٢] وعلمت ما لم تعلم وقد أتيتك ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: الآية ٢٢] صدقٍ، قال: وما ذلك النبأ؟ فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: الآية ٢٣] مما يحتاج إليه الملوك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: الآية ٢٣]، فذكر وهب أن سريرها كان طوله في السماء ثلاثين ذراعًا ومقدّمه من ذهب مرصع باليواقيت والزمرّد الأخضر ومؤخّره من فضّة مكلّل بألوان الجواهر وكلّ قائمة من قوائمه من جوهر خلاف الآخر فقال سليمان: أخبرني عن دينها ودين قومها فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النّمل: الآية ٢٤] إلى الحق قال سليمان ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ [النمل: الآية ٢٥] معناه على قراءة من قرأ بالتخفيف أن سليمان حين سمع بلقيس وقومها يسجدون للشمس من دون الله قال لمن معه: ألا يا هؤلاء اسجدوا لله ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ [النمل: الآية ٢٥] الدفائن والمكامن كلّها مما ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: الآية ٢٥] وهو يعلم ما يخفي أهل السماء والأرض وما يعلنون وهو ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: الآية ٢٦] وعرشه العظيم لا عرش بلقيس فأمر لمن معه بالسجود لله شكرًا على ما هداهم

له من دينه وجنّبهم الكفر وعلى قراءة من قرأ بالتشديد فمعناه فصدّهم عن السبيل ثم إن سليمان قال: ألا يسجدوا لله وما بالهم يسجدون للشمس إنكارًا لفعلهم، ثم إنه قال للهدهد ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ [النمل: الآية ٢٧] فيما أخبرتني به أم اخترعت خبرًا من نفسك كذبًا لتنجو به من عقوبتي قال شيخنا: وهكذا ينبغي للملك أن لا يعجل بقبول ما ينتهي إليه حتى يبحث عنه ويتعرف صدقه وكذبه قال وهب: ثم إن سليمان قال للهدهد ابغ لنا ماءً فطلب فأصابه تحت قائمة سرير سليمان فأمر سليمان بالجنّ والشياطين باستخراج الماء فكشطوا الأرض عن الماء وكذلك كانوا يكشطون الأرض كما يكشط الجلد عن اللحم فأخرجوا ماءً معينًا فرأوا عسكر سليمان، روى سعيد بن جبير أن ذلك الماء بعد ظاهر اليوم والله أعلم قال ثم إن سليمان دعا بالكاتب وأمر بكتب الكتاب إلى بلقيس اكتب إليها ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النَّمل: الآية ٣٠] نبيّ الله وخليفته على الإنس والجن إلى بلقيس ملكة سبأ أمّا بعد فإذا قرأتم كتابي هذا فعليكم ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: الآية ٣١] أي مؤمنين ويقال خاضعين منقادين لي فإن كنتم من الإنس فقد بعثت لكم رسولًا وإن كنتم من الجنّ فقد أمرتكم بالتسخير والطّاعة لي ثمّ إنه ختم الكتاب ودفعه إلى الهدهد وقال: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: الآية ٢٨] أي إلى بلقيس وملئها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [النمل: الآية ٢٨] أي تأخّر عنهم إلى موضع تراهم وتسمع قولهم ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: الآية ٢٨] من الجواب وقال بعض الناس: إنّه مقدّم ومؤخّر أي فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تولّ عنهم إلينا فانطلق الهدهد بالكتاب حتى أتى مدينة سبأ[1] إلى قصر بلقيس وكانت قد دخلت للمقايلة سابع بيت من بيوتها ورقدت على فراشها فدخل الهدهد عليها من كوّة البيت ثم ألقى الكتاب عندها فلم تنتبه فمسح الهدهد وجهها بجناحه حتى انتبهت ويقال إنه نقر صدرها بمنقاره فانتبهت فلمّا رأت الهدهد يترفرف على رأسها فجلست ورفعت الكتاب وعلمت أن الطّائر هو الذي جاء به ففكّت خاتم الكتاب وكانت كاتبة فقرأت ما فيه وقالت في نفسها: إن كاتب هذا الكتاب لملكٌ عظيمٌ مطاعٌ أن يكون رسوله الطير ثم إنها حملت الكتاب وخرجت إلى مجلسها الّذي كانت تجلس فيه للناس وبعثت وجمعت ملوك حمير فقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النَّمل: الآية ٢٩] قال بعض الناس إنّما سمته لأنّه كان مختومًا ويقال: كان خاتمه من ذهب ويقال سمته كريمًا لأن رسوله وحامله طائر ويقال: لأنه كان مبدأه بسم الله الرحمـٰن الرّحيم، ويقال لأنه فيه كلامٌ لطيف رقيق لا عنف فيه ثم قالت:

(١) سبأ: بفتح أوله وثانيه، وهمزة آخره وقصره، أرض باليمن مدينتها مأرب، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣/ ١٨١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: الآية ٣٢] أي تحضرون فأشاوركم فأعمل بما تشيرون به فكانت بلقيس عاقلة حازمة سائسة وهي بلقيس بنت شراخيل وكان أبوها من ملوك اليمن، قال ابن عباس كان لها اثنا عشر قيلًا تحت كلّ قيلٍ منهم مائة ألف رجل وقال الزجّاج ذكر أنه كان تحت يدها ألف ألف قيل والقيل بلغة اليمن الملك تحت كل قيل ألف رجل وقال مقاتل كان لها ثلاثمائة جاثليق والجاثليق القائد مع كلّ جاثليق مائة ألف رجل والله أعلم، فلمّا شاورتهم قال لها القوم: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل: الآية ٣٣] أي قتالٍ شديد فإن احتجتِ إلى قتالٍ فنحن بين يديك ولا نعجز عن أحد ولم يغلبنا فيما مضى من الأيّام غالب وإن رأيت رأيًا آخر فإن الأمر إليك ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النّمل: الآية ٣٣] رأينا لرأيك فلمّا فوّضوا الأمر إليها ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً﴾ [النّمل: الآية ٣٤] قهرًا وعنوةً ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ [النّمل: الآية ٣٤] بالغارة والخراب ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النّمل: الآية ٣٤] يعني قوم سليمان يفعلون بنا إن ظفروا بنا ويقال إن الله صدقها فقال وكذلك يفعل الملوك كما زعمت هي. ثم قالت فالرأي عندي أن نعالجهم فإنه لا ندري كيف يكون حال الحرب لنا أم علينا وَلكنّا نبادلهم بالمال فإن رضوا عنّا بالمال فقد كفي الأمر بالمؤنة اليسيرة وعلمنا حينئذٍ أنّه غير نبيّ فإن استزادنا من المالِ عرفنا أنه ملك فحينئذٍ لا نبالي من قتاله فإنه ليس بأكثر منّا عددًا ولا شوكةً وإن لم يقبل المال ولم يرض منّا إلّا أن ندخل في دينه علمنا أنّه نبيّ فحينئذٍ لا بدّ من متابعته ولا طاقة لنا بقتاله فذلك قوله: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النّمل: الآية ٣٥] من عنده ثم نعمل على ما نتحقق من أمره فاستصوبوا رأيها فهيّأت لسليمان الهدايا فقالت الرواة دخل كلام بعضهم في بعض أنها بعثت إليه بألف غلام فرسان بآلاتهم وأسلحتهم عليهم المناطق والأقبية وألف جارية على البغال عليهم الثياب من الحرير وكل نوع من الديباج وأنواع الحليّ والزينة وألف تختٍ من ثياب اليمن وريشها وشيء كثير من اللؤلؤ والياقوت وسائر الجواهر وبلبنتين ويقال بأربع لبناتٍ من ذهبٍ وبعثت بمائة فرسٍ من الخيل العربيّة الكرام العتاق بآلاتها وبعثت بعشرة غلمان في كلامهم بعض اللين وأمرتهم أن يكلّموهم بكلام يشبه كلام النساء وألبستهم ثياب النساء وجعلت لهم ذوائب كذوائب النساء وبعثت بعشرة جوار في كلامهن غلظٌ وفي أصواتهن فحولة وأمرتهن أن يكلّمن سليمان بكلام الرّجال وألبستهنّ الأقبية والمناطق والقراطق ثم قالت للرسول قل له: فليميّز بين الجواري والغلمان من غير أن يكشف عنهم وبعثت إليه بلؤلؤة غير مثقوبة وقالت: قل له أتثقبها بغير الحديد وبلؤلؤة أخرى مثقوبة معوجّة لا يمكن إدخال السلك فيها فقالت: قل له أدخل السلك فيها وبقارورة فقالت: قل له املأ هذه ماءً لا ماء السماء ولا ماء الأرض

فلمّا هيّأت هذه كلّها أمرت الكاتب بجواب كتاب سليمان فأجابت بألطف جوابٍ وألقته إلى الهدهد فقام الهدهد ورفع الكتاب وطار به راجعًا إلى سليمان فلمّا أتاه أخبره بأن الرسل تأتيك بالهدايا وأخبره بما جرى بينهم من المشاورة والكلام وذكر له أنواع الهدايا التي تأتيه فأمر سليمان الجنّ والشياطين حتى بنوا له قصرًا لم ير الناس مثله وجعلوا صحن القصر كلّه مفروشًا بلبن الذّهب وتركوا في دهليزه موضع لبنتين وجعلوا على باب القصر ميدانًا عظيمًا ونثروا بدل الحصى اللآلىء واليواقيت ثم لمّا علم بقرب الرّسل أمر بأربعة آلاف فارس مشاكين بالسلاح فحملتهم الريح وصفّتهم في الهواء عن يمين طريقهم وأمر الشياطين حتى ألقوا في طريقهم قطّاعًا من الجبال العظام فسدّت طريقهم حتى لا يمكنهم المرور فلمّا دنوا أمر سائر العسكر والقواد باستقبالهم في هيئة لم ير أحدٌ مثلها فلما وصل الرسل إلى الجبال في ممرّهم لم يطيقوا المرور فأمر سليمان الشياطين فرفعوا عن طريقهم فتحيّروا في ذلك ثم بلغوا الجنود التي حملتهم الرّيح في الهواء فنظروا إليهم فبقوا داهشين، وقالوا فيما بينهم: أما نحن فلا نطيق حرب هؤلاء وهم في الهواء حتى بلغوا باب سليمان ودخلوا الميدان ورأوا ما فيه من الدرّ واليواقيت بدل الحصى قالوا في أنفسهم: إن قدّمنا ما معنا من الجواهر إلى هذا الرجل يقول لنا إنكم قد قلعتموها من ميداننا فنثروها في الميدان خفية فلمّا جاؤوا إلى الدهليز رأوها مفروشة بلبن الذهب ورأوا موضع اللبن قالوا: إن ظهرنا اللبن معنا قيل إنكم قلعتموها من دهليزنا فطرحوهما في ذلك الموضع من حيث لم يره الناس ثم دخلوا على سليمان وعرضوا عليه الهدايا فنظر إليها فلمّا أحضروا الغلمان والجواري الذين قيل لهم سألوه أن يميّز بينهم فأمر سليمان أن يؤتى بطشتٍ وماءٍ فقيل لهم: اغسلوا وجوهكم من الغبار فجعل الغلمان يحدرون الماء على وجوههم حدرًا وجعل الجواري يمسحن بالماء وجوههن مسحًا رفيقًا ففرّق بذلك بينهم ثم أمر باللؤلؤة التي لم تثقب فدعا بالدودة التي تأكل الخشب وأمرها أن تأكلها وتثقبها ففعلت، فقال: قد ثقبتها بغير حديد وأمر باللؤلؤة المعوجة فدعا بالدودة الحمراء التي تأكل القصب فأمرها فأخذت رأس السلكة فدخلت الثقب وخرجت من الجانب الآخر، ثم أتى بالقدح فأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت فملأ القدح من عرقها لا من ماء السماء ولا من ماء الأرض، ثمّ إنّه رد على الرسل الهدايا وقال: لست أطلب منكم المال ولست بصاحب الدنيا إنما أريد منكم الدين فذلك قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: الآية ٣٦] من النبوة والدين ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: الآية ٣٦] من المال ويقال فما آتاني الله من الأموال والملك الذي ترون خير ممّا آتاكم فلا أحتاج إلى ما عندكم ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النّمل: الآية ٣٦] إن ردّدتها عليكم ويقال: بل أنتم بمثل هديتكم تفرحون أن أهدي إليكم ثم التفت إلى الهدهد وقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ [النّمل: الآية ٣٧] يعني

إلى بلقيس وَقومها وكتب إليها كتابًا يذكر فيه أنّا لا نغترّ بالمال ولا نطلب المال وإنما نطلب الدين فإن أسلَمَتْ وإلّا أتيناها بجنودٍ لا طاقة لها بها فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النّمل: الآية ٣٧] فلما ذهب الهدهد بالكتاب أمر سليمان بالرسل حتى أنزلوا وأكرموا وخلع عليهم من الخلع النفيسة ثم أذن لهم بالرجوع وبعث إلى بلقيس بهدايا أشرف من هداياها وأعطى الرسل خيلًا كرامًا وصرفهم أحسن مصرفٍ فلمّا رجعوا إلى بلقيس أخبروها بما رأوا من الأحوال وبما سمعوا من مقالة سليمان فقالت: ليس هذا بملكٍ إنما هو نبيّ وإنه لا طاقة لنا بما تذكرون من جنوده ولا بدّ لنا من الانقياد له فأجابت عن كتابه بأني قادمة عليك بمقاول قومي ومتبعة أمرك وممتثلة إلى إشارتك فرجع الهدهد إلى سليمان بالكتاب، ثم إن بلقيس عزمت على الخروج إلى سليمان وتهيّأت لذلك وهيّأت له الهدايا النفيسة وأمرت بسريرها فوضعته في سابع بيتٍ لها بعضها في جوف بعض وقفلت على أبوابها جميعًا وختمتها بخاتمها، ثم قالت لمن خلّفته على سلطانها احتفظ بما قِبَلَكَ وخاصّة سريري فلا يصلن إليه أحد ولا يرينه أحد حتى أرجع ثم خرجت وخرج معها ستمائة امرأة من سادات قومها لخدمتها وأخرجت معها اثني عشر قيلًا مع كلّ قيلٍ ألوف من الجند، فلمّا رجع الهدهد إلى سليمان وأخبره بأمرها أمر الجنّ والشياطين ليأتونه بخبر مسيرها منزلًا منزلًا فلمّا تقاربت جمع سليمان أهل مشورته من الجن والإنس وقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النّمل: الآية ٣٨] قال تكلّم الناس في سليمان من استحضار سريرها ووصولها إليه فأقول: قال قوم إنما فعل ذلك لأنه كان قد أعجبه وصف الهدهد لسريرها فأراد أن يكون له وعلم أنها إذا وصلت إليه خاضعة منقادة فلا يحلّ أن يستحضره عند ذلك وقيل: إنما فعل ذلك ليختبر بذلك عقلها أتنكر السرير أم تعرفه قيل: لا، بل أراد أن يكون ذلك معجزة له يحتج بها لنبوّته فإنه كان أعظم معجِزة وأظهرها وهذا أولى الأوقايل فلما قال ذلك سليمان ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النّمل: الآية ٣٩] يعني من مجلسك الذي تجلس فيه حتى تقوم من مقامك قالوا: وكان يجلس بالغداة فلا يقوم إلى وقت القائلة فقال سليمان إنه يطول عليّ هذه المدة، وأنا أريد أسرع من ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: الآية ٤٠] قال أكثر أهل الأخبار إن اسمه آصف بن برخيا ثم قال بعض هؤلاء إنه كان كاتب سليمان وكان ابن أخته وكان صدّيقًا يعلم اسم الله الأعظم وقال الأكثرون: لا، بل كان آصف معلّم سليمان والمشير عليه في أموره وقال بعض الناس: كان اسم الذي عنده علم من الكتاب يليخا، والقول الأوّل أشهر فقال ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النّمل: الآية ٤٠] عند كلالة من النظر فأنا آتيك به قبل هذه المدة قال سليمان: فنعم فقام آصف بن برخيا وتوضّأ وصلّى

ركعتين ثم سجد ودعا في سجوده باسم الأعظم وقال بعضهم إنه قال: يا حيّ يا قيّوم وهي بالعبريّة ياهيًا شرهيًا وقال آخرون: إنه قال بحق محمّد ﷺ أن تأتيني بالسرير وقال آخرون: إنه دعا فقال: اللّهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إلـه إلّا أنت الحيّ القيّوم الطّاهر المطهر نور السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال أن تأتيني بعرشها، قال ابن عبّاس إنّه لم يغلب الإنس والجن إلّا في ذلك اليوم فإنه حين قال الجنّ ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النّمل: الآية ٣٩]، وقال الإنسيّ: أنا آتيك أسرع من ذلك عجزت الجن عن مثل ذلك، قال ابن عبّاس إنّ آصف رفع رأسه ثم قال لسليمان: مدّ بصرك حتى ينتهي إلى منتهاه فمدّ سليمان بصره فبعث الله الملائكة حتّى حملوا عرشها من مكانه وأدخلوه تحت الأرض وأخرجوه بين يدي سليمان من ساعته فلمّا نظر سليمان إليه و﴿رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النّمل: الآية ٤٠] حين أكرمني برجل من أمتي له مثل هذه الخصلة الشريفة ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النّمل: الآية ٤٠] الآية، ثم إن سليمان قال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النّمل: الآية ٤١] أي غيّروه عن هيئته حتى إذا أحضرت فنظرت أتهتدي وتعرف عرشها أم لا تعرف؟ فلمّا ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: الآية ٤٢]، قال أهل الأخبار إن الجنّ حسدوا بلقيس وقالوا فيما بينهم إنّ داود كان ملكًا فولد سليمان فكان أعظم ملكًا من أبيه وسُخِّرنا له فإن تزوّج بهذه المرأة وهي ملكة فتلد له ولدًا فانظروا كيف يكون حاله وملكه وكيف يكون حالنا معه؛ فينبغي لنا أن نقبّح أمرها عنده فلا يتزوّج بها، فقالوا لسليمان: إن رجليها مثل حوافر الحمار ويقال: إن على ساقيها شعرًا مثل ما يكون على الدّواب فأراد سليمان أن يعرف ذلك فأمر الجنّ والشياطين حتى صنعوا له قصرًا من قوارير بيض صلبًا تجري عليه الخيل ثم صنعوا له بركة عظيمة وملؤوها ماءً ووضعوا القصر على وجه الماء فكان الناظر إذا نظر إلى أرض القصر حسبه ماءً غمرًا فلمّا جاءت بلقيس أمر سليمان جنوده باستقبالها في أحسن زيٍّ وهيئةٍ وأدخلوها أكرم مدخلًا وأنزلوها أشرف منزل ثم دعا بها في اليوم الثاني وجلس لها في القصر الممرّد من القوارير فلمّا ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ [النّمل: الآية ٤٤] نظرت ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ [النّمل: الآية ٤٤] من الماء يحتاج إلى دخولها فكشفت عن ساقيها فنظر سليمان إلى رجليها، ثمّ اختلف الرواة فقال بعضهم: كانت من أحسن الناس ساقًا وأبرأهم من العيوب فعلم سليمان أن الجنّ والشياطين حسدتها وقيل: لا بل كان على ساقها الشعر فقال سليمان للشياطين: ما التدبير في إزالة الشعر فقالوا الحمّام والنورة فصنعوا ذلك ويقال: إنها أوّل من استعمل النورة لإزالة الشعر وإنها لما دخلت عليه ووصلت إلى مجلسه فأمرها سليمان بالجلوس على سريرها وقد وضع مقابل سرير سليمان فجلست عليه، فسألها وألطفها بما وجب ثم قال لها:

سمعت بأن لك سريرًا عظيمًا شريفًا، فقالت: نعم، قال: فهل يشبه السرير الّذي أَنْتِ عليه سريرك فنظرت وتأمّلت فكانوا قد غيّروا أركانه فقدموا وأخّروا وبدّلوا مواضع جواهره وألواحه فكأنّها كانت تعرف بعضه ولا تعرف بعضه فقالت مقالة عاقلة ولم تصرح بالإثبات ولا بالإنكار فقالت قد شبّه سريري هذا السرير في كثير من أحواله وهيأته ويخالفه بعضه فكأنّه هو ولا أدري، فذلك قوله: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا﴾ [النمل: الآية ٤٢] قال سليمان لها: بلى إنّه عرشك، فقالت: ومن أين قدرتم عليه وقد أحرزته في بيوتٍ حصينةٍ؟ قال سليمان: وأوتينا علم الإتيان به من موضعه قبل إتيان بلقيس إلينا ﴿وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: الآية ٤٢] أي المؤمنين المقرّين بالله وبوحدانيته فلذلك أكرمنا بما أكرمنا به فلمّا استقرّت في مجلِسها ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ [النمل: الآية ٤٤] وروي أنها قالت لمقاول حمير انظروا إذا دخلنا على هذا الرجل فإن تركنا قيامًا فهو ملك جبّار وإن أمرنا أن نجلس بين يديه فهو ملك غير جبّار فلمّا دخلوا عليه وقاموا بين يديه، قال سليمان: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨] فمن شاء قام ومن شاء قعد، ولما استقروا دعاها سليمان إلى توحيد الله والإسلام فأسلمت، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ [النمل: الآية ٤٤] بما كنت أسجد للشمس دونك فالآن قد أسلمت وصرت مع سليمان على دينه وملّته وأخلصت ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: الآية ٤٤].

ثم قال بعض الرواة إنّ سليمان تزوجها وأمسكها عنده وبعث بعض مقاول حمير إلى اليمن خليفة لها على بلادها وذكر محمد[١] بن إسحٰق صاحب المغازي أن سليمان قال لها حين أسلمت: اختاري أي رجلٍ شئت من قومك أزوّجك منه فقالت أَوَ مثلي يا نبي الله في حالي وملكي أتزوّج الرجال، قال سليمان: نعم فإنّه لا يكون في الإسلام إلا ذلك قالت: فإن كان لا بدّ فزوّجني ملك همذان[٢] فإنّه من أصل تبع اليمن فزوّجها إياه وردّها إلى اليمن معه ودعا زوبعة أمير جنّ اليمن وقال له: اعمل لهما ما استعملاك ولقومِهما فمن ثمَّ صنعت الجن الصنائع باليمن فلم يزل ملك اليمن ومعه بلقيس بمنشور سليمان إلى أن مات سليمان.

---

(١) محمد بن إسحٰق بن يسار ثقة حسن الحديث، قال الشافعي من أراد أن يتبحر في المغازي فعليه بابن إسحٰق مات سنة ١٥٠ وقيل ١٥١ هـ، له ترجمة في: ابن حجر العسقلاني ـ تهذيب التهذيب ٩/ ٣٨، الذهبي ـ ميزان الاعتدال ٣/ ٤٦٨، السيوطي ـ طبقات الحفاظ ص ٧٥.

(٢) همذان: بالتحريك، والذال المعجمة، وآخره نون فتحها المغيرة بن شعبة سنة (٢٤ هـ). ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ٤١٠.

وممّا قصّ الله علينا من أمر سليمان حديث الخيل التي عرضت عليه قال الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ [ص: الآية ٣١] واختلف الناس في أمر تلك الخيل قال ابن عبّاس: إنّ أهل نصيبين[1] وما والاها كانوا عربًا وأنهم جمعوا لسليمان ليقاتلوه فبعث إليهم سليمان بمن هزمهم وأسر منهم وأخذوا من خيلهم العراب ألف فرس فأتي بها سليمان فعرضت عليه فجلس لها من وقت الظهر إلى أن مضى عليه وقت العصر ولم يجسر أحدٌ أن يذكّره لهيبته حتى غابت الشمس فنظر فرآها قد غابت فأسف على ما فاته من الصلاة فقام فقضى صلاته وأمر بردّ الخيل عليه فردّت فأمر بها حتى عقرت فقطعت أعناقها وسوقها، وقال بعض الناس كانت خيلًا ورثها من أبيه بُلْقًا وكان أحبّ الخيل إليه البلق فأمر بها فعرضت عليه فشغلته عن صلاة الصبح ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: الآية ٣٣] وقال وهب إنها كانت خيلًا أخرجتها الشياطين وذلك أن الشياطين قالت له: إنّ لها أجنحة تطير بها وإنها ترد علينا في جزيرة كذا وكذا، فقال سليمان: كيف لي بها؟ قالت الشياطين: نحن لك بها فانطلقوا فهيّؤوا لها السلاسل واللجم وانطلقوا إلى تلك العين التي تردها الخيل فنزعوا ماءها وسدّوا منابعها وصبّوا فيها الخمر فجاءت الخيل فوردت الماء فشمت ريح الخمر فرجعت ولم تشرب ثم عادت من الغد فشمّت فقد أجهدها العطش فاقتحمت فشربت وسكرت فلم تقدر على النهوض فجاءت الشياطين فوضعت عليها السلاسل واللّجم واستوت على ظهورها فلم تزل تراوضها وتعالجها حتى لانت ثم احتالت حتى أخرجتها من البحر إلى سليمان فأمر بها فربطت ووكّل بها من يسوقها حتى آنست وأذعنت وكان سليمان يعجبه أمرها فجلس ذات يوم للنظر إليها فعرضت عليه واشتغل بها حتى فاته العصر وغربت الشمس فالتفت سليمان فرأى الشمس غاربة فأسف واشتدّ عليه ذلك فقام وقضى صلاته وروي أن الشمس ردّت عليه حتى صلّى العصر ثمّ أمر بردّ الخيل عليه، فقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: الآية ٣٣] أي قطع سوقها وأعناقها غيظًا منه عليها إذا شغلته عن صلاته، وقال بعض الناس إنه مسح أعناقها وسوقها بيده وأعتقها وجعلها حبيسًا في سبيل الله، والقول الأوّل هو ما عليه جمهور أهل الأخبار وهو الأولى، لأن الله تعالى مدحه بأنه أسف لوقت صلاته فاغتاظ على الخيل التي شغلته عنها فيجب أن يكون فعل منه فعلًا يدل على كراهيّة لأمره وغيظه عليها، ولم يكن في مسّ سوقها وإعتاقها بيده ما يدل على غيظ ويقال إنه عقرها جميعًا إلّا مائة منها أخفتها الشياطين عنه.

---

(١) نصيبين: بالفتح ثم الكسر ثم ياء علامة الجمع الصحيح، مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ٢٨٨.

وممّا قصّ الله تعالى من خبر سليمان قوله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [صَ: الآية ٣٤] وقد اختلف الناس في فتنة سليمان وفي الجسد الذي ألقاه الله تعالى على كرسيّه فقال بعضهم: إن فتنته أنّه زلّ زلّةً فأصابه الله تعالى بالمرض وألقى جسده على كرسيّه، أي سريره مريضًا ثمّ أناب إلى الله تعالى بالتضرع والدعاء حتّى شفاه الله تعالى، وقال آخرون: لا بل كان الجسد الملقى على كرسيّه ابنًا له وكانت فتنته في باب ابنه ثم اختلفوا فقال بعضهم وذلك (ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ) قال كان لسليمان ثلاثمائة مهريّةٍ وسبعمائة سرّيةٍ فقال يومًا في نفسه: لأطوفنّ اللّيْلَة على نسائي كلهنّ فتحمل كلّ واحدة منهن بغلام فيكون لي ألف فارس يجاهدون في سبيل الله كلّهم من صلبي ولم يستثنِ في قوله ثم إنه طاف عليهن فلم يحمل منهنّ إلا واحدة فجاءت بنصف إنسانٍ فأوتي به وألقي على كرسيّه، قال النبيّ ﷺ: «والذي نفسي بيده لو استثنى لرزقه الله ما تمنّاه فرسانًا يجاهدون في سبيل الله» وقال آخرون منهم الحسن: إن سليمان لما طاف على نسائه كما ذكرناه لم تلد له منهنّ إلّا امرأة واحدة غلامًا به عاهة، ويقال نصف إنسان لم يكن له إلّا يدٌ واحدة ورجل واحدة وعينٌ واحدة وأذن واحدة فأوتي به فاغتمّ لذلك قالوا فبينما هو جالس ذات يوم ومعه آصف بن برخيا ومعهما أمّ هذا الولد فذكر سليمان اغتمامه بأمره فقال آصف: تعالوا حتى ندعو كلّ واحدٍ منا بعد ما نصدق على أنفسنا بشيءٍ يعلمه الله منّا ونسأله عند ذلك شفاء هذا الولد فقال سليمان اللهمّ إنك تعلم أني أملك من الدنيا ما أملك ومع ذلك فإنه لا يدخل عليّ رجلًا مع أحدهما تفاحة يهديها إليّ إلا كان صاحب التفاحة أحبّ إليّ من الآخر، فإن كنت صادقًا فيما قلت فاشفِ هذا الولد فردّ الله على ولده عينه وأذنه فقال آصف: اللهمّ إنّك تعلم أني سألت سليمان مرارًا أن يأخذ عنّي وزارته وإنّما كان ذلك بلساني دون قلبي فإن كنت تعلم أنّي صادق فاشف هذا الولد قال: فردّ الله تعالى على الولد يده فقالت المرأة: اللهمّ إنّك تعلم أني امرأة سليمان وإنّه لا يدخل على سليمان أحدٌ أشبّ من سليمان إلّا تمنيت أن يكون زوجي بدل سليمان فإن كنت تعلم أني صادقة فاشفِ هذا الولد فردّ الله تعالى عليه رجله فلمّا شفي الولد من العاهات أحبّه سليمان حبًّا شديدًا وأراد أن يكفله عنه من يتعهّده ويكفي أمره. فقال بعض الرواة إنّ الجنّ قالت له: ادفعه إلينا لنربّيه لك ونحفظه فدفعه إليهم فلم يرض الله تعالى ذلك منه فكانت فتنته حين ميّل قلبه من الله تعالى إلى الجنّ في حفظ الولد فأمر الله تعالى ملك الموت حتى قبض روح ذلك الولد وألقاه على كرسيّ سليمان فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [صَ: الآية ٣٤]. وقال آخرون: لا بل لما شفي ولد سليمان أراد أن يكفله من يحفظه فجاءته الجنّ فلم يدفعه إليهم وطلبتهُ الإنس فلم يدفعه إليهم

وجاءه السحاب ويقال: لا، بل هو دعا بالسّحاب واستودعه ولده وخادمه وما يحتاج إليه الصّبي جميعًا وأمر الرّيح أن يحمل السحاب في الهواء فكان السحاب يجيء بالولد كلّ يوم مرتين غداةً وعشيّةً حتى يراه سليمان وأم الولد فترضعه أمّه إن شاءت ويتعهده ثم تذهب به وتصعد الريح به في الهواء فإذا أراد سليمان وأمّه أن يرياه أمر سليمان الريح فتحمل السّحاب إليه بالولد فلم يرضَ الله من سليمان ميّل قلبه إلى الريح والسحاب في أمر ولده دون الله فذلك فتنته فأمر الله ملك الموت بقبض روح الولد، وأمر السحاب فألقاه على كرسيّ سليمان، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [صٓ: الآية ٣٤] وهو جسد ولده الميّت، وروي أنّ سليمان لمّا مات ولده جلس للتعزية وجاء الناس يعزونه فبعث الله ملكين على هيئة رجلين فتقدما إلى سليمان وهو جالس للتعزية فقال أحدهما: يا نبيّ الله إني زرعت زرعًا فلمّا نبت وحسن نباته مرّ هذا بزرعي فوطئه وأفسده فقال سليمان للآخر: لم أفسدت زرعه؟ فقال: يا نبي الله إني كنت أمرّ على سبيل الجادة فأتيت على زرع على قارعة الطريق فنظرت يمينًا وشمالًا فلم أرَ الطريق إلا على المزروع فسلكت طريقي ولم يكن لي من سلوكه بدٌّ فقال سليمان للأول: لمَ بذرت على قارعة الطريق ألم تعلم أن الناس لا بدّ لهم من سلوك طريقهم قال الرّجل لسليمان: ولم ولدت على قارعة طريق الموت ألم تعلم أن الدنيا طريق الموت، وأنه لا بد أن يطأ الموت جميع من في الأرض، فقال سليمان: صدقت وقام من مجلسه وترك الحزن على ولده، وقال ابن عبّاس وكثير من أهل الإخبار إن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [صٓ: الآية ٣٤] إنّ الجسد هو الشيطان الذي أجلسه الله على سرير سليمان أيّام نزع الله تعالى عنه ملكه واختلفت الروايات في نزع الملك عن سليمان وسببه فقال قتادة[١] ذكر أنّ سليمان أمر ببناء بيت المقدس فكانوا يبنونه ويقطعون الحجارة لبنائه وفرشه، فكان يقرع صوت الحديد التي يقطع به الحجارة سمع سليمان فقال للناس: هل يكون شيء يقطع به الحجارة ولا يكون له قعقعة الحديد فقالوا: لا ندري، فسأل الجن والشياطين فقالوا: نعم شيء يقال الماس ويسمّى بالعبرانية السامور، فقال: ومن الذي يعرف موضعه؟ فقالوا: عفريت من العفاريت يقال له: صخر المارد فقال سليمان: عليّ به، فقالوا: إنّه لا يطيع أحدًا إلّا أن تبعث إليه بختمك على طابع فكان على خاتمه أربعة أسطر من أربع نواحي مكتوبًا

---

(١) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي، أبو الخطاب البصري (ت ١١٧ هـ)، له ترجمة في ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، الطبعة الأولى، لبنان، بيروت ١٩٦٨ م. ابن حجر، تهذيب التهذيب ٧/ ٤٧٥، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ٤٧.

في ناحيةٍ منه لا إلـه إلّا الله وحده لا شريك له ومحمد عبده ورسوله، وفي الثانية ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: الآية ٢٦] إلى آخر الآية، وفي الثالثة ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: الآية ٨٨]، وفي الرابعة تبارك الله لا شريك له هكذا وفي رواية وهبٍ قال: وكان له نور يتلألأ وكان جبرائيل جاء به من السماء وكان قد وضع هيئة ملكه في الخاتم، قال فبعث سليمان بطابع من نحاس قد ختم فيه بخاتمه وكان خاتمه يؤثر في كل شيء من النحاس والحديد والحجارة وغير ذلك، فلمّا بلغ طابع سليمان إلى العفريت جاءه فسأله سليمان هل تعرف شيئًا يقطع به الحجارة لا يكون له صرير الحديد؟ فقال: نعم، قال: فدلّنا عليه، فقال: اطلبوا وكر عقاب فيه أفراخه فطلب فأمر حتى أتى بترسٍ من حديد غليظٍ ثقيل فجاء العقاب فلم يجد إلى أفراخه سبيلًا فطار يومه وليلته وجاء من الغدّ ومعه قطعة من السّامور فتفتّح به الترس فقطّعه فأخذت الشياطين تلك القطعة وجاؤوا بها إلى سليمان فجعلوا يقطعون به الحجارة، ثم إن سليمان استخدم صخرًا فكان يكون معه وكان إذا أراد أن يخلو الخلاء نزع خاتمه إذ كان عليه اسم الله الأعظم وكان يدفعه إلى صخر فطار الشيطان وألقى خاتمه في البحر فالتقمته سمكة ونزع الله تعالى ملك سليمان لذنبٍ كان قارفه وجاء صخر وجلس على سريره وقال الشعبي[1] كان سبب نزع الله الملك عن سليمان وإلقاء الشيطان على كرسيّه أنّه كان لسليمان ثلاثمائة بهريّة وسبعمائة سريّة وكانت أثرهنّ عنده واحدة يقال لها جرادة أيمنهنّ لديه، وكان سليمان إذا أراد الخلاء دفع إليها خاتمه لا يأتمن عليه غيرها فدفع إليها يومًا الخاتم ودخل الخلاء فجاء الشيطان الذي يسمّى صخرًا على هيئة سليمان وأخذ منها الخاتم، وهي تظنّه سليمان فلبس الشيطان خاتمه وجلس على سرير سليمان وأحاطت به الشياطين، وروي عن وهب بن منبه وابن عبّاسٍ مثل ذلك أن سبب جلوس الشيطان على كرسي سليمان أن سليمان كان لا يسمع بملك من ملوك النواحي مخالفًا للإسلام إلّا غزاه وقهره فسمع بملك في جزيرةٍ من البحر يقال له صيدون فركب سليمان الريح بجنوده حتى أتى الجزيرة وقتل ملكها وسبى أهلها فأصابت ابنة الملك وهي جارية من أحسن الناس وجهًا فاصطفاها لنفسه فأحبّها حبًّا شديدًا فقال إبليس: لأنتهزنّ فرصتي في سليمان بهذه الجارية فزيّن لها صخر المارد فأتاها على صورة حاضنٍ من حاضنيها فأتى الباب فاستأذن فبعثت المرأة إلى سليمان أنّ حاضنًا قد جاء فأمر بإدخاله عليها فلمّا دخل الخبيث بكى إليها وبكت إليه، فقال: أرضيت بهذا الملك

---

(١) الشعبي عامر بن شراحيل، أبو عمر الكوفي. قال: ما كتبت سوداء في بيضاء قط، ولا حدثني رجل بحديث فأحببت أن يعيده عليّ، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته (ت ١٠٣ هـ).

وقد فعل بأبيك ما فعل وصيّرك مملوكة بعد أن كنت ملكة؟ فبكت ثم قال لها: أما تشتاقين إلى أبيك؟ فبكت وقالت: نعم، ولكن لا حيلة فيه قال فإنّي أعلمك حيلةً إذا دخل عليك سليمان فادمِنِ البكاء ولا تكلّميه وإذا سألك ما هذا البكاء فقولي شوقًا إلى أبي فإذا قال: لا حيلة في أبيك وهو مقتول فاسأليه أن يأمر بعض الشياطين فتُصوّر لك تمثالًا لأبيك فتنظرين إليه بكرة وعشيّة فتتسلّين به بعض السلوة ففعلت المرأة ما أمرها صخر، فقال لها سليمان: وما بكاؤك؟ قالت: ذكرت أبي واشتقت إليه وإني إذا ذكرته أصابني ما ترى فإن رأيت أن تأمر بعض الشياطين لتصوّر لي على هيئته فأراه فيسكن حزني فأمر سليمان بعض الشياطين حتى صوّر لها ما أرادت فألبسته ثيابًا كما كان يلبس أبوها وكان أهلها عبدة الأصنام فتيسّر لها بذلك السبب عبادة الصنم فكانت إذا خرج سليمان عبدته وسجدت له وأمرت جواريها يسجدون له، ولا علم لسليمان بشيءٍ من ذلك حتى مضى على ذلك أربعون يومًا وبلغ الناس أنّ امرأة سليمان تعبد الصنم في داره فجاؤوا إلى آصف بن برخيا وقالوا له ذلك فقال: أنا أعلم بذلك على أحسن وجهٍ فدخل على سليمان فقال: يا نبيّ الله قد كبر سنّي ورقّ عظمي ونفذ عمري وقد أحببت أن أقوم مقامًا أذكر فيه من مضى من الأنبياء وأثني عليهم، وأعلم الناس عظم قدر من مضى فقال سليمان: افعل ذلك ثم جمع سليمان الناس وأمر آصف فقام خطيبًا فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى على كلّ نبيّ بما فيه من الفضل والشرف حتى أتى إلى سليمان فذكر فضله وما أعطاه الله تعالى في حداثة سنّه وما كان من أحواله في حياة أبيه، وأمسك عن ذكره في كبره وبعد موت أبيه فحزن سليمان لذلك فلمّا فرغ آصف من كلامه دعاه سليمان فقال له: يا آصف ذكرت أنبياء الله تعالى وأثنيت عليهم بما هم له أهلٌ فلمّا ذكرتني أثنيت عليّ في صغري وسكت عمّا بعد ذلك فكيف هذا فقال آصف: ماذا كنت أقول فيمن يعبد في داره غير الله تعالى منذ أربعين يومًا، قال سليمان في داري؟ قال: نعم، قال سليمان: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقام إلى داره وكسّر الصّنم وعاقب المرأة على صنيعها ثم أمر سليمان بثيابٍ طاهرة وهي ثياب لا تغزلها إلّا الأبكار اللواتي لم يصبها دم فلبسها وخرج إلى برازٍ من الأرض وأمر ففرش له الرماد فقعد عليه وتمعّك فيه يتضرّع ويبكي ويستغفر ويقول: يا ربّ ليس هذا حقّك عند آل داود أن يعبد في دارهم غيرك فلم يزل كذلك حتى أمسى ثم رجع وكانت له جارية تسمّى الجرادة وكان يدعوها الأمينة فإذا دخل الخلاء أو الحمّام أو أراد الخلوة بالنساء دفع خاتمه إليها ليحفظ فجاء سليمان يومًا بعدما كان من أمر عبادة الصنم كان في داره يريد الخلاء، فدفع خاتمه إلى جرادة فخرج الشيطان وهو صخر المارد من الخلاء ينفض رأسه ولحيته على هيئة سليمان فظنّته جرادة سليمان لا تنكر منه شيئًا

فأخذ الخاتم من جرادة وجعله في إصبعه وجلس على سرير سليمان، فلمّا خرج سليمان قال لجرادة الأمينة: أين خاتمي؟ قالت: ومن أنت؟ قال: سليمان بن داود قد تغيّر حاله لما أراد الله تعالى من ابتلائه حتى لم تعرفه، فقالت: كذبت إنّ سليمان قد أخذ خاتمه وهو على سريره في ملكه، وفي رواية أخرى قالت له: يا نبيّ الله ألست قد أخذت خاتمك؟ قال: ما أخذته قال: يا أمينة لا تخونيني وقد ائتمنتك فقالت: وأنت يا نبيّ الله لا تظلمني وقد أخذت الخاتم منّي فذكر سليمان خطيئته وأنّه نظر فرأى شخصًا جالسًا مكانه على كرسيّه في هيئته وقد عكفت عليه الجن والإنس فعلم أن الله تعالى قد عاقبه بخطيئته فلفّ رأسه بثوبه وخرج هاربًا مستخفيًا قال: ثمّ إنّه يأتي الدور والأبواب إذا احتاج إلى شيءٍ فسأل فيقال من أنت؟ فيقول سليمان فيسبّونه ويطردونه ويحثّون عليه التراب ويقولون: هذا مجنون يزعم أنّه سليمان بن داود فلمّا رأى ذلك خرج إلى ساحل البحر وروى الحسن أنّ سليمان جاء بعض أبواب بني إسرائيل وهو جائع عطشان فقرع الباب فخرجت إليه امرأة فقالت: ما حاجتك؟ قال: ضيافة ساعة، قالت: إن زوجي غائب ولا ينبغي أن أدخل بيتي رجلًا غريبًا وهذا وقت إتيانه فادخل البستان فإن فيها ماءً وثمارًا فأصب منها فإذا جاء زوجي طلبت إليه أن يضيفك فدخل البستان واغتسل مما ناله من الغبار وتناول من الثمار ووضع رأسه ونام فآذته الذباب فمرّت به حيّة سوداء فعرفت أنه سليمان فانطلقت فأتت ببعض ريحان من البستان وجلست إلى سليمان تذبب عنه الذباب، فلمّا رجع زوجها قصت عليه القصة فدخل الزوج بستانه فرأى الحيّة وصنيعها فدعا امرأته وقال: انظري هل رأيت أعجب من هذا ثم إن الرجل مشى إلى سليمان فتنحّت الحيّة عنه فأيقظه الرجل وقال له: يا فتى منزلنا هذا لك واسع وليس لنا شيء دونك فقد عرفنا كرامتك على الله تعالى وهذه ابنتي زوّجتكها وكانت من أجمل الناس فتزوّجها سليمان وأقام عندها ثلاثة أيّام ثمّ قال: إنه لا يستغني أن أثقل عليكم سأطلب معيشتي ومعيشة أهلي فخرج إلى ساحل البحر وفي رواية الأولى أنه لما غلبه الشيطان خرج هاربًا من حياء الناس فأتى ساحل البحر فرأى قومًا من الصيّادين فجعل يعمل لهم، ويأخذ كلّ ليلة بما يصيبه منهم إلى أهله ولما أن طال الأمر أنكر الناس فعال صخر المارد وأحكامه فظنّوا أنّه سليمان وقد تغيّر عن سنّته، فقالوا لآصف: ألا ترى إلى ما يصنع؟ قال: نعم دعوني أعلم لكم شأنه فانطلق إلى نسائه فكان لا يحجب عنهنّ فسألهنّ عن حاله فقلن: قد أنكرن أفعاله فإنه يطلبنا عند الحيض، قال: فهل تؤاتينه قلن: لا، قال ابن عبّاس ومن زعم أن الشيطان يأتي لنسائه فقد كذب لأنّ سليمان كان أكرم على الله وكذلك سائر الأنبياء من أن يسلّط الله على نسائهم الشياطين وحاشاهم عن ذلك ولكنّ الله قطع شهوة العين فلم يرد النساء البتة وضجر الناس

وجعلوا يدعون الله تعالى أن يفرّج ما بهم فقال آصف: إن هذا ليس سليمان لما تأمّل أحواله وعرف أمره، فقال للنّاس إن هذا شيطان، فلمّا رأى الخبيث أن الناس قد فطنوا به عمد إلى كتابٍ وكتب فيه السحر والنارنجيّات وختمه بخاتم سليمان ودفنه تحت سرير سليمان ثم انطلق هاربًا وألقى خاتم سليمان في البحر فذلك قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٢] وذكر محمد بن إسحٰق صاحب المغازي أنه قال: بلغني أن سبب صحبة صخر لسليمان هو أن الناس شكوا إلى سليمان ما تلقّونه من المشقة في الطحن بأنهم لم يكن بين الناس طاحونة فسألوه أن يأمر الجن فيعملوا شيئًا يكفيهم الطحن قال سليمان ذلك للجن فقال: هل من حيلة في الطحن وأيضًا يبلّغني أني إذا شربت من إنائي كان منكم من يغمز عليّ في ذلك ويتشبه بي فقالت الجن: يا نبيّ الله إن كان عند أحد في هذين البابين فعند صخر المارد وهو عفريت من عفاريت الشياطين قد تمرّد أي عصى في جزيرة من جزائر البحر، قال: فاحتالوا في إتيانه فانطلقت الجن إلى صخر وقالوا له: قد مات سليمان واسترحنا منه، فاخرج نطيعك فلما أنس بهم وثبوا عليه وأوثقوه وجاؤوا إلى سليمان فلما دخل عليه أراه سليمان خاتمه فأذعن له فقال له: يا صخر قد هممت بقتلك لفرارك منّي ثم بلغني رفقك في الصنائع فأبقيتك هل عندك حيلة الطحن لتستريح الناس من الطحن بأيديهم وهل تقدر أن تأخذ لي آنية أشرب فيها أرى ما وراءها وما فيها لا يحول بيني وبين بيتي فقال صخر: نعم يا نبي الله، ثم إنّه عمل رحًا بالماء فاستراح الناس من الطحن باليد، فطلب حجر الزجاج فأتى به فَأَذَابَهُ وعمل الزجاج فاتخذ منه الأواني فشرب فيها سليمان فأكرم سليمان صخر وقرّبه وذكر بعض الرواة أن سليمان قال للجن الّذين بعثهم إلى صخر: إذا جئتموني به فاحفظوا عليه، كما يفعله ويقوله في طريقه قال فمرّوا بصخر على رجل قائم في الناس يتكهّن لهم، ويقول: إنّه سيكون في هذا الشهر كذا وفي هذه السنة كذا فضحك صخر، ثم مرّوا على امرأةٍ قاعدةٍ عند قبرٍ تبكي على ابن لها مات فضحك صخر ثم مرّوا به على مجلس عالمٍ يعظ الناس فلمّا كان عند الدعاء قام رجل من القوم فخرج وجاء آخر فجلس مكانه فضحك صخر فلمّا جاؤوا به إلى سليمان سألهم عمّا صنع في الطريق فأخبروه فقال سليمان: يا صخر ولم ضحكت عند ذلك الرّجل الكاهن قال: يا نبيّ الله تعالى كان يزعم البائس أنه يعلم ما يكون في الشهر والسنة وكان تحت قدميه كنز في الأرض وهو قائم فوقه ولا يعلم مكانه فعلمت أنه ممّا يزعم من علم ما في الشهر والسنة أبعد فلذلك ضحكت قال سليمان: ولم ضحكت عند بكاء العجوز، قال: يا نبيّ الله لأنّها تبكي على ابنها وأن ملكيها عندها يقولان: إنه لم يبق من عمرها إلّا ثلاثة أيّام

فلو علمت المسكينة ذلك لبكت على نفسها، لا على ابنها لذلك ضحكت، قال سليمان: ولم ضحكتَ عند مجلس الواعظ قال: لأنّه لمّا بلغ الدّعاء فتحت له أبواب السماء بالرحمة وجعلت تمرّ عليهم وكان فيهم رجل لم يكن من أهل الرحمة فقام وخرج وجاء رجل آخر صحيح فجلس بينهم فأصابته الرحمة، فلذلك ضحكت ثم إن صخر أقام عند سليمان حتى كان من أمره وغلبته على ملكه وجلوسه على سريره ما كان. رجعنا إلى القصّة ولما أن ألقى الخبيث الخاتم في البحر ودنا وقت فرج الله تعالى عن سليمان وكان الخاتم قد ابتلعته السمكة فبينما سليمان ذات يوم يعمل للصيادين حتى كان عند المساء أعطوه سمكة فيما أعطوه من نصيبه فكانت تلك السمكة التي كان الخاتم في جوفها فأخذها سليمان ورجع بها إلى أهله وأمرها بصنعتها فشقّت المرأة بطن السمكة فخرج الخاتم منه وامتلأ البيت نورًا فدعت سليمان فأرته الخاتم فعرفه سليمان، وعلم أن الله تعالى فرّج عنه فأخذ الخاتم وتختم به، وخرّ لله ساجدًا، وفي رواية أخرى أن سليمان سأل ذلك اليوم بعض الصيادين أن يعطوه من السمك فإنّه كان شغل ذلك اليوم فلم يعمل لهم فمنعه الصياد فقال له سليمان: لا تبخل عليّ وأنا سليمان بن داود فغضب الصيّاد وأخذ خشبة فضرب بها رأسه فشجّه فعاتبه سائر أصحابه، فقالوا: ما أردت من الرجل الغريب فعلت به كذا، فقال: لأنّه زعم أنه سليمان بن داود قال: ثمّ إن الرجل ندم على صنيعه به، وقال لأصحابه: أرضوه منّي بنصيبي فأعطوه سمكتين فذهب بهما إلى الساحل فشق بطن واحدة منهما فخرج خاتمه من بطنها، فلما نظر إلى خاتمه أخذ، وتختّم به، وعلم أن الله تعالى ردّ عليه ملكه فسجد لله شكرًا له وألبسه الله تعالى البهاء والهيبة التي كانت تكون له وفي ذلك الساعة عكفت عليه الجن والطير والوحش فتحيّر الصيّادون وخضعوا له وقالوا: يا نبي الله اعف عنّا؛ فقال: لا بأس عليكم ولا على صاحبكم، فانصرف إلى دار ملكه وسريره فاجتمع الناس عليه وجعلوا يهنّونه وتاب الله عليه وغفر زلته وروي أنه لما سجد لله قال في سجوده: اللّهم لك الحمد على قديم بلائك إلى آل داود، اللّهم أنت هديتهم بالنعمة وآتيتهم الكتاب والحكمة ولك الحمد ظهرت علينا نعمتك ولا تخفى وكثرت فلا تحصى فلك الحمد إلـهي إذ لم تسلبني بجريرتي ولم تؤاخذني بخطيئتي ولك الحمد إلـهي تمّم عليّ نعمتك فاغفر ما سلف من ذنبي برحمتك وهب لي ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنّك أنت الوهاب، قال عكرمة: لما ردّ الله تعالى الملك إلى سليمان حمل أهل ذلك البيت الذين آووه وزوّجوه فوضعهم في سبط المملكة وكان عليه السّلام لم يقرب تلك المرأة حتى قبل الله تعالى توبته وردّ عليه مملكته، وعن سفيان الثوري أنّه قال: بلغني أن الله تعالى لما ردّ على سليمان ملكه أمر الريح فحملته وجاءت به إلى دار ملكه من حيث كان

فاستقبلته خطّافة فقالت له: أيها الملك إنّ لي عُشًا فيه بيض قد حضنتهنّ وإنّك إن مررت بعشّي حطمتهنّ فترك سليمان ذلك الطريق فلمّا نزل سليمان في داره جاءت الخطّافة وقد حملت ما في مناقبها فوضعته بين يديه فسأله أصحابه عن ذلك فأخبرهم بقولها وحاجتها وقال: إنها جاءت بهذا المال شكرًا وزادًا، وفي حديث قتادة أنّ الخطّافة جاءته برجل جرادةٍ فوضعتها بين يدي سليمان وقالت: جئت بها هديّةً وشكرًا لك على صنيعك فإنّه «من لا يشكر الناس لم يشكر الله عزَّ وجلّ»[1] وعن ابن عبّاس أنه قال: إن الله تعالى لما ردّ الملك على سليمان بعث في طلب صخر المارد فأتى به فأوثقه بالحديد ثم أمر بصخرةٍ فجوّفتها الشياطين وأدخله فيها وشدّ رأسه بالحديد وألقاه في البحر وذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [صّ: الآية ٣٨] وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «سيخرج في آخر الزّمان شياطين أوثقها سليمان بن داود يعلّمونكم دينكم شتى فلا تقبلوا منهم» ثم إن سليمان أخذ في بناء بيت المقدس وأراد أن يبنيه بناءً لم يبن مثله ففرّق الشياطين والجن في أنواع الأعمال حتّى بناه بناءً عجبًا وزيّن جدرانه وحيطانه بصحائف الذهب والفضة وركّب فيه اللآلىء الثمينة والجواهر الفاخرة من اليواقيت والزّمرد وغير ذلك وكذلك سماواته وفرشه بالرخام الأبيض وجعل حصباه من الدر والياقوت والمرجان وكان بناءً لم يسمع في قديم الزّمان بمثله قال فتسامعت به الملوك في الأطراف فحسدوه على ذلك، ولكنهم لم يجترئوا على شيء بسبب سليمان وهيبته وما سخّر الله تعالى له من الجنّ والإنس والشياطين وأنواع الدّواب والرّيح والسحاب، ولما أن فرغ من بنائه جمع الناس فخطبهم ووعظهم وذكر لهم منّة الله تعالى عليهم فيما رزقهم من بناء ذلك الموضع الشريف وعمل لهم طعامًا، ثم أمر بالقرابين الكثيرة فوقعت عند الصخرة، ثم قام على الصخرة ودعا فقال: اللّهم أنت الذي وهبت وأنت الذي من قبل ما وهبت لي وجعلت داود خليفةً لك في أرضك وجعلتني وارثه من بعده، ولك الحمد والمنّ والطول اللّهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصالٍ إحداها أن لا يدخل مذنب لطلب التوبة إلا قبلت توبته ولا يدخل خائف لطلب الأمن إلّا أمنت روعته، وأن لا يدخل سقيم لطلب الشفاء إلا شفيت سقمه ولا يدخله محتاج لطلب حاجته فيها صلاح إلّا قضيت حاجته ولا يدخله مقحوط للاستسقاء إلا سقيته اللّهم وإن أجبت دعواتي فاجعل علامة ذلك قبول قرباني فنزلت نارٌ من السماء وامتدّ عنق منها فاحتمل القربان فذهب به إلى السّماء.

---

(١) ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ): المسند، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٣١٣ هـ ٢/ ٢٨٥ رقم ٦٥٢١.

وممّا قصّ الله علينا من نبإ سليمان وما سخر له من الشياطين حتى يعملوا له ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ: الآية ١٣] أي كالحياض، قال: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: الآية ١٢]، قال قوم إن الله بعث ملائكة من الزبانية معهم حرابٌ من نارٍ فمن عصى سليمان من الشياطين أو جن طعنوه بحربةٍ من نار، وقال آخرون: بل معناه نذقه في الآخرة من عذاب السعير في جهنم، وروي أنهم كانوا لا يتجاسرون على النظر في وجهه ومن فعل ذلك أصابته شعلة نار فأحرقته ويروى أنه كان يأمرهم فيعملون للناس ما يريدون من الأعمال، قالوا: وكان إذا ذهب منهم شيطان أو جنيّ لعمله كان ينبغي أن يستعمله يومه إلى الليل فإن فرغ قبل الليل ولم يكن له عمل عاد على عمله فأفسده. ومما روي من أخبار سليمان حديث سؤاله ربّه ليأذن له في إطعام الخلق، روى أبو عبد الله في كتابه قال: لما أعطاه الله من الملك ما أعطاه أحبّ أن يفعل فعلًا لم يسبقه أحدٌ فاستأذن ربّه أن يأذن له فيطعم الخلق، قال: ويجب أن يكون مراده إطعام من في ولايته ومملكته منهم فإنّه كان لا يعلم جميع خلق الله تعالى في بلاده فكيف يقصد لأمرٍ محال في مقدروه، قال: فقال الله يا سليمان إنّه لا يطعم عبادي غيري ولا يسعهم إلا رزقي فعاود ربّه أن يأذن له وأن يعينه على ذلك قال: فأذن الله له فأمر الإنس والجن والشياطين والدّواب والطيور وكلّ من كان في طاعته من أنواع الخلق بجميع الأطعمة في ساحل من سواحل بحر الشّام واجتهدوا في ذلك أربعين يومًا وقيل أربعة أشهر حتى جمع من الطعام أمثال الجبال حتى قال النّاس إنّ سليمان بقي بما قال، ثم إنه جاء يومًا من الأيّام لينظر إلى ما جمع له من الطعام فجعل يطوف عليه ويتعجب من كثرته فأوحى الله تعالى إلى دابّة من دواب البحر الذي هو ساحله أن تخرج رأسها من الماء وتسأل سليمان أن يطعمها فأخرجت الدابة رأسها وقالت: السلام عليك يا سليمان، قال: وعليك السلام قالت: أنا اليوم ضيفك فأطعمني قال سليمان: اذهبي فكلي من الطعام ما شئت فأخرجت الدابة عنقها وفتحت فاها فالتقمت ما جمع سليمان كلّه ولم تغادر منه شيئًا، ثم إنّها تنطقت وقالت: يا سليمان: أطعمني فإني ضيفك قال سليمان: سبحان الله أو ما شبعت مما أكلت؟ قالت: لا، وإنما أكلته فهو لبث ببطني وأنا أحتاج لتمام غدائي إلى مثليه فعجب سليمان من أمرها، فقال: وأنت تأكلين كلّ يوم مثل ذلك قالت نعم هذا الذي ذكرت لغدائي وأحتاج لعشائي مثل ذلك يا سليمان كيف ظننت أنّك تطعم خلق الله تعالى، وأنت لا تقدر على أن تشبع دابّة من دوابّه قال سليمان: أظن أنه ليس في البحر دابة هي أعظم منك، قالت: غلطت يا سليمان إن في البحر لمن الدواب التي خلقها الله تعالى ما لو دخلت أحد منخريها وخرجت من الآخر لم تشعر هي بذلك من عظم خلقها، فقال سليمان وكم أنتم

يا معاشر دواب البحر؟ قالت: نحن ألف أمّة لا يحصي عدد كلّ أمّة إلا الله تعالى وإنه لا يفوتنا في طول الزمان غداءٌ ولا عشاءٌ قال: فسجد سليمان لله تعالى وقال: سبحان من لا ملك إلا ملكه فلا يسع خلقه إلا رزقه ولا يطعم خلقه غيره اللّهم إني تبت إليك مما قلت وأقلني عثرتي قال: وسمعت بعض العلماء يذكر أنّ سليمان كان يومًا جالسًا على شاطىء البحر إذ أبصر نملة تحت حبة قمح تذهب بها نحو البحر فجعل سليمان ينظر إليها حتى بلغت الماء فإذا بضفدعةٍ قد أخرجت رأسها من الماء ففتحت فاها فدخلت النملة فاها وغمست الضفدع في البحر ساعة طويلة وسليمان يتفكّر في ذلك متعجبًا ثم إنّها خرجت من الماء وفتحت فاها فخرجت النملة من فيها ولم يكن معها الحبّة فدعاها سليمان وسألها عن حالها وشأنها وأين كانت فقالت يا نبي الله إن في قعر هذا البحر الذي تراه صخرة وفي جوفها دودة عمياء وقد خلقها الله تعالى هناك فلا تقدر أن تخرج منها لطلب معاشها وقد وكلني برزقها فأنا أحمل رزقها وسخّر هذه الضفدعة لتحملني فلا يضرني الماء في فيها وتضع فاها على ثقب الصخرة وأدخلها ثم إذا أوصلت رزقها إليها خرجت من ثقب الصخرة وأدخلها ثم إذا أوصلت رزقها إليها خرجت من ثقب الصخرة إلى فيها فتخرجني من البحر قال: وهل سمعت لها من تسبيحةٍ أو كلمةٍ قالت: نعم، سمعتها تقول: يا من لا ينساني في جوف هذه الصخرة تحت هذه اللجّة برزقك ولا تنس عبادك المؤمنين برحمتك. وروي أنّ في زمن سليمان كان رجل وكانت في داره شجرة يفرّخ ويبيّض عليها طائر وكان كلّما أخرج الطائر أفراخه رفعها الرجل فأكلها فجاء سنة من السنين ذلك الطائر إلى سليمان وشكا إليه الرجل فبعث سليمان شيطانًا ووكله بتلك الشجرة وقال: من دنا منها فازجره فإن لم ينته فشقه باثنين وذلك ما عهد إلى الرجل أن لا يرفع أفراخ الطّائر سنين، فلم يطع فلمّا أخرج الطائر أفراخه قال أولاد الرجل له: ارفع لنا أفراخ الطائر فقال: إنّ نبيّ الله سليمان قد نهاني عن ذلك فعاودوه وسألوه قال: فقام الرجل ليرتقي في الشجرة فسأل سائل من الباب شيئًا فرجع الرجل وتصدق على السائل بصدقة فقال السائل صرف الله تعالى عنك قضاء السوء وجاء الرجل ليرتقي الشجرة فقصده الشيطان الذي كان وكّله سليمان بالشجرة ليأخذه فبعث الله ملكًا فصرف الشيطان عنه وأبعده حتى ارتقى الرجل الشجرة ورفع أفراخ الطائر فطار الطائر إلى سليمان وشكا إليه فدعا سليمان بالشيطان الذي كان وكّله بالشجرة، وقال: ألم أقل لك لا تدع أحدًا يدنو من تلك الشجرة قال: بلى، يا نبي الله، قال: فلم تركت الرّجل؟ قال: إنّه جاءني ملك فضربني وأبعدني فلا ألحقه، فدعا بالرجل وسأله عن حاله، وقال: ماذا صنعت اليوم قال: تصدّقت اليوم على المساكين بصدقةٍ فدعا لي فقال: دفع الله تعالى عنك السوء قال سليمان: فببركة الصدقة دفع الله تعالى عنك السوء.

باب في ذكر وفاة سليمان عليه السّلام[(١)]

قال أهل الأخبار إنّ سليمان كان له محراب يعبد الله تعالى فيه فكان غداة كل يوم تنبت فيه شجرة بين يديه فسألها سليمان ما اسمك وما أنتِ ولأيّ شيءٍ تصلحين فتجيبه بقدرة الله تعالى أنّ اسمي كذا وكذا وأصلح لكذا وكذا فيأخذها فإن تصلح للوضع في خزانته وضعها أو أمر أن تغرس في بستانه إلى أن نبتت ذات يوم شجرة في محرابه فسألها سليمان عن اسمها فقالت: أنا الخرنوب[(٢)] قال: ولماذا نبتِّ في محرابي قالت: لخراب ملكك فقال سليمان عرفت، ثم أوحى الله تعالى إليه وأخبره بأن يقبضه وأمره بالاستعداد فاستعد سليمان وأوصى بما أراد أن يوصي به أهله وولده وجميع أموره وكتب ما أراد كتابته ثم إنّه دعا وقال: إلـٰهي إنّي أسألك أن تخفي موتي على الجن والشياطين فيتمّوا الأمور التي أمرتهم بعملها ثم اغتسل ولبس ثيابًا طاهرة ودخل محرابه وكان يطيل الصلاة إذا دخله فربما يقوم فيه أيامًا والشهر والشهرين لا يخرج منه ويقوم بأموره أمناؤه فدخل محرابه وكانت له عصًا يتوكّأ عليها في صلاته إذا أصابه العياء فتوكّأ على عصاه فقبضه الله تعالى إليه وكانت الجن والشياطين تمرّ وتأتي فيروه قائمًا وكانوا لا يجسرون على النظر في وجهه فظنوا أنّه قائم يصلّي قالوا: وكان لمحرابه كوّة من جوانبه فكان الشيطان إذا أراد أن يتجلّل عند أصحابه قال لهم: ما لي عليكم إن دخلت محرابه من جانب وخرجت من جانب فيضمنون له ما يشاء، فلما طال مقام سليمان في محرابه ولم يخرج والجن والشياطين على عملهم قال بعض عفاريتهم أنا أدخل محرابه فأمر به لعلّي أقف على حاله فدخل كوةً وخرج من أخرى، فلم يسمع قراءة سليمان كما كانوا يسمعونه فرجع ودخل المحراب وخرج من الجانب الآخر فلم يسمع قراءته فقال لأصحابه أظنّ سليمان ميّتًا قال

---

(١) من أراد التفاصيل فلينظر، ابن كثير، البداية والنهاية / ٤٨١.

(٢) (الخرنوب: واحد نبات يتداوى به). هكذا جاء في حاشية المخطوط، وجاء أيضًا: «كان سليمان نبي الله (عليه السلام) إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها ما اسمك؟ فتقول كذا فيقول لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس غرست، وإن كانت لدواء أنبتت، فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخرنوب، قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت. انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١ /٤٨١. والخرنوب: نبات ما دامت غصنه بإطلاق البطن أحرىٰ، وإذا جفت حبست البطن مقوّ للمعدة، قاطع لدم الطمث إذا جرى في غير وقته، وإذا دلكت به الثآليل أذهبها والمضمضة بطبيخه تقوي الأسنان وينفع من المغص والإسهال. يوسف بن عمر بن رسول الغساني صاحب اليمن المتوفّى سنة ٦٩٤ هـ، المعتمد في الأدوية المفردة، صححه الأستاذ بجامعة فؤاد، مصطفى السقا ط ٣، دار المعرفة بيروت ـ لبنان ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م، ص ١١٩.

ثمَّ إنهم ضمنوا للأرضة أن تأكل مِنسَأَتَهُ ليظهر لهم، وقالوا: إن فعلت ذلك حملنا إليك الماء والطين حيث كنت فأكلت الأرضة عصاه فانكسرت وسقط سليمان فعرفت الشياطين موته وأخبروا به الناس ويقال: لا بل أكلت الأرضة العصا فسقط من غير أمر الشياطين لهما فلمّا سقط وعلم الناس بموته لم يعلموا مذ مات فأخذوا أرضةً فوضعوها على عصاه ونظروا ما أكلت منها في يوم وليلةٍ فقاسوا على ذلك فإذا هو قد مات منذ سنة وكان الناس يظنّون أن الجنّ والشياطين يعلمون الغيب بدعواهم ذلك فلمّا مكثوا سنة بعد موت سليمان في العمل وسخريته ولم يعلموا بموته عرف الناس أنهم لا يعلمون الغيب فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: الآية ١٤] قالوا وكان عرض سليمان من إخفاء موته أن تتمّ الجن والشياطين ما كانوا يعملونه من الأعمال التي يتمّونها والله أعلم فهذا ما بلغنا من أمر داود وسليمان عليهما السّلام.

بابٌ في ذكر لقمان الحكيم رحمة الله عليه(١)

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: الآية ١٢]، وكان لقمان(٢) في زمن داود وسليمان قالت الرواة منهم وهب وغيره كان لقمان عبدًا حبشيًا وقال سعيد بن المسيّب(٣) كان من سواد مصرٍ والله أعلم، وقال بعض النّاس كان تاجرًا ويقال كان خيّاطًا ويقال: كان راعيًا والله أعلم، واختلفوا في نبوته فقال بعضهم كان نبيًا وقال آخرون: كان عبدًا صالحًا، ولم يكن نبيًا وقال وهب خيّره الله تعالى بين النبوّة والحكمة فاختار الحكمة على النبوة ومعناه عندنا أنه خيّر بين أعمال الأنبياء من دعوة الخلق والحكم بينهم، وبين الحكمة، فأمّا النبوة نفسها فلا يجزي فيها الاختيار عندنا، قالوا كان لقمان في زمن داود عبدًا لرجل من بني إسرائيل فأعتقه وكان عبدًا حبشيًا أسود غليظ الشفتين والسّاقين والعضدين والمنخرين وليس أن يصطفي الله تعالى عباده على الحسن والجمال وإنما يصطفيهم على ما يعمل من غالب أمرهم وذكر خالد الربعي أنّ مولاه قبل أن أعتقه أمره يومًا بذبح شاةٍ فقال له: إذا ذبحتها فأتني بأطيب عضو من أعضائها فذبح لقمان الشاة وأخرج لسانها وقلبها وجاء بهما إلى مولاه فمكث ما شاء الله تعالى ثم أمره يومًا آخر وقال: اذبح الشاة وأخرج لسانها وقلبها فأتى بهما مولاه فسأله عن فعله في المرة الأولى والأخرى فقال لقمان: إنّه لا مضغة في الجسد إذا كانت طيبة أطيب من اللسان والقلب، ولا مضغة فيه إذا كانت خبيثةً أخبث من اللسان والقلب، فكان هذا سبب عتق مولاه له وقيل: بل كان سبب عتقه أن مولاه أمره ذات سنةٍ أن يزرع له سمسمًا في أرضٍ له فذهب

---

(١) باب ذكر تفاصيل قصة نبي الله لقمان (عليه السلام) في تفسير: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة بيروت ـ لبنان ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م. ٣/ ٤٤١.

(٢) (لقمان بن ناعور بل ناحور بن تارح وهو آزر، وقال وهب كان ابن أخت أيوب (عليه السلام) وقال مقاتل ذكر أنه ابن خالة أيوب) هكذا جاء في حاشية المخطوط، ورقة ٤٥٠.

(٣) سعيد بن المسيب المخزومي أبو محمد المدني سيد التابعين، ولد لسنتين مضتا ـ وقيل لأربع ـ من خلافة عمر (ت ٩٤ هـ). انظر الذهبي: أبو عبد الله شمس الدين بن قايماز (ت ٧٤٨ هـ) تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان ١/ ٥٤.

لقمان فزرع فيها شعيرًا فلمّا كان بعد أيامٍ قال له مولاه: امضِ بنا إلى أرضنا ننظر فيها فمضيا إليها فرأى مولاه فيها شعيرًا فقال له: ألم آمرك أن تزرعها سمسمًا؟ قال: بلى، قال: فما بالك قد زرعت فيها شعيرًا قال لقمان: كان الشعير أيسر وجودًا وقيمةً فاشتريت وزرعت لينبت لنا سمسمًا، قال يا هذا ألم تعلم أن الشعير لا ينبت سمسمًا قال لقمان: ظننت ذلك قال: ومن أين ظننت ذلك قال: لأنّي أراك تعمل السيئة وترجو من الله تعالى الرحمة والجنّة فقلت إن كانت السيئة تورث الجنّة فلا عزّ وإن نبت الشعير السمسم فاستيقظ مولاه بقوله وتاب على يده فأعتقه وقيل: لا، بل كان سبب عتقه أن مولاه راهن رجلًا في قمارٍ على شريطةٍ إن هو قمره أن يعطيه نصف ماله أو يشرب ماء النهر والنهر في وادٍ عظيم كانا على شريطة وكذلك إن قمره صاحبه أن يأخذ ذلك من ماله أو يشرب الماء قال: فقمر الرجل مولى لقمان فاغتم لذلك ورجع إلى بيته مغمًّا فجاء لقمان فرآه مغتمًّا فقال لمولاه: ما لي أراك حزينًا فأخبره فقال: لا تغتم فإني سأصلح لك أمرك، فلمّا كان من الغد جاء الرجل إلى باب مولى لقمان وسأله أن يعطيه نصف ماله أو يشرب ماء النهر فقال لقمان: اذهب بنا وقال للرجل امض إلى الوادي ليشرب مولاي ماءه، فلمّا حضروا قال لقمان للرجل الماء الذي تطلب مولاي يشربه الذي كان هٰهنا بالأمس حين راهنتما أو الذي هو الآن موجودٌ في النهر أو الذي يسيل من خلفه فإن كنت تطلب شرب ما كان هٰهنا بالأمس فما سبيلك أن ترده إليه فيشربه وإن كان تبتغي شرب الماء الذي هٰهنا فاحفظه لئلّا يذهب وإن كنت تريد منه شرب ما يأتي من خلفه فأمسكه حتى لا يختلط بهذا الماء فيشربه فإن مولاي لم يضمن شرب ماء هذا النهر ما دام يجري من أوّل الدهر إلى آخره وأخذ يخاصم الرجل ويشاح عنه إلى أن يشتمّ الرجل فقال له: إني تركت مولاك فاتركني فلما خلّص لقمان مولاه مما وقع فيه شكر له مولاه فأعتقه قال وهب: وكان لقمان رجلًا دميمًا أبيض القلب طاهر قد نوّره الله تعالى بنور الإيمان والهمة والحكمة والحق وأطلق بها لسانه وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكان رجلًا تقيًا قويًا في أمر الله تعالى ورعًا في دينه ساكنًا متذلّلًا خاشعًا وجلًا كثير الخوف طويل الفكر والنظر في عظمة الله تعالى وجلاله وأنه لم ينم نهارًا قط ولم يره الناس على بولٍ وغائط لشدة تستّره ولم ير أحدًا من الناس له سوأة قطّ وكان قليل الغضب وقليل الضحك غضيض الطرف مخاف الإثم على نفسه كثير الصمت قليل الكلام وكان يقول: إن الله تعالى يقول: ليس كلام كلّ حكيم أقبل ولكني أنظر إلى همّته وهواه فإن كان همته وهواه لي جعلت همته تفكّرًا وكلامه حمدًا، وكان يقول إن يد الله تعالى على أفواه الحكماء لا يتكلّم أحدٌ منهم إلّا بما هيّأه الله تعالى له وكان لا يعيد كلمة يتكلّم بها إلّا أن يسأله سائل عن كلمة ينفعه الله تعالى بها

فيعيدها إليه رجاء أن يزيده الله تعالى بها هدًى أو يزيده الله تعالى بها عن ردًى وإنّه لم يحزن على شيءٍ فاته منها وأنه قد نكح النساء وولد له أولاد فلم يحزن على من مضى منهم بل كان يفرح ويستبشر بذلك وكان لا يمرّ باثنين يختصمان إلا أصلح بينهما ووعظهما وذكّرهما وزجرهما وأنه لم يسمع كلامًا قط يعجبه إلّا تعلمه وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء والصّالحين والمساكين وكان يعتبي القضاة والسلاطين والملوك فيوصي لهم ويرحمهم بما ابتلوا به، وكان يعظهم ويذكرهم ويخوّفهم عواقب الأمور ويضرب لهم مثل من خلا قبلهم وكان كثير التفكّر بما يعمل فيه قلبه ويديه ولا يدركه سآمة ولا كسلٌ ولا فترة فأعطاه الله تعالى لما علم من صدقٍ بنيّة الحكمة ومنحة العصمة وصرف الفتنة والبليّة وأحبّ الله تعالى فأحبّه وعلّمه الحكمة. قال وهب بن منبه: وكان سبب ما أوتي لقمان الحكمة أن الله تعالى بعث إليه طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وَهَدَتِ العيون القائلة فزاروا لقمان ودخلوا عليه بحيث يسمع كلامهم ولا يرى صورهم فقالوا: السلام عليك يا لقمان ورحمة الله وبركاته، قال: وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته، قال: من أنتم؟ قالوا: إنّا رسل ربّك إليك أن نجعلك خليفةً في الأرض أن تحكم بين الناس بالحكمة قال لقمان: إن أجبرني على ذلك سمعت له وخضعت وأطعت لأن ربّي إن جعلني خليفةً في الأرض أحكم بين الناس رجوت أن يعينني على ذلك ويوفقني ويسدّدني وإن عافاني ربي قبلت العافية ولم أتعرض للفتنة والبلاء، قالت الملائكة ولم يكره الحكم بين الناس بالحقّ قال لقمان: لأن الحكم بين الناس أشدّ المنازل في الدين وأكثرها لمعاريض الفتن لأنّ الحاكم إذا لم يحكم بالحقّ خذل وإذا حكم بالحق أعين ومن كان في الدنيا ذليلًا حقيرًا خامل الذكر كان أهون عليه يوم القيامة من أن يكون في الدنيا حكمًا بين الناس شريفًا مهيبًا، ومن آثر الدنيا على الآخرة خسرهما جميعًا وفارقته الدنيا أستر ما كان بها وأشدّ اغتياظًا وبقي تعبها في عنقه ولا نصيب له في الآخرة قال: فتعجبت الملائكة من حكم قول لقمان واستحسن الرّحمٰن منطقه فوفّقه وسدّده وأعانه وصرف عنه الفتنة والحكم بين الناس فلمّا جنّ الليل وأخذ مضجعه أنزل الله تعالى عليه الحكمة فصبّها عليه صبًّا وغشاه بها من فوق رأسه إلى قدميه وحشا بها جوفه، وهو نائم وأثبتها في قلبه وأظهرها على لسانه فاستيقظ من نومته وهو أحكم أهل الأرض في زمانه فنطق بينابيع الحكمة فبثها في الناس فكان لا يلقى أحدًا إلا وعظه وذكّره ورغّبه في الآخرة وأخبره عن ملكوت السمٰوات وما فيها وعن الجنة والنّار وما فيهما ويزهّده في الدنيا ويضرب له أمثالها وتقلّبها بأهلها فاتبعه الناس وأكثروا عليه وأتى الله تعالى داود الخلافة فقبلها ولم يشترط فيها اشتراط لقمان فابتلي بالخطيئة حتى تاب الله تعالى عليه وغفر له وكان

لقمان يكثر زيارة داود ويرفده بمواعظ وكان داود يقول له طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة وصرفت عنك البليّة. وروي أن لقمان بينما هو ذات يوم يعظ الناس وهم مجتمعون عليه إذ مرّ به عظيم من عظماء بني إسرائيل فرأى جماعة من الناس على لقمان فقال: ما هذه الجماعة؟ قالوا: جماعة اجتمعت على لقمان الحكيم فأقبل الإسرائيلي حتى نظر في وجه لقمان فإذا هو برجلٍ أسود فتحوّل حتى أتاه من خلفه فأخذ برقبته فغمزها فقال: أنت لقمان ألست الذي كنت ترعى الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: فما الذي بلغ بك ما أرى وأنت أنت قال لقمان: ثلاثة أشياء: صدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعني قال صدقت وانصرف عنه متعجبًا وتركه ومضى.

وممّا يذكر من أخبار لقمان أنه كان له بنون

وكان لقمان تاجرًا ذا مالٍ كثير وكان يداين الناس ولكنه كان يسامحهم ويساهلهم إلى المسيرة وكان له ابنٌ يتقاضى ديونه على الناس وأنّه جهّزه في وقتٍ من الأوقات للتجارة وليتقاضى دينًا له على الناس، فلما خرج ابنه شيّعه أبوه ثم لما أراد أن يفارقه أوصاه فقال له: إنك تلقى في طريقك شجرة وتحتها عين من ماء فإياك أن تنزل تحتها أو تشرب من مائها وإنك إذا نزلت ببلدة رئيسٍ يعرض عليك ابنته أن تتزوّج بها فلا تتزوج بها، وإذا بلغت إلى غريمي فلان وتقاضيت مالي عليه فإنه يعرض عليك المبيت عنده، فلا تبت عنده ثم إنّه قال: ومن صاحبك في سفرك وهو أكبر منك سنًّا فلا تعصه في رأيٍ رآه وإشارة أشار بها عليك، ثم قال له: أصحبك الله السلامة ورجع لقمان ومضى ابنه فلم يسير ابنه إلا قليلًا حتى رأى شيخًا عرض له في الطريق وسلّم عليه، فردّ عليه ابن لقمان فقال له الشيخ إني أريد مرافقتك في سفرك فقال ابن لقمان: سر على بركة الله تعالى فسارا معًا حتى كانا عند الظهيرة بلغا موضعًا فيه شجرة نزهة وتحتها عين ماءٍ فقال الشيخ: يا ابن لقمان انزل هٰهنا حتى نروح ويقل الحرّ، فقال: إن أبي قال لي لا تنزل تحت هذه الشجرة، قال: أو ليس قد قال أبوك لا تعص من هو أكبر منك، قال: بلى، قال: وأنا آمرك أن تنزل هٰهنا فنزل ابن لقمان فلمّا نام ابن لقمان جلس الشيخ يحرسه فلم يلبث أن نزلت من الشجرة حيّة وقصدت ابن لقمان، فقام الشيخ وضربها فقتلها، فلما استيقظ ابن لقمان قال الشيخ: ألم تدر عمّا نهاك أبوك عن النزول هٰهنا قال: لا أدري، قال: لأجل هذه الحيّة لأنها كانت تهلك من نزل هٰهنا وقد قتلتها ثم إن الشيخ أخذ رأس تلك الحيّة ولفّه في خرقة وحمله ثم سارا حتى بلغا البلدة التي ذكرها أبوه، فنزلا على ذلك الرئيس فعرض الرئيس ابنته على ابن لقمان وقال: أعطيك مالًا كثيرًا فأبى ابن لقمان

فقال له الشيخ: ما لك لا تتزوّج بها وتأخذ المال؟ قال: لأنّ أبي قد نهاني عن ذلك؟ قال: ألم يأمرك أبوك أن لا تخالف من هو أكبر منك وأنا أشير عليك أن تتزوج بها، فتزوج بابنة الرئيس فقال له الشيخ: فإذا قيل لك ادخل عليها فلا تدخل حتى تخبرني قال: نعم، فلما أمسى جاءه من دعاه بالدخول على امرأته فأخبر ابن لقمان الشيخ فأعطاه رأس الحيّة الملفوف في الخرقة، وقال: إذا أتيت بمجمرة فيها نارٌ فالقِ رأس الحيّة على النار ودخّن به تحت ثياب امرأتك قبل أن تباشرها فقال: نعم، فلمّا دخل على امرأته دعت المرأة بجمرة وبخور فبخرته وطيّبته فلمّا فرغت أخرج ابن لقمان رأس الحيّة، وقال: إني أريد أن أبخركِ ببخورٍ عندي فأخرج رأس الحيّة وألقاه على النار وجعله تحت ثيابها فصاحت المرأة صيحة وسقطت مغشيّة عليها وخرجت من قبلها دودة عظيمة ميّتة ثم إنها أفاقت فرأت ذلك وأمرت أن تطرح ثم باتت عند ابن لقمان إلى الصباح فلمّا أصبحوا دخل الشيخ على ابن لقمان فقال لابن لقمان: ماذا رأيت؟ قال: كذا وكذا؟ قال: إن أباك نهاك عن التزوج بها لأن من تزوج بها قبلك إذا جامعها لدغته الدودة التي خرجت منها فتهلكه ولمَّا أن سقطت الدودة منها سلمت فبارك الله لك في أهلك، وإن ابن لقمان مكث أيامًا ثمّ قال للرئيس إني أريد الخروج إلى غريم لي لأقبض حقي وأرجع فأْذن لي، فأذنَ له فخرج ومعه الشيخ فلمّا بلغا الموضع الذي فيه الغريم خرج إليه ورحب به، وقال له: انزل حتى أعطيك حقك غدًا فقال ابن لقمان: لا أنزل، قال له الشيخ: ولِمَ لا تنزل وقد تعبت انزل حتى تستريح وتأخذ حقك غدًا، فقال: إنّ والدي نهاني أن أنزل عنده وأبيت قال: وقد نهاك أيضًا أن لا تخالف من هو أكبر منك وأنا أشير عليك بالنزول فنزل ابن لقمان وأضافه الرجل ضيافةً حسنة وأخرج المال الذي عليه ووزنه تامًّا وجعله في كيسٍ ووضعه عند ابن لقمان وقال له: تبيت عندنا فترحل غدًا بالمال وكان عادة الرجل أن ينزّل من أتاه فإذا أمسى وضع له سريرًا على شاطىء البحر وكان قصره على ساحل البحر فإذا كان في جوف الليل جاء ومعه بعض أهله فأخذ الرّجل فطرحه في البحر فأراد أن يفعل ذلك بابن لقمان وجاء بالسرير ووضعه على السّاحل وجاء بسريرٍ آخر ووضعه على باب القصر وأنام عليه ابنه، فلمّا هدأ الناس جاء الشيخ إلى ابن لقمان وأيقظه وقال: أعنّي فأعانه فرفعا السرير ووضعاه على شاطىء البحر ورفعا سرير ابن لقمان ووضعاه في موضع سرير ابن الرّجل، فلما كان في جوف الليل خرج الرجل ومعه آخر حتى أتيا شاطىء البحر فرفعا النائم وهو يظنّ أنّه ابن لقمان فطرحه في البحر ورجع فحين أصبح رأى ابن لقمان فتحيّر ولم يقل شيئًا فرحل ابن لقمان ومعه المال ورجع إلى الرئيس وأخرج معه ابنته والمال الذي أعطاه أبوها، وفي روايةٍ أخرى أن ابن لقمان لما نزل تحت الشجرة أراد أن ينام في ظلّها فقال له الشيخ لا تنم هنالك ولكن نم في الشمس ففعل ذلك وجاء فتى

من قريةٍ بقرب الشجرة فنام تحتها فنزلت الحيّة ولدغته فأهلكته، فلمّا استيقظ ابن لقمان أراه الشيخ حال الفتى فقال له: اذهب إلى هذه القرية وأخبرهم حال الفتى وموته بلدغ الحيّة له، ففعل فبكى الناس وكان الفتى من أشرافهم فلمّا جاؤوا حملوه ودفنوه قال الشيخ لابن لقمان: قل لهم ماذا تعطونني إن أنا قتلت الحيّة وأرحتكم منها فلا ترض منهم إلا بنصف أموالهم فقال لهم ذلك فقالوا: نعطيك عشر أموالنا فإنها قد أهلكت خلقًا كثيرًا ونحن في بلاءٍ منها فلم يرض ابن لقمان حتى قالوا نعطيك نصف أموالنا فجاء إلى الشيخ فأخبره فأخرج الشيخ صرة فيها دواءٌ وألقاه على النّار ودخّن به تحت الشجرة فنزلت الحية وقام الشيخ فقتلها وفرح أهل القرية بذلك فرحًا شديدًا وأخرجوا له نصف أموالهم، قال الشيخ خذ وضعها عند أمين الجان إلى أن ترجع من سفرك، ثم إنه رحل ونزل منزلًا آخر على بلدةٍ وكان عندها نهرٌ عظيم يجري فيه ماء كثير وبالقرب من النهر عين ماءٍ فيها ماءٌ قليل وأراد ابن لقمان أن يشرب من النهر فنهاه الشيخ، وقال: لا تشرب منه واشرب من هذه العين فقال: ولم قال لأن من شرب منه أصابه الجرب وأن أهل هذه البلدة لا يشربون منه، ثم قال الشيخ لابن لقمان ادخل هذه البلدة وقل لأهلها ما تضمنون لي إن أصلحت لكم ماء النهر حتّى يعذب ويصلح عن الآفة ولا ترض منهم إلّا بنصف أموالهم ففعل ذلك ابن لقمان وضمنوا له المال فرجع إلى الشيخ فأخرج الشيخ شيئًا من صرته وألقاه في النهر فعذب ماء النهر وأمره فشرب منه بين يدي القوم فلم يُصبه آفة فشرب القوم فلم يضرّهم فقالوا: خذ ما ضمنّا لك فأمره الشيخ أن يأخذه ويضعه عند أمين الجان إلى أن يرجع من سفره، فلمّا رجع ابن لقمان من سفره وأخذ المال من غريمهِ ومرّ بالرّئيس وقد جهّز ابنته بجهاز عظيم فحملها ابن لقمان مع المال ورجع سالمًا إلى أبيه غانمًا فلمّا قرب من بلدة أبيه قال الشيخ إني أريد أن أفارقك ولست أريد دخول بلدتك فألحّ عليه ابن لقمان فأبى فقال له ابن لقمان فانزل حتى أقاسمك هذه الأموال التي أصبتها ببركتك قال: لا حاجة لي فيها قال: فما أقول لوالدي إذا سألني عنك فقال صفني له بصفتي فإنه يعرفني ومضى الشيخ وجاء ابن لقمان إلى أبيه فأخبره بحاله وسفره وقصّ عليه قصّة الشيخ وقال: إنه قال لي صفني لأبيك فإنه يعرفك قال لقمان: يا بنيّ إنه هو السلامة التي سألتها لك حيث قلت أصحبتك السلامة قال لعلّه ملك أو شخص جعله الله مثلًا للسلامة حتى صحبته فسلمك الله ببركته من البلايا، وروي أنّ لقمان خرج في بعض أسفاره ومعه ابنه فلمّا قربا من البلدة التي يقصدونها وهما في قافلة وكان وقت المساء فعرج حمار لقمان فتخلّف عن القافلة ودخلت القافلة البلدة فجعل ابن لقمان يخرج ويتأفّف فقال له أبوه: لا تفعل، فلعلّ الصّلاح في هذا هٰهنا فقال: وأي الصلاح في أن بقينا في البرد والريح والمطر ولا عشاء لنا ولا علفٌ لدوابنا وقد نزل الناس البلدة في كنٍّ

وعلفٍ وما يريدون فقال: لا تضجر يا بني فلا تدري لعل الصلاح في هذا فلمّا أصبحا إذا هما بدخان يسطع من البلدة وإذا الحريق قد وقع تلك الليلة في تلك البلدة فهلك من فيها وهلكت معهم القافلة فقال لقمان لابنه يا بنيّ ألم أقل لك لعل الصلاح في هذا لو دخلنا البلدة لاحترقنا معهم.

ومن حديث لقمان

ما قد قصّه الله علينا في كتابه من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: الآيات ١٣ ـ ١٩] ولم نكتبها لوجودها في نصّ القرآن. وروي أنّ آخر حكمة لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦﴾ [لقمان: الآية ١٦] فغلب ذكر عظمة الله على قلبه فانفطر فمات وكان ذلك آخر حكمته وعن إبراهيم[1] بن أدهم قال: بلغني أنّ لقمان لمّا حضرته الوفاة كان في عرش له قدّر مضجعه وابنه جالس عند رأسه فبكى لقمان فقال له ابنه: ما يبكيك يا أبت؟ قال: بنيّ لست أبكي على الدنيا ولكنّما أبكي على ما أمامي من المشقة البعيدة والمنازل السحيقة والعقبة الكدودة والزاد القليل والحمل الثقيل ولا أدري أينحطّ ذلك الحمل أم يبقى عليّ فأساق معه إلى النّار.

وممّا كان في زمن داود عليه السّلام

من الأحداث قصة أهل أيلة[2] ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥﴾ [البقرة: الآية ٦٥]، قال ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٣] الآية، ذكر أهل الأخبار ودخل كلام بعضهم في بعض أنّ الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلا أمره أن يأمر قومه بتعظيم الجمعة وتفضيلها فلمّا بعث الله تعالى موسى وأنزل عليه التوراة وأمره بذلك فقال له قومه: وكيف تأمرنا بتعظيم الجمعة وأنّ أفضل الأيّام هو السبت الذي فرغ الله تعالى فيه من خلق ما خلقه واجتمع له بالطاعة جميع خلقه فنحن نحبّ أن يكون يومنا وعيدنا يوم السبت فأوحى الله تعالى إلى

---

(١) إبراهيم بن أدهم أبو إسحٰق، من أهل بلخ وملوك خراسان معروف بزهده وأمانته وورعه وتقواه، محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني/ جمهرة الأولياء، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ١٤ جواد حسني ـ القاهرة ٢/ ١٢٥.

(٢) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يأتي الشام، أول الشام، سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ١/ ٢٩٢.

موسى أن دعهم يوم السبت ولكن أخبرهم أنّي حرمت عليهم العمل والصّيد يوم السبت ومن خالف ذلك منهم عاقبه الله، فلمّا كان زمن عيسى عليه السلام أمره بتعظيم الجمعة، فأخبره قومه فقالوا له: ولم تأمرنا بتعظيم الجمعة وأن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد فنحن نحبّ أن يكون عيدنا يوم الأحد، فقال: إنهم قالوا نحن لا نحبّ أن يكون عيد اليهود بعد عيدنا، فنحن نختار الأحد فقال الله تعالى له: دعهم يوم الأحد وأخبرهم أن من ترك حرمته وعمل بما لا أرضاه عاقَبْته ثم إن الله تعالى لما بعث محمّدًا ﷺ أمره بتعظيم الجمعة فأخبر به أمته فرضوا بذلك فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ﴾ [النّحل: الآية ١٢٤].

رجعنا إلى قصّة أهل أَيْلَةَ

قالوا: وكان في زمن داود قوم في بلدة يقال لها أيلة وكانت على ساحل البحر والبحر يمدّ في كلّ يوم فابتلاهم الله تعالى بأن جعل ﴿حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ [الأعراف: الآية ١٦٣] ظاهرةً كثيرة ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْۚ كَذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٣]، فطال ذلك الأمر عليهم وصار أمر السمك غصّة في قلوبهم إن لم يكونوا يقدرون على صيدها في يوم ظهورها وكثرتها ويقال: إنها كانت تجري على رأس أنهارهم وحياضهم رافعة رؤوسها يأخذها كلّ من يشاء بلا صيد، فلمّا اشتدّت الغصّة عليهم هيّأوا لها حياضًا وجعلوا لها أبوابًا مشبكة يدخل الماء ويخرج من الشباك وكان البحر إذا مدّ يوم السبت خرجت الحيتان من البحر في المدّ فتدخل في حياضهم وإذا جزر الماء انطبقت الأبواب وجرّ الماء من الشباك وبقيت الحيتان في الحياض ويقال: كان أوّل من أخذ من السمك كان رجل منهم أخذ سمكة من على وجه الماء بيده فلم يجسر أن يخرجها مخافة أن يكون صيدًا فربط في ذنبها خيطًا وتركها في الماء إلى غداة يوم الأحد ثم أخرجها وجعل يصلحها للأكل فشمّ جاره رائحة السمك غدوةً فقال لجاره: من أين لك السمك؟ ولم تأخذ بالأمس شيئًا فأنكر جاره أن يكون ذلك عنده ثم إن صاحبه اطلع عليها من كوة بيته فرآه يشوي السمكة فسأله عن ذلك فأخبره بما فعل فقال صاحبه: أخاف أنك قد ارتكبت ما نهيت عنه من الصيد وجعل يتربّص به نزول عذابٍ فلم يصبه شيء، فلمّا كان في السبت الآخر أخذ الرجل سمكتين ومدّ في ذنبيهما الخيط كما فعله أوّل مرّة فأخرجها يوم الأحد فأكلها وتربّص بها فلم يصبه مكروه فأخبر جاره بفعله فقال: لعلّه حرمةُ السبت قد ذهبت وفشا أخذ الحيتان فيهم على الروايتين فصار أهل البلدة ثلاث فرق فرقة يأخذونها ويأكلونها وفرقة يأخذون ولكنّهم يجالسونهم ويؤاكلونهم ولا ينهونهم وفرقة لا يأخذون ولا يأكلون وجعلوا ينهونهم عن فعلهم قال: وجاءهم داود فنهاهم عن فعلهم

مرارًا فلم يقبلوا منه، ثم إنّه جاءهم مرّة من المرار فلم يفتحوا له باب مدينتهم فجعل يناديهم من خارج وهم لا يجيبون فقال لهم: ألا تسمعون أقرودٌ أنتم فنادوه نعم نحن قرودٌ فما لك ولنا فرجع عنهم فلعنهم قالوا: وإنّ القوم لما أصرّوا على فعلهم فارقتهم الفرقة الناهية ثم أقسموا البلدة نصفين وجعلوا بينهم وبين الآخرين حائطًا فمضى على ذلك مدة ثم إن الله تعالى أذن في هلاكهم فباتوا ليلة وأنزل عليهم العذاب ومسخهم قـردةً، قـال الله تـعـالـى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾ [الأعراف: الآية ١٦٦] فأصبحت الفرقة الناهية في محلتهم وفتحوا باب مدينتهم ولم يتحرّك من القوم الآخرين أحدٌ ولم يخرج منهم خارج ولم يفتحوا باب مدينتهم فتعجب هؤلاء وصبروا حتى تعالى النّهار فأمروا رجلًا حتى تسوّر الجدار الذي بين المحلتين فنظر فرأى قردة تموج بعضها في بعض فأخبر أصحابه فقالوا له: انزل وانظر وافتح لنا باب المدينة ففعل فدخلوا عليهم فلم يجدوا منها إلا القرود قال: وجعلوا يسألون من يظنونه هل أنت فلانٌ فيومىء برأسه أن نعم، ثم إن الله تعالى أبقاهم ثلاثة أيام ثم ماتوا جميعًا وأورث الآخرين مدينتهم وأموالهم فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٦٦﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٦] نعوذ بالله من غضبه وعذابه ونكاله ونستغفر الله من الذّنوب ونتوب إليه.

باب في ذكر يونس بن متّى عليه السّلام[1]

قال بعض الناس كان يونس بعد إلياس واليسع وقال: أكثر أهل الأخبار بل كان بعد سليمان وذلك أن الملك كان بعد سليمان في ولده يتوارثونه بعضهم بعضًا فكان في زمن بعضهم قتال بين أهل نينوى[2] وهي مدينة في نواحي الجزيرة وبين بني إسرائيل فأسروا قومًا من بني إسرائيل فأوحى الله تعالى إلى بعض أنبياء ذلك الزّمان أن قل للملك حتى يبعث نبيًّا قويًّا صلبًا إلى أهل نينوى ليعظهم ويدعوهم إلى الإسلام فيستنقذ الأسارى من أيديهم فشاور الملك ذلك النبي وبمن يتفقه فاتّفق رأيهما على يونس فدعاه الملك وعرض عليه، فقال: وهل سمّاني الله لذلك الأمر، لا بُدَّ قال النبيّ لا، إلا أنّه قال الله تعالى أن يبعث عليهم نبيٌّ قويّ صلبٌ في أمر الله تعالى قال يونس: إن في أنبياء بني إسرائيل من هو قويٌّ صلبٌ في أمر الله تعالى فابعثوا غيري فقال الملك بحقّي عليك أن تخرج إليهم أنت، فشقّ على يونس ذلك ولم يجد بدًّا من الخروج فخرج إلى أهل نينوى ودعاهم إلى الله تعالى وحذّرهم عقابه إن لم يؤمنوا ويخلّوا عن أسارى بني إسرائيل فكذّبوه فأقام فيهم زمانًا ينذرهم ويعظهم ويوعدهم وهم يكذبونه ويردّون عليه نصيحته حتى رموه بالحجارة وأخرجوه من بلدتهم، ثم إنه عاودهم مرارًا في كلّ ذلك يعظهم ويعدهم ويوعدهم وهم يكذبونه ويخرجونه فقال لهم: إن أَبيتم إلى ما أنتم عليه فإنّه سيأتيكم عذاب الله تعالى فقالوا: كذبت فدعا الله تعالى وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١١٧] فأنزل عليهم نقمتك، فأجابه الله تعالى فخرج يونس من عندهم وأخرج معه أهله وكان معه ابنان له صغيران فقال يونس لهم: إنّ العذاب يأتيكم بعد ثلاثة أيّام، وصعد يونس جبلًا بقرب المدينة قالوا: فبعث الله تعالى جبرائيل إلى مالك خازن النار وقال له: اخرج من سموم

---

(١) ذكر قصة نبيّ الله يونس (عليه السلام) تفاصيلها في: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/١٩١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/٢٧٨.

(٢) نينوىٰ: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح النون والواو، وهي قرية يونس بن متى (عليه السلام) بالموصل، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/٣٣٩.

جهنم على قدر شعيرة ففعل فجاء السموم ومعه جبرائيل حتى أحاط بمدينة نينوى ورأى أهل نينوى العذاب فأيقنوا بالشرّ وسُقِطَ في أيديهم وعرفوا أن يونس قد صدقهم فاجتمعوا وقالوا: اطلبوا يونس يدعو لكم بالفرج فطلبوه فلم يجدوه، فاجتمعوا على تلٍّ خارج مدينتهم يقال له الرماد وتلّ التوبة وذلك أنهم خرجوا بأهاليهم وأولادهم ودوابهم ووقفوا على ذلك وفرّقوا بين الأمّهات والأولاد وبين البهائم وأولادها، ثمّ جعلوا يضجّون ويبكون ويتضرّعون وجعلوا الشوك تحت أرجلهم والرمّاد على رؤوسهم ولبسوا المسوح واستجاروا إلى الله، وكان ذلك أول يوم من ذي الحجة فكانوا على تلك الحال والتضرع والبكاء إلى يوم العاشر من المحرّم تمام أربعين يومًا وهو يوم عاشوراء وعلم الله منهم الصدق وتشفعت لهم الملائكة وقالت: يا ربّ إنّ رحمتك وسعت كل شيء فأمر الله تعالى جبرائيل برفع العذاب عنهم وذلك قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: الآية ٩٨] الآية، قالوا: فلما رفع عنهم العذاب رجع يونس من الجبل لينظر ما فعل قومه فرأى إنسانًا فسأله عن أهل نينوى فأخبره أنّه جاءهم العذاب فتضرّعوا إلى الله تعالى وتابوا فرفع الله عنهم، فضجر يونس وقال: لا أدخل عليهم كذّابًا ويروى أن إبليس جاء إلى يونس في صورة إنسانٍ فقال: إن رجعت إلى قومك اتهموك وكذبوك فذهب ﴿مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: من زعم أنه مغاضبًا لربّه فقد كذب على الله تعالى إنّما كان غضبه وحرده على قومه وقال الله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] البلاء والعقوبة، ومن ظنّ أن الله تعالى لا يقدر عليه فقد أعظم عليه الفرية، وانطلق يونس إلى شاطىء البحر ويقال شاطىء دجلة ومعه أهله فوجد سفينة موقرةً فقال: احملوني معكم، فقالوا: وقرنا سفينتنا فإن شئت حملنا بعض من معك وأنه ستأتي بعدنا سفينة أخرى فتركبها فحمّل يونس أهله في سفينتهم وبقي هو وابناه فعطلت له سفينة أخرى، فذهب يونس إليها ليسألهم حمله فدنا أحد ابنيه إلى شاطىء دجلة فزلّت رجله فوقع في الماء فغرق وجاء ذئب فحمل ابنه الآخر فلمّا رأى ذلك يونس علم أنّها عقوبة، ثم إنه ركب السفينة ليلحق بأهله فلمّا توسّطت السفينة الماء أوحى الله تعالى إليها أركدي فركدت والسفينة تميل يمينًا وشمالًا، قال: فجعلوا يقولون لأهل هذه السفينة ما بالكم وبال سفينتكم؟ فقالوا: لا ندري، فقال يونس: بلى أنا أدري، قالوا: فما بالها؟ قال: إنّ فيها عبدٌ آبق من ربّه وإنّها لا تسير حتى تلقوه في الماء قالوا: ومن هو: قال: أنا وكانوا قد عرفوا أنّه نبيّ الله تعالى يونس، قالوا: أما أنت فلا نلقيك في الماء، والله لا نرجو النجاة إلّا بك فقال لهم يونس عند ذلك فاقترعوا فمن قرع عليه فألقوه في الماء فاقترعوا فأصابته القرعة فقال: ألقوني فقالوا: لا نفعل فإن القرعة لتصيب ولتخطي فاقترعوا الثانية والثالثة

وفي كلّها تصيبه القرعة فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٤١] فقال ألقوني فقالوا: والله لا نفعل فأوحى الله تعالى إلى الحوت في آخر بحر من البحور فجاء فأحاط بسفينتهم فاغرًا فاه فأمرهم يونس أن يحملوه ويلقوه في الماء فحملوه إلى جانبٍ من السفينة فرأوا الحوت هنالك فلمّا أعياهم قال: اقذفوني فقذفوه ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٤٢] فأوحى الله تعالى إلى الحوت أن لا يفسد له لحمًا ولا يكسر له عظمًا فإنّه نبيّ وصفيّ ولست أجعله لك طعامًا بل جعلت بطنك سجنًا له فقال الحوت: أما إني سأحفظه حفظ الوالدة ولدها ومضى الحوت به ومضى القوم في سفينتهم وانطلق الحوت إلى مسكنه في البحر وطاف به في بحار الدنيا أربعين يومًا ويونس يرى ما وراء بطن الحوت كما يرى الإنسان من وراء الزجاجة فأبصر من عجائب الله تعالى في البحر ما لم يسمع أحدٌ وجعل يسمع تسبيح دوابّ البحر، فقال: سبحانك ما أعظمك وحبسه الله تعالى في جوف الحوت أربعين يومًا مقدار ما كان قومه في العذاب حتى أصابه من المحنة والشدة ما أصابهم ثم إنّه دعا وقال إلٰهي وسيّدي في الأرض قدرتك وفي السماء عرشك وعظمتك وفي البرّ ملكك وفي البحر عجائبك يا سيّدي من الجبال أهبطني وفي البلاد صيرتني وفي الظلمات حبستني ظلمة الليل وظلمة الماء وظلمة بطن الحوت إلٰهي سجنتني في سجنٍ لم تسجن به أحدًا قبلي وعاقبتني بعقوبة لم تعاقب بها أحدًا قبلي وجعل يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] فسمعت الملائكة بكاءه وعرفوا صوته وبكت الملائكة لبكائه وقالوا: يا سيدنا نسمع صوت ضعيف من مكان غريب قال الجبّار: إن ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت قالوا: إلٰهنا العبد الذي كان يصعد له كلّ يومٍ وليلة العمل الكثير قال الله تبارك وتعالى: نعم يا ملائكتي وهذه عقوبتي لأنبيائي فكيفَ لأعدائي فشفعت له الملائكة والسمٰوات والأرضون فبعث الله تعالى جبرائيل وقال له: انطلق إلى الحوت الذي حبست يونس في بطنه فقل له: إن لي في عبدي نظرًا وقد رضيت عنه فاذهب فاقذفه في الموضع الذي التقمته منه، فقال الحوت: إلٰهي كنت قد أكرمتني به وآنستني بتسبيحه، فالآن تخرجه من بطني، فقال الله عزّ وجلّ: إني إنما سجنته في بطنك وقد أقلته عثرته قال فجاء جبرائيل ومعه الحوت حتى بلغ شاطىء دجلة فدنا جبرائيل من فيّ الحوت وقال: السلام عليك يا يونس، إن الله سبحانه يقرئك السلام وأمر الحوت بقذف يونس فقذفه مثل الفرخ الممعوط فاحتضنه جبرائيل فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٤٣ - ١٤٥] قال ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: من قال هذه الكلمات التي قالها يونس من قوله: ﴿أَن لَّآ

إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] وهو مكروب كشف الله تعالى عنه كربه، فإنّها عدّة من الله تعالى لا يخلف لها لقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٨] وألقاه الحوت بأرض الموصل وأنبت الله تعالى ﴿عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصَّافات: الآية ١٤٦] يقال لها القرع فكانت ظلاله ويقال: كان هناك شجرة فالتفت عليها القرعة وجعلت تثمر له فيكون منها طعامه، ويقال: أمر الله تعالى أغصانها أن ترضعه كما يرضع الصبيّ اللبن، ويقال: كانت القرع طعامه وألهم الله تعالى ظَبْيَة من ظباء الناحية فتأتيه فترضعه من لبنها والله تعالى أعلم، حتى نبت عليه جسمه وشعره ورجعت إليه قوّته وصحّته ومرّ به مارّة من الناس فكسوه من ثيابهم فبينما هو ذات يوم نائم إذ أمر الله تعالى الشمس بإحراق شجرة يونس فأحرقتها وأصابت الشمس جلده فانتبه وقال: يا ربّ نجيتني من الظلمات ورزقتني ظلّ شجرة أستظل بها ثم أحرقتها وبكى فجاء جبرائيل وقال: يا يونس إنّ الله تعالى يقول: أأنت زرعتها أم أنت أنبتها؟ قال: لا، قال: فما بكاؤك فالله تعالى قد أعطاكها ثم سلبها وهو قادرٌ أن يعيدها لك أتحزن على شجرةٍ لا قيمة لها ولا تحزن على مائة ألفٍ أو يزيدون أردت إهلاكهم في غداةٍ واحدةٍ ولما أن قوي جسده أمره الله تعالى بالرجوع إلى قومه فقال: يا ربّ تبعثني إلى من جحد كتابك وكذّب رسلك فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس أنت تمنع رحمتي عن خلقي أبيدك خزائني أما علمت أني إذا شئت هديت قلوبًا غلفًا وفتحت آذانًا صُمًّا وأبصارًا عميًا قال: فرجع يونس إلى قومه فمرّ براعٍ منهم فسأله: من أنت؟ فقال: أنا من قوم يونس بن متّى قال وما فعل يونس؟ قال: لا أدري ما حاله غير أنه كان خير الناس وأصدقهم، أخبرنا بالعذاب فجاءَنا كما قال فتبنا إلى الله تعالى فرحمنا ونحن نطلب يونس فلا ندري أين هو فقال يونس: هل عندك لبنٌ؟ قال: لا فوالذي أكرم يونس ما مطرت السماء منذ فارقتنا ولا أعشبت أرضنا، قال يونس: إني أراك تحلف بإله يونس قال: نعم، ومن حلف بمدينتنا بغير ذلك أخرج لسانه من قفاه، قال يونس: ومذ متى استحدثهم الدّين قال: منذ كشف الله تعالى عنّا العذاب قال له يونس: فأتني بنعجةٍ فأتاه بها فمسح ضرعها فدرّت بإذن الله تعالى فحلبها فقال الراعي: إنّ ملكنا قد قال: من جاءني بخبر يونس وأنه رآه جعلت له مملكتي ولحقت بيونس فأنا لا أجترىء أن أخبرهم بذلك من غير حجّة، فيقولون كذبت طمعًا في الملك فيقتلونني قال: فإنّها تشهد لك هذه الشاة التي حلبتها وهذه الصخرة التي أنا جالس عليها فذهب الراعي إلى المدينة فنادى ألا إن رسول الله تعالى يونس قد رأيته فاجتمع الناس إليه وكذّبوه وهمّوا به قال: فانطلقوا معي فإن لي بيّنة على قولي فجاءهم إلى الموضع الذي فيه يونس واستشهد النعجة وقال لها أسألك بإله يونس الذي كشف عنّا العذاب هل رأيت نبيّ الله

تعالى وهل شرب من لبنك فقالت: نعم، بإذن الله تعالى وشهدت له وقالت: إنه شرب من لبني وأمرني أن أشهد لك، ثم جاء إلى الصخرة واستشهدها فشهدت له كذلك وقالت: إنه كان جالسًا عليّ فانحدر القوم في الوادي فإذا هم بيونس قائمًا تحت شجرةٍ يصلّي فرفعوا أصواتهم بالبكاء وأتوا به إلى مدينتهم وأنزل الله تعالى عليهم البركة من السماء، وأخرج لهم بركات الأرض وجمع الله تعالى ليونس أهله وولده فأقام فيهم وعلّمهم الشرائع والسنن ثم سأل الله تعالى أن يأذن له في السياحة والعبادة، فأذن له فخرج وخرج معه الملك وسلّم ملكه إلى الراعي وقال له: أنت خيرنا وسيّدنا فخرجا ولم يرَ يونس بعد ذلك ولا الملك، والله أعلم. قال كعب الأحبار وإن يونس لحق بالعبادة ولم يجامع جماعة الناس بعد ذلك وكان شعيا النبي تلميذ يونس فلمّا حضرته الوفاة أمره يونس أن يرجع إلى بني إسرائيل حتى يأتيه أمر الله تعالى ثم إنّ الله تعالى أوحى إليه بعد ذلك على ما سنذكره إن شاء الله تعالى قال هذه إحدى الروايتين في قصّة يونس وروي عن ابن عبّاسٍ من وجهٍ آخر أن يونس كان يسكن فلسطين فغزاهم ملك نصيبين وكان رجلٌ يسمّى تغلب فسبى منهم أناسًا وذهب بهم إلى أرضه فبقوا في الأسر مدّة ثم إن الله تعالى أوحى إلى نبيّ ذلك الزّمان قل لحزقيا الملك وهو ملك بني إسرائيل حتى يبعث نبيًا قويًا أمينًا إلى ملك نصيبين وكان دار ملك الملك نينوى من أرض نصيبين ويستنقذ منه أسارى بني إسرائيل وذكر القصّة إلى أن كان قال الملك له بحقّي عليك أن تخرج أنت فخرج مغاضبًا للملك حين ألحّ عليه بالخروج دون غيره من الأنبياء وقال: اخرج إلى ناحيةٍ نعبد الله تعالى فيها فجاء إلى ساحل البحر فوجد سفينة فسألهم أن يحملوه فعرفوه فحملوه ولم تسر السّفينة إلا قليلًا حتى ركدت وتكفأت بهم، فقال الملاحون: يا قوم إن السفينة لا تفعل هذا من غير ريح إلّا وفيها عاصٍ ومن رسمنا أن نقترع فمن أصابته القرعة ألقيناه في البحر وسَلِمَ النّاس فقالوا: نفعل ذلك فاقترعوا فخرج سهم يونس فقال: أنا العاصي فقالوا: يا نبيّ الله تعالى كلّنا أولى بذلك منك فاقترعوا الثانية والثالثة فخرج سهم يونس فقال: أنا والله العاصي فاقذفوني فقالوا والله لا نفعل فقام يونس فتلفّف ثيابه وقام على جانب السفينة فإذا هو بسمكة عظيمة فاغرة فاهًا فجعل يونس يدور حتى لا يقع في فيها فكانت السمكة تدور معه ثمّ إنه أقذف نفسه فابتلعته السمكة ومضت به ومضت السفينة فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصّافات: الآية ١٤١] قال ومرّت السمكة إلى بحر الروم ثم إلى بحر فارس ثم دخلت به إلى البطائح ثم صلدت إلى دجلة ومكث في بطنها أربعين ليلة وهو يقول: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] ثم إن الله عزّ وجل رحمه وقد روي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن

السمكة ذهبت بيونس إلى قعر البحر وهنالك قارون مذ خسف الله تعالى به فسمع تسبيح يونس فقال للملك الموكّل به وبعذابه ما هذا الصوت الّذي أسمع؟ فقال الملك له: هذا صوت يونس بن متّى نبيّ بني إسرائيل أذنب ذنبًا فحبسه الله تعالى في بطن الحوت فهو الذي يسبح فيه، قال قارون للملك: أتأذن لي في كلامه؟ قال: نعم، قال: ادنني منه فأدناه من السمكة فقال قارون: يا يونس ما صيرك إلى ما أرى؟ قال: أذنبت ذنبًا، قال قارون: فهل تعرف ابن عمّي موسى بن عمران قال: نعم، قال: ما حاله؟ قال: مات منذ دهر فبكى قارون بكاءً شديدًا قال: فما فعل هارون قال: فمات قبله فبكى قارون وجزع قال فما فعلت أختهما التي كانت زوجتي قال: ماتت فاشتد حزن قارون وبكاؤه فأوحى الله تعالى إلى الملك الموكّل بعذابه أن ارفع العذاب عن قارون بقيّة أيام الدنيا لتحزّنه على قرابته وذوي رحمه.

رجعنا إلى القصة

ولما طافت السمكة بيونس حتى بلغت دجلة وقبل الله تعالى توبته واستجاب دعوته فأمر الله تعالى الحوت أن تقذفه فنبذته بالعراء وهو مذموم سقيمًا كهيئة الفرخ المنتوف وأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطينٍ فقال رجل لابن عباسٍ: أليس اليقطين هو القرع؟ قال ابن عبّاس ما جعل القرع أحق من البطيخ بل كلّ ما نبت على الأرض فهو يقطين، فكان يونس يستظل بظلّها فهو أصلح لأنّ البطيخ يمكن أكلها والقرع الذي لا يؤكل ولم يبلغنا أنّه كان عند يونس من يصلح له طعامه، قال: فبينما ذات يوم هو غائب عنها إذ سلّط الله تعالى عليها دودة فأكلتها فسقطت ويبست، فحزن يونس حزنًا شديدًا وذكر ما قال الله تعالى وعاتبه في أمر قومه حين لم يذهب إليهم ولم يهتمّ لأمرهم ولم يحزن على أسارى بني إسرائيل في أيدي الأعداء، ثم إن الله تعالى أمرهُ بالخروج من بطن الحوت فقال: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: الآيتان ١٤٦، ١٤٧] قال: فجاء يونس إلى أسارى بني إسرائيل وقال لهم: قد حان وقت فرجكم فاخرجوا معي فقالوا: أنت مصدق عندنا ولكنّا عبيد هؤلاء القوم فأتهم وقل لهم إن أذنوا لنا خرجنا معك فأتاهم يونس وذكر لهم ولملكهم فكذبّوه وقالوا: لو علمنا أنك صادق لفعلنا، وأنا أتيناكم في دياركم وقراكم فسبيناكم فلو كان كما يقول لمنعكم الله تعالى منّا، فطاف يونس فيهم أيامًا يدعوهم إلى الإيمان بالله وإلى تخلية سبيل قومه فأبوا فأوحى الله تعالى إليه قل لهم إن لم تؤمنوا ولم تفعلوا ما أمرتكم به صبحكم العذاب غدًا فأبوا عليه، فخرج منهم فلمّا فقدوه ندموا، فقال عقلاؤهم اطلبوه فإن قد خرج فقد صدق فطلبوه فلم يجدوه فقيل لهم: إنه قد خرج بالعشي فقالوا لبني إسرائيل ما

كان حاله فيكم؟ فقالوا: إنّه كان نبيًا وإنّه لم يقل شيئًا قطّ إلّا كان، كما قال فحزن القوم وأغلقوا باب مدينتهم وفرّقوا بين كلّ والدة وولدها وبين البهائم وأولادها ينتظرون الصبح فلمّا انشق الصبح نظروا إلى عذابٍ قد نزل من السماء فصاحوا وبكوا وشقّوا ثيابهم وفزع القوم وجزعوا وغشيهم العذاب حتّى وجدوا حرّه ولما أن كثر بكاؤهم وصدقت توبتهم رفع الله تعالى العذاب عنهم وبعثوا إلى يونس فأتاهم وبعثوا معه بني إسرائيل والله تعالى أعلم، وعن ابن عبّاس قال: كان يونس قبل أن يبعثه الله تعالى إلى قومه عبدًا صالحًا متعبّدًا يصلّي كل يوم ثلاثمائة ركعةٍ وأنّه بعدما كان من أمر قومه ما كان ساح في الأرض ولحق بالعُبَّاد، وقد ذكر خبر العُبَّاد السبعة الذين رآهم يونس واحدًا واحدًا بطوله قال: وإنّي لم أجد في هذا الوقت أصلًا لهذه الرواية وهو من تطويلٍ فيه أوراق كثيرة، وقد ذكره أبو عبد الله في كتاب الوصايا فيطلب الطالب ذلك الخبر فإنه يجده إن شاء الله تعالى.

باب في ذكر ما كان بعد ذلك من فساد بني إسرائيل وتسليط العدوّ عليهم

قال الله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: الآيتان ٤، ٥] إلى آخر الآية، وقد ذكرنا أن الملك كان في ولد سليمان بعده إلى أبلع الأعرج، ويقال: كان اسمه صديقًا وكان أعرج من قبل عرق النّسا فطمعت الملوك في بيت المقدس لضعفه فسار إليه إلى الجزيرة وكان لتقر يسكن مدينة يقال لها الحضر، وكان يعبد الزهرة فنذر لتقر لئن ظفر ببيت المقدس ليذبحنّ ابنه للزهرة وكان تحت بخت نصر يومئذٍ في قول القتبي وقال بعض أهل الأخبار: كان كاتبه لم يزل ببيت المقدس فأرسل الله تعالى عليه ريحًا فأهلكت جيشه وانفلت هو وكاتبه بخت نصر فلما رجع إلى الحضر[1] قتله ابنه لسبب ما سمع أنه نذر قتله، ثم إن بخت نصر اغتال ابنه فقتله وأخذ الملك وسار إلى بيت المقدس سنحاريب ملك الموصل وسلماعاشر ملك أذربيجان[2] وهو بالعربية سليمان الأعسر فالتقيا بباب بيت المقدس فاختلفا ووقعت الحروب بينهما حتى تفانوا وغنم بنو إسرائيل ما كان في عسكرهما، ثم سار إليهم ملك الروم وملك الصقالب وملك الأندلس[3] فتشاجروا على باب بيت المقدس واقتتلوا وأهلك الله بعضهم ببعض ثم سار إليهم سنحاريب بعدما عصت بنو إسرائيل وخالفوا أمر الله تعالى وكثرت فيهم الأحداث وقتلوا الأنبياء فرغبوا إلى الله تعالى وتابوا فرده الله تعالى عنهم بعدما دخلوا بيت المقدس وجالوا في أسواقها فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: الآيتان ٥، ٦] ثم إنّهم أحدثوا بعد ذلك فسلّط الله تعالى عليهم

---

(١) الحضر: بالفتح ثم السكون، وراء، اسم مدينة بإزاء تكريت في البرية بين الموصل والفرات مبنية بالحجارة، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ٢٦٧.

(٢) أذربيجان: بالفتح ثم السكون، وفتح الراء، وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، وجيم، إقليم واسع مدائنها تبريز، وأرمية، وأردبيل وغيرها. ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ١٢٨.

(٣) الأندلس: محلة كبيرة كانت بالفسطاط، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ١/ ٢٦٤.

بخت نصر بعد أن أرسل إليهم أرميا النبيّ فأخبرهم بما أمر ووعظهم فضربوه وقيّدوه وسجنوه فبعث الله تعالى عليهم بخت نصر وهي الكرة الثانية، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٧] الآية، فقتل منهم من قتل وأحرق بيت المقدس وأسر ذراريهم وساقهم إلى بابل هذا قول القتبيّ وجماعة آخرين. وسنذكر ما كان بعد ذلك إذا بلغنا إلى موضعه وروي عن حذيفة أنّ رسول الله ﷺ قال: إنه لما عصت بنو إسرائيل وقتلوا الأنبياء سلّط الله عليهم بخت نصر ملك بابل فسار إليهم وحاصر بيت المقدس وفتحها وذلك لسبب قتلهم زكريا فقتل على دم زكريا سبعين ألفًا واستخرج من أموالها سبعين ألف عَجَلَةٍ ويقال: مائة ألف عَجَلَةٍ من حليّ بيت المقدس فأوردها بابل قال حذيفة قلت: يا رسول الله لقد كان أمر بيت المقدس عظيمًا قال: أجل بناه سليمان بن داود من الذّهب والدرّ والياقوت وكان الله تعالى قد سخّر له الشياطين يغوصون له ويأتونه بما شاء من ساعته وأن بخت نصر لما سباهم بقوا في يده أسارى مائة سنة، ثم إنّ الله تعالى بعث ملكًا يقال له كورش فردّ أهل بيت المقدس وحليّها إليه وعمّره وأقاموا مائة سنة مطيعين لله تعالى ثم إنهم عصوا الله تعالى فسلّط عليهم ططيوس ويقال قابس بن اسبيانوس الرّومي فغزاهم وَسباهم وحمل حليّ بيت المقدس إلى الرّوم وذلك قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ [الإسراء: الآية ٧] الآية، قال النبيّ ﷺ ثم إن المهدي إذا خرج في آخر الزمان ردّ حليّ بيت المقدس إليه على ألف سفينةٍ وسبعمائة سفينة والله تعالى أعلم والرواية الثالثة في قوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: الآية ٤] هذا ما رواه محمد بن إسحٰق صاحب المغازي قال وكان الله تعالى قد أنزل على موسى بن عمران أن بني إسرائيل يفسدون في الأرض مرتين فكانت بنو إسرائيل يعملون المعاصي ويتجاوز الله تعالى عنهم، فأوّل ما أنزل الله تعالى بهم من الوقعتين أن ملكًا منهم يقال له صديقة وكان صالحًا ناسكًا عادلًا فكان الله تعالى إذا ملّك منهم ملكًا بعث معه نبيًا يعلّمه ويرشده ويوحي الله تعالى إليه بما فيه مصالحهم وكانوا جميعًا على شريعة التوراة فبعث مع صديقة الملك شعيا بن أموص ويقال ابن امصيا وهو الّذي بشر بعيسى وبمحمد عليهما السلام، وكان الله تعالى قد أنزل عليه كتابًا فيه ذكرهما فَمَلَكَ صديقة [صدقيا] بني إسرائيل زمانًا ثم كثرت الأحداث في بني إسرائيل وعظمت فوعظهم وحذّرهم عقوبة الله تعالى فلم يقبلوا قوله فبعث الله تعالى عليهم سنحاريب ملك بابل في ستمائة ألف راية تحت كلّ راية ألف رجل، فأقبل بجنوده حتى نزل حول بيت المقدس وكان صديقة [صدقيا] ملك بني إسرائيل وكان في ذلك الوقت مريضًا قد خرجت في ساقهِ قرحة فجاءه النبي شعيا فقال له: إنّ سنحاريب ملك بابل قد نزل بجنوده فكبر ذلك على الملك صديقة فقال: يا نبيّ الله هل أتاك وحيٌ من السماء فيما حدث فتخبرنا به؟ فقال: لا، ثم إنّ الله تعالى

أوحى إلى شعيا أن قل لملك بني إسرائيل فيوصي وصيّة ويستخلف من شاء من أهله فأتاه فأخبره بأن الله تعالى يأمره أن يوصي ويستخلف من يشاء من أهله فلمّا سمع ذلك صديقة أقبل على القبلة فصلّى وسبّح ودعا وبكى وقال: اللهم ربّ الأرباب وإلٰه الآلهة يا قدّوس القدوس يا رحمٰن يا رحيم يا رؤوف الذي لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ أنت تعلم سرّي وعلانيتي اذكرني بحسن فعلي وقضائي على بني إسرائيل فأسألك أن ترحم عبادك بني إسرائيل ولا تستأصلهم بذنوبهم وكان صديقة رجلًا صالحًا فاستجاب الله دعاءه وأوحى إلى شعيا أن قل لصديقة قد استجاب الله تعالى دعاءك ورحم عباده ونجّاك من عدوّك سنحاريب وقومه وأخّر في أجل خمس عشرة سنة فأتاه شعيا وأخبره فلمّا سمع ذلك ذهب عنه الوجع وخرّ لله ساجدًا، وقال: إلٰهي أنت الّذي تعطي الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء أنت عالم الغيب والشهادة وأنت مجيب دعوة المضطرّين فلك الحمد على ما أجبت من دعائي وتضرّعي، ثم رفع رأسه وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن قُلْ لصديقة أن يأمر من يأتيه بالتين فيأخذ من مائه ويجعله على قرحته ففعل ذلك فشفاه الله تعالى منها، ثم أوحى الله تعالى إلى شعيا أن أخبره بأن الله تعالى يهلك عدوّك ويكفيك أمره فإنّهم يصبحون موتى إلّا سنحاريب وخمسة معه ويقال: أمره أن يأمر بني إسرائيل بالخروج فخرجوا فهزموهم وقتلوهم إلا خمسة نفرٍ منهم سنحاريب وكاتبه فلمّا خرج الناس من غدٍ على الرواية الأولى وجدوا القوم موتى إلا سنحاريب وخمسة معه أحدهم بخت نصر فبعث الملك في طلبهم فأدركوهم وأتوا بهم إلى صديقة فأمرهم فوضعت الجوامع رقابهم، فلمّا رآه خرّ لله تعالى ساجدًا من حين طلعت الشمس إلى وقت العصر ثم رفع رأسه وقال لسنحاريب كيف رأيت ربّنا الذي فعل بكم فقال سنحاريب قد أخبرت بأمر نبيكم وبحفظ الله تعالى لكم ولكنه لم أقبله فنصركم الله عليّ ثم إن ملك بني إسرائيل أمر حتّى طيف بهم حول بَيْت المقدس كذلك سبعين يومًا وجعل يطعمهم كلّ يوم قرصتين من شعير لكلّ رجل منهم، فقال سنحاريب لهم قولوا لملككم القتل خير مما تصنع بنا فأمر بهم إلى سجن القتل فأوحى الله تعالى إلى شعيا أن قل لصديقة فيرسل سنحاريب بعد ذلك لينذروا من وراءهم وقل له ليكرمه ويحسن إليهم، ويبلغهم إلى ديارهم ففعل ذلك بهم، وخلّى عنهم فرجعوا إلى بلادهم فأخبروا قومهم بحالهم وحال بني إسرائيل ثم عاش سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ومات واستخلف بخت نصر كاتبه ويقال: بل كان بخت نصر ابن سنحاريب والله تعالى أعلم ثم قبض الله تعالى ملك بني إسرائيل صديقة بعدما تمّ خمس عشرة سنة فخرجت أمور بني إسرائيل وتنافسوا الملك وقتل بعضهم بعضًا وفشت فيهم الأحداث وبينهم شعيا فهو يعظهم فلا يقبلون منه، فأوحى الله تعالى إلى شعيا أن قم في قومك إني أوحي على لسانك فقام عليه

السلام فأوّل ما تكلّم أن قال الحمد لله رب العالمين ذي الفضل والمنّ والنعمة والطول على بني إسرائيل وعلى جميع العالمين له الأسماء الحسنى والأمثال العليا، وله المجد والثناء ثم قال: يا سماء استمعي ويا أرض أنصتي، ويا جبال أوّبي فإن الله تعالى يريد أن يقصّ شأن بني إسرائيل الذين ربّاهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصّهم بكرامته وفضّلهم على عباده وكانوا كالغنم المهملة الضائعة التي لا راعي لها فآوى الله تعالى شاذتها وجمع ضالتها وجبر كسرتها وداوى مريضها وأسمن هزيلها وحفظ سمينها، فلمّا فعل ذلك بها طغت وبغت وبطرت فتناطحت كباشها وقتل بعضها بعضًا فلم يبق منها عظم صحيح فويل لهذه الأمّة الخاطئة والقوم الظّالمين الذين لا يرون مرجعهم إن البعير ليذكر معطنه فينتابه وإن الحمار ليذكر أَرِيَّهُ فيراجعه وإن الثور ليذكر الرفض الذي سمن فيه فينتجعه وإن هؤلاء القوم ليذكرون من أين جاءهم الْحَيْن والنقمة وهم ذوو الألباب وإني ضربت لهم مثلًا فليستمعوه فقال لهم: كيف ترون أرضًا مواتًا لا عمران فيها ولها ربّ رحيم فأقبل عليها وأحاط حولها ثمّ أنبط نهرًا وشيّد فيها قصرًا وغرس فيها من ألوان الأشجار وألوان الثمار ووكّل بها حافظًا أمينًا قويًّا وانتظر ربّها أن يثمر عليه أرضه فلمّا اطلعت جاء ثمرها كلّها خرّوبًا لا معنى لها، قالوا بيت الأرض هذه قال شعيا فما ترون فيها؟ قالوا: نرى أن يهدم بناؤها ويغور ماؤها ويقطع غرسها فتصير كما كانت أوّل مرة، قال الله تعالى: قل لهما إنّ الأرض أرضكم وإن الجدار حولها ذمّتي وديني وإن القصر شريعتي وإن النهر كتابي، وإن القيم أنبيائي، وإن الغرس عبّادي، وإنّ الخرنوب أعمالهم الخبيثة ألا وإني قد قضيت بقضائهم على أنفسهم. وَوَعظهم بعد ذلك مواعظ كثيرة ذكرها محمد بن إسحٰق ووهب فلم يقبلوا ولما فرغ شعيا من كلامه عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم، فلقيته شجرة فانفلقت له فنادته إليّ يا نبيّ الله فدخل جوفها والتأمت عليه الشجرة وجاءه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فلمّا أدركوه أراهم الشيطان إياها، فجاؤوا بالمنشار وقلعوا الشجرة فقطعوه في جوفها نصفين فضرب الله تعالى على بني إسرائيل الذلّ بعد ذلك ونزع الله تعالى عنهم الملك وطمعت فيهم الأمراء فكانت هذه الكرة أول الوعدين اللذين كان الله وعدهم أن يبعث عليهم عباده وكان وعد الآخرة كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

بابٌ في ذكر فساد بني إسرائيل

في المرة الأخرى قد ذكرنا أنّ بني إسرائيل قد قتلوا شعيا كما ذكرناه وقال بعض الرواة إن النبيّ الذي قتلوه في الشجرة هو زكريّا عليه السّلام والله أعلم، وأمّا فسادهم في المرّة الأخرى كان تكذيبهم أرميا النبي عليه السلام في قول كعب الأحبار وكثير من أهل

الأخبار وقال بعضهم لا بل فسادهم الآخر قتلهم زكريّا وسنذكر ما رواه الفريقان وأما أرميا النبيّ فهو أن الله تعالى ذكر في التوراة خراب بيت المقدس وكان في بني إسرائيل رجل يقال له دانيال الأكبر وهو غير دانيال الّذي سباه بخت نصر فكان يقرأ يومًا التوراة فبلغ هذا الموضع فقال: يا ربّ ومن هذا الذي يخرب بيت المقدس ويهلك بني إسرائيل، فأراه الله تعالى في منامه أنّ ذلك يتيمٌ بأرض بابل يقال له بخت نصر فلمّا أصبح تجهّز بمال عظيم وخرج نحو بابل فأتاها وملكها يومئذٍ سنحاريب فنزل فبعث إليه سنحاريب ودعاه وسأله عن حاله فقال إني كنت نذرت أن أفرق مالًا على اليتامى فجئت إلى أرضك فأفرق المال على اليتامى فجاءه الملك خير وأخذ دانيال في طلب اليتامى لكي يظفر ببخت نصر ولا يظفر به حتى آيس منه ثم إنّ غلامًا لدانيال خرج إلى بعض أشغاله فرأى يتيمًا مريضًا على الطريق قد افترش الرماد من تقذّر الناس إيّاه فقال له: ما حالك فقال له: أنا غلام يتيمٌ كنت أكسب على أمّي فصرت الآن من المرض كما ترى، فقال له غلام دانيال: ما اسمك؟ قال: بخت نصر فجاء الغلام إلى دانيال فأخبره ومضى مع غلامه إليه حتّى غسله وكساه وحمله وقال له: هل لك أحدٌ؟ قال: نعم لي أمٌّ فأتى به أمه وأنفق عليه حتّى برىء وصحّ وكان بخت نصر قبل مرضه يخرج مع غلمان أتراب له من الفقراء فيحتطبون وكانوا قد أَمَّرُوا بخت نصر على أنفسهم فلما صحَّ بخت نصر من المرض قال أحسن إليك، قال: نعم يا سيدي قال: فما رأيك في أن وصلت إلى مكافأتي قال: يا سيدي وكيف أقدر على مكافأتك؟ قال دانيال: أرأيت إن ملكت يومًا بابل وغزوت بني إسرائيل أفلي أمانٌ منك ولأهل بيتي قال: أتسخر منّي يا سيدي، قال: لا، ولكن الجدّ منّي فاكتب لي كتابًا بالأمان واجعل بيني وبينك علامة وأعطيك عشرين ألف درهم. وفي روايةٍ أخرى أنّ دانيال كان يسأل عن بخت نصر حتى دُلَّ أن بخت نصر فتًى في قَرية كذا وكذا، فجاءه فنزل على أمّ بخت نصر وهو غائب في محتطبه فلمّا رجع وجاء وعلى رأسه حزمة حطب فألقاها فدفع دانيال إليه ثلاثة دراهم وقال: اشتر بهذا نفقتنا الليلة ففعل فأكلوا فلمّا أصبحوا أعطاه مثل ذلك وكذلك اليوم الثاني والثالث، ثمّ قال له: أحبُّ أن تكتب لي أمانًا إن ملكت يومًا من الدهر قال بخت نصر: أتهزأ بي؟ قال: لا أسخر وما عليك أن تفعل هذا فقالت أمّه لا يضرك فافعل فكتب له أمانًا، فقال: أرأيت إن جئتك والناس حولك فحيل بيني وبينك فاجعل لي آيةً تعرفني بها، فقال آية ذلك أن تجعل صحيفتك إليّ على قصبة فأعرفك بها فكسا دانيال وأمّه، ثم أعطاها مالًا ورجع، ثم إن بخت نصر عمد إلى الدراهم التي دفعها إليه دانيال، وفي الرواية الأولى نفقها على الغلمان الذين كانوا قد أَمَّروه عليهم واشترى لهم الدواب وكان بخت نصر ظريفًا كاتبًا أديبًا ثم إنه ذهب إلى سنحاريب في أصحابه فانتسب له وكان من الأولاد الأشراف غير أن

مجرى الدهر كان قد غيّر من حاله فقبله وجعل يوجّهه في أموره حتى صار من قوّاده وجعل لا يتوجه في وجهٍ إلّا ظفر فلمّا خرج سنحاريب إلى بيت المقدس خرج معه بخت نصر وهو كاتبه يومئذٍ، فلمّا كان من سنحاريب ما ذكرناه من قبل ورجع إلى بلاده بعد البلاء والحبس وكان معه بخت نصر حتى مات سنحاريب وصار الأمر إلى بخت نصر كما ذكرناه في الروايتين ثم إن بني إسرائيل ظهرت فيهم الأحداث والفساد وكان ملكهم يومئذٍ رجل يقال له ناشية بن أموص، وقد بعث الله تعالى نبيًا يقال له أرميا فجعل يعظهم فلا يقبلون منه فسمع بخت نصر بأمرهم وفسادهم فطمع فيهم بالمسير إليهم، فأوحى الله تعالى إلى أرميا بن خلقيا، وفي رواية وهب إني مهلك بني إسرائيل ومنتقم منهم فقام على صخرة بيت المقدس وأنذرهم فقال أرميا وشقّ ثيابه وحثا التراب على رأسه وقال: يا ربّ ليت أمّي لم تلدني حتى لا أرى هلاك بني إسرائيل وخراب بيت المقدس، ثم إن الله تعالى أوحى إليه أن قل لهم إن لم يرتجعوا ولم يتوبوا عمّا هم فيه سلّطت عليهم عبدة النيران الّذين لا يخافون عذابي ولا يرجون ثوابي فبلّغهم أرميا ذلك فكذبوه وقال: أعظمت على الله الفرية أتزعم أن الله تعالى يخرّب مسجده ويهلك عباده المؤمنين ويسلّط عليهم أحدًا لقد كذبت على الله تعالى. ثمّ إنهم أخذوه وحبسوه فبعث الله تعالى عليهم بخت نصر فجاء بجنوده حتى نزل على باب بيت المقدس وحاصرهم فلمّا طال عليهم الحصار نزلوا على حكمه فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم ولم يترك إلا الزّمنى والهرمى والعجائز وهدم بيت المقدس وخرق التوراة ووطىء الشام كلّها وأفنى بني إسرائيل، ثم إنه طلب دانيال الذي كان أعطاه كتاب الأمان فوجده قد مات فجاءه أهل بيته بذلك الكتاب وفيهم رجل يقال له دانيال بن حزقيل مع نفر من أهل دانيال الأول فأمضى لهم ووفى بعهده لهم، وكان دانيال بن حزقيل خلفًا من دانيال الأكبر في الحكمة وانصرف بخت نصر راجعًا إلى بلاده وحمل معه أموال بيت المقدس وساق معه السبايا فبلغ عدد الغلمان الذين سباهم من أبناء الملوك والأحبار سبعين ألف غلام، وقال هذا ما ذكر الله تعالى حيث قال: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٥] لأنّ سنحاريب لم يدخل بيت المقدس ولما أن فرغ بخت نصر منهم ومن قتلهم قيل له قد كان لهم نبيّ ينذرهم ويخبرهم بأمرك وغلبتك عليهم وهدمك مسجدهم وحرقك كتابهم فكذبوه وحبسوه فأمر بخت نصر فأتى بأرميا النبي من السجن فسأله عن أمره فأخبره أنه كان قد أخبر بني إسرائيل بما أصابهم، فقال له: ومن أين علمت ذلك؟ قال أرميا: أرسلني الله تعالى إليهم بذلك فقال بخت نصر بئس القوم قوم كذّبوا نبيّهم وضربوه وحبسوه، ثم استصحب أرميا وقال له تكون معي لأحسن إليك وإن شئت أقمت ببلادك آمنًا فقد أمنتك فقال أرميا إني لم أزل في أمان الله تعالى ولو أطاعني

بنو إسرائيل لكانوا أيضًا في أمان الله تعالى منك ومن غيرك فترك بخت نصر وخرج بالأسارى معه إلى أرض بابل وحمل معه دانيال بن حزقيل وأهل بيت دانيال الأكبر يحسن إليهم، ويقال إنّ عزير بن شرخيا النّبي كان منهم ويقال: لا، بل كان صبيًّا من أولاد الأحبار في جماعة أولئك الأسارى والله تعالى أعلم، وأقام أرميا ببيت المقدس وهو خراب يبكي عليه وكان قد ساعده في بكائه الخطاطيف وتطوف معه ببيت المقدس فمن ثمّ نُهِيَ عن قتلها قال: وخرجت بقايا بني إسرائيل الذين أفلتوا من القتل والسّبي وكانوا متفرّقين حتى سمعوا بأرميا فاجتمعوا إليه وقالوا له: امض بنا إلى مصر فإنّ هنالك ملكًا نعيش في ظلّه فخرج بهم إلى هنالك وذكر بعض الرواة أنّ بخت نصر سمع بخروجهم إلى مصر وهو يعدهم في نواحي الشام فكتب إلى ملك مصر: إن الذين أتوك عبيدي وهم يؤمنون بي، فابعث بهم إليّ وإلّا سرت إليك وفعلت ببلادك ما فعلت ببيت المقدس فكتب إليه ملك مصر: إنّ الذين أتوني أحرار وأبناء الأحرار ليسوا بعبيد وقد استأنسوا إليّ فلا أدفعهم إليك قال: فقال أرميا لبني إسرائيل الذين هنالك توبوا إلى الله تعالى ممّا كنتم تعملون وإلا سار إليكم بخت نصر فيفعل بكم مثل ما فعل ببيت المقدس فقالوا: إنّ هٰهنا ملك لا يطيقه بخت نصر فقال أرميا: إنّ الله تعالى يسلّطه عليه فيغلبه ثم إنّه سار بهم إلى موضعٍ على شاطىء النيل وقال: إنّه إذا جاء وظفر ووضع سريره هٰهنا وجعل أربعة أحجارٍ تحت التراب وقال: يكون قوائم سريره على هذه الأحجار فلم يقبلوا منه قوله فسار بخت نصر إلى مصر وغلب عليها وأسر من وجد من بني إسرائيل وفيهم أرميا النبيّ، فلمّا رآه قال له: ألم آمن عليك وأعتقك؟ قال: بلى، قال: فما بالك جئت إلى أعدائي فوافقتهم؟ فقال: إني كنت أنصحهم وأعظهم وقد أخبرتهم بأنّك تغلبهم وتملك هذه الناحية وعلامة صدقي أني قد أعلمتهم بموضع سريرك وأخفيت أربعة أحجار تحت التراب تكون قوائم سريرك عليها فأمر بخت نصر بأن ينظروا فإذا هو كما قال فخلّى سبيله ورجع بمن أَسَرَ من بني إسرائيل وخرج إلى بلاده ودار مملكته فكان يكرم دانيال بن حزقيل وأهل دانيال الأكبر وكان لا يصدر في أمر إلّا عن رأيه فحسده المجوس وقالوا لبخت نصر: إنك تكرم هذا الإسرائيلي وهو يخالفك لا يأكل من طعامك فدعاه يومًا إلى طعامه فأبى أن يأكل فحبسه في السجن فبقي فيه إلى أن رأى بخت نصر رؤيا هائلة وفزع منها فدعا كهنته وخاصته وقال: إنّي رأيت رؤيا أفزعتني فعبّروها لي، فقالوا: قصّها علينا، فقال: قد نسيتها من الفزع، فقالوا: كيف نعبّرها لك ولا نعلم ما رأيت فغضب عليهم وقال لهذا كنت اصطنعتكم اذهبوا فقد أجّلتكم ثلاثًا فإن أتيتموني بتأويلها وإلّا قتلتكم وشاع خبر ذلك في الناس فبلغ دانيال الخبر في الحبس فقال لصاحب الحبس اذهب وقل للملك إنّ دانيال يقول إنّ علم رؤياك عندي، فقال: لا تتجاسر على ذلك

فأخاف أن ينالك منه مكروه فقال: لا تخف واذهب إليه فأخبره فذهب وأخبر بخت نصر بقول دانيال فدعا بخت نصر بدانيال فدخل عليه فسأله عن رؤياه فقال: نعم كذا وكذا، وفي رواية أخرى لما قيل له إن دانيال يخالفك فدعا به وبأصحابه من أهل بيت دانيال الأكبر وهم ستة نفرٍ فقال: ألم أكرمكم وأحسن إليك، قالوا: بلى قال: فما بالكم تخالفونني ولا تتبعون ديني؟ فقالوا: إنّ لنا ربًا نعبده وقد أمرنا أن لا نعبد غيره فأمر بخت نصر فحفر لهم حفيرة وألقاهم فيها ومعهم سبعٌ ضار ليأكلهم وتركوهم فيها ثلاثة أيّام ثم أتوهم فوجدوهم سالمين والسبع مفترش ذراعيه عندهم ولم يضرهم بشيءٍ فأخرجوهم من الحفرة وكان القوم فيها ستة نفر وحين نظروا فيها وجدوهم سبعة فلمّا أخرجوهم وجدوهم ستة نفر فقالوا لهم: ومن السابع الذي كان معكم ولم يخرج؟ فقالوا: كان ذلك ملكًا من الملائكة فقال بخت نصر لهم ولدانيال من الذي كان معكم؟ قالوا: ملك من الملائكة بعثه الله تعالى ليدفع عنّا شر الأسد فأكرمهم بخت نصر وردّ دانيال إلى منزلته وقال أهل الرواية الأولى كان هذا بعدما عبّر له دانيال رؤياه. رجعنا إلى الرواية الأولى فلما قال دانيال إنك رأيت صنمًا عظيمًا رجلاه في الأرض ورأسه في السماء أعلاه من ذهبٍ وعنقه من فضة ووسطه من نحاس ورجلاه من حديد وقدماه من فخّارٍ فبينما أنت تنظر إليه إذ جاءه حجرٌ من السماء على رأسه فدمغه وكسره واختلط جميع جواهر بدنه حتى ظننت لو اجتمع الجن والإنس على تمييز بعضه من بعضٍ لم يقدروا عليه وهبت ريح فأذرته وجعل الحجر الذي كسره يربو ويعظم حتى ملأ الأرض كلّها فصِرْتَ لا ترى إلّا السماء وذلك الحجر قال بخت نصر صدقت هو الذي رأيت فما تأويلها قال دانيال: أما الصنم فمثل الزّمان والملك وأمّا رأسه من الذهب فملكك الحسن وأمّا عنقه من فضّةٍ فمثل ابنك بعدك وأمّا وسطه من نحاسٍ فملك آخرين بعده وأما الحديد فملك فارسٍ يكون أشدّ ممّن قبلهم وأمّا الفخّار فإنّه تَضَعُّفُ ملك فيصير كالفخّارة وأما الحجر الّذي جاء من السّماء فدمغ الصّنم فهو نبيّ يبعثه الله تعالى في آخر الزّمان فيقهر الملوك والأديان كلها ويمحقهم ويغلبهم حتى لا يبقى لهم أثر البتة ويبقى أمره وأمته إلى يوم القيامة، قال بخت نصر: ما أعلم أحدًا أعظم يدًا عندي منك بما عبرت لي من رؤياي وأنا أجازيك بإحسانك، وفي روايةٍ أخرى أن بخت نصر لما سأل أصحابه عن رؤياه فلم يقدروا على جوابه قالوا: سل بني إسرائيل الذين قد آثرتهم يعنون دانيال ومن معهم فدعاهم فسألهم فقالوا: لا نعرف تعبير ما لا يذكر لنا فإنه غيبٌ ولا يعرف الغيب إلا الله تعالى قال بخت نصر اذهبوا بهم فاضربوا أعناقهم، فلمّا ذهبوا بهم قالوا: استأجلنا ثلاثة أيّام فأجلهم فشرعوا في الدعاء والصلاة والتضرع إلى الله تعالى ليلهمهم رؤياه فأراهم الله تعالى ذلك في منامهم ويقال: رآها ثلاثة نفر بتعبيرها فجاؤوا إلى بخت نصر

فأخبروه ورأسهم دانيال كما ذكرناه عبّرها ثم لما فرغ بخت نصر بقول دانيال قال له اختر ثلاث خصال إن شئت رددتك إلى بلادك وعمّرت لك ما خربت منها وإن شئت أقمت عندي فأؤانسك وأكرمك وإن شئت كتبت لك ولأصحابك كتاب أمانٍ من حيث كنت من مملكتي فقال دانيال: أمّا ردّك إلى بلادي وعمارتك لها فإنّها بلادٌ كتب الله تعالى عليها الخراب إلى أجلٍ معلوم، وأنت لا تقدر على ذلك الآن، وأمّا كتابك لي بالأمان فلست أحتاج مع أمان الله تعالى إلى أمان غيره وأمّا إقامتي عندك ومؤانستك لي فهذا أوفق لي ولأصحابي الآن قال: فجمع بخت نصر أهله وولده وحشمه وأكابر قومه فقال لهم: هذا رجل حكيم وقد فرّج الله تعالى عنّي الكرب الذي كنت فيه من رؤياي وإنّي وليته أموري فخذوا منه ومن حكمته واقتدوا به وأتمروا بأمره وإن أتاكم رسولان أحدهما منّي، والآخر منه فخذوا بقول رسوله دون رسولي فنزل دانيال منه أكرم منزلةٍ وأدار عليه أمر مملكته فلمّا رأى ذلك عظماء أهل بابل حسدوه على ذلك وجاؤوا إلى بخت نصر فقالوا له: إنه لم يكن على وجه الأرض قوم أعزّ منّا وأهيب في صدور الناس فلا يطمع فينا أحدٌ وإنّا نخبرك بأن الناس قد طمعوا فينا إذ قد داخل الأمور الخلل والضعف منذ ولّيت هذا العبد الإسرائيلي وإن ذلك لضعف دخل في عقلك ورأيك لعجزك عن سياسة ملكك فقال بخت نصر إنّه لم يدخل عقلي ضعفٌ ولا عجزٌ ولكن رأيت رجلًا كريمًا حكيمًا فرّج عني أمرًا كنتم عجزتم عنه وتحيرتم فيه، وإنّي أرى توليته صلاحكم وصلاح ملكي قالوا: أليس هذا الإسرائيلي يزعم أنّ له ربًّا عظيمًا يطلع على الأمور والغيوب، قال بخت نصر كذلك يزعم قالوا فمرنا نتّخذ لك إلـهًا أعظم من إلـهه يخبرنا بالأشياء ويعيننا في الأمور قال بخت نصر: لقد آذنت لكم إن قدرتم على ذلك فخرجوا من عنده وجمعوا الصّناع حتّى اتخذوا صنمًا عظيمًا طوله سبعون ذراعًا وعرضه عشرون ذراعًا من ذهب وكلّلوه بالجواهر الثمينة ثم اتخذوا عيدًا وذبحوا لصنمهم الذّبائح وجمعوا الناس وأمروهم بالسّجود وخدّوا أخدودًا وأوقدوا فيها النّار فمن أبى عن السجود للصنم ألقوه في النّار فجعل بنو إسرائيل الذين كانوا تحت أيديهم يأبون فيلقونهم في النّار فهلك منهم خلق كثير، فقالوا لدانيال ومن معه من خاصّته الذين كان اختصهم بخت نصر بسبب عهد دانيال الأكبر: اسجدوا لإلـهنا فقالوا: إن هذا ليس بإلـهٍ إنّما هو شيءٌ عملته الناس بأيديهم لكن إلـهنا خلقه وخلقكم وكان مرادهم أن يظهر خلافهم ويلقونهم في النار فألقوهم فيها فباتوا في النار حتى أصبحوا وأشرف عليهم بخت نصر من فوق قصره فرآهم في النار وكانوا ألقوهم فيها وهم ستة نفر ويقال كانوا أربعة نفر فرآهم خمسة نفر ورأى صاحبهم الزّائد يروّحهم وله ريش كريش الطّائر فلمّا رأى بخت نصر ذلك امتلأ رعبًا فناداهم وأمرهم بالخروج فخرجوا من الأخدود سالمين، فقال لهم: من الرّجل الخامس أو السابع الذي رأيته معكم؟ قال

دانيال: ذلك ملكٌ وكّله الله تعالى بنا ليدفع عنّا مضرّة النّار، وفي رواية الحسن أن القوم ألقوا دانيال وأصحابه بلا علم بخت نصر، فلمّا رأى بخت نصر حالهم أكثر من إكرامه لهم أولًا، وفي بعض الرّوايات أنّ دانيال لم يكن ألقي في النار بل ألقي أصحابه فيها فلمّا خرجوا أكرمهم بخت نصر وجعلهم مع دانيال ثم بخت نصر رأى رؤيا هي أهول من الأولى ونسيها فدعا عظماء قومه فقال لهم: قد رأيت في مضجعي هذا رؤيا قد هالتني ولم أتحوّل من مضجعي ولكن نسيتها فأخبروني بها فقالوا: إنّك قد اتخذت أسحر الناس فجعلته عند رأسك فهو يريك الأحلام بسحره ويفزعك لينال منك الكرامة فشأنك به فإنّك قد عشت زمانًا لا ترى رؤيا تكرهها حتى صحبك هذا الساحر فقال بخت نصر وليس عنكم إلا هذا قالوا: لا، فأخرجهم من عنده ودعا بدانيال وأخبره برؤياه وبنسيانه لها وسأله هل عندك علمها؟ قال دانيال: أنظر فيها، فقام وصلّى ركعتين ودعا الله تعالى أن يلهمه ذلك فألهمه الله تعالى فجاءه فقال عندي علم رؤياك أخبرني به ربّي قال: رأيت شجرة عظيمةً فروعها في السماء وعليها طير السماء وفي ظلها وحوش الأرض وسباعها كلّها فبينما أنت تنظر إليها قد أعجبك حسنها وما عليها من الطير وفي ظلّها الدّواب إذ أقبل ملك يحمل فأسًا يؤمّ الشجرة فناداه ملك آخر من فوقه إن الله يأمرك أن لا تستأصل هذه الشجرة، ولكن خذ بعضها وأبقِ بعضها فنظرت إلى الملك وهو يقطع عنها أغصانها ويفرّق ما عليها من الطير وما تحتها من الوحوش وبقي جذعها قد تغيّر حسنه وخضرته قال بخت نصر هذه ما رأيت لم يغادر منها شيئًا فما تأويلها؟ قال دانيال له: أنت الشجرة والطير العاكفة على الشجرة أهلك وولدك وحشمك وما كان تحتها وفي ظلّها من الوحوش والسباع فرعاياك الذين في رعايتك وقد غضب الله تعالى عليك بما وافقتهم من عمل الصنم وأمر الملك بأن يهلك ولا يستأصلك بل يبقي بعضك قال بخت نصّر فكيف يفعل الله تعالى بي قال: إن الله تعالى يعرفك قدرته ويبتليك حتى لا يدع صورة من أجناس الخلق إلّا مسخك على صورته فتلبث كذلك سبع سنين فإذا انقضت السبع حولك إنسانًا كما كنت أوّل مرّة قال بخت نصر ولا يقبل منّي توبة إذ قد يبتليني كما ذكرت قال: لا، هذا شيء قضى الله تعالى به عليك فلمّا أخبره دانيال بذلك دخل بخت نصر بيته واعتزل ملكه وأهله وقومه وجعل ابنه مكانه وأمره أن يعمل بتدبير دانيال وأغلق عليه بابه وجعل يبكي سبعة أيّام فغمّه البكاء فطلع على سطح بيته كي يتروّح من غمّه فأنبت الله تعالى عليه ريشًا وزغبًا ومخاليب ومنقارًا وجعله عقابًا يقهر الطيور كلّها حتى يحدث به الناس وقالوا: ظهر في السماء عقابٌ لا يقوم له شيء ثم صوّره في صورة كلّ جنسٍ وكان إذا صار في جنس قهر ذلك الجنس حتى ردّده في الصور كلّها سبع سنين وجعل دانيال يروض رعيّته ويمنعهم من أمورهم شيئًا ويقول: إنّه قد غاب بخت نصر وهو راجع

إليكم عن قريب وذكر وهب بن منبّهٍ أنّ آخر ما حوّله الله تعالى في صورة البعوض فجاء فدخل بيته فحوّله إنسانًا فاغتسل بالماء ولبس المسوح ثم أخذ سيفه مسلولًا وخرج إلى الناس وجمع رعاياه وحشمه، ثم قال: أيّها الناس إنا كنّا نعبد من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا، وقد تبيّن لي من قدرة الله تعالى في نفسي ما علمت أنّه لا إلـه إلا الله إلـه بني إسرائيل وقد آمنت به فمن تبعني على ديني فهو منّي ومن خالفني فبيني وبينه السّيف وأشار بالسيف إليهم وقد أجّلتكم يومي وليلتي فإذا أصبحت فأتوني طائعين ثم إنّه انصرف فدخل بيته فقبضه الله تعالى من ليلته. قال وهب بن منّبه سألني ابن عبَّاس عن بخت نصر فقصصت عليه قصّته فقال: ما شبهت إيمانه إلّا بإيمان سحرة فرعون، قال وهب ثم إنّه لما هلك بخت نصر جلس ابنه مكانه وكان جبّارًا عاتيًا فجعل يأكل في أواني بيت المقدس ويشرب في أوانيها الخمر وكانت الأواني تلك مما عملتها الشياطين لسليمان من أصناف الجواهر فقال له دانيال لا تفعل فإنّ أباك همّ أن يفعل بما فعلته فأخبرته أنّه من مال الله تعالى فأطاعني وتركه فلم يقبل ابن بخت نصر منه وطرده فقالت له أمّه وكانت عاقلةً بئس ما صنعت حين طردت دانيال وقد رأيت يعظمه أبوك وفوّض أموره إليه وكان أبوك أعقل منك وإنه لم يعظّمه إلا لعلمه بنصيحته له وإني أخاف أن تحتاج إليه في بعض الأحيان فلا ينصحك، فقال لأمّه إنه ليس في الأرض رجلٌ أبغض إليّ منه، فقالت: ستعلم غدًا فبينما ابن بخت نصر في عيد له مع عظماء قومه إذ بدت بنتٌ لها كفّ لا ساعد معها ولا صاحب لها وكتبت لهم ثلاث كلماتٍ وغابت عنهم فلم يروها ففزعوا ولم يدروا الكتابة ما هي وتحيّروا فيها فقالت امرأة بخت نصر لابنه لا تطول عليك الحزن فادع دانيال يخبرك ويفرّج عنك فأرسل إليه فدعاه واعتذر إليه من فعله به ثم سأله أن يقرأ ما كتبته الكف، فقال: وزن فَخَفَّ ووعد فأنجز وجمع ففرّق فقال له: وما معناه؟ قال: معناه أن الله وزن عملك فخفّ عنده، وأنّه وعد لكم الملك فأنجز إلى هذه الغاية وأنه جمع أموركم وملككم وهو يفرّق لكم الآن، فقال له: ومتى يكون ذلك؟ قال: إنك تقتل بعد ثلاث ليالٍ فينتقل الملك منك إلى غيرك فقام ودخل بيته ثم دعا أوثق النّاس عنده وقال له: الزم عتبة بابي فلا يمرّن بك أحدٌ إلّا قتلته ففعل ذلك الحارس، فلمّا مضت الثلاثة أيّام قام ابن بخت نصر ليخرج فكان الحارس قد نام فلمّا مرّ به الخبيث أي ابن الملك انتبه الحارس فضربه بالسيف وهو يقول: أنا ابن الملك فقال: كذبت حتى قتله فمرج أمر أهل بابل. ثم إنّه ملكهم بعض ملوكهم فشاور النّاس وقال: ما ترون في أمر بني إسرائيل؟ فقالوا: نرى أن يخرجهم عنّا فإنّه ما أصابنا وملوكنا إلّا منهم وذلك أمر بفضل الله تعالى ألهمهم بما قالوه به فدعا الملك دانيال وقال له: اخرج بقومك عن بلادنا فخرج بهم دانيال وقال لهم الملك: احملوا معكم ما كان حمله بخت نصر من أموال

بيت المقدس فحملوها ورجعوا إلى بيت المقدس سالمين وقد عمره كورش الهمداني وسنذكر قصّته إذا فرغنا من قصّة دانيال. قال وقد روي في الفتوح أن أبا موسى الأشعري حين فتح مدينة السوس[(١)] ودخل قصر ملكها فجعل يفتح خزانته حتى بلغ باب بيت مقفّل فقال: افتحوه فقالوا: ليس فيه شيء من المال قال: وما الذي فيه؟ قالوا: شيء لا حاجة لك به فألحّ حتى فتح له فرأى فيه صخرة عظيمة منقورة كالحوض ورجل ميّت مضطجع فيها كأعظم رجل فقاس موسى أَنْفه فإذا هو شبر فسأل عنه فقالوا: هذا دانيال الحكيم، قال: وكتب أبو موسى[(٢)] إلى عمر رضي الله تعالى عنه فجمع الناس فسأل فلم يعرفوه حتى قال عبد الله[(٣)] بن سلام نعم هو دانيال الحكيم من سبي بني إسرائيل الذين سباهم بخت نصر إلى أرض بابل، قال: وكيف وقع إلى السوس ويقال إنّ أبا موسى سأل أهل السوس كيف وقع دانيال إليكم قالوا: قحط أرضنا فسأل ملكنا ملك بابل أن يبعث إليه بدانيال يدعو لهم فبعثه إليهم فدعا فأرسل الله تعالى عليهم المطر بدعائه فحبسه ملكنا عنده فلمّا مات كفّنه ووضعه في هذا الباب الذي ترى فنحن إذا أصابنا قحط أو بلاء كشفنا عنه ودعونا الله تعالى فيستجاب لنا بسببه، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر رضي الله تعالى عنه فبعث إليه عمر أن أخرجه من البيت وكفّنه بأكفانٍ جددٍ وادفنه فإن من سنّة الإسلام الدّفن ففعل ذلك أبو موسى وخاف أن يستخرجه أهل السوس إذا أخرجه عنهم فأمر بنهر السوس وهو وادٍ عظيم حتّى حوّل عن موضعه وأمر فحفر في الوادي قبره فدفن فيه دانيال وأطبق على الصخرة المنقورة التي هو فيها بالرصاص فلا يضره الماء ثم أجرى الماء عليه فهو الآن هنالك والله تعالى أعلم، قال: قد ذكر أنّ أهل الأخبار قالوا إن تسليط الله تعالى بخت نصر على بني إسرائيل كان عند قتلهم يحيىٰ بن زكريّا، والله تعالى أعلم أي ذلك كان كلٌ قد روى وأما حديث كورش الهمداني وعمارته بيت المقدس فهو أنّ أباه كان ملك همدان ووقعت إليه امرأة من سبي بني إسرائيل فولدت له كورش فلما

---

(١) السوسة: مدينة سوسة بلد بالمغرب، وهي مدينة عظيمة ومن السوسة يخرج إلى السوس الأقصى على ساحل البحر المحيط، ومن السوس الأقصى إلى القيروان وإلى ثلاثة آلاف فرسخ يقطعها السالك، ومن القيروان إلى طرابلس مائة فرسخ ومن طرابلس إلى مصر ألف فرسخ، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣/ ٢٨١.

(٢) أبو موسى الأشعري تم التعريف به.

(٣) عبد الله بن سلام بن الحارث الحبر أبو يوسف حليف الأنصار، أسلم وقت مقدم النبي ﷺ المدينة، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ [الأحقاف: الآية ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: الآية ٤٣] وكان عبد الله عالم أهل الكتاب، وفاضلهم في زمانه بالمدينة توفي سنة (٤٣ هـ) بالمدينة، له ترجمة في ابن الأثير الجزري، أسد الغابة ٣/ ٢٦٤، ابن حجر، الإصابة ٢/ ٤١٢، السيوطي، طبقات الحفاظ ص ٧.

كبر كورش كان يسمع من أمّه حديث بيت المقدس وأخباره وأحوال بني إسرائيل فلما ملك بعد أبيه خرج بالأموال العظام وبالجيوش حتّى ورد بيت المقدس ومعه أمّه، ويقال: بل إن كورش تزوّج امرأة إسرائيليّة فسمعها تحدّث بأحوال بني إسرائيل وأحوال بيت المقدس وما كان من شرفه فحمله ذلك أن خرج إليه بالأموال والصناع ويقال كان معه ثلاثون ألف رجل من البنائين وسائر الفعلة فعمل فيها ثلاثين سنة ويقال أكثر من ذلك حتى عمروها وعمر البلدة كلّها وصيّر المسجد كما كان ذكر له، وروي أنّ أرميا لما كان بمصر وخلّى سبيله بخت نصر جعل يبكي على بيت المقدس ومحالها وكان معه حمار له وعليه سلّة عنب وسلّة تين وزقّ من عصير فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٩] وأمات حماره وأبقى ثماره وعصيره، ثم بعثه فأحيا الله تعالى رأسه وعينيه وقلبه حتى كان ينظر وذلك في أيام عمارة كورش لها فكان أرميا ينظر ثلاثين سنة حتى تمّت عمارتها، ثم إن الله تعالى أحيا جسده فدخل بيت المقدس ورأى أهلها فيها ثم قبضه الله تعالى إليه بعد سنتين من عمارتها، قالوا: وهذا الذي ذكره الله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٩] إلى آخر الآية، وقال الذين رووا أنّ دانيال رجع إلى بيت المقدس بمن معه من بني إسرائيل وأنه أقام فيه ومن معه من بني إسرائيل بأحسن حال ثم قبضه الله تعالى وخلّف بعده خلوفًا فغيّروا وبدّلوا فسلّط الله تعالى عليهم من أهلكهم فهو قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٧] وقال بعض الناس: لا بل إن عزير النبيّ هو الذي رجع ببني إسرائيل إلى بيت المقدس بعد ابن بخت نصر والله تعالى أعلم بالصّواب.

بابٌ في ذكر عزير بن شرخيا ويقال ابن شروخا وما كان من أمره عليه السلام(١)

وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: كان عزير بن شرخيا من أبناء الأنبياء وكان قد أحكم التوراة فلم يكن في زمانه أحد أعلم بالتوراة منه وكان في سبأ بخت نصر غلامًا حدثًا فلمّا بلغ أربعين سنة نبأه الله وأنه كان ببابل بقرية يقال لها سابراباذ وكان له ضيعة بقرية أخرى يقال لها دير هرقل ويقال بل خرج في حاجةٍ له إليها فمرّ في طريقه بقريةٍ خربة، وقد قام وقت الظهيرة فأصابه الحر فنزل بعض بساتينها وكان معه سلّة من عنبٍ وأخرى من تين وزقّ من عصير فوضعها وربط حماره واستلقى مستندًا إلى شجرة ينظر إلى خراب القرية ورآها خاوية على عروشها قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٥٩] ونقلها إنكارًا للبعث واستبعادًا منه لعمارة تلك القرية بعد خرابها وهلاك أهلها فبعث الله تعالى ملك الموت فقبض روحه فأماته هنالك مائة عام، فلمّا تمت المائة أحيا الله تعالى رأسه وقلبه وعينيه ليفهم وينظر، ثم خلقه وركّب أعضاءه وكساه اللّحم والجلد وهو ينظر إلى ذلك فلما تمّ جسمه وحياته جاءه ملك فقال له: يا عزير كم لبثت ويقال أتاه نداءٌ من فوقه ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٩] وذلك أنّه نام عند الظهيرة وبعث آخر النّهار والشّمْس مرتفعة فقال له الملك: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٩] يعني العنب والتين والعصير، وانظر إلى حمارك الميّت فنظر فإذا عظامه قد بليت وهي بيض تلوح، فأمرها الله تعالى حتى تدبّ بعضها إلى بعض أو تصل كلّ واحدة بصاحبتها والتأمت الأعضاء والمفاصل ثم أنبت الله تعالى عليها العصب والعروق ثم اللحم ثمّ كساها جلدًا، ثم دبّ الشعر ثم نفخ فيه الروح فقام قائمًا ينهق فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٩] ثم إنّه ركب حماره وأتى منزله فلمّا دخل القرية لم يعرف أحدًا ولم يعرفه فلما أتى داره لم يرها

(١) انظر تفاصيل قصة نبي الله عزير (عليه السلام) في الثعلبي: العرائس ص ١٩٠ وما بعدها.

كما كانت ورأى عجوزًا عمياء قاعدة على الباب قد أتى عليها مائة وعشرون سنة فسألها وقال: أهذا منزل عزير؟ قالت: نعم وبكت وقالت: ما رأيت أحدًا يذكره منذ سنين، فقال: أنا عزير قالت: يا سبحان الله إنّا قد فقدنا عزيرًا منذ مائة سنة، قال: أنا العزير قالت: وإن عزيرًا استجاب الدعوة فادع الله تعالى أن يردّ عليّ بصري حتى أعلم صدقك، فدعا ربّه عزير ومسح عينيها فردّ الله تعالى عليها بصرها، فلما نظرت إلى العزير قالت: أشهد أنك العزير وكانت المرأة مولاة لهم قد ربّت عزيرًا ثم إنها انطلقت إلى مجلس بني إسرائيل وفيهم ابن العزير ابن مائة وعشر سنين وبنو ابنه شيوخ فقالت لهم: هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت: إني فلانة العمياء مولاتكم دعا لي عزيرٌ فردّ الله تعالى عليّ بصري وشفاني فنهض الناس فلمّا انتهوا إلى العزير وسألوه فأخبرهم أنّه عزير فقال ابنه لأبي شامة مثل الهلال بين كتفيه فأرنها فكشف له فرآها فإذا هو عزير، فقال القوم: لم يكن في بني إسرائيل أحد أعلم بالتوراة منه وقد ذهبت بعد حرق بخت نصر لها، فلم يبق لنا كتاب فإن كنت عزيرًا فاقرأ لنا التوراة فقرأها لهم من ظهر قلبه فقالت اليهود بعد ذلك عزير ابن الله قال ابن عبّاس كان عزير يجلس في مجلس وهو شاب لأن الله تعالى كان قبضه وهو ابن ثلاثين سنة وبعثه كذلك وكان ابنه ابن مائة سنة وعشرين سنة، وبنو ابنه مشائخ كلهم فكأنّه آية للناس أي أعجوبة قال ابن عبّاس وكان عزير أوّل من تكلّم في القدر وسأل ربّه عنه وذلك أنه قال: يا ربّ إني لأعجب كيف سلطت أعداءك الكفرة على عبادك المؤمنين وأبناء أنبيائك حتى قتلوهم وأخربوا بيتك ومسجدك وحرقوا كتابك المنزل فقال الله تعالى: «يا عزير إنهم عصوني فإذا عصاني من عرفني سلطت عليه من لا يعرفني». فقال عزير: يا ربّ إن شئت أن لا تعصى ما عصيت، وإن شئت أن تطاع لأطعت فقال الله تعالى يا عزير القدر سرّي فلا تدخل فيه وويلٌ لمن سأل عن سرّي فانتهى عزير حينًا، ثم إنّه عاود ربّه وقال إلٰهي اشتبه عليّ أمري، فقال الله تعالى: وما الذي اشتبه عليك؟ فقال: تسليطك عبدة النيران على أوليائك وأصفيائك حتى قتلوهم وأسروهم وخرّبوا بيتك وحرقوا كتابك الذي جاء به موسى فكيف هذا يا ربّ، قال الله تعالى: يا عزير إن بني إسرائيل انتهكوا محارمي وقتلوا أنبيائي فسلّطت عليهم من لا يرجو ثوابي ولا يخاف عقابي فانتقم منهم فيكون أبلغ في العقوبة فإني لو سلّطت عليهم غيرهم لم يبلغوا من عقوبتهم ما بلغ هؤلاء؟ قال عزير: يا ربّ أنت حكمٌ عدلٌ لا تجور وقد كان في بني إسرائيل من لم يركب الذنب فكيف أخذت العامة بدعوة الخاصة والبريء بذنب المجرم قال الله تعالى: يا عزير اخرج إلى فلاةٍ من الأرض حتى يأتيك أمري فخرج إليها فأرسل الله تعالى ملكًا فقال له: يا عزير هل ترى أَمْسًا؟ قال: لا، قال: أتقدر أن تكيل كيلًا من نورٍ أو تزن مثقالًا من ريح؟ قال: لا، قال: فكذلك لا تقدر أن تعلم سرّي

وأن تصل إلى أصل علمي فانتهِ من مقالتك فانتهى عزير مدّة ثم إنّه راجع ربّه وقال: يا ربّ كيف قدّرت الذنوب على عبادك ثم عاقبتهم بها؟ فقال الله تعالى: يا عزير القدر سرّي وويل لمن يسأل عن سرّي ولئن لم تنته عمّا نهيتك عنه لأمحو اسمك من ديوان الأنبياء فانتهى عزير حينًا، ثم إنّه عاود ربّه بمثل مقالته فمحا الله تعالى اسمه من ديوان الأنبياء، ثم إنّ الله تعالى قال له: اخرج إلى بعض الصحاري فخرج فسلّط عليه الحرّ حتى ضجر منه ثم رفعت له شجرة فأتاها ووجد عندها عينًا من ماء فاغتسل منها ونام في ظل الشجرة وكان هنالك بيت نملٍ فقرصته نملة منها فَدَلَكَ إحدى رجليه بالأخرى فقتل نملًا كثيرًا وقيل إنه لما انتبه أحرق بيت النمل فأوحى الله تعالى إليه يا عزير لم أحرقت بيت النمل، قال: لأنه قرصني منهن نملة قال الله تعالى: إنما كان ذلك من نملة واحدة فلم أهلكت الآخرين فقال: يا ربّ لأن التي قرصتني بسبب الآخرين، فعلم عزير أنّ ذلك مثل ضربه الله تعالى له في إهلاك بني إسرائيل بذنب المجرم منهم، ثم أوحى الله تعالى إليه وقال يا عزير زعمت وقلت إنّك حكمٌ عدلٌ لا تجور فلم عذّبت العامة بذنب الخاصة اعلم يا عزير إني إذا أهلكت قومًا بذنب المجرمين منهم فإنّي أعاقب المجرم بمعصيته وأما البريء فإني قبضته إلى رحمتي قبضًا لطيفًا فيصير إلى رحمتي فلم أكُ ظلمته إذا عرضته عمّا أصابه قال العزير: كذلك حكمك يا ربّ وأنت حكيمٌ عدلٌ قال: وقد روى أبو عبد الله في كتاب التوحيد في باب القدرية مناظرة عزير ربّه في القدر وذكر حديثًا طويلًا وهو موجود ولم أكتبه والله أعلم بالصواب.

بابٌ في ذكر زكريا ويحيىٰ عليهما السلام(١)

قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ [آل عِمرَان: الآيات ٣٣ ـ ٣٥]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾ [مريَم: الآية ٢] إلى سائر ما في القرآن من ذكرهما. قال أهل الأخبار كان أبو زكريّا اسمه آذن وكان من أبناء الأنبياء وكان عمران بن ماثا أبو مريم من ولد سليمان بن داود وكان تحته حنة بنت فاقود أم مريم، وكانت لها ابنة أكبر من مريم تسمّى ايلشباع تزوج بها زكريا وأن حنّة أم مريم كبرت وأيست من الولد مع ابنتها التي عند زكريا فبينما هي ذات يوم في ظل شجرةٍ إذ نظرت إلى طائر يزقّ فرخه فاشتهت الولد فدعت الله أن يهب لها ولدًا فحاضت من ساعتها فلما طهرت أتاها زوجها فحملت، فلمّا ظهر الولد قالت: لئن نجاني الله تعالى سالمة ووضعت ما في بطني لجعلته محررًا والمحرّر هو الّذي لا يعمل للدنيا وكان يشتغل بعبادة الله تعالى وخدمة بيت المقدس فذلك قولها: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ﴾ [آل عمران: الآيتان ٣٥، ٣٦]، ﴿وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٦] وسمّتها مريم وحزنت إذا كان المحرم للمسجد ينبغي أن يكون غلامًا فذلك حيث تقول: ﴿إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٦] يعني في المسجد فإن الأنثى نصيبها الحيض وأمور لا يجوز لها الكون في المسجد، ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٦]. قال ابن عبّاسٍ قال رسول الله ﷺ كلّ مولود يولد ينخسه الشيطان نخسة فلذلك يستهلّ إلا عيسى ابن مريم حفظه الله تعالى لدعاء مريم ثم إنها لفتها في خرقة وجاءت بها إلى بيت المقدس عند الأحبار والعلماء وكان رأس الأحبار زكريّا وهو كان يكتب التوراة وهو صاحب بيت المذبح وصاحب القربان فلما جاءت أمّها بها إليه

(١) انظر تفاصيل قصة نبي الله زكريا (عليه السلام) في الثعلبي، العرائس ص ٢٠٧.

أوحى الله تعالى إلى زكريا أنّي قد قبلتها وإن كانت أنثى، قال فرغب فيها الأخبار وقالوا: إنّ لها لشأنًا إذ قبلها الله تعالى بدل الغلام فتساهموا عليها وقال زكريا: أنا أولى بها فإنّ أختها عندي قالوا: ليس هذا بالقرابة، فاستهمّوا بالقرعة فخرجت سهم زكريا فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٤] وذلك أنّهم جمعوا أقلامهم الّذين يكتبون بها ثم غطّوها وقالوا لبعض خدم بيت المقدس من الغلمان المحرّرين الذين لم يبلغوا الحلم أدخل يدك فأخرج منها قلمًا، فأدخل الغلام يده فأخرج قلم زكريا، فقالوا: لا نرضى حتى نلقي أقلامنا في الماء فمن طفا قلمه مع جرية الماء ولم يجرِ به الماء فهو يتكفّل بها فطفا قلم زكريًا قالوا: نلقيها ثانية، فمن جرى الماء بقلمه فهو أولى بها فألقوا أقلامهم فجرى الماء بقلم زكريا ثم جاء بها إلى منزله إلى عند أختها ايلشباع حتى فرغ من فطامها وشبّت وصلحت لأن تكون في المسجد ثم بنى لها محرابًا أي غرفةً في المسجد وجعل بابها في وسطها فلا يصعد إليها أحد إلّا بسلّم وكان زكريًا يغلق عليها الباب ويأتيها بما يصلحها حتى بلغت، وكانت إذا حاضت أخرجها زكريّا إلى منزله عند أختها أم يحيىٰ فإذا ظهرت واغتسلت ردّها إلى محرابها وكان زكريّا يرى عندها في الشتاء ثمار الصيف من العنب وغيره، وفي الصيف ثمار الشتاء وكان يأتيها بها جبرائيل فيقول لها: أنّى لك هذا في غير حينه ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٧] تعالى يأتيني به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٧] قال فطمع زكريا في الولد فقال إن الّذي يأتي مريم بفاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصّيف في الشتاء يقدر أن يهب لي ولدًا في غير حينه فعند ذلك دعا زكريا ربّه ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٨] قال: ودعا بهذا الدعاء لثلاث بقين من محرّم وذلك أنّه اغتسل وابتهل في الدعاء بقول الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: الآيات ٣ - ٦] فاستجاب الله تعالى له وكان زكريا وامرأته دخلا في السنّ، فبينما هو قائم يصلّي في المحراب وهو بيت المذبح إذ هو برجلٍ عليه ثياب بيض وهو جبرائيل فقال يا زكريا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: الآية ٣٩] أي بولدٍ اسمه يحيىٰ وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٧] لأنه لم يسمَّ باسم يحيىٰ قبله وقوله: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٩] أي لا يأتي النساء لعقبه، ويقال: كان لا يحتاج إلى النساء وكان شيخنا يقول: لا يجوز ذلك في الأنبياء لأنّه عيب شديد في بني آدم، ولا يجعل الله تعالى مثل ذلك العيب في أنبيائه فيعيبهم به عدوّ لهم

وأيضًا فإنّه لو كان لا يحتاج إلى النساء لكان لا يكون له مدحٌ في ترك الزنا ولا يستوجب له ثوابًا والحصور هو الفعول بمعنى الفاعل أي الحاصر نفسه يحصرها أي يمنعها عن الفواحش ونبيًّا من الصّالحين ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: الآيتان ٨، ٩] وهو يفعل ما يشاء إن شاء وهب الولد في حال الشباب وإن شاء رزق في حال الشيب ثم قال له: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريَم: الآية ٩] وذلك أعجب من خلق الولد من الشيخين، ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤١] أي علامة أعرف أن امرأتي قد حملت، ولم يسأل العلامة على صدق وعد الله تعالى حاشاه عن ذلك ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: الآية ٤١] وقال: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريَم: الآية ١٠] ثم إن امرأته إيلشباع بنت عمران حاضت وطهرت فأتاها زكريا فمن بعد ذلك حملت وهو لا يقدر على الكلام من مخاطبة الناس وأمور الدنيا وإذا أراد أن يذكر الله تعالى أنطق لسانه فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: الآية ٤١] أي إشارة ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ [آل عمران: الآية ٤١] في تلك الأيام ﴿كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: الآية ٤١] لأنه كان يقدر على ذلك ومعنى قوله: سويًا أي صحيحًا من غير خرسٍ، فإذا رأيت تلك العلامة فاعلم أن امرأتك قد حملت فخرج على قومه من المحراب أي بيت المذبح فأوحى إليهم أي أشار، ويقال: كتب لهم على الأرض أن سبّحوا بكرةً وعشيًّا ثم إنّ امرأته ولدت يحيىٰ وشبَّ وأعطاه الله تعالى الحكمة فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريَم: الآية ١٢]، قال ابن عبّاس وذلك أنّ يحيىٰ مرّ بغلمان يلعبون على شاطىء بالطين والماء فدعوه وقالوا: يا يحيىٰ تعال حتى نلعب فقال: سبحان الله ما خلقنا للّعب وكان حينئذٍ ابن أربع سنين فكان يحيىٰ وابن خالته عيسى وقد ذكر بعض الرواة أنّ مريم حملت بعيسى في الأيّام التي حملت أختها بيحيىٰ وكانت مريم لم تشعر بحمل أختها ايلشباع ولا ايلشباع بحمل مريم فدخلت مريم على أختها يومًا من الأيّام فقالت لها أختها: يا مريم هل شعرت أني قد حملت، فقالت مريم: وهل شعرت أني أيضًا حامل؟ قالت: أنت إذًا تلدين الرّسول الذي بُشرنا به في التوراة: إنه يولد ولدٌ من غير أب وإنها لما دخلت على أختها قالت لها: يا مريم إنّ الذي في بطنك أفضل من الذي في بطني، قالت مريم: وكيف عرفت ذلك؟ قالت: لأنّ الذي في بطني يسجد للذي في بطنك كلما التقينا، وقال آخرون: لا بل كان بشارة الله لمريم بعيسى بعد ولادة يحيىٰ بثلاث سنين ولذلك ذكر الله تعالى ذلك بعد قصّة يحيىٰ فقال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ من المعائب والفواحش إلى قوله: ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عِمرَان:

الآيات ٤٢ ـ ٤٥] قال كانت أيّام يحيىٰ وعيسى معًا وكان قصّتهما وأمورهما مختلطة بعضها ببعض إلّا أنّي أذكر قصّة زكريّا ويحيىٰ بتمامها أوّلًا ثمّ أصير إلى ذكر عيسى ليكون أسهل وأنّه لمّا كبر يحيىٰ وآتاه الله تعالى الحكمة والنبوّة كما ذكرناه أنّه كان أعبد أهل زمانه وأشدّهم جهدًا وأوفرهم عبادةً وكان لا يلبس إلّا المسوح، وذكر أنّه دخل بيت المقدس وهو صبيّ فرأى العبّاد فيه وقد خرّقوا تراقيهم وأدخلوا فيها السلاسل وأوثقوها بالسواري ولبسوا المسوح والبرانس فرجع إلى أمّه وقال: يا أمّاه اتخذي لي مِدْرَعة من صوفٍ ومسح وبرنسًا كما رأيته للرهبان فقالت يا بنيّ إنّك صبيٌّ ضعيف لا تحتمل ذلك ولا يحتمل جسدك لباس المسوح، فقال: لا بد من ذلك فاعتدّت له ما أراد فلبس المسح وألقى البرنس على وجهه ودخل بيت المقدس يتعبّد مع العبّاد لا يأكل ولا يشرب إلّا قليلًا حتى اغتمّ أبواه لما يحمل على نفسه من ثقل العبادة وما داخل جسمه من النحول، فأتاه أبواه فقالا له في ذلك فقال: لا تمنعاني مما أنا فيه، ويروى أنه كان يبكي حتى أثّر الدمع في خدّيه قال: فاتخذت له أمّه قطعتي لبد فشدّتهما على خديه لتسيل الدموع على اللبدتين، ويروى أنه نزع مسحه يومًا من الأيام فنظر إلى ضعف بدنه ونحول جسمه رقّ لذلك، فأوحى الله تعالى إليه يا يحيىٰ أتهتّم لنحول جسمك والله لو نظرت نظرةً إلى النار لصغر عندك كلما أنت فيه، ويروى أن أباه زكريّا كان إذا أراد أن يعظ الناس نظر في مجلسه، فإن رأى يحيىٰ لم يذكر جهنم لما علم أن قلبه لا يحتمل ذلك، وإذا لم يره ذكرها قال: فبينما هو يعظ الناس نظر هل يرى يحيىٰ فلم يقع نظره عليه وكان يحيىٰ في غمار النّاس قد أدخل رأسه في مدرعته فقال زكريّا: حدّثني جبرائيل أنّ في النار جبلًا يقال له سكران وفي ذلك الجبل وادٍ يقال له غضبان يغضب بغضب الرّحمٰن وفي ذلك الوادي جبٌّ عميق عمقه مائة عام، وفي ذلك الجبّ توابيت من نار في تلك التوابيت صناديق من نار، وفي تلك الصناديق لحفٌ من نار فلمّا سمع ذلك يحيىٰ صاح صيحةً وهام على وجهه فنزل زكريّا من مجلسه ودخل على امرأته وقال: يا أمّ يحيىٰ أدركي يحيىٰ فقد هام على وجهه وخرجا في طلبه ثلاثة أيّام ثم إنهما وجداه في اليوم الرابع عند عقبة من عقبات بيت المقدس قاعدًا عند عين من ماء قد دلي في الماء شاخصًا ببصره إلى السماء، فأتياه وبكيا فقالت أمّه: يا يحيىٰ انصرف معنا إلى المنزل، فقال: يا أمّاه وما حاجتك إليّ؟ فأقسمت عليه فرجع معهما وأنّها هيّأت له طعامًا لتفطّره والطعام من العدس ثم فرشت له فراشًا ينام عليه فأقسمت عليه أن ينزع المسح ويلبس مدرعة اتخذت له من صوف ففعل، وأكل من الطعام ونام على ذلك الفراش فذهب به النوم ولم ينتبه إلى أن فاته ورده من الليل فلما انتبه نادى أمه فقال: يا أمّاه هذا فعلك ردّي عليّ مدرعتي المسيحية فلا حاجة لي في مدرعتك هذه، قال زكريا لأمّه يا أم يحيىٰ دعي ابني يعمل ما

يشاء، لعلّه ينال في الآخرة مراده وروي أنّه لما كثر بكاؤه واجتهاده قال له أبوه زكريّا: يا بنيّ إنّي سألت الله تعالى أن يهب لي ولدًا يكون قرّة عين لي وقد نغّصت علينا عيشنا بما نراك من كثرة البكاء والحزن، فقال له: يا أبت ألست حدثتني أن جبرائيل حدّثك أن بين الجنّة والنار مفازة من نارٍ لا يطفئها إلا الدمع، قال: بلى يا بنيّ قال: فدعني أبكي لعلّي أطفئها قال زكريّا: يا بنيّ إنّه يحقّ لك البكاء وكان يحيىٰ يصحب عيسى ما يفارقه إلا قليلًا، لأن عيسى كان صاحب الشرع فكان يحيىٰ يلزمه العمل بشريعته فذكر أنهما إذا دخلا قرية نزل عيسى على الفجار ونزل يحيىٰ على الأبرار فقيل لهما: ما بالكما؟ قال عيسى: أنا طبيب أعالج المرضى فإذا دخلت قرية طلبت المريض لأداويه، وروي أنّهما التقيا يومًا قال عيسى ليحيىٰ: تلقاني غائبًا كأنّك آيسٌ من روح الله تعالى، فقال له يحيىٰ: وتلقاني ضاحكًا كأنك آمن مكر الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليهما: أني كما قال عيسى لا كما قال يحيىٰ، وفي رواية أخرى أن الله تعالى أوحى إليهما أنّ أحبّكما إليّ أحسنكما ظنًّا بي، فأمّا زكريا فإنّه قتله اليهود وقد اختلف في سبب قتله فالأشهر أنه قتل بسبب مريم لما ظهر بها الحمل وكان لا يدخل عليها غير زكريّا فاتهمت اليهود زكريّا وقالوا: إنّه ركب منها فاحشةً وأحملها فقصدوا قتله فهرب منهم فاستقبلته شجرة فنادته إليّ يا نبيّ الله تعالى، فانصدعت له حتى دخل جوفها وجاء إبليس فأخذ بهدبة ثوبه حتى بقيت خارج الشجرة، فلمّا جاء الّذين يطلبونه قالوا لإبليس: هل رأيت شيخًا من هيئته كذا وكذا؟ قال: نعم، وما رأيت أسحر منه إنه فلق هذه الشجرة بسحره ودخلها فكذبوه فقال: هذه هدبة ثوبه فإذا هم بها فعَرفوها فأتمروا فيما بينهم أن يحرقوا الشجرة، فقال إبليس: شقّوها بالمنشار فشقوها وشقّوا زكريا فيها، وروي عن ابن عبّاسٍ أنّ النبيّ ﷺ قال: رأيت ليلة أُسْرِيَ بي زكريّا في السماء فقلت له بعد ما سلّمت عليه: يا أبا يحيىٰ أخبرني كيف قتل بنو إسرائيل ابنك، قال: أخبرك يا محمّد إن ابني يحيىٰ كان خير أهل زمانه وكان أجملهم وجهًا وكان حصورًا لا يأتي النساء، وكان وصفه الله تعالى ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: الآية ٣٩] فهمّته امرأة ملك بني إسرائيل وكانت بغيًّا فأرسلت تراوده عن نفسه فعصمه الله تعالى فأبى عليها فعزمت على قتله وكان لهم عيد يخرجون فيه كلّ عام فكان الملك إذا وعد لا يخلف فخرج إلى الصّيد فشيّعته امرأته وكان بها معجبًا فقال الملك: سلي ما شئتِ ولا تسأليني شيئًا إلّا أعطيتك، قالت: أريد يحيىٰ بن زكريا ودمه، فقال الملك: هو لك، ولم يدر أنّها تسارع إلى قتله فبعث جلاوزته حتى أخذوا يحيىٰ وهو محرابه يصلّي وأنا إلى جنبه أصلّي فأخرجوه إليه فذبحوه في طستٍ وحملوا رأسه ودمه إليها، فقال النبيّ ﷺ: قلت لزكريّا فما بلغ من صبرك؟ قال زكريّا ما التفت من صلواتي فلما وضع الرأس بين يديها خسف الله تعالى بالملك وأهله وحشمه الأرض فاجتمعت

اليهود وقالوا: قد غضب إلـه زكريا لأجله، فتعالوا نغضب لملكنا فنطلب زكريا فطلبوني فهربت منهم فعرضت لي شجرة وذكرت قصّة دخوله فيها وقطعهم أباه بالمنشار كما ذكرناه من قبل، قال النبي ﷺ قلت لزكريّا: هل وجدت للمنشار مسًّا قال: لا، قال: وسمعت شَيْخي رحمه الله تعالى يقول: روي أنّه لمّا وصل المنشار إلى رأس زكريّا عض على نواجذه حتى وصل إلى دماغه فلم يطق أن يصبر فأَنَّ أَنينًا، فناداه الله تعالى يا زكريا اصبر على ما قضيت على رأسك، فإن كان منك أنينٌ آخر لم أبال أَنْ أهدم السمٰوات والأرضين كلّها فصبر زكريا حتى قطع نصفين وقال وهب: إن الّذي قطع بالمنشار هو شعيا النبيّ كما ذكرناه من قبل، وإن زكريّا مات موتًا والله تعالى أعلم، قال: فإن قتل في سبب مريم فإنّ ذلك كان قبل ولادة يحيىٰ وعيسى اللهم أن يقول إن ولادة عيسى كانت بعد ولادة يحيىٰ كما ذكرناه من بعضهم وإن قتل في سبب يحيىٰ كما رويناه عن ابن عباسٍ عن النبيّ ﷺ وكان ذلك بعد عروج عيسى عليه السلام إلى السماء لأن أكثر أهل الأخبار ذكروا أن عيسى رفع إلى السماء، ويحيىٰ باقٍ بعده والله تعالى أعلم وأمّا قتل يحيىٰ فقد روينا في خبر النبي ﷺ أنه قتلته امرأة الملك بسبب الذي ذكرناه، وقال أهل الأخبار إنّه كان في ذلك الزّمان ملك يقال له أُخب وله امرأة يقال لها أزبيل وكانت خبيثة قتّالة للأنبياء وكان لها ابنة من ملك آخر قبل أُخب فلمّا كبرت أزبيل خافت أن يتزوج الملك أُخِب عليها امرأة أخرى فيصير أمر الملك إليها فعرضت ابنتها فكانت جميلة على الملك أُخِب ليتزوجها فقال الملك: حتى أسأل هل يجوز لي نكاحها أم لا؟ فبعث إلى يحيىٰ فسأله فقال يحيىٰ: إنّها ربيبتك فلا تحلّ لك فقال لامرأته إنّ يحيىٰ نبيّ الله تعالى لا يأذن لي في نكاحها فنقمت الخبيثة على يحيىٰ وقالت: من لنا يأتي بيحيىٰ ثم إنّها دعت اللّعابين وكان الملك مولّعًا بذلك فأمرتهم أن يلعبوا بين يده، وقالت: إذا قال لكم الملك سلوني حاجتكم فقولوا نريد دم يحيىٰ بن زكريّا ولا تقبلوا غيره، ففعلوا وقالوا: نريد دم يحيىٰ فقال سلوني غير هذا، فقالوا: لا نسأل غير هذا، فقال لهم نسأل الملك سلوني أعطيكم ما تسألون وكان الملك إذا وعد شيئًا فأحلف أو قال قولًا فظهر كذبه عزلوه فخاف الملك على ملكه وقال لكم ذلك فبعثت المرأة إلى يحيىٰ وكان في محرابه يصلّي فذبحوه وحزّوا رأسه فحملوه في طستٍ حتى جاؤوا به إليها وقيل لا بل إنّ المرأة زينت ابنتها وبعثتها إلى الملك لتخدمه وتقوم على رأسه وتسقيه إذا شرب وأمرتها أن تتعرض له ثم إن الملك شرب يومًا وسكر فنظر إلى ابنة زوجته في جمالها وهيئتها وزينتها فقصدها فامتنعت عليه وقالت: لا أطاوعك حتى تقضي حاجتي قال: كلّ حاجة لك مقضيّة، قالت: أريد دم يحيىٰ بن زكريّا قال: هو لك، فلمّا خرجت من ساعتها وجاؤوها بيحيىٰ فأمرت به فذبح بين يديها في طستٍ من ذهب وجعل دمه في قلّة ويقال: لا بل إنها

قالت: لا أطاوعك حتى تقضي حاجتي قال: وما حاجتك؟ قالت: رأس يحيىٰ بن زكريّا فنادى الملك من هٰهنا عليّ برأس يحيىٰ بن زكريّا فذهب أعوانه فأخذوه وذبحوه وجاؤوا برأسه في طستٍ فلمّا وضع بين يديه طاوعته المرأة فعانقها وباشرها والرأس ينادي في الطست إلا أنها حرام لا تحلّ لك إلا أنّها حرام لا تحل لك، فخسف الله تعالى بهم الأرض أعني الملك وابنة امرأته، وقال بعض الرواة كان مقتل يحيىٰ قبل رفع عيسى ابن مريم إلى السماء وهذا أصحّ وإن الله تعالى قد سلّط عليهم بعد قتلهم يحيىٰ ملكًا من ملوك فارس يقال له خِرْدُوس فسار إليهم في جنوده حتى وطىء الشام وبعث قائدًا من قواده يقال له بيوزاذان وقال له: لقد حلفت بإلٰهي لئن ظفرت ببني إسرائيل لأقتلنّ منهم حتى يسيل الدم في عسكري إلا أن لا أجد من أقتله وكذلك أفعل بهم فجاء بيوزاذان ودخل بيت المقدس فدخل موضعًا وجد فيه دمًا يغلي فسأل عنه وقال: إيّاكم أن تكتموني أمره، فقالوا: هذا دم قربانٍ قرّبناه فلم يقبل مِنّا فهو يغلي، قال: لم تصدقوني ثم إنّهم أخبروه أنّه دم نبيّ من أنبيائهم كان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر قال: وما كان اسمه قالوا يحيىٰ بن زكريا وكان قد سمع باسمه قال: فأخذ يقتل منهم على دم يحيىٰ بن زكريا حتى قتل سبعين ألفًا إلى أن هدأ الدّم فقال لبني إسرائيل إن الملك أمرني أن أقتل منكم حتى يبلغ الدم عسكره وإني أستنكر ذلك فأتوني بمواشيكم فاذبحوها ففعلوا ذلك حتى سال الدم إلى عسكر خردوس فأرسل إليه ارفع القتل عنهم فقد انتقمت منهم، وروي أن بعض أنبياء بني إسرائيل قال: إنه دم نبيّ ولا يهدأ دم النبيّ حتى يقتل عليه سبعون ألفًا فحينئذٍ قتل ما قتل منهم قال السدي وغيره وكان هذا بعد عيسى ورفعه إلى السماء والله تعالى أعلم ثمّ كانت بعد ذلك الأحداث في بني إسرائيل.

باب في ذكر عيسى ابن مريم عليه السّلام[1]

إن الله تعالى بشّر به أمّه الصديقة كما ذكرناه في القرآن فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ٤٥، ٤٦]، وقال عزّ وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم: الآية ١٦] إلى آخر الآيات، قال بعض الرواة إن المكان الّذي انتبذت فيه هو أنّها كانت تغتسل من الحيض في بيت أختها ايلشباع في مشرقةٍ من الشمس وقد أرخت بينها وبين الناس سترًا لئلا يراها أحدٌ، وقال بعضهم: لا، بل كانت قد خرجت من قرية بيت المقدس نحو شرقها خلف جبل والحجاب الذي ذكره الله تعالى هو ذلك الجبل والقول الأوّل لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: الآية ١٧] فيجب أن يكون الحجاب من فعلها ولأنّه قال انتبذت والانتباذ هو الانفراد من الناس من غير بعدٍ ولأنا لم نسمع أنها كانت تخرج من بلدة بيت المقدس قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٧] يعني على نعت إنسانٍ تام الخلق، قال ابن عبّاس شابًا معتدلًا أبيض جدًّا قططًا قد اخضر شاربه ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: الآية ١٨]، قال بعض الناس إنّه كان شابًا في ذلك الزّمان مولعًا بالنساء يدعى تقيًّا على سبيل الاستهزاء فظنّت أنه هو ويقال: لا، بل خوّفته بالله تعالى وقالت: إن كنت تقيًّا لأن المتقي يخوف بالله تعالى قال لها جبرائيل: لست بالّذي تخافينه و﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم: الآية ١٩] ويقرأ ليَهَبَ لك ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٩] يعني مطيعًا طاهرًا ﴿قَالَتْ﴾ [مريم: الآية ٢٠] مريم ﴿أَنَّىٰ﴾ [مريم: الآية ٢٠] أي كيف ﴿يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ [مريم: الآية ٢٠] أي زوجٌ ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: الآية ٢٠] أي زانيةً قال جبرائيل كذلك قُلْتِ ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ

---

(١) ذكر قصة المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) في الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١/٥٨٥ ـ ٦٠٥، ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ١/٢٢٨ وما بعدها.

عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريَم: الآية ٩] يعني خلق الولد من غير زوج ولا جماع ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريَم: الآية ٢١] أي أعجوبة ورحمة أي بسبب ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٢١] كائنًا لا شك فيه ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا﴾ [آل عمران: الآيتان ٤٨، ٤٩] أي ونجعله رسولًا ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: الآية ٤٩]. قال ابن عبّاس: فدنا منها جبرائيل فنفخ فيها وقال بعض الناس نفخ في فمها، وقال بعضهم: في جيب درعها ويقال في موضع الولادة والله تعالى أعلم فحملت من ساعتها، ثم قال بعضهم: إنها حملته سبع ساعاتٍ ووضعته من يومها وقال أكثر أهل الأخبار بل حملته تسعة أشهر كما تحمل النساء ووضعت كما تضع النساء، وهذا أولى قالوا: فلمّا حملت واستمر بها الحمل واطمأنت ببشارة الله تعالى لها وكان أوّل من ظهر على حملها ابن خالٍ لها يقال له يوسف بن داود النّجار وقد ذكر بعض الناس أنه كان تزوج بها إلا أنّه لم يمسّها وليس بصحيح وأنّ يوسف كان مجردًا وكان يكون معها في خدمة بيت المقدس ويخدمها ويكلّمها من وراء الحجاب، فلمّا علم اهتمّ وحزن وخاف من أمرها وأراد أن يذكر لها ذلك، ثم ذكر ما طهّرها الله تعالى ودعت أمّها أنه يعيذها وذريّتها من الشيطان الرجيم وما سمع أن الملائكة قالت لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران: الآية ٤٢] وإن يوسف أحرزها في المحراب ولم يصل إليها أحدٌ فتحيّر في أمرها ثم قال لها ذات يوم قد حدث في نفسي من أمرك يا مريم شيء ولا أدري ماذا أقول وأريد أن أذكره لك أشفي صدري، فقالت له مريم: فقل إذا كان قولًا جميلًا قال لها: ما تقولين هل يكون زرع من غير بزرٍ؟ قالت: نعم، قال: وكيف يكون ذلك قالت: لأنّ الله تعالى خلق أوّل بزرٍ من غير زرعٍ وإن الخلق أوّلهم من غير بزرٍ ولعلّك تقول يا يوسف إن الله تعالى لم يقدر على خلق بزرٍ من غير زرعٍ، قال يوسف: أعوذ بالله أن أقول ذلك ولقد صدقت ونطقت بالحكمة فقال لها: هل يكون شجرة من غير ماءٍ؟ قالت: نعم، وإن الله تعالى خلق أوّل شجر من غير ماءٍ، ثم جعل الماء حياة للشجرة ولعلّك تقول إنّ الله تعالى لا يقدر على خلق الشجرة من غير ماء، قال يوسف: أعوذ بالله أن أقول ذلك ولقد قلت بالحكمة قال لها: وهل يكون ولد من غير ذكرٍ قالت: نعم، وذلك أن الله تعالى خلق آدم وحوّاء من غير أبٍ ولا حبلٍ قال لها فأخبرني خبرك ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: الآيتان ٤٥، ٤٦] فعلم يوسف حينئذٍ أن ما بها شيء هو من أمر الله تعالى، وأنه لا يسعه سؤالها بعد ذلك، ثم إنّ يوسف تولّى خدمة المسجد وما كان من العمل فيه لما رأى من رقة جسمها وثقلها وضعفها وذهاب لونها حتى إذا دنا وقت ولادتها نوديت أن اخرجي من المحراب ويقال: نوديت أن اخرجي

من بلاد قومك فإنّهم إن ظفروا بك قتلوا ولدك، قال: فخرجت وجبرائيل أمامها وهي على أثره حتى إذا بعدت من الناس أخذها المخاض وقال آخرون: المخاض تحرّك الولد في البطن للخروج وقيل إن يوسف ابن خالها احتملها على حمارٍ حتى يأتي بها مصر فأخذها الطلق في الطريق وعرضت لها نخلة قال الله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريَم: الآية ٢٣]، قال ابن عبّاس كان جذعًا لأنّه لم يكن عليها سعفة من برد الشتاء ويقال: بل كانت يابسة منذ دهرٍ فنزلت عندها فاستندت إليها ونأى يوسف عنها ولم يمكنه معالجتها ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٢٣]. ويقال في رواية أخرى أنّه أدركها الطلق في قريةٍ من قرى الشام على ستّة أميالٍ من بيت المقدس يقال لها بيت لحم ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريَم: الآية ٢٣] وعندها رأى حمارًا ويقال مدود بقرةٍ ثم إن الله تعالى بعث ملائكة حتّى حفّوا بها وقبلوا ولدها وجاؤوا بما يحتاج إليه الولد من الخرق وغيره، ثم إن الله تعالى أنبع لها عينًا من ماءٍ حتى غسلوا الولد بالماء قال النبيّ ﷺ إن الملائكة حفّت بها فدفعوا أن يقربهما الشيطان وأخذوا عيسى ولفّوه فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ [مريَم: الآية ٢٤] يعني جبرائيل ويقال: ناداها عيسى من تحتها حتى وضعته ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٢٤] يعني جدولًا من ماء ويقال ولدًا سريًّا أي سيّدًا ثم قال لها جبرائيل ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريَم: الآية ٢٥] فلما هزتها أورقت وأثمرت وأنبعت وتساقط عليها الثمر من ساعتها حتى أكلت منه وقيل لها ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ [مريَم: الآية ٢٦] بولدك فقالت مريم لجبرائيل فماذا أقول للناس إذا سألوني عن ولدي قال جبرائيل: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: الآية ٢٦] أي صمتًا وكانوا يصومون في ذلك الزّمان عن الكلام، ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٢٦] فسألوها عن نفسها قال وفقد الناس مريم من محرابها فسألوا يوسف عنها، فقال: لا علم لي بها، على قول من قال إنها خرجت مع جبرائيل فسألوا عنها زكريا ففتح باب المحراب فلم يجدها فاتهموه ووبخوه، ثم أخبرهم رجل أنّه رآها في موضع كذا، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها عند جذع النخلة فلمّا رأت قومها حملت ولدها فلقيتهم فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريَم: الآية ٢٧] ويقال: لا، بل إنّها أقامت ببيت لحم ثلاثة أيّام ويقال سبعة أيّام، ويقال أربعين يومًا ثم إنها حملته ورجعت إلى قومها فلمّا رأوها شقوا مدرعاتهم وحثوا التراب على رؤوسهم وقالوا: ما الذي صنعت بنا ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٢٧] أي منكرًا عظيمًا، ثم قالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريَم: الآية ٢٨] أي يا شبيهة هارون في

العبادة ويقال كان لها أخٌ يقال له هارون ويقال كان هارون رجلًا مفسدًا في ذلك الزّمان فشبّهوها به، والله تعالى أعلم بالصّواب ويقال: معناه أنك من ولد هارون كما يقال للرجل إذا كان من بني تميم يا أخ تميم وللمرأة يا أخت تميم ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريَم: الآية ٢٨] أي زانيًا فاجرًا، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٢٨] أي زانية، وكيف جئت بين الصّالحين فأشارت إليه أن سلوه فإني لست أتكلّم قالوا ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٢٩] أتسخرين بنا بعد ما فعلت فأنطق الله تعالى عيسى بقدرته فتكلّم ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: الآيتان ٣٠، ٣١] الآية.

وقال الذين ذكروا أنّ يحيىٰ كان أكبر من عيسى بثلاث سنين فلمّا قال عيسى ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريَم: الآية ٣٠] ابتدر يحيىٰ من بين أهله وقال: أشهد أنّك عبد الله ورسوله فذلك قوله ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ٣٩]، ثم إن عيسى أمسك على الكلام فلم يتكلّم بعد ذلك حتى بلغ الوقت الّذي يتكلّم فيه الصبيان ولما سمع قومها قول عيسى أمسكوا عن ملامة مريم وعرفوا أنه الولد الذي بشّر به على لسان الأنبياء ثم اختلفت الروايات فقال بعض الناس: إنها خافت على نفسها وولدها من اليهود فإنّهم أكثروا في أمرها فحملها يوسف ابن خالها إلى أرض مصرٍ ويقال أرض دمشق، وهذا أصح وهذا قول الله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٠] فمكث عيسى بها إلى أن أوحى الله تعالى إليه ويقال: مكثت أمّه معه هنالك ثلاث عشرة سنة حتى مات الملك الذي كان ببيت المقدس، وقال آخرون: لا، بل إنّها مكثت ببيت المقدس حتى شبّ عيسى وأسلمته إلى الكتاب بدمشق والله تعالى أعلم، قال: وكانوا هناك في جوار رجل من الأغنياء وقد تكفّل لهما بما يصلحهما وكان قد علم عيسى التوراة وكتب الأنبياء في بطن أمّه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٨] أي كتب الأنبياء مثل الزبور وغير ذلك والحكمة أي العلوم الذي يحتاج إليها ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٨] فلمّا أسلمته أمّه إلى الكتّاب لم يلقنه معلّمه شيئًا إلّا سبقه عيسى إلى علمه، ويروى أنه قال له: قل بسم الله الرحمٰن الرحيم فقال عيسى للمعلّم ما معناه حتى أقوله، قال: قل أنت بسم الله، قال أنا لا أقول شيئًا لا أعلم معناه، فضربه المعلّم فقال عيسى لم تضربني ظلمًا إن علمت معناه فبيّنه لي، وإلا فأنا أخبرك بمعناه، فقال المعلم: فقل فما معناه؟ فأخذ عيسى يفسرها كلمةً كلمةً على أحسن بيان ويقال: إن المعلم قال له: قل أبجد فقال عيسى: وما معنى أبجد؟ قال: لا أدري، قال: فلم تعلّمني ما لا تدري، قال المعلم: أو تدري أنت؟ قال: نعم، قال المعلم فعلمنيه قال له عيسى: فقم من مجلسك فقام فجلس عليه عيسى فقال: سلني، قال المعلم: فما

أبجد؟ قال عيسى: أما الألف فآلاء الله تعالى وأما الباء فبهاؤه وأما الجيم فجماله وجلاله حتى فسّر جميع الحروف وكان عيسى أوّل من فسّر أبجد قال: فلمّا أمسى وجاءت مريم لترد عيسى من المكتب إلى المنزل فقال لها المعلّم: لا تردّيه إليّ غدًا، فإنّه أعلم منّي وإنّي إلى التعلّم منه أحوج من تعليمي إيّاه، قال ابن عبَّاسٍ فكان عيسى يري الناس من العجائب ويخبرهم بأشياء وهو صبيٌّ إلهامًا من الله تعالى حتى أشهر أمره بين الناس فهمّ به اليهود فخافت عليه أمّه، فأوحى الله تعالى إلَيها أن تذهب به إلى أرض مصر ويقال: إلى أرض الشام فذهب بهما يوسف ابن خالها فكان بها إلى أن أوحى الله تعالى إليه الإنجيل، وروي أنه كان حمله يوسف إلى بيت المقدس والله تعالى أعلم، ويروى أن عيسى حين كان في رعاية ذلك الفتى الذي ذكرناه بدمشق كان أيضًا عند ذلك الفتى جماعة من الضّعفاء والعميان والعرجان يتكفّلهم فسرق في بعض الأحايين من بيت الفتى شيءٌ نفيس ولم يدروا من فعل ذلك، فقال عيسى: أنا أعلم، إنما فعل ذلك الأعمى وذلك الأعرج المقعد فقالت له أمّه: لا تقل بالظنّ، قال: لست أقوله إلّا عن علم ولا بدّ لي أن أجزي الفتى بذلك لحقّ إحسانه إلينا فأخبره بذلك، فقال الأعمى: فمتى أبصرت موضع المال فأسرقه، وقال الأعرج المقعد: كيف أمكنني دخول البيت، فقال عيسى: إنّ الأعمى حمل المقعد على عاتقه حتى وصل إلى كوّة البيت فأدخل يده فأخذ المال، ثمّ أمر حتى أقيم الأعمى عند الكوة فكان عاتقه يساويها فضربوا فأقروا بأنّهما أخذا المال كما ذكره عيسى وردّ المال إلى صاحبه، ثم إنّ الله تعالى لما أوحى إلى عيسى وأمره بدعوة الناس فأوّل من اتّبعه الحواريّين، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٢] واختلف الناس في الحواريين قال بعضهم: كانوا قصّارين فمرّ بهم عيسى وهم يغسلون ثياب الناس، فقال لهم: ما تصنعون؟ قالوا: نغسل ثياب الناس بالأجرة، قال عيسى: إنكم لو غسلتم أنفسكم وأجسامكم من الخطايا كان أولى بكم قال كعب: وسمّوا حواريّين لأن التحوير التبييض وكانوا يبيّضون الثياب أي يغسلونها وكانوا اثني عشر رجلًا وكان رأسهم شمعون وهو أوّل من دعاه عيسى فأجابه وآمن به وقال آخرون: بل كانوا صيّادين يصطادون فمرّ بهم عيسى ودعاهم إلى الله تعالى فآمنوا به وسألوه معجزة فقال: وما تريدون ثم أمرهم أن يصبغوا صبغًا من الأصباغ فمزجوه لونًا فقال: إني أدخل في هذا الصبغ ثيابًا وأخرج كلّ ثوب على لون آخر ثمّ إنّه قذف في الوعاء ثيابًا فأخرج واحدًا منها أحمر والآخر أصفر وكذلك كلّ ثوبٍ على لونٍ آخر فآمنوا به وإنّه لما دعا الناس وادّعى النبوة كذّبته اليهود وأفحشوا إليه القول وقالوا ابن الزانية يدّعي النبوة قال الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النّساء: الآية ١٥٦] ويقال أوّل ما أمره الله تعالى به أن يدعو

الخلق إلى توحيد الله تعالى ثم الإقرار بنبوّة محمّد ﷺ وذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: الآية ٦] صاحب الجمل الأحمر والتاج يعني العمامة والنعلين والهراوة يعني القضيب الأنجل العينين الصلت الجبين المقرون الحاجبين البادي النفقة الكثّ اللحية، الشثن البنان، الرجل الشعر الكثير النكاح أنزل عليه يا عيسى قرآنًا أفرق به بين الحقّ والباطل، أختم به النبوة وأفتح به الدّين، أمّته خير أمّة وخير من مضى وخير من بقي يقاتلون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. وكان عيسى رجلًا جميلًا ولذلك سمّي المسيح لأنّه كان به مسحة من جمالٍ ووصفه النبيّ ﷺ فقال: رأيته ليلة المعراج كما وصفناه ورأيته كثير خيلان الوجه كأنه خرج من الدّيماس أي الحمّام لصفاوة وجهه، وكان ﷺ زاهدًا سيّاحًا يسيح في الأرض لا ينام في بيت وعليه برنس من شعرٍ ومِدرَعةٌ من شعر وثياب من شعر وفي يده عصًا يبيت حيث جنّه اللّيل سراجه ضوء القمر، وظلّه ظلمة الليل وفراشه الأرض، ووسادته الحجر وإدامه بقول الأرض وريحانه عشب الأرض لا يفرح بشيءٍ من الدنيا ولا يحزن على ما فاته منها لزهده منها وكان يأكل خبز الشعير ويمشي ولا يركب ولا يمس النساء ولا يشمّ الطّيب ولم يجعل بينه وبين الأرض فراشًا قطّ ولا يهتمّ لغداءٍ ولا عشاءٍ وإذا أكل طعامه وضع بالأرض ولم يأكل مع طعامه إدَامًا قطّ ويقول هذا لمن يموت كثيرًا، وإن الحواريّين قالوا: يا نبيّ الله تعالى لو اشترينا لك حمارًا تركبه فقال: ليس عندي ثمنه! فقالوا: نحن نشتريه لك من عندنا فقبل، فاشتروا له حمارًا فركبه يومه ذلك، فلمّا أمسى اشتغل قلبه بعلفه ومائه فقال: لا أريد شيئًا يشغل قلبي فردّه عليهم ولم يركب بعد ذلك، ويروى أنّهم قالوا: يا نبيّ الله تعالى لو بنيت دارًا، قال: وما أصنع بالدّار إن طال عمري خربت، وإن لم يطل سكنها غيري فلا أدري كيف يكون حالها بعدي، فألحّوا عليه فذهب بهم إلى شاطىء البحر فقالوا: ابنوا لي على هذا الموج المتلاطم الزاخر، قالوا: يا روح الله وهل يبقى البناء على الموج؟ قال: فكما لا يبقى البناء على الموج كذلك لا تبقى الدّنيا على الآخرة. وروى عبد الله في كتاب المذهب وفي سائر كتبه كلامًا كثيرًا في زهد عيسى ومواعظه لم نكتبها لوجودها فيها، وروي أن عيسى كان يسير يومًا في مفازةٍ فصحبه ثعلبٌ فأنس به فبينما هو كذلك إذ أمطرت السماء فجعلا يسيران في الطريق فلم يلبث الثعلب إلى أن بلغ بخشه فدخله وبقي عيسى في المطر فرفع رأسه إلى السماء وقال: إلـهي جعلت لكلّ شيءٍ مأوى غير ابن مريم فإنّه لا مأوى له، فأوحى الله تعالى إليه يا عيسى لقد خلقت لك في الجنة من القصور والمدائن ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وخلقت باسمك حورًا وإنك إذا دخلت الجنّة

زوجتها منك وأضعفت على عرسك جميع أهل الجنّة أربعة آلاف سنة أرضيت يا عيسى؟ قال: نعم يا ربّ، وروي أنه ﷺ مرّ مع أصحاب له يومًا برجالٍ وهم ثلاثة نفر فوجدوا في الطريق لبنتين من ذهبٍ فاحتبسوا عليها، فقال عيسى: لا تلهكنّكم ومضى عيسى، فقالوا: ايتوا بنا نقسمها، ثمّ قالوا: نحن جياع فبعثوا واحدًا منهم إلى قريةٍ هنالك ليأتيهم بطعامٍ يأكلون فلمّا مضى صاحبهما قال الآخران: إنّ من سبيلنا أن نقتل صاحبنا إذا جاءنا فإنّ هٰهنا لبنتين ونحن ثلاثة لا تستقيم القسمة خالصة فأخذ الرجل سمًّا فطرحه في طعامهما ثم جاءهما به فقاما فقتلاه قبل أكل الطعام ثم قعدا وأكلا الطعام فماتا فرجع عيسى من طريقه فرآهم موتى حول اللبنتين فقال: هكذا تصنع الدّنيا بأهلها أي بأربَابها.

بابٌ في ذكر ما أظهر الله تعالى على يد عيسى من المعجزات

قال الله تعالى مخبرًا عنه ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٩] الآية، فكان من معجزاته خلق الطير وذلك أن اليهود سألوه أن يريهم آيةً فصوّر لهم عيسى طائرًا يقال له الخفاش من الطين ثم نفخ فيه فطار من يده بإذن الله تعالى فقالت اليهود: هذا سحرٌ مبين ثم كان منه إبراء الأكمه والأبرص يحمل إليه الأبرص والأعمى والمرضى من البلاد فيدعو لهم ويمسحهم فيبرءون بإذن الله تعالى، قال بعض الناس وإنّما سمّي مسيحًا لأنه كان يمسح المرضى فيبرؤون وقيل إنه كان يمسح في الأرض وقيل: لأنه كان به مسحة من جمالٍ، وقيل: لأنّه ولد ممسوحًا بالدهن مسحته الملائكة ثم كان يحيي الموتى ويقال: إنّ أوّل من أحيا من الموتى ابن العجوز وذلك أنّه مرّ في سياحته بعجوزٍ عند قبرٍ تبكي فسألها فقالت: مات لي ابنٌ لم يكن لي غيره، ويقال قالت: ماتت لي ابنة وقد حلفت أن لا أبرح قبرها حتى أذوق ما ذاقت إلا أن يبعثها الله تعالى لي فأراها، قال عيسى: فإن نظرت إليها رجعت عنها، قالت: نعم، فصلّى عيسى ركعتين ثم جاء القبر ونادى يا فلان قم بإذن الله تعالى، فتحرّك القبر بإذن الله تعالى ثم نادى ثانية فانصدع القبر نصفين ثم نادى ثالثة فخرج بإذن الله تعالى من القبر ينفض رأسه من التراب فقال: ما لك يا روح الله دعوتني فأخبره بخبر أمّه فأقبل عليها وقال لها: ما حملك على أن أذوق الموت مرتين؟ ثم قال: يا روح الله سل ربّك أن يردّني إلى الآخرة ويهوّن عليّ سكرة الموت فدعا ربّه فقبض الله تعالى روحه وصار إلى ربه

واستوى عليه القبر فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: لم نسمع بأسحر من هذا، قال وكان ملكٌ جبّارٌ في ناحية نصيبين فأوحى الله تعالى إلى عيسى بالذهاب إليه فمضى عيسى حتى شارف المدينة ومعه الحواريّون فقال لهم ألا رجل منكم يأتي هذه المدينة فينادي إن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته قد أقبل فقام رجل منهم يسمّى يعقوب فقال: أنا ذاهب يا روح الله فقال: اذهب وأنت أوّل من تبرّأ منّي فقام آخر اسمه تومان فقال: وأنا أذهب معه، فقال: وأنت معه ستبلى فقام شمعون وقال: أكون يا روح الله ثالثهم ولكن ائذن لي أنا أبرأ منك إن اضطرّونا فأذن له فانطلقوا فلمّا قربوا من المدينة قال لهما شمعون: ادخلا أنتما وبلّغا ما أمرتما به، وأقيم مكاني فإن ابتليتما احتلت لكما فدخلا المدينة وقد بلغ الناس أمر عيسى فهم يتكلّمون فيه وفي أمّه بأقبح القول فنادى يعقوب إنّ عيسى روح الله وكلمته وعبده ورسوله قد جاءكم فوثبوا إليهما، وقالوا: من القائل منكم فتبرّأ الرجل وقال: ما قلت شيئًا، فقال الآخر: قد قلته وأنا أقول إن عيسى عبد الله ورسوله فقالوا: كذبت بل هو ابن الفاعلة ثم قالوا: تبرّأ منه وإلا قتلت فأَبى فأمر به الملك فقطع يديه ورجليه وسمل عينيه وألقي في مزبلة من المدينة فدخل عليهم شمعون فأنكروه حين نظروا إليه، فقال: ما بال هذا المسكين قالوا: زعم أنّ عيسى عبد الله ورسوله فجاء شمعون إلى ملكهم وقال له: أتأذن لي أن أسأل هذا المسكين؟ فأذن له فدنا منه شمعون وقال: أيها المبتلى[1] ما تقول قال: إن عيسى روح الله وكلمته وعبده ورسوله، قال: فما آتيه؟ قال: إنّه يبرىء الأكمه والأبرص والسقيم، قال شمعون: فإنّ الأطبّاء يفعلون هذا فهل غير هذا؟ قال: نعم يخبر الناس بما يأكلون وبما يدخرون في بيوتهم قال: وهذا قد يفعله الكهنة فهل غير هذا؟ قال: نعم يخلق من الطين كهيئة الطير، قال: وهذا قد يفعله السحرة فهل غير هذا؟ قال: نعم يحيي الموتى بإذن الله قال شمعون للملك: أيّها الملك قد ذكر أمرًا عظيمًا وما أظنّ أحدًا يقدر عليه إلّا الله تعالى أو بإذن الله تعالى، ولا يكون أَذِنَ الله تعالى به لساحرٍ ولا كذاب، فإن لم يكن عيسى رسولًا لم يقدر على ذلك؟ قال الشيخ: فإن تعلّق ملحدٌ بهذا الخبر فقد أبطل شمعون معجزات عيسى فما قولكم الآن فيما قاله قلنا: لم يكن فعل عيسى فعل الذين ذكرهم وذلك أن الأطباء شفاؤهم بالأدوية والأشربة، وكان عيسى يفعل ذلك من غير دواءٍ، ثم إنّ الطبيب قد يبرىء مريضًا بالدواء ولا يبرىء أحدًا مثله فيظهر عجزه، وكان عيسى يبرىء كلّ من أتى إليه، وكذلك الكاهن يخبر بالشيء فيصدق أحيانًا ويكذب أحيانًا فلا يكون كما قال عيسى وكان عيسى يخبر بجميع ما يسأل عنه مع أنّ الكاهن

---

(١) جاء في الأصل (المبتلا) والصواب ما ثبتناه.

إذا احتال له الناس وأنّه يظهر في أكثر الأحوال كذبه، وأمّا السّاحر فلا يمكنه أن يحيي الطير وأما التصوير فربّما يصور ويخيّل إلى الناس أنّه يصنع ولا يفعل ولم يكن ما فعله عيسى كذلك فإنه صوّر ما اقترحوه عليه ولا يفعل الساحر ما يقترح عليه فاعله. رجعنا إلى القصة فلمّا قال شمعون لا أظنّ أحدًا يقدر على إحياء الموتى فإن رأيت أن تدعو عيسى فتسأله عمّا يقول صاحبه فإن أنكر فشأنك بصاحبه وإن أقرّ لا أظنّه يفعل فإن فعل ما يقوله آمنّا به، فإنّه نبيٌّ ثم قال للملك: أرأيت إن فعل عيسى ما يقول هذا الرّجل من إحياء الموتى أليس تؤمن به قال: نعم، فقال للرّجل أرأيت إن عجز عيسى عمّا يقوله أليس الملك في حلٍّ مما يصنع بكم؟ قال: بلى، قال: فأرسلوا إلى عيسى حتى جاء وكان الله تعالى ألبسه من الهيبة والمحبّة ما لم يصل إليه أحدٌ فقال الملك لشمعون كلّمه فقال شمعون: يا عيسى إن هذا المبتلى يزعم أنك رسول الله قال صدق قال: ويقول إنّك تبرىء الأكمه والأبرص وتبرىء السقيم قال: صدق قال: ونحن قد اشترطنا عليه أنّك إن لم تفعل ما قاله قتلناك وأصحابك، قال: نعم، قال: فإن تفعل فابدأ بأصحابك قال: فأخذ عيسى بيديه ورجليه فضمهما إلى موضعهما ثم مسحهما بيده فبرأ ثم مسح عينيه فصحّتا فقام صحيحًا، قال شمعون: أيّها الملك هذه واحدة، ثم قال شمعون: يا عيسى أخبرهم بما أكلوا البارحة وما ادخروا فقال: نعم يا فلان، أكلت كذا وكذا وادخرت كذا حتى سمّى رجلًا رجلًا فأخبره فقال شمعون: يا عيسى إنّ هذا يزعم أنك تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله تعالى بين السماء والأرض قال: صدق قال: فأرنا ذلك قال: فأيّ طير تريدون؟ قال: نريد خفّاشًا فإنه أعجب الطيور أمرًا فصوّره ثم نفخ فيه فطار، وروي عن سلمان الفارسي في هذه القصة أنه لم يبق في مدينتهم زمن ولا مبتلى ولا مريض إلا جمعوه له، فدعا لهم فشفاهم الله تعالى فاتّبعوه ثم قالوا له: ابعث لنا ميّتًا فقال: من تريدون؟ قالوا: سام بن نوح وكان قد مات منذ أربعة آلاف سنة فقال: أرني قبره فأروه فصلّى عيسى ركعتين ثم دعاه فأجابه وانشقت عنه الأرض فخرج من قبره ينفض رأسه من التراب وهو أبيض الرأس واللّحية وهو يقول: لبّيك يا روح الله تعالى وكلمته ألقاها إلى مريم فآمنوا به واتبعوه فقال له عيسى: ما بال شعرك قد ابيضّ ولم يكن الشيب في زمانك؟ فقال: لما دعوتني خفت أنّها القيامة فشاب رأسي ولحيتي من الفزع، فقال له: منذ كم سنة متّ؟ قال: منذ أربعة آلاف سنة، قال: أتريد أن أدعو الله تعالى حتى يبقيك فينا؟ قال: فهل أذوق مرارة الموت بعد ذلك؟ قال: نعم، قال: فلا أريد فإني أجد مرارة الموت في حلقي بعد فادع الله تعالى أن يعيدني إلى التراب فدعا عيسى ربّه فسوّاه الله تعالى بالأرض قال فآمن الملك وقومه بعيسى وبلغ عدد من آمن به تسعة آلافٍ.

وممّا أظهر الله تعالى على يد عيسى من العجائب حديث المائدة

وذلك أن عيسى كان يسيح في البلاد ولم يكن له مستقرٌ فكان يسير معه قومه حيث سار ممن آمن به ولا يفارقه الحواريّون قطّ قال: فبينما هم في بعض المفاوز إذْ أملقوا وجاعوا وعطشوا فقالت العامة للحواريّين سلوا عيسى أن ينزل علينا مائدةً من السماء فكبر ذلك على الحواريّين ثم قالوا: لا بدّ لنا من ذكر هذا لعيسى فأتوه وأخبروه بما سأله الناس فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: الآية ١١٢] قالوا لسنا ننكر قدرة الله تعالى ولكنا ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ [المائدة: الآية ١١٣] يعنون أن يأكل القوم ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: الآية ١١٣] فكل هذا عبارة الحواريين عن لسان القوم فقام عيسى فلبس مدرعةً من الشعر وصفّ قدميه خاشعًا لله تعالى وجعل يدعو ويتضرع وقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: الآية ١١٤] فأوحى الله تعالى إليه يا عيسى ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: الآية ١١٥] فأخبرهم عيسى بذلك فقالوا: نعم، قال: فنزلت المائدة وهي سفرة عليها الطعام من تحتها طبق من الغمام والسفرة مغطاة بمنديل وفوقها غشاء من الغمام فنزلت من السّماء تهوي والناس والحواريّون ينظرون إليها حتى استقرت بين يدي عيسى والناس حوله يجدون ريحها فخرّ عيسى ساجدًا وسجد الحواريون معه، ثم رفع رأسه وقال: ليقم أوثقنا في نفسه بالله تعالى وخيّرنا فليكشف عن هذه الآية حتى ينظر إليها ونأكل منها ونحمد الله تعالى فقال الحواريّون: أنت أحقّنا بذلك، فقام عيسى وصلّى ركعتين ودعا دعاءً كثيرًا ثم جلس وقال: بسم الله خير الرازقين وكشف عن المنديل فإذا هي سمكة مشويّة ليس لها فلوسٌ ولا فيها شوك ويسيل السّمن منها وحولها ألوان البقول غير الكراث وعند رأسها شيء من الخلّ وعند ذنبها شيء من الملح وحولها خمسة أرغفةٍ على كل رغيف زيتون وخمس رمّانات وتُمَيْرَاتٍ فقال شمعون يا روح الله تعالى أمن طعام الجنة هذا أم من طعام الدّنيا؟ قال عيسى: ليست من طعام الجنّة ولا من طعام الدنيا بل هي نزلت من السماء مما قال له كُنْ فكان فكلوا واذكروا اسم الله تعالى عليه فقال الحواريّون: يا روح الله كن أوّل من يأكل منها قال عيسى: بل يأكل منها من سألها وفرّق الحواريّون أن يكون نزولها بسبب عذابٍ فلم يأكلوا فدعا لها عيسى أهل الزمانة وأهل الفاقة وأهل

البلاء والعاهات وقال لهم: كلوا من رزق الله تعالى ومن دعوة نبيّكم هٰهنا ما لكم وبلاؤها لغيركم فأكلوا وصدروا شباعًا وهم ألف إنسانٍ وثلاثمائة ما بين رجل وامرأة، ثم نظر عيسى إلى السفرة فإذ هي على هيئتها وحالها لم ينقص منها شيء ثم رفعت إلى السماء وهم ينظرون إليها حتى توارت، قال الشيخ وقد ذكر بعض النّاس أنّه كان عليها كلّ لون من الطعام من شواءٍ وحلاوة وإدامٍ وبقولٍ وفواكه ويروى أنها لم تنزل من السّماء بل إنهم لما شكوا إليه الجوع قال لهم عيسى: هل عند أحدٍ منكم طعامٌ فأتاه بعضهم بسمكة مالحةٍ وأربعة أقراص ويقال: سبعة ففرقها عيسى فيهم فأكلوا وشبعوا والطعام على حاله والأولى أن يقال إنها نزلت من السماء لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: الآية ١١٥] قال: فلمّا رفعت المائدة ندم من لم يأكل منها، ثم اختلفت الروايات فقال قوم: إنها لم تنزل إلا مرّة واحدة وقال آخرون بل نزلت أربعين يومًا وكان عيسى إذا نزلت دعا الناس إليها حتى كانوا يتزاحمون عليها فجعلها عيسى نوبًا بينهم كلّ يوم نوبة لقومٍ فإذا نزلت وضعت أول النهار فلا تزال موضوعة إلى أن تزول الشمس ثم ترتفع إلى السماء، ثم إن الله تعالى أوحى إلى عيسى أن اجعل مائدتي ورزقي لليتامى والفقراء والزمنى[1] دون الأغنياء فكبر ذلك على الأغنياء وتكلّموا في ذلك وارتاب قوم وشكّوا وخاضوا وحتى قالوا إنها لا تنزل من عند الله تعالى وسأل بعضهم عيسى فقال: يا روح الله أهي شيء ينزل من السماء فلمّا ارتابوا خاف عليهم عقوبة الله تعالى وأوحى الله تعالى إليه أني أخذت عليهم شرطي الذي شرطته أن من كفر بها عذبته فأخبرهم بنزول العذاب عليهم فمسخ الله تعالى من كفر بها، وروي أنه مسخ أربعمائة نفس ويقال ثلاثة وثلاثين رجلًا فجعلهم خنازير فأصبحوا يأكلون القذرة في المزابل وأصبح سائر الناس خائفين من عذاب الله تعالى، وجعل عيسى يتضرع إلى الله تعالى وجاءت الخنازير إلى عيسى يشمون ريحه ويسجدون له وأعينهن تفيض دمعًا وعيسى يدعو بأسمائهم أنت فلان وأنت فلان فيقولون برؤوسهم نعم فيقول عيسى ألم أنذركم عقوبة الله تعالى فذلك قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾ [المائدة: الآية ٧٨] وهم أهل أيلة[2] ﴿وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ [المائدة: الآية ٧٨] وهم أصحاب المائدة ثم إن الذين مسخوا بقوا ثلاثة أيام ولم يأكلوا ولم يشربوا أيّام مسخهم وكذلك مات كل ممسوخ.

---

(١) الزمنى: جنس البلايا التي يصابون بها. ابن منظور ـ لسان العرب باب (زمن) ٢/ ٤٩.

(٢) أيلة: بالفتح مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام ـ وهي مدينة لليهود الذي حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمسخوا قردة وخنازير ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ١/ ٢٩٢.

وممّا يروى من أحوال عيسى

أن اليهود لمّا أخرجوه من بيت المقدس وكذبوه خرج هو وأمّه يسيحان في الأرض فنزل يومًا في بعض القرى على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وأمرهما بالمكث عنده فمكثا فرجع الرجل يومًا من الأيام حزينًا ومريم عند امرأة الرجل فقالت مريم للمرأة: ما لزوجك حزين؟ قالت: لا أدري حتى أسأله فسألته وكان لناحيتهم ملك جبّارٌ عنيد فقال الرجل: إن الملك قد أوجب على كل واحدٍ ضيافةً له ولجنوده وقد جعل عليّ يومًا وليس عندي سعة لذلك السبب حزنت فأخبرت مريم ابنها عيسى بذلك وقالت له ادع الله تعالى أن يكفيه أمره قال عيسى: أنا أفعل ولكنه يصير فتنة وبلاءً، فقالت له أمّه أنت ادع الله تعالى أن يقضي حاجته لِحَقِّهِ علينا، وليس عليك ما وراء ذلك، قال عيسى فقولي إذا كان وقت ضيافته أن يخبرني، فجاء الرجل فأمره عيسى أن يملأ قدوره ماء وخوابية الخمر ماءً ففعل الرّجل وجاء عيسى فدعا وتفث عليها فصارت قدوره مملوءة لحمًا ومرقًا وبيته مملوءًا خبزًا وخوابيه مملوءةً خمرًا لم ير الناس أروق وأطيب منها فجاءه الملك فأكل وشرب فلما شرب الخمر قال للرجل: من أين لك هذا الخمر؟ فإنّي لم أرَ مثلها فقال: من قرية كذا، قال الملك: قد شربت من خمرها ولم يكن مثل هذه فقال الرّجل: بل هي من قريةٍ أخرى، قال الملك: قد شربت من خمرها فلمّا خلط على الملك غضب عليه، وقال: تكذبني فخاف الرجل على نفسه، وقال أصدقك أن عندي غلامًا يتيمًا لا يسأل تعالى شيئًا إلّا أعطاه إيّاه، وهو الذي دعا لي حتى صار الماء خمرًا، وقد كان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيّام، فقال: إن من يدعو الله تعالى فيصير الماء خمرًا لَيُحْسَبَنّ أن يدعو الله تعالى فيحيي ابني فدعا بعيسى وسأله أن يدعو الله تعالى فيحيي ابنه فقال عيسى: لا تفعل فإن عاش كان شرًّا لكم، قال الملك: لا أبالي، قال عيسى: على شريطةٍ واحدة، قال: وما هي؟ قال: إذا دعوت وعاش ابنك تتركني وأمّي فنذهب حيث شئنا، قال الملك: نعم، فدعا عيسى فأحيى الله تعالى ابن الملك فلمّا رأى أهل مملكته ذلك قالوا إنّ هذا الجبّار العنيد كنّا في بلائه فالآن يريد أن يستخلف علينا ابنه حتى يكون علينا مثله، والله ما نرضى فتبادروا بالسّلاح وهاجت الفتنة فخرج عيسى بأمّه من بينهم، فلمّا خرجا صحبهما يهوديٌّ في الطريق ومع اليهودي رغيفان ومع عيسى رغيف واحد، فقال له عيسى: أتشاركني في الزاد قال اليهودي: نعم، فلمّا رأى أنّه ليس مع عيسى إلا رغيف واحد فلمّا أمسوا وناموا جعل اليهودي يأكل أحد رغيفيه، فلمّا التقم لقمة منه قال له عيسى: ما تصنع؟ قال: لا شيء، وطرح الرغيف كله، فلمّا أصبحوا قال له عيسى:

هلمّ بطعامك فجاء برغيف واحدٍ فسكت عيسى فمرّوا براعي غنم فنادى عيسى صاحب الغنم أن اجزر لنا شاةً من غنمك، قال: نعم أرسل صاحبك يأخذها فأرسل عيسى اليهودي فجاء بالشاة فذبحوها وشووها وصاحب الشاة ينظر إليهم، فقال عيسى لليهودي: كُلْ منها ولا تكسرنّ لها عظمًا فأكلوا فلمّا شبعوا جمع عيسى عظامها في جلدها ثم ضربها بعصاه فقال لها: قومي بإذن الله تعالى فقامت الشاة تثغو فقال عيسى للراعي: خذ شاتك فقال له الراعي: ومن أنت؟ قال: أنا عيسى ابن مريم فقال: أَنْتَ الساحر الذي سمعت به ونفر منه فقال عيسى لليهودي أسألك بالذي أحيا الشاة بعدما أكلناها أكان معك رغيفان أم رغيفٌ واحد فحلف أنه لم يكن معه إلّا رغيفٌ واحد فسكت وساروا فمرّوا بصاحب بقر فقال عيسى: يا صاحب البقر اجزر لنا عجلًا من بقرك فقال: نعم ابعث صاحبك يأخذه فبعث عيسى اليهودي حتى جاء به فذبحوه وشووه وصاحب البقر ينظر فقال عيسى لصاحبه: كل منه ولا تكسر له عظمًا فلمّا شبعوا جمع عظامه في جلده وضربه بعصاه وقال له: قم بإذن الله تعالى فقام العجل وله خوارٌ فقال عيسى لصاحب البقر خذ عجلك فقال له: ومن أنت؟ قال: أنا عيسى ابن مريم قال: أنت السّاحر ونفر منه، فقال اليهودي لعيسى: أحييت العجل بعدما أكلنا منه، قال عيسى: بل أحياه الله تعالى فأسألك بالذي أحيا العجل أكان معك رغيف أم رغيفان فحلف أنه لم يكن معه إلا رغيف واحد، فسكت عيسى ومضوا فانتهوا إلى قرية فنزل اليهودي أعلاها ونزل عيسى أسفلها وكان للقرية ملكٌ مريض قد أعيا مرضه الأطباء فأخذ اليهودي عصا مثل عصا عيسى فظنّ أنه يقدر على إحياء الموتى، ثم جاء إلى باب الملك وقال: إنّي أشفي ملككم فقالوا: إنه قد عالجه أطبّاء كثيرون فعجزوا عنه ومن عجز عنه قتله، قال: أدخلوني عليه فإني أشفيه وإن مات أحييته فأتوا به الملك فأخذ برجله وجعل يضربه بعصاه فمات فجعل يضربه بعد الموت بعصاه وجعل يقول: قم بإذن الله تعالى فلمّا عجز عنه أخذه الناس وقالوا: قتلت ملكنا وأرادوا قتله فبلغ خبره عيسى فجاء وقد رفع اليهودي على الخشبة فقال عيسى: إن أحييت لكم صاحبكم أتتركون لي صاحبي هذا، قالوا: نعم، فدعا عيسى فعاش الملك وأنزل اليهودي من الخشبة ومضى معه فقال اليهودي: يا عيسى أنت أعظم الناس عليّ منّةً بسبب خلاصي من القتل فوالله لا أفارقك أبدًا، فقال عيسى: أنشدك بالذي أحيا الشاة والعجل بعدما أكلناهما وأحيا الملك بعد موته وأنزلك من الجذع بعدما رفعت عليه كم كان معك من الأرغفة؟ فحلف بهذه كلّها أنه لم يكن معه إلّا رغيف واحد فسكت عيسى وانطلقوا فمرّوا على كنزٍ قد حفرته السباع فظهر ولم يصل إليه أحدٌ فقال اليهودي

لعيسى: هذا المال نتركه قال: دعه فإنّ له أصحابًا يهلكون عليه فجعلت نفس اليهودي تطمعه على المال ولا يقدر أن يخالف عيسى فانطلق معه وجاء قوم وهم أربعة نفر فلمّا رأوا الكنز قالوا: ائتوا بنا نقتسمه ثم إنهم بعثوا اثنين ليطلبا لهم طعامًا وشرابًا ودوابَّ يحملون عليها المال فذهبا وتدبّرا أن يجعلا السم في الطعام والشراب ليهلك به الآخران وقال الآخران الباقيان إذا جاء صاحبانا قتلناهما فيبقى الكنز لنا كلّه، فلمّا جاءا بالطعام قام كلّ واحدٍ منهما إلى واحدٍ فقتلاهما ثم قعدا فأكلا فماتا فأخبر الله تعالى عيسى بذلك فقال لليهودي: ارجع بنا إلى المال فرجعا ورأيا القوم هالكين حوله فقال عيسى: اخرج المال نقسمه فأخرج فقسمه عيسى ثلاثة أثلاثٍ ثلثًا لليهودي وثلثين لنفسه فقال اليهودي: اتّق الله تعالى ولا تظلمني فإنّما نحن اثنان فاقسمه نصفين فقال عيسى: هذا لي وهذا لك والقسم الثالث لصاحب الرغيف المفقود فقال اليهودي: إن أخبرتك بصاحب الرغيف تعطني نصيبه قال عيسى: نعم، قال: فأنا هو فقال عيسى: خذ حظي وحظّك وحظّ صاحب الرغيف فإنما هو نصيبك من الدّنيا والآخرة فحمل اليهودي المال فلم يمض إلا قليلًا حتى خسف الله تعالى به والله تعالى أعلم.

ومن عجائب عيسى عليه السَّلام

أنه مرّ مع أصحابٍ له في سفرٍ فنزلوا عند قريةٍ وذلك عند إدراك الزّرع فنزلوا عند أرضٍ مزروعةٍ قد أمكنت من الفرك وقد جاع أصحاب عيسى فقالوا: يا روح الله تعالى أتأذن لنا أن نأكل منها فأوحى الله تعالى أن يأذن لهم فأخذوا يفاركون ويأكلون فإذا هم بصاحب الزرع يصيح ويقول: أرضي وزرعي وقد ورثتها من آبائي بإذن من تأكلون فقال له عيسى: أنا أذنت لهم، ثمّ إنه دعا الله تعالى فأحيا كلّ مالكٍ لتلك الأرض منذ أوّل الدّهر إلى السّاعة فقام عند كل سنبلةٍ منها رجلٌ وامرأةٌ يقولون هذا أرضي وزرعي بإذن من تأكلون فنظر الرجل وتحيّر فأخبر بأنّ هذا عيسى فجاءه قال له: يا روح الله تعالى لم أعرفك وقد أحللت لكم زرعي، فقال له عيسى: يا هذا ليس الأرض لك ولا الزرع إن كلّ هؤلاء ملكوا الأرض وماتوا وتركوا وكذلك تصير لك. ويروى أنه عليه السلام نام يومًا متوسّدًا حجرًا فمرّ به إبليس فقال له: يا عيسى ألست تزعم أنّك لا تريد شيئًا من الدنيا وهذا الحجر من الدنيا فقام عيسى وأخذ الحجر فرماه، وقال: هذا مع الدّنيا ولعمري إن الدنيا وأهلها خدمك، وروي عن الحسن أنّ عيسى كان يمشي على الماء فقال له الحواريون: يا روح الله تعالى أنت تمشي على الماء ونحن لا نقدر؟ فقال: ليقيني بالله تعالى قالوا: ونحن أيضًا موقنون بالله تعالى، قال: ما تقولون إن عرض لكم في الطريق درٌّ وحجر أيّهما تحملون قالوا: الدرّ، قال عيسى: فلستم بموقنين حتى

يكون الدر والحجر عندكم سواء، وروي أنه قال لهم: أيّهما أحبّ إليكم الدنيا أم الخزف قالوا: الدنيا، قال الدنيا والخزف عندي سواء، ويقال إن عيسى صعد يومًا عقبة بيت المقدس فعرض له إبليس فقال له يا عيسى أنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أن تبرىء الأكمه والأبرص وتشفي المرضى قال عيسى: لا بل العظمة والرّبوبيّة للذي أشفيهم بإِذْنه ولو شاء لأَمْرضني قال: أنت الذي من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى قال: بل العظمة للذي بإِذنه أحييهم ولو شاء لأماتني قال إبليس: وأنت الّذي بلغ من قدرتك أنّك تمشي على الماء قال: بل القدرة للذي أمشي بإذنه ولو شاء لأغرقني، قال: أنت الذي تعلو على السمٰوات وتدبّر فيها الأمر وأنا ما أعرف ندًّا لله تعالى غيرك ولا مثلًا سواك فارتعد عيسى من قوله وخرّ مغشيًا عليه فدعا على عدو الله تعالى لما أفاق بعث الله ملكًا فضربه ضربةً حتى تدهور ولم يملك نفسه حتى بلغ الأفق الأقصى ثم قام ورجع إلى العقبة فسدّها على عيسى وقال: ألم أقل لك إنّك إلـٰه عظيم وأنت تفعل ما تشاء ولكنك لا تعرف نفسك فهلمّ وأمر الشياطين بعبادتك فإذا رأى بنو آدم ذلك عبدوك فتكون إلـٰه الأرض كما أن الله إلـٰه السماء فخرّ عيسى مغشيًّا عليه، فبعث الله تعالى جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فنفخه ميكائيل نفخةً طرحه إلى مشرق الشمس وضربه هنالك إسرافيل ضربة طرحه منها إلى المغرب فمرّ بعيسى وهو على العقبة فقال: يا ويلاه لقد لقيت منك يا ابن العذراء تبعًا ثم ضربه جبرائيل ضربةً حتى ألقاه في العين الحامية فلم يخلص إلّا بعد ثلاثة أيّام فلمّا رجع إلى مجلسه أتته الشياطين وقالوا: يا سيّدنا لقد لقيت تعبًا، فقال إبليس: هذا عبدٌ معصوم ليس لي عليه سبيل ولكن سأضلّ به أكثر من تبعه حتى يدعوه إلـٰهًا من دون الله تعالى، ويروى أنّه استقبله على عقبة بيت المقدس وقال: قل لا إلـٰه إلا الله فقال عيسى إنها كلمة حقٍّ ولا أقولها بقولك، قال الحسن: فكان ابن ثلاث عشرة سنة أوحى الله تعالى إليه ورفعه إلى السماء وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة فكان في النبوة عشرين سنة وقال غيره أوحى الله تعالى إليه وهو ابن سبع عشرة سنة ويقال: ابن سبع وعشرين سنة ورفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة متفق على هذا، وروي أن أهل الجنّة يكونون على مثل عيسى أبناء ثلاث وثلاثين سنة والله تعالى أعلم.

بابٌ في ذكر رفع عيسى عليه السّلام

وكان سبب رفعه فيما ذكره أهل الأخبار أن ملكًا من ملوك بني إسرائيل قال كعب كان اسمه داود بن بوذا وقال غيره كان اسمه هردوس وقيل فنطيوس بن فيلاطوس وكان جبّارًا عاتيًا، فأمر الله تعالى عيسى أن يأتيه ويدعوه إلى الإسلام فأتاه ودعاه ووعظه

ووعده وأوعده فأبى وهمّ بقتله فاختفى منه عيسى، ثم إن الله تعالى أنزل عليه ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٥] إلى آخر الآية، فقال للحواريين وهم اثنا عشر رجلًا وذكر أسماءهم، يحيىٰ، وشمعونٰ، وتومان، ويوفنا، ومريوس، وقطرس، ويحنس، ويعقوب، وأندرانيس، وقليس، ويعقوس، وجرجيس، قد حان وقت قبض الراعي وتفرّق الرعيّة فعرفوا أنهم يفارقونه فبكوا فقال عيسى أتبكون على فراقي وتدعون ما هو أشدّ منه إنّي لست أفارقكم حتّى يظفر بي عدوّي ثم لا تمنعوني فقالوا: أما ما دام الروح فينا فلن نسلّمك دون أن نقتل قبلك قال عيسى فإنّه لا يصيح الدّيك الصيحة الثالثة للصبح حتى تبرّأ منّي شمعون ثلاث مرّات وأنت رأس الحواريين والصخرة الراسية الذي هي ربض الدين ولكن اسمعوا قولي وقوموا معي لنسأل الله تعالى أن يدفع عنّي عدوّي قال: وكان عيسى مع أصحابه في غار جبلٍ قال فطرقوه ليلًا ودخلوا عليه فأخذوه وجعلوا على رأسه إكليلًا من شوك استخفافًا به وضربوه وقالوا له: إن كنت نبيًا فادعوا ربك ليمنعك عنّا فجعل لا يكلّمهم فأكثروا عليه وكذلك فعلوا بأصحابه وكان أحبّ أصحابه له وأعطفهم عليه شمعون فأخذته اليهود، وقالوا له: إمّا أن تتبرّأ منه وإمّا أن نقتلك، فتبرّأ منه ثم عاودوه فأخذوه ليقتلوه فتبرّأ ثانية وصاح الديك وطلع الفجر فقالوا لشمعون: تبرّأ منه فتبرّأ منه، وفي بعض الروايات أن عيسى لما أخذ حبس في بيت وجلس أعوان الملك على الباب يحرسونه وكان يفرق عنه أصحابه فجاء شمعون يستطلع عن حاله فجاءه متنكّرًا وجلس عند القوم عند نارٍ لهم أوقدوها وكانت ليلة باردة فقالوا لشمعون: نظنّك من أصحاب عيسى فقال لست منهم ولا أعرفه ثم عاودوه مرّة أخرى ففعل كذلك ثم ثالثة حتى تبرّأ من عيسى تلك الليلة ثلاث مرّاتٍ كما قال عيسى، وروي أنّ ابن عبّاس قال: إنّ الله تعالى لما قال لعيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٥] أخبر بذلك الحواريين فقالوا له: يا روح الله تعالى أوصنا فجعل يوصيهم ويودعهم فقالوا له: هل يكون نبيّ يفوقك فضلًا؟ قال: نعم النبيّ العربيّ الأميّ قالوا: يا روح الله تعالى ومن أين يبعث؟ قال: من أرض تهامة، قالوا: وممن هو قال: من قريش فلو جعلت له نفلًا لكان لذلك أهلًا يمسك بأهل الحكمة ويعطي أمته الحكمة وعلماء أمّته كأنّهم أنبياء فأقرئوه منّي السلام قال ونظر عيسى إلى أمّه وكانت في الحياة، وفي بعض الروايات أنها كانت قد ماتت وفي هذه الرواية أن عيسى قال لها: إنّي مرفوع يا أمّاه فجعل يودّعها فبكت فقال لها عيسى: يغفر الله لك يا أمّاه قد كنتِ حقيقة أنّك تفرحين بهذا وتقرّين به عينًا ثم قال للحواريين وأوصاهم فقال لهم: إن الله تعالى أمرني أن يستخلف عليكم شمعون وأن تتفرقوا في البلاد وأن آية ذلك أن تأتيكم الملائكة فتتلقاكم بأوعيةٍ فيها نور الله تعالى، ويقال

بمغارف فمن تناول منكم مغرفة فليلعق ذلك النور الذي فيها فيصبح ويتكلّم بلغة الأمّة التي بعث إليها ثمّ ليبلّغهم عن الله تعالى فلمّا فرغ عيسى من وصيته أتته اليهود ليأخذوه فلم يعرفوه فضمنوا شيئًا لبعض من كان يعرفه ممن آمن به أن يدلّهم عليه، واختلف في كيفيّة رفعه إلى السماء فقال بعضهم: إنهم أخذوه من الغار وذهبوا به وحرسوه ليلتهم حتى أصبحوا، ثم أمر به ذلك الملك فقدم ليصلب فنصبت له خشبة واجتمع اليهود وسائر الناس فلمّا قدم إلى الخشبة أظلمت الدنيا وكسفت الشمس حتى لم يبصر بعضهم بعضًا فأرسل الله تعالى الملائكة حتى حلّوا عن وثاقه وقمطوا الرجل الذي دل عليه اليهود واسمه بوذا بوثاق عيسى ورفع الملائكة عيسى إلى السماء وانجلت الشمس فنظر القوم إلى بوذا في صورة عيسى قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧]. قال قوم إنّ الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه وقال آخرون: لا، ولم يكن الله تعالى ليكرم اليهود بصورة عيسى بل أراه الله إياهم فظنوه عيسى خيالًا ولا يبعد عندنا أن يكون كذلك، فقالت اليهود إنّه سحر أبصارنا بتلك الظلمة ليحتال في التخلص منّا فلم يقدر وعمدوا إلى صاحبهم بوذا فصلبوه على الخشبة وهو يناشدهم ويقول: ألست صاحبكم بوذا الذي دللتكم على عيسى وكان قد رأى الملائكة وما فعلوه بعيسى وبه فأخبر بذلك وبعلامات ما كانوا يأتمرون به في باب عيسى وقتله فلم يقبلوا قوله وقالوا: كذبت وأنت عيسى قد اطّلعت بسحرك على أسرارنا وتريد الحيلة في التخلص مِنّا وقتلوا صاحبهم وهم يرون أنه عيسى فلذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧]. وقال آخرون بل اليهود لمّا طرقوه في الغار حرسوه هنالك تلك الليلة ومعه أمّه والحواريّون فأوصاهم بوصاياه فنزلت غمامة من السماء وانشق سقف الغار وأعلاه وجاءت سحابة ورفعت عيسى إلى السماء، فلمّا أصبحت اليهود أرسلوا واحدًا منهم ليدخل الغار ويخرج عيسى فدخل فلم يجد عيسى فخرج، وقال ليس هٰهنا عيسى فقالوا: أنت عيسى خرجت تريد أن تسحر أبصارنا فأخذوه وصلبوه وقتلوه ويظنونه عيسى وهو يصيح، فلم يقبلوا قوله فلمّا قتلوه قالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وإن كان هذا صاحبنا فأين ذهب عيسى، فذلك قوله تعالى وإنهم: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ [النساء: الآية ١٥٧]. وقال آخرون: إنّ اليهود حصروا عيسى في بيتٍ ومعه تسعة عشر رجلًا فقال عيسى: إنّي مرفوع فمن الذي يقبل صورتي فيلقي الله تعالى شبهي عليه ويقتل فله الجنّة فقبلها رجلٌ منهم يقال كان اسمه جرجيس وصعد بعيسى إلى السماء، فلمّا أصبحوا وخرج الحواريّون وعددهم ثمانية عشر فقالوا: أين واحد منكم فقد كنتم تسعة عشر من غير عيسى فقالوا: إن عيسى رفع إلى السماء فلم يصدقوهم لما كانوا يرون الرجل على

صورة عيسى فهم شكّوا وأخذوا الرجل المشبّه بعيسى وقتلوه وهم يظنونه عيسى فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧]، وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧] يقينًا بل رفعه الله إليه، ثم إن الروايات تواترت بأن عيسى ينزل من السماء وهو الآن في البيت المعمور ويقال في بيت من السماء قد طبعه الله تعالى على طبائع الملائكة وهو يعبد الله تعالى معهم إلى آخر الزّمان عند خروج الدّجال وخروج المهدي ثم إن الله تعالى ينزله، ويروى أنه ينزل بمكة والنّاس قد قاموا إلى الصلاة صفوفًا في صلاة الفجر وأقيمت الصلاة وتقدّم المهدي ليصلّي بهم، فبينما هم إذ منادٍ ينادي هذا عيسى قد نزل من السماء فيلتفت الناس فإذا هم بعيسى ابن مريم في وسط المسجد الحرام صُيّر فيفرّجون له حتى يتقدم فيقول له المهدي تقدّم وصلّ بالناس فيقول: لا بل أنت تصلّي فأنا واحد منكم ولست نبيًّا لكم بل أنا على شريعتكم فيتقدّم المهدي فيصلّي بالناس ويصلّي عيسى خلفه، وروى أبو هريرة أن النبيّ ﷺ قال: أنا أولى الناس بعيسى لأنّه لم يكن بيني وبينه نبيٌّ وأنه خليفتي على أُمَّتي آخر الزّمان وأنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع مائل إلى الحمرة والبياض سبط الشعر كثير خيلان الوجه كأنّ شعره يقطر ولم يمسّ ماءً ويروى كأنّه خرج من الديماس وأنه يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويفيض المال في أيّامه ويقاتل الناس ويحملهم على الإسلام ويقتل المسيح الدجال في زمانه ويأمن الخلق حتى ترتع الأسد والإبل والنمور والبقر والذئاب والغنم وحتى تلعب الصبيان بالحيّات فلا تضرهم في حديثٍ طويل، ثمّ إنّه يمكث أربعين سنةً ويروى سبعًا وعشرين سنةً، ويروى أنّه يتزوّج فيولد له ثم يقبضه الله تعالى فيدفنه المسلمون ويصلّون عليه، ويروى أنه يدفن في موضع القبر الرابع في حجرة عائشة عند قبر النبيّ ﷺ والله تعالى أعلم فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٩] الآية.

بابٌ في ذكر أصحاب عيسى بعده

روي أنّ القوم لمّا قتلوا الرّجل المصلوب بعد رفع عيسى إلى السماء أخذوا أصحابه فعذّبوهم وبلغ خبرهم صاحب الرّوم وكانت الشام وتلك النواحي في حكمه فبعث من انتزع الحواريين من أيدي اليهود وسألهم عن عيسى ودينه فأخبروه فتابعهم وقبل دين عيسى وبعث إلى اليهود فقتل منهم مقتلة عظيمة فمن ثم صارت النصرانية بالرّوم، وروي أن عيسى لما رفع إلى السّماء وخلّص الحواريين ورأسهم شمعون الصفار ويقال شمعون الصخرة شبّهوه في الصّلابة بالحجر فبعث كلّ واحدٍ من الحواريين، إلى ناحيةٍ كما أمره عيسى ومع كلٍّ منهم واحد من الأتباع الذين لم يكونوا من الحواريين فبعث قطرس من

الحواريّين ومعه يونس من الأتباع إلى الروم ووجّه أندرانيس من الحواريّين ومعه ميشا من الأتباع إلى بلاد المغرب وبعث مريوس ومعه رجل من الأتباع إلى أرض بابل ووجّه فليبس ومعه رجل آخر إلى القيروان وإفريقية ووجه يحنس ومعه رجل آخر إلى أفسوس(١) ونابان ويونان(٢) وهي قرية أصحاب الكهف ووجّه يعفوس ومعه رجل آخر إلى بيت المقدس وما والاها، ووجه يوفنا ومعه آخر إلى أرض الحجاز، ووجّه يعقوب ومعه رجل من الأتباع اسمه يهوذا إلى أرض بربر، ووجّه يحيىٰ وتومان إلى إنطاكية فلمّا قاموا وتفرقوا تلقتهم الملائكة بالمغارف التي وصفها لهم عيسى فلحسوا النور فتكلّم كلّ واحدٍ منهم بلغة تلك الأرض التي وجّه إليها وحملتهم الملائكة إلى باب تلك المدينة التي وجّه إليها من ساعته، قال وهب بن منبّهٍ فدخل يحيىٰ وتومان إلى إنطاكية وكان شمعون قد قال لجميعهم من احتاج منكم إلى معونتي أتيته وأعنته فأتى يحيىٰ وتومان باب ملك إنطاكية وكان جبّارًا عاتيًا، فقال لهما شمعون: إنّي منتظر لأمركما فإنّه لم يكن من الّذين بعث معهم من القوم إليهم أعتى وأشدّ تجبّرًا من صاحب إنطاكية فلما طلبا الدّخول إليه لم يؤذن لهما حتى إذا كان في بعض الأيام وخرج الملك من منزله يسير فابتدراه في الطريق ودعواه ووعظاه فبعث الملك إليهما ودعاهما وسألهما فبلّغاه الرسالة فأمر بهما فجلد كلّ واحد منهما مائة سوط وحبسهما في السجن فأوحى الله تعالى إلى شمعون بخبرهما فدخل شمعون متنكرًا فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: الآية ١٤] وهو شمعون فدخل شمعون إنطاكية ولزم قومًا من خواصّ الملك فجالسهم وجعل يحدّثهم حتى آنسوا به وأحبّوه وذكروه للملك ثم إن شمعون أراد الدخول على يحيىٰ وتومان في السجن فكان على السّجن بابٌ حصين وحرّاسٌ فطرق السجن ودام على فتح الباب فلم يقدر، فبعث الله تعالى ملكًا حتى قلع الباب ووضعه ناحيةً بعيدة فدخل شمعون على أصحابه وألقى النوم على الحرس حتى وصل شمعون إليهما وعزّاهما فضرب لهم مثلًا في عُنْفِهِمَا وعجلتهما على الملك وقال مثلكما مثل امرأةٍ عقمت زمانًا ثم وهب الله تعالى لها غلامًا بعد اليأس ففرحت به وأرضعته ثم قالت: أرى ولدي لا يشبّ سريعًا ولو أنّي أطعمته الخبز واللحم لكان إسراع في نباته وقوته فأطعمته الخبز قبل أوانه فغصّ به الولد فمات وكذلك فعلكما وعجلتكما الملك وأني سوف أحتال لكما حيلةً فأخلّصكما ثم إنه خرج

---

(١) أفسوس: بضم الهمزة وسكون الفاء، والسينان مهملتان والواو ساكنة بلد بثغور طرسوس يقال إنه بلد أصحاب الكهف، ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٢٣١.

(٢) يونان: بالضم ثم السكون، وتونين بينهما ألف، موضع من بيلقان، ويونان أيضًا من قرىٰ بعلبك، معجم البلدان، ياقوت الحموي، ٥/ ٤٥٣.

فعاد باب السجن كما كان قال ولما بلغ الملك خبر شمعون أمر به فأدخل عليه وكلّمه فرأى عقله ورأيه وبيانه فقرّبه فقال للملك يومًا من الأيّام بلغني أن في سجنك رجلين يزعمان أن الله تعالى أرسلهما إليك، فماذا قلت لهما وما قالا لك، قال الملك حال الغضب بيني وبين سؤالهما فأما إن شئت دعوت بهما فأكلّمهما قال شمعون: لا حاجة لي بهما ولا بقولهما، فأما إن أحببت كلمتهما لك وعندك قال: فدعا بهما الملك فقال لهما: أخبراني من الذي أرسلكما إلى هذا الملك وقومه قالا: إنّ الله تعالى أرسلنا قال: ومن هو؟ قالا: الذي هو على كل شيء قدير قال فقصّا عن عظمة الله تعالى قالا هو أعظم وأجلّ من أن تدرك عظمته ولكنّا نصفه لك في كلمتين وهو أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال شمعون: إن كنتما تقدران أن تنفذا ما وصفتما من عظمته حتى نعاين ذلك لشفعت لكما إلى الملك فيعفو عنكما، وإلا ردّكما إلى السجن والعقوبة، قالا: وأي شيء تريد أن نريك من عظمته وقدرته؟ قال شمعون: قد رأيت في هذه المدينة غلامًا ليس له عينان فإن جعلتما له عينين لشفعت لكما، فأمر شمعون فدعا الغلام ثم قال لهما: سلا ربّكما أن يجعل له عينين ننظر إلى ذلك فشخصا بوجوههما إلى السماء يدعوان الله تعالى حتى انشق موضع البصر وشمعون يدعو سرًّا فعلمهما الله تعالى كيف يصنعان فأخذا حثوة من التراب ثم وضعا التراب في راحة الغلام ثم بزقا فيه فعجناها وبندقاها مثل الحدقة ثم خطًّا على قدر العينين خطًّا بالسواد ثم وضعا البندقتين في موضع العينين فصارا عينين للغلام فانكسرت شوكة القوم فقال الملك لشمعون: لعلّهما ساحران، قال شمعون: أيّها الملك هذا الأمر أعظم أن يطيقه الساحر وسأعرض عليهما خصلة أخرى، قال الملك: فافعل فقال لهما شمعون: فأنا أسألكما شيئًا فإن قدرتما عليه فالحجّة لكما، قالا: وما هو؟ قال: تدعون الله أن يحيي ميتًا قد مات منذ سبعة أيّام فيبعثه، قالا: نعم، فأمر الملك فأتي بميّتٍ قال بعضهم كان الميّت ابن حبيب النجار، وقال بعضهم: كان ابن ابنة الملك فلمّا وضع بين يدي الملك على سرير قال لهما شمعون: فافعلا ما سألتكما فأقبلا على الدعاء والتضرّع والابتهال وشمعون يعينهما بالدعاء سرًّا، فلم يلبثا أن شقّقت عن الميت أكفانه ورد الله تعالى إليه روحه فاستوى جالسًا، فقال الملك: أخبرنا خبرك قال: إني متّ سبعة أيّام، فعرض عليّ عملي فوجدت مشركًا فقذفت في سبع أودية من النّار فكنت في كلّ واحدٍ منها يومًا وفي كلّ وادٍ من ألوان العذاب ما لم أر مثله في الواد الآخر حتى اليوم، وإن الله تعالى أحياني وردّ إليّ روحي فلمّا حييت قيل لي انظر فوقك فشخصت ببصري ففتحت لي أبواب السماء فنظرت فإذا أنا برجل شاب حسن الوجه أبيض يخالطه حمرة متعلّق بالعرش يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: وأي الثلاثة قال: لهذا الشيخ الأصبح، ولهذا

الكهل الأترع، ولهذا الفتى الرجل يعني بالشيخ شمعون وبالكهل يحيىٰ وبالفتى تومان فقيل لي: إن هذا الذي هو الذي يشفع لأصحابه الذين في مدينتكم عيسى لأن أصحابه شفعوا حتى أحياك الله تعالى وأخرجت من جهنم فهذه قصتي قال: فلمّا سمع الملك قوله ورأوا ما رأوا آمن الملك وقوم من أهل المدينة وأبى الآخرون وروي أن هذه القصة على وجه آخر وذلك أن الرجلين لما حبسهما الملك حبسهما في دار عجوزة فقيرة فكانا يتعبدان ويدعوان الله تعالى فقالت لهما العجوز إن كنتما صادقين في نبوتكما فادعوا الله تعالى ليغنيني فدعوا لله تعالى حتى صُيّر جذعًا كان في بيتها شجرةً مورقة مثمرةً فكانت هي وأولادها يأخذون ما شاؤوا من طعام وثمرٍ فانتشر خبر ذلك فقيل إنهما ساحران، فأمر الملك بهما فألقيا في بئرٍ ومعهما أسد ضارٍ فمكثا ثلاثة أيام ثمّ نظر الملك إليهما فإذا هما سالمان من الأسد لم يضرهما شيئًا فأخرجا من البئر وحبسا في السجن فبلغ خبرهما شمعون فجاء على هيئة تاجر ودخل على الملك فكلّمه فاستطاب للملك كلامه فأعجبه وأعقله فاختاره لنفسه، ثم إنّه امتدّ مدة فقال للملك: سمعت في سجنك رجلين يدّعيان النبوّة، وذكر القصة إلى إحياء الميّت فقال شمعون: هذا شيء لا يقدر عليه غير الله عزّ وجلّ وأنا أشهد لكما بالصّدق فأراد الملك أن يؤمن بهما وكان له وزيرٌ فقال للملك: إنّي أظنّ أنه من أصحابهما وأنه قد واظبهما على فعلهما وأمرهما سرًّا فمنع الملك من الإيمان فأمر الملك بيحيىٰ وتومان فجيء بتمثال بقرةٍ من النحاس وأوقد في جوفها نارًا حتى التهبت ثم أمر بهما فألقيا فيها فهلكا، فلمّا رأى ذلك شمعون وأقرّ أنّه من أصحابهما فأمر به الملك فقتل، وقيل: بل دعا الله تعالى فأخفاه من أعينهم فخرج من المدينة متخفيًا والله تعالى أعلم، وقال أهل الرواية الأولى لما آمن الملك بالله وتفرّق قومه من أهل المدينة عن الإيمان وهمّوا بقتل هؤلاء الثلاثة فسمع ذلك حبيب النجار وكان ابنه الذي دعا له يحيىٰ وتومان فجاءهم و﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١﴾ [يس: الآيتان ٢٠، ٢١]، فقالوا له: وأنت تقرّبهم ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣﴾ [يس: الآيتان ٢٢، ٢٣] إلى آخر الآية، فأخذوه وبطّوا بطنه حتى خرج قُصْبُهُ من أسفله ويقال: بل خرقوا خلقه وجعلوا فيه سلسلة أمعائه فعلّقوه بها من صور المدينة ويقال: بل سمّروه بالأوتاد إلى حائط المدينة حتى مات، فلما قبض الله تعالى روحه ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾ [يس: الآيتان ٢٦، ٢٧]، قال الحسن رحمه الله تعالى إن حبيبًا جعل ينصح قومه بعد مماته كما نصحهم في حياته لم يمنعه من نصيحتهم ما فعلوا به، ولما أن فعلوا ذلك أوحى الله تعالى إلى شمعون

وصاحبيه أن اخرجوا من المدينة فإني مهلك من فيها، وأخرجوا معكم من اتبعكم فخرجوا ومن آمن معهم فأرسل الله تعالى جبرائيل إليهم عند الصبح فصاح فيهم صيحةً فخمدوا جميعًا فذلك قوله: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾ [يٓس: الآيتان ٢٨، ٢٩]. قالوا: ومضى الأنبياء الثلاثة ومن معهم سالمين ويقال: رجع الملك ومن آمن إلى المدينة وتوطنوها والله أعلم، قال الشيخ وسمعت شيخيّ رحمة الله تعالى عليه يقول: روي أن الله تعالى لما بعث جبرائيل لإهلاك إنطاكية دخل المدينة على صورة فارس وكان لأهل إنطاكية في ذلك اليوم عيد يخرجون فيه، وكانوا قد خرجوا إلى عيدهم ولم يبقَ في المدينة من الرّجال أحد فسار جبرائيل في بعض السّكك فرأى نسوة جلوسًا على قارعة الطريق فقال لهنّ: ما بالكنّ على قارعة الطريق قلن لأنّ المدينة خالية من الرجال اليوم فخرجنا فقال: وأين رجالكنّ فقلن: خرجوا إلى عيدهم فقالت واحدة منهن: أمّا زوجي فإنه قد خرج يطلب عودًا ذا شعبتين يعمد به ذقنك لئلا يتعب يدك، وذلك أن جبرائيل كان في ذلك الوقت قد وضع يده تحت ذقنه على قربوس السرج يحدثهنّ فهزلت المرأة به فخرج جبرائيل عن المدينة وأمهلهم إلى أن يرجع القوم من عيدهم واجتمعوا ليلتهم فأتى باب المدينة وقت الصبح وأخذ بعضادتي الباب وصاح صيحة فلم يبق في المدينة ذات روح إلّا هلك فذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ يعني صيحة جبرائيل ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ [يٓس: الآيتان ٢٨، ٢٩] أي ميتون لا يتحرّكون.

باب في ذكر ما كان بعد عيسى عليه السلام من الأمور

قال الشيخ إن ممّا كان بعد عيسى من الأمور التي ذكرها الله تعالى في كتابه أمر مدينة حضور[١] ويقال حضروا وهي قرية كانت في اليمن وإن الله تعالى بعث إليهم رسولًا يقال له حنظلة الصادق وكان من قبائل بهراء[٢] من قبائل اليمن وكان قومه أهل

---

(١) جاء في الأصل (حاضوراء) خطأ والصواب (حضور) بفتح أوله وبالراء المهملة على وزن فعول موضع باليمن، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ت ٤٨٧ هـ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ١/ ٤٥٥.

(٢) بهراء: وهي قبيلة نزل أكثرها حمص من الشام وينسب إليها خلق كثير هكذا وجدتها في: ابن الأثير - اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ١٩١.

تلك المدينة فدعاهم حنظلة إلى الله تعالى فآمن به قوم وكفر الآخرون، ثم إنّ الكفّار قتلوا حنظلة وخرج أصحابه المؤمنون فقاتلوا المشركين فانهزم المؤمنون وقتلوا فبعث الله تعالى عليهم ملكًا من ملوك بابل فجاءهم حتى نزل بساحتهم فخرج القوم إليهم فقاتلوهم فانهزم أهل المدينة وخرجوا من مدينتهم هاربين فاستقبلتهم الملائكة شامرة سيوفهم يضربون الهاربين ويقولون أين ترتدّون ﴿وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٣] عن قتل نبيّكم، وفي رواية أخرى أنّهم هزموا أوّل مرّة ملك بابل ثم قاتلهم مرةً أخرى فهزمهم فجاءتهم الملائكة بين أيديهم بالسيوف يقولون: يا أهل ثارات ولا يمسّون النبيّ، فلمّا رأوا الصوت لا يسكن عنهم عرفوا أنه من تسليط الله تعالى﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٤] بقتلنا النبيّ ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٥] الكلمة ﴿دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٥] أي ميّتين لا يتحرّكون، قال ابن عبّاس: كان أصحاب عيسى وأمته متمسكين بالإسلام بعد رفعه إلى السماء إحدى وثمانين سنة حتى أضلّهم بولس، وروي أن بولس كان يهوديًا أراد أن يضلّ أهل الإسلام من قوم عيسى فجاء على هيئة راهب من الرهبان ودخل بيتًا من البيوت وأقام فيه أربعين يومًا، ويقال أربعة أشهر لا يخرج ولا يرى حتى افتتن به الناس وتماروا من عبادته فاجتمعوا إليه يومًا من الأيّام وأرادوا أن يروه فخرج إليهم متوكئًا على عصاه وعلى وجهه برنس، ثم قال لهم: اختاروا من علمائكم ورهبانكم ثلاثة نفر هم أوثق الناس في أنفسكم فأكلّمهم فاختاروا منهم ثلاثة نفر أحدهم نسطور والثاني مار يعقوب والثالث ملكا ثم إن بولس خلا بأحدهم وقال: إني رسول المسيح إليكم وإنه قد ارتفع إلى السماء وبعثني حتى أخبركم بخبره، ثم قال له: أليس تعلم أن عيسى يحيي الموتى ويفعل كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: أو لست تعلم أن هذه الأفعال لا يقدر عليها غير الله تعالى قال: بلى، قال: إن عيسى هو الله نزل من السماء إلى الأرض فدبّر أمرها ثم صعد إليها وخلا بالآخر وقال: ألست تعلم أن عيسى كان يفعل كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: أو لست تعلم أن هذه الأفعال لا يقدر عليها إلّا من كان إلـٰهًا قال: وإن الله تعالى لا يزول من مكانه، قال: بلى، قال: فاعلم أنّ عيسى كان ابن الله أنزله الله تعالى إلى الأرض ثم رفعه به إليه ثم خلا بالثالث وقال له مثل ما قال لصاحبيه، ثم قال: فاعلم أنّ عيسى كان إلـٰه الأرض والله تعالى إلـٰه السماء إلّا أن عيسى لما قصد الناس إلى قتله اختفى منهم وهو يظهر آخر الدهر، وقد أرسلني إليكم بهذا قال ثمّ إنّه دخل الصومعة وذبح نفسه تلك الليلة، فلما أصبحوا سأل النفر الثلاثة عمّا قال لهم بولس فأخبر كلّ واحدٍ بما قال له فكذبه الآخرون فلمّا اختلفوا فتح الناس باب الصومعة ليسألوا بولس عما قال لهم فوجدوه مذبوحًا فبقي الاختلاف بينهم واتبع

كلّ واحدٍ منهم قوم فمن ثم ظهر اختلاف النصارى قال الله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: الآية ٣٧] الآية، قال الشيخ هذه رواية أهل الأخبار فأمّا رواية أصحاب الكلام عن اختلاف فرق النصرانيّة فعلى غير هذه اللفظة وهي مذكورة لشيخنا في كتاب المقالات بتفصيلها ولا يعدّ بها من طلبها من موضعها فلم نكتبها.

باب في ذكر أصحاب الكهف وشأنهم[1]

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: الآية ٩] قال الشيخ قد اختلف الناس في وقتهم فقال قوم: إنهم كانوا قبل عيسى ودخلوا الغار فأيقظهم الله تعالى بعد عيسى، وقال بعضهم: لا بل كان أمرهم كلّه بعد عيسى واختلف في أمر الفتية ومن كانوا وكيف كان أمرهم، فقال قوم: هم من أهل مدينةٍ من مدائن ناحية يونان التي كانت فيهم الفلاسفة وقد صارت اليوم بحرًا وكان يقال لها أفسوس[2] وكان أهل تلك الناحية على دين عيسى وذكر أن سبب إسلام أهل تلك الناحية أن عيسى لما دعا الناس وأظهر المعجزات وكانت بلاد الشام متصلة ببلاد يونان من جانب البحر فبلغ خبر أهل تلك الناحية وكان جالينوس[3] الطبيب في ذلك الزمان، فلمّا سمع بأخبار عيسى وأنّه يشفي المريض ويبرىء الأكمه والأبرص وذلك أن الله تعالى أعطى لكل نبيّ معجزةً على حسب ما يكون من أمر أهل زمانه فكان زمن موسى زمن السحرة وكثرة السحر فأعطاه الله تعالى العصا التي غلب بها سحر السحرة وعجزوا عنها، وكان زمن عيسى زمن الطبّ وكثرة الأطباء فأعطاه الله تعالى معجزات تشبه الطّب فعجزت عنه الأطباء، وكان زمن محمّد المصطفى ﷺ زمن الفصاحة والبلاغة فأعطاه الله تعالى معجزة من ذلك الباب وهو القرآن المعجز حتى عجز عنه الفصحاء كلّهم، ولما سمع جالينوس خبر عيسى بعث نفرًا من تلاميذه إليه وقال: انظر ما يصنع هذا الرّجل وارجع إليّ بخبره،

---

(١) من أراد زيادة في التفاصيل عن أصحاب الكهف ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٢٥، ٦/٣ - ٤٩.

(٢) أفسوس: مدينة سبق التعريف بها.

(٣) جالينوس: اسم جالينوس معناه الساكن وقيل ترجمته بالعربية معناه الفاضل خاتم الأطباء الكبار المعلمين وهو الثامن منهم، كانت مدة حياته سبعًا وثمانين سنة، ومن جملة من ذكر أن جالينوس كان معاصرًا للمسيح، سكن مما يلي الفرات قريبًا من الأنبار له مؤلفات عديدة في الطب والحكمة. ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ص ١٠٩ وما بعدها.

فجاء الرّجل ومعه جماعة إلى عيسى ونظروا في أمره فرأوه يفعل ما ذكرناه من معجزاته ثم رجعوا إلى جالينوس فسألهم فقالوا: إنّه يبرىء الأكمه فقال هذا يدخل في الطبّ قالوا والأبرص قال: وهذا أيضًا يدخل في الطبّ قالوا: ويشفي أنواع الأمراض قال: وهذا أيضًا يدخل في الطبّ قالوا: وإنّه يحيي الموتى، قال جالينوس: أمّا هذا فليس في شيءٍ من الطبّ فإن كان هو يفعل هذا فهو نبيٌّ ثمّ تجهّز ليسير إليه فركب في البحر فمرض وأصابه علّة المشي وضعف فقال له أصحابه: يا سبحان الله أَنت تعالج الناس كلّهم كيف لا تعالج نفسك؟ فقال لهم جاليونس: إني قد أعالج بما أعلمه ثم أمر حتى أتي بكوز من ماء فوضع بين يديه وكان يتناول دواء اتخذه لعلته فطرح شيئًا مما كان يتناوله في الكوز فتركه ساعة ثم أمر بالكوز فكسر فثبت الماء منعقدًا لا يسيل فقال لهم: إن قوة هذا الدواء في الإمساك على ما ترون أنه انعقد به ماء الكوز، وأنا أتناول كلّ يوم منه فلا يؤثر ليس ذلك إلا أن الأجل قد حان، ثم إنه أوصاهم وقال: إن أنا مُتُّ فادفنوني واخرجوا إلى عيسى فآمنوا به، ففعلوا وإنه مات جالينوس فدفنوه ومضوا إلى عيسى فاتبعوه وجمع بعضهم أو كلّهم إلى ناحيتهم وأخبروا الناس بخبر عيسى وفرق شمعون الحواريّين في البلاد وبعث إليهم رجلين كما ذكرناه فآمن بعيسى أهل تلك الناحية واتبعوا دينه، فكانوا مسلمين إلى أن ظهر على تلك الناحية ملك جبّار يقال له: دقيانوس ويقال: دقينوس ثمّ إنه قال بعض الناس إنه كان ملك من ملوك الرّوم ويقال: بل كان من ملوك بابل سلّطه الله تعالى عليهم ويقال: بل كان من ملوك ناحية يونان قيل ذلك كلّه وإنّه كان مجوسيًّا يعبد النار، ويقال: كان عابد وثنٍ فجعل يحمل الناس على دينه قهرًا ومن لم يتابعه قتله وجعل ينقل من بلد إلى بلد فيفعل بأهل كلّ بلدة كذلك حتى نزل مدينة أفسوس التي كان منها أصحاب الكهف فعرض عليهم دقيانوس فمنهم من تابعه ومنهم من خالفه فمن تابعه أكرمه وأعطاه ومن خالفه قتله فاستخفى منه المؤمنون فهربوا في كلّ وجه وكان قد اتخذوا شرطًا من الكفّار يتّبعون المسلمين فيخرجونهم من مكانهم إلى اللّعين فيقتلهم ويقطعهم عضوًا عضوًا فيعلّقها في المدينة حتى عظمت الفتنة والبليّة وكان في المدينة فتية من أولاد عظمائهم وهم سبعة نفر وذكر أسماؤهم فقيل كان أحدهم مكسلمينا وهو أكبرهم، والثاني مخشلمينا، والثالث تمليخا، والرّابع مرطوس، والخامس كشوطوس، والسّادس هرموس، والسّابع دينموس ويقال اسم الثاني والثالث هو مطونس وقالوس ويقال غير ذلك والله أعلم، ولمّا أن فعل الملك ما فعله اختفى منه هؤلاء الفتية في بيتٍ لهم وجعلوا يصلّون ويدعون ويتضرعون إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا ويسألون الله تعالى أن يعصمهم من شر الجبّار ثم إنّ قومًا من اليهود دلّوا الشرط الذين كانوا يأخذون المسلمين على هؤلاء

الفتية فأخذوهم وجاؤوا بهم إلى الملك ويقال إن دقينوس اتخذ عيدًا واتخذ صنمًا ودعا الناس إلى القربان لآلهة الصّنم وقال: من تخلّف عنّي وعن أمري جعلته نكالًا فهجم قوم على هؤلاء الفتية وهم في بيتٍ مستخفين يدعون الله كما ذكر الله ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: الآية ١٤] ثم أخبروا الملك بحالهم ومخالفتهم لدينه وتخلّفهم عن عيده فبعث إليه من أتى بهم، فقال لهم: من الّذي خلّفكم ومنعكم عنّي وعن الذبح لإلـٰهي وحضور عيدي؟ فقالوا: وقد اصفرت وجوههم وارتعدت فرائصهم من خوفهم ماذا تأمرنا به أيّها الملك قال: أن تسجدوا لصنمي وتذبحون له وتتابعوا ديني فقال كبيرهم وهو مكسلمينا أيّها الملك أتأمرنا أن نسجد لصنم ميّتٍ لا يضرّ ولا ينفع ولا يبصر ولا يسمع هذا لا يكون ولا نفعله أبدًا قال فمن الّذي تسجدون له وتدعونه إلـٰهًا ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: الآية ١٤] وهو ربّنا وربّك ورب الخلق أجمعين فامتلأ غيظًا وغضبًا وكان متكئًا فاستوى جالسًا وقال لأصحاب مكسلمينا: أكلكم على هذا القول الذي يقوله؟ قالوا: نعم فأمر بهم إلى القتل فرأى كبيرهم الجزع في وجوه بعض أصحابه فقال للملك: إنّه ليس الرّأي إلّا أن تؤخرنا حتى نتآمر فيما بيننا، فإن رأينا الدخول في دينك دخلنا، وإلّا فأنت وما تريد قال الملك: ذلك لكم ويقال: إن الملك قال لهم: لولا أني أرى من حداثة سنّكم وأنّكم من أشراف قومكم ولا أحبّ العجلة عليكم لكنت أقتلكم اليوم ولكنّي أمهلكم لأنظر في أمركم، فإن دخلتم في أمري أكرمتكم وإلّا كنت أغدرتكم في بابكم إلى الناس فيما أصنع بكم، قال الشيخ وروى قوم بأنّ دقيانوس كان ملك مدينة أفسوس وكان يدعي الألوهيّة ويحمل الناس على عبادته وكان هؤلاء الفتية من أولاد أشراف المدينة واستخدم بهم الملك فيقومون على رأسه وكانوا إذا رجعوا أتوا إلى بيتٍ واحدٍ منهم بالنوبة فيومًا عند هذا ويومًا عند آخر وكان يأنس بعضهم ببعضٍ لا يتفرقون، وإن دقيانوس كان له عيد يخرج إليه في السنة ويذبح فيه الذبائح ثمّ يطعم الناس كلّهم عنده وأنه خرج لعيده في بعض السنين وذبح ما أراد ووضع المائدة بألوان الأطعمة واستحضر من أراد فلمّا قعدوا للطعام كان الفتية السبعة الواقفون على رأسه للخدمة فبينما هم كذلك إذ ورد عليه بعض عيونه يخبره بأن ملكًا من الملوك الذين يتأذونه قد خرج يريده بعساكره، فلمّا سمع بذلك دقيانوس تغيّر وجهه واغتم لذلك وتنقّص عليه عيده وسروره وقام سريعًا إلى منزله ودعا الناس من خواصّه للمشورة فلمّا رأى الفتية حاله وخوفه من عدوّه ارتابوا في أمره حتى إذا رجعوا من خدمته إلى منزل بعضهم على عادتهم التي اعتادوها وطعموا فقال لهم أكبرهم وهو مكسلمينا يا إخوتي لقد خطر اليوم ببالي أمرٌ لست أتجاسر أن أظهره لكم فإن

عاهدتموني بكتمانه عليّ أخبركم به، فأعطوه مواثيقهم على أن يكتموه عليه فقال لهم: هل رأيتم اليوم حال ملكنا عندما أتاه خبر العدوّ ما كان من تغيّره وفزعه واضطراب أمره، قالوا: نعم، قال: فلو كان إلـٰهًا كما يزعم ما كان يخاف غيره ولا فزع من أمره وقد رأيت أنّ إلـٰهنا غيره وأنّه هو الذي خلقه وخلق السمـٰوات والأرض والشمس والقمر وسائر ما ترى قال: فقال كلّ واحدٍ منهم وهكذا خطر ببالي إلا أنّي لم أتجاسر أن أوضح به، فأمّا إذا ظهرت ما ظهرت فنحن على قولك ورأيك ثم قالوا: فما الحيلة في أن نخرج أنفسنا من عبادة هذا الكافر ونخلص إلى عبادة الله عزَّ وجلّ قالوا: إنه لا يمكننا ذلك ما دمنا عنده فإنه أمرنا بعبادته ولا يتركنا نعبد غيره وإن عثر علينا عاقبنا على فعلنا ولا وجه لنا إلا الخروج من هذه المدينة إلى موضع آخر لئلا يعرفنا أحدٌ لعلّنا نتخلّص من عبادة هذا الرّجل ونصل إلى ما نريده فأجمعوا على ذلك وتهيّؤوا له سرًّا فلمّا كان وقت ميعادهم للخروج أخذ كلّ واحدٍ منهم من مال أبيه ما قدروا عليه وخرجوا في جوف الليل، ويروى أن الملك كان قد وكّل بأبواب المدينة من يحرسها لئلّا يدخلها أحدٌ إلّا بإذنه وعلمه، فلمّا انتهوا إلى البواب الذي على بعض أبوابها منعهم عن الخروج فقالوا: إن الملك أرسلنا في مهمٍّ له لا يحتمل التأخير وإنا لن نصل إليه الليلة وإن أخّرنا أمرنا إلى البكرة تغيّر علينا الملك فدعنا للخروج، ثم أخبره بالغداة فصدّقهم البواب لما عرف أنهم من خواصّ الملك فظن أن الأمر كما ذكروه فتركهم حتى خرجوا وأنّهم لما خرجوا تنكّبوا عن الطريق لئلا يعثر عليهم من يخبر عنهم فمرّوا بمسيرهم ببعض الرعاة في بعض الشعاب فنظر إليهم وقال: أيّها الفتية من أنتم؟ فإنه ليس عليكم أثر السّفر ومع ذلك فقد أراكم كالخائفين فما شأنكم؟ فلم يجسروا أن يخبروه، وقالوا: ما حاجتك إلى تعرّف أمرنا نحن قوم مجتازون أصابتنا حادثة خرجنا لأجلها ونحن نحتاج إلى الطعام فإن كان عندك شيء اشترينا ومضينا فقال لهم: ما يكون عند الرعاة من خرملة ولبنٍ وجبن وإن شئتم ذبحت لكم شاةً فقالوا له: افعل ففعل ما قدر عليه وأضافهم ثم إنّهم أرادوا السفر فقال لهم: أخبروني أيّها الفتية عن حالكم فإن كان لكم قصد فلعلّي أصاحبكم فقد تعلّق قلبي بكم فواثقوه على أن لا يخبر بحالهم أحدًا إن صحبهم أو لم يصحبهم فضمن لهم وعاهدهم فأخبروه بقصّتهم، فقال: وليس الحقّ إلّا ما ذكرتموه وأنا على دينكم ورأيكم وسأصحبكم ولا أفارقكم أبدًا فأنظروني كي أردّ الغنم إلى أربابها، ثم مضى ففعلوا وفعل هو ذلك وصحبهم فقالوا: نحن لا يمكننا السير نهارًا فربما يرانا أحدٌ يرفع أمرنا إلى الملك فمن سبيلنا أن نختفي بالنهار ونسير بالليل، فقال الراعي أن نلتجىء إلى هذا الجبل فإني أعرف في بعض شعابه غارًا صالحًا فندخله يومنا حتى إذا جن الليل خرجنا فاستصوبوا رأيه ومضوا وهو يتقدمهم إلى أن وصلوا إلى الغار فدخلوه.

رجعنا إلى الرواية الأولى قالوا: إن الملك لمّا أخّر أمرهم عرض له مهمّ في بلدةٍ أخرى فخرج بجنوده إليها وقال للفتية إني راجع، فإن اتبعوني إذًا رجعت فإن تابوا من مقالتهم وإلا عاقبتهم، فلمّا خرج قال الفتية فيما بينهم ليس لنا إلّا الخروج قبل أن يرجع الطاغي فيأخذنا ويعذّبنا فيعمد كلّ واحد منهم من مال أبيه ما أمكنه وخرجوا هاربين، ثم إنهم مرّوا بالرّاعي فكان من أمره وأمرهم ما ذكرناه ولما أن صحبهم الراعي كان له كلبٌ يقال إن لونه كان أصفر وكان اسمه قطمير فتبعهم الكلب فقال بعضهم: إن هذا الكلب ربّما رأى شيئًا فينبح فيستدل علينا بنباحه فمن سبيلنا أن نردّه عنّا فقالوا للراعي نحّه عنّا، فقال الراعي: إنّه قد طالت صحبتي له فلست أجد من قلبي أن أنحّيه فنحّوه أنتم، قال: فرماه بعضهم بحجرٍ فأقعى الكلب على ذنبه وتكلّم وقال: ما بالكم ترمونني إن قصدتم ربًّا تريدون عبادته فإني قد عرفته قبلكم قال: فاستحيوا منه وتركوه معهم حتّى إذا بلغوا إلى الغار فدخلوه، ويروى أن اسم الغار هو الرقيم واسم الجبل الذي فيه الغار ياجلوس ويقال ينجلوس، ثم اختلفت الروايات فقال بعض الناس إنهم لما دخلوا الغار قالوا: لا بدّ لنا ممن يأتينا بطعامنا وشرابنا وحوائجنا ويستطلع لنا من أخبار دقيانوس فنكون منه على علم وهذا قول من قال إنهم دخلوا للمكث فيه إلى أن يحكم الله تعالى في أمرهم فقال: أصغرهم تمليخا أنا أحق من قام لكم بهذا، فأنا أصغركم فكان ينطلق إلى المدينة سرًّا ويأتيهم بما يصلحهم وبالأخبار حتى رجع دقيانوس من وجهه إلى المدينة فسأل عن الفتية فقيل له: إنهم هربوا فأخذ آباءهم وأهاليهم وقال لهم: احضروهم فقالوا: لا تظلمنا أيّها الملك فإنّهم قد خرجوا من غير علمنا ومع ذلك إنّهم قد ذهبوا بأموالنا فقال: أفلا تعلمون مكانهم؟ قالوا: نسمع بأنّهم خرجوا نحو هذا الجبل فأمر الملك فنودي في الناس إلا أن الملك راكبٌ إلى هذا الجبل في طلب الفتية فاخرجوا وكان تمليخا قد دخل البلد لبعض الحوائج فسمع بذلك فبادر إلى أصحابه ومعه طعام لهم قد اشتراه فأخبرهم الخبر كلّه فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل واستعاذوا بالله تعالى من شر دقيانوس ثم إنّهم أكلوا ووضعوا رؤوسهم للنوم وضرب الله تعالى على آذانهم فناموا والكلب على الباب كما ذكره الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف: الآية ١١]، وقال ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: الآية ١٨] أي بفناء الكهف وانتهى دقيانوس إلى الغار، وقال لخازنه واسمه مارنوس وكان مؤمنًا يكتم إيمانه فادخل الكهف وانظر من فيه فدخل مارنوس فرآهم نائمين فلمّا رآهم لم ينتبهوا ورأى أنّهم غير موتى فعلم أن ذلك من لطف الله تعالى وتدبيره لهم لئلا يفزعوا من الملك وجنوده فخرج وقال: أيّها الملك إنّ القوم قد ماتوا جوعًا وإنّك لا تعاقبهم بشيء أشدّ ممّا هم فيه، فقال الملك سدّوا عليهم باب الكهف فسدّوه وعلم الخازن أن ذلك من آيات الله تعالى وأنه يكون لهم نبأٌ يومًا

فأخذ الخازن لوحًا من الرّصاص وكتب فيه بالنقر أسماءهم وأنسابهم ونبأهم وفرارهم عن دينهم وتاريخ الوقت الذي كان ذلك وانصرف دقيانوس إلى المدينة، ومضى على ذلك زمان ومات دقيانوس وملك بعده ملوك حتى ملك المدينة رجلٌ صالح يؤمن بعيسى يقال له داناسيس وهدم بيوت الأصنام وبنى المساجد وتَمّ من السنين ثلاثمائة سنة وتسع سنين بقول الله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: الآية ٢٥] وكان الله تعالى يبعث إليهم جبرائيل في السنة مرتين فيحولهم من مضجع الصيف إلى مضجع الشتاء ومن مضجع الشتاء إلى مضجع الصيف ويقلّبهم من جنب إلى جنبٍ لئلا تأكل الأرض لحومهم فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: الآية ١٨] وفتح الله تعالى أعينهم حتى لا تقدر أحداقهم وإذا رآهم راءٍ ظنّ أنّهم أيقاظٌ قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: الآية ١٨] حتى حان وقت بعث الله تعالى إياهم قال وكان رجل من أهل المدينة صاحب غنم فجاء بغنمه إلى الشعب الذي فيه الغار ورأى الغار مردومًا ولم يدر قصته فهدم الردم ليتخذ زريبة لغنمه على باب الغار ولم يدخل الغار فصرفه الله تعالى عن ذلك الغار، ثم إنّ الله تعالى بعث الفتية وأرسل إسرافيل حتى أجلسهم وبعث كلّهم فقال بعضهم لبعض: كم كان نومنا؟ فقالوا: لبثنا في النوم يومًا فلمّا نظروا إلى الشمس رأوها لم تغرب وذلك أن الله تعالى أنامهم أوّل النّهار وبعثهم آخر النهار، فقالوا: أو بعض يوم ثمّ قاموا وتوضّؤوا وصلّوا، قالوا: ثم يا تمليخا انطلق إلى المدينة فأتنا بطعام وبخبر الملك وذلك قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: الآية ١٩] حلالًا لا يكون فيه لحم خنزير أو ميتةٍ، ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: الآية ١٩] في دخوله وخروجه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ١٩]، ﴿إِنَّهُمْ﴾ [الكهف: الآية ٢٠] يعنون دقيانوس وقومه، ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ [الكهف: الآية ٢٠] قتلًا، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ [الكهف: الآية ٢٠] قهرًا، ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: الآية ٢٠] فخرج حتى بلغ الردم على باب الغار فقال: يا عجبًا ما هذا الردم، ولم يكن بالغداة فمتى بني ومتى هدم ثم مضى في الطريق وكان لا يعرف أحوال الطريق وأعلامه فتحير حتى انتهى إلى باب المدينة فإذا بمسجد فيه صورة عيسى واسمه قال سبحان الله كان بالأمس بيت صنم فلم أره فأتى باب المدينة فلم يعرف شيئًا منها ورآها غير ما كانت فقال في نفسه: تراني كأنّي في المنام، ولمّا دخل المدينة لم يعرف أحدًا من أهلها ورأى زيّهم خلاف الذي كان رآهم ورأى رجلين يحلفان بالمسيح وإله المسيح، فقال لأحدهما: أي مدينة هذه قال: أفسوس قال: دُلّاني على طبّاخٍ فدلّاه فجاء إلى خبّاز فأخرج ورقة ليشتري طعامًا فإذا هو درهم كبير لم يروا مثله وإذا هو بضرب دهر طويل، فقالوا للفتى:

إنَّك قد وجدت كنزًا فقال القاضي دلّنا عليه ولا بأس عليك قال: والله ما أصبت شيئًا؟ قال: فمن أين لك هذا الدرهم؟ فقال: إني أخذته من منزل أبي بالأمس، قالوا: ومن أبوك؟ قال: فلان قالوا: نحن لا نعرف في هذه البلدة من تذكره قال: فجعل يسأل عن أهل البلدة فيقولون لا نعرف أحدًا ممن تقول قال: وما فعل فلان بن فلان قالوا: ولا نعرف هذا؟ فقالوا: إنك تتجانن علينا لتفوز بكنزك، قال: فجروه إلى الملك فظن الفتى أنّهم يذهبون به إلى دقيانوس فقال: ويلي الآن يقتلني دقيانوس قالوا: وما دقيانوس؟ قال: أليس الملك هو دقيانوس؟ قالوا: يا مجنون إن دقيانوس قد مات منذ دهر ولا يعرف زمانه أحد فزاد الفتى تحيرًا، فلما دخل على الملك نظر إلى إنسانٍ صالح يذكر الله تعالى ويذكر المسيح فتعجب الفتى فلمّا سأله الملك عن حاله وقال له: من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلانٍ قال: وأين منزلك؟ قال في سكة كذا في محلة كذا في جوار فلان، قال الملك: إنك إمّا مجنون وإمّا محتال تريد أن تتخلّص منّا فقال: إني أخبركم بخبري، فقصّ عليهم قصته وقصّة أصحابه فلم يعرفوا شيئًا مما قال فدعا الملك بالعلماء فسألهم عما يقول فعرفوا أمره وأمر الفتية فقالوا: نعم كان هؤلاء فتية هربوا في أوّل الدهر من دقيانوس الطاغي، ثم قال الملك للفتى أين أصحابك؟ قال: في هذا الجبل قال: فامضِ بنا إليهم، فقام الملك ومن معه من الأحبار والرهبان والمؤمنين واشترى الفتى طعامًا وقال للملك دعوني أهديكم لكن أتقدّمكم إلى أصحابي فسبقهم وأخبرهم بالملك والناس فدعوا الله تعالى أن يعيذهم منه فجاء الملك ومن معه إلى الردم فوجدوا اللوح الّذي فيه أسماؤهم وقصّتهم فدخلوا عليهم وهم في السّجود فنادوهم فرفعوا رؤوسهم، وتقدم الملك فقبّل رؤوسهم وأيديهم وأرجلهم وسألهم عن حالهم ثم أمر الملك أن يأتوهم بطعامٍ وشراب حتى أكلوا وشربوا ثم إنّهم قالوا للملك: حفظك الله تعالى في نفسك ورعيّتك وحاجتنا إليك أن لا تزعجنا من مكاننا، ثم إنّهم وضعوا رؤوسهم وقبضهم الله تعالى إليه فأمر الملك لهم بأكفانٍ من ديباجٍ وتوابيت من ذهبٍ ووضعهم في الغار فرأى الملك فيما يرى النائم أنّهم قالوا أيّها الملكُ أخرجنا من توابيتك وأكفانك فنحن في أكفان الجنّة، فأمر الملك وأخرجوا ووضعوا في ثيابهم في الغار وتركوا فأمر الملك حتى بُني على باب الغار مسجدًا واتخذ ذلك اليوم الذي وجدوا فيه عيدًا يأتونه كل سنة.

قال الشيخ: هذه إحدى الروايات وفي روايةٍ أخرى أن الفتية لما دخلوا الغار قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: الآية ١٠] ثم إنّهم طعموا من شيءٍ كان معهم ووضعوا رؤوسهم فضرب الله تعالى على آذانهم ثلاثمائة وتسع سنين ثم إنّه بعثهم فكان دخولهم الغار قبل أيّام عيسى وبعث الله تعالى آياتهم

بعد عيسى بدهرٍ وهذا أصحّ عندي لأن ابن عباسٍ يقول: كان بين عيسى وبين محمّد ﷺ خمسمائة وخمسون عامًا، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: الآية ٢٥]، فلو كان ذلك كلّه بعد عيسى لكان لا يكون من بعث الله إياهم إلى النبي ﷺ مدة طويلة والله أعلم قال هؤلاء لما بعثوا وجّهوا بصاحبهم تمليخا إلى البلد ليأتيهم بطعام وأنه لما تحيّر الفتى وسأل الملك عن قصتهم العلماء قالوا: قد أخبرنا عيسى في الإنجيل بقصة قوم دخلوا الغار في الدهر وإنّ الله تعالى سيبعثهم بعدي ليؤمنوا بي وإن الملك لما أراد النهوض إليهم يقدمهم تمليخا فأخبرهم ففزعوا وظنوا أنّه دقيانوس فسألوا الله تعالى أن ينجيهم منه، فلمّا قال لهم تمليخا إنّهم يزعمون أن الله تعالى بعث نبيًّا يقال له عيسى وإن القوم مؤمنون سكنوا، وقالوا: آمنّا بكلّ نبيّ بعثه الله تعالى وسألوا الله أن لا يطلع عليهم من يشغلهم عن أمرهم، ثم إنهم طعموا وناموا فضرب الله تعالى على آذانهم فأتاهم الملك والقوم فوجدوهم نيامًا ووجدوا اللوح الذي فيه أسماؤهم ونبأهم ولما أيس منهم أمر بباب الغار فردم وانصرف عنهم، ويقال: لا بل إن الملك هو الذي اتخذ اللّوح وأمر فكتب فيه أسماءهم وسدّ على باب الغار ليعرف حالهم من قرأ ذلك، والله أعلم.

وروى محمد بن إسحٰق بن يسار فيهم رواية أخرى قال: إنه لما هلك دقيانوس ومضت الدّهور كان ملك تلك النواحي رجل يقال له بندوبسيس وكان رجلًا صالحًا مؤمنًا فبقي في ملكه ثمان وستين سنة، ثم إنه وقع بين الناس في وقته خلاف في أمر البعث فأنكر بعضهم البعث أصلًا وقال بعضهم: إنّما يبعث الأرواح دون الأجساد وقال بعضهم: يبعث الأرواح والأجساد جميعًا فكثر التنازع بينهم وكبر ذلك على الملك وخاف أن يغلب أهل الباطل على أهل الحق لما رأى من تطاولهم على أهل الحق وتركهم ما كان في كتاب عيسى فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحًا وجلس على الرماد، وقال: لا أخرج ما لم يتبين الحق وجعل يتضرّع إلى الله تعالى من ذنوبه حتى يريهم آية يعرفون بها الحق فأجاب الله تعالى دعوته فألقى في قلب رجل من أهل تلك المدينة أي مدينة أفسوس وكان صاحب غنم حتى جاء وهدم البنيان الذي كان على باب الغار الذي فيه أصحاب الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه واستأجر رجلين لينزع الحجارة ففعلا حتى فتحا باب الكهف فحجبهم الله تعالى عن الناس بالرّعب فذكر أن أشجع الناس كان إذا أراد الدخول عليهم هرب فزعًا ممّا في الغار، فلمّا كان كذلك بعث الله تعالى الفتية فجلسوا وقاموا من نومهم مسفرة وجوههم فسلم بعضهم على بعض فظنوا أنّهم استيقظوا كما كانوا يستيقظون في الأيّام من النوم، ثم قالوا لتمليخا: اذهب لتأتينا بشيءٍ من المدينة واحتفظ عن أن يراك أحدٌ فذهب كما ذكرنا من قبل حتى جاء إلى المدينة فتحيّر حتى أتى الطباخ فدفع

إليه درهمًا فتعجب من ضربه منذ ثلاثمائة وزيادة ثم نظر إلى تمليخا ونظر في الدرهم فأعطاه إلى رجل آخر لينظر في نقشه، وجعلوا يتطارحون الدرهم ويتسارون بأن الفتى وجد كنزًا، فلمّا رآهم الفتى يتسارّون ظن أنهم قد عرفوه وهم يريدون أخذه والذهاب به إلى دقيانوس، فقال لصاحب الطعام ادفع إليّ ما شئت لأنّي مسافر وإلا فلكم ما أخذتموه وأنا ذاهب، فقالوا: يا هذا إنّك وجدت كنزًا وتريد أن تفوز به فلا نتركك حتى تريناه ونشاركك فيه وإلا سلمناك للسلطان فقال تمليخا في نفسه: هذا ما لم أكن أظنّه ولم يدر ما يقول فلمّا تحيّر أخذوه واجتمع الناس عليه يسألونه عن شأنه فإذا أخبر بحاله كذّبوه وقالوا: والله ما نعرف ما تقول شيئًا وظن تمليخا أنّهم يذهبون به إلى دقيانوس فجعل يبكي وينوح على نفسه وكان في المدينة رئيس اسمه دريوس وقاضٍ يقال له: سيطوس فذهب القوم به إليهما فلمّا نظر إليهما وعلم أنه ليس عند دقيانوس سكن فسأله الرجلان الصالحان عن حاله وما وجد من الكنز فقال: والله ما وجدت كنزًا؟ قالوا: فمن أين لك هذا الدرهم وهو من ضرب الزمان الأوّل، قال: إني خرجت من هذه المدينة عشية أمس قالا له: من أنت؟ قال: أنا تمليخا بن فلان وذكر أباه، قالا له: أنت كذّاب وإنا لا نعرف في هذه المدينة من تذكره ثم قال له: تريد مخادعتنا هذا درهم من ضرب زيادة على ثلاثمائة سنة وأنت غلام شاب ونحن شيوخ فلا نعرف ما تقول إنا لننظر أنّك تعذّب عذابًا حتى تقرّ بحالك لنا، قال تمليخا: أخبروني عن شيء أسألكم عنه قالا له: اسأل، قال: ما فعل دقيانوس الذي كان في هذه المدينة عشية أمس، قالا: يا فتى ما على وجه الأرض أحد يقال له دقيانوس وإنما كان ذلك ملكًا منذ دهرٍ عظيم طويل وقد هلك وهلكت بعده قرون فتعجب تمليخا وقال: اسمعوا أخرى إني واحد من فتية فررنا من خوف دقيانوس عشيّة أمسِ والتجأنا إلى هذا الجبل فكمنّا في كهفٍ فيه فإن لم تصدقوني فانطلقوا معي إلى أصحابي لتروهم فقال الرجلان الصالحان عندما سمعا قوله: يا قوم لعلّ هذه آية من آيات الله تعالى يظهرها لكم فهلمّ بنا ننطلق معه إلى حيث يقول، فانطلقوا معه وخلقٌ من أهل المدينة فبينما أصحاب الكهف في كهفهم ويستبطئون رجوع صاحبهم ويخافون إن قد أخذه دقيانوس إذا هم بجلبة الخيل والرجال فلم يشكوا أن قد عثر عليهم وجاء أصحاب دقيانوس فأوصى بعضهم إلى بعضٍ وسبق تمليخا القوم فدخل على أصحابه وقصّ عليهم قصّته ثم دخل الرجلان الصّالحان فرأيا عند باب الكهف بابًا مختومًا وهو ما كان وضعه الرجل الذي كتب خبرهم وأسماءهم ففتحاه بين يدي الناس فوجدوا لوحين من رصاصٍ مكتوبًا فيهما شأن الفتية وحالهم وهربهم من دقيانوس وسدّه عليهم باب الغار إلى آخر أمرهم فلمّا قرأوا ذلك فرحوا وحمدوا الله تعالى على ما أراهم من آياته وجلس الرجلان بين يدي أصحاب الكهف وسألاهم عن حالهم فأخبروا بحالهم

بحسب ما كان في اللوحين، فسجد الرجلان لله تعالى وحمداه وبعثا رسولًا إلى ملكهم نيدوسيس لينظر إلى آية من آيات الله تعاى ويستيقن بصحة البعث وقدرة الله تعالى على ذلك فركب الملك وأسرع حتى جاءهم فلمّا نظر إلى الفتية خرّ ساجدًا وقام بين أيديهم يبكي وهم جميعًا سجدوا لله تعالى وقدّسوه وقالوا: الحمد لله الذي أرانا هذا وعرف الملك صدق وعد الله تعالى في البعث وأنه إذا أراد إحياء الأجساد أحياهم، فبينما الملك والقوم عندهم إذ ألقى الله تعالى النوم عليهم فرجعوا إلى مضجعهم فضرب الله تعالى على آذانهم، ويقال: قبض الله تعالى أرواحهم وأمر الملك لهم بأكفان الديباج وتوابيت من ذهبٍ، فرأى فيما يرى النائم أنهم قالوا له: ما خلقنا من الذهب، وإنما خلقنا من التراب فارجع بنا إلى التّراب فأمر الملك أن يخرجوا من التوابيت ويوضعوا في الأرض فهم الآن في الغار كما ذكر الله تعالى ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ [الكهف: الآية ١٧] وإن الشمس لا تطلع على غارهم لأنّ باب غارهم نحو بنات نعش فلا يدخله شمس قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: الآية ١٧] وإن أعينهم مفتّحة قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ﴾ [الكهف: الآية ١٨] وإن الله تعالى حجبهم عن أعين الخلق فلا يدخل عليهم أحد ولا يعرف كهفهم وروي أن معاوية غزا بلاد الروم فلمّا صار إلى تلك البلاد وإلى ذلك الجبل قيل له هذا الجبل الذي فيه كهف أصحاب الكهف وكان معه ابن عباس فقال: أنا أطلب الغار لأراهم فقال له ابن عباسٍ إنك لا تصل إلى ذلك لأن الله تعالى يقول لمن هو أعظم منك قدرًا ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: الآية ١٨] فقال إن لم أصل إلى رؤيتهم لعلّي أصل غارهم فأتبرّك بذلك فطاف هو ومن معه في الجبل أيامًا فلم يعثروا على أثر الغار فرجع وأمّا قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًاۖ﴾ [الكهف: الآية ٢١] يقال إنه كان في الوقت الذي بعثهم الله تعالى ويقال: لا، بل بعد ذلك، وهو أن الملك الصالح الذي غلبهم بنى عليهم مسجدًا، فلمّا أن طالت الأيام اجتمع على باب الغار ثلاث فرقٍ من الناس قوم من اليهود وقوم من النصارى وقوم من المسلمين مع كلّ واحدٍ منهم أميرٌ فتنازعوا فقالت اليهود نبني هٰهنا كنيسًا وقالت النصارى نبني هٰهنا بيعة، وقال قوم العامة نبني هٰهنا خانًا ينزله المارّة، وقال المسلمون نبني هٰهنا مسجدًا ثم غلب المسلمون وبنوا هنالك مسجدًا، ثم روي أن الله تعالى يبعثهم قبل يوم القيامة أيّام نزول عيسى فيصحبونه ويعيشون ما شاء الله تعالى ثم يموتون ويقال: لا بل لا يبعثون إلى يوم القيامة وكان سبب قصة أصحاب الكهف وقصّة ذي القرنين فيما ذكره أهل التفسير أن كفّار مكّة بعثوا رجلين إلى علماء اليهود وأحبارهم بالمدينة وقالوا قولا لهم إنكم أصحاب الكتاب الأوّل فهل وجدتم في الكتاب أن يكون نبيٌّ في هذا

العصر فذهبا وسألاهم فقالوا: نعم، فقالوا: أصفاه لنا فلمّا وصفاه لهم قالوا: إنا نجد في كتابنا نعت نبيّ يخرج في آخر الزّمان هذا نعته الذي تذكران ثم قالوا سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجابكم عن كلّها وقال أعلمها جميعًا فهو كذّابٌ ليس بنبيٍّ وإن لم يجبكم فليس بنبيّ وإن أخبركم عن اثنين وقال في الثالث: لا أعلمه فهو نبيّ اسألوه عن فتيةٍ كانوا في أوّل الدهر دخلوا غارًا فأخفى الله تعالى أمرهم فلا تنقص الأيّام والليالي حتى يظهرهم الله تعالى واسألوه عن رجل طاف الأرض وبلغ مشارقها ومغاربها من هو؟ واسألوه عن الروح ما هي قال: فرجع الرسولان إلى قريش وقالا لقريش أتيناكم بالتفصيل ثمّ أخبراهم بقول اليهود فأتى جمع قريشٍ النبي ﷺ وسألوه عن الأشياء الثلاثة فقال ﷺ إن الله تعالى لم يوح في هذه الأشياء الثلاثة بعد فارجعوا إليّ غدًا لأخبركم بها تيقّنًا منه بأنّ الله تعالى يوحي بها إليّ ولم يستثنِ في كلامه ﷺ فلم يرضَ الله تعالى منه فعاتبه بحبس الوحي عنه خمسة عشر يومًا فجعلت قريش تشتم النبيّ ﷺ وتقول ألم تعدنا أنك تجيبنا غدًا فأين الجواب فخجل النبيّ ﷺ واستحيا منهم فجلس في بيته إلى أن نزل عليه جبرائيل بإذن الله تعالى فقال يا جبرائيل ما بالك أبطأت عنّي وتركتني لشماتة الكفّار فقال جبرائيل ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: الآية ٦٤] الآية ثم أخبره خبر أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين وأمر الروح فأخبر النبي ﷺ الكفّار قصّة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين بما نزل عليه فقالوا له: الآن ذهبت وتعلّمت فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: الآيتان ٢٣، ٢٤] هذا ما بلغنا من قصّة أصحاب الكهف والله أعْلم.

بـــابٌ
في ذكر ذي القرنين(١)

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: الآية ٨٣] الآية، قد اختلف الناس في أمره، وفي اسمه، ونسبه، ووقته، وأنّه كان نبيًا أم لا، أمّا نسبه فقال بعضهم: إنّه كان ابن عجوز فقيرة لا ولد لها غيره، فأتاه الله تعالى الملك وذلك أنّه كان له همّة رفيعة فجمع قومًا وسار بهم إلى ناحيةٍ فاستولى عليها ثم سار إلى أخرى حتى عظم أمره وقال آخرون: لا بل كان ابن ملكٍ وأمّه ابنة ملكٍ وقال بعضهم إنه كان ابن ملك يونان ديار الفلاسفة وقال بعضهم بل كان ابن قيصر من قياصرة الروم وأمّا اسمه قال أهل التاريخ وكثير من أهل التفسير إنه الإسكندر وقال بعض المفسرين إن ذا القرنين غير الإسكندر واختلفوا في تسمية ذي القرنين فقال قوم سمّي ذا القرنين لأنّه كان نبيًا بعثه الله تعالى إلى قوم فكذبوه وضربوه على أحد قرني رأسه فقتلوه فأحياه الله تعالى فسمّاه الله ذا القرنين، روي هذا عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ويقال إنه سمّي بذلك لأنّ الله تعالى بعثه نبيًا إلى قرن من الناس وكذّبوه فأهلكهم الله تعالى وبعثه إلى قرنٍ آخرٍ ويقال سمّي ذا القرنين لأنه كانت صفحتا رأسه من صفرٍ وقيل من نحاسٍ وقيل من حديدٍ وقيل من ذهب والله أعلم، قال وهب بن منبه سمّي ذا القرنين لأنه ملك فارس والرّوم جميعًا ويقال بلغ قرني الدنيا مشرقها ومغربها ويقال لأنّه رأى في منامه أنه أخذ بقرني الشمس فسأل المعبّرين فقالوا: إنّك تملك الأرض كلها ويقال كان له صغيرتان في رأسه والصغيرة تسمّى قرنًا، فلذلك سمّي ذا القرنين أي ذا الصغيرتين ويقال كان له قرنان في جانبي رأسه من ذهبٍ مثل قرون الظباء والله أعلم. وأمّا نبوته فقد ذكرنا أن بعض الناس قالوا: كان نبيًا، وقال الأكثرون لم يكن نبيًا بل كان عبدًا صالحًا وكان يكون معه أنبياء في صحبته يوحي الله تعالى إليهم فيبلغونه وأمّا وقته فإن أكثر أهل العلم بالأخبار قالوا إنه كان بعد موسى ثم قال بعضهم: كان بعد عيسى وقال آخرون كان قبله وقال بعض أهل العلم إنه كان بعد نمرود، والأصحّ أنّه كان قبل عيسى وبعد موسى وذلك أن أهل الأخبار اتفقوا على أن الإسكندر هو الذي

---

(١) من أراد زيادة في التفاصيل عن ذي القرنين له الرجوع إلى الثعلبي: العرائس ص ٢٠٠، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣١، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٠٠.

حارب دارا ملك فارس وقتله وكان دارا قبل عيسى بكثير، لأنّه كان ملك الطوائف بعد الإسكندر بأربعمائة سنة ثم ظهر أردشير الملك فأقام ملك فارس وكان من ملوك فارس بعد أردشير إلى وقت الإسلام مدّةً طويلة، قال وهب بن منبّهٍ كان ذو القرنين سمّي الإسكندر وكان ابن عجوز من العجائز فأوحى الله تعالى أي ألهمه أني أبعثك إلى أهل الأرض كلّهم فمنهم أممٌ في وسط الأرض ومنهم أمّتان بينهما طول الأرض ومنهم أمّتان بينهما عرض الأرض وأمّا اللتان بينهما طول الأرض فأمّة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك وأمّة عند مطلعها يقال لها منسك وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمّة في قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل وأمّة في طرف الأرض الأيسر يقال لها تاويل، فلمّا قال الله تعالى له ذلك قال: يا رب قد نبّيتني لأمرٍ عظيم لا يقدر عليه أحد غيرك، فأخبرني بأيّ قوة أكابر هؤلاء الأمم وبأيّ جندٍ أكاثرهم وبأيّ حجّةٍ أخاصمهم وبأي حكمة أدبّرهم وبأيّ حيلة أكايدهم وبأي صبرٍ أقاسمهم وبأي لسان أناطقهم قال الله تعالى له إني سأوفّقك بتوفيقي وأشرح صدرك وأشدّ ظهرك وأبسط لسانك، وأشدّ ركنك وأدبّر أمرك وألبسك الهيبة وأسخّر لك النور والظلمة فأجعلها جندًا من جنودك يهديك النور أمامك وتحفظك الظلمة وراءك ثم قيل له انطلق إلى الأمّة التي عند مغرب الشمس فانطلق إليهم فلمّا بلغها وجد عندها جمعًا وعددًا لا يحصيهم أحدٌ إلّا الله تعالى وقوّة وبأسًا لا يطيقها إلّا الله تعالى ورأى أهواء مختلفة وألسنة مشتّتة فلمّا رأى ذلك كابرهم بالظلمة حتى جمّعهم في مكان واحدٍ فدخلت الظلمة أفواههم حتى اضطرّوا ثم سلّط عليهم النّور ودعاهم إلى الله تعالى وعبادته فمنهم من آمن بالله ومنهم من كفر فعمد إلى الذين كفروا فعذبهم بالظلمة فدخلت الظلمة أفواههم ودورهم وبيوتهم وغشيتهم من فوقهم فماجوا وتحيّروا فلمّا خافوا الهلاك عجّوا إليه فكشفها عنهم فدخلوا في دعوته فرجع عنهم فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: الآيتان ٨٤، ٨٥] يعني طريقًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حامية﴾ [الكهف: الآية ٨٦] أي حارّة ومن قرأ ﴿حَمِئَةٍ﴾ يعني ذات حمأة وهي الطين الأسود إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف: الآيات ٨٦ - ٩٠]. وروي أن معاوية قرأ يومًا هذه الآية وعنده ابن عباس[1] وعبد الله[2] بن

---

(١) ابن عباس بن عبد المطلب، أبو العباس الهاشمي، الإمام البحر عالم العصر ابن عم رسول الله ﷺ دعا له النبي ﷺ أن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل توفي سنة (٦٨ هـ)، ابن حجر، الإصابة ١/ ٣٢٢. السيوطي، طبقات الحفاظ ص ١٠.

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص: العالم الرباني أبو محمد وأبو عبد الرحمٰن القرشي أحد من هاجر هو وأبوه قبل الفتح، كتب عن النبي ﷺ كثيرًا توفي بمصر سنة (٦٥ هـ). له ترجمة في: الذهبي، العبر ١/ ٧٢، أسد الغابة ٣/ ٣٤٨، السيوطي: طبقات الحفاظ ص ١٠.

عمرو بن العاص قال ابن عباس كيف تقرأها قال حامية بالألف غير المهموزة، فقال ابن عبّاسٍ إنّ القرآن لم ينزل على ابن العاص إنّما نزل في بيتي وأنا أعلم به، قال معاوية قد اختلفتما وأرسل إلى كعب الأحبار فسأله فقال: أمّا القرآن فأنتم أعلم به مني وأمّا الشمس فإنّي أجد في كتاب الله تعالى أنها تغرب بين الماء والطين، فلما رجع الرسول قال ابن عبّاسٍ هذا تصديق قراءتي فإن الحمئة ذات حماة وهي الطين فلمّا خرج ابن عبّاسٍ من عند معاوية سأله رجل من حمير عن منازعتهما فأخبره فقال: لو كنت عندكما لرفدتك ببيتين من قول تبع وصف حال ذي القرنين ومسيره ومصادفته مغرب الشمس قال وما هما؟ قال يقول شعر:

بلغ المشارق والمغارب يبتغي ... أَسباب أمرٍ من حكيم مرشدِ
فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... في عين ذي خلب وثأطٍ حرمدِ

قال ابن عباس للرّجل ما الثأط قال: الحمأة بلغة حمير، قال: وما الحرمد؟ قال: الأسود فدلّت هذه الحكايات عى أن حمئة أولى من حامية قال وهب: ثم إنه جنّد من أهل المغرب أممًا فجعل جندًا واحدًا من أجناده ثم سار يقودهم النور وسيوفهم من خلفه في الظلمة وسار في ناحية أرض اليمن وهو يريد الأمّة التي في قطر الأرض الأيمن التي يقال لها هاويل وكان إذا بلغ بحرًا أو مخاضًا بنى سفنًا من ألواحٍ صغارٍ أمثال البغال فيضمّها في ساعةٍ ويحمل عليها جميع من معه من الجنود فإذا جازها فتقها ودفع إلى كلّ رجلٍ لوحًا فلا يكثر حمله، فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل فعمل فيها كعمله في ناسك فلما فرغ منها مضى على وجهه كذلك حتى انتهى إلى مطلع الشمس فوجد الأمة التي يقال لها المنسك فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف: الآية ٩٠] وذكر أنه كان لهم أسرابٌ يدخلونها عند طلوع الشمس فلا يضرهم حرّها، وروي أنّه رأى لهم آذان مثل آذان الفيلة بل أكبر، وقالوا مثل الأكسية فكان الواحد منهم يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى فإذا ارتفعت الشمس وغربت عنهم خرجوا من أسرابهم، فلما بلغهم ذو القرنين عمل فيهم عمله في الأمتين اللتين قبلهما ثم كرّ راجعًا في ناحية الأرض اليسرى وكان قد اتخذ من هاويل جنودًا وكذلك من منسك فسار بهم نحو الأمّة التي في قطر الأرض اليسرى وهم قاويل بحال هاويل، فلمّا بلغها عمل فيها كعمله في الأمم التي قبلها وجنّد منهم جنودًا وعطف إلى الأمم التي في وسط الأرض فلمّا كان في بعض الطرق مما يلي منقطع الترك نحو المشرق مما وراء الصين قالت له أمّة من الأنس وهم الّذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: الآيتان ٩٣، ٩٤] فقال لهم: ومن يأجوج ومأجوج؟ فأشاروا له إلى جبلين، وقالوا: إنّ بين هذين الجبلين السدّين اللذين ذكرهما خلق كثير فيه شبه من الإنس وشبه من السباع ويأكلون حشرات الأرض كلّها ولا ينمو خلق مثل نمائهم ولو بقوا مدّة على ما تراهم غلبة من الزيادة ليملؤن الأرض وليجلن عنها أهلها ونحن نتوقعهم ساعة ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: الآية ٩٤] قال: إني لا أريد منكم جعله، و﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: الآية ٩٥] أي بعدّة أسألكموها فـ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: الآية ٩٥] سدًا و﴿رَدْمًا﴾ [الكهف: الآية ٩٥] لا يجاوزونه إليكم ثم أمرهم بجمع الصخر من الحديد والنحاس وألانها فانطلق نحو بلاد يأجوج فحين رفع إليهم وجدهم قومًا على مقدار نصف الرجل المربوع ويقال كان أطولهم ذراعًا ونحوه ومنهم مثل الشبر ولهم أنيابٌ مثل أنيابِ السباع ومخاليب في موضع الأظفار وعليهم شعور تواري أجسادهم ولكلّ واحد منهم أذنان عظيمتان على إحداهما وبرٌ وعلى الأخرى زغبٌ فيصيّف في إحداهما وهي التي عليها الزغب ويستوفي الأخرى وهي التي عليها الوبر وهم يعلمون تقارب آجالهم وذلك أنّه لا يموت منهم ميّت حتى يولد له ألف ولدٍ فإذا كان كذلك أيقن بالموت وهم يرزقون التنّين في أيام الربيع ويستمطرونه كما يستمطر الغيث فإذا مطروا بذلك أكلوا فخصبوا وسمنوا ودرّت عليهم الإناث وشبقت عليهم الذكور، وإذا لم يمطروا ذلك جلبوا وهزلوا وهم يتداعون تداعي الحمام ويعوون عواء الذئاب ويتسافدون حيث التقوا كالبهائم فلمّا عاين أمرهم ذو القرنين انصرف عنهم إلى ما بين الصدفين وهم الجبلان اللذان بينهما طريق المخرج من أرضهم فقاس ما بينهما فوجد بعد ما بينهما مائة فرسخ فلمّا أنشأ في عمله حفر له أساسًا وجعل عرضه فيما يروى خمسين ميلًا ثم حشّاه بالصّخور وجعل مكان الطين النحاس المذاب حتى كاد كأنّه غرق من جبلٍ تحت الأرض ثم إنّه علّاه بزبر الحديد فجعل يصفّ صفًّا من زبر الحديد مكان اللّبن ثم صفّ فوقه صفًّا من نحاسٍ ثم صف من زبر الحديد ثم صفّ من نحاسٍ إلى ما أراد من ارتفاعه وهو قوله عزّ وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف: الآية ٩٦] فأمر فوضعت عليه المنافيخ وقد حفّها بالحطب فنفخ عليها حتى ذاب النحاس وحمي الحديد فاختلط بعضها ببعض وصار كالبناء المرصوص ثم نظر من حيث ما رأى فيه خللًا فأفرغ فيه النحاس المذاب فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: الآيتان ٩٦، ٩٧] يعني يرتقوه ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: الآية ٩٧] وحبس يأجوج ومأجوج بهذا السدّ عن دخول البلاد وذكر أنّه شذ منهم قدر عشرة أنفس أو أقل أو أكثر، فأخبر ذو القرنين فقال: اتركوهم فسمّوا الترك

والله أعلم، ويقال إنّ أجناس الترك من نسل تلك العشرة وإن يأجوج ومأجوج من ولد يافث بن نوح، قال الشيخ ورأيت في أخبار الخلفاء أن الواثق[١] بالله أمير المؤمنين قال: أحب أن أعرف حال سدّ ذي القرنين فبعث بعض ندمائه العقلاء وأعطاهم مالًا كثيرًا ودوابَّ وأصحابًا وكتب لهم إلى عبد الله بن طاهر وإلى طاهر بن عبد الله بن طاهر بخراسان[٢] ليقويّه بما يحتاج إليه من المال ويسرحه إلى بلاد الترك ففعل ذلك عبد الله وكتب إلى عمّاله بما وراء النهر وأمره أن يسيّره إلى ما يليه من بلاد الترك ففعل فخرج الرجل فجعل يأخذ العهود من ناحية إلى ناحية حتى بلغ الصين[٣] وأخذ عهد ملكها وسأله أن يسرحه إلى بلاد السدّ ففعل، وكتب إلى من بها حتى وصل الرجل إلى السدّ فوجد القرى التي عند السدّ مسلمين لكنهم لم يكونوا يعلمون من الشرائع شيئًا فسألهم أن يروه السدّ فانطلقوا به إليه فقاس طول السدّ في السماء فوجده ثلاثمائة ذراع وشيئًا ولم يدر عرضه في معنى الغلظ وأمّا مسافة ما بين الجبلين فوجده ألف ذراع ومائتي ذراع، وقد روينا ما ذكره وهب ووجد على وسطه بابًا طوله ستون ذراعًا وعرضه عشرون ذراعًا وغلظه قدر ثلاثة أذرع وقد شدَّ الباب بسلاسل غلاظ محكمة وأقفال عظيمة لكلّ قفل مفتاح قدر ذراع وكان عادة أهل تلك القرى التي بقرب السدّ أن يخرج من كلّ قرية رجل على المناوبة بينهم، ومع كلّ واحد منهم عمود من حديد فيأتون باب السدّ ثم يضربونه بالأعمدة حتى يطنّ الباب ويسمع لذلك هدّة شديدة، وقالوا بهذا أوصانا آباؤنا وعن آبائهم وقالوا: إنّ ذا القرنين أمرنا بهذا ليسمع يأجوج ومأجوج الهدّة والصوت فيظنّوا أن العسكر مقيم هٰهنا قالوا: وإنّما نزل آباؤنا هٰهنا في هذه القرى بأمر ذي القرنين وأتوا بحراسة هذا السّدّ قال: وكتب الرّجل كلّ ما سمع ورأى من أمر السدّ وجعل ينتقل من ناحيةٍ إلى ناحية إلى أن سار إلى نيسابور[٤]

---

(١) الواثق بالله هارون ـ أبو جعفر هارون بن محمد بن عبد الله بن العباس (ت ٢٣٢ هـ) له ترجمة في ابن الكازروني ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت ٦٩٧ هـ): مختصر التأريخ صنعة الدكتور مصطفى جواد، المؤسسة العامة للصحافة، بغداد ١٩٧٠ م ص ١٠٦، مغلطاي بن قلبخ (ت ٧٦٢ هـ): مختصر تأريخ الخلفاء، حققته الباحثة العلمية آسيا گليبان علي البارح، رسالة مقدمة إلى اتحاد المؤرخين العرب ـ معهد التأريخ العربي والتراث العلمي ص ١٢٠.

(٢) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق من جهة الشرق، ياقوت الحموي معجم البلدان ٢/ ٣٥٠.

(٣) الصين: بالكسر وآخره نون بلاد في بحر المشرق مائلة إلى الجنوب وشماليها الترك، المصدر السابق ٣/ ٤٤٠.

(٤) نيسابور: بفتح أوله، والعامة يسمونه نشاوور. وهي مدينة عظيمة فتحت أيام عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ٣٣١.

فأعطاه عبد الله بن طاهرٍ وابنه طاهر خمسين ألف درهمٍ وسرحه إلى باب الواثق فكان مدّة خروجه ومسيره إلى أن رجع سنتين وسبعة أشهر، وروي عن سلام الترجماني أن الواثق بالله أمير المؤمنين رأى في المنام كأنّ سدّ ذي القرنين قد سقط فدعاني وقال لي: مُرّ وآتني بخبر السدّ وضمّ إليّ خمسين رجلًا ووصّاني بخمسة آلاف دينار وأعطاني عشرة آلاف درهم ونال رجل من الخمسين ألف درهم وَرِزْق سنة وأعطانا مائة بغل للزاد والمال وأمر بكتاب إلى إسحٰق بن إسماعيل صاحب أرمينية[1] فشخّصنا إسحٰق إلى صاحب السرير وكتب لنا صاحب السرير إلى ملك ألان وهو طرخان وكتب ملك ألان إلى الخزر[2] قال: فأقمنا عند ملك الخزر خمسة أيّام ولياليها حتى وجّه معنا خمسة من الأدلّاء فسرنا من عنده ستة وعشرين يومًا فوقعنا إلى أرضٍ سوداء منتنة الرائحة فسرنا فيها عشرة أيّام فوقعنا إلى مدنٍ كثيرة خربة فسرنا فيها سبعة وعشرين يومًا فسألنا عن المدن فخُبِرْنا أنها مما خرّبها يأجوج ومأجوج ثم سرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي فيه السد وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسيّة ولهم مساجد وهم يقرأون القرآن، فسألونا من أين أقبلتم فأخبرناهم بأنا رسل أمير المؤمنين فجعلوا يتعجبون ويقولون: من عند أمير المؤمنين جئتم ثم قالوا أشيخ هو أم شابٌّ؟ فقلنا: شاب فقالوا: وأين مكانه وملكه قلنا بالعراق بمدينة يقال لها سُرّ من رأى[3] فقالوا ما سمعنا بهذا قطّ، ثم سرنا إلى جبل أملس ليس عليه صخرة فإذا بجانبه جبل مقطوع مقدار خمسمائة وخمسين ذراعًا بعضادتين مما يلي الجبل عرض كل عضادةٍ خمسة وعشرون ذراعًا كليهما بلبن حديد مغيب في النحاس وسمكهما مقدار خمسين ذراعًا وفوق الدربند بناء من اللبن الحديد إلى رأس الجبل ارتفاعه مدّ البصر، وفوق ذلك شرف من حديد وإذا باب من حديد ذو مصراعين عرض كل مصراعٍ خمسون ذراعًا في ارتفاع خمسين ذراعًا في غلظ خمسة أذرع وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ ذراع وارتفاع القفل من الأرض خمسة أذرع وإذا عليه مغلاق مقدار عشرة أذرع وعلى المغلاق مفتاح مغلق طوله ذراع ونصف له اثنتا عشرة سنّة كل واحدة منها كرشحة أعظم مهراس والمفتاح معلّق في سلسلة طولها ثمانية أذرع قال: فكان أهل تلك

---

(١) أرمينية: بكسر أوله وبفتح، وسكون ثانيه، وكسر الميم، وياء ساكنة، وكسر النون، وياء خفيفة، اسم لصقيع عظيم واسع في جهة الشمال، المصدر السابق ١/١٥٩.

(٢) الخزر: بالتحريك، وآخره راء، وهي بلاد الترك خلف الدربند قريب من سد ذي القرنين، قيل هو مسمىً بالخزر بن يافث بن نوح (عليه السلام). ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/٣٦٧.

(٣) سر من رأى: سامراء: مدينة بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣/١٧٣.

الحصون يركب منهم في كلّ جمعة عشرة فوارس مع كلّ فارس مزربةٌ من حديدٍ كلّ مزربة خمسون منًا فيضربون الباب بتلك المزاريب كلّ يوم ثلاث مرات يسمع من وراء الباب الصوت فيعلمون أنّ هنالك حفظة فإذا ضرب أصحاب القفل وضعوا آذانهم يسمعون لمن فيه دويًا قال وبالقرب من هذه الحصون حصن كبير جدًّا وعلى بابه حصنان كلّ حصن منها مائتا ذراع وبين الحصنين شجرتان وعين ماء عذب وفي أَحَدِ الحصنين آلات البناء التي بني بها السدّ من القدور الحديد والمغارف الحديد واللبنة منها ذراع ونصف ذراع ليعمر بها السد إن خرب منه شيئًا، قال: فسألناهم عن يأجوج ومأجوج هل رأوا منهم أحدًا فذكروا أنّ بعضهم ارتفعوا فوق الشرف فهبّت ريحٌ فألقتهم إليهم فرأوا طول الرّجل في رأي العين شبرًا ونصفًا قال سلام وكتبت صورة ما رأيت ورجعنا على بُرُدِنا حتى وصلنا إلى الواثق فأخبرناه بخبر السد وما رأيناه في الطريق فوصلنا بصلة جزيلةٍ.

ويروى أن الخضر وإلياس يحرسان السد كلّ ليلة إلى الصباح، قال الحسن وروى أبو رافع عن النبيّ ﷺ أن يأجوج ومأجوج ينحتون السدّ كلّ ليلة حتّى يرون شعاع الشمس من ورائه يقول قائلهم ارجعوا فسوف ننقبه غدًا فيرجعون ويعيده الله تعالى في ليلته كما كان ثم يحضرونه وينحتونه من الغد كذلك كلّ يوم إلى أن يأتي وقت خروجهم قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: الآية ٩٨] فينحتونه يومًا من الأيّام فإذا أمسوا قال قائلهم ارجعوا فسننقبه غدًا إن شاء الله تعالى فيستثني فيبقى السدّ رقيقًا إلى أن يعودوا إليه من الغدّ فيروه كذلك فينقبونه ويخرجون على الناس فيشربون مياه الأرض حتى ينشفوها ويتحصن الناس في حصونهم فيظهرون على الأرض ويقهرون من وجدوه فإذا لم يبق لهم أحد رموا بنشابهم إلى السماء فترجع إليهم وفيها كهيئة الدماء فيقولون قد غلبنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، ثم إن الله تعالى يبعث عليهم دودًا يقال له النغف فيدخل في آذانهم ومناخيرهم فيقتلهم قال النبيّ ﷺ: «فوالذي نفس محمد بيده إنّ دواب الأرض لتمسن من لحومهم».

وروى أبو سعيد الخدريّ قال سمعت النبي ﷺ أنه قال يفتح سدّ يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٩٦] فيعيشون في الأرض كلّها وينحاز المسلمون إلى مدائنهم وحصونهم ويضمّون إليهم مواشيهم فتشرب يأجوج ومأجوج مياه الأرض فيمرّ أوائلهم بالنهر فيشربون ما فيه فيتركونه يابسًا فيمرّ بهم من بعدهم فيقولون لقد كان هٰهنا ماءٌ ولا يبقى أحد من الناس إلّا أهلكوه إلّا من يكون في حصن أَوْ وزر فيقول قائلهم فرغنا من أهل الأرض وقد بقي من

في السماء ثم ينهز[1] أحدهم حربته فيرمي بها نحو السماء فترجع إليهم مخضوبةً بالدّم فيقولون: قد قتلنا أهل السماء، فبينما هم كذلك إذ سلّط الله تعالى عليهم دودًا مثل النغف فتدخل آذانهم ويقال: تنقب أعناقهم فيصبحون موتى لا يسمع لهم حسٌّ البتّة فيقول المسلمون أي رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هؤلاء فيجيء رجل منهم محتسبًا لذلك موطنًا نفسه على القتل فينزل إلى الأرض فيجدهم موتى بعضهم فوق بعض فينادي يا معشر المسلمين أبشروا فقد كفاكم الله تعالى شرّ عدوّكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم فلا يكون مرعى إلّا لحوم يأجوج ومأجوج فيشكر منها أحسن ما يشكر من النبات، وروي أن الأرض تنتن من جيفتهم فيرسل الله تعالى مطرًا فيسيل منه سيولٌ فتحمل جيفتهم إلى البحار والله أعلم. ويروى أن موتهم يكون أربعين يومًا، ويقال سبعين يومًا ويقال: أربعة أشهر والله أعلم. ثم إن ذا القرنين سار ممّا هنالك فورد الأرض التي تسكنها الأمة الصّالحة التي ذكرها الله تعالى ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩] فوجد أمّةً عادلة مهتدية يقسمون بالسوية ويحكمون بالعدل حالهم وكلمتهم واحدة وطرائقهم مستقيمة وقلوبهم مؤتلفة فوجد قبورهم بأبواب بيوتهم وليس لبيوتهم أبواب وليس عليهم أمير ولا ملك ولا قاضٍ، فوجدهم يتساوون ولا يستبّون ولا يقتلون ولا يصيبهم قحطٌ ولا جرادٌ ولا آفة ولم يكن فيهم مسكينٌ ولا فقير، فلما رأى ذلك من أحوالهم سألهم فقال: أخبروني عن حالكم فإنّي قد طفت الأرض فلم أرَ قومًا مثلكم قالوا: سلنا عمّا أردت قال: أخبروني ما بال قبوركم بأبواب بيوتكم؟ قالوا: لئلا ننسى الموت، قال: فما بال بيوتكم ليس عليها أبوابٌ؟ قالوا: لأنّه ليس فينا إلّا الأمين لا يخاف بعضنا خيانة بعض، قال: فما بالكم ليس عليكم أمير؟ قالوا: إنا لا نتظالم، قال: فكيف لا يكون لكم قاضٍ؟ قالوا: لأنّا لا نتحاكم قال: فما بالكم ليس فيكم غنيّ؟ قالوا: لأنّا لا نتكاثر قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا: لألفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا، قال: فما بالكم متشابهة أحوالكم؟ قالوا: لا نتباغض؟ قال: فما بالكم لا فقير فيكم؟ قالوا: لأنا نقتسم بالسويّة، قال: فما بالكم لا تقحطون؟ قالوا: لأنا لا نغفل عن الاستغفار قال: فما بالكم لا تتّجرون؟ قالوا: لثقتنا بالله تعالى، قال: فما بالكم لا يصيبكم البلاء؟ قالوا: لتوكلنا على الله تعالى قال: أخبروني أهكذا وجدتم آباءكم قالوا: نعم، قالوا: وجدنا آباءنا يرحمون ويؤانسون فقراءهم ويعفون عن من ظلمهم ويحسنون لمن أساء إليهم ويحملون عمّن جهل عليهم ويستغفرون

---

(١) النهز: النهوض لتناول الشيء هكذا جاء في حاشية المخطوط، والنهز التناول باليد والنهوض للتناول جميعًا ـ ابن منظور ـ لسان العرب ٣/٧٢٩، باب (نهز).

لمن سبّهم ويصلون أرحامهم ويؤدون أماناتهم ويحافظون على صلاتهم ويوفون بعهودهم ويصدقون في مواعدهم ولا يستنكفون على ضعفائهم فأصلح الله تعالى بذلك أمرهم وحفظهم في مخلفهم قال: فودّعهم ودعا لهم بالبركة، وخرج من عندهم. وروي أنّه ورد في مسيره بلدة فاستقبله أهلها كلّهم ينظرون إليه إلّا رجلًا خيّاطًا لم يبرح من مكانه ولم يلتفت إليه، فقال ذو القرنين: أيّها الرجل قد استقبلني أهل هذه البلدة وإنك لم تلتفت إليّ فما حملك على ذلك؟ قال الرجل: لأنّه لا يعجبني ما أنت فيه ولم أطمع فيما لدنك، قال: ولِمَ؟ قال الرجل لأني رأيت في هذه البلدة أميرًا مَاتَ ومات في يومه معه عبد مملوك فقير فوُضِعَا معًا في غارٍ وكذلك كانت عادتهم وجعل للملك أكفانٌ نفيسة وللفقير أكفانٌ خلق، ثم مررت بهما بعد زمَانٍ وقد رمّ عظامهما واختلط بعضها ببعض فلم أعرف عظام الملك من عظام الفقير فعلمت أنّه لا خير في تلك الدنيا فقال ذو القرنين: أنت أعقل هذه البلدة، فاستخلفه عليها فقال: لا أريد الإمارة، قال: فكن حاكمًا تحكم بينهم بالحقّ فتدفع ظلم بعضهم عن بعضٍ ثم خرج من تلك الناحية وسار، ويروى أنّ ذا القرنين قصد الظلمة وكان سبب ذلك أنه سمع أن فيها عينًا تسمّى عين الحيوان ومن شرب منها عاش إلى نفخ الصور فدخل الظلمة لطلبها وكان معه الخضر وإلياس عليهما السلام يتقدمانه ويقال إن الخضر وإلياس كانا يدحرجان الخرزة بين أيديهما فيعلمان كيف يضعان أقدامهما وكان ذو القرنين يتبعهما ويقال إن العسكر كانوا يتبعونه ثم إن الخضر وإلياس كانا يعثران على عين الحيوان بأن سقطت خرزتهما في الماء فشربا منها وجلسا هنالك حتى وصل إليهما ذو القرنين فقال لهما: ما بالكما جلستما؟ قالا: وجدنا عين ماءٍ فشربنا وجلسنا ننتظرك لتشرب فقال: أسقياني منها فطلبا العين فلم يجداها البتة، فعلما أن الله تعالى أخفاها عليهم فلما أيسوا قال ذو القرنين: انصرفا بنا قالا: ولم ننصرف؟ قال: لا أطلب هذه العين فإن الله تعالى رزقكما وحرمني ماءها فأنا الآن أرجع فرجع حتى خرج من الظلمة، وروي أنهم لما بلغوا مكانًا يظنونه رضراضًا فلم يدروا ما هي فقال الخضر لذي القرنين: قل لقومك يحملوا من هذا الرضراض فإنه من أخذ منها ندم ومن لم يأخذ منها ندم ومن استقلّ منها ندم ومن استكثر منها ندم، فلمّا خرجوا من الظلمة إذ الرضراض كلّها جواهر ثمينة ويقال كان زبرجدًا فندم مَن استكثر ألا أخذ أكثر وندم من استقل ألا يكون يستكثر وندم مَن لم يأخذ ألا أخذ، وروي أنه مشى في الظلمة وحده مرّة ثانية دخلها من غير العسكر وخلّف العسكر خارجها فسار ثمانية عشر يومًا وليلةً على أرضٍ ملساء لا يعثر بحجرٍ ولا شجرٍ ولا يأكل ولا يشرب ولا يركب ولا ينام قوّاه الله تعالى لذلك حتى بلغ الجبل المحيط بالعالم وهو قاف وهو من زمرّدٍ أخضر فرأى ملكًا قائمًا قد أخذ بيديه طرفي الجبل وهو يقول بصوت كالرعد القاصف سبحان الله بلغ من

يرى أقصى العالم سبحان الله من منتهى الظلمة إلى منتهى النور فدنا منه فإذا له عينان مثل البرق الخاطف، فلمّا دنا منه قال له الملك: من أنت أملكٌ أم إنسيٌ أم جنيٌ قال: بل إنسيٌ قال: فمن أين أقبلت؟ قال: إني جاوزت المشرق والمغرب وقد سرت ثمانية عشر يومًا على أرض ملساء قال: إنّك لا تمشي على الأرض بل مشيت على الماء في البحر الأخضر المحيط بالأرض، فكان ذو القرنين شكّ أن يكون مشى على الماء فرسخت قدماه في الماء فقال له الملك: شككت بأنك مشيت على الماء فاستيقن ما جاء بك هٰهنا فقال له ذو القرنين: لعلّك تسبّني وتسمّيني باسم غيري، قال الملك: ما سببتك ولكنك جاوزت قرني العالم مشرقهُ ومغربهُ ولهذا سميتك ذا القرنين، فقال له ذو القرنين: ما لي أراك قابضًا على هذا الجبل، قال: لأن هذا الجبل جعله الله تعالى وتد الأرض وكلّ الجبال عروقها متصلة بهذا الجبل فأرسى الله تعالى الأرض به لئلا تميد بأهلها وأمرني أن أمسك هذا الجبل لتستقر الأرض بقراره فإذا أراد الله تعالى أن يهلك قريةً أو يزلزل الأرض زلزالًا أمرني فأزعزع عرقها من هذا الجبل وهو الذي يتصل بتلك الأرض حتى يهلك بزلزلته تلك الناحية، فقال ذو القرنين: هل وراء هذا الجبل شيء؟ قال: نعم وراءه ملائكة وكلّ منهم يحفظ تدبير الجبل ووراءهم أجسام حملة العرش وأقدامهم تحت السابعة وأعناقهم تحت العرش، قال: فما وراء ذلك؟ قال: الله أعلم بما وراء ذلك من خلقه قد انقطع علم العلماء عن ذلك، ثم قال لذي القرنين: ارجع إلى أصحابك فقد اهتمهم أمرك، قال ذو القرنين: إني قد جعت فأطعمني شيئًا؟ قال: إنّ الّذي قواك حتى أقبلت فإنّه يقوّيك حتى تنصرف إلى أصحابك بلا طعام قال: لا بدّ لي من زادٍ قال: فناوله الملك شيئًا كأنه عنقود عنب وقال: كُلْ منه واذهب به إلى أصحابك وأطعمهم منه حتى يشبعوا فأخذه ذو القرنين ثم قال له أوصني أيّها المَلِكُ الصّالح المطيع لربّه قال له الملك: انظر أيّها العبد الصالح إذا أمسيت فلا تهتم ليلتك واعمل اليوم لغدٍ، ولا تفرح بشيءٍ من الدنيا وإيّاك والغضب وإياك والعجلة في الأمور وعليك بالرفق في كلّ ما تأتي وتردُ، قال ذو القرنين أرشدك الله أرشدتني ونصحتني ورجع ذو القرنين يمشي مسيره حتى وصل إلى أصحابه فإذا هم قد أجهدهم الجوع فجعل يعطي الحبّة من ذلك العنقود للجماعة فأكلوا وشبعوا منه جميعًا وفضلت منه فضلة ثم إنّه سار بعسكره حتى توسط البلاد، وروي أنّ ذا القرنين كان يتفقّد أمور رعاياه بنفسه فبينما هو يسير في بعض الأحايين في بعض مملكته إذ لقي قاضيًا ولم يرَ أحدًا يختلف إليه في خصومةٍ فهمّ ذو القرنين بالانصراف فرأى رجلين قد اختصما إلى القاضي فقال أحدهما: اشتريت دارًا من صاحبي هذا وعمرتها ثم رأيت فيها كنزًا فدعوته إلى أخذه فأبى، فقال له القاضي: ما تقول؟ فقال: إنّي لم أدفن الكنز ولم أعلم من دفنه وليس هو لي فآخُذه فقال الخصم مره

أيها القاضي فيقبضه ويريحني منه، فقال الآخر: أتفر من الشرّ وتوقعني فيه لا آخذه أبدًا، فقال القاضي للمدعي هل لك ابن؟ قال: نعم، وقال للآخر: هل لك بنتٌ؟ قال: نعم، قال: اذهب فزوّج ابنتك من ابن هذا الرّجل وجهزهما بهذا المال فادفعاه إليهما يعيشان به، قال: فتعجب ذو القرنين من ذلك فقال للقاضي: ما ظننت أنّ في الأرض أحدًا يفرّ من المار فرار هذين ولا قاضيًا بمثل ما قضيت. قال له القاضي وهو لا يعرفه وهل أحدٌ يفعل خلاف هذا؟ قال: نعم، فقال: عجبًا لهم يفعلون ذلك ويبطرون قال الشيخ فهذه رواية أهل الأخبار والتفسير في قصته وأمّا رواية أصحاب التواريخ فيقولون إنّ الإسكندر كان ابن ملك يونان وكان أبوه يملك الروم مع بلاد يونان وكانت ملوك فارس قد غلبت وجعلت على ملك الروم ضريبة وخراجًا يؤدّيه إليهم كل سنة فلمّا مات أبو الإسكندر وجلس الإسكندر مكانه أرسل ملك فارس إليه لطلب الخراج، وذلك أنّهم كانوا يؤدّون كلّ سنة ألف بيضةٍ من ذهبٍ، فقال الإسكندر قولوا للملك: إنّ الدّجاجة التي كانت تبيض الذهب قد ماتت فلسنا نجد شيئًا من ذلك نرسله إليك وردّ الرسل فكتب ملك فارس وهو دارا بن دارا إليه يهدده فيوعده أن يأتيه بالجنود، فكتب إليه الإسكندر لا تتعب أنت بالشخوص نحوي، فإنّي شاخصٌ إليك، ثم إنّه جمع العساكر وسار إليه حتى غلب على بلاد الشّام والجزيرة وتوجّه نحو العراق وكان دارا سكن ناحية الأهواز[1] فلمّا سمع بمسير الإسكندر إليه غاظه ذلك وكتب إليه بلغني أيّها الصبيّ المتلصّص أنك جمعت قومًا من اللصوص فأقدمت على مملكتي واجترأت عليّ وإني أحذّرك ومن معك من سطوتي فارجع إلى أرضك بمن معك قبل أن تحل بك نقمتي وبعث إليه رسلًا، فلمّا قرأ الكتاب أمر برسله فعرّوا من ثيابهم وكتّفوا فقالت الرسل: لا يفعل مثل هذا بالرسل، فقال: لا تلوموني ولوموا صاحبكم إذْ سمّاني لصًّا فعاملتكم معاملة اللصوص مع النّاس، ثم إن الرسل تضرّعوا إليه فخلا سبيلهم وأطلق عنهم ودعا بالغداء وتغدّى معهم ثم خلع عليهم وصرفهم، وقال لهم: أخبروا صاحبكم بحالي وكتب جواب كتاب دارا، أمّا بعد فقد بلغني كتابك تهدّدني وتوعدني واعلم أنّي لا أخاف إلّا الله تعالى واعلم أن الله قال: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٦] ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم فكان دارا قد بعث إليه بدرّةٍ وياقوتةٍ وكرة وجراب سمسمٍ وكتب إليه، فأمّا ما بعثت به إليّ فقد

---

(١) الأهواز: آخره زاي، وهي جمع هوز، وأصله حوز، مدينة عربية وأصل الحوز في الأرض أن يتخذها رجل ويبين حدودها فلا يكون لأحد فيها حق فذلك الحوز، وسماها الفرس أهواز لأنهم يقلبون الحاء هاء، ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٢٨٤.

تفاءلت به فألًا حسنًا لنفسي، أمّا الدّرة فهي سوط وذلك سوط عذاب الله بعثه الله عليكم وأما الياقوتة فهي قوّتي عليكم، وأمّا الكرّة فسيصير ملككم في يدي مثل الكرّة، وأمّا جراب السمسم فإنك أردت أن تخبرني بكثرة جنودك واعلم أن السمسم طعام يطحن ويؤكل وسأطحن جنودكم وآكلهم ولكني بعثت إليك بجرابٍ من خردلٍ لتعلم أن جنودي أكثر من جنودك وإن طعمهم مرّ كمرّ الخردل، فرجعت الرّسل إلى دارا وأخبروه بما شاهدوا من أحوال ذي القرنين، ثم إنه سار إلى دارا فاقتتلوا سبعة أيّام قتالًا شديدًا، وروي أنّ ذا القرنين خرج ليلة من تلك الليالي متنكرًا وحضر باب دارا وقال: أنا رسول ذي القرنين فدخل عليه وكلّمه وجعل يجيب دارا عمّا يقول فقال له دارا: إن كنت رسولًا فما لك والجواب من ذات نفسك فقال: إن صاحبي قد قال لي: إن قيل لك كذا فأجب كذا وإن قيل لك كذا فأجب كذا، وإنّما أجيب عنه بإذنه ثم إن بعض من حضر أحسّ بأنه ذو القرنين فأشار آخر بذلك ففهم ذو القرنين أنّهم أحسّوا به وكان دارا قد قال فصلًا من الكلام فقام ذو القرنين وقال: لا أعلم جواب هذا الفصل، فأذهب إلى صاحبي وأخبره وأرجع إليكم بالجواب، وخرج مسرعًا من الخيمة وكان على باب الخيمة رجل معه مشعلة فضربه ذو القرنين حتى سقط وانطفأت مشعلته وركض هو نحو معسكره فلم يشعروا بتوجهه من ظلمة الليل فنجا سالمًا وركب في الغدّ للقتال فاقتتلوا قتالًا شديدًا فلمّا كان اليوم السابع من قتالهم انهزمت جنود فارس، ثم اختلفت الروايات فروى بعضهم أن حاجبًا من حجاب دارا قد نقم عليه بسبب أنّ دارا قد غصب امرأةً له جميلة فجاء إلى ذي القرنين مختفيًا ووعده أن يقتل دارا غيلةً وسأله أن يجعل على ذلك مكافآته فضمن له ما سأله، فلمّا اصطفّ الناس للقتال في اليوم السّابع احتال الحاجب فقتل دارا وانحاز إلى عسكر ذي القرنين ولما سقط دارا انهزم عسكره ولحق ذو القرنين بدارا وفيه رمقٌ فنزل ذو القرنين عن دابته ووضع رأسه على حجره ومسح عن وجهه وقال له: عزّ عليّ ما أصابك ولم أكن لأَفْعل هذا بك إن ظفرت بك، وأنت تعلم من فعله قال دارا له: نعم وإني مفارق الدنيا وموصيك بوصيةٍ وأسألك أن تمضيها فقال: أفعل فقال دارا أوّلها أن تقتل قاتلي بدمي ولا تهدره ضياعًا، وأن تحسن إلى أهل فارس ولا تحقد عليهم لقتالهم إيّاك وأن تتزوج ابنتي فإنّها كانت عزيزة عليّ، وإن لم تتزوجها فلا تزوجها من غير كفؤٍ وأن تحسن إلى والدتي فكفاها من الحزن مصابها بي فضمن له ذو القرنين ثم قال: يا ذا القرنين أعظك أن تعتبر منّي وتتفكّر في حالي، وقد كنت بالأمس ملكًا تهابني ملوك الأرضِ واليوم صرت مقهورًا مطروحًا في التراب قد زالت عنّي نعمتي وملكي، وهكذا تصير الملوك في الدنيا، ثم إنّه مات من يومه فأمر ذو القرنين بغسله وطلّاه بالمسك من رأسه إلى قدمه وكفّنه بأكفان الملوك ووضعه في تابوتٍ من ذهب ومشى أمام التابوت مع

رؤساء عسكره ورؤساء فارسٍ وساداتهم حتى أتى به إلى قبره عند قبور ملوك فارس فدفنه ووفى بما ضمن منه له من وصاياه، فلمّا رأى أهل فارس حال ذي القرنين فرحوا به ثم إنّ ذا القرنين أمر بطلب قاتل وكان قد اختفى لما سمع من وفائه وصيّة دارا في حقه فأمر ذو القرنين فنودي في الناس ألا إنّه ليس حدٌّ منّي على رجلٍ قتل دارا حتّى ثُلّت هذه المملكة فليظهر لي حيث كان لأكافئه على فعله فظهر الحاجب، وأمر ذو القرنين حتى أتى بالخلع وبما كان ضمن له كلّه فأعطاه إيّاه أيّامًا حتى سكن، ثم إنه جلس يومًا للمظالم وأحضروا رؤساء عسكره ورؤساء فارس كلّهم وأحضر الرجل القاتل وقال: هل وفيت لك بما ضمنت لك؟ قال: نعم، قال: فإني اليوم أوفي لملك دارا بما ضمنت منه، ثم أمر به فأخذ ونصبت له خشبة وحمل عليها ونادى في الناس فاجتمعوا ثم نودي هذا جزاء عبدٍ كفر بنعمة سيّده وغدر به، وأمر به فقتل وقال: إن لم أفعل هذا اجترأ الناس على ملوكهم وفسدت الأمور، ولما قتل قاتل دارا ووفى بوصاياه في أمر ابنته ووالدته سكنت إليه قلوب أهل فارس كلّهم هذه رواية واحدة، وفي رواية أخرىٰ أن دارا انهزم في اليوم السابع من القتال وتحصن بمدينته التي كانت له وتفرقت جنوده وتفكر في نفسه وقال: لا وجه لي إلّا الإظهار بالخضوع لهذا الرجل لأكائده وأصرف عنّي شرّه فكتب إلى ذي القرنين كتابًا لطيفًا بارًّا وخضع له فيه وضمن له الطاعة والانقياد وتسليم المملكة، فلمّا قرأ ذو القرنين كتابه كفّ عنه وأجاب بمثل كتابه وجعل دارا يماكر ذا القرنين بالكتب والرسل وكتب إلى ملك الهند يستعين به على ذي القرنين ويخبره أنه إن فرغ من أمر فارس قصد ناحية الهند وقال: إن أعنتني عليه حتى أظفر به بعثت إليك شطر ما أغنم منه، قال: فبلغ ذو القرنين ما فعله دارا وعلم بمكره فركب في جنوده واستعدّ لقتاله، فلمّا رأت جنود فارس ذلك خافوا على أنفسهم لما رأوا من قتلهم وكثرة من مع ذي القرنين فعند ذلك دبّر وزير دارا لهلاك دارا تقرّبًا إلى ذي القرنين فأهلكه وأدركه ذو القرنين متلطخًا بدمه ففعل به ما ذكرناه من قبل إلى آخر القصّة بتمامها ثم إنّ ذا القرنين كتب إلى ملوك فارس ونواحيها سهولها وجبالها كتابًا بارًّا ووعدهم فيه العدل والنظر في أمورهم ومصالحهم وحسن السيرة فيهم وأظهر الترجع إلى دارا وإنما نزل به كان على غير رضا منه فإنّه قتل قاتله وأنفذ وصاياه ودعاهم إلى السمع والطّاعة وحذرهم عواقب المعصية وكذلك كتب إلى والدة دارا واسمها أزادبخت وعزاها بدارا، وترجع إليها في كتابه ووعدها كل جميل وكذلك وعد أخت دارا وذكر في الكتاب أن دارا أمره أن يتزوّج بابنته واسمها رُشُنْك وإني أريد التزوج فينبغي أن تجهزوها وتبعثوا بها إليّ فأجابت أزادبخت عن كتابه أحسن جواب وجهّزت رشنك وبعث بها إلى ذي القرنين وكتبت إلى جنود فارس وجميع أهل بلادها بالطّاعة لذي القرنين فقبلوا وخضعوا واستقام لذي القرنين

مملكة فارس فكتب إلى أمه واسمها غيدا يخبرها بما فتح الله تعالى له من مملكة فارس بتزوجه برشنك ابنة دارا وسأل أمه أن ترسل إلى رُشْنُك من الهدايا ما يصلح لمثلها ففعلت غَيْدَا ذلك ودخل ذو القرنين برشنك وأكرمها غاية الإكرام، وسكن كلّ واحدٍ منهما إلى صاحبه قال: وأقبل ملك من الهند واسمه فور في جندٍ عظيم مددًا لدارا ولم يعلم أنه قد هلك، فلمّا بلغه خبره كرّ راجعًا إلى أرض الهند فبلغ خبره ذو القرنين، فكتب إليه من الإسكندر ذي القرنين إلى فور ملك الهند، أمّا بعد فقد بلغك ما كان من نصرة الله تعالى لي على من خالفني وما كان من أمري وأمر دارا ملك فارس، والآن فإني أدعوك إلى طاعتي والانقياد لي والدخول في ديني فإن فعلت كنت قد أصبت حظك ولم أقصر حينئذٍ في صلاحك وصلاح أهل مملكتك وإن أبيت سرت إليك بجنودي واستعنت بالله تعالى عليك وقد نصحتك إن قبلت ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم فلمّا بلغه كتاب ذي القرنين كتب في جوابه من فور ملك الهند إلى إسكندر الرّومي أمّا بعد فقد بلغني كتابك ورسولك وفهمت ما ذكرت من أمرك وأمر دارا وهلاكه وإنما أهلك دارا قومه وعدم تدبيره، واعلم أنه لم يطمع أحدٌ قط في ملك الهند ولا غلبهم فلا تحدّث نفسك بما لا يكون وارجع إلى بلادك سالمًا قبل أن لا تقدر على ذلك، وإن لم تفعل سرت إليك بجنودي وفيلتي ومررت عليك وعلى جندك وأوردتك وإيّاهم حياض الموت، فلمّا قرأ ذو القرنين كتاب ملك الهند ارتحل بعساكره وعساكر فارس حتى ورد بلاد الهند ثم كتب ثانيًا إلى ملك الهند ودعاه إلى الطّاعة وحذّره الخلاف وأخبره إن لم يفعل أقصد قتاله فليتهيّأ لذلك، فلمّا قرأ ملك الهند كتابه جمع جنوده وفيلته وسار إلى ذي القرنين، فلمّا التقى العسكران ونظر جنود ذي القرنين إلى الفيلة هابوا ذلك وخاف ذو القرنين على عسكره ففكّر واحتال وأمر الصنّاع أن يصنعوا له تماثيل من نحاسٍ وحديد على صورة الرّجل فصنع منها أربعة آلاف وجعل فيما بين ذلك يراسل ملك الهند ويحتال له ويشغله بالكتب والرسل إلى أن فرغ ممّا أراد وصنع للصّور عجلاتٍ يحمل عليها وتجر وكان في عسكره من أنواع الصنّاع عدد كثير ومن الآلات أيضًا ثم إنّه ملأ أجواف تلك التماثيل قيرًا ونفطًا وكبريتًا وأضرم فيها النار حتى حميت واتقدت وأمر الرجال حتى جرّوها على عجلاتها وصفّوها أمام العسكر ثم أمر عساكره بالتهيّؤ للقتال وبعث إلى ملك الهند ودعاه إلى الحرب وأقبلت عساكر الهند وأمامها الفيلة وقدم ذو القرنين التماثيل أمام صفوفهم فجعلت تحمل على التماثيل تظنّ أنّها رجال فتضربها بخراطيمها فتحترق وتنهزم فولّتها إلى أصحابها واقتتل الناس قتالًا شديدًا واشتدّ الأمر حتى خاف أصحاب ذي القرنين على أنفسهم فتقدّم ذو القرنين أمام العسكر ونادى ملك الهند يا فور أخرج إليّ أكلّمك فدنا منه فقال له ذو القرنين:

ليس هذا برأيٍ أن تهلك الناس بيننا فيتفانوا فهل لك أن تبرز إليّ وأبرز إليك فأيّنا غلب صاحبه كان الملك له؟ فقال ملك الهند: نعم، وكان رجلًا بادنًا عظيمًا جسيمًا وكان ذو القرنين رجلًا قصيرًا فطمع فور أن يغلبه فيأخذ ملكه فأمرا عساكرهما بالكفّ عن القتال وخرج كلّ واحدٍ منهما إلى صاحبه وكانا قد تواثقا على أن لا يعين أحدهما على صاحبه بل ينفرد كلّ واحد بالآخر بنفسه فلمّا تجاولا ساعة على مكانهما ولم يظفر أحد منهما على صاحبه قال ذو القرنين ألسنا قد تواثقنا على أن لا يعين واحدًا منّا على صاحبه غيره، قال: بلى، قال: فمن هذا الذي خلفك؟ فظنّ فور أنّه قد جاءه بعض أصحابه لعونه ولم يكذب ذو القرنين بل عرض تعريضًا فالتفت فور إلى ما وراءه وطن عليه ذو القرنين فضربه ضربة صرعه عن دابته فأسرع إليه حتى قتله، فلمّا رأت الهند صاحبهم حملت حملة رجل واحدٍ وجدّوا في القتال وقاتلوا قتالًا لم يسمع بمثله، وكان ذو القرنين ظن أنهم ينهزمون إذا رأوا ملكهم صريعًا، فلمّا أن رأى جدّهم في القتال ناداهم يا معشر الهند ما لكم تهلكون أنفسكم وقد قتلت صاحبكم؟ قالوا: لسنا نقاتل له وإنما نقاتل عن آبائنا وأولادنا ودورنا وأموالنا، فقال لهم ذو القرنين: فاعلموا أني قد آمنت كلّ من وضع السّلاح ولست أصنع بكم إلّا ما تريدونه ولا آلوكم نصحًا وسلامًا والله عليّ بذلك شهيد، فلمّا سمعوا بذلك سألوه الوثاقة فوثق لهم بالمواثق حتّى سكنوا إليها وألقوا السلاح وتركوا القتال ودخل ذو القرنين بلاد الهند صلحًا وأمر بملكهم فور حتّى كُفِّنَ ودفن وصالح الهند على السمع والطّاعة وأداء الخراج إليه ومرّ في بلاد الهند فيما يقال على سِميتَ قسمهر إلى بلاد الترك من نواحي تُبت وذكر بعض أهل الأخبار منهم الحسن أنّه قال إنه بلغ ذو القرنين أن في بلاد الهند قومًا من الحكماء وأهل العلم بالطبّ والنجوم والهندسة في بلاد يقال لها برجماس فقصد نحوهم فكتب إليه الملك إن كنت تأتينا طمعًا في مالٍ أو نفعٍ فإنّه لا شيء لنا وإنّما نحن أناسٌ جفاة عراة لا لباس لنا ولا ثياب فضلًا عما سوى ذلك وإن كنت تطلب ما عندنا من الحكمة فيما بيننا فنحن بين يديك فسار إليهم ذو القرنين فلمّا دنا من أرضهم ضرب عسكره وشخص في طائفة من أصحابه إليهم فرآهم قومًا حفاة عراة مساكنهم الظلال والغيران ولا شيء لهم من الدنيا فسألهم عن حالهم وقال: كيف تركتم الدنيا؟ قالوا: لأنّه لا بقاء لها، قال: فسأل رجلًا منهم وقال: أمن مات من أهل الدنيا أكثر أم من بقي؟ فقال: لا، بل من مات فإنما مضى من الدنيا أكثر مما بقي، قال: فسألهم عن الطبّ والنجوم وما أراد من أنواع علومهم فأخبروه بما سأل ثمّ قال لهم: سلوني حاجة بجماعتكم تنتفعون بها؟

فقالوا: نسألك الخلود ودفع الموت، فقال: كيف يكون ذلك وأنا عن قريبٍ ميّتٌ قالوا له: فما حاجتك إلى قتال الناس وأخذ البلاد وجمع الخزائن قال: إن ذلك أمرٌ من الله تعالى أمرني به، قال هؤلاء ثم إنّه سار من هنالك إلى بلاد المغرب وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف: الآيتان ٨٥، ٨٦]، ذكر أنه رأى في مسيره نحو المغرب بلادًا أهلها سحرة يأخذون الفارس مع سلاحه ودابته فيقذفونه في البحر فهابهم قوم ذي القرنين فلم يقاتلهم فتركهم ومضى عنهم إلى أن قطع إلى الموضع الذي تغرب فيه الشمس حيث قال الله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ [الكهف: الآية ٨٦] وكانوا لا يحصون فهابهم قوم ذي القرنين ثم إنّه استخار الله تعالى في قتلهم فأظفره الله تعالى بهم وخضعوا له وسار فيهم بما ذكر الله تعالى حيث قال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ [الكهف: الآية ٨٧] إلى آخر الآية، ثم إنه سار حتى دخل الظلمة كما ذكرناه في قول أهل التفسير، فلمّا خرج من الظلمة سار حتى وصل إلى البحر وركبه فدفع إلى مدينةٍ عظيمةٍ في وسط البحر قد نبتت على الخشب كما تكون السفن فوق الماء فلمّا دنوا منها تباعدت عنهم فسأل عنها فأخبره من عرف حالها أنّها مدينة بناها أهلها من السفن ورصّوا بعضها إلى بعضٍ فهي تسير بهم في البحر لا يدركهم أحدٌ فلمّا خرج من البحر رأى على شاطىء البحر ساريةً عظيمة وإذا على رأسها تمثال رجلٍ قد كتب على صدرها هذا تمثال كرش الملك وأنّه ملك الدّنيا في الزّمن الأول، فأمر ذو القرنين حتى فرش له على سريرٍ من حديدٍ وأمر أصحابه باتقاد النيران، فلما ذهب ثلث الليل وهم في ليلة مقمرةٍ إذا سباعٌ كثيرة في غياضٍ هنالك وأقبلت نحو الماء وتبعها عقارب خرجت من رمالٍ هنالك وحيّات كثيرة من كلّ لونٍ كلّما لدغت عقربٌ أو حيّة أحدًا أهلكته من ساعته فنادى ذو القرنين في عسكره حتى لبسوا السلاح وثبتوا فولّت عنهم السّباع، فلمّا أصبح أمر حتى أضرمت النيران في تلك الغياض وخرجت عليهم السباع فمنها من احترق بالنار ومنها من قتل بالسلاح، ثم إنّه ارتحل فبلغ إلى أرضٍ ذات غياضٍ وأنهار كثيرة وأهلها قومٌ حفاة عراة لباسهم جلود الغنم وهم سودٌ كالغربان ولهم أنيابٌ كأنياب السباع وأرضهم واسعة وهي كثيرة الفواكه فقاتلوه وقاتلهم حتى غلبهم، ثم إنّهم انقادوا وقبلوا الخراج فأخذه منهم ومضى حتى وصل إلى أرضٍ ذات فواكه كثيرة طيّبةٍ فأقام بها أربعة أيّام يأكلون من فواكهها فخرجت عليهم في اليوم الرابع دابّة عظيمة كريهة المنظر هيأتها مثل هيئة الخنزير فحملت على الناس وحملوا عليها فقتلوها، ومضى حتى بلغ أرضًا فيها أناسٌ أرجلهم كأرجل الحمير لا مسكن لهم ولا مأوى فحملوا على عسكره يرمونه بالحجارة فشدّ عليهم العسكر بالسّلاح فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وانهزموا فامتنعوا في غيران الجبال ومضى حتّى بلغ

مدينة أهلها رؤوسهم كرؤوس الكلاب فلمّا أبصروا العسكر هربوا فلم يقدر على أحد منهم فارتحل عنهم حتى أتى نهرًا عظيمًا وحوله شجر كثير وإذا تلك الشجر يتطاول في أوّل النهار إلى أن تزول الشمس ثم يناقص إلى الليل حتى لا يرى منه شيء ولها رائحة طيّبةٌ أطيب من المسك فأتي ذو القرنين بثمرها وورقها فبينما هم كذلك إذ وقعت الجنّ في العسكر يضربونهم فيرى أثر الضرب على الرجل ولا يرى الضّارب ثم سمعوا صوتًا يقول: لا تتناولوا من هذه الشجرة، فإن أخذتم أهلكناكم فنهى ذو القرنين عن التناول منها ورأوا على تلك الأشجار طيورًا لم ير مثلها حسنًا فلم يتجاسروا على أخذها ورأوا في ذلك النهر حجارة بيضًا فإذا أخرجت من الماء صارت سودًا وإذا طرحت في الماء صارت بيضًا ثم ارتحل من هنالك إلى أرضٍ أهلها قوم أعينهم في صدورهم لا يفهم كلامهم ولا يفهمون ما قيل لهم لا عقل لهم كالصّبيان إذا مشى أحدهم فضرب صاحبه بكى كالصبي وهم حفاة عراة ويقال إنهم الذين يقال لهم النسناس والله تعالى أعلم ثم ارتحل حتى أتى البحر الأعظم الذي يقال له المحيط، فخرج عليهم أناس من البحر صلعٌ صهبٌ جردٌ وأخذوا أناسًا من أصحاب ذي القرنين فرموا بهم في البحر وجعلوا يأكلونهم فحمل عليهم العسكر فدخلوا الماء ولم يقدروا عليهم فمضوا وانتهوا إلى أرض كثيرة الغياض والفواكه وفيها دوابّ مثل حمار الوحش طول كلّ حمار خمسة عشر ذراعًا ولها قرون كالرماح فأصاب العسكر منها وأكلوا فلم يروا لحمًا أطيب منه ثم مضوا فانتهوا إلى أرضٍ فيها أناس صلعٌ قصارٌ لكلّ واحد منهم أذنان عظيمتان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخرى إذا نام وإذا مشى أخذ إحداهما قدامه والأخرى خلفه، ولا عقول لهم ثم مضوا فانتهوا إلى أرض لا سكّان فيها وهنالك طيران عظيمان فنادى أحدهما يا ذا القرنين قد وطئت أرضًا لم يطأها أحد قبلك، وههنا أقصى الأرض وليس وراءها إلا الجبل الذي تطلع الشمس خلفه فارجع إلى مكانك، وكان دون الجبل البحر المحيط بالأرض وكان هنالك مطلع الشمس التي قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف: الآيتان ٨٩، ٩٠] أولئك القوم صهب جرد لا شعر عليهم فإذا حسّوا بطلوع الشمس دخلوا غيرانًا وأكهافًا يستترون بها من حرّ الشمس فلا يزالون كذلك إلى أن ترتفع الشمس ثم إنه رجع من هنالك حتى وصل إلى جبال منيعة رفيعة ثم دفع إلى جبل عظيم على رأسه هيكلٌ طوله مائتا ذراع وعلى بابه سلسلتان من ذهبٍ ففتح الباب ودخله ذو القرنين فرأى فيه بيتًا من ذهبٍ فيه كُوات كثيرة في كلّ كوةٍ صنمٌ من ذهب وفي وسط البيت سرير من ذهب مفضّض بالدرّ والياقوت طوله أربعون ذراعًا وفوق السرير عرش من الذهب فوقف ذو القرنين على باب البيت ساعةً ثم دخله وقصد أن يكشف عن وجهه

فصاح به صائح مهلًا فرجع فنودي يا ذا القرنين لم تعط العلم كلّه، أنا صاحب السرير وأنا ملك الجنّ فارجع إلى أهلك سالمًا ثم ارتحل فانتهى إلى جبل فيه كهوف ومنازل لا ساكن فيها فنشأت عليهم سحابة وذلك في أيّام الصيف وفيها رعد وبرقٌ شديد حتى أظلمت الدنيا فلم يروا شيئًا ثلاثة أيام، ثم أثلجت السحابة ثلجًا عظيمًا حتى مات فيه خلق كثير من عسكره وحبستهم الثلجة مقدار ثلاثين يومًا ثمّ سار حتى انتهى إلى مدائن كثيرة فيها خلق كثير ورأى عجائب كثيرة فصالحوه عن بلادهم وأدّوا إليه مالًا عظيمًا وأهدوا إليه هدايا سنيّة فسألهم هل وراء بلادكم بلاد قالوا: لا أيّها الملك ليس وراءنا إلّا مساكن الجنّ ثم ارتحل فانتهى إلى أرضٍ كثيرة الخير، وفيها أناس كثيرون فانقادوا له وأدخلوه بستانًا في وسط هيكل وهو بيت الأصنام، وفيه أصنام كثيرة وإذا في البستان شجرتان زعم الناس أنّهما يتكلّمان وذلك أنّ الشيطان كان يدخلها فيكلّم الناس فيهما فقال لهم ذو القرنين: سلوهما عن شأني وأمري ففعلوا، فقلت: ما تقولون فلم يخبروني بما سمعوا غير أنّهم قالوا: إنما يقولان إنك تموت ببيت المقدس ثم ارتحل فانتهى إلى جبلٍ منيع فيه كنانٌ كثيرة وكانوا يعهدون للإسكندر ممّا أحبّوا من الأشياء وإنّهم ذكروا أن دابّة من وراء هذا الجبل عظيمة وإنّها تأتيهم كأنّها سحابة سوداء وذكروا أنّهم يبعثون إليها كلّ يومٍ ثورين فتأكلهما وتنصرف إلى مسكنها في غيضة كبيرة فخرج ذو القرنين نحوها في قوم من عسكره مع دليل من أولئك القوم ومعهم الثوران فلم تلبث أن خرجت إليه وأكلت الثوران ودخلت الغيضة فأمر ذو القرنين حتى منعت من الطعام يومين فجعلت تخرج فإذا لم تجد شيئًا ترجع ثمّ إنه أمر في اليوم الثالث أن يحملوا عليها إذا خرجت ففعلوا، فدخلت الغيضة فأمر ذو القرنين بثورين فسلخ جلودهما وحشي الجلدان كبريتًا ونفطًا ووضعا مكان الثورين فخرجت الدابة يوم الرابع وقد جاعت فأهوت إلى الجلدين فابتلعتهما بما فيهما فلمّا وصل ذلك إلى جوفها خرّت مغشيًّا عليها فأمر ذو القرنين بقطعٍ من النحاس حتى أحميت بالنّار ثم ألقيت في فيها إلى جوفها فأضرمت نارًا بما في جوفها من الكبريت والنفط فاحترقت فماتت واستراح منها أهل الناحية، ثم سار حتى انتهى إلى بلاد الصّين فضرب بعسكره ووصل خبره إلى ملك الصين، فأمر بجمع الجنود وخرج ذو القرنين بنفسه على هيئة الرسول إلى باب الصين فأخبر الملك فأدخل عليه في مجلسٍ مشيّك بصحائف الذّهب والفضّة وهو على سرير من ذهب مرصّع بالجواهر وحوله كراسي مثل ذلك عليها سادات عسكره وقوّاده فجلس ذو القرنين وسأله ملك الصين فأخبره أنه رسول ذي القرنين وأنّه يدعوك إلى طاعته والانقياد له أو الاستعداد لقتاله فقال له ملك الصين: ارجع إلى صاحبك وأخبره أنا نأتيه يوم كذا وكذا مستعدين لقتاله، فرجع ذو القرنين وتهيّأ لقتاله فلما كان اليوم

الموعود جاءه ملك الصين في جنودٍ لا يحصون عددًا وشوكةً لم يرَ مثلها فلمّا اصطف العسكران ورأى ذو القرنين هيبة القوم خرج ملك الصين إلى ما بين الصفين ونادى يا ذا القرنين اخرج أكلّمك فخرج إليه، ويقال: لا بل خرج ملك الصين في الليلة التي تواعدا للقتال صبيحتها حتى أتى ذا القرنين فدخل عليه على هيئة الرسول مستنكرًا، وقال: اخرج من عندك أبلّغك رسالة صاحبي ففعل ذو القرنين ذلك ووضع بين يديه سيفًا مسلولًا فلمّا خلا المجلس تعرّف ملك الصين أنه هو فكلّمه فقال ذو القرنين: ألم تخش على نفسك حين أتيتني وأنا أعرفك، فقال: لا، لأني رأيتك وتفرست فيك إنك ذو القرنين حين جئتني فلم أغدر بك، فعلمت أنك تكافئني بمثل فعلي ولا تغدر بي وأيضًا فإني عرفت عقلك وكرمك فوثقت بك فصدّقه ذو القرنين وكلّمه بما أراد وضمن له صاحب الصين الطاعة والخضوع له ورجع في ليلته فلما أصبحوا وعند ذي القرنين هدايا ملك الصين تأتيه كما ضمن له إذا هو بالعساكر التي لا تحصى عددًا والشوكة التي لم تر مثلها قد جاءته فخشي الغلبة فبادر وعبّأ عسكره، فلمّا دنا القوم بعضهم من بعض خرج ملك الصين ما بين الصفين وسأل ذا القرنين إن خرج إليه ليكلّمه فخرج إليه فقال: لعلك تقول لي إنك نقضت العهد وخالفت ولم أفعل ولكنّي أردت أن تعلم أني لم أخضع لك عجزًا وكيف أعجز ومعي هذه الجنود والهيبة التي ترى، وإنما أطعتك إبقاء على ناحيتي ورجالي فإنّ صاحب الحرب لا يدري ما يكون عاقبة حربه، أما أنا ملك على ما قلت وضمنت ورجع عن ذي القرنين بجنده، ثم بعث إليه بما ضمن له من الأموال وأهدى إليه من حرير الصّين وما يكون بها من الجلود الثمينة والبراذين والغلمان والجواري والمسك والعنبر والكافور والعود وأنواع الطيب والجواهر ووعده أن يؤدي الخراج، فلمّا رأى ذو القرنين ذلك قال له: أنت أعقل الناس وأهدى إليه بهدايا سنيّة من عنده وقال له: قد وسّعت لك خرج أرضك فلا حاجة لي فيه وخرج من أرضه راضيًا عنه وسار حتى انتهى إلى التُّبّت[١] ثم إلى فرغانة[٢] ثم إلى الصّدف وسمرقند[٣] ويقال إنّه بنى سورها ليتحصّن به أهلها من الترك، وذلك أنّه لمّا

---

(١) التبت: بالضم وبكسر ثانيه: وهي بلد بأرض الترك وقيل مملكة متاخمة لأرض الصين ومتاخمة في إحدى جهاتها لأرض الهند، ومن جهة المشرق لبلاد الهياطلة ومن جهة المغرب لبلاد الترك، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٢/ ١٠.

(٢) فرغانة: بالفتح ثم السكون، وغين معجمة وبعد الألف نون: مدينة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٤/ ٢٥٣.

(٣) سمرقند: بفتح أوله وثانيه ـ ويقال لها بالعربية سمران وقيل من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٣/ ٣٤٧.

خرج إلى أرض الصين وصل إلى قرية فيها قوم تشبه العرب فسألهم فذكروا أنّهم من نسل قوم خرجوا مع تبّع إلى أرض الصين فلمّا خرج تبّع جعلهم هنالك يحفظون تلك البلاد عمّن وراءهم فرأى بينهم بيتًا يعظمونه ويطوفون به وقالوا كان لأسلافنا بأرضهم بيتٌ يعظّمونه وأنهم بنوا على مثله يعنون الكعبة فخرج ذو القرنين من عندهم إلى التُّبَّت ثم إلى فرغانة والصدف ثم خرج إلى شطّ جيحون[١] فبنى هنالك مدينة ترمذ[٢] وبنى على ممرّ الناس قصرًا مكلّفًا وجاء إلى بلخ[٣] فبنى قندهار[٤] ثم خرج إلى هراة[٥] فبنى سور مدينتها الداخل، وهو الذي يقال له البروج المربعة فإنّ أبنية الرّوم كانت مربّعة ويقال إن العجم بنت السور الخارج الّذي عليه البروج المستديرة على رسم أبنيتهم والله تعالى أعلم.

قال: ورأيت كتابًا لأبي عبيد المؤدّب صاحب الأزهري صفة في أخبار الهراة ذكر فيه أنّ مدينة الهراة كلّها من بناء ذي القرنين وذكر لذلك قصّة طويلة اختصرت منها قال: قدم الإسكندر ناحية هراة فاستطابها وكتب إلى أمّه وكان لا يعمل شيئًا إلّا بمشورتها فاستأذنها للإقامة بها فأذنت له سنةً وأمرته أن يبني بها مدينة وسورًا فأخذ في ذلك فعسر عليه حتى مضت سنتان فجاءه كتاب أمّه إنّي أذنت لك في الإقامة سنة وقد مضت سنتان، وإنّي أظنّ الأمر عسر عليك فإذا قرأت كتابي فابعث إليّ من تراب تلك الأرض في جرابٍ ففعل ذو القرنين، فلمّا ورد الرسول بالجراب إلى أمّه جمعت أهل بلدها وقالت: إنّ ذا القرنين يستنفركم فانفروا إليه قالوا: سمعًا وطاعة قالت: فارجعوا إليّ غدًا فلمّا كان من الغدّ أمرت بالتراب ففرشته في ذلك الموضع الذي فيه مجمعهم وأمرت بجمعهم فاجتمعوا فقالت: إنّ ذا القرنين يستنفركم فانفروا إليه فقالوا: حتى ننظر في الأمر، فاختلفوا فأجاب قوم وأبى قوم فقالت لهم: ارجعوا إلى منازلكم فلا حاجة لذي القرنين فيكم وكتبت إلى ابنها يا بنيّ إِنّي أرى الأرض التي أنت بها أرض خلاف فإذا أتاك كتابي هذا فارجع إليّ

---

(١) جيحون: بالفتح وهو اسم أعجمي وادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان فنسبها الناس إليها وقالوا جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٢/١٩٦.

(٢) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٢/٢٦.

(٣) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان من أجل مدنها وأوسعها تحمل غلتها إلى جميع خراسان، ياقوت الحموي ـ مصدر سابق ١/٤٧٩.

(٤) قندهار: بضم القاف وسكون النّون وضم الدال وهي من بلاد السند والهند مشهورة في الفتوح، ياقوت الحموي ـ مصدر سابق ٤/٤٠٢.

(٥) هراة: بالفتح مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٥/٣٩٦.

ولا تعرّج على شيءٍ فلمّا وصل إليه الكتاب وكان قد بلغ إليه الكتاب وهو بالباب الذي يقال باب خشك فترك الأمر على ما هو عليه ثم خرج والله تعالى أعلم، ثم إن ذا القرنين خرج إلى بابل يعني العراق فاستقبله كُتَّاب معلّمه أرسطاليس الحكيم ويقال: إنّه هو الذي ينسب إليه علم كتاب الفلاسفة الذي يقال له المنطق ويسمّى أرسطاليس صاحب المنطق، ويقال: إنّه كان رجلًا آخر والله تعالى أعلم وكان في كتابه إليه أنّه قال بلغني مسيرك في الدنيا وما لقيت من الأمور العظام وما رزقك الله تعالى من الظفر على أعدائك وما افتتحت من البلاد والمدائن وما بنيت منها ودانت لك الأرض كلّها وذلك بعون الله تعالى وقوته وتمكينه إيّاك فاحمد الله واشكره واعمل الآن ليوم موتك واعلم أن الدنيا منقطعة عنك وأنّك تاركها لغيرك، فهيِّء للموت قبل هجومه عليك ولا تغفل عنه والسّلام، فلمّا قرأ ذو القرنين كتابه قال: صدق معلّمي، وفي رواية الحسن أن ذا القرنين صار في مسيره إلى أرض المغرب إلى ناحية يقال لها أرض سمرة وكان الحاكم بها امرأة تسمى قيذافة وكان دار ملكها مدينة تسمى باسمها مدينة قيذافة وهي أربعة فراسخ في أربع فراسخ ولها ثلاثمائة وعشرون بابًا من حديد ونحاس فلما قرب ذو القرنين من أهلها كتب إليها ودعاها إلى الطّاعة ودفع الخراج إليه وَبَعْثِ الأَمْوال نحوهُ فأجابته وأهدت إليه وبعثت مصوّرًا يأتي عسكر ذي القرنين فيصوّر لها صورته فيأتي بها ففعل المصوّر وأعاد الرسل إليها فكتب إليها ذو القرنين: إنَّك غزوت مصر وأخذت أموالها فردّي عليّ ما أخذت من أموالها فأجابته أني أخذت أموال مصر حين كنت ملكتها فلا أردّ على أحدٍ شيئًا منها، وأمّا الهدايا وما ترجوه منّا نفعل، فلمّا جاءه الكتاب تهيّأ ذو القرنين للمسير إليها فبينما هو كذلك إذ دخل عليه صاحب مصلحته بخبر أنّه قد وافاهم ابن لقيذافة وكان اسمه قيذرون فأمر به حتى أنزل إلى الغدّ في موضع فلما كان من الغدّ ألبس ذو القرنين ثيابه لصاحبه ولبس ثياب حاجبه وجلس، ثم دعا به وقد أجلس حاجبه مكان نفسه فأمر بإدخاله عليه وسأله عن حاله فأخبره أنه كان خرج تاجرًا إلى أرض ميراس فهجم عليه قومٌ منهم وقتلوا أصحابه وأخذوا امرأته وجميع أمواله وأنه انصرف راجعًا إلى ناحيته ليسير إليهم بالجنود لاستِرْدَاد امرأته وأمواله، فلمّا أخبر به نظر الحاجب إلى ذي القرنين رآه أنّه الملك وأن ذا القرنين هو الحاجب، فقال له: ما تقول في هذا؟ قال ذو القرنين: أيّها الملك هذا إليك فأمر ماذا ترى قال آمرك أن تسير بخيل عظيمةٍ إلى ميراسٍ فتنزع منهم امرأة ابن قيذافة وأمواله كلّها فتدفعها إليه وتسرحه إلى أمّه مكرّمًا، فلمّا سمع ابن قيذافة ذلك سجد وخرج ذو القرنين مع ابن قيذافة على اسم صاحبه وكان اسمه أنطيفون مع عسكرٍ عظيم نحو بلاد ميراس وأمر ابن قيذافة بالكتمان في غيضةٍ هنالك وقال له: لا تظهر نفسك لهم فيهلكوا المرأة، فإذا كان غدًا ووقفنا للقتال وخرج إلينا ميراس والعسكر فاخرج أنت نحو البلدة

وأضرمها بالنّار ونادِ أخرجوا إليّ امرأتي حتى يسرحوها إليك، ففعل ذلك ابن قيذافة وسارعوا نحو البلدة كما أمره عند خروج ملك ميراس والعسكر إلى الحرب واستنقذ امرأته ثم قال قيذرون ابن قيذافة يا أنطيفون عظمت منتك عليّ فيما صنعت فأحبّ أن تسير معي إلى مملكتنا لنكافئك على ما فعلت، فقال: إن أردت ذلك فاكتب إلى ذي القرنين الملك وسله أن يبعثني معك فكتب إلى ذي القرنين بذلك وهو الحاجب، إلّا أنه يظن أنّه ذو القرنين فأجابه إلى ما سأله وأمر أنطيفون وهو ذو القرنين حتى يخرج معه إلى أرضه فخرج ذو القرنين مع ابن قيذافة وهو يظنّ أنه صاحب ذي القرنين وحمل مع نفسه أربعة نفرٍ من خواصّه حتى انتهى إلى جبلٍ منيع شامخٍ حجارته المهياة وكلّه فواكه من التفاح والأترج وعلى كل شجرة حيّة تمنع عنها التناول، وفي الجبل قردة وكلاب وسباع فقال قيذرون: هذا الجبل مسكن إلـٰهنا ونحن نأتيه كل سنةٍ ونعتكف به أيّامًا وإن إلـٰهنا يتراءى لنا، قال الراوي: فكان الشيطان يتراءى لهم ثم ساروا فانتهوا إلى مدينتهم فخرجت الملكة قيذافة وأهل مملكتها تلقّوهم فقال قيذرون لهم اشكروا هذا الرّجل فإنّه رسول ذي القرنين وإن ذا القرنين هو الذي ردّ عليّ زوجتي وأموالي قال: فسجدوا له ثم أنزلوه أحسن المنازل فلما كان من الغد جلست قيذافة مجلسًا من ذهبٍ مكلّل بالجواهر ولبست ثياب الملوك ودعت بذي القرنين تظنّه رسوله وادّعت بالغداء حتى أكلوا، فلمّا كان اليوم الثاني جلست قيذافة في بيت من رخامٍ بصفائح الذهب وسقفه من خشبٍ كأنّه النّار ضوءاً وحسنًا ودعت رسول ذي القرنين فلما دخل عليها سألته هل عندكم مثل هذه؟ قال: نعم، وأفضل إلا أنّ أرضكم أكثر معادن من أرضنا، قالت: صدقت يا ذا القرنين قال ذو القرنين ففزعت حين سمتني فقلت الأمان أيتها الملكة فإنّي رسول ذي القرنين فأخذت بيدي وأدخلتني بيتًا صغيرًا فيه تماثيل وصور فأرتني صورتي، وقالت: هل تعرف هذه الصورة؟ فعرفت أنها قد عرفتني فقال: إنّا لله وإنا إليه راجعون وندمت على ما كان من حضوري ودخولي تلك الناحية فقالت قيذافة: ألست ذا القرنين الذي غلبت الملوك كلّهم ودانت لك الشرق والغرب وأدّوا إليك الخراج، والآن قد صيّرك الله تعالى في يدي أسيرًا وأنا امرأة وما لي عندك عهد ولا أمانٌ ثم قالت: يا ذا القرنين ينبغي للإنسان أن يسكن إلى نعمته ولا يعجب بنفسه وأن الله تعالى لا يعطي العلم عبدًا واحدًا ثم قالت: ما لك متحيّر فقلت: وكيف لا أتحيّر وحالي ما ترينه؟ قالت: لا تهتمّ فإنّي لا أفعل بك إلّا خيرًا فلقد أجبت ولدي ورردت عليه امرأته فأكرمته ولست أظهرك لأحدٍ ولا يعرفك غيري، ثم إنّها خرجت إلى مجلسها فدعت ابنها قيذرون وابنها الأكبر واسمه قشّ وأمرتهما بالإحسان إلى رسول ذي القرنين وتسريحه، فقال ابنها الأكبر: يا أمّاه إنّ امرأتي سمعت أنّ رسول ذي القرنين

هٰهنا وكان ذو القرنين قتل أباها فور ملك الهند فهي تسألكِ أن تسلّمي الرسول إليها لتقتله بأبيها، فقالت قيذافة: ليس هذا الرأي صوابًا فإن ذا القرنين ملك عظيم وإذا قتلنا رسوله غضب علينا وقصدنا، ولا ندري كيف يصير أمرنا على أن قتل رسول واحد لا يضرّ ذا القرنين وأن عنده مثله عشرة آلاف وأكثر، فقام ابنها قيذرون وقال لأخيه قشّ: هذا جزاء ذي القرنين وقد فعل بنا من الإحسان ما فعل فقال قشّ: إن لم تدعني أقتله قتلتك معه، فقال قيذرون: أنا لا أقصد قتلك لكنّي لا أدع أن تصل إلى رسول ذي القرنين مكروهة حتى أموت دونه، فلمّا رأت قيذافة بينهما من الشرّ دعت ذا القرنين سرًّا فقالت: يا ذا القرنين قد كنت في قديم ذا رأي فهل عندك حيلة في تسكين الأمر بين ابنيّ والإصلاح بينهما فتنجو بنفسك، قال: وخرج إليهما فقال لهما: اعلما أنّ ذا القرنين لا يبالي بقتلي فلا يضرّه وإن كان لك عند ذي القرنين ثأرٌ فأنا أمكّنك منه خاليًا حتى تفعل به ما تشاء فتدرك ثأرك قال: وكيف تقدر على ذلك؟ قال: يجب أن تخرج معي في قوم من حماة عسكرك ومعك هدايا فاخرة ثم تدخل في غيضةٍ من الغياض عند عسكر ذي القرنين وأتقدّم إليه وأخبره أن قيذافة قد أجابت إلى الطّاعة وأهدت إليك بهدايا كثيرة ولكن ينبغي أن تخرج فتنظر إليها فإذا خرج أتيت به إلى موضع خالٍ وأضع يدك في يده فترى فيه رأيك، فرضي بذلك قشّ وعزم على ما قال له، ثم إن قيذافة أكرمت ذا القرنين وأعطته تاجًا ثمينًا لم ير الناس مثله وبساطًا منسوجًا بالذهب صوّر فيه الشمس والقمر والنجوم ومعهما هدايا كثيرة فاخرة فأعطاه قيذرون مثل ذلك وأعطاه قشّ مثل ذلك وخرج قشّ معه كما قال حتى قربوا من عسكر ذي القرنين ثمّ أمرهم بوضع الهدايا عند غيضةٍ هنالك فقال لقشٍّ قف هٰهنا إلى أن آتيك بذي القرنين فإذا أتيت به فاخرج إليه وافعل ما أردت ثم جاء ذو القرنين إلى عسكره وعبّأ جنوده كلّهم وخرج فيهم حتى أحاط بالغيضة ثم جاء بنفسه وهتف يا هذا الذي يريد ذا القرنين اخرج فخرج قشّ ورأى العسكر ونظر إلى ذي القرنين فعرف أنّه صاحبه الذي ماكره فلم يقدر على شيءٍ غير أن يسجد لذي القرنين، فقال: الأمان أيّها الملك أسألك أن تهب لي نفسي وتردّني إلى أمّي التي أحسنت إليك وتحسن إليّ كما أحسنت إلى أخي، فوضع ذو القرنين يده في يده وقال: هل وفيت لك بما ضمنت أن أضع يد ذي القرنين في يدك فافعل الآن ما تريد، فقال قشّ ارحمني ولا تؤاخذني بجهلي فقال له ذو القرنين: لا تخف وأكرمه وأحسن جائزته وردّه إلى أمّه مكرّمًا ثم إنّ ذا القرنين سار حتى انتهى إلى أرض ميراس وهم قوم في جزيرة من البحر ونساؤهم في جزيرة أخرى، ولنسائهم ثديٌ واحد فكتب إلى رجالهم فانقادوا له وأطاعوه ثم كتب إلى النساء ولهن ملكة فكتب إليهن ودعاهنّ إلى الطّاعة وأداء الخراج فكتبت إليه: اعلم أنّا ثلاثمائة ألف امرأة وأنّ

شوكتنا أشدّ من شوكة الرجال وليس عندنا رجل ورجالنا في جزيرةٍ أخرى، وأنا نعبر إليهم في السنة شهرًا واحدًا فنكون عندهم ثم نرجع فإن حملت منّا امرأة أقامت عند زوجها حتّى تلد وترضع ولدها فإن كان غلامًا فطمته وتركته عند أبيه وإن كانت جارية حملتها مع نفسها إلينا وكتبت إن كنت تريد المال منّا بعثنا إليك بالهدايا، وإن أردت الغلبة علينا فلسنا نخافك ولا وجه لك في أن تقاتلنا فتعجز عن النساء فلما ورد الكتاب على ذي القرنين عجب من عقل النساء وكتب إليها إنّي لست أطمع في المال ولكنّ الله تعالى مكّنني من الأرض كلّها فانقاد لي أهلها وأدوا الخراج فلست بتارككنّ حتى تنقدنَ لي وتؤدّينَ الخراج إليّ وإلا في ذلك هلاككن وخراب أرضكن، فأجابته المرأة لمّا ورد عليها كتابه بالسمع والطّاعة وأداء الخراج ثم سار ممّا هنالك حتى انتهى إلى البحر المحيط ورأى قومًا فسألوهم هل وراءكم أرض أو قوم؟ قالوا: لا شيء خلفنا إلا الجبل المحيط فرجع ذو القرنين من وجهه حتى وصل إلى الشام وانتهى إلى بيت المقدس قاصدًا إلى البلد الذي خرج منه عند أمّه والله أعلم.

بَابٌ في ذِكْر وفاةِ ذِي القرنين[١]

اختلفت الرواة في ذلك فمنهم من زعم أنّه مات ببيت المقدس، وقال آخرون: بل مات بدومة الجندل[٢] وهي مدينة من مَدائن الشام وإن قبره هنالك، وقال آخرون: توفّي ببابل قال وملك ذو القرنين أربعين سنة وطاف الدنيا في ثمان وعشرين سنة، وروي أنّه لمّا ملك مُلْك إيران[*] شهر وهو ملكٌ من ملوك فارس مفرّقًا وجعلهم طوائف وذلك الملوك الكبار في قديم الدّهر أربعةٌ ملك[٣] فارس وملك الرّوم وملك الهند وملك الترك وكانت ملوك الروم لا ضرر عليهم من الهند والترك وكانت المضرّة عليهم من ملوك فارس الملاصقة أرضهم، فلذلك جعل ذو القرنين عليهم ملوك الطوائف وولّى في كل ناحية منها ملكًا لئلا تجتمع كلمتهم فيقصدوا الروم فبقي ذلك الأمر على ما دبّر أربعمائة

---

(١) من أراد زيادة في التفاصيل فعليه الرجوع إلى: الثعلبي، العرائس ص ٢٥٧.

(٢) دومة الجندل: بضم أوله وفتحه، سميت بدوم بن إسماعيل بن إبراهيم وهي قريبة من دمشق بين الشام والمدينة قرب جبلي طي وسميت دومة الجندل لأنها بنيت من الجندل أي الحجارة، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ٤٨٧.

(*) إيران: بالكسر، وراء، وألف ونون ساكنتين. هي بلاد العراق وفارس والجبال وخراسان يجمعها كلها هذا الاسم ويقال إيران اسم أرفخشد بن سام بن نوح (عليه السلام)، ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٢٨٩.

(٣) كذا هذه العبارة في الأصل، وهي مضطربة.

سنةٍ إلى أن خرج أردشير ببابل من ولد دارا بن دارا فدعا الناس إلى نفسه واجتمع له ملوك فارس، وليست قصته من شرط كتابنا وأنّ ذا القرنين فيما قالت له المنجّمة إنّك لا تموت حتى ترى السماء فوقك من صفرٍ والأرض تحتك من حديد، قالوا: فلما وصل إلى أرض بابل لحقته علّة ليس من نفسه ويروى أنّه كان في مسير له حين اعتلّ فلم يتماسك على دابّته فنزل ولم يكن عنده في الوقت فراش ولا خيمة فأمر فطرح له درعٌ أو جوشن فنام عليه وأظلّه من كان معه بترسٍ من صفرٍ فوقه، قال: فنام ساعة ثم إنّه نظر إلى ما فوقه فرأى الترس فوقه والدرع تحته فقال لمن معه: ادع لي كاتبي حتى يكتب كتاب وصيّتي فقيل له: وما ذلك أيّها الملك؟ قال: عرفت أن أجلي قد اقترب، قالوا: وما يدريك؟ قال: لأن المنجمة قد قالت لي كذا وكذا، وأنا أعلم أن السماء لا تصير صفرًا قط ولا الأرض حديدًا، والآن فإنّي أرى ما فوقي صفرًا وما تحتي حديدًا، فعلمت أن هذا هو ما قيل لي، ثم إنّه أملى كتابًا إلى أمّه وكان فيه من الإسكندر رفيق أهل الأرض بجسده ورفيق أهل السماء بروحه إلى أمّه الغيدا التي لم تنتفع منه في الدنيا بقربه وذلك كان بإرادة الحكيم الرّحيم وقدرته أسألُكِ يا أمّاه أن تقرئي كتابي هذا بالتدبير والتفكّر وأن لا تتشبّهي بالنساء في الجزع والضجر كما لا ترضي لابنك في حياته أن يتشبّه بالرجال في قلّة عزمهم وحزمهم، يا أمّاه هل رأيتِ في الدنيا شيئًا لا يتغير ولا يفنى؟ ألم تري إلى الشجرة المهتزّة أغصانها الملتفّة ورقها الطيبة ثمارها كيف تتعشّم عن قريب أغصانها ويتساقط ورقها وتتناثر ثمارها؟ ألم تري إلى النبت يصبح نضيرًا ويمسي هشيمًا؟ ألم تري إلى النهار يمضي كيف يحفّه الليل المظلم؟ وإلى القمر المنير كيف ينكسف؟ وإلى الشمس الزاهرة كيف يحفها الغروب؟ وإلى النجوم الثاقبة كيف يغشاها الطموس؟ وإلى الشهب النيرات كيف يطفئها الخمود؟ وإلى الماء العذب كيف يفسده الأجون؟ وإلى هذا الحيوان الذي يولد فيعيش أيامًا ويصحب الدنيا أعوامًا ثم يفارقها سريعًا ولعمري إن الدنيا ليست للخلق بدار ولا منزل قرارٍ وطال ما قيل لكم: لِدُوا للموت وابنوا للخراب، يا أمّاه هل رأيت مقرضًا لا يتقاضى قرضه أو مستودعًا لا يسترد وديعته؟ يا أمّاه إن كان شيئًا حقيقًا بالبكاء فلبكت السماء على نجومها الزائلة لا محالة عنها، والأرض على عمرانها التي تخرب، والبحور على حيتانها التي تهلك، والطير على أفراخها التي تغنّي فليس شيء على هذه يبكي ولكنّه يبكي الإنسان على ما يفارقه وكان أحق بالبكاء على نفسه التي يفارقها حتى لا يأمن الموت والفراق وإنّه إن كان يبكي لم ينفعه البكاء، ولا يبقى الباكي بعد الذي يبكي عليه إلّا يسيرًا يا أمّاه إن الموت مورد لا بدّ منه وقد كنت مستيقنًا لوروده كما ورد من قبلي، يا أمّاه إن كنتِ تجيبيني فيما أمرتك به من الصبر والرضى وإن علامة المحبة أن يطيع المحب حبيبه، يا أمّاه إني كتبت إليك

كتابي وأنا أرجو أن تعتزي بعزّ الله تعالى وتستعملي كتابي، يا أمّاه عليك السلام منّي في الدنيا القليلة الفانية وعليك السلام منّي في الآخرة الكثيرة الباقية الأبد الأبد ورحمة الله وبركاته. ثم طوى الكتاب وأرسله إليها فحين وصل قرىء عليها وإن إسكندر ثقل مرضه ولم يلبث إلّا أيامًا قلائل حتى مات فوضع في تابوت من ذهبٍ وحمل إلى المدينة التي كانت أمّه فيها فاجتمع الحكماء والعلماء وابتدأ عشرة منهم من رؤسائهم فتكلّم كلّ واحد منهم بموعظةٍ فقال الأوّل: أَيُّهَا السّاعي المتعوب في أمره المجتهد في جمع الأموال أيّام عمره، جمعت ما هٰهنا لغيرك عائدٌ ووباله راكد عليك وقام الثاني وقال: أرى الإسكندر كان يجمع الذهب ويصونه والآن قد يضمه الذهب ويصوله، وقال الثالث: قد أصبح الإسكندر في أكنانه ملفوفًا بعد أن كان بآماله محفوفًا وبما جمعه مشغوفًا، وقال الرّابع: قد اضمحلّ ظلّ السحاب ولمع السراب، وقال الخامس: الدهر لا يزال يَتَرَدَّدُ بِأَهْلِهِ فإذا صاروا إلى أَحَبِّ أحوالهم نقلهم إلى البلى والاضمحلال والهلاك والزوال، وقال السادس: إن اتعظ الإسكندر في حياته فقد نفعه وإن لم يتعظ فقد صار موعظةً لمن تبعه، وقال السّابع: عجبًا لمن رأى الإسكندر في أمسه ويومه كيف سيّره إلى الحطام الهامد والملك العائد، وقال الثامن: هذا لعمري قد تحيّرت العقول في إدباره كما تحيرت في إقباله، وقال أتى الإسكندر من ربّه ليس له مدفع ولا عنه مرحل، وقال التاسع: اعتبروا بمن مضى ولا تشتغلوا بمن بقي، وقال العاشر: انظروا إلى الإسكندر وإلى سبيله واعلموا أنكم لسبيله سالكون وعلى أثره ذاهبون، ثم إنه خرج إلى دار العامة فاجتمعوا عليه فقال بعض الحكماء حين رأى تابوته قال: هذا الإسكندر الذي كان باشر الخلق قد أصبح أسيرًا. وقال آخرون: انظروا إلى حلم المنام كيف انقضى وإلى ظلّ الغمام كيف انجلى وقال آخر: كان الإسكندر دائمًا يعظ الناس وإنه لم يعظهم قط يقول أبلغ من وعظه إيّاهم بالسكوت وقال آخر: يا عجبًا ممّن لا يجترىء عليه أحدٌ بالأمس صار لا يخافه أحدٌ اليوم، وقال آخر: كان الإسكندر لا تسعه الدّنيا حيًّا وقد وسعته ذراعٌ منها ميّتًا، وقال آخر على قدر ارتفاعك في حياتك اتّضاعك في مماتك وقال آخر: خرجت من عندنا ناطقًا ورجعت إلينا ساكتًا وقال آخر: طال ما سافرت ولم تسافر مثل سفرك هذا، وقال آخر: رُبَّ حريص كان على سكونك وكنت لا تسكن ورب حريص الآن على حركتك وأنت لا تتحرك، وقال آخر كان الإسكندر يهتمّ لرعيته بالأمس وتهتم له رعيته اليوم وقال آخر شاركوه في يوم حزنه فطال ما شاركهم في يوم سروره وقال حاجبه: قد دخل عليك اليوم بغير إذن من كان لا يجسر على طلب الإذن، وقال صاحب حرسه عجبًا لمن حرسك كيف لم يحرسك من الموت وقال صاحب طعامه قد تصرّرت الموائد وبسطت النمارق وتصدرت المجالس والآن مضجعك التراب، وقال خازنه: أيها الملك إلى من أدفع اليوم

ذخائرك وإلى من أسلم مفاتيح الخزائن؟ وقالت امرأته ابنة دارا ما كنت أظنّ أن الغُلّاب تغلب، والآن عرفت وقال وزيره ورأس حكّامه هذا الطريق لا بد من سلوكك فيه والشراب الذي لا بد من شربه، وقال كاتبه: قد دخلنا الدنيا جاهلين وَعُمِّرْنَا فيها غافلين وسوف نخرج منها كارهين، ثم إنه حمل إلى مضجعه فدفن فيه وقام ابنه مكانه والله تعالى أعلم فهذا ما بلغنا من أخبار ذي القرنين اخترنا منها ما اعتمدناه، والله وليّ التوفيق.

بـــابٌ
في ذكر الرّجلين اللّذين(1)

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: الآية ٣٢] الآية، قد اختلف أصحاب الأخبار فيهما فعن الكلبيّ أنه قال: هما رجلان من قريش أحدهما أبو سلمة بن عبد الأسد وكان زوج أم سلمة قبل النبيّ ﷺ فلمّا توفي تزوّج النبي ﷺ بأم سلمة وكان أبو سلمة مؤمنًا والآخر أخوه الأسود بن عبد الأسد وكان كافرًا وقال الأكثرون من أهل الأخبار كانا رجلين من بني إسرائيل يقال لأحدهما يهوذا وهو المؤمن وللآخر قرطوس وهو الكافر، ويقال: كان اسم المؤمن تمليخا واسم الكافر قرطرس والله تعالى أعلم، وأنّه لما مات أبوهما ورثاه مالًا كثيرًا فاقتسماه، قال الكلبيّ ميراثهما ثمانية آلاف دينار والضحّاك كان ثمانين ألف دينار، قال: فأمّا المؤمن فأنفق ماله في سبيل الله كلّه فاشتدّ حاله وكثرت عياله، وأمّا الكافر فأنفقه في مصالح الدنيا فاتخذ به الجنان والبساتين، وكان أكثر بني إسرائيل مالًا فلمّا عسر الأمر على المؤمن جعل يتعفّف ولا يسأل أحدًا شيئًا فقيل له: لو أتيت أخاك فعرضت عليه حالك فأتى، فقالت له امرأته: إنك لا تسأله دينارًا ولا درهمًا وإنّما تسأله ما تسد به جوعتك وجوع أهلك قال: فأتاه وحوله الناس فلمّا خفّ الناس قام إليه فقال له: من أنت؟ قال: أخوك فلان قال: فما حاجتك فقص عليه حاله، قال: ما فعلت بمالك؟ قال: قدمته ليوم فاقتي قال: فأي فاقةٍ فوق ما أراه بك اليوم، قال: بلى فاقة يوم لا يغني أحد عن أحدٍ شيئًا، قال: ويحك فأي خير يكون بعد الموت ثم إنّه أخذ بيد أخيه وطاف به في جنانه قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ﴾ [الكهف: الآيات ٣٤ - ٣٦] التي تذكرها ﴿قَآئِمَةً﴾ [الكهف: الآية ٣٦] كائنة ﴿وَلَئِن﴾ [الكهف: الآية ٣٦] كانت كما تقول ﴿رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾ [الكهف:

---

(1) من أراد زيادة في التفاصيل عليه بالقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٥٩، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٨٢.

الآية ٣٦] عند الله من هذه الجنة التي هي اليوم لي ﴿مُنقَلَبًا ۝٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: الآيتان ٣٦، ٣٧] وهو أخوه المؤمن للكافر ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: الآية ٣٩] إذ رأيتني واستخفيت بي ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٠] بعد خضرتها وزهرتها وثمارها صعيدًا ﴿زَلَقًا﴾ [الكهف: الآية ٤٠] خاليًا لا نبات فيها ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١﴾ [الكهف: الآية ٤١] يعني إنباطًا قال الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: الآية ٤٢] وروي أنّ الكافر قال لأخيه المؤمن: ألم أقل لك لا تنفق مالك في غير ما أنفقه فإنك تبقى ضائعًا، فلم تسمع والآن لا أعطيك شيئًا حتى تتبع ديني، قال: فانصرف عنه المؤمن آيسًا حزينًا إلى أهله وكان قد حمل معه غرارة ليمتار من جهة أخيه فيها، قال: فمرّ في الطريق برملٍ فاستحيا أن يدخل إلى قومه خالي اليد فملأ غرارته رملًا ومضى بها إلى أهله ووضعها وخرج مستحيًا منهم وكانت له صبية صغارٌ يتضاغون جوعًا، فقالوا لأمّهم: يا أمّاه أطعمينا مما جابه أبونا فقامت أمّهم فنظرت فإذا الغرارة مملوءة سويقًا ملتوتًا بالسمن والسكّر فقدمت منه لأولادها فأكلوا حتى شبعوا وجعلوا يلعبون ويضحكون فسمع أبوهم ضحكهم بعدما كان يسمع بكاءهم فجاءهم وقال: ما هذا الذي تأكلون فقالوا: نأكل مما سرّح به إلينا عمّنا فبكى المؤمن وخرّ لله ساجدًا وقال: إن هذه رحمة ربكم ورزقه فكلوا واحمدوا الله تعالى، روي روايتان إحداهما: أن المؤمن لم يلبث أن قبضه الله تعالى إلى رحمته، وفي الرواية الثانية المعروفة أنه جاءه ارجع إلى أخيك فسترى ما تريد، فرجع إليه فوجده قد غار ماء جنّتهِ وقد أحيط بثمره فهلكت قال الله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: الآية ٤٢] ويقول يوم القيامة: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٢] ثم إنّه لم يلبث إلّا أيامًا قلائل حتى مات كمدًا مما أصاب جنّته وورث أخوه المؤمن أمواله كلّها قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: الآية ٤٣] تمنع الصاعقة عن جنّته ولا في الآخرة تمنع العذاب عنه وما كان منتصرًا بنفسه فيمتنع عن ذلك، ثم إنهما إذا كان يوم القيامة أدخل الله تعالى المؤمن الجنّة والكافر النار فيقول المؤمن لأصدقائه إني كان لي قَرينٌ يعني أخًا، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾ [الصافات: الآيات ٥٠ - ٥٢]بالبعث والحساب؟ فيقال للمؤمن: أتريد أن تلقى أخاك، قال: نعم، فيوحي الله تعالى إلى النار أن أظهري أخاه حتى ينظر إليه وقيل للمؤمن: اطلع فيقول لأصحابه: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤﴾ [الصافات: الآية ٥٤] فاطلعوا معه فيرى أخاه ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: الآية ٥٥] أي وسطها فبكى أخوه الكافر إليه، فقال له المؤمن:

﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ [الصافات: الآيتان ٥٦، ٥٧] إذ أنعم عليّ بالإيمان ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: الآية ٥٧] معك في النّار ثم يقول لأصحابه ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا﴾ [الصافات: الآيات ٥٨ - ٦٠] الخلود ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: الآيتان ٦٠، ٦١].

ذكر
برصيصًا العابد

عن ابن عبَّاس رضي الله عنه أنّه كان في بني إسرائيل عابد فيما بين عيسى ومحمّد عليهما السلام يقال له برصيصا ويقال برسيسا بالسّين وكان يعبد الله تعالى في صومعته سبعين سنة لم يعص الله تعالى قط فأعيا أمره إبليس فجمع جنوده وقال لهم: أما عند أحدٍ منكم من يكفيني أمر برصيصا فقام شيطان يقال له الأبيض وهو الشيطان الذي يوسوس إلى الأنبياء فقال لإبليس: أنا أكفيكه فتشبّه بالرهبان ومضى حتى جاء إلى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه برصيصا وكان لا ينفتل عن صلاته إلّا في كلّ عشرة أيام مرة ولا يفطر إلّا في كلّ عشرة فأقبل الشيطان على الصلاة في أصل صومعته فانفتل برصيصا فرآه قائمًا يصلّي في هيئة الرهبان فناداه وقال: إني شغلت عنك حين دعوتني فما حاجتك؟ قال: حاجتي أن أصحبك وأقتبس بك وأتعبّد معك، وتدعو إلي وأدعو لك، قال برصيصا: إنّي لفي شغل عنك فإن كنت مؤمنًا فإن دعائي يلحقك مع المؤمنين إن استجيب لي وأقبل برصيصَا على صلاته فتركه، قال: فأقبل الشيطان أيضًا على الصلاة وكلّما نظر رآه برصيصا في الصلاة حتى مرّ أربعين يومًا فلمّا رأى شدّة اجتهاده وعبادته ناداه وقال: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تأذن لي بالدخول عليك فأذن له، وأقام معه حولًا يتعبّد معه لا ينفتل من صلاته إلّا في كلّ أربعين يومًا ولا يفطر إلّا في كلّ أربعين يومًا مرّة وربّما زاد على ذلك فلمّا رأى برصيصا تقاصرت إليه نفسه، فلمّا تمّ الحول قال الشيطان لبرصيصا إني منطلقٌ وإن لي صاحبًا غيرك أكثر منك جهدًا وأشدّ دوامًا على العبادة فودّعه ومضى فدخل على برصيصا من ذلك أمرٌ شديد وشقّ عليه فراقه، فلمّا ودّعه قال لبرصيصا إني أفيدك فائدة وهي دعوة عندي من دعا الله تعالى بها شفي بدعائه المرضى ثم علّمه وذهب، فجاء إبليس وقال: أهلكت الرّجل ثم انطلق الأبيض وتعرض لابن رجلٍ في تلك البلدة التي تقرب من صومعة برصيصا وخنقه ثم ظهر لهم في صورة طبيب، وقال لهم: إنّ بابنكم هذا جنون فعالجه أيامًا، ثم قال لهم: إني لا أقوى على شيطانه الذي يخنقه ولكنّي أدلّكم على رجل يكافئه الله تعالى بدعائه ثم قال: انطلقوا إلى برصيصا

العابد فإن عنده اسم الله الأعظم، فانطلقوا به إليه وسألوه أن يدعو لمريضهم فدعا بما علّمه الأبيض فشفى الله تعالى ذلك المريض، ثم انطلق الأبيض إلى آخر فخنقه وفعل مثل ما فعل بالأوّل وأرشد أهله إلى برصيصا حتى فعل ذلك بقومٍ كثير كلّهم يأتون برصيصا فيدعو لمريضهم فيشفون، ثم إنّه انطلق إلى ابنة الملك فخنقها وكانت من أجمل نساء قومها ولها ثلاثة إخوةٍ ملوك وأبوها ملك البلدة ثم إنّه جاءهم على هيئة الطبيب وعالجها أيّامًا ثم قال لهم: إنّ شيطانها الذي يخنقها ماردٌ لا يطاق وأرشدهم إلى برصيصا ليدعو لها، قالوا: ومن لنا أن يقبلها قال: احملوها إليه فإن قبلها وإلّا فابنوا صومعة لصق صومعته واتركوها هنالك وقولوا له: هذه أمانة عندك فقد أصابها ما ترى فاحتسب في أمرها فانصرفوا فإنه إذا رآها وما يعرض لها دعا لها رحمةً لها فجاؤوا بها إلى برصيصا فسألوه أن يقبلها منهم وتكون عنده فيدعو لها إلى أن يشفيها الله تعالى ويذهب عنها شيطانها فأبى عليهم فبنوا صومعة لصق صومعته ووضعوها فيها، وقالوا لبرصيصا: هذه أختنا قد عرض لها الشيطان وهي أمانة عندك فاحتسب في أمرها وإنهم انصرفوا وتركوها قال: وجاء الشيطان فخنقها فرحمها برصيصا وانفتل من صلاته ودعا لها حتى أفاقت فخرج عنها الشيطان ورجع هو إلى صلاته ثم جاءها الشيطان فخنقها فانفتل ودعا لها حتى أفاقت فلم يزل ذلك الشيطان يفعل بها قال: وكان إخوتها يأتونها في الأحيان ويرسلون إليها من يستطلع لهم من أمرها، ثم إن الشيطان دخل وكشف عنها فرأى برصيصا شيئًا لم ير مثلها كمالًا وحسنًا وجمالًا فوسوس إليه الشيطان وقال: ويحك متى تجد مثل هذه حسنًا وجمالًا ومتى تجد خلوةً مثل هذه فواقعها ثم تب إلى الله تعالى، فلم يزل به حتى واقعها ثم إنه كان يأتيها حتى حبلت وظهر بها الحمل فجاءه عند ذلك الشيطان وقال: ما صنعت قد افتضحتها اقتلها واجعل الذّنب واحدًا وادفنها وتب إلى الله تعالى، فإذا جاءك أهلها قل لهم جاء الشيطان فذهب بها وأنا مشغول بصلاتي، فلم أستطع شيئًا فقتلها برصيصا وحملها إلى جانب جبلٍ هنالك ودفنها ليلًا، فجاء الشيطان وأخذ طرف ثوبها فبقي خارجًا من القبر ورجع برصيصا إلى صومعته، ثم إن إخوتها جاؤوا كما كانوا يفعلون ففقدوها فقالوا: يا برصيصا أين أختنا؟ قال: جاءها شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه ورجعوا محزونين فجاءهم الشيطان وقال لهم: أصدقتموه إنه كذب، لا بل إنه فعل بها كذا وكذا ولمّا خاف الفضيحة قتلها ودفنها في موضع كذا، وقد بقي طرف ثوبها خارجًا من التراب فانطلقوا معي حتى أريكم ذلك، فأتى بهم إلى حفرتها فأراهم ذلك فنبشوا فرأوا أختهم قتيلةً فلمّا رأوا ذلك مشوا إليه مع الناس بالفؤوس والمساحي فهدموا صومعته وأخذوه وكتّفوه وانطلقوا به إلى أبيهم الملك فعذّب فأقرّ على نفسه فأمر الملك بقتله وصلبه على خشبةٍ ليقتل فجاء الأبيض وقال له: أتعرفني يا برصيصا؟ قال: لا،

قال: أنا صاحبك الذي علّمتك الدعوات فاستجيب لك ما استجيب ثم إنَّك فعلت ما فعلت ثم مع ذلك أقررت على نفسك حتى افتضحت وفضحت الرّهبان فإن قتلت هكذا لم يفلح أحدٌ منهم من بعد؟ قال: فكيف أصنع قال: تطيعني في خصلةٍ واحدةٍ فيها نجاتك قال: ما هي؟ قال: تسجد لي سجدة واحدة حتى أنجيك ممّا وقعت فيه فسجد له برصيصا وأدركه شؤم ذلك الأبيض فنزع الله تعالى عنه معرفته وكفر فذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: الآية ١٦] أي قال الشيطان إنك قد كفرت وإني أخاف أن أسيء في نجاتك فلا أقدر على ذلك فكان عاقبتهما يعني الشّيطان وبرصيصا في النّار خالديْن فيها وذلك جزاء الظالمين، قال ابن عبّاسٍ فصار أمر الرّهبان بعد برصيصا أنّهم استخفوا ولم يقدروا الظّهور بين الناس إلى أن كان من أمر جريج الرّاهب ما كان فظهروا بعد ذلك.

بـــابٌ
في ذكر جَريج الرَّاهب

قال ابن عبّاسٍ وغيره دخل كلام بعضهم في بعض كان جريج الراهب بين عيسى ومحمّد عليهما السّلام في الفترة وكان جريج شابًّا عالمًا عاقلًا أقبل على الترهّب وهو ابن ثلاث عشرة سنة فكان كذلك عشرين سنة حتى فاق الرّهبان زهدًا وجهدًا وكانت له أُمٌّ مثله في العبادة فكانت أمّه تختلف إليه بالطعام والشراب فأتته ذات يوم في ليلة شاتية مطيرة فنادته فأبطأ عليها حتى ارتمت بمكانها وكان مشغولًا بصلاته فجعل يقول في نفسه: هذه صلاتي وهذه أمّي ويؤثر الصلاة، وقد رأيت في بعض الكتب عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لو كان جريج فقيهًا لعلم أن حقّ أمّه أتمّ من صلاته، فلمّا ضجرت أمّه من طول القيام ولم يفتح لها جريج قالت: أراك الله الموسمات وانصرفت وكان الفجّار قد اجترأوا على الرّهبان في وقت برصيصا فكانوا يؤذونهم ويقولون فيهم كلّ قبيح ويتعرضون لهم وأنّهم كان يغيظهم أمر جريج لما رأوا من فضله وجهده وحبّ النّاس له، قال: فدعوا امرأة بغيّة وضمنوا لها إن فعلت ما أمروها فقالت: ما هو؟ قالوا: أن تنطلقي إلى صومعة جريج ليلًا فتقرعي بابه فإذا قال من أنت؟ قولي: أنا امرأة ضعيفة جئت من موضع بعيد، وقد أدركني اللّيل وأخاف على نفسي فائذن لي بالدخول في صومعتك، ثم إنهم ذهبوا بها إلى صومعة جريج وتفرقوا عنها ففعلت ما أمروا به، ففتح جريج لها الباب وكانت امرأة جميلة فعرضت نفسها عليه، وقالت: إني لم أكن أطمّع في نفسي أحدًا ولكنّي رأيتك لذلك أهلًا فعرضت نفسي عليك، قال جريج: لا أرى نفسي لذلك أهلًا وقام إلى الصلاة فجاءه الشيطان فوسوس إليه وزيّنها عليه فقام ليزني بها ثمّ ذكر النار، فقال: إن صبرت هٰهنا على النار أطيعك فيما أردت، وكانت عنده نار يصطلي بها وكان في الشتاء فدنا من النار ووضع إصبعه فيها فلما أحرقته النار انقطعت شهوته، فقام إلى الصلاة فجاءه الشيطان ووسوسه مرة أخرى حتى دنا منها، ثم عرضت له النار ففعل مثل ما فعله أوّلًا، فلم يزل على ذلك حتى أصبح، فلمّا أصبح فتح الباب ليخرج المرأة رأى القوم الفجار قد أحاطوا بصومعته فقالوا للمرأة: أخبرينا خبرك، قالت: وما أخبركم؟ قالوا: بما جرى، فقالت:

إني معه في الصومعة منذ كذا وكذا وقد أحبلني ودنا وقت ولادتي وهو ينتفي من ولده ولكنّ الأمر ما أقول لكم قال: فجعل القوم حبلًا في عنق جريج وذهبوا به إلى ملكهم فأمر الملك بالبغايا حتى قمن على طريقه قلن له: يا جريج: ما لك دخلت الصومعة وأنت تريد أن تفعل ما فعلت هلا كنت معنا، وإن الملك أمر بصلبه فسمعت بذلك أمّ جريج فجاءت وقالت: يا ابني إني أعلم أنك لم تزنِ وإن الذي أصابك كان بدعائي عليك وكانت أمّه معروفة فيما بينهم بالصلاح ثم إنها أتت الملك فعزّاها الملك بابنها فقالت له: لا تعجل أيّها الملك إن ابني بريء وإن لي بيّنة على براءته، قال الملك: وما براءتك وبيّنتك؟ قالت: ادعوا لي المرأة فدعيت لها فقالت لها أم جريج: ويحك أصدقي، قالت: أنا صادقة فوضعت أمّ جريج يدها على بطن المرأة ودعت وقالت: اللّهم أنت شاهد كلّ نجوى وعالم كلّ فحوى والمطلع على السرائر وما هو أخفى فأنت الّذي إذا شئت شيئًا قلت له: كن فيكون، ولا يعوزك الخلق ولا يعجزك شيء وأنت ناجز أوليائِك والمنتقم من أعدائِك اللّهم فصدّق الصّادقين وكذّب الكاذبين، ثمّ إنّها وضعت يدها على بطن المرأة وقالت: يا صاحب البطن فأجاب الولد من بطن أمّه لبّيكِ حتى سمعه النّاس فقالت: من أبوك قال: فلان الرّاعي عبد بني فلانٍ حتّى قالت له ثلاث مرّاتٍ فسمعه الملك والناس وتعجبوا منه وخلّى الملك سبيل جريج وإن المرأة وضعت حملها بعد ثلاثة أيّام، فاجتمع الفسّاق عند الملك وخاضوا وقالوا في أمر جريج وأنكر بعضهم أن يكونوا سمعوا من بطن المرأة كلامًا وكانت أمّ جريج مريضة فسمعت باجتماعهم فجاءت إلى الملك وقالت: أيّها الملك إن الذي أنطق في بطن أمّه قادر على أن ينطقه خارج البطن، فادع بالمرأة وولدها فدعيت ومعها صبيّها فدنت أم جريج من الصبيّ وقالت: أيّها الغلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي عبد بني فلان فرفع صوته حتى سمع القوم كلّهم، ونجا جريج ونجّى الله تعالى الرهبان من أيدي الفسّاق بسبب جريج، قال وفي أمر جريج رواية أخرى وهي أنه كان راعيًا لأهل البلد نادى بغنمه إلى جنب صومعة جريج وأنّه دعت أمّ جريج عليه كما ذكرنا ابتلاه الله تعالى أن امرأة كانت بغيًا من أهل المدينة تأتي الراعي فتبيت عنده، فلما حبلت قالت للراعي: ماذا أقول للناس قال: قولي إني حبلت من جريج وذلك أن جريجًا كان قد نهى الراعي من المرأة ونهاها عنه، فعند ذلك قالت المرأة لما ولدت إنّ ولدي من جريج فأمر الملك بجريج فأخذ ليصلب وإنه لما ظهر في طريقه وجوه المومسات ذكر دعاء أمّه عليه فضحك فقال له الملك: لم تضحك؟ فأخبره بدعوة أمّه عليه، وإنّ الله تعالى ابتلاه بذلك، ثم قال: ادعوا لي المرأة فدعيت ومعها ولدها، فقال له جريج: يا بابوس من أبوك؟ فأنطقه الله تعالى فتكلّم وقال: فلان الرّاعي حتى قال ثلاثًا وسمعه الناس فتعجّبوا وخلّوا عن جريج والله تعالى أعلم.

بـــاب
في ذكر سبأ وقصّة أهلها[1]

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ[2] فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: الآية ١٥] إلى آخر الآية، اختلف الناس في سبأ فقال قوم إنّه اسم البلد وقال الأكثرون من أهل الروايات والتواريخ سبأ اسم جدّهم وهو سبأ بن يعرب بن قحطان وقيل سبأ بن يشجب بن يعرب، وأما اسم مدينتهم فهي مأرب قال: ويجوز أن بلدتهم كانت باسم جدّهم كما أن مدين كان اسم جدّ شعيب وهو مدين بن إبراهيم ثم سمّيت بلدتهم باسمه فقيل لها مدين، قال ابن عبّاس: كان أمرهم بعد عيسى وقيل: بل كان قبل عيسى والأصحّ أنّهم كانوا بعد عيسى قال ابن عباس وكانت ناحيتهم واديًا بين جبلين ثمانية عشر ميلًا من أعلى الوادي إلى أسفله وكانت من اليمن وكانت أخصب أرضٍ وأزكاها وأكثرها شجرًا وثمرًا وزرعًا قد التفّت بشجرها وكان ماؤهم يجري من بين الجبلين وعن يمين الماء ويساره جنان ملتفة، كما ذكر الله تعالى ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: الآية ١٥]، فكانت المرأة تخرج من بيتها فتضع مكتلها على رأسها وتمشي بين الأشجار المثمرة الكثيرة فإذا رجعت إلى بيتها كان مكتلها مملوءًا ثمارًا من غير أن تجتني بل مما يسقط في مِكْتلها من الشجر، وكان شربهم من أعلى الوادي من عين تخرج من جبل لهم وكانوا قد بنوا سدًا بين الجبلين فتجتمع فيه المياه من تلك العين ومن سائر مياه السيول وغيرها وجعلوا للسد ثلاثة أبواب أعلى وأوسط وأسفل، فإذا

---

(١) للزيادة في التفاصيل الرجوع إلى: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٧/ ١٨١، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٢٤.

(٢) سبأ: اسم رجل وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود، وهو أول ملوك اليمن وكان له عشرة أولاد، ويعتبر هؤلاء الأولاد أصولًا تفرعت منها سكان الجزيرة، وقد أسس السبئيون مدنًا عامرة باليمن منها مأرب، وأنعم الله عليهم بالخصب، وأقاموا سدًا عاليًا بين جبلين حجزوا به الماء في الوادي وأخذوا يصرفونه بحكمة وهندسة، فأرسل الله عليهم سيل العرم الذي صدع سدهم وضرب بلادهم، ومزق شملهم، محمد إسماعيل إبراهيم: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، مصر القاهرة سنة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ص ٢٢٩.

كان موضع الماء ممتلئًا فتحوا الباب الأعلى لخروج الماء فإذا انتقص فتحوا الباب الأوسط، وإذا قلّ الماء فتحوا الباب الأسفل ووكّلوا بالسّد من يحفظه لئلا يفسده عليهم مفسدٌ وكان الكهنة أخبرتهم أن هلاك واديهم وجنانهم إنما يكون من سبب سيل مائهم ينفجر عليهم، فلم يزالوا بخيرٍ حتى كفروا وبطروا فأزال الله تعالى نعمتهم قال ابن عبّاس: كان خير جنّتهم لا ينقطع عنهم شتاءً ولا صيفًا ولا يصيب ثمارهم حتى الصيف ولا برد الشتاء ولطيب هواء بلدتهم واعتدالها قال الله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سَبَإ: الآية ١٥] فلما أعرضوا عن الله تعالى وطاعته أرسل الله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سَبَإ: الآية ١٦] والعرم في قول أهل اللغة اسم المسناة وهي الردم الذي جعلوه للماء يحبسونه فيه فسلّط الله عزّ وجلّ على ذلك الرّدم جرذانًا فنقبتها، وروي في بعض الروايات أن الله تعالى سلّط عليه جرذًا واحدًا ذا مخالب من حديدٍ وأنيابٍ من حديد لا تقدر هرّة أن تقرب منه حتى نقبت الجرذ الرّدم وانثقب وسال الماء وفاض الماء على واديهم وجنانهم فأهلكها وما فيها واحتمل بمواشيهم وأنعامهم وقلع كرومهم وأشجارهم كلّها وذلك في نصف الليل بعدما هدأت العيون فلم يطق أحد في أمره شيئًا وتفرّق أكثر الناس، ثم إن النبيّ الذي كان دعاهم ووعظهم جاءهم وقال لهم: قد رأيتم ما صنع الله تعالى بكم فآمِنوا به واعبدوه ليردّ عليكم ما هلك لكم، فقالوا: إن رددت علينا ضياعنا آمّنا، وكان الله تعالى قد أنبت في مواضع جنانهم الغياض من الإثل والسدر والأراك والأشجار الذي لا نفع فيها وذلك قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سَبَإ: الآية ١٦] فضمن النبيّ ذلك لهم وردّ الله تعالى عليهم جنانهم ويقال: لم يردّ عليهم ما هلك ولكنّهم بعد ذلك اتخذوا قرًى وضياعًا كثيرة كما ذكر الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ [سبأ: الآية ١٨] يعني بينهم وبين الشام قرى معمورة وضياعًا وأشجارًا مثمرة فكانت النساء يخرجن من ديارهنّ إلى الشام لا تحتاج واحدة منهن إلى الزاد والراحلة ولا تخاف شيئًا حتى تصل إلى الشام وتقضي ما أرادت من حوائجها ثم تعود إلى مكانها فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سَبَإ: الآية ١٨] فلما فعلوا ذلك قالت لهم الأنبياء وذلك النبيّ آمنوا بالله فقالوا: إنّ الله لم يرد علينا ضياعنا التي خربت فلسنا نؤمن بكم، ثم حسد الأغنياء الفقراء فسألوا الله أن يباعد بين أسفارهم أي مراحلهم حتى لا يقدر للخروج إلى الشام للتجارة إلّا من له مال وظهر فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سَبَإ: الآية ١٩] إذا قرأت على سبيل الدعاء فاستجاب الله تعالى لهم فخرب القرى التي بينهم وبين الشام، قال الله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ: الآية ١٩]، ومن قرأ «ربنا باعد بين أسفارنا» على لفظ الخبر فمعناه أنهم قالوا للرسل: لا

نؤمن فإن الله لم يرد علينا ضياعنا، بل إنه باعد بين أسفارنا فنحن نحتاج إلى طلب معاشنا وحوائجنا إلى السّفر البعيد، قال الله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ: الآية ١٩] بترك الإيمان، فإن الله تعالى فرّق بعد ذلك جمعهم فتفرقوا في البلاد، ولم يبق منهم إلا أحاديث وقصص الناس ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: الآية ١٩]، وروي أن الله تعالى سلّط عليهم عدوّهم حتى قتل منهم وفرّق جمعهم والله أعلم بما كان. قال هذه رواية أهل التفسير في شأن سبأ وأمّا أهل التاريخ فإنّهم ذكروا أنّ سيّد سبأ كان رجلًا يقال له عمر بن عامر بن حارثة ويلقّب بمزيقيا وذلك أنه كان يلبس كلّ يوم حلّة ثم إذا كان من الغدّ لم يلبسها ويلبس أخرى جديدة ومزّق ما خلعه لئلا يلبسه تكبّرًا منه فلقّب بمزيقيا وهو عمر بن عامر بن حارثة، وكان له أخ يقال له عمران بن عامر وكان لعمر بن عامر عشرة من البنين وكان عمران بن عامر كاهنًا فرأى في كهانته أن ردمهم الذي في واديهم ينفجر فيخرّب الماء جنانهم وضياعهم، فأخبر بذلك أخاه وقال لقومه إنّكم ستمزقون فمن كان منكم ذا هم بعيدٍ وحملٍ شديد ومراد جديد فليلحق بكاس وكرود يريد أرض فارسٍ ومن كان منكم ذا همٍّ دنيّ وأمرٍ دعيٍّ فليلحق بأرض شن يريد أرض عمّان ومن كان منكم يريد عيشًا ساكنًا وحرمًا آمنًا فليلحق بمكّة ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب يعني المدينة، ومن كان منكم يريد خمرًا وخميرًا وذهبًا وحريرًا وملكًا وثامرًا فليلحق بأرض الكوفة[١] والبصرة[٢] والعراق والشام، وذكر أن هذه المقالة قالتها لهم امرأة وكانت كاهنة وعمرو بن عامر رأى في منامه ما يكون من سيل العرم فأمر بعض بنيه أن يجمع له أهله وولده وأهل بيته فقال لهم: قد عرفتم ما قيل لنا من أمر السيل، وقد رأيت ذلك في منامي فما حيلتنا قالوا: إنّه انطلق إلى الرّدم لما رأى في منامه هنالك جرذًا كما وصفناه يحفر السدّ فأراد أن يبعده عنه فلم يستطع فانصرف إلى أهله فذكر ما رأى لامرأته وبنيه ثم انطلق بهم إلى السدّ حتّى رأوا الجرذ فعجزوا أن يقتلوه ويمنعوه فأرسل حتى أتى بهرّة فأرسلها على الجرذ فولّت هاربةً عن الجرذ، فقال عمرو لبنيه إنّ هذا الأمر كائن فاحتالوا لأنفسكم حيلة فقالوا: رأينا لرأيك تبع فقال سأحتال لكم ثم إنّه قال

---

(١) الكوفة: بالضم: المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، وسميت بالكوفة لاستدارتها أخذًا من قول العرب رأيت كُوفانًا بضم الكاف وفتحها، للرميلة المستديرة، وقيل سميت الكوفة لاجتماع الناس فيها، أما تمصيرها فكان في أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سنة ١٧ هجرية، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٤/ ٤٩٠.

(٢) البصرة: في العراق مصرت مع الكوفة في أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سنة ١٧ هجرية، المصدر السابق ١/ ٤٣٠.

لأكبر بنيه واسمه جفنة بن عمرو إني سأجلس مجلسًا وأحضر الناس حولي فإذا اجتمع الناس عندي أمرتك بأمر فتغافل عنه فإذا أمرتك ثانيًا فتغافل عنه ثانيًا فإذا أمرتك ثالثًا فجاوبني بالردّ فإذا شتمتك فقم إليّ والطم وجهي، وقال لسائر بنيه وأنتم فلا تغيروا على أخيكم فإذا لم تفعلوا لم يجسر أحدٌ من الناس أن يغير عليه، فحلف عند ذلك أن لا أقيم بين ظهراني قوم ألطم فيهم، فلا يغير على ذلك أحد، ثم إنه جلس كما قال فاجتمع عنده الناس فأمر ابنه أمرًا فامتنع فشتمه وقام إليه ولطمه ولم ينكر عليه أحد من إخوانه فعجب الناس من ذلك ونكّسوا رؤوسهم فحلف عمرو بن عامر أن لا يقيم بين أظهرهم ويستبدل أرضًا أخرى فقام القوم وشفعوا إليه وقالوا: إنّا ظنّنا أن ولدك ينكرون عليه لذلك سكتنا فقال: قد سبق مني قسمي فليس إلى ردّه سبيل، ثمّ قال اشتروا مني أرضي وضياعي وإني لا بدّ راحل فاغتمّ الناس من غضبه وحلفه وكانت ضياعًا فاخرة فتنافسوا فيها وابتاعوها منه واحتمل بأهله وثقله ثم لما أراد توديع الناس قال: أيّها الناس إنما فعلت ما فعلت لأني رأيت كذا وكذا ولم تسمح نفسي بترك ضياعي فاحتلت حتى بعتها منكم ألا وإني خارج فليحتل كل واحد لنفسه، وخرج فمكث قبائل سبأ بعده ما شاء الله تعالى، ثمّ إن السدّ انثقب عليهم وسال الماء فذهب بكلّ شيء لهم وخرّب منازلهم وجنانهم كما ذكرناه، وانقلب الناس بأهاليهم وبعض مواشيهم وأمتعتهم وكان من أمرهم ما ذكره الله تعالى إلى أن صار أمرهم بحيث ذكرنا إن الله تعالى قدر لهم قرًى ظاهرة بينهم وبين الشام، وقال بعض أهل التاريخ كان أمر القرى قبل السيل وإن كان ذكره في القرآن بعد السيل، والله أعلم، ثم إن من بقي منهم لحق بعمرو بن عامر وكانوا معه إلى أن وقع بينهم الاختلاف والتنازع بعد عمر بن عامر وليس أخبار اختلافهم طويلة مذكورة في التواريخ لم نكتبها، ولما تفرّقوا وقعت الأزد[1] إلى عمّان ووقعت غسّان[2] إلى الشام ومنهم ملوك آل جفنة الذين كانوا بالشّام ووقعت لخم[3]

---

(١) الأزد: هذه النسبة إلى أزد شنوءة، بفتح الألف وسكون الزاي وكسر الدال المهملة ـ وهو أزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. ابن الأثير الجزري: اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ٤٦.

(٢) غسان: بفتح الغين والسين المشددة وبعد الألف نون ـ هذه النسبة إلى غسان، وهي قبيلة كبيرة من الأزد شربوا من ماء غسان وهو باليمن بين زبيد ورمح فسموا به. ابن الأثير الجزري: اللباب في تهذيب الأنساب ٢/ ٣٨٢.

(٣) لخم: بفتح اللام وسكون الخاء وفي آخرها ميم ـ هذه النسبة إلى لخم، واسمه مالك بن عدي بن الحارث بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ولخم وجذام قبيلتان من اليمن. ابن الأثير الجزري: اللباب في تهذيب الأنساب ٣/ ١٣٠.

بالعراق ومنهم ملوك الحيرة ووقعت خزاعة[1] بمكة ووقعت الأوس[2] والخزرج[3] بالمدينة وذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سَبَإ: الآية ١٩] وصار أمرهم وتفريقهم في العرب مثلًا، فكانوا يقولون للقوم إذا تفرقوا تفرقوا أيدي سبأ وذهبوا أيدي سبأ قال الشاعر:

أيادي سبا يا عزّ ما كنت بعدكم ... فلم يَحْلُ للعينين بعدكِ منزل

(١) خزاعة: بضم الخاء وفتح الزاي بعد الألف عين مهملة ـ هذه النسبة إلى خزاعة، وقيل خزاعة لأنهم انقطعوا عن الأزد لما تفرقت الأزد من اليمن أيام سيل العرم وأقاموا بمكة، وسار الآخرون إلى المدينة والشام وعمان. ابن الأثير الجزري، اللباب ١/ ٤٣٩.

(٢) الأوس: بفتح الألف وسكون الواو وفي آخرها سين مهملة ـ هذه النسبة إلى الأوس قبيلة من الأنصار. ابن الأثير الجزري، اللباب ١/ ٩٣.

(٣) الخزرج: بفتح الخاء وسكون الزاي وفتح الراء وآخرها جيم ـ هذه النسبة إلى خزرج، وهو إحدى قبيلتي الأنصار، فإن جميع الأنصار الأوس والخزرج، والخزرج في اللغة الريح الباردة، ابن الأثير الجزري، اللباب ١/ ٤٤٠.

بــابٌ
في ذكر جنّة صنعاء

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القَلَم: الآية ١٧] الآية، ذكر أهل الأخبار مثل ابن عبّاس وغيره أنّهم كانوا بين عيسى ومحمّد عليهما السلام وهم من أهل الإيمان آمنوا بعيسى وكانوا متمسّكين بدينه وشريعته وكانت لهم جنّة اسمها ضوران فيها من كلّ نبات وشجر وزرع يكفيهم لمعاشهم، وكانوا إذا خرجوا لصرامها نادوا في المساكين فخرجوا معهم فيما أذروه من زرع أو أخطأته المناجل أو سقط من قطع أيديهم كان للمساكين ثم كانوا يخرجون صدقاتهم تامّات ويقسمون ما بقي فكان يكفيهم لسنتهم ويفضل الفضل الكثير لما يبارك الله تعالى لهم فمكثوا زمانًا حتى مات الآباء، وأدركت الأبناء فقالوا: إنه كان لا يسعنا ما كان يسع آباؤنا فقد كثرت عيالنا ويقال: كانت من السنين فيها ضيق في الناس فغلاء في الأسعار فشق عليهم إعطاء ما كانوا يعطونه كل سنة فتشاوروا فيما بينهم وقالوا: نسعى إلى صرام جنتنا ليلًا خفية من المساكين فلا يتبعونا فأجمعوا على ذلك، فقال أوسطهم: أي أعدلهم قولًا يا قوم إن الله تعالى بارك لآبائنا في ثمارهم وغِلَالهم لأدائهم حقّ الله تعالى وعودهم على الفقراء فلا تخالفوا سيرتهم فأبوا عليه و﴿أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القَلَم: الآية ١٧] فقال لهم أوسطهم قولوا: إن شاء الله تعالى في حلفكم لئلا يلزمكم إثم فلم يفعلوا فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [القلم: الآيات ١٨ - ٢٢]، ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ[(١)]﴾ [القَلَم: الآية ٢٥] وقصدٍ لجنّتهم ﴿قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: الآية ٢٥] في أنفسهم أي مقتدرين أن يمنعوا حقّ الفقراء فبعث الله تعالى تلك الليلة على جنّتهم نارًا أحرقتها فصارت كالليل الأسود فذلك قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: الآيتان ١٩، ٢٠] كالليل المظلم ويقال كالصريم كالشيء المصروع المقطوع الذي لم يبق منه شيء، فلمّا انتهوا إليها رأوها

---

(١) الحرد: المنع والغضب هكذا سبقت في حاشية المخطوط.

كذلك لم يعرفوها ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القَلَم: الآية ٢٦] قد أضلّنا الطريق وليست هذه جنّتنا ثم تأمّلوا فعرفوا موضعها وحدودها فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: الآية ٢٧] حرمنا الله منفعة جنّتنا وزرعنا، ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [القلم: الآية ٢٨] أي لا تستثنون في حلفكم ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ [القلم: الآية ٢٩] ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم: الآية ٢٩] فيما فعلنا من قصدنا منع حقّ المساكين وتركنا سيرة آبائنا الأوّلين ثم إنّهم استغفروا وتابوا إلى الله تعالى وقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القَلَم: الآية ٣٢] إليه في السؤال والاستغفار وطلب جنّةٍ خير من جنّتنا فتاب الله عليهم قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القَلَم: الآية ٣٣] أي عذاب الله لمن منع حق الله وحق المساكين في الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

بـــابٌ
في ذكر أَصْحَاب الأخدود[1]

قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ [البروج: الآيتان ٤، ٥] الآية، قال أصحاب الأخبار والتفسير إنّ أصحاب الأخدود كانوا باليمن وكان لهم ملك يقال له: ذو نؤاس وسمي بذلك لأنه كانت على رأسه ضفيرتان تنوسان على عاتقيه، فسمّي ذا نؤاس وكان جبّارًا عاتيًا وإنه كان له وزير ساحرٌ كاهن وعليه مدار أمر الملك، فشاخ الوزير ودخل في السنّ فقال يومًا للملك: إنّي شخت وضعفت فابغ لي بدلاً أي اطلب لي غلامًا عاقلًا فهيمًا فطنًا أعلمه علمي فيكون خلفًا مني في أمرك فطلب له ذلك حتّى وجده كما أراد فألزمه إياه فكان الغلام يختلف إلى السّاحر يتعلّم منه وعلى طريق الغلام دير راهب فاشتهى الغلام الدخول عليه فدخل يومًا فرأى حاله وقال بعض الرواة كان الغلام يذهب ذات ليلة إلى الساحر إذ سمع وهو في صحراء من الأرض نداء يا عزيز يا عزيز ما الذي ينجيني من عذابك فوعزّتك لأنحلنّ جسمي في رضاك، ولأمنعنّ نفسي شهواتها بعونك، فسمع الغلام بكاءه ونداءه فنظر فإذا هو بسرب في الأرض فطلب موضع الدخول إليه فهيّأ الله تعالى له ذلك فدخل عليه فإذا هو راهب عليه المسوح فقال للغلام: من أدخلك عليّ وقد انفردت بديني من الناس وانفردت بأكل العشب ولبس الشعر فقصّ الغلام عليه قصته وقال: قد رغبت فيما أنت فيه قال: فأعطني موثقًا أن لا تخبر أحدًا وإن قتلت أو حرقت ففعل الغلام فعرض الراهب عليه الإسلام فأسلم وجعل بعد ذلك يختلف إليه ويتعلّم منه فكان ربما أبطأ على السّاحر بأن يحتبس عند الراهب وربما أبطأ على أهله فيعاتبونه على ذلك فشكا ذلك إلى الراهب فقال: قل لأهلك حبسني معلّمي ولتكن نيّتك عليّ وهم يظنونك تريد الساحر وقل للساحر حبسني أهلي ولكن نيّتك عليّ فتتحوّل منهم وتعلّم الغلام وبرع في العلم، وصار مستجاب الدعوة فبينما هو يسير يومًا في مسير إذ رأى جماعة على الطريق فسألهم فقالوا عرض للناس ثعبانٌ فمنعهم عن المرور في طريقهم

---

(١) باب قصة أصحاب الأخدود: الثعلبي ـ العرائس ص ٢٤٧.

فأتاهم الغلام وقال لهم: إن دعوت ونحيت هذا عنكم أي شيء تعطونني؟ فقالوا: ما شئت، فدنا الغلام من الحيّة ومسح ظهرها ودعا بدعواتٍ فمرّت الحيّة على وجهها وذهبت فتعجب الناس منه، ثم إنه رأى بعد ذلك ذات يوم أسدًا خرج على الناس وهم يهربون منه، فدنا منه الغلام وتكلّم في أذنه بشيءٍ فمضى الأسد على وجهه فتعجّب القوم منه، ثم إنه رأى ذات يوم حاجبًا كان للملك وقد عمي زمانًا وعجزت الأطبّاء عن معالجته فقال الغلام إن صححت عينيك أتتابعنيَ؟ قال: نعم، فدعا ربه بدعوات فأصحّ عينيه ثم إنه عاهده أن لا يفشي سره وخبره إلا أن يضطر بقتل فضمن له ذلك وآمن بالله، ثم إن الحاجب دخل على الملك فسأله عن أمره فأخبره أن الله شفاه قال: وأيّ إلـٰهٍ قال إلـٰه السماء وإلـٰه الأرض لا إلـٰه إلّا هو وهو على كلّ شيءٍ قدير قال: فأمر الملك بالحاجب فأخذ وأمره بالرجوع عن قوله فأبى، فقال له: من غرّك؟ قال: ما غرّني أحد بل نصحني قال: فدلّني عليه فأبى، فأمر بقتله، فقال في نفسه قد حلّ لي الآن أن أخبره فأخبرهم بحال الغلام وأنه دعا له فسمع الشيخ السّاحر ذلك وتحيّر وأمر الملك بإحضار الغلام ثم قال له: أنت رددت على هذا عينيه قال: كان بدعاء الساحر، فقال له: كنت تعلم هذا العلم ولم تخبرنا به طول دهرك قال الساحر: ما علمت هذا ولا علمته إيّاه فقال الملك للغلام: من علّمك هذا؟ قال: لست أخبرك قال: فما دينك؟ قال: أقول إنّ إلـٰهي هو الّذي لا إلـٰه إلّا هو ربّ السمـٰوات والأرض يحيي ويميت ويفعل ما يريد قال: فاستتابه الملك عن دينه فلم يرجع فأمر بصلبه فصلب وطعن بالرّماح فلم يعمل فيه رمحٌ وأشعل بالنار فلم تعمل فيه النار وفي رواية أخرى أنّه عذبه وخوّفه فأقرّ بأنّ معلّمه الراهب فأمر بإحضاره فلمّا حضر الغلام والحاجب والراهب قال الملك للراهب: أنت أفسدتهم فارجع عن دينك فأبى وأمر به فقتل ثم قال للحاجب: ارجع عن دينك فأبى فأمر بقتله فقتل ثم قال للغلام: ارجع عن دينك وإلا قتلتك كما قتلتهما فأبى، وأمر به أن يذهب إلى البحر فيغرق فيه فلما أتى البحر دعا بدعواتٍ فأمر الله تعالى الريح حتى ألقت من معه في البحر ورجع هو سالمًا، فأخبر به الملك فدعا به وسأله فقال: إن ربّي أهلكهم ونجّاني فغضب عليه وأمر بأن يحمل إلى شاهقٍ فيطرحه منه، فلمّا ذهب به أمر الله تعالى الريح فطرحت مَن معه عن الجبل ورجع هو سالمًا فأخبر به الملك فدعا به وسأله فقال: إن ربي أهلكهم ونجّاني، فغضب وأمر به أن يُصلَب فصُلِب وطُعِن بالرماح فلم يعمل فيه، وأُحزم وأُلقِي في النار فلم تحرقه فدعا بالرّماة فرموه فلم يصبه سهم. ورُوِيَ أنه بقي مصلوبًا سبعة أيام لم يصل أحد إلى قتله، فقال الغلام للملك يا طاغي أما إذا أتيت إلى قتلي فلن تصل إلى ذلك إلا أن ترميني وتقول باسم ربّ هذا الغلام، فقال له الملك ورماه فأصابه، فقال الناس وهم مجتمعون: إن الحق دين الغلام والربّ ربّ الغلام وقالوا

جميعًا: آمنّا بربّ الغلام فقيل للملك: قد وقعت فيما فررت منه، فإن الناس قد آمنوا كلهم فغضب الملك وأمر بالأخاديد، فخُدَّت في فضاءٍ من الأرض ثم خرج وجلس على شفير الأُخدود وأمر أعوانه حتى استحضروا مَن آمن بربّ الغلام ثم جعل يعرض عليهم دينه فمَن تبعه نجا وإلا أُلقِي في النار التي أُوقدت في الأخاديد حتى يحترق، فحرق خلقًا كثيرًا، قال: فكان آخر مَن أُتِيَ بها امرأة معها صبي رضيع فعرض عليها الكفر والنار، فأشفقت على صبيِّها وهمّت أن ترجع عن الدين فأنطق الله تعالى الرضيع فقال: يا أُمّاه إن الذي آمنت به سيعافينا بعد عذابنا فاقتحمت المرأة النار مع صبيِّها فجعلها الله عليها بردًا وأخفاها عن عيون الناظرين فخرجت من الأُخدود إلى الجانب الآخر فمضت فلم تردها النار. وفي بعض الروايات أن النار ارتفعت حين أرادوا إحراق المؤمنين فأحرقت الملك وأعوانه والكفّار من أتباعه ونجا المؤمنون. قال هؤلاء وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: الآية ١٠] يعني تلك النار التي أحرقتهم والأشهر من الروايات أنهم أحرقوا المؤمنين لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: الآية ١٠] فدلّ أنهم بقوا بعد المؤمنين حتى لم يتوبوا. ورُوِيَ أن الغلام بقي على الخشبة التي صُلِبَ عليها فأخفاها الله تعالى عن أبصار الخلق فلما كان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجد المسلمون في بعض أودية اليمن خشبة عليها مصلوب واضع إحدى يديه تحت خدّيه فتعجّبوا من ذلك ولم يعرفوا حاله ولا وصفه وجعلوا كلما انتزعوا يده عن وجهه رجعت إلى خدّه وكتبوا به إلى عمر فسأل عمر عن أمره إلى كعب الأحبار فأخبره خبر الغلام وأصحاب الأخدود وكتب عمر إلى الناس أن يُنزلوه من خشبته ويكفِّنوه ويدفنوه ففعلوا والله تعالى أعلم.

باب في ذكر جرجيس النبيّ وعجائب أمره

ذكر أهل الأخبار مثل وهب والضحّاك وغيرهما دخل كلام بعضهم في بعض أنه كان جرجيس في الفترة التي بين عيسى ومحمّد عليهما السلام وكان من تلامذة الحواريّين ويقال من تلامذة تلامذتهم فكان يسكن ناحية فلسطين من الشام وكان يقرأ الإنجيل ومعه عصابة من المسلمين يكتمون إيمانهم لضبطة الكفار على النواحي وكان على الموصل ملك جبّار عاتٍ قد غلب على تلك النواحي والشام إلى أرض مصرٍ واسمه داذنة ويقال: داذيانة وكان له صنم يقال له أفلون يدعو الناس إلى عبادته ويعذّب من أبى على ذلك، وكان جرجيس رجلًا ذا مالٍ كثير قد بسط الله تعالى له في الدّنيا وكان محسنًا مجملًا كثير الصدقة وكان يخاف على نفسه من الكفار فقال في نفسه: ينبغي أن أتّصل بملك الموصل وأهدي له من مالي لِأَمْنِهِ ولا يصل إلى أيدي غيره فخرج إليه بماله وأهدى إليه بهدايا نفيسة، فلمّا دخل عليه أوّلًا سلّم عليه وكان من القضاء يوم جلوس الملك يعرض الناس على دينه ويأمرهم بالسجود لصنمه ويعذّب على ذلك من خالفه وكان جالسًا على السرير وحوله عظماء قومه وملوكهم، وكان أعظمهم رجلان أحدهما يقال له: طور قليطا والآخر مجلنطيس وكان طورقليطا عن يمينه ومجلنطيس عن يساره على سرير، وكان قد أتى بصنمه فنصب للناس وأجّج نارًا عظيمة وجعل يعرض الناس على عبادته فمن أبى عذّبه فمنهم من يُلْقَى في النّار ومنهم من يكشط لحمه ومنهم من يطبخ في القدور ومنهم من سمّر عيناه ومنهم من ينقر رأسه ويصبّ فيه الصّفر المذاب فلمّا رأى ذلك جرجيس استعظمه وقال في نفسه: لا يسعني السكوت على هذا ولا التقرب إلى من يكون هذا حاله، فخرج من عنده فقسم المال الذي جاء به لهديته على المساكين من المسلمين، ثم دخل عليه متوكلًا على الله تعالى فوقف بين يديه وقال له: اسمع منّي أيّها الملك أنصحك ولا تغضب حتى تفهم ما أقول ثم شأنك بعد فاصنع ما تريد ثم قال له: اعلم أنك عبدٌ مملوك وأن لك ربًّا هو ربّ السماء والأرض وما فيهما قد خلقك ورزقك وكذلك جميع الخلق وأن ما عمدت إليه فنصبته وسميته إلـهًا ليس بإلـه وأنّه لا يسمع ولا يبصر ولا يغني

عنك شيئًا ولا عن نفسه بل هو حجرٌ منحوت لا يقدر على شيء فاقبل نصحي وارفض هذا الصّنم واعبد إلـٰه السماء والأرض فإني لك ناصح وصديق، والله المستعان فقال له داذيانة: من أنت فإني أراك تزري بنا وبآلهتنا قال جرجيس: أمّا أنا فعبدٌ من عباد الله تعالى خلقني من ترابٍ ويعيدني إلى التراب هذا نسبي ونسبكم ونسب الخلق وأما قولك من أين أنت؟ فأنا رجلٌ من الرّوم أسكن فلسطين وكأن الله تعالى أعطاني مالًا فخفت على نفسي من الظلمة فجئتك لأتمتع بجوارك من غيرك، فلمّا أتيتك رأيت من أمرك في عبادة غير الله تعالى وتعذيب الناس وصرفك إياهم عن دين الله تعالى ما لم يسعني السكوت ورأيت النصح لك واجبًا فالله الله أيها الملك إنّك عن قليلٍ ميّت ثم مبعوثٌ ومحاسبٌ ومجزى قال له داذيانة: أما أنت فقد استوجبت العقوبة بما خاطبتني وخالفتني في الدين ولكنّي لا أعاملك بل أمهلك وأنصحك كما نصحتني فهلمّ فاتبعني فقد ترى منازل من حولي وكرامتهم عليّ وما هم فيه من السرور والنعمة وإني أراك مغرورًا تذكر إلـٰهًا عظيمًا تعبده ولست أرى عليك له أثرًا ولو كان إلـٰهك كما زعمت لكنت أجلّ الناس قدرًا وأعظمهم مالًا عمّا أراك عليه من الذلّ والحقارة، فقال جرجيس: أما تعيرك إيّاي بالذلّ والحقارة فليس بذليل عند ربّي ولكن أتواضع له وأتوكّل عليه وأما ترغيبك إياي فيما فيه قومك فلا حاجة لي فيه وإني لمستغنٍ بربّي وأثق به واعلم أنك وصنمك الذليلان الحقيران الفانيان العاجزان لا تخلقان ولا ترزقان ولا تضرّان ولا تنفعان وإن ربّي هو القادر العالم الحكيم العزيز الذي خلق كلّ شيء بكلمته ودبّر الأشياء بحكمته وأحصى كلّ شيءٍ بعلمه والأمور كلّها في قبضته ثم قال: إني سألتك عن شيءٍ فقال: هات، فقال: هل تقدر أن تجعل طورقليطا أعزّ الناس عندك بمنزلة إلياس عند ربّي، قال الملك: ومن إلياس؟ قال: عبدٌ لله أطاعه وكان محتاجًا إلى الطعام والشراب فأكرمه وأنبت له الريش يطير حيث يشاء ومع الملائكة لا يأكل ولا يشرب ويصنع ما يشاء بكرامة الله تعالى له وأخبرني هل تقدر أن تجعل مجلنطيس مثل المسيح ابن مريم عند الله تعالى قال: ومن المسيح قال عبدٌ خلقه الله تعالى بكلمته وأكرمه بنبوته وأعطاه من الآيات ما لا تخفى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وسائر العجائب، ثم الآن قد رفعه الله تعالى إلى جوار ملائكته وقرّب عرشه معزّزًا مكرّمًا وهل قدرت على أن امرأتك التي كانت أعزّ الناس عليك وأحبّهم إليك حين وسوست وجنّت فخرجت من عندك وأكلتها الكلاب في البرية فلم تقدر لها على شيءٍ فهل تكون هذه مثل مريم بنت عمران التي اصطفاها الله تعالى وطهّرها واختارها على نساء العالمين، قال الملك: إنك لتخبرنا بأشياء لا نعرفها وقد أطلت المهلة لك حتى ادعيت ما ادعيت وقلت ما قلت، فالآن اختر أحد الأمرين إمّا أن تسجد لأفلون فترى كرامتي لك وإعزازي إياك، وإمّا أن ألقيتك في هذه النّار، قال

جرجيس: إن كان أفلون هو الذي رفع السماء بقدرته وبسط الأرض بعزّته وسحر الشمس والقمر والنجوم بأمره وأخلف الليل والنهار وما فيهما بحكمته وأرسى الجبال وفجّر الأنهار وأنبت الأشجار وأخرج الثمار وقدّر الأرزاق وقسّم الأقوات بين الخلق بعنايته لا سجدة له ولا كرامة له، فقال له الملك: الآن استحققت عذابي فأمر بخشبة فنصبت له وحمل عليها ثم مشط جسده بأمشاط الحديد حتى تقطع جلده ولحمه وعظمه وسال دمه ومخّ عظامه ولم يمت، فلمّا رأى ذلك أمر بمسامير الحديد حتى أحميت ثمّ سمّر بها رأسه حتى سال منها دماغه، فلم يقتله ذلك العذاب فأمر بحوضٍ من نحاسٍ وأوقد فيه حتى صار نارًا ثم أدخله فيه وأطبق عليه حتى برد ثم كشف عنه ولم يمت فلمّا رأى ذلك دعا به، وقال له: ألم تجد بعذابي ألمًا قال: لا، قال: فكيف قال قد أخبرتك أن لي إلـٰهًا هو أولى بي من نفسي وهو الذي صرف عني أذاك وألم عذابك ليكون حجة عليك وعبرة لك، فقد علمت أن أحدًا من أوليائك لا يحتمل أقل قليل مما حملتني من العذاب حتى يهلك فخافه الملك على مملكته وقومه وأراد أن يخلّده في السجن لئلا يفتتن به الناس، فقيل له: إنك إن تركته في السجن دعا الناس لكن ينبغي أن تشغله بعذاب حتى لا يصل إلى الكلام مع الناس، قال: فأمر به فطرح في السجن على وجهه ثم أوتد في يديه ورجليه أربعة أوتادٍ من حديدٍ في كلّ ركنٍ منها وتد ثم أمر بأسطوانة من رخام حتى نصبت على ظهره طول النهار فلمّا جنّ الليل أرسل الله تعالى إليه ملكًا ونبّأه ورفع عنه الأسطوانة وخلّى عن يديه ورجليه وأطعمه وأسقاه وقال له: إنّ الله تعالى بعثك نبيًّا اصبر وابشر فإنك عند الله مثل يحيىٰ بن زكريّا الشهيد وإنه مبتليك بعدوّك هذا الطاغي سبع سنين وإنه يقتلك أربع قتلاتٍ ويقال سبع قتلاتٍ في كلّ ذلك يردّ عليك روحك ويقومك مقامك لتحتجّ به عليهم، وإذا كانت الرابعة أو السابعة توفّاك له وأتم لك كرامته وأجره وثوابه على ما أصابك على حسب غنائه وعظمته فلا تضعف فإنه معك حيث كنت قال: فلمّا كان من الغدّ لم يشعر الملك وقومه إلا جرجيس قائم عليهم يدعوهم إلى الله تعالى قال الملك: يا جرجيس من أخرجك من السجن قال: من ملكه فوق ملكك وسلطانه فوق سلطانك فغضب الملك وأمر بأصناف العذاب فأعدت له، فلمّا نظر جرجيس إلى ذلك كأنه أوجس في نفسه خيفةً ثم قال في نفسه رافعًا بها صوته: يا جرجيس ما أسرع ما نسيت وصيّة ربّك ثم أمر به الملك فمُدَّ بين خشبتين ثم وضع المنشار على رأسه فشق نصفين ثم أمر به فقطع وكان للملك جُبٌّ فيه أسدٌ ضار فأمر بقطع جسده وألقي إلى الأسد فألهم الله تعالى الأسد حتى هدأ ولم يضرّه شيء فسقطت أعضاء جرجيس على ظهر الأسد، ثم جمع الله تعالى له قطعه وأحيَاه فظلّ على ظهر الأسد وكانت هذه أوّل موتة مات فأحياه الله تعالى فلمّا جنّه الليل ردّ الله تعالى عليه ذُهنَه وعقله وبعث إليه ملكًا فأخرجه من الجبّ وأطعمه وأسقاه

وبشّره وعزّاه وقال له: إن الله تعالى يقول لك: يا جرجيس إني أنا الله لا إلـه إلا أنا أحييتك ورددت إليك روحك لتجاهد عدوي فجاهد حق الجهاد، واعلم أنّه يكون مصيرك إليّ وإكرامك بما لا عين رأت ولا أذن سمعت فلما كان من الغدّ لم يشعر الطّاغي إلا وجرجيس قائم عليهم يدعوهم إلى الإيمان وكانوا قد اتخذوا عيدًا سرورًا منهم بهلاك جرجيس وقال الطاغي لقومه: اعلموا أنه لا إلـه أقوى من إلـهكم أفلون أين جرجيس الذي يخوّفنا بإلـهه هلا منعنا عنه؟ فلما رأوا جرجيس تحيّروا وقالوا: ما أشبه هذا بجرجيس فقال: بئس القوم أنتم قتلتموني ومثلتم بي، لكن الله تعالى قد أحياني وسوّاني بعد ما رأيتم فقال بعضهم لبعض: إن هذا لساحر وإنه سحر أعينكم فظننتم أن قد قتلتموه ولم تفعلوا فادعوا له سحرة فيعذبوه فدعا الملك كبير السحرة وقال له: إنّي دعوتك لأمرٍ قد ضقت منه وهو أمر السّاحر جرجيس فأرني سحرك الأعظم إن كنت تطيق دفع أمره فدعا السّاحر بحبّتين وأداةٍ وتخيّل إليه أنّه صيرهما ثورين، ثم إنه خيّل أنه زرع وأنبت وحصد وطحن وعجن وخبز في ساعةٍ واحدة، فقال الملك وأصحابه قد غلبنا الآن إنك غلبته ثم قال الملك: إني أريد أن تمسخه لي دابة، قال الساحر: أي الدواب تريد؟ قال: كلبًا قال: ادع لي بقدح من ماءٍ فأتى به فنفث فيه وقال: قولوا لجرجيس يشربه فأخذه جرجيس وشربه كلّه فقال له السّاحر ماذا تجد نفسك، قال: خيرًا كنت عطشانًا فرويت وصرف الله تعالى عني أذى ما تريدون، فقال الساحر للملك: لو كنت تخالف ملكًا مخلوقًا لأعنتك ولغلبته ولكنّك تعاند مالك الملوك الذي لا إلـه إلّا هو جبّار لا يرام فلا طاقة لي به، وآمن السّاحر بجرجيس فقال لهم رجل من أصحاب جرجيس: اسمعوا مني أخبركم قالوا: هات، قال: إنكم تسمّون هذا الرجل ساحرًا وإنه لا يقدر الساحر دفع الموت عن نفسه قال الساحر: نعم هو كما يقول واعلموا أنا كنّا بالشام فمات بها ثورٌ لعجوز فجاءت جرجيس وهو هٰهنا في عذابكم أن يحيي لها ثورها فأعطاها عصاه وقال: اذهبي واضربيه بها فيحيا فقالت: بيني وبينه مسافة بعيدة ولا أظن أبلغه حتى ينقطع أوصاله قال: إن أدركت من ثورك عظمًا واحدًا باليًا فاضربيه لأحياه الله تعالى لك ففعلت العجوز ما أمرها به فأحيَا الله ثورها فهل يقدر ساحركم على هذا؟ قال الساحر: لا والله لا يقدر الساحر على إحياء الموتى وإني أشهد أن لا إلـه إلا الله قال الملك للساحر ما أسرع ما أغواك، قال: لم يغوني ولكني آمنت بالله فقال الملك: اقطعوا لسانه قبل أن يبلغ الناس كلامه فقطع لسانه فمات وبلغ خبره وإيمانه الناس فقالوا: صدق الحق ما قاله جرجيس وأخبرهم أيضًا جرجيس بخبر الساحر فآمن من الناس أربعة آلاف، فأخبر الملك بهم فأمر حتى أخذوا وقتلوا جميعًا فلما قتلوا قال لجرجيس: فهل لا سألت إلـهك أن يمتعك بمن آمن بك فتقوى بهم؟ فقال جرجيس: إنّ الله تعالى أراد أن يدخلهم الجنّة

فيستريحوا من الدنيا فلم يكن علي على ربّي تحكّم في ملكه قال مجلنطيس الذي كان على يسار الملك زعمت يا جرجيس أن إلـٰهك هو الّذي يفعل ويخلق ما يشاء وإني آمرك أمرًا إن فعلته آمنت لك، قال: وما هو؟ قال: ترى هذه الكراسي وهي أربعة عشر قال: نعم، قال: ترى هذه الصحّاف والأطباق بين يدينا قال: نعم، قال: سل إلـٰهك أن يعيدها أشجارًا كما كانت أوّل مرة مورقة مثمرة ثم نؤمن بك، قال جرجيس إن ربّي يفعل ما يريد ولا أدري أيفعل ما يشاء أم لا فهو قادر وإن لم يفعله فلا حكم عليه فجاء ملك من السماء وقال: يا جرجيس إنّك لا تسأل في مقامك شيئًا إلا أعطاك الله تعالى إيّاه فأقبل جرجيس على الصلاة والدعاء فلم يلبث حتى تحركت الكراسي والصحاف واهتزت وأورقت وأثمرت وهم يرون ذلك، فقال مجلنطيس ما رأيت ساحرًا مثل هذا وإني أتولّى عذابه اليوم فعمد إلى ثورٍ من نحاس فملأ جوفه نفطًا أو كبريتًا ونارًا وألقي فيه جرجيس وأوقد تحته حتى ذاب كلّ شيءٍ في جوفه ومات جرجيس وأرسل الله تعالى في تلك السّاعة عليهم ريحًا وسحابًا وثلجًا ورعدًا وبرقًا وظلمة فمكثوا أيامًا لا يعرفون الليل من النّهار ولا النهار من الليل فأرسل الله تعالى ملكًا فأتى تلك الصورة التي في جوفها جرجيس فاحتملها فضرب بها الأرض فسمع صيحتها أهل البلد كلّهم وخرّوا على وجوههم وانكسرت الصورة، وخرج جرجيس منها وقد أحياه الله تعالى خلقًا سويًا ينفض رأسه وقام يدعوهم إلى الله فكشف الله تعالى الظلمة وكانت هذه الموتة الثانية لجرجيس ثم إن طورقليطا وهو الذي كان يجلس عن يمين الملك قال: يا جرجيس إن كنت صادقًا فسل ربّك أنّ هـٰهنا غارًا في جبلنا وفي الغار حياض محفورة في الصخر وفي كلّ حوض ملك من ملوكنا الماضين وقد رَموا وبليت عظامهم فإن أنت أحييتهم حتى يكلّمونا آمنّا بك قال جرجيس: فقوموا بنا إلى الغار فذهبوا معه حتى قام على باب الغار ثم توضّأ وصلّى ركعتين وسجد ودعا الله تعالى فسأله أن يحييهم، ثم إنه أمر من كنس تراب الموتى من الحياض فجعلها بين يديه تراب كلّ حوض على حياله، ثم دعا فاهتزّت حثوات التّراب وصارت عظامًا ثم كسيت العظام لحمًا وجلدًا وسويت خلقًا أبدانهم بتمامها ثم أدخل الله تعالى فيهم الرّوح فجعلوا ينظرون إلى الناس والناس يتعجبون منهم وكانوا سبعة عشر إنسانًا من ملوكهم تسعة رجال وخمس نسوة وثلاثة صبيان، قال: وكان فيهم شيخ وهو أسنّهم وأبهاهم فقال له جرجيس من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان الملك فقال القوم: قد سمعنا بهذا الاسم فيما مضى لملكٍ كان لنا ويقال: قال له جرجيس ما اسمك؟ قال: توفيل قال: وهل لك دين تدين به؟ قال: نعم، كنت أعبد صنمًا يقال له أفلون ثم لما متّ وضعت في حفرتي والآن منذ أربعمائة سنة متّ ولم تخرج مرارة الموت من حلقي ثمّ إني حملت فوقفت بين يدي حكمِ عدل على كرسي عظمٍ فسألني

عن عملي وما أدين به فلم يجد لي ولا لأصحابي خيرًا فسلّط الله تعالى الدود على أجسادنا والغمّ على أرواحنا فسألنا الرجوع إلى الدنيا لنتوب فلم يؤذن لنا فما زلنا في عذاب إلى أن سمعنا الصيحة وأحيينا وردّت علينا أرواحنا، ثم إن الشيخ قال لجرجيس ومَن أنت أيّها الرجل الصالح الذي أحيانا الله تعالى بدعوتك قال: أنا جرجيس النبيّ فتعلّق الرجل به وقال: أعوذ بك وبإلـهك أن تردّنا إلى ما كنّا فيه من العذاب الشديد ولكن اشفع لنا إلى ربّك ليرحمنا قال: فأقبل طورقليطا على الشيخ الذي كان يكلّم جرجيس وقال له: ألا تستحي يا شيخ عشت دهرًا على دين آبائك والآن تتبع دين هذا الضّال فلم يتلفت إليه الشيخ وقال أنا أعلم بما رأيت بعد الموت فقام جرجيس فدعا الله تعالى ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين من ماءٍ فأمرهم فتوضؤوا ويقال: اغتسلوا ثم قال لهم: قولوا: لا إلـه إلا الله فقالوها ثم إنه ضرب الأرض برجله فأماتهم الله تعالى وأمر بهم إلى جنّته ويقال: بل إنهم بقوا زمانًا طويلًا ثم مات كلّ واحد منهم بأجل كان له والله تعالى أعلم، وقال جرجيس إن الله تعالى قد شفّعني فيهم قال: فلم يؤمن به أحدٌ وقالوا: ما أسحرك سحرت أعيننا حتى ظنّنا أنك قد أحييت قومًا ولم يكن من ذلك شيء ثمّ إنّهم قالوا يجب أن نعذب جرجيس بالجوع لعلّه يتضرع منه فحبسوه في بيت عجوز فقيرة ولها ابنٌ أعمى أصمّ مقعد وفي بيتها دعامة يابسة فمنعوه الطعام، فقال للعجوز: هل عندك طعام فأقسمت أنها لم تجد شيئًا منذ عشرة أيّام إلا قليلًا لابنها قالت: لكنّي أخرج وأطلب لك شيئًا من الناس، فلمّا خرجت أقبل جرجيس على الدعاء للدعامة فما لبث أن اخضرّت وأنبتت من كلّ فاكهة تعرف وخرجت لها فروع فوق البيت فرجعت العجوز فوجدت ذلك فقالت: آمنت بالله الذي لا إلـه إلّا هو الذي أطعمك في بيت العجوز، ثم سألته العجوز أن يشفي ابنها فتفل جرجيس في عينيه وأذنيه فأبصر وسمع فقالت: أطلق لسانه ورجليه فقال إن لذلك يومًا آخر، ثم إن الملك خرج فرأى الشجرة ولم ير مثلها عليها أنواع الفواكه التي لا يشبه بعضها بعضًا فقال: ما هذه الشجرة التي لم أر مثلها؟ قالوا: هذه شجرة أنبتها الساحر للعجوز وشفى لها ابنها قال: فما بالكم لا تعلموني قالوا: لم نرد أن تحزن فقد كنت مشغول القلب بسببه، فأمر بالبيت فهدم وبالشجرة فقطعت فدعا جرجيس فصيّرها دعامة كما كانت، ثم إن الملك دعا بجرجيس وأمر بعجلة أن توثق فيه ثم شدّت بالثيران وأمر أن يطرح جرجيس على وجهه ثم تجرّ العجلة على ظهره حتى يقطع ثلاث قطع ثم أحرق بالنار حتى صار رمادًا وهذه الموتة الثالثة لجرجيس، ثم أمر الرجال أن يذهبوا بالرماد فيذروا ثلثه في البحر وثلثه في البر وثلثه في الجبل ففعلوا فلم يبرحوا مكانهم حتى سمعوا صوتًا يا برّ ويا بحر ويا جبل احفظن ما ألقي إليكن من هذا العبد الطيّب فاجمعنها حتى تعود كما كانت فهبت الرياح من كل

جانب وأذرت غبارًا شديدًا، فلم يلبثوا أن رأوا جرجيس خارجًا من وسط الغبار سالمًا ينفض رأسه فرجع القوم مع جرجيس إلى الملك وأخبروه بما صنعوا بالرماد وبما كان من أمر جرجيس فتحيّر الطاغي ثم قال لجرجيس: هل لك أن تطيعني في خصلةٍ واحدة فيها فرج لك ولي، ولولا أن الناس يقولون إنه قهر الملك لآمنت بك واتّبعتك ولكن هل لك أن تسجد لأفلون سجدة واحدة ثم لا أشكّ بعدها شيئًا وأكرمُك غاية الكرامة، فلمّا سمع جرجيس قوله طمع في هلاك صنمه وقال: هل لا سألتني منذ سبع سنين؟ ثم قال جرجيس: نعم أفعل، قال الملك: فأسألك أن تظلّ اليوم عندي وتبيت الليلة على فراشي لعرف الناس قدرك عندي ففعل، فلمّا جنّه الليل قام جرجيس يصلّي ويقرأ الزبور ويبكي بصوت حزين فسمعت امرأة الملك قولته فجاءت ووقفت خلف ظهره تسمع وتبكي فالتفت إليها وقال: ما بالك قالت: أبكاني حسن هذا الكلام الذي لم أسمع مثله، قال: فكيف لو عرفت قائله؟ فقالت: صفه لي فأنشأ لها جرجيس يصف عظمة الله وجلاله ويحدّثها بأمور السمٰوات والأرض والجنّة والنار فآمنت المرأة به إذ دخل على الصنم في بيته وحضر الناس لينظروا إلى سجدته للصنم، وقيل للعجوز التي آمنت به إنّ جرجيس افتتن وهو يسجد للصنم فجاءت وقد حملت ابنها على عاتقها وهي تبكي وتقول: ويحك يا جرجيس نكصت على عقبيك وارتددت بعد أن أكرمك الله تعالى بملائكته وبنوّته وأعزّك بنصره وحفظك من عدوّه بقوّته وأحياك بعد الموت مرارًا بعزّته، فمن الذي يأمن الفتنة بعدك؟ فلمّا رآها جرجيس قال لها: ضعي ابنك فوضعته، فقال لها جرجيس تعالَ يا بني فأطلق الله تعالى لسانه ورجليه فعدا إلى جرجيس فقال له: اذهب إلى هذه الأصنام فادعها لي فأشار الغلام أن كيف أتكلّم فقال: قل لها: يعزم عليكنّ جرجيس بالله الذي لا إلٰه إلّا هو الذي خلقكنّ تجيبنّه فأقبلت الأصنام إليه فلمّا انتهين إليه ركض جرجيس الأرض برجله فخسفت الأصنام وكان إبليس في جوف أفلون كبير الأصنام فلما أحسّ إبليس بالخسف خرج من جوفه فأخذ جرجيس بناصيته وقال: أيّها الملعون ما حملك إلى أن تصير النّاس إلى جهنم؟ فقال إبليس: لو خيّرت بين ملك السماء والأرض وبين إضلال واحدٍ من بني آدم لاخترت إضلاله عداوة لآدم ولولده وقد علمت أن الله تعالى أنظرني فخلّ عني فخلّى عنه فقال الملك لجرجيس: غررتني وأهلكت إلٰهي قال جرجيس: فكيف تسميه إلٰهًا وهو لم يقدر أن يدفع عن نفسه شيئًا؟ قال: وحضرتهم امرأة الملك فقالت لهم: اسمعوا منّي أيّها القوم فاصغوا إليها فقالت: ويحكم لا تعقلون ولا تعتبرون بما ترون ما يؤمنكم أن يصنع جرجيس مثل ما صنع بالأصنام فيخسف بكم، فقال لها الملك: ما أسرع ما أغواك الساحر في ليلة واحد وأنا أكائده منذ سبع سنين فلم أتبعه قالت: ألا ترى كيف يظفر الله تعالى بك في كلّ وقت حتى فعل بصنمك ما فعل

فغضب الملك من قولها فأمر بها فعلّقت بشعرها ومشّطت بأمشاط الحديد حتى يقطع جلدها ولحمها فلما اشتدّ الأمر عليها قالت: يا جرجيس ادع الله تعالى أن يهوّن عليّ، قال: ارفعي رأسك إلى السماء ففعلت وضحكت، قال جرجيس: ومم ضحكت؟ قالت: أرى ملكين ينتظران روحي ومعهما ثياب الجنّة وتاجها وحليّها وهما يدعوانني إلى أنفسهما ليصعدا بروحي إلى الجنة، فلمّا ماتت قام جرجيس وصلّى ركعتين ودعا فقال: اللهم إنك ابتليتني بهذه البلايا ووعدتني المكث فيها سبع سنين وقد تمت السّبع فأسألك أن تقبضني إليك، ولا تقبضني حتى تنزل بهذه القرية الظّالمة وبأهلها نقمتك ونكالك ما تقرّ عيني فيهم وأسألك أن لا يدعوك صاحب بلاء وكربٍ باسمي إلا استجبت وفرّجت عنه فلما فرغ من دعائه أنشأ الله تعالى سحابة أمطرت عليهم نارًا، فلما أحسّوا بالحرق بادروا إلى جرجيس فقطعوه بالسيوف فكانت الموتة الرابعة وأحرق الله تعالى القرية ومن فيها ونجّى الله تعالى المؤمنين من الحريق فكان جميع من آمن بجرجيس في السنين السّبع فيما يذكر ثلاثة وثلاثون أَلْف إنسان وامرأة الملك منهم والله تعالى أعلم بالصواب وهذا ما بلغنا من قِصَّتِهِ.

بابٌ في ذكر بولس
وما كان من أَمره في إضلال النصارى

قال الله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ [مريَم: الآية ٣٧] ذكر أهل الأخبار أن النصارى كانوا على الإسلامَ بعد رفع عيسى حتى أضلّهم بولس وكان بولس رجلًا من اليهود وكان يكثر الإساءة لقوم عيسى ويعاديهم فلمّا شاخ قال: لا ينبغي أن أموت فينقطع شري عنهم فجاء يومًا من الأيام وقال: أتعرفونني؟ قالوا: نعم، أنت بولس أشر خلق فأظهر أن إحدى عينيه قد اعورت فقال: اعلموا أنّ المسيح جاءني في المنام ولطم عيني ففقع إحداهما وقال: إلى متى تؤذي قومي، والآن قد جئتكم لأتوب مما كنت عليه وأدخل في دينكم فقبلوه فدخل بيتًا وأقبل على الترهّب فكان يصوم النهار ويقوم في الليل ويجتهد حتى اعتقد الناس به، فلمّا علم أنه تمكّن من قلوبهم دعَا يومًا نفرًا منهم وقال: ألستم تعلمون أن الجند تأتي من عند الملك؟ قالوا: نعم، قال: وإنا نرى أن الشمس والقمر والنجوم كلها تأتي من قبل المشرق فينبغي أن يكون الله تعالى هنالك قالوا كذلك قال: فالأولى أن نستقبل المشرق بالصلاة فحوّلهم من بيت المقدس إلى المشرق ثم دعا بنفرٍ منهم يومًا آخر فقال: أليس الله تعالى خلق هذه الأشياء لمنافع الخلق قالوا: بلى، قال: فما بال البقر أولى بالأكل من الخنزير وهما شكلان فأحلّ لحم الخنزير حتى أكلوه، ثم دعا بجماعة منهم يومًا وقال: أليس إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من أفعال الله تعالى لا يقدر عليها أحد غيره، قالوا: بلى، قال: فقد كان المسيح يفعل ذلك فلا بدّ من ربوبيته ثم إنه جمعهم يومًا وقال لهم: إني رأيت المسيح في منامي يقول لي: الآن رضيت عنك ومسح على عيني فصحّت وأرسلني إليكم برسالة وأمرني أن أبلّغها إليكم فاختاروا ثلاثةً من علمائكم من يبلّغها عني فاختاروا ثلاثةً من علمائهم فقال: ليأتني كلّ واحدٍ منهم على حدة فجاء بأحدهم فقال له: إن المسيح قال لي: ما بالكم تسمّوني عبدًا وقد علمتم أني أحييت الموتى وأبرأت الأكمه والأبرص وخلقت الطير من الطين فطار لا بل أنا الله فهكذا تقولون أنتم فقبله ذلك الرّجل وخرج من عنده ثم دعا الآخر وقال له: قال المسيح قد علمتم ما فعلت من الأفعال التي لا يقدر عليها غير الله تعالى،

فأنا شريك الله تعالى أشركني معه في الربوبيّة ولذلك قدرت ما قدرت فقبل الرجل منه ذلك، وخرج ثم دعا بالثالث وقال له: قال المسيح لي قل لقومي أنا ابن الله فقد عرفتم ما فعلت من الأمور التي لا يقدر عليها غير الله تعالى وأنا ابن الله وقد تقرأون ذلك في الإنْجيل فقبل الرّجل ذلك وخرج ثم إن بولس قتل نفسه تلك الليلة، فلمّا أصبح الناس وجدوه ميتًا ويقال بل قتل نفسه بين يدي الناس وقال: إنّي قرّبت نفسي للمسيح ليرضى عنّي غاية الرّضى فلمّا فقده الناس قالوا للنفر الثلاثة: أخبرونا برسالة المسيح التي بلّغها بولس إليكم فأخبر كلّ واحدٍ منهم قومًا، واختلفوا ويقال: لا بل إنه قال للثلاثة جميعًا إن المسيح ابن الله إلا أن الثلاثة بعد ذلك اختلفوا في كيفية كونه ابن الله وكان اسم أحدهم نسطور واسم الآخر ملكا واسم الثالث ماريعقوب ولذلك اختلفت أقاويل النصارى على هذه الفرق كما ذكرنا عنهم وقد بسط شرح مقالاتهم شيخنا الإمام في كتاب المقالات فلم نشتغل بكتابتها هٰهنا لطولها.

بـــابٌ
في ذكر شمسون العابد(١)

وكان عابدًا يعبد الله تعالى في صومعة له وكان أشدّ الناس وأقواهم وكان لا يوثق بوثاق إلا انحلّ عنه فلا يربطه شيء وكان يغزو مع الكفار فينال منهم وكان بقربه مدينة من مدائن الكفّار فعجزوا عنه وتشاوروا في أمره فقال بعضهم لبعض: لا سبيل لنا إليه إلا من قبل امرأته فأرسل ملك تلك البلدة إلى امرأة شمسون أنك إن وفقتنا على هلاك شمسون تزوجت بك وأعطيتك من الأموال ما لا تحصى فطمعت وقالت: إني لا أطيقه لكن أي شيءٍ تريدون أن أصنع قالوا: نريد أن تربطيه إذا نام وتشدّي يديه ورجليه ثم تخبرينا فندخل عليه فنأخذه فقالت: أفعل فلما نام شمسون أوثقته برباط، فلمّا استيقظ شمسون وتحرك بها تهافت عنه الوثاق فقال لها: ما حملك على ما فعلت؟ قالت له أردت أن أجرّبك وأجرّب قوّتك، فسكت عنها ثم إنها أخبرت القوم بحاله وحالها، فقالوا لها: نعطيك سلسلة فشدّيه بها فقالت: نعم ففعل ذلك فاستيقظ شمسون وتحرّك فتهافتت السلسلة عنه فسألها عن فعلها فقالت: أردت أن أعرف صدق من قال إنك لا يقوى عليك شيء فقال لها: لا يوثقني شيء البتة إلّا دعاء والدتي فإنّ والدتي دعت عليّ بذلك، فقالت: وما هو...(٢) فلما نام شمسون أخذت ذوائبه فشدت بها إبهاميه فأوثقته ثم أخبرت الكفار فدخل القوم عليه فاستيقظ ولم يطق أن يحلّ يديه فأخذوه وذهبوا به إلى مدينتهم وكان ملكهم على غرفة له مرفوعة فوق أربع أساطين وهو جالس فيها ليشرف على الناس فلمّا قرب شمسون أمر فنودي في الناس ليجتمعوا وأمر بخشبةٍ فنصبت ليصلب شمسون، فلمّا رأى شمسون ذلك دعا وقال: اللّهمّ إن كنت تعلم أني أريد البقاء للجهاد

---

(١) في الأصل شمعون وجاء في القرطبي: الجامع لأحكام القرآن شمسون ١٠/ ٨٩ (في تفسير سورة القدر) أما ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ذكر خبر الرجل ولم يذكر اسمه بل ذكر خبر الرجل الذي لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ٢/ ٥٢٩ وما بعدها، أما الثعلبي في قصص الأنبياء فقد ذكر أن اسمه (شمعون) ص ٢٤٩.

(٢) موضع النقاط بياض بالأصل.

في سبيلك فأنقذني مما أنا فيه فبعث الله تعالى ملكًا فأتاه وحلّه من وثاقه وأمره أن يجذب الأسطوانات التي تحت غرفة الملك فأخذها شمسون وجذبها فانهدمت الغرفة وسقط الملك تحتها وهلك ومن معه جميعًا، واشتغل الناس بذلك وخرج شمسون راجعًا إلى صومعته سالمًا وطلّق امرأته ويقال إن شمسون عبد الله تعالى في صومعته ألف شهر يصوم نهاره ويجاهد أعداء الله تعالى ويسهر بصلاته، وفي بعض التفاسير أن قول الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: الآية ٣] يعني التي عبد الله تعالى فيها شمسونُ والله تعالى أعلم بما كان.

بــابٌ
في ذكر قوم تُبَّع(1)

قال الله تعالى: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [قٓ: الآية ١٤] اعلم أنّ ملوك اليمن كانوا يسمّون التتابع كما يسمّى الخلفاء خلفاء لأن بعضهم كان يتبع بعضًا ويقال لكثرة تبعهم وإن الذي ذكره الله تعالى في القرآن هو أسعد بن كلكيكرب ويروى ملكيكرب الحميري وكنيته أبو كرب وإنه الذي قدم المدينة فقتل اليهود وكان سبب ذلك أنّ رجلًا من اليهود يقال له الفطيون قد تملّك على النّاحية وقهر أهلها حتى كان لا يدخل عروسٌ منهم على زوجها حتى يؤتي بها الفطيون أولًا فيصيبها قبل زوجها وكان في الخزرج رجل يقال له مالك بن العجلان وكانت أخت له، فلمّا أقعدت على مضيها للنساء قامت وخرجت على نادي قومها كاشفة عن ساقها ومالك جالس في النادي فقام إليها وقال لها: ويحك فضحتني فما بالك؟ فقالت: إنّ في الدّنيا شيئًا أعظم من هذا يذهب بي غير زوجي فيصيبني فقال: صدقت وأبيك وإنّ ذلك أعظم فهل فيك خير فقالت: إن عندي ما عند أعقل امرأة قال: فاكتمي عليّ فلمّا أمسوا وأرادت النساء أن تزفّها إلى زوجها توشح مالك بالسّيف وتغطّى بثياب النساء من عند العروس وجاء الفطيون ليخلو بها فكمن مالك في بعض مكامن البيت فلما دخل الفطيون وأغلق عليه وعلى المرأة خرج مالك عليه بالسيف فضربه حتى قتله وأخذ بيد أخته وخرج بها إلى زوجها ثم إنه استخفى مخافة اليهود، وخرج إلى اليمن مستنصرًا بتبع وأنّه كان من غسان وكانت الأَنصار من غسّان فحمل تبعًا على أن يخرج إلى يثرب لعودة قومه فخرج تبع بعساكره فنزل بموضعٍ عند المدينة يسمى قناة على رأس بئرٍ هناك

---

(1) انظر تفاصيل قوم تبع في: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٤٣/٤.
وتبّع: هو أحد ملوك اليمن الحميريين ثم صار لقب أعاظم ملوكهم، وينقسم حكمهم إلى عصرين: العصر الأول ويعرف باسم ملوك سبأ وريدان، وكانت همة الملوك فيه منصرفة إلى التجارة، أما العصر الثاني ويعرف حكامه باسم ملوك التبابعة ـ فكانوا أهل حروب وفتوح وامتدت دولتهم إلى بلاد الحجاز واليمامة وما بينهما من قبائل العرب اليونانية، ومن أشهر ملوكهم الصعب ذو القرنين الذي نسب إليه الكثير من الفتوحات العظيمة في الشرق والغرب، محمد إسماعيل إبراهيم: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ص ٨٤.

فسميت بئر الملك وطرق مالك إلى قومه ليلًا وقال: جئتكم بعزّ الدّهر أي بأبي كرب اليماني الملك وأنزلته موضع كذا فقالت امرأة من سالم رهط مالك تتمثل بهذا الكلام ليت حظّي من أبي كرب إنه سيد خير حمله فصارت كلمتها مثلًا، ثم إن مالك قال لتبع اعلم أيّها الملك أنّ اليهود قد كاثرونا وقهرونا في هذا البلد وأنا جامعهم فإذا أتيتك بهم فاضرب أعناقهم لكي تذلهم لنا فتسامعت اليهود بأنّ مالكًا هو الذي ساق تبّعًا إليهم فجاؤوه وكلّموه في أمرهم فقال: لا بأس منه عليكم فإنّه جاء زائرًا لقومه ثم إن مالكًا أرسل إلى أشراف يهود من بني النظير وقريظة وغيرهم من اليهود وقال لهم: قد كلّمت الملك في أمركم وأخبرته بما بيننا من المودة والقربة والجوار فأمرني أن آتيه بكم فتهيأوا وتجمّلوا للدّخول عليه واغدوا معي إليه ففعلوا فأتى بهم تبعًا فأمر تبع إلى ناحية من قبله يقال لها ذو حوضٍ فضربت أعناقهم وذلّت اليهود من ذلك اليوم والأوس والخرزج والله تعالى أعلم، ثم إن تبّعًا لما رجع من المدينة حمل معه غلمانًا من غلمان اليهود الذين أسرهم وفيهم غلمان من أولاد الأحبار يقرأون التوراة ويعلمان[1] عليها فكان اختارهما لصحبته وخدمته، وروى محمد بن إسحٰق صاحب المغازي بإسناده عن أنس بن مالك، عن أشياخ قومه من الأنصار ممن أدرك الجاهلية أن سبب كون الحبرين مع تبّع هو أن تبّعًا وهو أسعد بن كلكيكرب لما رجع من المشرق جعل طريقه على المدينة وكان قد مرّ بها في توجّهه إلى المشرق فأكرم أهلها لقرابتهم منه وخلّف ابنًا له عندهم ليحفظوه إلى رجوعه فقتل ابنه غيلةً لا يدري من قتله، فلمّا رجع تبع وكان سمع بقتل ابنه كان حليفًا عليهم عازمًا على خرابها وقطع نخلها واستئصال أهلها فاجتمع أهل المدينة ليمتنعوا منه وخرجوا لقتاله وكان رجل من الأنصار قتل رجلًا من أصحاب تبّع وجده في نخلة فضربه بمنجلهِ وقتله وطرحه في بئرٍ لهم فزاد ذلك حيفًا لتبّع عليهم فدامت الفتنة بينهم وبينه أيامًا وزعمت الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه ويضيقونه ليلًا فتعجّب من صنيعهم وسألهم فقالوا: أنت ذو قرابةٍ مِنَّا فنحن نقربك لقرابتك ونحاربك لمحاربتك إيّانا فقال تبّع: إنّ قومنا هؤلاء كرام قال: وسمعت اليهود بأن تبعًا يريد إهلاك المدينة فجاءه حبران من أحبارهم فقالا له: أيّها الملك لا تفعل ذلك فإنَّك إن قصدت لذلك حيل بينك وبين ذلك ولم نأمن عليك الهلاك قال تبع: ولِمَ ذاك قالا: لأنّ هذه القرية مهاجر نبيٍّ سيخرج من الحرم من قريش في آخر الزّمان وتكون داره وقراره فأعجبه ما سمع ورأى منهما فانصرف من المدينة وخرج بهما إلى اليمن وقبل دينهما وكان الحبران من قريظة يسميان كعبًا وأسدًا وهما ابنا عمرو وكان تبع قبل ذلك يعبد الأوثان ثم إنه توجّه إلى اليمن فلمّا كان

---

(١) كذا في الأصل، بالتثنية.

بالدُّف[١] من جمدان[٢] بين أمجِ[٣] وعسفان[٤] أتاه نفرٌ من هذيل فقالوا: أيّها الملك ألا ندلّك لى بيتِ مالٍ قد أغفله الملوك فيه صنوف الأموال والجواهر، قال: بلى، قالوا: بيت بمكّة بعيد وإنما أرادا الهذليون إهلاك تبّع لما عرفوا من هلاك من قصد الكعبة فأرسل تبع إلى الحبرين فسألهما عمّا قيل له في أمر مكّة فقال ما أراد القوم إلّا هلاكك ما نعلم لله بيتًا اتخذه في الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما قالوا لك لتهلكنّ، قال: فما تأمروني قالا: نقول لك أن تصنع إذا جئته ما يصنع أهله من الطواف والتعظيم له قال: فما منعكما أن تفعلا ذلك؟ قالا: إنه لبيت أبينا إبراهيم وهو كما أخبرناك ولكنّ أهله حالوا بيننا وبين ذلك بما نصبوا عنده من الأوثان فعرف تبّع صدقهما وأمر بالهذليين فقطعت أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة شرّفها الله تعالى وطاف بالبيت ونحر عنده القرابين فأقام بها ستّة أيّام ينحر كل يوم للناس وأطعمهم وسقاهم العسل، ثمّ إنّه رأى في منامه أن يكسو البيت فكساه الحصف، ثم إنه رأى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعارف، ثم رأى أن يكسوه أفضل من ذلك فكساه الملا والديباج فهو أوّل من كسا البيت وأوّل من جعل له بابًا ومفتاحًا لئلا يدخله كلّ أحدٍ ثم خرج إلى اليمن ومعه الحبران فلمّا دخلها دعا قومه إلى الدخول في دينه فأبوا عليه فحاكموه إلى النّار وكانت باليمن نارٌ تخرج من غارٍ هنالك ويقال: إنه لما أراد دخول اليمن حالت حمير بينه وبينها، وقالوا: لا يدخلها علينا وقد فارق ديننا، فقال لهم: إنّ ديني خير من دينكم؟ قالوا: فحاكمنا إلى النّار فكانت باليمن نار يختصمون إليها فيزعمون أنّها تأكل الظّالم الكاذب ولا تضر المظلوم الصّادق قال تبع للحبرين ما تقولان فقالا: أجبهم إلى ذلك فخرجت حمير بأصنامهم وخرج الحبران بمصاحفهما قد تقلّداها حتى جاؤوا النار عند مخرجها من الغار فخرجت النار وأحرقت القوم وأصنامهم وجميع ما معهم وجاء الحبران بمصاحفهما في أعناقهما فجاءتهما النار فدارت حولهما ثم رجع عنهما ولم تضرّهما فأقرّت حمير لتبع بدينه فمن ثمّ وقعت اليهود باليمن وقيل إنهم لم يدخلوا في دينه، فسلطه الله تعالى عليهم فقتل منهم مقتلةً عظيمة، ويقال: إن الحبرين لما فعلا ما فعلا قيل

---

(١) الدف: بلفظ الدف الذي ينقر به: موضع في جمدان من نواحي المدينة من ناحية عَسفان: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٤٥٨.

(٢) جمدان: ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٢٤٩.

(٣) أمج: بالجيم، وفتح أوله وثانيه وأمج وغُران واديان يأخذان من حرة بني سليم ويفرغان في البحر على بعد ثلاثة أيام من مكة.

(٤) عسفان: بضم أوله، وسكون ثانيه ثم فاء، وآخره نون، من عسفت المسافة وهو يعسفها وهو قطعها بلا هداية ولا قصد وسميت عسفان لتعسف السيل فيها، وهي منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، ياقوت الحموي معجم البلدان ٤/ ١٢١.

لهما ليريا في تلك النار شيئًا يكلّم الناس فقالا ذلك الشيطان يفتن الناس فإن أذنت لنا لنستخرجنّه فقال شأنكما به فاستخرجا منها كلبًا أسود وذبحاه وانطفأت النار فيما ذكروا وقال تبع فيما كان من أمره وأمر الكعبة وما قال له الحبران في أمر النبي ﷺ ويذكره في شعره في قصيدةٍ أوّلها:

ما بال نومك مثل نوم الأرمد ... حتى كأنّك في فراشٍ مُشْهِد
ولقد نزلنا يثربًا وصدورنا ... تعلو بلابلها بقتلى مقصد
ولقد خلقت أمين صدقٍ موليًا ... قسمًا لعمرك ليس بالمتردّد
إن لو وردنا يثربًا لم أذر ... غدقًا ولا نخلًا لهم في معهد
حتى أتاني من قريظة عالم ... حبر صدوق القول غير مفنّد
قال ازدجر عن قريةٍ محفوظةٍ ... لنبيّ مكّة من قريش مهتد
فعفوت عفو تجاوزٍ عن دينهم ... وتركتهم لعقاب يوم سرمد
وتركتهم لله أرجو عفوه ... يوم الحساب من الجحيم الموقد
ولقد تركت بها لهم من قومنا ... نَفَرًا أُولي حسبٍ وبأس أبد
نفرًا يكون النصر في أعناقهم ... أرجو بذاك ثواب ربّ محمّد
ما كنت أحسب أن بيتًا طاهرًا ... لله في البطحاء للمتعبّد
حتى أَتانا من هذيل أعبدٌ ... بالدُّفِّ من جمدان فوق المسند
قالوا بمكّة بيت مالٍ دابرٍ ... وكنوزه من لؤلؤٍ وزبرجد
فأردت أمرًا حال ديني دونه ... والله يدفع عن خراب المسجد

فرددت ما أملت منهم فيهمُ
وتركتهم مثلًا لأهل المشهد

وقال تبع في صنيعه أيضًا بمكة:

قد نحرنا بشعب ستّة آلاف ... ترى الناس بجوهرٍ وورودا
وكسونا البيت الذي حرّم الله ... حللًا معضّدًا أو برودا
فأمرنا بظهوره الجرهمين ... وكانوا بجانبيه شهودا
وأمرنا الآن قرين إليهِ ... لا دمًا طامثًا ولا مفصودا
وأقمنا بها من الشهر بيتًا ... وجعلنا لبابها إقليدا

ثم سرنا في يوم قصد سهيلٍ
قد رفعنا لواءنا المعقودا

أراد قصد اليمن لأنّ سهيلًا في ناحية اليمن قال: تبع أيضًا في مدح رسول الله ﷺ حين وصف له الحبران في التوراة:

شـهـدت عـلى أحـمـد أنّـه	رسـول مـن الله بـاري الـنـسـم
لـه أمّـة سـمّـيـت فـي الـزبّـور	وكـان أمّـتـه خـيـر الأمـم
نـبـيّـهـم سـابـق صـادقٌ	يـوالـي عـلى الـديـن دون الـرّحـم
نـبـيّـهـم خـاتـم الأنـبـيـاء	لـم يـذر زرعًـا وجـمّ الـنـعـم
ومـنّـا إذا أخـرجـتـه قـريـش	فـيـنـزل فـي الـحِـلّ بـعـد الـحـرم
مـعـاشـر صـدقٍ لـرسـول ربّـهـم	ويـوفـون بـالـعـهـد بـعـد الـرجـم
فـلـو مـدّ عـمـري إلـى عـمـره	لـكـنـت وزيـرًا لـه وابـن عـمّ
وكـنـت عـذابًـا عـلى الـمـشـركـين	لأسـقـيـهـم كـأس ضـرٍّ وهـمّ
وأجـعـل لـه نـفـسـي فـدًى	وأكـشـف عـن صـدره كـل هـمّ

وروي أن شافع بن كليب الصدفيّ كان هٰهنا فسأله تبع هل تجد في علمك يا شافعي ملكًا يواري ملكي، قال: نعم ملك غسّان بالشام، قال: فهل تجد ملكًا يزيد على ملكي؟ قال: نعم قال: ومن هو؟ قال: بارٌّ مبرور مؤيّد بالسفور وقد وصف في الزبور وفُضِّلَتْ أمّته بالقهور فارج الظلم بالنور، قال: وما اسمه؟ قال أحمد[1] النبيّ طوبى له ولأمته قال: وممن هو؟ قال: أحد بني لؤي ثم أحد بنيّ قصيّ قال: فبعث تبع من أتاه بالزبور فنظر فيه فوجد فيه صفة النبيّ ﷺ كما ذكر له، فلذلك قال في شعره: له أمّة سميت في الزبور؛ قال الشيخ وإنما كتبت في هذه القصة ما اقتضاه وأوجزت ألفاظها واختصرت أبياتها لما فيها من شرف نبيّنا محمّد ﷺ ودلالة على نبوّته.

(١) محمد نبي الله ﷺ.

بــــابٌ
في ذكر خالد بن سِنَان العَبْسِي[1]

عن ابن عباسٍ أنه قال: ظهرت نارٌ بالبادية بين مكة والمدينة في أيام الفترة سمتها العرب بدًا وكانت طوائف من العرب تعبدها مضاهاة بالمجوس فقال رجل من قوم عيسى اسمه خالد بن سنان العبسي إني أقتل هذه النار كيلا تعبدها العرب، فقال له إخوته: مهلًا يا خالد إنك إن قتلت هذه النار لم نأمن عليك أن تهلك؟ فقال: لا أبالي فأخذ عصاه ومضى نحو النار فجعل يضربها بعصاه وهو يقول: (بدًا أبدًا كلّ مودًا)[2] حتى أطفأها ثم صاح صيحة ووقع فقال لإخوته: إني ميّتٌ فإذا متّ فادفنوني في موضعي هذا فإذا حال الحول فأرصدوا قبري فإذا رأيتم بعيرًا أبتر عند قبري فارموه فإذا قتلتموه فانبشوا عليّ فإني أخرج وأحدثكم بكل شيءٍ هو كائن، ثم إنه مات فدفنوه في موضعه ورصدوا قبره بعد الحول فإذا هم ببعيرٍ أبتر فرموه وقتلوه، فلمّا أرادوا أن ينبشوا عنه قال بعضهم: إنا إن نبشنا عنه كان سبّة علينا في العرب وعسى أن لا يخرج فتركوه، فلمّا بعث رسول الله ﷺ وهاجر إلى المدينة جاءته (ابنة خالد بن سنان)[3] العبسي فرحب بها ﷺ ثم قال: أتدرون ما حال أبي هذه قالوا: الله ورسوله أعلم فأخبرهم بخبره وقال: إنه كان نبيًا هلك بين مكة والمدينة وقال: لو نبشوه لأخبرهم بشأني وشأن هذه الأمة وما يكون فيها وما كان ولكنه ضيّعه قومه.

---

(١) خالد بن سنان العبسي: من أراد زيادة في التفاصيل فلينظر إلى المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ١/٥٧، ابن كثير: البداية والنهاية ٢/١٥٣.

(٢) جاء هذا النص في مصادر أخرىٰ بهذا السياق (أبدا، بدا كل هدىٰ، مؤد إلى الله الأعلى لأدخلنها وهي تتلظى، ولأخرجن منها وثيابي تتندى... فأطفأها)، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ١/٥٧.

وهذا نصٌ آخر: (بدا بدا بدا كل هدى زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي بيدي حتى دخل منها الشق، فأبطأ عليهم فقال لهم عمارة بن زياد: والله إن صاحبكم لو كان حيًا لقد خرج إليكم... الخ) ابن كثير: البداية والنهاية ٢/١٥٣.

(٣) جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبي ﷺ فبسط لها ثوبه وقال: «بنت نبيٍّ ضيعه قومه»، أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك في (٢٨) كتاب: تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، الحديث ٤١٧٣/١٨٣.

بـــابٌ
في ذكر أصحاب الفيل[1]

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: الآية ١] إلى آخر السورة، قال اختلف أهل الأخبار في قصّة الفيل قد ذكر محمد بن إسحٰق صاحب المغازي وغيره من أهل العلم أنه لما كان من أمر أصحاب الأخدود وقتل ذي نواس لهم الحميري كما ذكرنا من قبل أنه أفلت رجل من أولئك القوم يقال له ذو ثعلبان على فرس له فسلك الرمل فأعجزه فمضى على وجهه حتى قدم على قيصر الروم ليستنصره على ذي نواس وقومه وأخبره بما صنع بهم وقال لقيصر كنّا على دين عيسى فقتلنا لذلك، فقال قيصر بعدت داري من دارك فبلادي من بلادك ولكني سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على ديننا لينصرك فكتب قيصر إلى ملك الحبشة يذكر حقه ويأمره بالنصرة وطلب ثأره فقدم ذو ثعلبان بكتاب قيصر على النجاشي ملك الحبشة فبعث جيشًا وكان سبعين ألفًا من الحبشة وأَمَّرَ عليهم رجلًا يقال له أَرياط فعهد عليه إذا ظفر بهم يقتل ثلث رجالهم ويسبي ثلث نسائهم ويخرّب ثلث ديارهم فخرج بالجنود وكان في جنده أبرهة الأشرم فركبوا البحر حتى نزلوا بساحل اليمن فسمع بهم ذو نواس فجمع إليه جنده من قبائل اليمن فحاربهم فلم يلبث إلا قليلًا حتى انهزم ذو نواس وغلبت الحبشة، فلما رأى ذو نواس ذلك اقتحم البحر بفرسه حتى غرق، فكان آخر العهد به فتوطّنت الحبشة باليمن وضبطتها وقتل ثلث رجالهم وأخرب ثلث ديارهم وبعث ثلث نسائها إلى النجاشي وأقام بها سنين ثم وقع بينه وبين أبرهة بن الصبّاح خلاف وانحاز إلى كل واحد منهما قوم من الحبشة وسار بعضهما إلى بعض فلما التقى الجيشان أرسل أبرهة إلى أرياط أنك لا تصنع شيئًا بأن يلتقي الجيشان بعضهما ببعض فتفتنهما فابرز إليّ وأبرز إليك فأيّنا أصاب صاحبه كان الأمر له، فقال قد أنصفت فاخرج إليّ فخرج أبرهة وكان رجلًا قصيرًا لحمًا وخرج أرياط

---

(١) أصحاب الفيل من أراد زيادة في التفاصيل فلينظر الثعلبي: العرائس ص ٢٤٩، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٠/١٢٨، ابن كثير في تفسير هذا القرآن العظيم ٤/٥٥٣، ابن كثير: البداية والنهاية ٢/١٠١.

وكان رجلًا عظيمًا طويلًا وسيمًا جسيمًا وفي يد كل واحد منهما حربته وكان خلف أبرهة غلامه يسمى عتود يمنع ظهره فحمل أرياط وضرب بالحربة يريد رأس أبرهة فوقعت الحربة في جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفتيه وبذلك سمّي أبرهة الأشرم، وحمل غلام أبرهة على أرياط فقتله فانصرف جند أرياط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة وقال أبرهة لغلامه الذي قتل أرياط حكمتك يا عتود، وقال حكمي أن لا تدخل عروس من أهل اليمن على زوجها حتى يدخلها أبرهة فسمع النجاشي بما فعل أبرهة فغضب غضبًا شديدًا وقال: ظلم غلامي فقتله ويملك بغير أمري وحلف أن لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويقطع ناصيته فسمع أبرهة غضب النجاشي عليه فحلق رأسه وناصيته وبعث بهما مع جراب من تراب أرض اليمن إلى النجاشي وكتب إليه أيّها الملك كان أرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا وكنت أقوى على ضبط الناحية وأصلح لأمر الحبشة وأسوس لها، وقد بلغني حلفك وإني حلقت رأسي وناصيتي وبعثت بهما إليك مع تراب اليمن لتضعها تحت قدميك وتبرّ في قسمكِ وأنا لك حيث أردت، فلمّا بلغ ذلك إلى النجاشي كتب إليه وولّاه اليمن وقام أبرهة باليمن وإن غلامه عتود كان يصنع بنساء اليمن ما يصنع فغضب لذلك رجل من خثعم فقتله وبلغ قتله أبرهة وكان رجلًا حليمًا ورعًا في دينه فقال: قد آن لكم يا أهل اليمن أن يكون منكم حازم يأنف مما يأنف الرجال، والله لآخذ منكم لغلامي ديةً ولا يكون منّي شيء تكرهونه ثم إن أبرهة بنى كنيسة لم يبن مثلها وسمّاها القُلَّيس[(١)] بمدينة صنعاء لم يرَ مثلها في زمانها وكتب إلى النجاشي أني قد بنيت لك أيّها الملك بناءً لم يُبْن مثله قط ولا أَبهى حتى أصرف إلى الكنيسة حاجّ العرب قال وتسامع بقول أبرهة رجل من العرب فغضب رجل من النسأة من بني فُقَيْم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر وهم الذين كانوا ينسئون الشهور للعرب فخرج إلى كنيسة القُلَّيْس فقعد فيها وأحدث ثم خرج ورجع إلى قومه وبلغ فعله أبرهة فقال: من صنع هذا؟ فقيل: إنه رجل من أهل البيت الذي تحجّه العرب بمكة غضبةً لقولك إني أصرف الحاج إلى الكنيسة فغضب أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى الكعبة حتى يهدمها وكان عند أبرهة رجال من العرب يلتمسون فضله منهم محمود بن الخزاعي على قبائل مضر وأمر أن يدعوهم إلى حج الكنيسة التي ابتناها

(١) القليس: لما ملك أبرهة بن الصباح اليمن بنى بصنعاء مدينة لم يرَ الناس أحسن منها ونقشها بالذهب والفضة والزجاج والفسيفساء، وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر وبنى كنيسة على باب صنعاء قيل: سميت القليس لارتفاع بنيانها وعلوها ومنه القلانس لأنها في أعلى الرؤوس، وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام والحجارة منقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان (عليه السلام). ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٤/ ٣٩٤.

فسار ابن الخزاعي حتى نزل أرض كنانة، وقد بلغ الناس خبره فبعثوا إليه رجلًا من هذيل يقال له عروة، فرمى ابن الخزاعي فقتله وكان معه أخوه فسد بن الخزاعي فهرب حتى لحق بأبرهة فأخبره بمقتله فزاده غيظًا وحنقًا على بني كنانة فحلف ليغزوهم ويهدم الكعبة، ثم إن أبرهة سار إلى الكعبة وأخرج معه الفيل فسمع العرب بذلك فعظموه ورأوا جهاده حقًّا عليهم، ثم سمعوا أنّه يريد هدم الكعبة بيت الله تعالى فخرج رجل من أشراف اليمن يقال له ذو نفر ودعا قومه ومن أجابه من العرب لحرب أبرهة ومنعه عن الكعبة ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأخذ أسيرًا فأراد أبرهة قتله، فقال ذو نفر: أيّها الملك لا تقتلني فعسى أن يكون بقائي معك خيرًا لك من قتلي، فحبسه عنده وكان أبرهة رجلًا حليمًا ثم مضى أبرهة يريد البيت حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي وقاتله فهزمه أبرهة وأخذه أسيرًا فلمّا أراد قتله قال: لا تقتلني لأكون دليلًا في أرض العرب فعفا عنه وخلّى سبيله، وخرج به معه حتى أتى الطائف فخرج إليه مسعود بن مغيث في رجال ثقيف فقال: أيّها الملك نحن عبيدك سامعون لك وليس البيت الذي تريده عندنا بيت اللات، إنما هو مكة فجاوزه وبعث أبا رغال معه فخرج أبرهة حتى نزل أبو رغال بالمغمس فلمّا نزلوا مات أبو رغال هنالك، فرجمت العرب قبره لما كان من دلالته على البيت، ثم إن أبرهة بعث رجلًا من الحبشة يقال له الأسود بن مسعود على خيلٍ حتى انتهى إلى مكّة فساق إليه مواشي أهل مكة وفيها مائتا بعير لعبد المطّلب وهو يومئذٍ سيّد قريش، ثم إن قريشًا وقبائل ممّن حول الحرم قصدوا قتال أبرهة لكنّهم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتفرقوا وبعث أبرهة حياطة الحميري فقال: اسأل عن سيّد هذه البلدة وشريفها وقل له إني آت لتخريبهم ولكني جئت لهدم هذا البيت فإن لم تتعرضوا إليّ فلا حاجة لي في دمائكم فإن لم يردّ سيدهم خبري فأتني به فدخل حياطة مكة وسأل عن سيّد قريش فقيل له عبد المطّلب بن هاشم فجاءه وبلغه رسالة أبرهة قال عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك طاقة إلّا أن هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن منعه الله تعالى فهو بيته وحرمه وإلّا فما عندنا من دفع قال حياطة فانطلق معي إلى الملك فإنه قد أمرني أن آتيه بك، فانطلق معه عبد المطلب وبعض بنيه حتى أتى العسكر وسأل عن ذي نفرٍ وكان له صديق فدلّ عليه فجاءه وهو في مجلسه فقال يا ذا نفر هل عندك غنى فيما نزل بنا فقال ذو نفر وما غنى رجل أسير ينتظر القتل غداةً وعشيًّا لكن فإنه أنيس سائس الفيل فجاءه وقال له: هذا عبد المطلب الذي يطعم الناس في الحرم والوحش في الجبال وقد أصيب له مائتا بعير فاستأذنه على الملك وانفعه بما استطعت قال: نعم، ثم إن أنيسًا جاء أبرهة وذكر له حال عبد المطّلب وشرفه ومنزلته واستأذن له فأذن له أبرهة وكان عبد المطلب رجلًا جسيمًا وسيمًا، فلما رآه أبرهة أجلّه وأكرمه وكره أن يجلسه على سريره فنزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط ثم قال

لترجمانه سله ما حاجته إليّ فسأله الترجمان فقال عبد المطلب حاجتي إليه أن يردّ عليّ مائتي بعير أصيبت فقال أبرهة للترجمان: قل له: كنت أعجبتني حين رأيتك وزهدت الآن فيك إذ كلّمتك تسألني في مائتي بعير وتترك بيتًا وهو دينك ودين آبائك وقد جئت لهدمه فلا تكلّمني فيه قال عبد المطلب للترجمان: قل للملك إن لذلك البيت ربًّا هو أولى به منّي وهو يمنعه إن شاء وأمّا مالي فلا حافظ له غيري فقال أبرهة: قل له إنه لا يمنعني عن البيت شيء، قال عبد المطلب فأنت وذاك أردد عليّ إبلي وزعم بعض أهل العلم أنه ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة جياطة الحميري وعمرو بن لقاية البكري سيّد كنانة ونحويل بن واثلة الهذلي سيّد هذيل وأنهما عرضا على أبرهة ثلثا مال تهامة على أن يرجع ولا يهدم البيت فأبى، ثم إن أبرهة ردّ على عبد المطّلب إبله وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرَهم الخبر فأمرهم بالخروج من مكّة إلى الجبال خوفًا عليهم من معركة الجيش ثم قام عبد المطلب وأخذ بحلقة باب الكعبة ومعه جماعة من قريش يدعون الله تعالى ويستنصرونه على أبرهة وجيشه فقال عبد المطلب وهو آخذٌ بحلقة باب الكعبة:

إلٰهي لا أرجو لهم سواكا ... يا ربّ فامنع عن حماكا
إن عدوّ البيت من عداكا ... فامنعهم أن يخربوا قراكا

غيـــره

لا هُمَّ إنّ المرء يمنـــ ... ـــع حلّه فامنع حلالك
لا يغلبنَّ صليبهم ... ومحالهم أبدًا محالك
إن كنت تاركهم وكعـ ... ـبتنا فأمر ما بدا لك
فلئن فعلت فإنّه ... أمرٌ يتمّ به فعالك
اسمع بأرجَس ما أرا ... دوا العدو وانتهكوا حلالك
جرّوا جميع بلادهم ... والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم ... جهلًا وما رقبوا جلالك

ثم انطلق عبد المطلب[1] ومن معه إلى الجبال ينظرون ما يفعل أبرهة فلمّا أصبحوا تهيّأ أبرهة لدخول مكّة وعبّأ جيشه وهيّأ فيله وكان اسم الفيل محمود وأبرهة عازم على هدم البيت ويرجع إلى اليمن، فلمّا وجّهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب الخثعمي

(١) عبد المطلب: واسمه شيبة الحمد لكثرة حمد الناس له أي إنه كان مفزع قريش في النوائب، وقيل لأنه ولد في رأسه شيبة، علي بن برهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤ هـ) السيرة الحلبية، المكتبة الإسلامية، لبنان، بيروت، دون تأريخ.

حتى قام جنب الفيل ثم أخذ بذنب محمود وقال له ارجع راشدًا من حيث جئت فإنه بلد الله الحرام فبرك الفيل وخرج نفيل وصعد الجبل هاربًا فضربوا الفيل ليقوم فأبى فنخسوه بالمحاجن ليقوم فأبى فوجّهوه راجعًا إلى اليمن فخرج عدوًا فوجهوه إلى مكّة فبرك ووجّهوه إلى الشام فخرج عدوًا فتحيّروا من أمره، وأرسل الله تعالى عليهم الطير الأبابيل وكانت طيرًا خرجت من ناحية البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر ثلاثة أحجار حجر في منقاره وحجرين في رجليه أمثال الحمص والعدس فرمتهم بها فلا يصيب أحدًا إلّا هلك وخرجت الحبشة هاربين يبتدرون الطريق الذين جاؤوا منه ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلّهم فلم يجدوه فتساقطوا بكلّ طريق ومسلكٍ وأصيب أبرهة في جسده بداء حتى سقطت أنامله كلّما سقطت أنملة أتبعتها مدة من قَيْح حتى قدموا صنعاء فمات حتى انصدع صدره عن قلبه وملك بعده يكسوم بن أبرهة وكان يكنّى أبرهة أبا يكسوم ولما ردّ الله تعالى الحبشة عن مكّة ونالهم من النعمة عظّمت العرب قريشًا وقالوا إن الله تعالى دفع عنهم وكفاهم عدوّهم وقالوا فيه أشعار وذكروا حسن صنيع الله تعالى بهم وذكروا الأشرم والفيل وما كان من ذلك وقد ذكر هذه القصة من وجه آخر وهو ما رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال كان بدء أمر الفيل أن فتى من قريش خرج في أصحاب له متوجّهين نحو الحبشة فلما نزلوا شطّ البحر إذا هم بمصلّى كان للنصارى هنالك يدعونه ماسرجسان فلما أرادوا الرحيل جمع الفتى حطبًا وألهب نارًا وارتحلوا وقد هبّت الريح ودبّت إلى مصلّى النصارى وأحرقته وبلغ النجاشي أن رهطًا من قريش خرجوا إلى ماسرجسان وأحرقوه فغضب النجاشي وأتاه أبو يكسوم أبرهة بن الصباح وحجر بن شرحبيل الكندي وغيرهما فقالوا له: أيّها الملك نحن ضامنون لك بناء ماسرجسان وإحراق الكعبة ونحن نسير بك فنحرقها ونخرب مكة وتختار أي نساء مكّة ما شئت لنفسك فاستخفوه حتى سار بجنوده حتى نزل بوادي ذي المجاز وتهيّؤوا للقتال وإنهم مرّوا بإبلٍ لعبد المطلب فأخذوها فانفلت راعيها إلى مكة وأهلها غافلون فنادى العبد وَاصباحاه فقيل له ما لك فقال برك النجاشي وسودانه بذي المجاز يعبرونكم وأخبر عبد المطّلب خبر إبله فركب عبد المطّلب فرسًا له وتقلّد قوسه ونبله حتى أتى العسكر فلقيه أبرهة وحجر فقالا له: ارجع إلى مكّة وخذ حذرك فإن القوم ربما أنفروا لهلاكك قال: وربّ الكعبة لا أرجع إلّا بإبلي أو أوخذ معها فلما أبى أتيا به إلى النجاشي وسألاه أن يردّ عليه إبله فقال: إنما هي له اليوم إلى أن يصبح قالا ردّها عليه أنت، فقال: مَن هو كالمستهزىء به فرجع عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر وأمرهم ليتفرقوا في الجبال فأصبح عبد المطلب مشرفًا على الجبل رافعًا يديه إلى الكعبة وهو يقول:

اللّهمّ إن المرء يمنـ ـع حلّه فامنع حلالك

إلى آخر الأبيات، فبينما هو يدعو إذا أبصروا (طيرًا)(١) في الهواء فلم يروا مثلها قال الشيخ هذه طيور غريبة ما هي تهامية ولا حجازية ولا نجديّة فمن أين هم؟ ورأوا طيرًا أسود مع طيور خضر المناقير أعناقهم طوال يتقدمها طائر منها حتى أتت العسكر فركبت ثم جاءت جفالة أخرى حتى خالطت الجفالة الأولى ثم جاءت جفالة ثالثة ورابعة حتى تواترت وكثرت واجتمعت، مع كلّ طائرٍ حجر فأرسلها عليهم فوقعت كلّ حجر في رأس صاحبها حتى بلغت جوفه فخمدوا في مواضعهم بأسرع من لمح البصر فقتلوا وقتلت دوابهم معهم فصاروا كما قال الله تعالى: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفِيل: الآية ٥] ورجعت الطير عائدة من حيث جاءت، فلمّا أبطأ على عبد المطلب مجيء القوم ركب ينظر ما خبرهم فرآهم قد ماتوا بأجمعهم فاحتمل ما شاء من صفراء وبيضاء ثم أذّن لأهل مكّة بهلاكهم فخرجوا وأخذوا ما شاؤوا وكذلك أخذت القبائل التي حول الحرم منها ما شاءت فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفِيل: الآية ١] قال ابن عبّاس رأيت عند أُمّ هاني بنت أبي طالب من تلك الحجارة نحوًا من قفيزٍ مثل بعر الغنم فخطّطت بحمرة كأنّها خزع(٢) خلقان، وكان العسكر جاؤوا في عشيّة ونزلوا بالمغمس وجاء الطير مساءً فباتت هنالك ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم بالحجارة وكان أمر الفيل قبل مولد النبي ﷺ بثلاث سنين ويروى أنه ﷺ ولد عام الفيل والله تعالى أعلم، قال: هذه الرواية من رواية الأولى أشهر وأجمل وقد كتبناهما وفي هذه القصة دلالة على حقيقة إسلامهم لأنّ فيها تعظيم الحرم والبيت وهما من شعائر الإسلام قال: قد كتبنا من قصص القرآن ما كان من لدن بدوّ الخلق إلى وقت نبينّا محمد ﷺ وعلى موجز من القول إذ الإبلاغ فيها لا يحتمل كتابنا هذا ونحن الآن مبتدئون بما كان من أمر نبيّنا محمد ﷺ وقصصه وأخباره مما نطق به القرآن فإنه لا موضع لذكر جميع أخباره وأحواله فإنها تحتاج إلى مجلداتٍ كثيرة نسأل الله تعالى أن يوفقنا لكتابة ما نكتبه وينفعنا والمسلمين وهو وليّ التوفيق آمين.

تمّت الكتابة بعون الله تعالى وحُسْن توفيقه على يد أقل عباد الله تعالى وأحقرهم وأحوجهم إليه الفقير محمد ابن الحاج عمر ابن الحاج عبد الرحمٰن ابن الحاج محمد الأهل المقاديري الحسن كيفي غفر الله تعالى له ولمن يقرأ في هذا الكتاب ويدعو له وللقارىء والمستمعين ولكل المسلمين أجمعين وكان الفراغ يوم الأحد آخر شهر الله المبارك جمادى الأولى سنة ١١٨٥.

---

(١) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل: الآية ٣].

(٢) الخزع: الخرز اليماني الذي فيه بياض وسواد شبه العين: هكذا جاء شرحها في حاشية المخطوطة ورقة (٧٢٠).

فهرس المحتويات